

القصة وفن

إيليمك
دليلي كمدان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القطوف

صيد المقالات (الجزء الثاني)

للكاتبة/ د. ليلى حمدان

إصدارات يقظة



الإهداء ..

إلى تلك النفس التواقّة .. بشاشة قلب وجدُّ في طريق الله.

وأرى المؤمن كوناً ؛ تاهت الآفاق فيه

الفهرس

7	تقديم
8	دراسة: كيف كان اقتصاد المدينة تحت ظل حكم رسول الله ﷺ؟
38	استدراك الجيل واجب المرحلة
47	أهمية صناعة القادة
58	قراءة في الاستراتيجية
70	حي الشيخ جراح: "الاحتلال كُله رجسٌ من عمل الشيطان"
75	هبة القدس ضد الاعتداءات الصهيونية: دروس وخلاصات
83	السودان .. المستجير بالغرب حين كرتته كالمستجير من الرمضاء بالنار
91	المسلمون في الهند بين سندان الإبادة العرقية ومطرقة الخذلان
101	كشمير : كل ما يجب أن تعرفه كمسلم عن قضية الإقليم المنسي
107	لماذا لا يحزك العالم الإسلامي ساكناً ضد سياسات القمع ومحو الهوية للمسلمين في تركستان الشرقية؟ (ترجمة)
114	الروهينجا.. إبادة مع سبق الإصرار والترصد
119	المسلمون الروهينجا: الأقلية الأكثر اضطهاداً في العالم
124	إيران: معاناة أهل السنة تغوص جذورها في أعماق الزمن
129	إيران: معاناة أهل السنة، قراءة في حاضر إيران
135	الأكراد: بحث عن الخلاص في مسالك الغرب الفاسدة
141	القصة الكاملة لكل ما يجري في ليبيا ومكر المجتمع الدولي
148	ليبيا: مشهد معقد وتدخل أجنبي وآمال الثورة لم تتحقق بعد
157	التجربة الطالبنابية بين الأمل واليوم
190	مراجعة كتاب مستقبل الخوف .. دراسة في واقع الخوف ومستقبله
202	عبقرية صلاح الدين الأيوبي .. ما نحتاج إليه اليوم
211	جلال الدين خوارزم شاه آخر سلاطين الدولة الخوارزمية
236	تحضة دولة السلاجقة العظمى
263	تحضة السلاجقة العظمى: عوامل النهضة وأسباب السقوط
285	المؤسس عثمان بن أرطغرل وبزوغ دولة العثمانيين
302	ممالك النار: حقيقة دخول العثمانيين لمصر ونهاية عصر المماليك

- 318 الأخوان بربوسا: من البداية إلى استشهاد عروج
- 338 الأخوان بربوسا: خير الدين يحمل الراية ويؤدي الأمانة
- 353 كيف سقطت الخلافة العثمانية؟
- 363 الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية
- 371 تماماً كما يفعلون اليوم مع ثوراتنا: قصة اللطامات المتوالية
- 375 لماذا ننسى ونكرر ذات الخيانة والسذاجة؟
- 378 القدس لنا، والمطبوعون لا مقام لهم بيننا
- 382 نداء استغاثة من بيت المقدس
- 386 التأمر الصهيوني الأمريكي وصفقة القرن
- 389 اللاجئون بين سندان القهر ومطرقة الخذلان
- 393 ترويض الشعوب: تشخيص وتطبيق
- 399 أكثر من ثلث العرب يعيشون تحت خط الفقر وهم أغنى الناس! إلى متى؟!
- 405 الثروة المائية الوجه الآخر للصراع
- 412 قراءة في الحرب الاقتصادية بين الصين والولايات المتحدة
- 425 تطبيع عُمان يُخفي حقائق صادمة
- 434 كيف أصبحت تركيا أردوغان سبباً في سقوط حلب؟!
- 440 ماذا أفعل لنصرة المسلمين في حلب؟ إليك أبرز 10 وسائل
- 445 الفلوجة.. قصة لن تنتهي بالسقوط
- 452 بعيداً عن أخبار الفن والكرة... هذا ما يحدث في الفلوجة على أيدي الرفضة
- 456 سيناء حين تُطبق العزلة وتُحل ظلمة النسيان
- 462 توصيات مؤتمر هيرتسليبا: كيف تستخدم الحكومة المصرية تنظيم الدولة لصالحها؟
- 466 استشراف مستقبل سيناء على خلفية المطامع الإقليمية والتمرد السيناوي
- 475 ما سر تصاعد عمليات “الذئب المنفرد” مؤخراً في الغرب؟! (الجزء الأول)
- 482 ما سر تصاعد عمليات “الذئب المنفرد” مؤخراً في الغرب: دراسات وأبحاث
- 491 الإعلام الغربي .. بين النزاهة والعمالة
- 495 من هي عافية التي استنزفت جهد الإرهاب الأمريكي؟
- 499 صرخات السجينة 650 في سجن باغرام المروع، الذي لم يتحمل أهواله الرجال!
- 506 مترجم: كم من الوقت يمكن أن تستمر إسرائيل على قيد الحياة بدون أمريكا؟
- 512 مترجم: نهاية القومية، هل هناك بديل للدول؟

521مُترجم: نَهاية القومية: هل هناك بديلٌ للدول؟ (الجزء الثاني)
529الخاتمة

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدم مؤسسة يقظة الجزء الثاني من جمهرة لمقالات د. ليلي حمدان التي نُشرت سابقاً في مجلاتٍ مختلفة، منها تبيان ويقظة، ومنها البيان والبوصلة، حيث يتناول الجزء الثاني المقالات السياسية والتاريخية⁽¹⁾ وقضايا الصراع. نرجو أن يكون في تقديم هذه القطوف من صيد المقالات مساهمة في صناعة الوعي وميراثاً للأجيال المقبلة.

والله من وراء القصد.

يقظة

⁽¹⁾ تنبيه بشأن الكتابات التاريخية

لابد من التنبيه عند الحديث عن تناول التاريخ، إلى التفريق بين استخلاص الخلاصات التاريخية التي تصب في صالح الدراسات السياسية والعسكرية والاستفادة من التجارب والاستراتيجيات وأطوار الدول وتفصيل قيامها وسقوطها والسنن لانبعاث الأمة وبين القراءة العقيدية للمراحل التاريخية، والتزيكات، فهناك فرق كبير بين تقييم أداء قائد كرجل حرب وبين تقييم عقيدته. ثم في التاريخ نجد التجارب البشرية المهمة لصناعة الهمة والبطولة وإقامة الدول وتحقيق التفوق والخروج من الضعف، فنستلهم منها الكثير من الفوائد والخلاصات لجمع أسباب القوة ولنهم واقعنا ووضع الحلول لأزماتنا. أما في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فنجد أصول العقيدة الراسخة التي لا تقبل التبديل أو المجازفة، وهي مرجع قضايا العقيدة لا التاريخ. فالتاريخ المؤلف غير مقدس إنما للاعتبار والتدبر والاستفادة من تجارب البشر، بهذا الفهم نسير بخطى واثقة مستنيرة بنور من رحما لنقدم الأفضل. (د. ليلي حمدان)

دراسة: كيف كان اقتصاد المدينة تحت ظل حكم رسول الله ﷺ؟

قرر الإسلام أصول الاقتصاد منذ بداية التشريع الإسلامي، وقدمت حياة النبي ﷺ نموذجاً حياً عظيماً لهذا التشريع استمر قاعدة أساسية لمنظومة الاقتصاد الإسلامي في مختلف مراحل الدول الإسلامية المتعاقبة إلى أن تلاشى مع حقبة الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين.

وقد أولى الإسلام أهمية بالغة لتنظيم العلاقات الاقتصادية، نبصر هذه العناية تتكرر مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي لخصت الأصول الاقتصادية بشكل يتناسب مع كل زمان ومكان.

ونحاول من خلال هذا الطرح استقراء ملامح النظام الاقتصادي الإسلامي في العصر النبوي من خلال التوجيهات الربانية والممارسة الواقعية. وتحديد أهم المكونات الاقتصادية للمجتمع المسلم آنذاك، وتفاعلها وترابطها مع سائر المكونات الأخرى في المجتمع والدولة. ولنستعلم كيف بدأ الاقتصاد الإسلامي منظماً محكماً فكان له أثره في التنمية والازدهار والقوة.

جدير بالذكر وصف الباحثين لمهمة الاقتصاد في العهد النبوي على أنها مرحلة التكوين والإنشاء التي امتدت لعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، حيث كانت الأولوية لتحقيق العدالة الاجتماعية وتنمية الموارد.

تعريف الاقتصاد

الاقتصاد لغة: جاء في لسان العرب: "القصد استقامة الطريق، والقصد العدل، والقصد في الشيء خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة ألا يسرف ولا يقتير." ⁽¹⁾

أما الاقتصاد اصطلاحاً: فله عدة تعريفات نذكر منها: "أنه مجموعة الأصول العامة الاقتصادية التي نستخرجها من القرآن والسنة والبناء الاقتصادي الذي نقيمه على أساس تلك الأصول بحسب كل بيئة وكل عصر." ⁽¹⁾

(1) النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه ص 15.

وفي تعريف آخر؛ بـ “أنه الذي يوجه النشاط الاقتصادي وينظمه وفقاً لأصول الإسلام وسياسته الاقتصادية”⁽¹⁾ وتعريف ثالث له؛ “هو العلم بالأحكام الشرعية العملية عن أدلتها التفصيلية فيما ينظم كسب المال وإنفاقه وأوجه تنميته”⁽²⁾.

تاريخ الاقتصاد الإسلامي

خلص بعض الباحثين من خلال استقراء الوضع الاقتصادي أو القوة والنفوذ السياسي على المستوى الكلي للأمم الإسلامية وتطوره في كل عصر، إلى أن تاريخ الاقتصاد الإسلامي يمكن تقسيمه على سبع مراحل -تم بذل الجهد في تحديدها لكنها قابلة للتغيير والاجتهاد⁽³⁾- وهي:

1. مرحلة التكوين والإنشاء: وتبدأ من عهد النبوة وتنتهي بخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
2. مرحلة النمو والاستقرار: ويسمى بها بعض الباحثين مرحلة النضج، وتشمل العصر الأموي والعصر العباسي الأول وبدايات العصر العباسي الثاني.
3. مرحلة التدهور: ويسمى بها بعض الباحثين مرحلة الركود، استمرت ثلاثة قرون، وتشمل العصر العباسي الثاني ودول السلاطين.
4. مرحلة النمو الجزئي: وتبدأ من عصور المماليك حين تأسيس الدولة العثمانية.
5. مرحلة الفتوة: امتدت إلى ثلاثة قرون وتشمل بدايات الدولة العثمانية وحتى عصر السلطان محمد القانوني الأول (926 - 974هـ).
6. مرحلة الانهيار والتبعية للغرب: وهي مرحلة الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي).
7. مرحلة التبعية للاقتصاد الغربي: وهي المرحلة الحالية تحت وقع الهيمنة الغربية والاحتلال غير المباشر لبلاد المسلمين.

(1) الاقتصاد الإسلامي بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي ص 76.

(2) الاقتصاد الإسلامي (أسس ومبادئ وأهداف) للدكتور عبد الله بن عبد المحسن الطريقي، ص 18..

(3) مقدمة في تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره الدكتور فؤاد عبد الله العمر 1424هـ - 2003 م، البنك الإسلامي للتنمية / المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب.

المرحلة المكّية: رصيد الانطلاقة

خرج النبي ﷺ في هذه المرحلة برصيد كبير من الخبرة والدراية بالتجارة والاقتصاد بدأ منذ نشأته في مكة وسط قبيلة قريش التي اشتهرت بتكافلها وحسن إدارتها لمعاملاتها المالية. فكان هذا الرصيد لبنة أساسية في إرساء قواعد الاقتصاد في المدينة، أين تأسست أول دولة للإسلام في التاريخ.

ومن يتأمل حياة النبي ﷺ منذ طفولته يبصر ذلك الارتباط المباشر بمجالات الاقتصاد التي عرفتها مكة؛ من الرعي إلى التجارة، حيث عمل النبي ﷺ في مهنة الرعي منذ طفولته وانخرط في التجارة منذ كان شاباً، حتى اشتهر بلقب الصادق الأمين لصدقه وأمانته ﷺ في المعاملات والتعاملات.

وكانت تنطلق من مكة رحلات تجارية دورية، تعرف برحلات الشتاء والصيف حيث تخرج القوافل صيفاً إلى الشام وشتاءً إلى اليمن بتوقيت يتناسب مع الظروف الجوية، وكانت هذه الرحلات بمثابة خط تجاري حيوي يزوّد مكة بالبضائع والمداخيل المالية، وقد ثبت خروج النبي ﷺ في هذه القوافل وعمره لم يتجاوز الثانية عشرة، حين كان في كفالة عمه أبي طالب، وسافر إلى الشام في الرحلة التي يذكر منها قصة الراهب “بجيرا”.

وخرج مرة أخرى ﷺ في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد ﷺ التي استأمنته على أموالها لما ذاع من صيت أمانته وصدقه في هذا المجال. وشهدت السيدة خديجة على ذلك بنفسها حين رجع النبي ﷺ بتجارتهما وقد تضاعفت أرباحها بشكل لم يسبق له مثيل. وكان بعد إعجابها بسيد الخلق أجمعين، زواجها منه ﷺ.

وهكذا تنامت سمعة النبي ﷺ الطيبة في التجارة حتى كانت السبب في زواجه من خديجة ﷺ أشرف نساء العرب نسباً وجمالاً ومالاً ورجاحة عقل وفهم وحكمة، فاستحقت بذلك أن تكون من أكمل النساء وسيدة من سيدات نساء العالمين الأربع.

ومما يجب تسليط الضوء عليه في هذا المقام أن النبي ﷺ لم يعرف البطالة طيلة حياته، لقد نشأ في جد وعمل منذ صغره. فعمل في الرعي والتجارة واستمر حاله كذلك قبل البعثة، وكذلك بعد البعثة حيث عمل بنفسه ﷺ في بناء المساجد وحفر الخنادق وجمع الحطب وخدمة أهله ﷺ. فقدم درساً عظيماً لأهمية العمل في حياة المسلم وهو النبي الأعظم!

ثم إن المسلمين في الفترة المكية لم تكن لهم أي فرصة -تحت وطأة الاضطهاد والأذى- للتفكير في إقامة كيان اقتصادي ومع ذلك تمكنوا في تلك الفترة العسيرة من التعاون على توفير الحد الأدنى من التكافل الاجتماعي عن طريق التبرعات والبذل في سبيل الدعوة لله، ويذكر من ذلك دور أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شراء العبيد المسلمين ثم تحريرهم وإكرامهم ورعايتهم. وما كان هذا التخطيط النبيل ليخفى عن أعين كفار قريش فعمدوا لممارسة ضغوط اقتصادية على الصديق رضي الله عنه، وكذلك على السيدة خديجة رضي الله عنها وكل صاحب مال من الصحابة بذله في نصرة الإسلام في هذه الفترة. ومن مشاهد هذه الضغوط الحصار الذي أطبقه كفار قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن به، في شعب أبي طالب، الذي من بنوده ألا يشتري منهم ولا يبيع لهم.

وعلى الرغم من استقرار المهاجرين الصحابة في الحبشة بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يثبت أن شكلوا كياناً اقتصادياً نموذجياً لهم هناك.

وحين أمر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بالهجرة للمدينة، صادرت قريش أموالهم وأملاكهم. ووسط هذه الظروف الاقتصادية الفقيرة دخل المهاجرون إلى المدينة لتبدأ مرحلة بناء أول دولة للإسلام في التاريخ.

المرحلة المدنية وتأسيس الدولة

تجلت خبرات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم، التي خرجوا بها من العهد المكي -بوضوح- في العهد المدني حيث انعكست بالقدرة الفذة على تنظيم وإدارة الشؤون الاقتصادية والتجارية ومعالجة الأزمات التي تطرأ في هذا المجال.

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون للمدينة كيانها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المستقل؛ معتمداً صلى الله عليه وسلم على التشابك القائم بين مجموعة النظم في إقامة كيان الدولة وتحقيق هيتها الداخلية والخارجية⁽¹⁾.

وشهدت هذه المرحلة وضع النبي صلى الله عليه وسلم وثيقة ملزمة للأنصار والمهاجرين واليهود في المدينة، عرفت باسم “الصحيفة”، تضمنت عدة بنود تنظم العلاقات وتحدد الحقوق وتضمن فداء الأسرى وإعانة المثقلين بالديون، وتفصيل أخرى مهمة حين الحرب والسلم تعكس عبقرية النبي صلى الله عليه وسلم كقائد دولة.

(1) الاقتصاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم للدكتور عبد الحليم عويس.

أهمية دراسة الاقتصاد في العهد المدني

إن تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي في حياة النبي ﷺ أثناء تأسيس أول دولة في الإسلام موضوع قلّما يحظى بالاهتمام، مع أنه أساسي لفهم كيف أنشئت أول دولة إسلامية مستندة إلى معالم وأركان وخطط استراتيجية فذة. فضلاً عن كون دراسة الاقتصاد في عصر النبي ﷺ تقدم النموذج الإسلامي الأمثل للاقتداء، وحجر الأساس في بناء أي دولة إسلامية وفق شريعة الله، صالح للتطبيق في أي عصر وفي أي مكان.

كما تُبرز دراسة الاقتصاد الإسلامي خلال انطلاقته دوره الفعال في تقوية الدولة الإسلامية والمحافظة على استقرارها وازدهارها. وتظهر أهميته أكثر حين تكون هذه الدولة قد أقيمت في ظروف استثنائية وبواقع فقر البيئة والتواضع في النشاط الاقتصادي حيث كان رعايا هذه الدولة يقتصرون على أعمال الرعي والزراعة المحدودة والتجارة الضيقة الحدود، ليظهر في هذه الأثناء أثر قوة الوازع الديني الذي زرعه الإسلام بعد جاهلية مظلمة في نفوس الناس آنذاك، وتمكنه في قلوبهم، فلا غش ولا تدليس ولا غبن ولا احتكار⁽¹⁾، ليقدم لنا هذا التاريخ الماجد أهم أسرار نجاح الاقتصاد في عصر النبي ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم من بعده.

ثم حين بدأ الناس التوسع في المعاملات نشطت الدراسات الفقهية والاقتصادية لتواكب متطلبات كل عصر معتمدة على الأسس الاقتصادية التي قامت عليها الدولة في المدينة. وازدهرت بعد ذلك المؤلفات الإسلامية التي زخرت بالمسائل الاقتصادية مثل الزكاة والكفارات والعقود والنفقات والصدقات والمواريث والدييات. وتخصّصت في الخراج والأموال وأحكام السوق والبركة والحسبة، وغيره من مواضيع مهمة في هذا المجال .

وكان لذلك أثره في تأسيس الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ وازدهارها إلا أنه في زماننا ضعف الاجتهاد فتأثر نمو الدراسات الاقتصادية، وكان للاحتلال دوره الخبيث في إبعاد الدراسات الإسلامية عن مناهج التعليم وفي إبطال الأحكام الشرعية عن التطبيق حتى انحسر دورها اليوم على العبادات والأحوال الشخصية التي أضحت محل منازعة تهدده العلمانية الزاحفة لديار المسلمين، وأما الاقتصاد

(1) المرجع السابق.

فتحول لتقليد أعمى للنظريات والمشاريع الرأسمالية والاشتراكية. التي زادت من تأزيم واقع المسلمين الذي لن ينصلح إلا بتحكيم الإسلام في شتى جوانب الحياة.

خصائص النظام الاقتصادي في العصر المدني

نُفصل فيما يلي أبرز خصائص النظام الاقتصادي في العصر المدني والدولة الإسلامية الأولى بقيادة النبي محمد ﷺ.

مفهوم النظام الاقتصادي الإسلامي المتفرد

تقوم فكرة النظام الاقتصادي الإسلامي على أن الملك كله والمال كله لله سبحانه وتعالى، وليس للإنسان من الاستخلاف في هذا المال إلا ما يجنيه -بعمله وسعيه- من صالح الأعمال المادية والمعنوية الدنيوية والأخروية. ويقع على عاتقه رعاية الفقراء والمحتاجين لكونه مجرد وكيل لله في هذا الملك وهذا المال⁽¹⁾.

التكافل الاقتصادي والاجتماعي

أحد أبرز خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي في عصر النبي ﷺ، التكافل الاقتصادي والاجتماعي. قال الله تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: 9].

نرى ذلك في تركيز النبي ﷺ -في بداية هجرته إلى المدينة- على أهمية توزيع الدخل والثروة من خلال الإخاء ومشاركة الأملاك والأموال بين الأنصار والمهاجرين.

وبدأ النبي ﷺ عند تأسيس الدولة الإسلامية وإرساء أركانها بالإخاء بين الأنصار والمهاجرين ليضع بذلك اللبنة الأولى للتكافل الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع المدينة الناشئ، ثم بتحقيق العدالة الإسلامية في المجتمع المدني، تخلص المسلمون من نزعة الاحتقار أو الازدراء، وضموا أبناء البلاد

(1) الاقتصاد في حياة النبي محمد ﷺ للدكتور عبد الحليم عويس.

الوافدين إليهم فشاركوهم في أموالهم وثرواتهم، بينما قدم الوافدون الجدد بالمقابل خبراتهم وإخلاصهم وتفانيهم.

وبفرض الزكاة والصدقات وكفالة الأيتام في المجتمع الإسلامي أضحي التكافل الاقتصادي والاجتماعي سمة بارزة في المدينة.

ومما يجدر الإشارة إليه أن يثرب كانت مدينة صغيرة يعمل أهلها في الزراعة؛ بينما يهيمن على سوقها التجارية اليهود. وحين وصل المهاجرون وكانت أعدادهم كبيرة، لم يحملوا معهم رؤوس أموال تصلح لمنافسة اليهود، لكن هذه المؤاخاة التي ابتدأ بها النبي ﷺ صنعت أواصر أقوى وأمتن من أخوة النسب كانت منافعها كثيرة.

وآثر الأنصار المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فسارعوا لتقسيم أملاكهم معهم، فما كان من المهاجرين إلا الإكرام والإحسان.

وشملت المؤاخاة تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال: إنه لم يبق مهاجري إلا وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أنصاري.⁽¹⁾

وكفل الأنصار المهاجرين وأدخلوهم حتى في سلسلة التوارث، فكان إذا مات الأنصاري يرثه المهاجر، وإذا مات المهاجر يرثه الأنصاري، بالتآخي، واستمر هذا فترة من الزمن حتى نسخ ذلك بقول الله تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) [الأنفال: 75].

ومن النماذج الباهرة التي تستوجب الذكر في هذا المقام؛ المؤاخاة بين عبد الرحمن بن عوف المهاجر وسعد بن الربيع الأنصاري، حيث بلغ الإيثار بسعد بن الربيع أن قال لعبد الرحمن بن عوف: "إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها، فتزوجها"⁽²⁾ وذلك قبل فرض الحجاب.

(1) محاضرة بعنوان "المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار" للشيخ محمد صالح المنجد.

(2) [رواه البخاري: 3780]

فماذا كان من عبد الرحمن بن عوف أمام هذا العرض المغربي السخي؟ لقد كان الرد تاريخياً عفيفاً فقال ﷺ: “بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فما رجع حتى استفضل أقطاً وسمناً”⁽¹⁾.

وقدّم المهاجر عبد الرحمن بن عوف ﷺ درساً للأجيال في كيف يكسب الرجل قوته في الديار البعيدة، وكان يحسن التجارة، فباع واشترى، ورجع بفائض من سمن وأقط. وتزوج عبد الرحمن، وكان المهر نواة من ذهب أصدقها لزوجته، ونمت ثروته بعد ذلك ليصبح من كبار أغنياء المسلمين.

وهذه صورة من أرقى الصور لطبيعة العلاقة الاقتصادية والاجتماعية بين المهاجرين والأنصار آنذاك. لقد كان هذا الإخاء أحد أعمدة الحضارة الإسلامية الرائعة.

ولا تنفك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحث على الأعمال الخيرية والتطوعية والإحسان وكفالة الأيتام وتفريج الكربات والمسابقة بالخيرات، ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

وبهذا الرقي، قام اقتصاد الدولة الإسلامية الأولى.

وقفه مع بناء المسجد النبوي

سأل الرسول أسعد بن زُرارة ﷺ، أن يبيعه أرضاً متصلة بالمسجد الذي كان أسعد قد بناه لنفسه، فعرض عليه أسعد أن يأخذها الرسول هبة منه، لكنه رفض ﷺ؛ ليقيم الموازين الإسلامية في التعامل مع بداية إنشاء الدولة، فدفع ثمنها عشرة دنانير أداها من مال أبي بكر الصديق ﷺ. وشارك ﷺ بنفسه الشريفة في بنائه وبهذا وضع ﷺ القاعدة الدينية والأساسية في بناء دولة المدينة؛ حيث إن المسجد آنذاك كان مركز القيادة لتعدد وظائفه.

مشروعية المال في الإسلام

لم يكتف النبي ﷺ بالحض على الإحسان والتكافل بل طهر رؤوس الأموال والتجارة، ولم يقبل إلا الحلال الطيب، فحرم المتاجرة بما حرمه الإسلام، كبيع الخمر والخنزير.

كما نهى ﷺ عن الاحتكار فقال: “لا يحتكر إلا خاطئ” ونهى عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها مخافة أن يقع ظلم على المشتري.

(1) [رواه البخاري: 2049].

وحيث نتحدث عن مشروعية المال وحله فهي تعني أن مصدره حلالٌ وإنفاقه حلالٌ، في الوجوه المشروعة. وعلى هذا الأساس قام الاقتصاد في المدينة.

والحلال لا يقبل الغش والخداع، روى النسائي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: “ويل للمطففين”، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقد كان النبي ﷺ يخرج بنفسه في الأسواق ويقرأ هذه الآية أمام التجار ومعاملات البيع والشراء.

ومما يعكسه هذا الالتزام بالحلال من مفاهيم سامقة، أن الاقتصاد والتجارة وإدارة الأموال على ما تحمله من مكانة تنظيمية في الإسلام تبقى وسيلة لا غاية في حياة المسلم ولا تعتبر مقياساً منفرداً لتزكيتة وتفضيله. وبهذا المعنى جاء الهدي النبوي في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: “ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس.”

وعلى عكس ما شاع بين الناس في الجاهلية أن الإفلاس خسارة المال، روى النبي ﷺ المسلمين على معنى أعمق وأجل للإفلاس، حيث قال ﷺ في الحديث في صحيح مسلم: “أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار.”

تحديد وظيفة المال في الإسلام وحقوقه

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً) [الكهف: 46] في العهد المدني حرص الرسول ﷺ على تحديد وظيفة المال في الإسلام والتي تركز على دوره في عملية التنمية الاقتصادية وتحقيق العدالة الاجتماعية وتحسين مستويات المجتمع الإسلامي وصرفه في خدمة العباد ومصالحهم. وحذر النبي ﷺ من أن المسلم سيسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، كما حث على اكتسابه بالطرق المحمودة كالعامل أو الأعمى أو الزكاة، ونهى عن اكتسابه بالطرق غير المشروعة كالظلم والغصب والربا والاحتكار.

وجعل الإسلام قواعد لحفظ حقوق العباد وحفظ المال من الفساد، فحرم الربا بجميع أنواعه وحرم الاكتناز وفرض الزكاة، ولحماية المال فرض العقوبات على من يتعدى عليها، كحد السرقة والحرابة. كما أعطى الإسلام لصاحب المال الحق في الدفاع عن ماله من أي اعتداء، واعتبره شهيداً إن قتل في حالة الدفاع تلك. “مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ” الحديث.

إقامة الأسواق الخاصة في المدينة وتنظيمها

اعتنى النبي ﷺ بتنمية الأسواق الجديدة في المدينة، مستقلة عن اليهود؛ ليوكب التوسع التجاري وإقبال الناس عليها. وكانت البداية بتحديد المكان المناسب لإقامتها، وتميز الموقع بمواءمته لحركة التجارة والقوافل. ثم استقرت هذه الأسواق وازدهرت بتقييدها بأحكام البيع والشراء وفق هدي الإسلام بلا تطفيف ولا غش ولا احتكار، وكان لذلك بركاته الظاهرة .

يروى أن رسول الله ﷺ ذهب إلى سوق النَبِيطِ فنظَرَ إليه، فقال: “لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ”، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى سُوقٍ فَنظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: “لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ”، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَذَا السُّوقِ، فَطَافَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: “هَذَا سُوقُكُمْ فَلَا يُنْتَفَصَنَّ وَلَا يُضْرَبَنَّ عَلَيْهِ خَرَّاجٌ” (سنن ابن ماجه) .

ومن أسرار انتظام الأسواق في عصر النبي ﷺ وضعه ﷺ آداباً للسوق مرتبطة بالأجر الأخروي وفرضه رقابة ميدانية عن طريق نظام الحسبة.

كما كان النبي ﷺ يطوف بنفسه الشريفة في الأسواق يتفقد أوضاعها، ويوجه إلى ما فيه صلاحها. ومما روي عنه ﷺ أن الناس كانوا يتتبعون الطعام في أعلى السوق يبيعونه في مكانه. فنهاهم ﷺ أن يبيعوه مكانه حتى ينقلوه إلى أدناه، فعن نافع عن عبد الله ﷺ قال: “كنا نتلقى الركبان فنشتري منهم الطعام فنهانا النبي ﷺ أن نبيعه حتى يبلغ به سوق الطعام.”

وعين النبي ﷺ سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما على أسواق المدينة، وعين غيرها على الأسواق الأخرى ليقوموا بأمور إدارة السوق.

ولم يفرض ﷺ نظام رقابة على السوق فقط بل كان يعاقب من يتعاطى العقود الباطلة أو المعاملات الفاسدة. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: “رَأَيْتُ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ الطَّعَامَ مُجَازِفَةً، يُضْرَبُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَبِيعُوهُ حَتَّى يُؤْوُوهُ إِلَى رِحَالِهِمْ.” (البخاري).

وبالإضافة إلى تنظيم السوق اهتم النبي ﷺ بما يعزز الثقة في السوق ويزيد حجم التداول فيه مثل استخدام عقود البيع وتبيان الأنواع المتاحة منها، مع قطع الطريق على العقود الباطلة والتي يشوبها الغش أو الغبن.

ودعا ﷺ إلى توحيد الموازين والأطوال والأوزان وأن تكون معيارية ومنع العبث فيها أو التطفيف في الوزن والمكيال. وحدد النبي ﷺ الوزن للاستخدام في الدنانير والدرهم وأمر باستخدام وزن أهل مكة. وحرص ﷺ على العدالة في معايير التبادل التجاري، وقال ﷺ: “كيلوا طعامكم يبارك لكم” (البخاري).

ونهى النبي ﷺ عن الحلف على السلعة، كما حث على الأخلاق الحميدة في السوق وأداء الأمانة فقال ﷺ: “أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك”. (صحيح الجامع الصغير). وجعل المحافظة على أموال الناس من الإيمان؛ قال ﷺ: “المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم” (صحيح الجامع الصغير).

وحث ﷺ أيضاً على السماح في البيع والشراء والتجاوز عن المعسر، والتقليل من دور الوسيط في المعاملات التجارية، وعدم استغلال حاجات الناس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر في السوق على صرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بلالاً فقال: “ما هذا يا صاحب الطعام؟” قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: “ألا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا ليس منا” (رواه مسلم).

وهكذا كان النبي ﷺ يربي الناس من حوله على الصدق والأمانة التي هي أساس ازدهار الأسواق. ويظهر أن النبي ﷺ حرص على أن يكون السوق هو المكان لتبادل البضائع والخدمات، على ألا تكون هناك أفضلية لأحد على أحد في الحصول على المعلومات وإنما كافة المعلومات عن البضاعة أو الخدمات لا بد أن تكون واضحة، ومتوفر لجميع المتعاملين.

وجعل مدار التعاملات حول “لا ضرر ولا ضرار”. فلا غش ولا خداع ولا تحايل ولا يبيع أحد على بيع أخيه.

وفي الواقع فقد كانت الأسواق في المدينة كأداة لتنمية التبادل التجاري، من خلال حسن اختيار مواقعها وطبيعة البضائع المتبادلة وتقليل الحواجز لدخولها فضلاً عن تمتعها بنظام الإدارة والرقابة والإصلاح.

كتابة الديون

ومع ازدهار حركة التجارة والاقتصاد في المدينة قام النبي ﷺ بتنظيم المعاملات التجارية والمالية، بكتابة الديون في صكوك لحفظ الحقوق وتوثيقها. مما قدم تنظيمًا إداريًا وأمنيًا يمنع الاحتيال والتلاعب ويسهل المتابعة.

كما نظم الدين وفق أصول الإسلام كما في الآية (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 280] ففضى عادات الدين الجاهلية، وألغى سياسة أن يستولي صاحب الدين حين يتعذر دفعه على أحد عبيد أو أبناء الدائن، إلى أن يقضي دينه. كما بيّن فضل من يسارع لدفع ديونه ولا يماطل فيها عند استطاعته الدفع، فقال ﷺ: “من خيار الناس أحسنهم قضاءً”، وقال ﷺ: “مطيل الغير ظلم” أي عدم تسديد الدين مع القدرة ظلم (البخاري).

ونظم ﷺ عمليات تقاضي الديون وإجراءات الإفلاس لأهميتها في التعامل التجاري ودعمًا للثقة في السوق، قال ﷺ: “أما رجل باع سلعة فأدرك سلعته بعينها عند رجل وقد أفلس، ولم يكن قبض ثمنها شيئاً فهي له، وإن كان قبض من ثمنها شيئاً فهي أسوة الغرماء”. (صحيح الجامع الصغير).

ومما يسجله التاريخ بفخر في سيرة النبي ﷺ أنه لما فتح الله عليه الفتوح قال ﷺ: “أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه” (رواه البخاري ومسلم). وفي رواية “فمن ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي.”

تحريم الربا والقضاء على عادات الجاهلية

من أبرز خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي أنه قضى على فساد الجاهلية وعلى سياسات اليهود الجائرة التي امتصت ثروات المجتمعات، فحرم الربا بكل أنواعها وعلى الجميع فلم يستثن أحداً، وقال ﷺ في حجة الوداع: “ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.”

مصدقا لقول الله تعالى (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۗ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۗ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: 275].

وطهر الأسواق من كل عادات الجاهلية كالتطيف والخداع وبيع السرقات وغيره من أشكال الفساد الجاهلي.

الأخلاق الإسلامية الراقية

كان للأخلاق الإسلامية حضورها المصيري في النظام الاقتصادي للدولة الإسلامية في المدينة، فلا يزال القرآن والحديث يحثان التجار على الاستقامة والصدق والأمانة، ثم التسامح الذي تسير به عجلة الحياة ببسر، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: “رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى.”⁽¹⁾

قال ابن بطال: “فيه الحزُّ على السَّمَاخَةِ، وحسن المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والرقعة في البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه؛ لأن النبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم، في الدنيا والآخرة.”⁽²⁾

وحديث صحيح مسلم: “الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا.” وحديث: “من غشَّنَا فليس منا.” من بين العديد من الأحاديث التي

(1) [رواه البخاري: 2076].

(2) (شرح صحيح البخاري) (210/6).

ترسخ مفهوم الأخلاق في التعاملات والنظام الاقتصادي والتي كانت لاحقاً سبباً في نشر الإسلام في زوايا الأرض عن طريق التجار المسلمين لصدقهم وأمانتهم وحسن خلقهم.

تفعيل الحسبة

ومن خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي تفعيل الحسبة التي تحفظ الحقوق وتبقي عين الرقابة على الأسواق، لرد المظالم وتقويم سلوك الباعة والزبائن.

التشجيع على العمل وترك البطالة

قال الله تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [الملك: 15] وقال سبحانه: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) [الجمعة: 10]. وقال سبحانه: (وَأَلْنَا لَهُ الْحُدَيْدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [سبأ: 10-11].

فهذه الآيات وغيرها من آيات القرآن الكريم تحث على العمل والجد في الحياة وكذلك جاءت الأحاديث بنفس المعنى، قال رسول الله ﷺ: “ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده” (1).

وقال ﷺ: “لأنَّ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حَزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعَهُ” (2).

والحديث: “لا يَغْرَسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ” (3).

وقوله ﷺ: “إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليفعل” (4).

ومن يتدبر الأحاديث في هذا الباب -باب العمل والإنتاجية وإتقان الحرفية- يدرك أن الإسلام اعتنى أيما اعتناء بالعمل الذي هو قلب الحياة، في الدولة الإسلامية. وهو محرك الاقتصاد في أي دولة.

(1) (أخرجه البخاري [2072]).

(2) (أخرجه البخاري [2074، 2374]).

(3) (أخرجه مسلم [1552]).

(4) (أخرجه أحمد [12981]، والبخاري في الأدب المفرد [479]).

إحياء الأرض الزراعية والإقطاع

عند وصول المهاجرين إلى المدينة لم يقف الأمر عند المؤاخاة، ولا مشاعر الحب والإيثار وتقسيم الأموال والأراضي والمساكن، بل قابله تعفف المهاجرين وسعيهم بنشاط في شتى نواحي العمل ومناشط الحياة مع إخوانهم الأنصار. ويذكر من ذلك أهل الصفة؛ وهم قوم هاجروا إلى المدينة وكانوا فقراء، فأمرهم الرسول ﷺ بالبقاء قرب المسجد يتعلمون منه ويكتبون له ويعث منهم البعوث، أي أنهم متفرغون لأعمال الدولة.⁽¹⁾ وكانت تصلهم أرزاقهم عن طريق التبرعات.

وكان الأنصار يعملون في المزارع، وكما في الحديث الذي رواه البخاري: “قالت الأنصار للنبي ﷺ: أفسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقال: تكفونا المنوة وتشرركم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.”

وقد بدأت عملية مزارعة كبرى في المدينة أعقبها حركة إحياء للأرض الزراعية المهملة. وفقاً للقاعدة الشرعية التي وضعها الرسول ﷺ في الحديث الصحيح “من أحيا أرضاً مواتاً فهي له”. فكانت هذه القاعدة من أروع قواعد النظام الاقتصادي، التي تجمع بين تحريض الإنسان على العمل ومكافأته بالأرض التي يملكها استحقاقاً، فجمعت بين صناعة الإنسان وصناعة الاقتصاد.

ويجدر الإشارة إلى أنه بعد فتح خيبر خصص النبي ﷺ نصف أرضها للنواب؛ أي لمن ينوب من مصالح وحاجات عامة المسلمين. منها أرض فدك ونصف أرض خيبر، كان خراجها يأتي النبي ﷺ كل عام، فيصرفه في نفقات المسلمين وما تبقى في الكراع والسلاح ومصالح المدينة.

ومن الأودية التي اشتهرت بانتشار الزراعة فيها في عصر النبي ﷺ وادي العقيق الذي هو أهم أودية المدينة وفيه أموال أهل المدينة ومزارعهم، وكذلك في الطائف الكثير من الأودية أهمها وادي وج غرب الطائف وفيه الكثير من المزارع والبساتين وترفده بعض الأودية الأخرى، وغيره.

لقد عرفت المدينة نخضة زراعية على يد المهاجرين والأنصار والوافدين الذين أسلموا والتحقوا بالمدينة من الشام ومصر والعراق وغيره. وانضم الموالي لهذا النظام بترحيب كبير، ويرجع ذلك لحسن معاملة الإسلام لهم.

(1) دور السياسات المالية وضوابطها في إطار الاقتصاد الإسلامي لمنذر قحف.

وفيما يتعلق بالأرض ومعادنها أو زراعتها، قام الرسول ﷺ بتوزيع الأرض المتروكة في المدينة على الصحابة، فأقطع ﷺ بلال بن الحارث معادنَ بناحية الفروع؛ أي: أرضاً فيها معادن.

وأقطع النبي ﷺ علي بن أبي طالب عيوناً بينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها وعمل فيها علي رضي الله عنه. وعن جعفر بن محمد أن رسول الله ﷺ أقطع علياً رضي الله عنه أربع أرضين: الفقيرين، وبئر قيس، والشجرة. وأقطع ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه أرضاً بالمدينة استثمرها في الزراعة.

تنظيم الري

بعد الإخاء بين المهاجرين والأنصار وإقطاع الأراضي، قام الرسول ﷺ بتنظيم التعامل مع الماء والزرع بما يكفل أقصى فعالية، وعندما قال له بنو حارثة من الأنصار: “يا رسول الله، ها هنا مسارح إبلنا، ومرعى غنمين، ومخرج نساتنا -يعنون: موضع السقاية- قال لهم الرسول: مَنْ قطع شجرة، فليغرس مكانها، فغرسنا الغابة.”

وقد قضى رسول الله ﷺ في وادي مهزور أن يُحبس الماء في الأرض إلى الكعبين ثم يُرسل إلى الأخرى، لا يمنع الأعلى الأسفل (وهي عملية داخلية في باب تنظيم المياه بالنسبة للزراعة)، ووردت أحاديث أخرى في هذا الباب، وتنظيم المياه والأرض والأسواق، وتشجيع الزراعات والمهن والحرف، تحقّق لدولة النبي ﷺ كيان اقتصادي قادر على مواجهة اليهود الذين تعودوا على احتكار عصب الاقتصاد في الداخل، بل قادر على مواجهة الكيانات الاقتصادية الخارجية - خارج المدينة.

مجتمع مساواة لا ظلم فيه

قام النظام الاقتصادي الإسلامي في المدينة على مبدأ المساواة، فعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: “ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم”. (صححه الألباني).

فقدم النظام الاقتصادي الإسلامي نموذجاً رائعاً عن مجتمع السواسية، وقد استخلص الاقتصاديون المعاصرون بعض القواعد الاقتصادية النظرية التي يستند إليها هذا النظام على أنها تتلخص في المبادئ التالية:

- أولاً: نظرية دورة الإنفاق الخيرة، وهي تطبق في أوقات الرخاء والكساد معاً (فلا جمود ولا توقف ولا اكتناز ولا احتكار ولا ربا).
- ثانياً: الحد من أرباح الوساطة وتحريم الربا والاستغلال بصفة عامة.
- ثالثاً: الملكية الخاصة وظيفة اجتماعية وليست حقاً مقدساً ولا يجوز أن تنفصل عن العمل لتصبح أداة لاستغلال عمل الغير.
- رابعاً: إقامة مجتمع السواسية والمقاسمة المقنعة والطوعية في الأموال والخبرات⁽¹⁾.

وبهذا الشكل أقام النبي ﷺ مجتمعاً إسلامياً، مؤمناً ملتزماً له نظامه الاقتصادي المرتبط بقواعد الإيمان والقائم على الاقتناع الداخلي الذي يصل حد الكفاية والزهد والاستعلاء، ويقدم أروع صور التكافل الاجتماعي القائم على الحب والإخاء والإيثار.⁽²⁾

بناء الإنسان بالتزامن مع بناء الاقتصاد

وتزامن مع هذا البناء الاقتصادي القائم على التكافل والتراحم، العمل على بناء الإنسان جسدياً كما بناه عقلياً وروحياً وفكرياً.

وللنبي أحاديث كثيرة تبني الإنسان، فجسدياً؛ تدعوه للبحث عن العلاجات للأمراض ليحفظ نفسه في حالة قوة، كما أمره بالرياضة كالرمي، وفضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف، وأوصى بالوقاية وعلم الصحابة بأن لكل داء دواء إلا الهرم؛ ليبحثوا عن أسباب العلاج عند المرض، قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجه رحمهما الله: "ما أنزل الله داء إلا أنزل به شفاء". وفي حديث آخر: "لكل داء دواء"؛ وفي حديث ثالث: "تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم". مما شكل دافعاً قوياً لتحصيل العلم في اختصاص الطب.

وروي عن رسول الله ﷺ العديد من الأحاديث في علم الصحة والوقاية وأيضاً في علم النفس والعناية بقلب الإنسان، فجمع ﷺ بين إصلاح الأجساد وإصلاح القلوب والنفوس، وحماتها من مختلف

(1) "الاقتصاد في حياة النبي محمد ﷺ" الدكتور عبد الحليم عويس.

(2) المصدر السابق.

الأمراض التي ترتبص بها؛ الجسدية منها والقلبية والنفسية، وجعلها قاعدة في مجتمع مسلم متماسك فقال ﷺ: “مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى”.

فالإنسان في المنظومة الإسلامية كل لا يتجزأ، والأمة المسلمة كذلك كل لا يتجزأ، كما وصفها النبي ﷺ بمثال يستند لهذا الإنسان نفسه كجزء من الأمة.

وكانت الحرف والمهن سائدة في عهد النبي ﷺ، كما ثبت في الحديث أن رجلاً من الأنصار يكنى أبا شعيب قال لغلام له قصاب وكذلك أن خياطاً دعا الرسول ﷺ إلى طعام صنعه. كما روى ذلك البخاري.

ولم يكتف النبي ﷺ بتشجيع المسلمين على العمل بل حضهم أيضاً على الإتقان. عن عائشة أم المؤمنين: أن النبي ﷺ قال: “إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه”. أخرجه أبو يعلى في مسنده.

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: “أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بير مبرور”، كما قرن العمل بالجهاد في قوله تعالى: (وَأَخْرُوجُوكَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَأَخْرُوجُوكَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [المزمل: 20].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان: 20]: “كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح نجاراً وإدريس خياطاً وإبراهيم ولسوط زارعين، وصالح تاجراً وداود زراداً (أي صانعاً) ويوسف وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة غنم”.

وهكذا صنع الإسلام الإنسان الصالح المنتج.

الانفتاح التجاري

شجع النبي ﷺ على أن يخرج أصحابه في الأرض سعياً نحو التجارة مما يساعد على التوسع التجاري. وقد حرص المسلمون في المعاملات التجارية على الصدق والأمانة وكذلك إعطاء صفة الأمان للتجار غير المسلمين. وعندما كان يرسل مندوباً عنه ليقوم آمنوا كان يلقنهم مفاهيم الإسلام وشرائعه في الاقتصاد والتجارة؛ ليعم المجتمعات المسلمة بركات الالتزام بالتوجيهات الربانية، وبرزت هذه الصفة أكثر في عصر الخلفاء.

الإنفاق والتنمية

بدأ رسول الله ﷺ في تنظيم العطاء من خلال إحصاء المسلمين، كما ورد أن النبي ﷺ أمر حذيفة بإحصاء الناس لتوزيع العطاء.

كما حث الإسلام على التنمية، قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [يونس: 14] وجعلها مرتبطة بالأجر الأخروي، وبما أن معظم التطور في الاقتصاد الإسلامي اعتمد أساساً على التطور الزراعي، والتبادل التجاري فقد ركزت التنمية على هذا الجانب، والجانب الزراعي كان له دور كبير في التطور الاقتصادي آنذاك.

ونلاحظ هذا الاهتمام بتنمية الأرض، من خلال أحاديث النبي ﷺ عن غرس الأشجار وزراعتها، حتى أن البخاري قد بوب عن فضل الزرع والغرس إذا أكل منه. وفيه حديث النبي ﷺ: “ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة.” (البخاري)، يقول في ذلك ابن حجر: “وفي الحديث فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض.”

ولم يذم النبي ﷺ ذلك إلا في حالة واحدة في الحديث: إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم⁽¹⁾.

ويظهر من خلاله كراهية الانشغال بالزراعة والحرق حين يغلب العدو ويأخذ الأرض .

(1) حديث صحيح من صحيح الجامع الصغير

وحين نتحدث عن الزراعة فترافقها تربية الحيوانات أيضاً. وأما الصناعة ففي قول الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ) [الحديد: 25] قال البيضاوي: “ما من صناعة إلا والحديد آلتها أي له دخل في آلتها”. لكنها كانت لا تزال ضعيفة في تلك الحقبة حيث اقتصر على البناء لحاجة المسلمين لمساكن لاستيعاب الأسر المهاجرة والخدمات وقد تولى النبي ﷺ يختار الأرض للبناء ويقدم مجموعة من التوجيهات التنظيمية في سبيل إتقان ذلك.

ويدخل في الصناعات، حفر الخنادق وصناعة الأسلحة كالرمح والسهم والأقواس والسيوف والخناجر، كما ازدهرت العديد من المهن في عهد النبي ﷺ كالصياغة (صناعة الحلبي) وكالنساج والخياط والنجار والقيين والحداد، ذكره البخاري في كتاب البيوع.

قال ﷺ: “خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح”، (حديث حسن صحيح في الجامع الصغير).

ولذلك كان النبي ﷺ يقدم الماهر في الحرفة لسد النقص ويسعى إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي خاصة في الصناعات الاستراتيجية كصناعة الأسلحة. وازدهرت بعد الفتوحات الصناعات بكافة اختصاصاتها مع الانفتاح على شعوب أخرى.

ترشيد السلوك الاقتصادي والعناية بالقيم الأخلاقية

بيّن الشارع أن الاضطراب في التوزيع الاقتصادي وتزايد حدة الفقر يأتي نتيجة الاختلال في الموازين الأخلاقية وفي سيادة النزعة الاستهلاكية، فحرص الإسلام على ترشيد السلوك الاقتصادي بالبعد عن الإسراف وعدم التوسع في المباح والاقتصاد في الأمور كلها وعدم إضاعة المال، قال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف: 31]. وقال سبحانه (إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) [الإسراء: 27].

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان: 67]. وقال تعالى (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [النساء: 5]. وقال سبحانه (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) [الحشر: 7].

تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية

تفرد النظام الاقتصادي الإسلامي عن غيره من الأنظمة بتقليل العبء الضريبي واقتصاره على الزكاة لمن أسلم والجزية على من بقي على دينه، وكان هذا من أهم أسباب اعتناق غير المسلمين الإسلام، وإقبالهم عليه، مقارنة مع العصور التي سبقت الإسلام حيث كانت الضرائب تثقل كاهل الطبقة العاملة، لدرجة أن الرعية كانت تدفع ثمانية أضعاف ما يدفعون في الإسلام. كما حرص الإسلام على توزيع الثروة والتقليل من الفوارق بين الناس، بتفعيل نظام الزكاة لمن يستحقها، وإلى توسيع دائرة الإحسان والتطوع؛ ليكون رافداً للزكاة ومكملاً لها، التزاماً بالتوجيه الرباني كما قال تعالى (وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [الشعراء: 183].

وقد نهى النبي ﷺ عن المكوس وقال ﷺ: “لا يدخل الجنة صاحب مكس”، وكان المكس منذ الجاهلية حيث يأخذ الملوك عشر أموال التجار. وقال ﷺ: “تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة وإمطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.”

فكانت منظومة بديعة متكاملة شاملة تحض على المسابقة بالخيرات والصدقات والإحسان وعدم ازدراء أي عمل صالح مهما صغر. ولذلك الإسلام مدرسة عظيمة في التطوع والعمل الخيري والإحسان، يتجلى في منهجه وفي تاريخ المسلمين الزاخر بالنماذج الرائعة من عطاء النفس المؤمنة وتفانيها في سبيل الله. ونماذج الصحابة في ذلك لا تعد ولا تحصى، لم تمنعهم مسؤولياتهم في الحياة من إيلاء الاهتمام الكامل بعمل التطوع والمسابقة بالخيرات، بالسر والعلن، ﷺ وأرضاهم.

ويجدر الإشارة إلى أن بذل المال في عهد النبي ﷺ كان في سبيل الله، سواء للتصدق على الفقراء وذوي الحاجات أو لبذله في الجهاد لإعلاء كلمة الله، لم تكن هناك حالة واحدة إلزامية أو تحت الضغط، بل كانت جميعها طوعاً عن طيب نفس وخاطر ومساواة.

حسن استثمار وتوزيع الموارد الاقتصادية

قال تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) [الأعراف: 10]. لقد حرص رسول الله ﷺ على الاهتمام بالموارد الاقتصادية من خلال رعاية عناصر الإنتاج. ومن ذلك مبدأ عدم تحميل الأرض أكثر مما ينبغي، وعدم جمع الزكاة والصدقات بأكثر من مقدارها، وجاء في الحديث، قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: “فإياك وكرائم أموالهم” (رواه مسلم).

وفي هذا الإطار جعل الإسلام بعض الموارد الاقتصادية ملكاً لعموم المسلمين يشتركون فيها حيث ورد في الأثر: “المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ”⁽¹⁾، وقال رسول الله ﷺ: “ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار”⁽²⁾. كما جعل الناس شركاء في كل ما ينبت من الأرض العامة من المعادن الجارية والجمادة.⁽³⁾

ونظم النبي ﷺ سقاية الماء عند مجاري الأمطار عندما اختلف الزبير مع رجل من الأنصار⁽⁴⁾، وجعل الماء إذا كان نابعاً من أرض مباحة فهو مشترك بين الناس وإن كان نابعاً من ملك رجل فعليه بذل فضله لمن يحتاج إليه.⁽⁵⁾ كما قال ﷺ: “ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء يمنعه ابن السبيل” (من حديث مسلم). كما نهى ﷺ عن بيع فضل الماء. حيث قال: “لا تمنعوا فضل الماء لا تمنعوا فضل الكلأ” (رواه مسلم).

وفي المقابل أجاز النبي ﷺ حماية الأرض للمنفعة العامة للمسلمين بتحريم عضاة المدينة وما حولها (أي تحريم نفع النبات التي ترعاه الماشية)، بالإضافة إلى نظام الحمى أي تخصيص أرض تحمي من الاستخدام من قبل أفراد المسلمين لاستخدامها في رعاية ماشية الصدقة.

(1) إسناده صحيح.

(2) البخاري ومسلم.

(3) (ابن تيمية (ب). 218/29 – 219).

(4) البخاري ومسلم.

(5) (ابن تيمية (ب) 220/29).

ويدخل في ذلك إقطاع الأراضي لمن يحميها، ويدخل في ذلك أيضاً الاهتمام بالإنتاج الزراعي والحيواني، وهي مهنة العرب آنذاك، وقد جعل ﷺ غرس النخل أحد الصدقات السبع، التي يجري أجرهن في قبر المؤمن.

ويدخل في ذلك إيتاء الأجير أجره، حرصاً على تشجيع العمل ورفعته قدره. قال ﷺ: “أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه” (حديث حسن من صحيح الجامع الصغير). كما نحى عن المماطلة في دفع أجره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: “ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً واستوفى منه ولم يوفه أجره” (البخاري).

وحين يُعطى كل ذي حق حقه، يأمن المجتمع ويزدهر وهو مفهوم العدالة.

تنظيم السياسة المالية والرقابة عليها

بعد الهجرة انتقل النبي ﷺ وصحابته الكرام من صفة المحكومين تحت سلطة قريش إلى حاكمين ثم متوسعين وناشرين للدعوة والحكم بعد الهجرة. وارتبطت السياسة المالية ارتباطاً وثيقاً بهذا الانتقال واتسعت دائرة الإنفاق.

وكان طبيعياً أن تتبلور الدولة الإسلامية الناشئة في شكلها التنظيمي وبشكل أخص في الجانب المالي. ومن أساسيات الاقتصاد الإسلامي تنظيم المال والرقابة على صرفه.

وقد تكفلت أحكام الشريعة الإسلامية بتنظيم القواعد والأسس لشؤون هذه الدولة في الناحية الاقتصادية كما في بقية النواحي، وحددت موارد الدولة واستخداماتها ومصارفها على وجه لم يسبقها فيه تشريع.

رافق هذا الاهتمام بالمال العام محاربة الفساد وشددت الأحاديث النبوية على أهمية الأمانة، وكان النبي ﷺ يذكر صحابته عند تحملهم أدنى مسؤولية، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بعثني النبي ﷺ ساعياً ثم قال: “انطلق أبا مسعود ولا ألفينك تجيء على ظهر بعير من إبل الصدقة قد غلثته” قلت: إلا لا أنطلق، قال: إذا لا أكرهك، (رواه أبو داود بسند صحيح).

كما كان ﷺ يحذر من يرسلهم لجمع الزكاة والصدقات من التجاوز والظلم، فعن سعد بن عباد، أن رسول الله ﷺ قال له: “قم على صدقة بني فلان، وانظر لا تأتي يوم القيامة ب بكر تحمله على عاتقك، أو على كاهلك له رغاء يوم القيامة” (صحيح لغيره).

وكانت المحاسبة للعمال متعارفا عليها في عهد المدينة، فعن هشام عن أبيه عن أبي حميد الساعدي قال: “استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللثبية فلما جاء حاسبه قال هذا مالكم وهذا هدية فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فليني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا يعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يده حتى رئي بياض إبطه يقول اللهم هل بلغت بصر عيني وسمع أذني” (البخاري).

وكان النبي ﷺ يستوفي الحساب على عمل العمال ويحاسبهم ولم يكن يبقى المال في بيت المال لأن النفقات كانت كبيرة، أكبر من الإيرادات.

لقد كان النبي ﷺ ينفق الزكاة والجزية وغيرها من الموارد المالية فور ما تصله لشدة الحاجة إليها وتعدد مصارفها، فعن عقبه بن الحارث رضي الله عنه قال: صلى بنا النبي ﷺ العصر فأسرع ثم دخل البيت فلم يلبث أن خرج فقلت أو قيل له، فقال: “كنت خلفت في البيت تبراً (فتات الذهب) من الصدقة فكرهت أن أبيتة (أي أتركه حتى يدخل عليه الليل) فقسمته” (البخاري).

وكان التنظيم الإداري لإيرادات الدولة سهلاً يتناسب مع صغر الدولة الإسلامية وقلة الموارد، فقد كان ﷺ يرسل السعاة بنفسه ويحاسبهم على ما قدموا بنفسه أيضاً.

ونظراً لقلة الموارد وشدة الحاجة فلم يكن هناك تدوين واضح لهذه الأموال وإنما تنفق حالما يتم استلامها وبالتالي لم تكن هناك حاجة إلى دواوين أو سجلات كما ذكر ذلك ابن تيمية⁽¹⁾.

(1) (ابن تيمية (ب) 277/28).

ومع ذلك جعل النبي ﷺ أمناً على بيت المال يتولون حفظه وإدارته كان من أحفظهم بلال بن رباح ومحمية بن جزء الزبيدي رضي الله عنهما.

وتميزت فترة العهد المدني بنزول آيات القرآن الكريم لتحديد مصادر تمويل نفقات الدولة الإسلامية وأبواب هذه النفقات، بينما يشرح الرسول ﷺ المقادير والتفاصيل التي لم ترد بالآيات الكريمة.

وكان الهدف الأساس في النظام المالي تغطية النواحي الاجتماعية ومتطلبات الدفاع عن الدولة الجديدة. وحين واجهت النبي ﷺ مشكلة العجز الحاصل في بيت مال المسلمين، لجأ لفكرة غير مسبقة وهي استعجال جزء من أحد موارد الدولة "الزكاة"، فاستعجل من عمه العباس زكاة سنتين.

لقد تميز النظام الاقتصادي في عصر النبي ﷺ بجوانب وممارسات ذات أثر بالغ في حسن الإدارة المالية بتحديد النبي ﷺ الموارد المالية للدولة والمصارف المحددة لها، بل وجعل أحياناً تحديد المصارف لكل مورد مالي. كما نظم بيت المال كحيز تحفظ فيه الأموال العامة، وشدد على حرمة المال العام وحدد دور الخليفة أو الأمير في الصرف منه.

وفيما يلي إيرادات الدولة الإسلامية:

أولاً- إيرادات الدولة:

وقد توزعت على أربعة موارد هي:

المورد الأول: الزكاة:

فرض الله الزكاة على المسلمين في السنة الثانية للهجرة، وبين مصارفها الشرعية، في قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [التوبة: 60]، وشرح النبي ﷺ تفاصيل الأموال التي تجب فيها الزكاة ومقدار النصاب والواجب فيه والشروط الواجب توفرها في المُرْكَبِ وفي المال نفسه. ويعتبر باب الزكاة أول تبويب في الإنفاق العام لتلبية حاجات الدولة والمجتمع الإسلامي.

المورد الثاني: الغنائم

وهو المورد المشار إليه في قوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) [الأنفال: 41].

وكانت الغنائم مرتبطة بنظام إدارة المال العام، الذي يمنع الرشوة والغلول، ويدعو إلى حسن اختيار الولاة لأمانتهم وصدقهم.

وازدادت إيرادات الدولة الإسلامية في آخر أيام النبي ﷺ، مع الغنائم ووصلت أرقاماً ضخمة مقارنة مع طبيعة الحياة في ذلك الوقت، حيث يذكر أن النبي ﷺ أعطى أربعة عشر شخصاً مائة من الإبل لكل منهم، من غنائم هوازن وحدها بعد معركة حنين.⁽¹⁾

المورد الثالث: الفبيء

وهو الراجع إلى المسلمين من مال الكفار بغير قتال وقد بينه الله تعالى في قوله (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الحشر: 6-7].

المورد الرابع (الناشيء): الجزية

وهو المورد المستوفى من غير المسلمين وفق قوله تعالى (فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) [التوبة: 29].

(1) سيرة ابن كثير.

المورد الخامس: الصدقات والأوقاف

وجدير بالذكر أن أغلب مصاريف الحاجات العامة وبناء المساجد وحفر الآبار وغيره من خدمات كان تمويلها عن طريق التبرعات ومنها تخصيص البساتين للنفع العام كما فعل طلحة في حائط بيرحاء .

ويذكر أن النبي ﷺ كان نصح عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يحبس رقبة أرض له في خير، ويجعل غلتها في سبيل الله، كما دعا عثمان ليشتري مريداً كان بجوار المسجد ويضمه للمسجد النبوي، وفقاً لله تعالى. وكذلك الحال مع بئر رومة التي جعلها سقاية للمسلمين.

المورد السادس: القروض

استقرض النبي ﷺ لأجل سد حاجة المصالح العامة، فقد اقترض أدرعاً من صفوان بن أمية عند الخروج إلى غزوة حنين، فقال له صفوان وكان مشركاً: أغضب يا مُجَّد؟ فقال ﷺ: بل عارية مضمونة⁽¹⁾.

واقترض ﷺ من أبي ربيعة أربعين ألف درهم وردّها من إيرادات بيت المال. كما استقرض زكاة العباس لستين كما أسلفنا.

ثانياً – ممتلكات الدولة:

امتلكت دولة النبي ﷺ بعض الموارد الاقتصادية ومنها: أرض البقيع التي حماها رسول الله ﷺ لرعي خيل المسلمين، خارج نطاق الملكية الخاصة. فضلاً عما يصل من خراج الأراضي المملوكة للدولة والتي كانت تُنفق في مصالح المسلمين وفي توفير السلاح والعتاد.

التنظيم الإداري لحفظ المال العام

تبلورت ملامح التنظيم الإداري لحفظ المال العام مع أول معركة للمسلمين حصلوا فيها على الغنائم، ألا وهي معركة بدر، حيث استعمل النبي ﷺ عبد الله بن كعب بن النجار على غنائم بدر قبل قسمتها، والفتى شقران على الأسرى ثم خصص رجلاً يقوم بتقسيم الغنائم، وكان محمية بن جزء ابن عبد يغوث، وأطلق عليه اسم "صاحب الغنائم"، وشكل هؤلاء الأفراد الثلاثة الجهاز الإداري المالي في

(1) جامع الأصول لابن الأثير ج 8، ص: 163. رواه أبو داود.

المدينة، الذي تطور بتوسع الإدارة المالية للدولة حيث ضم إليه الترتيب الإدارية لجمع الزكاة وحفظها وإنفاقها، وشمل ذلك أيضا تنظيم أداء العاملين في هذا الجهاز الإداري من حيث الدوام وتحديد المهام، والصفات التي يجب أن يتصف بها وانضباط لا يظلم معه أحداً. “وكانت هذه التنظيمات تتناسب مع أهداف الإسلام عامة، في تحقيق معنى العدالة وبناء مجتمع فاضل يقوم أساسه على الرحمة والحب والإخاء والتعاون.”

وشمل التنظيم الإداري المالي أيضا حفظ موارد الدولة التي كانت تصل على أشكال مختلفة فإما على شكل نقدي، من ذهب وفضة ودينار ودرهم أو على شكل عيني من ثمار ومزروعات وحيوانات، فكان لكل صنف مكاناً خاصاً لحفظه ويولى عليه مسئول عنه، يحفظه ويحصيه، قال الجهشيارى أن حنظلة بن الربيع كاتب رسول الله ﷺ كان مسؤولاً عن حفظ وتسجيل جميع ما يدخل من أموال في بيت المال، ثم يرفع تقريره إلى النبي ﷺ في مدة أقصاها 3 أيام، ويقوم ﷺ بتوزيعها فوراً على المستحقين للحاجة إليها، وكانت ترصد أسماء هؤلاء المستحقين قبل التوزيع.

أما الموارد العينية فكانت تحظى بعناية خاصة من الاهتمام والحفظ والتنمية، كي لا تفسد أو تهلك.

صفتان أساسيتان في الاقتصاد الإسلامي

تميّز المذهب الاقتصادي الإسلامي بصفتين أساسيتين: الواقعية والأخلاقية. فهو مذهب واقعي من حيث تلبية حاجات الناس ورعايتهم وعدم إرهابهم ومن حيث استهدافه لغايات واقعية يمكن تحقيقها.

كما أنه مذهب أخلاقي يستمد غاياته من أبعاد أخلاقية وليس مادية كما هي الحال في الرأسمالية أو مرتبطة بظروف قوة الإنتاج كما هي في الماركسية.

وفي الواقع فإن النظام الاقتصادي الإسلامي كان الأسبق في تقرير الأصول العامة والقواعد الكلية التي يبني عليها تقرير النظام الاقتصادي بتطبيقاته المختلفة. من العدالة وتحريم الربا والظلم والغبن الفاحش والغش، وقواعد الملكية والاستهلاك والإنتاج والتوزيع وغيرها، كلها نجدتها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، وفي كتب التفسير والحديث والفقهاء.

لقد واكب النظام الاقتصادي الإسلامي واقع المجتمع المسلم وتطور أحداثه، في الشدة والرخاء وفي الضيق والسعة.

ربط السلوك الاقتصادي بالعقيدة

ربط الإسلام السلوك الاقتصادي بالعقيدة، فربط الرزق بالإيمان والاستغفار وسلط الضوء على مفهوم البركة وحث على جلب الرزق بالضرب في الأرض وحذر من الحرمان الاقتصادي والمحن والأزمات كعقوبات لإهمال بعض الفرائض أو الواجبات.

من ذلك قوله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) [الأعراف: 130]. وقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [الأعراف: 96].

وفي الحديث، روى ابن عباس رضي الله عنهما: قال، قال رسول الله ﷺ: “خمس بخمس” قيل يا رسول الله ما خمس بخمس؟ قال: “ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر ولا طففوا المكيال إلا حبس عنهم النبات وأخذوا بالسنين”⁽¹⁾.

كما وظفت الشريعة المعالجة الاقتصادية مع الجرائم والمخالفات، فجعلت الدية للقتيل، والتعويض المادي للمتضرر في جسده أو أعضائه، وغيره من توجيهات تنظم علاقات الناس وتحفظ حقوقهم.

الخلاصة

لقد لعبت الدولة الأولى للإسلام دوراً حساماً في إنجاح السياسات الاقتصادية، وربط السلوك الاقتصادي بالعقيدة، وترشيد هذا السلوك والتركيز على دور القيم الأخلاقية في تنظيم قوى السوق، وتحديد دور الدولة في إدارة الاقتصاد وتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية من خلال الزكاة والإحسان، والمساابقة بالخيرات، وحسن استثمار الموارد الاقتصادية والإنتاج الزراعي والحيواني وتشجيع العمل

(1) رواه الطبراني في الكبير وسنده قريب من الحسن وله شواهد.

والإنتاجية وتعلم الحرفية والإتقان، وتحريم الربا والنهي عن الإسراف وكل ما يفسد المصالح الاقتصادية من محرم أو ظلم، واعتمدت على الحس الإيماني وحسن الإدارة والرقابة والإصلاح.

وبالمقارنة مع الاقتصاد الحديث، نجده يفتقد بشدة لربط السلوك الاقتصادي بالعقيدة والمخاور الأخلاقية. يقول مالك بن نبي، أن الرأسمالية أهملت العلاقة بين القيم الأخلاقية والقيم الاقتصادية، مما أدى إلى الانفصام بينهما.

ثم قدمت هذه المرحلة -العهد المديني- حجر الأساس في نمو الاقتصاد لاحقاً في عهد الخلفاء والدول الإسلامية المتعاقبة، الذي كان معلماً بارزاً في قوة المسلمين وتفوقهم.

لنخرج بخلاصة مؤلمة عند تحسس درجة الانفصام الحاد بين سمو التعاليم الإسلامية والتوجيهات الربانية لمنظومة اقتصادية متينة ناجحة متكاملة شاملة مرنة، كانت سر نجاح من سبق حين التزموها منظومة تحكم حياتهم، وبين واقع الأمة المرير اليوم.

وهو الواقع الذي لن نتخلص منه قبل العودة لما كان عليه المسلمون في أول دولة في المدينة، وما أعقبها من دول الخلفاء الراشدين، بالتمسك بالشريعة كمنظومة شاملة في الحياة. حكماً ومنهجاً. قال ﷺ: “تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا الحوض”⁽¹⁾.

ويبقى أهم تحدٍ أمام عودة الإسلام حاكماً لحياة المسلمين، قلة اهتمام هؤلاء المسلمين بتاريخهم بما فيه الاقتصادي وعبقريته، وذلك الانهزام النكد للفكرة الغربية في جميع نواحي الحياة .

مع التنبيه إلى حقيقة أن الاستقرار السياسي ونظام الحكم كان ولا يزال العامل الحاسم في تحديد مراحل تطور الاقتصاد الإسلامي، ولن نحلم باقتصاد متين ناجح قبل أن يحكم الإسلام حياتنا من جديد. لقد آن الأوان لعودة حكم الإسلام بعد حجم الفشل والأزمات والمظالم التي بات يعاني منها الاقتصاد العالمي.⁽²⁾

(1) صحيح الترغيب والترهيب للألباني.

(2) من المراجع في هذه الدراسة: كتاب الإدارة في عصر الرسول ﷺ لحافظ أحمد عجاج كرمي والإيرادات العامة للدولة في صدر الإسلام وتطبيقاتها المعاصرة (د. منذر قحف).

استدراك الجيل واجب المرحلة

من يتأمل طبيعة حياة من سبق، ممن فتح الأمصار وساد براية الإسلام، يدرك أن هناك أسراراً لصناعة الإنسان والسلطان، كانت سبباً في تألق الأجيال الماضية التي اعتنت بجميع تفاصيل التفوق فاستحقت شرف التمكين والريادة.

وكما قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الفروسية: “جمع الصحابة عليهم السلام إلى فروسية الخيل، فروسية الإيمان واليقين والتنافس في الشهادة وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته فلم تصمد أمامهم أمة من الأمم، ولم يجاربوا أمة إلا قهروها”.

لقد كانت حياتهم تنبض بريضة العقل والنفس والجسد، فلم يتمكن منهم عدو ولم يُخضعهم جيش ولم يهزمهم مكر ولا قوة، قد حصنوا ذواتهم بأنواع من الرياضة المتصلة المتكاملة، وصفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: “لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: رياضة الأبدان بالحركة والمشى، ورياضة النفوس بالأخلاق الحسنة، ورياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم”.

ومن يبحث في تفاصيل حياة الجيل المتفرد وما أعقبه من أجيال الفتوحات والانتصارات والأعجاد، يجد أن تكامل أنواع هذه الرياضات انعكس حسن قيادة وقوة في حياة المسلمين آنذاك. واستمر مع كل حقبة كان الإسلام فيها الحاكم.

فما من سيرة بطل من أبطال الإسلام إلا واحتلت الرياضة جزءاً مهماً من مشروع إعدادة للحياة كما كان شائعاً في مجتمعات المسلمين في مختلف العصور والأزمنة، وذلك منذ الطفولة إلى سن متقدمة. ولا عجب أن انعكس هذا الاهتمام على الأفراد، قوة في العقل والنفس والجسد كان لها ما كان من بركات حسن الإدارة وحسنات الإرادة. فرأينا القائد شاباً أو شيخاً، يحمل السيف منغمساً لا يعجزه عدو ولا أعداء، وسجل التاريخ انتصارات باهرة ومواقف قيادة رائعة، للقائد المسلم الشاب كما للقائد الشيخ! لكننا اليوم نشاهد التراجع في مقومات نخوض الأجيال بشكل تدريجي يدفع للقلق، خاصة مع توالي حملات التغريب الخبيثة التي تستهدف الأسرة والنشء.

الرياضة في الإسلام

أولى الإسلام عناية خاصة برياضة الجسد، نشاهدها في حياة المسلمين في صدر الإسلام، حيث جاء في الأثر عن مكحول أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أهل الشام أن: “علموا أبناءكم السباحة والرماية والفروسية (وفي لفظ ركوب الخيل)”، ذكر ذلك صاحب كتاب كنز العمال ونسبه إلى كتاب “القراب في فضائل الرمي”. وكذلك ذكره المناوي في “فيض القدير” ولم يحكم عليه واحد منهما بصحة أو ضعف.

أيضا ورد معناه في الأحاديث المرفوعة ما ذكره السيوطي في الجامع الصغير؛ في حديثين: بلفظ: “علموا أبناءكم السباحة والرماية”.

كما أن تعلم الرمي، ورد ذكره في حديث صحيح رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: “ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً”. وفي صحيح مسلم عن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: “وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي”.

وعلى غرار الرماية، ورد فضل الخيل فيما رواه البخاري ومسلم عن عروة البارقي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: “الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة”.

وكذلك تعلم السباحة فيما رواه الطبراني والنسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: “كل شيء ليس فيه ذكر الله فهو لهو ولعب إلا أربع: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشيه بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة.”

وفي ظل هذه الأجواء الملهممة تربي الجيل الأول، على الجد وروح المسابقة وكل ما يصنع الرجال الأقوياء.

أثر الإسلام على الرياضة

عرف العرب في الجاهلية أنواع الرياضة المختلفة واشتهروا بالمصارعة والفروسية والرماية وغيرها من ألعاب تنافسوا فيها وتفاخروا بها، إلا أنه كان يتخللها الكثير من الجور والظلم والاعتداء، فجاء الإسلام فنظمها وارتقى بها، وبدل أن تعمق الخلاف بين القبائل، جعلها ميدان بطولة واجتماع ومنافسة شريفة، وخلصها من كل شوائب الظلم وبراثن الجور، وأقامها على العدل والإنصاف، ومن يطلع على كتاب الفروسية لابن القيم سيشاهد كيف تحولت المسابقة على هذه الرياضات من محض فوضى إلى علم قائم بأركانه بفضل التنظيم وحسن الإدارة والتقويم الذي ضبط به الإسلام هذه الرياضات على مستوى أدق تفاصيلها.

وبالمقارنة، حين نشاهد شباب المسلمين اليوم، صغاراً وكباراً، نجد أن طبيعة الحياة الحديثة قد جرفتهم إلى الخمول والكسل والانتكالية والعجز والتسويق وضعف المهمة، بسبب ما قدمه التقدم التقني من تسهيلات وما سرّعه من أداء، فأورث الأجيال الاستعجال وقلة الصبر، وانعكس على نشاطهم اليومي وسلوكياتهم في التعاملات، وحتى على ردود أفعالهم في وقت السلم والأزمات، ولا تزال مستويات إنتاجيتهم أضعف من الحد الأدنى الذي تنتظره الأمة من أبنائها في قلب الاستضعاف.

ولا تقارن البتة، أجيال تربت على الرماية والسباحة والفروسية بأجيال تربت على ألعاب الفيديو والأفلام والأغاني التافهة! لذلك لا يمكن مطالبتها بشيء شبت على افتقاد أسباب تحصيله، إذ لا بد من تقديم حقوق الأجيال لصناعة الهمم الكفؤة قبل مطالبتها بأداء واجباته كههم كفؤة. وإلا فإن فاقد الشيء لا يعطيه!

ولا يزال الوسط الذي يتربى فيه النشء، هو الحضن الأول الذي تتفجر فيه العبقرية، وتُستوعب فيه مفاهيم الحياة المصرية، فكيف بمن يقبر هذه الهمم ويهمل هذه المفاهيم منذ البداية، فيصنع الفشل بدل النماذج الراقية لصناعة الإنسان وعلو المهمة والوعي السديد.

ثم حين يتربى الطفل على ألعاب الفيديو وأفلام هوليوود ويتعلق بأغاني المطربين الغربيين، وبأخبار الفسق والمجون من كل صنف ولون، ثم يسلم منصب قيادة وأمانة، لا تحدثني بعدها عن حصاد تربية

غريبة فاسدة في الأمة برمتها! وتستشري العدوى مع ضعف مناعة المجتمعات، لنصطدم بجاهلية فظيعة بشعة تحارب الإسلام في موطنه وبأيدي أبنائه! ومن هنا تتجلى خطورة إهمال الأجيال.

كيف نستدرك الجيل؟

لطالما لعبت الرياضة الدور الأساسي في بناء المجتمعات الحيّة، وما نحتاجه اليوم هو توجيه الشباب، الصغار والكبار منهم، إلى أنواع الرياضات المفيدة، وإلى تعزيز كل ما يقوي حسن الشجاعة والتقوى معا في قلوبهم. مع التنبيه إلى أنه لا يكفي فقط صناعة وعي يليق بالجيل بل لابد من سد ثغرات الضعف وإشباع حاجاتهم وشغفهم بما يصنع منهم أعمدة لأمتهم كل فرد منهم قدوة ومثالا حسنا للقوة والمثابرة.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مر بشاب ناسك قد أحنى قامته وطأ رأسه علامة الخشوع والتبتل فحمل عليه عمر وضربه وقال له: ”أرفع رأسك وأصلح قامتك لا تمت علينا ديننا أمتك الله“.

فالفهم الصحيح للإسلام كمنهج حياة ينعكس قوة وعزة يصحح الكثير من الأخطاء التي تعثرت بسببها هذه الأمة. ولا بد أن نستدرك هذه الأجيال التي أمامنا اليوم كونها من سيتحمل مسؤولية هذه الأمة غداً. وإعدادها مبكرا لحمل هذه الأمانة واجب المرحلة. وأضعف الإيمان ألا نكون سبباً في حرمانها أسباب الاستقامة والارتقاء.

وفي الواقع من يتأمل مشاكل الشباب اليوم وأزماتهم وتفشي الأمراض النفسية والعصبية بينهم، دون الحديث عن ملامح الانهيار الأخلاقي والتفاهة والسطحية، التي تزحف كل يوم إلى ديارنا، يدرك أن إخراجهم من دائرة التيه والعبث ومسؤولية عظيمة، وتعويدهم على الرياضة الهادفة أول خطوة في سبيل الجدّ وصناعة الوعي، ولو لم يكن في الرياضة إلا أنها تدفع الهم والغم عن القلب لكان ذلك كافيا في فضلها. فكيف إن كانت بركاتها تمتد إلى صقل الإنسان وإعداده لتحمل أعباء ما ينتظره من مسؤوليات.

منظومة متكاملة

وحيث نتحدث عن الرياضة فنحن نجمع بين رياضات متصلة، رياضة العقل ورياضة النفس ورياضة الجسد، فلا يكفي أن نعدّ الأجساد فقط بل يجب أن يمضي هذا المشروع بالتزامن مع ترسيخ العقيدة والأخلاق في ذات المسلم، منذ سنّ صغيرة. ليخرج لنا نموذج من الصبر والتقوى هو الأكثر تأثيراً وفعالية في حركة النهوض لهذه الأمة. وكما يجب أن يتعلم الصغار مفاهيم وقيم الإسلام ويتحلوا بأخلاقه ومبادئه ويتفاخروا بقصص أمجادهم وصنائعه في التاريخ والحاضر ويحملوا الوعي الكافي بما يجري في واقعهم، يجب أن يعيشوا بالتزامن، التجربة بأنفسهم كورثة لهذا الجمال والجلال لينتقلوا من مقاعد المتفرجين إلى مراتب صناع القرار لمصير أمتهم. وذلك مفهوم الانتقال من الهامش إلى الصميم. وهو تمام معنى قوة المسلم.

قال رسول الله ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"، وقال ﷺ: "واحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"، فديننا دين صناعة البطولة والقوة لا يليق بالشاب المسلم إلا أن يجعل من حياته مضمار مسابقة في سبيل الله لا يفتر. ويزداد هذا المطلب إلحاحاً مع اشتداد العداء للإسلام واستمرار الحرب على الأمة المسلمة.

فوائد تعلم الرياضة

لقد ثبت أثر الرياضة في صقل مهارات الإنسان وتقوم سلوكه وفهمه للحياة بل وإكسابه خصالاً مهمة لأفضل أداء وتعامل.

فالرماية وركوب الخيل والسباحة ومثيلاهما، رياضات تورث أصحابها الصبر والشجاعة واللياقة البدنية والقوة وسرعة الحركة والقدرة على التحكم في الجسم، وقوة التركيز والملاحظة، وتحيي روح المنافسة وسعة النظر والثقة بالنفس والسيطرة على العاطفة وتعزز القدرة على التوازن والمرونة وتضفي جمالا بشغل الشباب بنشاط جاد نافع ممتع في آن واحد.

هذا دون الحديث عن أثرها في تقوية مناعة الجسم وتحصينه ضد الأمراض البدنية والنفسية إضافة إلى أنها تغذي القدرة على الصبر، أهم ما نحتاجه في هذه الحياة. بل ذخيرتنا في صراع لا تزال تمتد فصوله.

ومما يلاحظ في الرياضات أنها تشترك في تقديم أثر مضاعف، فهي رياضات كاملة، تجعل صاحبها مشبعاً بالحياة والنشاط وقوة التركيز والملاحظة وحسن الإدارة لنفسه. تجعله معتمداً على ذاته، وتقوي لديه ملكة الإرادة وكذا الشجاعة كما أنها تنمي روح التعاون والمشاركة بين الأشخاص، وتعزز مهارات التواصل مع الآخرين.

وقد أثبتت الدراسات والتجارب أن هذه الرياضات تساعد بشكل كبير في تطوير القدرات العقلية والبدنية للأطفال، ولذلك يتميز الأطفال الذين تعلموا السباحة مثلاً، بقوة وصلابة، وثقة بالنفس وقدرة على تحمل الشدائد أكثر من أقرانهم بلا رياضة.

البديل الأمثل والأففع

وفي عصرنا غزت الألعاب الإلكترونية والأجهزة الذكية حياة الشباب فسلبت منهم أجمل لحظات حياتهم بالإدمان على ثقافة ألعاب الفيديو التي استشرت بين المسلمين بشكل مخيف، بينما أخطر ما فيها أنها تهدر أوقاتهم هدرًا فيأسرون أنفسهم في دائرة اللعب إلى ما لا نهاية. ولا تسل عن ارتفاع نسب البلادة والجهل والضعف الجسدي. أضف لذلك التعلق المرضي بفكرة اللعبة الذي يتسلل لأحلامهم وأخلاقهم وتفصيل حياتهم!

ولابد من استدراك الجيل بتوفير الرياضات الملهمة لهم، التي تقدم تسلية وتعلima في ذات الوقت من بين الحلول الممكنة لانتشالهم من هذا الإدمان المفسد، ولأجل تحقيق ذلك يمكننا التخطيط بشكل جماعي لتوفير نوادٍ رياضية للأطفال في كل حي بأسعار رمزية، وحبذا من التبرعات. لتقدم هذه النوادي الرياضات المفيدة، على أن يديرها القوي الأمين، وإن تعذر فيمكن توفير دورات تدريبية ولو في كل شهر أو إجازة وعطلة، بتنسيق مع أصحاب الاختصاص، ولا بأس من تحقيق الحد الأدنى بتوفير رياضة على الأقل، تحفظ الطفل من الانجرار إلى شرك الخمول والكسل. وما أجمل أن ترافقها مكتبات تثقيفية ودورات تعليمية لصناعة الوعي المناسبة لأعمارهم، وتبقى مسؤولية الآباء في وضع أبنائهم في وسط يساعدهم على الاستقامة وإخراج أفضل ما لديهم من طاقات، تغذي العزم على تغيير يوميات أطفالهم لما فيه نصر دينهم وأمتهم.

وفي الواقع لا يمنع تطبيق الفكرة ظرف ولا فقر، فقد كان المسلمون يعيشون حياة بدائية مع ذلك لم يمنعهم من ممارسة الألعاب الرياضية، فالحاجة أم الاختراع، مع بعض التفكير يمكن تحقيقه وأقل الإمكانيات، الحد الأدنى من الرياضات البناءة النافعة لأجيالنا وإن تربوا في مخيمات وخيام!

من أسباب صناعة الرجال الأقوياء الأتقياء

إننا بحاجة لإخراج جيل من الرجال الأقوياء الأتقياء، الذين يحملون مواصفات علو المهمة، ولتحقيق ذلك لابد من كسر عقبة الخمول والعجز والالتكالية وقلة الصبر، ولا أفضل من تمارين الرياضة لتحقيق ذلك وإكساب الجيل الأخلاق والسجايا لأفضل أداء جاد. فإن اكتمل المشروع بصناعة وعي عقدي وخلقي وفهم للواقع يليق بالمسلم، فإننا أمام صناعة حقيقية للرجال. قال ابن القيم في كتاب الفروسية: "الناس ثلاثة: رجل ونصف رجل ولا شيء. فالرجل هو من اجتمع له إصابة الرأي والشجاعة فهذا الرجل الكامل كما يقول أحمد بن الحسين:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول، وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتماعاً لنفسٍ حرّة ... بلغت من العلياء كل مكان

ونصف الرجل هو الذي انفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذي لا شيء، هو من لا يملك شيئاً منهما".

لقد آن الأوان لنستدرك هذه المهم الواعدة وإنه لمن تمام البر أن نربيهما في أوساط تنتعش فيها العبقرية وتثمر خيرات واستقامة وعلو همة وأدب.

فالمرحلة المقبلة مرحلة صبر شديد وبذل كريم وشجاعة وسداد رأي وإعداد، لا بد من تحصيل أسباب صناعة قبة النصر فيها مبكراً، بصناعة جيل مبارك، في صراع تطول فصوله ما شاء الله أن تطول بين الإسلام والكفر، وبهذه المفاهيم تنهض الأمة لما كانت عليه في سابق عهدها، خير أمة أخرجت للناس. وإنما هي سلسلة من الأجيال تتوارث أمانة الإسلام. فلنؤدها على أكمل وجه وأخلصه.

ولنتأمل خلاصة ابن القيم في خاتمة كتابه الفروسية لنذكر معالم صناعة النصر حيث قال رحمه الله: "وقد جمع الله تدبير الحروب بأحسن تدبير، في آية من كتاب الله تعالى وهي قوله جل شأنه (يا أيها

الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) [الأنفال 45] فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت وإن قُلت وكثر عدوها!

أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة، وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقتها، وصار كل منهم وحده، كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه، وهو الصبر. فهذه خمسة أشياء تُبَيِّنُ عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها، زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوَى بعضها بعضا وصار لها أثر عظيم في النصر؛ ولما اجتمعت في الصحابة، لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا، ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل”.

ومن يتأمل أعمدة قبة النصر في حديث ابن القيم يرى أنها تستوجب تهيئة مبكرة في بنیان الأجيال التي تحمل أمانة العمل للإسلام، وذلك بتربية النشء على إيمان و يقين راسخين يستوجبان الثبات. وعبادة لله خالصة تتجلى بحسن ذكره سبحانه وتعالى. وبانضباط على منهج الإسلام ينعكس طاعة لله وطاعة لرسوله ﷺ، وبوحدة على الإسلام لا تقبل التنازع والفرقة، تعكسها الإحاطة بأهمية السعي للاعتصام بجبل الله ونبذ كل أسباب التنازع والوهن، ثم بتلقين الصبر وتربية النفوس عليه منذ الصغر، ولا يمكننا تلقين الصبر بلا تعليم النشء الاستغناء عن أسباب الراحة والدعة، وبدون خوض ميادين الصبر المختلفة بشكل تدريجي، ولا شك أن الرياضة من أهم أسباب تعليم الصبر والجلدة في حياة المسلم.

وختاماً، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) فإنما الدنيا مضمار سعي واجتهاد والموفق من أقبل بكله لا ببعضه، لأجل تحقيق أفضل أداء استقامة وتربية، استقامة نفسه، وتربية من تحت مسؤوليته، لأن العمر واحد، فلا يليق بالمسلم إلا أن يشغله بسعي مجتهد مخلص، لعل الله ينظر في قلوب ترجو ما عنده سبحانه فيغفر لها ويوفقها لخيري الدنيا والآخرة.

وإنه لمن تمام التوفيق، العزم على تغيير حياتنا لما يحب الله ويرضاه، والتخلص من تقليد الطرق العقيمة في التربية التي أنتجت الوهن في أمتنا فكان السبب في ذلتنا واستعلاء أعدائنا علينا. وإن كلفنا ما كلفنا هذا التغيير واشتدت العقبات في طريقنا فإن الأجر على قدر المشقة وإنما الأعمال بالنيات، والله بصير بما تعملون، فلا لكلمة “يستحيل” أو “لا يمكن” حتى نستعين بالله ونخوض غمار التجربة، وحتى نبذل جميع الأسباب لتحقيق حياة سوية بنور الإيمان والجد، ونتذوق بركات المجاهدة، لنعذر أمام الله أو ننال فضله العظيم، والله يؤتي فضله من يشاء من عباده، فطوبى للصادقين نيةً وقولاً وإقبالاً وعملاً وثباتاً وصبراً.

أهمية صناعة القادة

قال الله تعالى في قصة ابنة شعيب وهي تصف موسى لأبيها، عليهما السلام، (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [القصص: 26]، بهذه العبارة العظيمة البصيرة، لخصت ابنة شعيب الليبية، معايير الاصطفاء والتفويض، عبارة ينضوي تحتها معظم الكمالات الإنسانية، فبقيت ميراثاً ونبراساً عبر العصور والأزمنة المختلفة ودليلاً مختصراً لصناعة القادة.

ولا عجب أن قيل: إن أفرس الناس ثلاثة: “بنت شعيب وصاحب يوسف حين قال (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر حين اختار عمر لإمارة المؤمنين.”

فلا تزال صفتا القوي الأمين، المطلب الأهم في انتخاب القادة والأمراء وانتقاء أصحاب المهام الجادة الشاقة، وليس بدعاً من القول أن تكون أمتنا قد أوتيت من تلك الحاجة الماسة لقادة أكفاء يقومون بوظيفتهم بإخلاص ويتفانون في انتشالها من قاع الاستضعاف.

لذلك لا أبالغ إن قلت أن أحد أهم وألح الخطوات التي يجب أن نسعى إليها ونعمل بجد عليها في وقتنا الراهن هي صناعة القادة الأكفاء، صناعة الأقوياء الأمناء الذين يمكنهم تحمل أعباء المرحلة بين إرهاصات الضعف وعوامل النهوض لهذه الأمة المسلمة، ذلك أن إهمال هذه الصناعة إطالة لأمد الفشل والانتكاسات والإحباط.

ثم لا يختلف عاقلان أبصرا ما عاشته هذه الأمة من نكبات أن افتقاد القيادة الرشيدة كان من أهم أسباب طول معاناتها وتضييع الفرص الذهبية لتحررها، قد شاهدنا ذلك في ثورات الربيع العربي وشاهدناه في الكثير من المحطات والأحداث الأخرى.

فعدد القادة النجباء قليل وأمام طوفان التغريب وأمراضه المزمنة التي تستهدف عمق المجتمعات وقواعدها، فتدمر النشء وتحبط الهمم وتهدد الفطرة، أضحي الخطر مضاعفاً، ذلك أننا لا نعيش في ساحة هادئة تحت ظروف الاستضعاف بل نتعرض لحمولات عدوانية مستمرة تريد النيل من أعلى ما نملك، عقيدتنا وإيماننا، الذي هو سر قوتنا وأصل الانبعاث.

وإن أمة الإسلام اليوم لا تنقصها القوة البشرية ولا الثروات الطبيعية ولا الموقع الاستراتيجي ولا التاريخ الماجد ولا حتى نصاب الوعي اللازم لتحقيق النهضة، لكنها بحاجة ماسة للقادة الأكفاء بقوة وأمانة وإرادة فتاكة وعزم لا ينهزم يحسن قيادة الجموع لساحات الظفر والتمكين.

وللأسف فإن أعداء هذه الأمة قد أدركوا أهمية هذا العامل، فكرّسوا مناهجهم وبرامجهم لتوفير القادة المخلصين لقضاياهم وأهدافهم، ولذلك أيضا يستهدفون قاداتنا ورموزنا، كلما نبغ بيننا قائد، سلطوا عليه وكلاءهم فغيبوه في السجون أو لجأوا لتصفيته تصفية مباشرة أو باغتيال شخصيته، ويعيش القائد بين تربص الغرب وكيد وكلائه. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل وصل لاستهداف الطفل في مدرسته وأسرته لقتل الحلم في مهده بل تحويله إلى كابوس مفرع.

وبالتزامن، نشاهد ضعف دور الأسرة في إعداد القادة منذ وقت مبكر جداً، لذلك لا نزال بحاجة ماسة لتبنيه الأسرة المسلمة، اللبنة الأساسية في المجتمع، على مسؤوليتها الأولى في صناعة القيادات التي يمكنها أن تغير معادلة الهزيمة لنصر وتجعل من عوامل الضعف ركائز قوة والتي توفر المخزون الكافي من القيادات لسد حاجات معارك الأمة الطويلة والمستمرة والتي تقدم فيها هذه الأمة أول ما تقدم أبناءها القادة فداء.

وسنلخص فيما يلي المعالم الأساسية التي يجب الحرص عليها لغاية مصيرية حاسمة هي صناعة القادة المخلصين. ذلك أن فقدهم هو أكبر خطر يهدد الأمة في صراع تطول فصوله إلى يوم القيامة.

فمن جادل بصعوبة الظروف وضعف الأسباب، يكفينا في رد دنو همته وتثييطه، تاريخ هذه الأمة الزاخر بالقادة الأفاضل، الذين خرجوا من رحم الاستضعاف والقهر، مع ذلك تحدوا العقبات والمكائد وغيروا مجرى التاريخ بانتصارات مبهرة انبعث بها المسلمون من جديد. ويكفينا حقيقة أن هذه الأمة لا تقبل الذل ولا ترقع لغير الله، وكان قدرها أن تقوم وتنهض.

فعن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: “بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض” (رواه أحمد بإسناد قوي).

وتأمل قول عمر رضي الله عنه حين قال: “أشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الثقة”، فكل منهما لا يمثل المسلم المطلوب، وهو - رضي الله عنه - الذي قال لجلسائه يوماً: “تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت

دراهم، فأنفقها في سبيل الله، فقال: تمنوا، فقال آخَر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت ذهباً، فأنفقه في سبيل الله، فقال عمر: لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالاً من أمثال أبي عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله”. في إشارة لأهمية استنساخ نماذج القادة الأفاضل في الأمة. فرب رجل بكتيبة وجيش ومؤسسة وشركة.

المرجعية الأولى القرآن والسنة

تحيا القلوب بالقرآن والسنة، بالوحيين تنفجر الطاقات فيقوى القلب وتقوى معه الأعمال.

لذلك فإن البداية تكون دائماً من تدبر القرآن وأحاديث النبي ﷺ والعمل بهما، وقد تضمن القرآن نماذج للقيادة ومقاييس لتحقيق النصر والارتقاء. كلما انشغل القلب بآيات الله كلما من الله عليه بالفوتوح. وذلك فضل يتسابق له العقلاء المخلصون.

القدوة والمنهج

لا يمكننا صناعة قادة دون قدوة ولا منهج، ولا يوجد قدوة أعظم ولا منهج أروع من قدوة ومنهج نبينا مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا يستلزم أن تُنشر سيرته وتُدْرَس، ويُلتزم هديه ويُتَّبَع، بكل السبل الممكنة وباستخراج المعاني الفكرية والتربوية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، لاستلهام العظمة والقوة وسلامة الوسائل والأهداف، وللتصحيح والتقويم، فقد كانت سيرة رسول الله النبي المختار، صلى الله عليه وسلم، زاخرة بمعاني القيادة ونماذجها المبهرة في كل ميدان وفي كل المواقف. انطلق صلى الله عليه وسلم من قلب الجاهلية فأقام دولة الإسلام الشامخة بعقريّة لا نظير لها، قد تردد صداها في التاريخ واستمر مبهراً إلى اليوم. ولم يقتصر الأمر عليه كقائد عظيم في ذاته الشريفة ﷺ بل شمل أيضاً سياسته وطريقته في صناعة القادة وتقويمهم وإصلاحهم من شخصيات الصحابة الكرام ﷺ، فكان يختار صغير السن ويستأمنه لأداء مهام الكبار، من حفظ السر، أو إيصال الرسائل أو قيادة الجيوش وغيره من مواقف يصعب حصرها في هذا المقام لكنها تنبض جمالاً في سيرة نبينا خير الأنام ﷺ. لا تضاهيه قدوة ولا ينافسها مثل.

عن ثابت عن أنس - رضي الله عنه - قال: “ أتى عليّ رسول الله - ﷺ - وأنا أعب مع الغلمان، فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله - ﷺ - لحاجة، قالت:

ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثنَّ بسرِّ رسول الله - ﷺ - أحدًا، قال أنس لثابت راوي الحديث عنه: "والله لو حدثت به أحدًا لحدثتكَ يا ثابت؟" (رواه مسلم).

دراسة نماذج القادة في التاريخ الإسلامي

ابتداءً بالصحابة إلى عصرنا الحديث، لا بد أن يتلقى المسلم منذ مراحل التربية المبكرة قصص القادة المسلمين، بحسب مستواه الفكري، ثم يتم التدرج في دراسة هذه النماذج بالتوسع والتعمق والتفاصيل حتى نخرج بخلاصات متينة ونستفيد من هذه الهمم العظيمة، فهذا سيف الله خالد بن الوليد ﷺ وضعت لأجله الأكاديميات العسكرية الغربية مناهج خاصة بعبقريته في الحروب، نرى خطته العسكرية تدرّس باهتمام بالغ وعناية فائقة في دول أوروبا وأمريكا، وهو ﷺ صاحب المقولة الشهيرة: "عقول الرجال على أسنة أفلامهم وليس على أسنة رماحهم."

فكيف نضيع هذا الإرث بشغل الجيل ببطولات هوليوود الخيالية ونحن نملك نماذج حقيقية للبطولة يمكن الاستلهام من شخصياتها وأدائها وعبقريتها. وما أكثر أبطال هذه الأمة وما أروع سير قادتها.

الانتقال من التنظير إلى التطبيق

لصناعة القادة لا يكفي تحصيل رصيد كافٍ من المعرفة بفنون القيادة وسير القادة وخصائصهم وخططهم، بل يجب التدريب الفعلي والممارسة في الميدان، فإقامة دورات لصناعة القادة لمختلف الفئات العمرية والمستويات أضحت ضرورة في زماننا، يقتضي ذلك إسداء المهام القيادية، وامتحانات الأزمت، والرياضة وكل ما يدور في فلك تحصيل أسباب قوة القلب والعقل والجسد، مع العناية بالتصحيح والتطوير لمساعدة المنتسبين على تحصيل مستويات معرفة وممارسة سليمة لفن القيادة.

ويمكن توفير هذه الدورات على مستوى الأسرة والحي والمدينة والبلدة والجماعة وحتى على مستوى العالم الإسلامي. ومن ثمّ توفير المشاريع المصغرة للقيادات الناشئة ومتابعتها.

توفير أسباب النبوغ والتخلص من العقبات

لا بد من توفير أسباب النبوغ للقيادة المستقبلين، فلا يمكننا أن ننتظر نماذج للقيادة بإهمال عوامل صناعتها، يدخل في ذلك توفير الجو الإيماني والخلقي، وتوفير المكتبات والمواد التعليمية والتثقيفية،

واعتماد الأساليب التربوية القويمة التي تجعل من سقف أهدافها صناعة القادة، ثم التخلص من العقبات كمصادر التفاهة والصحبة الفاسدة والوسط المثبّط حتى إن استدعى الأمر تغيير مقر الإقامة وحتى إن تطلب الأمر البحث عن نفس الحلم والهدف.

لا يعني ذلك أن الحياة ستكون سهلة بل لا بد من دروس الصبر والحرمان والشدة والابتلاء لكن القصد إغلاق منافذ الشيطان وإضعاف صوته يحدونا في ذلك قول الله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: 28].

صفات أساسية في شخصية القائد

في الواقع من الصعب أن أفصل جميع الخصال الجليلة التي يجب الحرص على زرعها في القادة المستقبلين، لكنني أخصها باختصار شديد كما يلي:

الصدق والأمانة:

والصدق صفة أساسية حاسمة في صناعة القادة، فتربية القادة المستقبلين على الصدق مع النفس والغير، على صدق القول والفعل، ركيزة لا تقبل الغش أو المساومة، فالصدق هو أصل وجوهر وروح كل عمل وسلوك، ولا يأتي إلا بالخير. ولا يمكن للصادق إلا أن يكون عادلاً ومنصفاً وإن ظلم. والأصل في جميع مكارم الأخلاق هو الصدق، فالصدق يأتي بالأمانة ويأتي بالكرم ويأتي بالشجاعة ويأتي بالعدل ويأتي بالمروءة وجميع الصفات الحميدة والمناقب الجليلة.

وأما الأمانة فهي قيد القوة، وهي التي تستوجب الثقة، لذلك افتقادها كان مصاباً جلاً، وقد حذرنا رسول ﷺ من صفات المنافقين فقال ﷺ: “آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان” وفي ذلك إشارة لأهمية الأمانة في حياة المسلم، ومن يتأمل سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد أن بدايته قبل البعثة كانت باشتهاره بين الناس بهاتين الصفتين الأساسيتين الجليلتين: الصدق والأمانة، فكان في ذلك حكمة عظيمة ودروساً مستفادة. ويكفيينا من ذلك قوله ﷺ: “لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ” (صحيح الجامع).

وقد جعل الله تضييع الأمانة من أشرط الساعة، فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بينما النبي - صلى الله عليه وسلم - في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذ قضى حديثه قال: "أين - أراه - السائل عن الساعة؟". قال: ها أنا يا رسول الله. قال: "فإذا ضُعت الأمانة فانتظر الساعة". قال كيف إضاعتها؟ قال: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

الكرم والشجاعة:

كريم النفس جميل الإيثار، لا يبخل على من حوله بالعطاء وإن كان العطاء فكرة، والكرم يستوجب الشجاعة، لذلك كانت صفة المجاهد المميزة له الكرم والشجاعة، فلن تجد مجاهداً صادقاً بخيلاً، وكيف بمن يجود بروحه الأعلى أن يبخل بما في يده الأدنى!.

وتربية النفس على الشجاعة يعني الصبر والثبات والإقدام على الأمور النافعة لتحصيلها وفي نفس الوقت دفع الأمور السيئة. يحدو العبد الشجاع، الإيمان بالقضاء والقدر، ويقينه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وروح الشجاعة الذكر. كما يمكن تمرين النفس على اكتساب صفة الشجاعة، بالإقدام على إلقاء الخطب والمحاضرات في المحافل وعموماً تختلف تمارين الإقدام باختلاف ميادين الشجاعة؛ فهناك شجاعة في الجهاد، وشجاعة في الخطب، وشجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشجاعة في إعلان الرأي.

وتأمل قول الشاعر كيف فصل بين الشجاعة والتهور فقال:

الرأيُّ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ المِحْلُ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ العَلِيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ

فالشجاعة هي سداد الرأي.

القوة والصبر:

وأما القوة فهي الإمكانيات المادية والمعنوية، من قوة النفس والجسم، وهي العنصر الأساسي في عملية القيادة، قال تعالى (قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) [البقرة: 247].

والصبر أيضاً أحد الخصائص المهمة للقيادة. فالصبر على العمل، وتكاليفه والصبر على الشدائد ومقاومتها والصبر على الهزائم والمفاجآت والخسائر، وعلى إخوة الصف الواحد والعاملين في نفس الثغر، والصبر على النصيحة، مطلب أساسي في القيادة فلا يمكننا مشاهدة قائد لا يتصف بالصبر.

وشعب الصبر ثلاثة كما اتفق السلف: صبر عن معصية الله، وصبر على طاعة الله، وصبر على قضاء الله وقدره.

قال تعالى (وجعلنا منهم أئمةً يهْدُونَ بِأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) [السجدة: 24].

فبحسب ما ينال العبد من الصبر واليقين يكون حظُّه من الإمامة، ولا يمكن للإمامة أن تُشتري بمال وجاه ولا أن تُنتزع بقهر وقوة، إنما هي فضل الله على عبده، تحصل بالتقوى والعلم والدعوة والصبر واليقين.

القدرة على التخطيط وحل الأزمات

وبهذه الخصال يتميز القادة أنفسهم، باكتساب المهارات وإدارة الأزمات والحكمة والقدرة على حل المشاكل والتكيف مع الظروف الصعبة وحتى الخائفة وحسن التخطيط في كل خطوة، دون أن يؤثر ذلك في عطاء القائد وأدائه.

الشورى وفن العلاقات

قال الله تعالى (وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى: 42] لا يمكن للقائد النجيب إلا أن يستمع لأراء غيره ويستشيرهم كما كان يفعل نبينا محمد ﷺ وتأمل قول الله تعالى لنبيه (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: 62].

كيف جعل الله للنصر سبيلاً واضحاً، يبدأ من الإخلاص لله سبحانه وحده لا شريك له، ومن الوحدة مع المؤمنين.

فعلى القائد إخلاص عبادته لله وإحسان الصحبة مع المؤمنين وحفظ وحدتهم. وهي صفات تنطلق من فن العلاقات مع العباد وحسن التعامل بخلق راقٍ وعدل وإنصاف ومن التواضع لله وقتل شهوة الغرور والعجب بالنفس لتستمر المسيرة بمجاديف الاستعانة بالله والتوكل. عنوانها “يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.”

القدرة على الاستدراك وتحمل مسؤولية الأخطاء

يجب أن يتصف القائد بصفة الإذعان للحق، فيعترف بالخطأ عند وقوعه ويسارع لاستدراكه فنحن بأمن الحاجة لعقلية الاستدراك والتفاني لتصحيح الخطأ بدل التملص والانشغال في التبرير السقيم بلا أثر ملموس على أرض الواقع .

المعرفة الشرعية والعلمية والثقافية

لا يمكن أن يتقلد القائد منصباً قيادياً قبل تحصيل نصاب العلم الشرعي الذي يؤهله لاتخاذ القرارات مع أن هذا لا يزيح عنه واجب استشارة العلماء وتقوية العلاقة بهم والاستناد إلى المحكم، كذلك المعرفة العلمية باختصاص عمله، في الإدارة وفي كل ميادين الإمارة التي يشغلها، وكذلك التفاصيل الثقافية المتصلة بما فيها الجغرافيا وأسرار الطبيعة والأحداث التي تجري من حوله. ولا ننسى رصيد المعرفة التاريخية التي أراها من أهم العلوم التي يجب أن يتلقاها قادة المستقبل والعاملون، ففي ذلك المخزون الاستراتيجي من الخبرات والتجارب والعبر، تختصر عليهم المسافات وتساهم في صناعة الرأي الصائب.

صناعة القادة مسؤولة من؟

صناعة القادة مسؤولة كل أم وأب، كل مربّي، كل أسرة، كل مدرسة وكل مجتمع، كل مؤسسة ومشروع وكل جماعة وأمة. لذلك فإن تسخير الوقت والجهد للعناية بما يكون له بركاته التي لن نصل إليها بالإهمال والاستهانة وتضييع الأمانة، بل الجدّ هو دلالة الصدق، والسعي ثماره الجني.

المعية الإلهية

مهما توفرت الشروط المادية والاجتهادات وتضافرت، لا يمكن أن نطمع في صناعة قادة نجباء دون أن يَمَنَّ اللهُ علينا بمعيته وتوفيقه، نتأملها في هذه الآيات (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) [يوسف: 22]، (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه: 39]، (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) [طه: 68] (لَا تَخَفْ ذَرْكَاً وَلَا تَخْشَى) [طه: 77]، (سَسْئِدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا) [القصص: 35].

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فالتقرب إلى الله لا يجب أن يغيب عن قلب منيب، ويبقى زاد المسير للقائد إلى نهاية الطريق.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء: 105].

وإلا فسنة الاستبدال بالمرصاد، وسنن الله لا تحابي أحداً.

القيادة الإسلامية المخلصة

سنجد الكثير من المراجع التي تقدم دليلاً عملياً لصناعة القادة في الغرب، لكننا نشد صناعة قادة مسلمين أوفياء لدينهم وقضايا أمتهم، ذلك أن معيار قبول العمل في الإسلام، يقوم على الإخلاص لله سبحانه وتعالى وصواب طريقته الموافقة لشريعة الله، وهو تمام معنى الصدق والأمانة، فالإخلاص هنا لله، يوازيه الصدق، ونهج الشريعة يوازيه القوة.

وقد يوفق الله المخلص وإن ضعفت قوته لكن القوة من غير إخلاص لا يطمع أصحابها في الخلاص في الآخرة وإن نجح ظاهراً في الدنيا.

ثم هذا لا يمنع من استعمال القوي في القيادة، كما ذكر ذلك ابن خلدون في أن للناس مذهبين في استخدام الأكفاء غير الثقات وتقديمهم على الثقات غير الأكفاء، واختار هو استخدام غير الثقات

إذا كانوا مؤهلين؛ لأن بالإمكان وضع بعض التدابير التي تحد من سرقاتهم أما إذا كان المستخدم لا يحسن شيئاً فماذا نعمل به؟⁽¹⁾

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعلمني - أي: ألا تُعطيني ولاية أو إمارة، قال: فضرب بيده - ﷺ - على منكبي ثم قال: "يا أبا ذرٍّ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدَّى الذي عليه"؛ (رواه مسلم).

أكثر ما يهدد القادة

إن أكثر ما يهدد عملية صناعة القادة هو تسلق الهمم المغشوشة وتدخل الأهواء والرشاوي، وهو فساد نجده في كل مجتمع، وحيلة يلجأ لها الغشاشون. كما يهدد القادة حظوظ أنفسهم وحب الإمارة المزمّن، والكبر والظلم وما فسد من أخلاق ومقاصد ووسائل وتلك الفتن التي هي امتحان لا بد منها في الطريق. ثم تغييب الإصلاح والاستدراك، واستمرار البطانة السيئة وافتقاد الصالحة.

وهو تكليف لا يعطى لمن يلهث خلفه، لأنه لا يدرك عظم مسؤوليته، فعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: "دخلت على النبي - ﷺ - أنا ورجلان من بني عمّمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أقمنا على بعض ما ولأك الله - عزّ وجلّ - وقال الآخر مثل ذلك، فقال: "إنا والله لا نُؤيّي على هذا العمل أحداً سألّه، ولا أحداً حرّص عليه"؛ متفق عليه.

ثم إن صناعة القادة التي لا تركز على البناء العقدي والإيمان ولا تعني عناية بالغة بمنظومة الأخلاق وتُغفل أهمية تطوير المهارات وتوسيع المدارك، والمحاسبة والتصحيح، ليست إلا صناعة هدم للقيادة وبالتالي إجهاض فرص الأمة في النهوض.

كلمة أخيرة في واقع ما تعيشه الأمة

إن التركيز على صناعة قادة أكفاء، يعني إعداد القوى الكامنة في كل أمة أحسن إعداد. فقوة كل أمة في قوة قادتها، ولم نر في التاريخ أقوى من أمة الإسلام بما امتلكتها من رصيد هائل من القادة الأخيار

(1) انظر مقدمة ابن خلدون 2: 279.

الذين ظهوروا في ظروف استثنائية بفضل الإيمان الذي كان يحدوهم لصناعة البطولات والانبعاث انبعاثاً مبهراً.

لكن في عصرنا الحالي نحن بحاجة ليقظة أكبر لصناعة القادة، تستوجب فهم الحياة المعاصرة وأمراض التغريب وما بعد الحداثة وتداعيات الاحتلال والهيمنة وشروط النجاح والنصر، والاستفادة من الأخطاء، ليحسن القائد المستقبلي صياغة الخطط ووصف العلاجات الجذرية، فلا يكتفي برصد الأعراض ولا يتفاجأ بعقبات لم تكن بالحسبان تهدد المخزون الاستراتيجي للأمة من الطاقات وتشوّهها.

ولا أخال الأمة تفتقد للأمناء ولا الأقوياء، لكنها بحاجة لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولنشر عقيدة الإعداد والجدية، وحسن توظيف الطاقات، فضلاً عن صقلها.

نُقل عن نابليون بونابرت قوله: “جيش من الأرناب يقوده أسد أفضل من جيش من الأسود يقوده أرناب.”

وأمة الإسلام لم تعدم الأسود جنداً وقادةً.

وختاماً، هذا غيض من فيض، فإن موضوع صناعة القادة موضوع ذو شجون، لا تكفي مقالة لسير أغواره كاملة، لكنني أقدم هنا الفكرة العامة والبدائية المهمة، لعل وعسى ينفع الله بها، ونشاهد مزيد تركيز على صناعة قيادات مباركة في المرحلة المقبلة.

هذا وصلّ اللهم وسلم على نبينا وقائدنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه الأخيار وسلم تسليماً كثيراً.

قراءة في الاستراتيجية

الحديث اليوم عن الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي يفرض نفسه فرضاً، بعد مسلسل الفشل والتخبط والعبث وتكرار الخطأ الذي عانت منه الأمة المسلمة ولا تنزال، وبالنظر لشدة النوازل التي تمر بها ثم تعقيدات الساحات وتشابكها وتداعيات الأخطاء المتراكمة والخسائر التي تسبب فيها العمل العشوائي غير المدروس واتباع الهوى والإصرار على تحييد منهج الإسلام القويم أو تحريفه.

وكلما تأملنا درجة التعقيد التي تتسم بها ساحات الصراع أدركنا أهمية الاستراتيجية لتحقيق أهداف هذه الأمة في النهوض والتحرر والازدهار. بدل هدر الطاقات في العمل بسذاجة وتبعية نكدة لن تخرجنا أبداً من النفق المظلم بل تدخلنا المتاهات.

وقد يعتقد البعض أن الحديث عن التخطيط الاستراتيجي وليد الفكرة الغربية وهذا خطأ، بل كان ولا يزال من أبرز أسباب نجاحات المسلمين وإنجازاتهم التاريخية وأهم معالم حضارتهم المجيدة.

نتعلمه أولاً من وحي السماء، من القرآن، قال الله تعالى في سورة الأنفال (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ) ونتعلمه أيضاً من سيرة النبي محمد ﷺ، منذ بداية بعثته إلى أن لقي ربه سبحانه، كيف كان يخطط بعبقريّة فذة لإقامة أعظم دولة في التاريخ.

وتلك هجرة النبي ﷺ تقدم لنا المثال العملي الجليّ لروعة التخطيط الاستراتيجي الذي كان المرحلة الأولى في إنشاء الدولة الإسلامية. لقد خطط النبي ﷺ ببصيرة جليلة معتياً بكل تفصيل لإنجاح هجرته وكذلك كان يخطط في كل غزواته كما تجلت عظمته في فتح مكة.

تعريف الاستراتيجية

تتفق أغلب المراجع على أن أصل مصطلح “الاستراتيجية” يعود للكلمة الإغريقية “ستراتو” Strato وتعني الجيش أو الحشود العسكرية، وبال يونانية القديمة تسمى فن إدارة وقيادة الحروب “ستراتيجوس Strategos. ”مع العلم أن الاستراتيجية مصطلح عسكري يعني فن الحرب أو الخطة

الحربية، أو فن التخطيط للعمليات العسكرية قبل وبعد الحرب، أو براعة التخطيط، وهو في الواقع مفهوم عُرف قديماً قبل ظهور مصطلح “الاستراتيجية” بحد ذاته.

ومع أن مصطلح الاستراتيجية كان مقتصرًا على الميدان العسكري إلا أنه مع مرور الوقت استعمل في العديد من الميادين والمجالات غير العسكرية.

ذلك أن مقياس النجاح غالباً ما يتعلق بقوة الاستراتيجية في جميع المشاريع بغض النظر عن مجال اختصاصها.

وبحسب درجة إحكام هذه الاستراتيجية ومناسبتها وتكاملها، تتفاوت القوى والمشاريع في إحراز الانتصارات والنجاحات إلا أنها تتعلق أيضاً بعامل لا يدركه الكثير من الغربيين، ألا وهو طبيعة الدعوات التي تحملها الاستراتيجيات، بين حق وباطل، فكلما كانت دعواتها للحق أقرب كانت بالنصر أجدر، وتلك جزئية من سنة التدافع لا يعقلها الكافرون كما لا يعقلون جميع سنن الله في هذه الأرض. وليس معنى ذلك أن الإيمان يعني الكسل والركون وانتظار النصر حتى يتنزل، إنما يعني وجوب العمل والإعداد والصبر والمصابرة والمثابرة والإصلاح والاستدراك والتخطيط الفذّ والإحاطة الشاملة، وذلك مفهوم الاستراتيجية.

ولاشك أن أي استراتيجية لا بد أن تُبنى في ضوء الإمكانيات المتاحة والتي يمكن الحصول عليها كما يجب أن تحسب حساب المفاجآت والأحداث غير المتوقعة والأهم في ذلك بالنسبة للمسلمين ألا تخالف هدي الشريعة الغراء ولا تتعارض مع مقاصدها العظيمة.

ولأن الصراعات حديث الساعة والشاغل الذي استحوذ على اهتمام الأمم والبلدان، بقيت الاستراتيجية ميدان تفرانٍ ومسابقة وتطوير ونقد. وكتب في ذلك الصينيون والرومان والعرب والأوروبيون بشكل مبكر، فيما يسمى الفن العسكري أو الفن الحربي.

واختلفت المدارس في تقسيم الاستراتيجية وتحديد أركانها، لكنها اتفقت على أهميتها وفعاليتها. وبالنظر للتطور الهائل في مجال الصناعات الحربية والعسكرية الذي يشهده العصر الحديث كان لزاماً أن تواكب هذا التطور استراتيجيات أكثر إلماماً بتفاصيل كل صراع وساحة ولاعبين. ولأنها ساحات متشعبة متصلة معقدة أضحت الاستراتيجيات العسكرية متصلة اتصالاً مباشراً بالميدان السياسي والاقتصادي

والاجتماعي والإعلامي وغيره، كما أن لكل ميدان من هذه الميادين استراتيجيته الخاصة به. مما يجعل الخروج بأفضل الاستراتيجيات بطولة!

وحين نتحدث عن الاستراتيجية فهذا يعني أن كل طرف في الصراع يسعى بشكل خاص لإتقان فن توزيع واستخدام الإمكانيات والوسائل المختلفة لتحقيق الأهداف بالطريقة الأنسب التي تنسجم فيها الإمكانيات مع الأهداف وإلى إتقان فن المناورة بغض النظر عن عامل الوقت كم سيطول. وبحسب درجة هذا الإتقان تتمايز الاستراتيجيات في الصراعات.

“و الاستراتيجية الناجحة هي التي توفق إلى اختيار الوسيلة أو الوسائل الأجدى بين كافة الوسائل المتاحة للوصول إلى هدفها”. وهي “التي تنجح في تحقيق وتأمين التوافق والتلاؤم بين الوسيلة والهدف”.

ثم قد يقع الخلط بين مفهوم السياسة والاستراتيجية، وما يعيننا في هذا الطرح هو السياسة والاستراتيجية في إطارها الإسلامي الخالص. فالسياسة في الإسلام سياسة شرعية والاستراتيجية لا يجب أن تخالف شريعة الله في منطلقاتها و وسائلها ومقاصدها.

والاستراتيجية هي في الواقع أداة السياسة التنفيذية. وقد أكدت التجارب التاريخية والمعاصرة أن الاستراتيجية العسكرية هي الأكثر قوة وحسماً وهي التي في الأخير تغير المعادلات كلها. ولا يعني هذا أنه لا توجد ميادين أخرى مؤثرة لكنها تبقى أقل تأثيراً من القوة العسكرية ولذلك تضع الدول الكبرى كل ثقلها في هذا الميدان وتجعله الحل الحاسم والمؤثر في أزمات بقية الميادين. ولطالما كانت العناية بالاستراتيجية العسكرية تحظى بالأهمية القصوى في صراعات القوى الكبرى، وكذلك كان حال الأمة المسلمة عندما كانت تحظى بدولتها المستقلة.

وكل استراتيجية لديها أهدافها العليا بعيدة المدى وهي الأهداف الاستراتيجية، وأهدافها المتوسطة ثم الأهداف الفرعية والأهداف الصغرى أي المباشرة. وجميع الأهداف يجب أن تعمل لأجل الأهداف الاستراتيجية لا تحبطها. وقد تكون الاستراتيجية شاملة ومحدودة أو مرحلية وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة لضرورة عملية أو ظروف وحيثيات استثنائية.

ويجب أن تتماشى الاستراتيجية ونمط الصراع وتحدد متى يكون هجومياً مباشراً أم غير مباشر أو دفاعياً مع ضرورة أن تتحلى بالمرونة.

بين الإسلام والغرب

ومن المعلوم أن الغرب يوظف استراتيجياته المدروسة بعناية كبيرة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية بهدف بسط وإحكام هيمنته في العالم وبشكل أخص العالم الإسلامي لما يحملة المسلمون من مقومات نهوض وريادة. ويصعب في هذا المقام تلخيص المكر الغربي عند صياغة استراتيجياته لكنه معلوم أنه لا يستهين بأدنى تفصيل.

وما يعمل عليه الغرب بدقة هو قيادة استراتيجياته في مختلف الميادين بشكل متكامل، بحيث تؤدي باجتماعها معا وتظافر أدائها ونتائجها إلى تحقيق أهداف الغرب من الهيمنة بشكل أمثل. وقد يراوح بين الاستراتيجيات حين تقتضيه المصلحة، وتبقى استراتيجيته في الغزو الفكري وتغريب مجتمعات المسلمين هي الأخطر نظراً لكونها تستهدف مكامن القوة في هذه الأمة في مهدها، وتستهدف أصول الإسلام لتغيرها وفق ما يناسب مصالح الغرب فتعطل بذلك أهم قاعدة لانبعث هذه الأمة من جديد، "الإسلام". وتمضي هذه الاستراتيجية بالتوازي مع الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والسياسة في إخضاع العالم الإسلامي وترويضه.

فلا غرابة أن سخر الغرب جميع مراكزه البحثية ودراساته لرصد حركات العالم الإسلامي بكافة مكوناته الصغيرة والكبيرة المؤثرة وغير المؤثرة ثم بناء على هذه المعطيات التي قد تتغير، يتابع الرصد الغربي منحنيات التغيير عن كثب ليخرج بالاستراتيجيات المناسبة للمرحلة ولكل مرحلة.

ولاشك أن الاستراتيجية الغربية تمضي بالتزامن مع جميع الاستراتيجيات الأخرى المنافسة في العالم، وهذه الحقيقة تستوجب استراتيجيات مضادة من المسلمين عالية التخطيط لمواجهة ما يترتب بالأمة من أخطار متعددة.

والمأمل في الاستراتيجيات الأمريكية والروسية والصينية وغيرها يرى أن جميعها يشترك في مبدأ ضرورة اختيار النقطة الحاسمة الواجب الوصول إليها والتي تؤدي إلى زعزعة الخصم وانهيائه واختيار المناورة

التحضيرية الصالحة للوصول إلى تلك النقطة. وكذلك يجب أن يحيط التخطيط الاستراتيجي الإسلامي بهذه الجزئية للاستفادة منها.

ومما يزيد من صعوبة وضع الخطط الاستراتيجية في العالم الإسلامي أن الغرب يمثل دول تتمتع غالباً بصلاحيات وحدة الصف والهدف ونظام العمل والتحالفات الاستراتيجية، بينما يقابل هذا التنظيم في الجهة الأخرى الشعوب المسلمة التي تعاني الفرقة تحت الحكم الجبري وحكومات لا تمثلها ولا تُلبي حاجاتها وطموحاتها، مما أدى إلى نشوء جماعات إسلامية منفصلة مختلفة تسعى لاسترجاع مكانة الأمة بما تحمله من رصيد عقدي وطاقات. لذلك بدل أن تكون هناك دولة إسلامية موحدة تواجه الاستراتيجية الغربية المنظمة، لدينا شتات قوى إسلامية، كل قوة - بغض النظر عن طبيعتها الجهادية أو السياسية أو الدعوية- لديها استراتيجيتها الخاصة لتحقيق مشروع النهوض أو أنها للأسف لا تملك أدنى فكرة عن الاستراتيجية وتتحرك بطريقة اعتباطية.

وفي وقت يجب فيه أن تسعى كل استراتيجية لتنمية وحشد كافة الإمكانيات والطاقات البشرية والاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلامية والفكرية بين سندان الهيمنة الغربية ومطرقة أغلال الحكم الجبري، فلنا أن نتأمل درجة التعقيد والصعوبة التي تعمل فيها الاستراتيجيات في العالم الإسلامي.

لذلك فإن صياغة الاستراتيجيات في العالم الإسلامي هي الأصعب على الإطلاق في هذا الزمان لأن معوقاتها وتحدياتها أكبر من مقوماتها وإمكاناتها. وهذا ما يفسر تباين الاستراتيجيات بين الجماعات الإسلامية بشكل لافت وتباين درجات استجابتها للنوازل. ولا شك أن خسائر وتداعيات أخطاء كل استراتيجية ستكون مؤثرة على الاستراتيجيات الأخرى. مما يزيد من تعقيد المشهد أكثر فأكثر .

وقفه مع الاستراتيجيات في العالم الإسلامي

في هذا المقام لسنا بصدد تقييم كفاءة الاستراتيجيات للجماعات الإسلامية أو تحديد نقاط القوة والضعف فيها أو دراسة نجاحاتها وإخفاقاتها. إنما نسلط الضوء على المفاهيم الشاملة والمعالم البارزة في مفهوم الاستراتيجية بشكل عام.

وإن الاستراتيجيات في العالم الإسلامي بحاجة ماسة للعناية بالمكونات الداخلية للقوى والكيانات نفسها، بتلبية احتياجات أفرادها والحرص على سلامة أديانهم وحيويتهم وانسجامهم كعامل حاسم في

استمرارها. ويحكم ذلك سلامة المنهج الذي يجتمع عليه الأفراد وعنايته بالتربية الإيمانية والخلقية قدر المستطاع، ويدخل في ذلك أيضاً ضرورة أن تكون القيادات المتتالية على قدر من الكفاءة للإشراف على سير الاستراتيجية لأن أي قصور سيؤدي إلى فشل ذريع في ميدان الممارسة في صراع تطول فصوله، هذا إن لم يكن القصور في الاستراتيجية بحد ذاتها.

وما يتعلق بفعالية الاستراتيجيات ليس الكيانات العاملة وأداء أفرادها فحسب بل أيضاً الأرضية التي يجري العمل عليها والتحديات التي تواجهها مما يتطلب مواءمة الاستراتيجية لهذه المعطيات. فلا شك أن الاستراتيجية داخل حدود احتلال ظاهر مثل فلسطين يتطلب تخطيطاً استثنائياً يستوعب هذه الخصوصية. والاستراتيجية تحت سلطان وكلاء الغرب في المنطقة يتطلب تخطيطات مدروسة أخرى، والاستراتيجيات في إفريقيا وآسيا تختلف في تفاصيلها عن الاستراتيجيات في بلاد الشام لقرىها من دولة الصهاينة، وبذلك تتباين الاستراتيجيات بحسب خريطة التحديات وموقع الصراع وطبيعة الساحة واللاعبين وبالتالي أيضاً تتباين أهمية نتائجها ونجاحاتها وإخفاقاتها. كما تتباين الاستراتيجيات من حيث الوسائل المتبعة لتحقيقها، من حيث الأهمية والقوة والقدرات والثغرات والجواز في الشريعة الإسلامية.

كما يجب أن يكون للاستراتيجية بعد نظر في حال تغيرت المعطيات سريعاً وذلك بإعداد النظام البديل مسبقاً. وهذا بحد ذاته لا يكفي حيث لا بد أن تكفل الاستراتيجية أيضاً بقاء النجاحات وحفظ ثمارها وصناعة الخطط التي تمنع التراجع ونقض الغزل. وبالتالي فإن الاستراتيجيات في العالم الإسلامي يجب أن تعمل على 3 محاور:

—تحرير الأمة وتحقيق استقلاليتها واسترجاع سيادتها.

—إقامة مشروع الأمة الشامل المتكامل.

—حفظ هذا المشروع وترقيته.

وهي الأهداف الاستراتيجية.

ولصناعة الاستراتيجية يجب الإلمام الواسع والدراسة الوافية لبنية الأعداء والتحديات كما هي على حقيقتها لا كما تظهر بسطحية، وتمييز نقاط الضعف الأكثر حساسية، وعمق تأثير الوسائل في الواقع. إذ يجب على التخطيط الاستراتيجي أن يرصد كافة الأعمال الممكنة وردود الأفعال المتوقعة ولا ينهار عند أول صدمة، وفي الواقع التخطيط الاستراتيجي ليس إلا دراسة كافة الاحتمالات.

ومما يجدر التنبيه إليه أن المبادئ الاستراتيجية ليست بالضرورة ثابتة حتى تكون بمثابة مرجعية دائمة لمن أراد صياغة الاستراتيجية الخاصة به، فهي في الواقع أفكار وخطط لحالات وأوضاع محددة ولا تشكل قوانين عامة يمكن تطبيقها بمجملها في جميع الظروف وعلى كافة الحالات. فلكل وضع استراتيجية تناسبه ولا يعني أن الاستراتيجية الفلانية في المكان الفلاني للطرف الفلاني في الوقت الفلاني تنطبق بالضرورة على كل وضع، بل نجاح الاستراتيجية يكمن في درجة مواءمتها للقضية التي تعالجها وإن كانت جميع الاستراتيجيات متفقة بشأن الخطوط العريضة من حيث الإدارة والتنظيم ومعالم القوة.

كما تحسب الاستراتيجيات الفذة حساب الاستراتيجيات المنافسة لها. بحسن دراستها ومحاولة الاستفادة منها. وأحياناً كثيرة ليست المشكلة في الاستراتيجية بحد ذاتها بل في العاملين عليها أو في قيادتها بشكل أخص. وهنا نقطة تحدٍ أخرى في الاستراتيجيات.

ثم ليس كل ما يسمى استراتيجية هو بالفعل استراتيجية، فلا مجال لوصف الخطة بالاستراتيجية حين تفتقد الأهداف الاستراتيجية بالأساس ولا تملك أدنى رؤية سليمة لمكونات المشهد ولا تقيماً موفقاً لطبيعة الصراع، ويقع في ذلك ضحايا تضخيم الذات والتزكية للنفس والغرور والركون والتبعية. وكثيراً ما يظهر ضعف التخطيط عند أخذ القرارات الاستراتيجية، فتتجاوز حدود الإمكانيات والموارد. ولا تبالي بطبيعة البيئة الخارجية ولا الداخلية لتبدأ معدلات الخسائر في الارتفاع.

معالم مهمة في صياغة الاستراتيجيات

من الصعب حصر كل المعالم المهمة في صياغة الاستراتيجيات لكننا نشير هنا لأبرزها، فمن المهم بمكان أن تكون أهداف الاستراتيجية واضحة بشكل جلي لا لبس فيه، وأن تتفق مع الشريعة وتنطلق منها وتتحاكم إليها. وأن تكون وسائل العمل والتطلعات منطقية وواقعية. يوازئها دراسة ومتابعة لباقي الميادين الأخرى المتصلة. فضلاً عن متابعة نتائجها مرحلياً بشكل دقيق قابل للقياس لتفعيل المحاسبة

والإصلاح، كما يجب أن تعني بالقضايا الحرجة والهامة. وأن تتحلى بالصبر وتمكن من تأمين مواردها المادية والبشرية بشكل مستمر. وأن تحسن توزيع المهام على الأهداف قصيرة الأجل وكذلك طويلة الأجل. وأن تواكب أي تغييرات في البيئة بمعنى أن تكون مرنة. وأن تحسن الاستفادة من مكتسبات غيرها من الاستراتيجيات ومن الأحداث وأخطاء الأعداء.

وتتطلب بعض الاستراتيجيات تطوير عناصرها مع تقدمها، وعامل التطوير لا يمنع التكييف بحسب ما تقتضيه الحاجة.

ولعل من أبرز الأسباب التي يجب الحرص عليها لتقريب الرؤى وانسجام الجهود، إنشاء مراكز بحثية مستقلة تماماً ومتخصصة بدراسة الصراعات وصياغة الاستراتيجيات، يقوم عليها المخلصون الأتقياء الأمناء لتكون بمثابة نقطة وصل ومرجعية للعاملين لهذه الأمة، تجمع بإتقان واحترافية المعطيات اللازمة والمعلومات الحاسمة وترصد الأعداء والأخطار، وتشرح وتختصر المسافات بتقديم التشخيص الدقيق وتحديد الثغرات والألويات، بل يتعدى دورها الأعداء، فتقدم دراسة لنقاط ضعفنا نحن وتقيماً لتجارنا، لتفادي تكرار الخطأ والاستفادة من معرفة أسباب الإخفاقات وغيره من تفاصيل مصيرية.

فالعناية بهذا النوع من المراكز مهم للغاية خاصة إن استند إلى الإمام الواسع بالشرعية، وجهود الدعوة وصناعة الوعي والإصلاح والتصدي للتغريب وهي المحاور التي يجب أن تنطلق جميعاً من مرجعية ثابتة، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فتتحول لسبب من أسباب الاتحاد والاجتماع والاتفاق حول الإسلام، وهنا يتجلى دور العلماء الربانيين في توجيه وتقويم الاستراتيجيات، كي نتخلص من سطوة الهوى والخلافات الجدلية ونضبط البوصلة كما يحب الله ويرضى، فتجتمع طاقات الأمة في الاتجاه الصحيح في تحالف إسلامي منسجم وإن لم يجتمع المسلمون فيه تحت مظلة عمل واحدة. إلا أن انسجام عطاءاتهم وتناغم جهودهم سيحقق أفضل النتائج بعون الله. وهذا الحد الأدنى الذي يجب أن تحققه الاستراتيجيات في العالم الإسلامي، أن تتكامل وتتساند وتعضد بعضها بعضاً إن كانت صادقة في أهدافها الاستراتيجية، ففي ذلك قوة لا تُبارى. كل على ثغره وكل مسؤول عن مهامه، جماعات وفرادى، ثم سنشاهد ثمرات الإخلاص في تحقيق الأهداف الكبرى التي لا يختلف عليها مسلمان. قال الله تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران: 103] وقال سبحانه (وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۗ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: 46].

فهذه المفاهيم الأساسية في وحدة الصفوف هي الأهداف التي يجب أن تحرص عليها الاستراتيجيات في العالم الإسلامي، وهي موجبة للألفة والنصر والظفر. وإن لم تجمعنا هذه الأهداف الشرعية الكبرى فلن يجمعنا فئات الدنيا. فنحن بأمس الحاجة لما يقرب المسافات ويقوم المسيرة ويحسن توظيف طاقات الأمة التوظيف الأمثل لتحقيق مشروع الخلافة، الذي هو مشروع الأمة برمتها.

وفي الواقع لا ينقصنا "المخلصون" لكن ينقصنا الفقه والبصيرة!

نماذج من تاريخ المسلمين

إنّ بناء الاستراتيجيات في تاريخ المسلمين كان معلماً يعكس درجة الإحاطة التي كان يلم بها قادتهم ودرجة الوعي واليقظة التي كانوا يتمتعون بها، فلا عجب أن سطوروا الأمجاد.

ومما يجب الوقوف عليه عند الاستدلال بأمثلة من التاريخ، التخطيط في حياة الرسول ﷺ من الناحية العسكرية والسياسية وهو الجانب المظلوم في سيرته ﷺ حيث يتم تفاديه بشكل متعمد، والتركيز على أحاديث إمطة الأذى في وقت تعيش فيه الأمة في قلب الاستضعاف.

فقد اتسم هذا الجانب في حياة النبي ﷺ بقوة التخطيط الاستراتيجي، عمل فيها النبي ﷺ على مراحل بحسب ما كان يقتضيه الظرف والوقت والإمكانات، وقد لخصها بعض الباحثين في أربعة مراحل، البداية بالحشد، ثم الدفاع عن الإسلام، ثم الهجوم، ثم التكامل. هذه المراحل متتالية أثمرت أول دولة إسلامية في التاريخ، بلغ مجدها الآفاق.

أما الحشد فكان منذ البعثة النبوية إلى تاريخ الهجرة إلى المدينة. القاعدة التي اتخذها النبي ﷺ لاستقراره وتشديد دولته.

وبعد الاستقرار بدأت مرحلة الدفاع عن الإسلام، وتجلت بإدارة النبي ﷺ السرايا والغزوات فدافع خلالها المسلمون عن مدينتهم خير دفاع كما شاهدنا في غزوة الخندق.

وتحديداً بعد غزوة الخندق إلى بعد غزوة حنين، أصبح المسلمون قوة ضاربة في شبه الجزيرة العربية، يحسب لها ألف حساب، فكانت مرحلة الهجوم وترسيخ سلطان الإسلام.

لنصل للمرحلة الرابعة وهي مرحلة التكامل، بعد غزوة حُنين إلى وفاة النبي ﷺ حيث أضحى شبه الجزيرة العربية كلها تحت سلطان الإسلام، وبدأت مرحلة التطلع إلى خارجها، فكانت غزوة تبوك معلماً في توسع الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية عالمية في ظرف قياسي.

ثم لنقف قليلاً مع هذا الانتقال من مرحلة القتال الداخلي القبائلي أو المحلي لتثبيت أركان الكيان الجديد، إلى القتال العالمي لما اقتضته ضرورة المرحلة لحفظ هذه الدولة والارتقاء بها. فلم ينطلق في هذه المواجهة مجرد جيش للمسلمين بل انطلقت فيه كل الأمة المسلمة آنذاك، بتجهيز جيش العسرة، قال ابن هشام في سيرته: “إن رسول الله ﷺ جدّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجالٌ من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم يُنفق أحدٌ مثلها”. وهنا نشاهد تجييش الأمة في الصراع وهو مفهوم أدركته الأمم اللاحقة. وإن هذا التخطيط من النبي ﷺ كان نواة التوسع التي عرفت بها الدولة الإسلامية لاحقاً.

ومن أمثلة التاريخ الكثيرة عند الحديث عن الاستراتيجية لدى المسلمين عبقرية عبد الرحمن الداخل الأموي، فمن يتأمل كيف سيطر هذا الرجل على الأندلس ليقوم دولة إسلامية فيها منطلقاً من لا شيء، يدرك أن تحقيق هذا الهدف الكبير لم يأت من عبث. فاستراتيجية عبد الرحمن حققت ما لم يحققه أحد قبله في هذه الأرض، بتوحيد الصفوف وكفّ النزاعات، وكسب الشرعية، واختياره لقرطبة ثم استخدامها قاعدة للسيطرة على سرقسطة وبرشلونة، وهزيمة شارلمان إمبراطور الفرنك في معركة سرقسطة وباب الشرزي، فكانت نتيجة هذا التخطيط الذكي، قيام دولة قوية أسسها عبد الرحمن الداخل في عام 138هـ (756م) ثم توارثها خلفاؤه إلى غاية عام 422هـ (1031م) قبل أن تتفكك في حقبة ملوك الطوائف.

ومن الأمثلة على براعة التخطيط الاستراتيجي، القائد ألب أرسلان السلجوقي فقد كانت الأناضول مع بداية حكم ألب أرسلان جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية، فعمد ألب أرسلان لحرب العصابات بمفهومها الذي عرفه التاريخ، حتى تمكن من التوسع بشكل تدريجي من شمال العراق ووسط آسيا إلى قلب الأناضول، وتمكن من السيطرة على مساحات كبيرة في الأناضول. وبعد انتصاره العظيم في معركة ملاذكرد المجيدة في عام 463هـ (1071م) تمكن السلاجقة في غضون سنتين من

الوصول إلى قونية في قلب الأناضول، ثم السيطرة على الأناضول بالكامل بفتح نيقية عام 469هـ (1077م)؛ أي خلال أقل من عقد .

التخطيط الاستراتيجي الفذ نصره أيضاً مع القائد نور الدين زنكي الذي بدأ تخطيطه بمواجهة الحملات الصليبية ونجح في طرد الصليبيين من سوريا وفلسطين وركز جهوده على توحيد مدن الشام تحت إمرته، ثم اتجه إلى مصر ونجح بالفعل في ضمها إلى جبهته الموحدة، لتظهر عبقرية صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك ويستفيد من هذه المكتسبات التي حققها نور الدين بحسن تخطيطه الاستراتيجي فانتقل صلاح الدين من قائد على رأس القوات الشامية في مصر، إلى وزير للخليفة العبيدي فقضى بجنكته على الملك العبيدي، خلال أعوام، وأعاد المذهب السني إلى مكانه، وبعد إسقاط الحكم العبيدي وتوحيد الجبهة الإسلامية هزم صلاح الدين الصليبيين واسترجع عكا والناصره وحيفا وناבלس ودينين وبيسان وبافا وصيدا وبيروت والرملة وبيت لحم والخليل وعسقلان ثم القدس بعد معركة حطين المجادة.

ومن المغرب الأقصى لا بد أن نتحدث عن التخطيط الاستراتيجي للقائد الفذ يوسف بن تاشفين الذي بدأ بتأسيس مدينة مراكش ثم توسع تدريجياً فسيطر على المغرب والجزائر بالكامل، ووجه جيوشه إلى الأندلس وأوقع الهزيمة بالملك ألفونصو القشتالي عام 479هـ (1086م)، ونجح في توسيع ملك دولته ليشمل معظم شبه الجزيرة الأيبيرية.

هذه أمثلة على سبيل المثال لا الحصر، للتخطيط الاستراتيجي الفذ الذي أقام دولاً وصنع بطولات وأجاداً في تاريخ المسلمين يستحق الدراسة والفهم. وغيرها الكثير من النماذج لمن أراد الاستزادة من تاريخ هذه الأمة.

وفي الختام فإنه لا يكفي أن نحمل هم الإسلام ونصرته بشغف، بل لا بد أن نحمل الفهم والعلم الذي يسمح لنا بنصرته كما يجب، بدراسة إمكانياتنا وحسن توظيفها، ودراسة أعدائنا وحسن تقييمهم، بتحديد الأهداف الأولى وتحييد ما يمكن تحييده، بصناعة الخطط الاستراتيجية الأنسب والأحكم، ومع درجة التعقيد والفتن التي نعاش في هذا الزمان علينا أن نطلق من أسس ووسائل شرعية سليمة ومتمينة، مستذكرين قول العلامة ابن القيم رحمه الله: "الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفي

السابق والناس في المضممار بين فارس وراجل وأصحاب حمر مُعقرة، سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار.”

فلا مجال للفشل ولا مجال للإحباط، بل لا بد من تضافر الجهود والاستراتيجيات لتحقيق الهدف الاستراتيجي المشترك للعاملين، والحل لجميع مشاكل المسلمين في كل مكان، ألا وهو الخلافة الإسلامية الواعدة. ولا بد من أخذ جميع الأسباب الممكنة لتحقيقه، وهذا من صميم مفهوم حسن التوكل على الله.

وإنه لمن تمام العقل والحكمة حسن الاستفادة من طاقات الأمة المخلصة في كل مكان لتوجيهها في استراتيجية النصر المبين. وهي عملية متكاملة من صناعة الوعي والدعوة والإصلاح والدراسة والعمل في كل ميادين العمل.

هذه كانت قراءة مختصرة لمفهوم عميق وتسليط للضوء على أحد أهم نقاط الضعف في الأمة الإسلامية. وإن كان لا يزال هناك الكثير لنتناوله في هذا الباب. نسأل الله أن ينفع به.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو زلل أو نسيان فمني ومن الشيطان، أعاذنا الله وإياكم منه.

حي الشيخ جراح: "الاحتلال كُله رجس من عمل الشيطان"

يعيش حي الشيخ جراح، الحي المقدسي الجميل، نكبة أخرى جديدة في شهر رمضان المبارك لعام 1442هـ (2021م)، وذلك بعد مضي أكثر من نصف قرن من نكبته المؤلمة الأولى، ليسجل الحاضر فصلاً جديداً من فصول الجرائم الإسرائيلية التي تجري باعتراف صريح وتوثيق بالدليل، أمام عدسات الإعلام وينقل مباشر بالصوت والصورة للعالم أجمع، وفي ذات الوقت تحظى بالمباركة الدولية وحماية القانون! قانون خصّص لحماية المجرمين المحتلين وتجرّم الضحية، أصحاب الأرض والحق.

قصة حي الشيخ جراح

قصة حي الشيخ جراح قصة من القصص المؤلمة في تاريخ الاحتلال العاشم للأرض المباركة المقدسة، تلخص لنا مكر المغضوب عليهم وحقيقة أن الاتفاقيات التي تُبرم رسمياً لـ "صالح الفلسطينيين" ليست إلا مجرد حبر على ورق.

ويقع حي الشيخ جراح في الجانب الشرقي من البلدة القديمة في مدينة القدس خارج السور، وقد أنشئ قبل النكبة لكنه شهد في عام 1375هـ (1956م) اتفاقية وقعت بين وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين المعروفة باسم "الأونروا" والحكومة الأردنية ممثلة بوزارة الإنشاء والتعمير، حيث قضت الاتفاقية بتمليك مساكن جديدة لـ 28 عائلة فلسطينية لاجئة مهجرة من مناطق مختلفة من فلسطين المحتلة، فرّت من بطش الآلة الصهيونية التي احتلت قراها وسلبتها جميع حقوقها وممتلكاتها وطردتها من مساكنها بطريقة وحشية بشعة في عام 1367هـ (1948م).

ولم يكن يعلم هؤلاء المهجّرون أن الاتفاقيات ليست إلا حقن تخديرٍ لمصاحبهم الجلل كي يتسلل مرض الاحتلال لكامل أجزاء الجسد ويتمكن منه تمكناً تاماً بعد حين.

فما أن استقر الحال بالعائلات المهجرة في حي الشيخ جراح، وفق الاتفاق الذي لم يدم مفعوله طويلاً، وما أن تخلصت من بطش الاحتلال الصهيوني حتى لحق بها من جديد وتمدد واحتل الحي المقدسي في عام 1387هـ (1967م) جالباً معه شؤم الاستيطان اليهودي، فتسبب ذلك بمعاناة شديدة لأهالي الحي الشيخ جراح الذين كانت تُعدّ حركاتهم بكاميرات المراقبة، كأنهم في السجن.

ثم ما لبثت أن ظهرت جمعية استيطانية تكمن وظيفتها في استجلاب اليهود من خارج فلسطين المحتلة للعيش كمواطنين إسرائيليين يحظون بكامل الحقوق التي حُرمتها الفلسطينيين في أرضه، فيملكون أرضه ومسكنه وحقه في العيش الكريم، وأصبحت لاعباً رئيسياً في مشهد الأحداث فجأة بعد تسجيلها ملكية الأرض في الحي المقدسي باسمها بوثيقة مزورة سنة 1392هـ (1972م).

كان هذا التسجيل بمثابة الضوء الأخضر لإطلاق حملات التضييق والأذى لأهالي الحي، الذين بفضل قانون الاحتلال تحولوا مجرمين خارجين عن النظام وجبت ملاحقتهم في المحاكم وطردهم من مساكنهم بقوة السلاح والنار وصفاقة المستوطنين المحتلين واستفزازاتهم المجرمة!

وبالفعل تمكن الاحتلال الإسرائيلي من الاستيلاء على عدد من المنازل، ومنحها للمستوطنين الذين لا ينجلون من الاعتراف بأنهم مجرد لصوص سرقوا المنازل من يد أصحابها أمام العدسات، ذلك أن النذالة أصل فيهم وأنهم يدركون أن الأبواق الإعلامية بيدها أن تجعل من اعترافهم الخسيس بطولة يُشاد بها.

أما ما وقع على أهالي حي الشيخ جراح في ظل هذا العدوان الصارخ، فقد قدم حجة أخرى علينا لا لنا!

مشروع تهويد القدس

قصة حي الشيخ جراح ليست إلا مثالاً جديداً لكيف يتدرج الاحتلال الإسرائيلي - بعد إحكام قبضته على فلسطين وعاصمتها القدس - في تنفيذ مخططه الخبيث لطرد المقدسيين من مساكنهم وتهويد أرض الإسراء والمعراج وتعبئتها بالمستوطنين الذين يجتمعون في فلسطين لأجل دولة إسرائيل الكبرى.

تلك الدولة المشؤومة التي لن تراعي مشاعر مسلم واحد ممن يسكن في داخل الحدود التي رسمها لها ساسة اليهود، من الفرات إلى النيل بحسب ما هو مخطط لها.

معنى ذلك أن من يتفرج اليوم على أهالي الحي المقدسي وهم يواجهون كيد التهويد والطرده من مساكنهم، عليه أن يعلم تمام العلم بأن الدور المقبل سيكون عليه إن كان مسكنه يقع ضمن حدود مشروع إسرائيل الكبرى.

وإن لم يكن في ظل حدودها فسيناله الأذى يقيناً، لأنه مشروع لا يقوم إلا على بسط هيمنة صهيوصليبية تامة على محيط هذه الدولة يتم معها إذلال المسلمين وإخضاعهم إخضاعاً مهيناً، وسلبهم الإرادة وأسباب القوة، وهو مشروع الدولة التي يتم العمل على توسيعها وترسيخها بشرعية دولية وحماية غربية وخيانة أذنان عربية.

انطلق باتفاقيات تطبيع خبيث وإعلان تهود القدس واستمرار التضييق على أهل فلسطين والشعوب المسلمة المجاورة لصرفهم عن هم تحرير الأرض وصيانة الدين والعرض والشرف.

الاحتلال كلُّه رجسٌ من عمَل الشيطان

وفي الواقع علينا أن نعترف أننا نعيش حالة من الإجبار على قبول الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين كحق يكفله القانون الدولي والإسرائيلي وقريباً القانون المحلي في كل بلد من بلدان المسلمين، وليس فقط إلى هذا الحد، بل أننا نتعرض لعملية ترويضٍ خبيثٍ لقبول كل ما يطرأ في سياسة التغيير الديمغرافي لتكبيبة السكان في فلسطين المحتلة. والتعايش مع كل ظلم واعتداء وأذية جديدة باعتبارها الحق الذي يحفظه القانون الذي لا يجوز الانتفاض عليه.

وتلك طبيعة المحتل وطريقته في فرض نفسه على الشعوب المحتلة. فهو لا يقف عند حد ولا ينفك يطمح لمزيد ظلم وعدوان.

ومع أن المقام هنا ليس لتفصيل أساليب الاحتلال وحيله لكننا نركز على تفصيل مهم في طريقة عمل هذا الاحتلال، ذكره الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - في العدد 83 من جريدة البصائر سنة 1368هـ (1949م). تحت عنوان: "فصل الدين عن الحكومة" حيث قال الإبراهيمي: "الاستعمارُ (والأدق مصطلح الاحتلال) كلُّه رجسٌ من عمَل الشيطان، يَلْتَقِي القائمون به على سَجَايَا خبيثة، ذو غرائزٍ شَرِهَةٍ، ونظراتٍ عميقة إلى وسائل الافتراس، وإخضاع الفرائس، وأهمُّ تلك الوسائل قتلُ المعنويات، وتَحْدِيرُ الإحساسات الروحية".

وهذا التشخيص الدقيق وهذا الوصف العميق من الشيخ الإبراهيمي للاحتلال قد يكون أخطر ما في الاحتلال وهو للأسف يتكرر مع كل احتلال وأضحى قاعدة مع الاحتلال الإسرائيلي نعيشها بشكل يومي، يسهر على تحقيقها بتفانٍ مخزي الإعلام العربي قبل اليهودي. لإخضاع المسلمين، بقتل المعنويات، وتحدير الإحساسات الروحية.

وليت دعاة التعايش مع المحتل يستوعبون هذه الحقيقة في إن قبول الاحتلال لا يعني العيش بسلام معه وتحصيل بعض الحقوق، بل يعني إقصاء أصحاب الأرض تماماً من المشهد أو سلخهم تماماً عن دينهم وقتل روح الإحساس في صدورهم لكي يستقيم له الحكم بسهولة. وتكون لأجل ذلك جميع مخازي إجرام الاحتلال الإسرائيلي التي يندى لها جبين الإنسانية.

صوت الحق لا بد أن يستمر

لقد كان للهبّة الشعبية في حي الشيخ جراح وعلى مواقع التواصل الاجتماعي من كافة المسلمين في العالم وأصحاب الضمائر المنصفة، دلالات في مشهد العدوان الإسرائيلي على الحي المقدسي، فقد أثبتت هذه الهبة المتلاحمة، أن هذه الأمة حية لن تموت مهما ضعفت ومهما تمادى الجلادون في إخضاعها وقهرها. وأن صوت الحق لا يزال يرتفع مع كل موجة باطل ليقول أنه هنا وسأبقى هنا.

وأن الثبات المقدسي معلم بارز في طريق النصر، حيث جاءت مشاهد ثبات أهالي حي الشيخ جراح بعد أيام قليلة من بطولة رائعة خلّدها المقدسيون على بعد مسافة قريبة بدفع العدوان الإسرائيلي عن المسجد الأقصى. وارتفعت معها معنويات المسلمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع ارتفاع تكبيرات المقدسيين وهم يتوجهون لأداء صلاة الجمعة في مسجد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

ثم حلقات ذلك التدافع بين الحق والباطل في فلسطين الذي نعيشه كل يوم بين عدوان ينال من الفلسطينيين تارة ورد عليه ينال من المحتلين تارة أخرى، على يد أرواح أبت الركوع إلا لله. تحذوها معاني الآية الجليلة (وَلَا تَهْنُؤا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۗ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

تاريخ بطولة تجري إلى اليوم ولا بد أن تستمر

وكيف لا يكون الإباء عنواناً في فلسطين المحتلة، وكل معلم فيها وكل زاوية وكل تاريخ ينبض بالبطولة التي حفرها الإسلام على هذه الأرض.

فحي الشيخ جراح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبطولة، بطولة سجلها التاريخ بارتباط اسمه باسم الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي، طبيب الفاتح صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - القائد المسلم الذي بقي تاريخه كابوساً في أذهان الغرب الصليبي، ومحط فخر واعتزاز وأمل في أذهان الأجيال المسلمة، ثم بطولة سطرها أهالي حي الشيخ جراح بوقوفهم بثبات مبشّر أمام استفزازات الصهاينة وأمام قرارات محكمة الاحتلال الجائرة، وما أبدوه من جلد وصر تفتاني في تسجيل مواقفه النساء والأطفال والشيوخ جنباً إلى جنب مع الرجال لإحباط المشروع الإسرائيلي في تهويد القدس الشريف.

وختاماً، فلا بد من اليقظة وحفظ الإحساس، والحذر من مكر المحتل ورفع الوعي بأساليبه المخادعة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر وعدم الاستسلام أو الاستهانة أو تضييع الأمانة حتى يتحقق وعد الله لعباده المؤمنين في أرض فلسطين الخالفة. (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

وإن كان كل دعاء وكل كلمة مناصرة لأهل فلسطين وكل تنديد بالعدوان الإسرائيلي على حي الشيخ جراح وعلى كل نفس وحجر وشجر في أرض فلسطين المحتلة أمر مطلوب وواجب يرفع من مقام صاحبه، إلا أننا لا ننفك نذكر بمقولة البشير الإبراهيمي، الطبيب الذي تمكن من تشخيص مرض الاحتلال و أعراضه ووسائله وتداعياته ببصيرة فذة، لحفظ الجسد سليماً والتخلص من عقلية التواكل والتسويق والتباكي بلا عزم ولا عمل، وهي خلاصته الذهبية التي قال فيها: “لا تظنوا أن الدعاء وحده يرد الاعتداء؛ إن مادة دعا يدعو لا تنسخ مادة عدا يعدو؛ وإنما ينسخها أعدّ يعدّ واستعدّ يستعدّ، فأعدوا واستعدوا”.

فأعدوا واستعدوا واجمعوا، فإن لنا موعد عزّ وفتح في بيت المقدس، بوعد من الله حق، طوبى لمن نال شرف المساهمة في تحقيقه.

هبة القدس ضد الاعتداءات الصهيونية: دروس وخلاصات

تشهد مدينة القدس الأبية، إحدى أقدم مدن العالم وأقدسها، ملاحم جديدة في شهر رمضان المبارك⁽¹⁾، ازدانت بالبطولات التي بلغ صداها أقطار الأرض، وتعلقت بصيحات التكبير المرتفعة منها قلوب المؤمنين في كل مكان، وفي ذات الوقت أظهرت انحطاط المحتل الصهيوني وعدوانه المضاعف وإجرامه الذي لا حدود له، يدعمه الخذلان، بل الخيانة الكبرى من حكومات المسلمين.

لقد كان وقع الاعتداءات الصهيونية على المقدسين في أيام الشهر الفضيل، شهر العبادات والقربات، عظيماً، لتنضم إلى سلسلة الجرائم والانتهاكات الصارخة التي يزدحم بها تاريخ الاحتلال الإسرائيلي للأرض المقدسة ولا تزال.

تاريخ من الاحتلال البشع

عاشت مدينة القدس الكثير من الكرب والبلاء منذ أيام الاحتلال البريطاني الذي دخلها بقيادة الجنرال اللنبي عام 1335هـ (1917م) بعد إسقاط آخر شكل من أشكال الخلافة الإسلامية لينتهي في عام 1367هـ (1948م) بتسليم البلاد للعصابات الصهيونية التي تسللت لفلسطين أثناء سيطرته، لتعلن قيام الدولة الإسرائيلية المشؤومة. والقدس الغربية عاصمة لها في 3 ديسمبر/كانون الأول من نفس العام على لسان رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، ديفيد بن غوريون. بينما تحولت القدس الشرقية للسيادة الأردنية حتى هزيمة 1387هـ (يونيو/حزيران 1967م) التي استغلها الاحتلال بسرعة لإعلان ضم القدس بأكملها لسلطته.

هبة القدس في رمضان عام 1442هـ.

توالى الاعتداءات الصهيونية المباشرة على الأقصى منذ بداية الاحتلال الإسرائيلي للقدس، فقابلتها انتفاضات شعبية مقدسية لحماية الأقصى ورد عدوان قوات الاحتلال وقطعان المستوطنين بشكل متواصل إلى اليوم.

(1) هبة القدس ضد الاعتداءات الصهيونية في القدس خلال شهر رمضان 1442هـ (2021م)

وفي الانتفاضة الجارية، يقف المقدسيون بشموخ لرد كيد الصهاينة وعدوانهم في باب العامود وللتصدي لمحاولة المستوطنين اقتحام الأقصى وإجهاض قرار الحكومة الإسرائيلية بطرد أهالي حي الشيخ جراح، الحي المقدسي شرق القدس الذي تقع العائلات الفلسطينية بموجبه تحت استفزازات المستوطنين القبيحة كجزء من خطة خبيثة لتهويد القدس.

ولا تزال المواجهات الدامية التي حولت الأقصى لساحة معركة تمارس فيها قوات الاحتلال جميع الأساليب المحرمة دولياً، من اعتداءات بالأسلحة والغازات على العزل من النساء والأطفال، ومن الاعتداء على الصحفيين ومن حصار ومنع إسعاف الجرحى ومن استهداف بالرصاص الحي والمطاطي وتحديداً في مناطق الرأس والعين والصدر لضمان إحداث إعاقات دائمة بين المقدسيين أو قتل متعمد، أولئك المقدسيون الذين بحت حناجرهم بصرخات “وا إسلاماه!”

تأثير الانتفاضة المقدسية عالمياً

لقد كانت اللقطات تتوالى من أرض المواجهة، في القدس المحتلة، فتنقل لنا بطولات الثبات المقدسي، والشجاعة والتفاني في حفظ مقدسات المسلمين، لقد شاهدنا مشاهد عظيمة من الإباء والعزة يعجز القلم عن وصف روعتها، من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، كانت كفيلة بإشعال نار التلاحم في كل العالم، فانعكست انتفاضة أخرى في الأرض بحراك عالمي ومظاهرات حاشدة في عدة دول حتى الأوروبية منها، للتضامن مع المرابطين في القدس وحي الشيخ جراح. بل شاهدنا شخصيات غير مسلمة كالمغني البريطاني روجر ووترز يوجه كلماته القوية للرئيس الأمريكي بايدن على خلفية ما يجري في القدس فيقول له: “ماذا لو جاء مستوطن أحمق ليأخذ منزلك؟! ” وتضامن لاعبو نادي بالستينو التشيلي بشكل علني مع ملاحم القدس حيث دخلوا أرضية الملعب بالشماع الفلسطيني.

فضلاً عن حملة تفاعل عالمية تجلت على مواقع التواصل كهدير السيل المتصل، تندد بالعدوان الإسرائيلي وتعيد للواجهة حقيقة أنه مجرد احتلال يفرض نفسه بقوة الحديد والنار.

ولابد أن ندرك أن هذه التفاعلات والأصداء التي لقيتها القضية المقدسية لم تكن من فراغ بل هي من ثمار تفاني صناع الحدث أنفسهم وتفاني الناقلين له والمتضامنين من كل المسلمين الذين رابطوا في باحات الأقصى وشوارع حي الشيخ جراح ومنصات التواصل الاجتماعي، إنه الإعلام الحر المستقل

الذي يلجأ له المسلمون فراراً من الإعلام المأجور فيحررون الخبر بأنفسهم اعتماداً على مشاهدات حية ونقل مباشر من أرض الحدث، الكل يقوم بدور المراسل والصحفي، فينقلون الحقيقة كما هي بمصطلحاتها الشرعية الفطرية، بدون تدخلات مقصات الرقابة الحكومية وتشويهات الإملاءات الغريبة فكان وقعها عظيماً في النفوس، وذلك وقع الصدق في كل حال وزمان.

لقد استوجب التلاحم الإعلامي مع أهل القدس الإجماع العالمي غير المسبوق على أن ما يقوم به الاحتلال الإسرائيلي في القدس عدوان سافر وانتهاك صارخ، فأخرج حتى حلفاء اليهود فأخرجوا بيانات تنديد واستنكار.

وقد أعاد هذا التفاعل قضية مهمة كان أثارها رئيس وزراء الكيان الصهيوني بنيامين نتيناهو في وقت سابق على حسابه في تويتر حيث قال: “أكبر عقبة أمام توسيع دائرة “السلام” ليست زعماء الدول المحيطة بنا، بل الرأي العام في الشارع العربي، الذي تعرض على مدار سنوات طويلة لدعاية عرضت إسرائيل بشكل خاطئ ومنحاز.”

وصدق هذا الصهيوني المجرم وهو الكاذب فالرأي العام في الشارع المسلم له ثقله في مشهد الصراع، مما ألهم جموع المنتفضين من المسلمين في أنحاء العالم فرددوا بصوت واحد وبكل فخر “نعم أنا عقبة.”

خلاصات مهمة من ملاحم هبة القدس

إن الانحياز لأهل القدس، ولقضية القدس، فرض نفسه فرضاً مع هذه الأحداث على كل نفس مؤمنة، مما يكشف البعد العقدي للقضية الفلسطينية كأكبر قضايا الأمة المسلمة. يكفي دلالة تأثير التكبيرات في باحات الأقصى وذلك القسم المهيّب من المقدسين لحفظ الأقصى الذي أبكى القلوب والمقل فكان مشهداً تاريخياً يزلزل طغيان المحتل والمنافقين.

إن الانحياز للقدس، ولقضية القدس، كان بمثابة الفرصة التي انتهزها المسلمون لإثبات أنهم هنا، بعقيدتهم وهويتهم الراسخة المستقلة، التي يسعى الغرب وحلفاؤه في المنطقة لطمسها وتشويهها واقتلاعها من جذورها لصالح مشاريع التطبيع المخزية التي تعثرت اليوم رغم ما كلفت عرابيها من تكاليف ضخمة وخطط شيطانية مظلمة، بتكبيره مقدسية واحدة.

إن الانحياز للقدس ولقضية القدس أثبت انتصار الفطرة الإنسانية على كل كبر وغرور وظلم إنساني. وكذلك ينتصر الحق على الباطل في كل مواجهة مهما احتدمت ومهما وظف فيها الظالمون الخداع والتحايل والقهر.

لقد كشفت ملاحم القدس عن الوجه القذر والقبيح لحكام عرب ونفاقهم، الذين جلسوا في موائد الصهاينة بينما كانت دماء المقدسيين تنزف لحماية مقدسات المسلمين وشرف هذه الأمة. وكان ذلك التناقض الصارخ بين الحكام وشعوبهم، فأتناء ملاحم القدس وتلاحم أبناء الشعب المسلمة مع إخوانهم في بيت المقدس كان وزير خارجية المغرب الذي يرأس ملكه لجنة القدس! يحضر مؤتمر الصهاينة في الولايات المتحدة، وكانت البحرين تستقبل رئيس الموساد الصهيوني وتأخذه بالأحضان وكانت الإمارات توسع استثماراتها في الكيان اللقيط، بلا خجل!

لقد كشفت ملاحم القدس، المنافقين وفضحتهم على الأشهاد وحددتهم بالاسم والتيار، فتوالت اللعنات عليهم من كل حذب وصبوب في الوسم الخاص الذي أنشأه المنافقون للدفع إلى عدم التفاعل مع القضية الفلسطينية بكل صفاقة بعدما آلمهم حجم التلاحم الذي أحدثته القضية في وقت قياسي.

لقد كان المنافقون في عهد النبي ﷺ يستترون كي لا يكشف الناس نفاقهم، فيعرفون في لحن القول. أما اليوم في زماننا، فالمنافقون يجاهرون بنفاقهم، ويفتخرون بنجستهم وأخطاطهم. ويختصر علينا ذلك المسافات في تحديدهم وتمييزهم. فشكراً لملاحم القدس فقد رسخت حقيقة أن كل من يقف مع اليهود عدو للإسلام والأمة المسلمة.

لقد نسفت ملاحم القدس الافتراءات التي كانت تضخها الآلة الإعلامية لمعسكر المطبوعين مع الاحتلال الإسرائيلي، كفرية أن أهل فلسطين باعوا قضيتهم، فجاءت على عكس ما يمكرون، مصدر إلهام ومثال للمسابقة على نصره القدس، حتى لأطفالنا الصغار، بثبات المقدسيين الصغار.

لقد أحبطت ملاحم القدس وانتفاضة التلاحم معهم، محاولات حكومة الاحتلال في تزيين وجودها في فلسطين، فكان الرد عليها مفحماً، مؤكداً على الحقيقة الراسخة أن لا مكان يتسع للخبيث والطيب معاً، لا بد من تدافع، ولا بد من تطهير.

لقد أعادت ملاحم القدس للأذهان على قلة ذات يد المقدسين وانعدام العدة والعتاد حقيقة أن مجرد حجارة ومولوتوف تحولها التكبيرة لمفعول صاروخ، فتوقع الإصابات والخسائر في صفوف قوات الاحتلال قال الله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ).

لقد كشفت ملاحم القدس مرة أخرى الوجه الكالح لأمريكا دولة الديمقراطية والحريات المزعومة، التي تزكم الأنوف بالحديث عن قوانينها لإحلال الاستقرار في العالم في خطاباتها، بينما لا تبدي أكثر من شعور بالقلق حين يُقتل الفلسطيني بدم بارد ويُطرد من بيته رغم الاتفاقيات الدولية، ولكن حين تمس اليهودي رجفة الخوف، ترسل له ترسانتها العسكرية لدعم نفسيته أمام الفلسطينيين العزل.

لقد تعلمنا من ملاحم القدس أننا جميعاً صوت لأهلنا في فلسطين المحتلة، وأن كل مساهمة ولو بكلمة، تفعل مفعولها في إعلاء صوت الحق ونصرة المستضعفين. وأنه لا عذر لأي قعود وتقاعس، تحت أي حجة كانت، لأن الإسلام يصنع العطاء، والمسابقة، والثبات، والنصر.

ثم إن إقامة تسعين ألفاً من الفلسطينيين لصلاة التراويح ليلة 27 من رمضان في المسجد الأقصى في مشهد عظيم ترتجف له القلوب، قدم درساً عظيماً لأهمية الثبات والإصرار على أهدافنا مهما كانت العقبات أمامنا. كما شاهدنا باصات المرابطين تتحدى إرادة العدو وتدخل بيت المقدس وكما شاهدنا النساء يمشين على أقدامهن، من مسافات بعيدة للرباط في بيت المقدس، تقول إحداهن في إجابة عن سؤال هل يستحق القدس كل هذا العناء والسير على الأقدام: “نعم يستحق وزيادة”. بل حتى الرضع كانوا في سباق حبواً على عتبات القدس!

ومن جميل ما تركته انتفاضة القدس من أثر في النفوس هتافات الشباب المسلم المنتفض في الأردن المجاور، أمام السفارة الإسرائيلية، “لا سفارة للإرهاب” فوظفوا ذات المصطلح الذي يفرضه علينا الغرب للتضييق على المسلمين وسلبهم حقوقهم، بحسب أجدديات المجتمع الدولي في مكانه، ليلزمهم بنفس الردود عليه.

لقد تعلمنا جميعاً أن السحر الذي أربب به الطغاة أعين الناس، بكل أشكاله وأنواعه على رأسها الإعلام وصناعة الدراما المنحطة المناقضة للحقائق والتاريخ والحاضر، المشوّهة لكل جميل في حياة

المسلمين وعقيدتهم، قد دبست بأقدام الإقبال والحرقه على نصره الأقصى، فلم يبق لها من أثر يذكر، بل كيد أولئك يبور (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).

لقد قدمت ملاحم القدس مثالاً عملياً لإمكانية توحيد المسلمين في العالم بأقوى ما يكون كجسد واحد حول قضية واحدة، بعزيمة واحدة وإرادة ثابتة، فوق إرادة الأعداء والعملاء.

لذلك كان طبيعياً أن تقف قضية المسجد الأقصى على سلم قضايا المسلمين، ولذلك أيضاً يكرس طغاة العرب وجيوشهم المجرمة كل جهودهم لتهميشها وتشويهها.

توصيات في قلب الحدث

تداعيات هبة القدس على شكل مظاهرات أمام سفارة الكيان الصهيوني في إسطنبول.

يجب أن يستمر الضغط الشعبي خارج فلسطين كما في داخلها، ولا بد للشعوب المسلمة من مواصلة الانتفاضة مع كل لحظة رباط للمقدسيين. من جهة لمشاركتهم في رباطهم وتأكيد أن قضيتهم واحدة، ومن جهة ليعلم المجتمع الدولي أن هذه الشعوب لها كلمتها أيضاً المستقلة عن الحكومات بما فيها سلطة أو سلو العميلة التي تفانت في إجهاض الحراك في الضفة الغربية لنصرة الأقصى خدمة للصهاينة.

كما يجب أن تستمر الانتفاضة الإعلامية الحرة المستقلة في مواقع التواصل الاجتماعي، لأنها أضحت إعلام المرابطين الصادق في فلسطين. يدخل في إطار الانتفاضة الإعلامية تسجيل التقييمات لكل تطبيق اعتدى على حرية المسلمين في نصره القدس وقمعهها، على رأسهم تطبيق أنستجرام على بلاي ستور وجوجل بلاي ليقى أثر المسلمين في كل مكان نصره للملاحم المقدسية. فضلاً عن فضح كل قناة أو موقع إعلامي صمت عما يجري في القدس أو ساند اليهود في تغطيتهم الإعلامية على رأسها قناة العربية المدعومة من قبل حكومات مطبوعة مع الصهاينة.

علينا أن نكون مستعدين بشكل تام لمزيد عدوان واستفزازات من قطعان المحتلين والمستوطنين، فهم يسعون إلى حسم ملف القدس وتهويدها، بطرد المقدسيين منها واستجلاب المستوطنين لملئها.

ثم لا للاستهانة بثبات المقدسيين ورباطهم على قلة ذات اليد، فقد جعل الله من انتصاراتهم سبباً في انبعاث روح الفداء في الأمة. كل معركة يخوضها المقدسي اليوم هي لبننة في مشروع انبعاث أمة

بكاملها. فمن لا يملك أن يساعدهم بأسباب القوة فلا أقل من تحريض المؤمنين والإعداد ليوم لا يتخلف عنه مؤمن.

وعلى أحببنا في بيت المقدس الثبات الثبات، لأن ثباتهم ثبات أمة برمتها، وإباؤهم مصدر إلهام واعتزاز للمسلمين في كل مكان، فثبات المقدسيين معلم بارز في طريق النصر المبين وتحقيق وحدة المسلمين.

أخيراً وليس آخراً فإن القضية الفلسطينية وإن كانت على رأس قضايا الأمة وأبرزها فهي ليست قضيتنا الوحيدة، فهناك قضية مصيرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل قضايا الأمة، وجب التركيز عليها في نفس الوقت والعمل على حلها، وهي قضية تخليص الشعوب المسلمة من الانهزامية والتبعية الفكرية للمحتل، والتحرر من الغزو الفكري الذي سلطه علينا الغرب كأغلال تحرمنا كل فرصة للنهوض والارتقاء، يدخل في ذلك التخلص من سطوة وكلاء الاحتلال في بلادنا المسلمة الذين يشكلون أداة من أدوات الهزيمة الفكرية والغزو الفكري، التي يقودها دعاة لتطبيع الخبيث وكل ما يشغل أبناء الأمة بالتفاهات على حساب قضاياها الكبرى والمصيرية أو يدخلها في دهاليز الخيانات ونقض عرى الإسلام.

وأن نستفيد من الدروس التي رسختها ملاحم القدس، بالاستقلال بإعلامنا وتوحيد جهودنا وعدم الاستهانة بكل جهد، في سبيل تحقيق أهدافنا واسترجاع مكانتنا التي تليق بأمة مسلمة هي خير أمة أخرجت للناس.

ختاماً

ختاماً فإن عزاءنا في هذه الأحداث قول رسول الله ﷺ: “لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم؛ إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله! وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس“⁽¹⁾.

عزاًؤنا أن خلافة آخر الزمان كما بشرنا نبينا ﷺ، مقرها بيت المقدس، ما يدل على أن جميع جهود العاملين لهذه الأمة تتجه نحو هذه المحطة لتتوج بنصر مبين، ويدل على أن القدس ستبقى نقطة مشتركة ونقطة ارتكاز لجميع أبناء هذه الأمة لا تنفك جزءاً من عقيدتنا ومستقبل أمتنا.

(1) الحديث صحيح وله شواهد.

فليكن اليقين زادنا والإسلام دليلنا والصبر عدتنا والصدق ذخيرتنا والوحدة وسيلتنا حتى يقر الله أعيننا
باسترجاع بيت المقدس، وإلى ذلك الموعد الحق، لنكن عقبات كأداء، في طريق كل محتل وعميل،
فاستعينوا بالله واجتهدوا، فإن الله مولانا ولا مولى لهم.

السودان .. المستجير بالغرب حين كربتته كالمستجير من الرمضاء بالنار

لم يكن خبر إعلان الحكومة السودانية عن اعتناقها نظام الحكم العلماني لإدارة البلاد، صادماً بالنظر للتطورات السريعة والعنيفة التي مر بها السودان منذ الإطاحة بحكم الرئيس السابق عمر البشير في عام 1440هـ (2019م). فضلاً عن التصريحات الصريحة في تمجيد العلمانية على ألسنة المسؤولين الحكوميين.

فقد تعرض السودان لتغيرات جذرية تجاوزت كل التوقعات كان أبرزها إعلان التطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي، بعد تاريخ طويل ميّز السودان كأبرز دولة مناصرة للقضية الفلسطينية انطلقت من عاصمتها الخرطوم في أغسطس/ آب 1967م (1386هـ) الاءات الثلاث “لا صلح.. لا تفاوض .. لا تطبيع” مع الاحتلال الإسرائيلي بعد هزيمة حزيران.

ولم يكن إعلان التطبيع إلا بنداً من قائمة طويلة من بنود الالتزامات التي لجّعت كشرط لتحصيل الرضا الأمريكي وحذف اسم البلاد من قائمة الدول الراحية للإرهاب وفق مقاسات واشنطن. فقد تسللت الإملاءات الأمريكية إلى المناهج التعليمية والسياسات الاقتصادية والشؤون الاجتماعية وما يتعلق بالمرأة والأسرة وتفاصيل حياة الشعب المسلم حتى الثقافية منها، فضلاً عن إبرام اتفاقيات أمنية مع القيادة الأمريكية والاصطفاف في المحور الأمريكي الإسرائيلي الذي ليس إلا “الصهيوصيلية” بيهيتها الدولية، دون الحديث عن دفع السودان لمبلغ 335 مليون دولار لعائلات الأمريكيين الذين سقطوا في حادث تفجير المدمرة الأمريكية “كول” أمام سواحل عدن. وأصبح السودان يواجه عاصفة شديدة من التغيير الذي يستهدف أصول دينه وثوابته التي نشأ عليها. مقابل السماح له فقط بالسعي في حل أزمتة المعيشية.

لقد كان خلف هذا المشهد الكثير من الضغوطات والمساومات الغربية وثقل صندوق النقد الدولي وشروطه المجحفة التي وقع تحت وطأها السودان على أمل الخروج من أزمتة الاقتصادية الحادة والتي - على الرغم من كل التنازلات التي قدمتها الحكومة للمجتمع الدولي - لا تزال قائمة إلى الآن ولا يزال المواطن السوداني يعاني من نفس المستوى المعيشي المتأزم والوقوف في طوابير طويلة لشراء الخبز والبنزين والشكوى من غلاء السلع وضعف الخدمات وانحيار قيمة عملته “الجنيه السوداني”.

ماذا يعني أن يصبح السودان دولة علمانية؟

أن يصبح السودان دولة علمانية يعني باختصار فصل الدين الإسلامي عن الدولة السودانية وحيادية هذه الدولة في الشؤون الدينية، مع كفالة حرية المعتقدات أيا كانت هذه المعتقدات، وألا تتبنى الدولة أي ديانة لتكون رسمية في البلاد. وبتعبير آخر الانقلاب على الدنيا، والانشغال بشهواتها وملذاتها. وفتح الباب على مصراعيه لحرية الاعتقاد، ولحفظ ما يسمى حقوق الإنسان، فيدخل في ذلك حقوق المثليين والشواذ والتحول الجندري، ومعاملة النساء والأسر وفق الشرائع الغربية لا الإسلامية، تماماً كما تمليه اتفاقية سيداو التي لقيت رفضاً كبيراً في الساحة السودانية والإسلامية لمناقضتها أحكاماً صريحة في الشريعة الإسلامية.

وفي الواقع لقد ربط الغرب جميع الحلول الاقتصادية الممكنة لإخراج السودان من أزمتته بتحويل السودان المسلم لدولة تكفل حقوق الردة والكفر والانحلال والرذيلة وتحمي دعايتها بحجة مواكبة العالم المتقدم وتحقيق مصالح البلاد. وكأن فرض الاعتراف بالاحتلال الإسرائيلي الذي لا يقف عند مجرد الاعتراف بل يتعدى إلى التعاون الأمني والاقتصادي بين البلدين بما فيه فتح المجال الجوي للطيران الإسرائيلي لم يكن تنازلاً كافياً لرفع الحصار عن السودان ولا عشرات الملايين من الدولارات التي دفعها السودان كتعويضات للعائلات الأمريكية التي قتل أبنائها في حرب لم تقدم فيها يوماً الولايات المتحدة أي تعويض لأي عائلة مسلمة قتل أيضاً أبنائها عمداً على يد القوات الأمريكية رغم توثيق جرائمهم من قبل مؤسسات حقوق الإنسان الدولية.

ما يحصل بكل صراحة هو أن المجتمع الدولي يعرض بل يفرض على السودان مقابل مساعدته في أزمتته الاقتصادية، التخلي عن دينه الذي أنار أرضه منذ عام 31 للهجرة. حيث دخل الإسلام بلاد السودان على إثر اتفاقية البقط بين عبد الله بن أبي السرح وعظيم النوبة في دنقلة، ثم تغلغل الإسلام بعدها بشكل تدريجي إلى أهالي دارفور، فانعكس إقبالهم الكبير عليه بإقامة أول سلطنة إسلامية في هذه المنطقة في القرن الثالث الهجري وهي سلطنة "الدايو" نسبة للقبيلة التي أنشأتها، واستمر الإسلام في حياة السودانيين معلماً بارزاً لهويتهم وتراثهم وعقيدتهم ترفع رايته الممالك الإسلامية المتعاقبة، مهما اشتدت بها قساوة الظروف وتكالب الأعداء، كل هذا التاريخ الماجد للإسلام في السودان تحاول

الحكومة السودانية اليوم طمسه بجرة قلم توثق توقيعتها على اتفاقيات صاغها الغرب وفق معتقداته التي يفرضها على المسلمين بسوط التجويع.

خلفية الانعطاف نحو العلمانية

وبالنظر في التسلسل التاريخي للأحداث التي عاشتها بلاد السودان يتضح جلياً ذلك التمهيد المسبق لإرساء العلمانية في بلد يُعرف عنه قوة الالتزام بتعاليم الإسلام وشعائره ومناصرته لقضايا الأمة الإسلامية ثم موقعه الاستراتيجي في خريطة العالم وثرواته الطبيعية المتعددة.

فما نشاهده اليوم من وضع اقتصادي مزرٍ في البلاد هو نتيجة طبيعية للأثر المتراكم لعقود من الصراع الداخلي والحروب التي استنزفت مقدرات السودان، ثم بشكل أكبر إلى حادثة انفصال جنوب السودان التي شكلت صدمة كبرى وضربة أقوى هزت الاقتصاد السوداني بخسارة الجزء الأكبر من العائدات النفطية مما أفضى إلى تحديات اقتصادية واجتماعية كبيرة لا تزال تعتمل إلى اللحظة، حيث خسر السودان نحو أكثر من 75% من إنتاجه من النفط، وما يقرب من 55% من عائداته المالية وحوالي ثلثي عائدات النقد الأجنبي¹، وهو الانفصال الذي حظي باهتمام غربي وإسرائيلي كبير، تجلّى باعتراف سريع من الاحتلال الإسرائيلي بدولة جنوب السودان في 10 يوليو 2011م (1432هـ)، بعد يوم واحد من إعلان الانفصال. وفي 15 يوليو، أعلنت جنوب السودان عن نيتها إقامة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع "إسرائيل" والتي انتهت بترحيب من الأخيرة وإبرام اتفاقيات التعاون في مختلف المجالات. تزامناً مع كمّ الترحيب الدولي والمساعدات التي تم تقديمها لحكومة جوبا.

وفي الوقت الذي كان اقتصاد جنوب السودان ينمو ويزدهر كان اقتصاد السودان شمالاً يتعثر والشارع السوداني يحتقن مع كل يوم تزداد فيه المعيشة سوءاً وضيقاً، تحت وطأة أخرى هي الحصار الأمريكي الجائر، حتى حانت ساعة الصفر، بعد تسبب قرار حكومي برفع سعر الخبز ثلاثة أضعاف قيمته، بإشعال شرار الثورة التي استمرت قوية وانتهت بالإطاحة بالبشير بعد ثلاثة عقود حكم فيها البلاد بسياسته الفاسدة التي هدمت أكثر مما بنت وكان الإسلام منها براء.

(¹) دراسة بعنوان : خارطة الطريق نحو سياسة وطنية للتشغيل في السودان (2014)

ولا يزال التاريخ يشهد على تفاصيل الربيع العربي في السودان وخروج الشعب السوداني في ثورة عارمة في ديسمبر/كانون الأول 2018م (1439هـ).

فلم يخرج الشعب السوداني لوحده للشارع بل خرجت معه آلام وآمال الأمة المسلمة في كل مكان، وتعلقت القلوب والأبصار بعزيمة السودانيين لاجتياز امتحان الثورات التي باء بعضها بالفشل أو تعثرت مسيرتها وأحاطها المكر من كل حدب وصوب، فكان الأمل معقوداً على ثورة السودان لتنجح.

وما لبثت الثورة أن حققت مرادها بعد إعلان الجيش الإطاحة بالبشير في أبريل/نيسان 2019م (1440هـ)، فانطلقت محادثات مع المعارضة بشأن تشكيل حكومة انتقالية.

إلى غاية هذه المرحلة كان الكثيرون يعتقدون أن ثورة السودان قد آتت أكلها وستعطف الآن لمرحلة البناء والتصحيح.

لكن الواقع كان مصادماً للتوقعات، ففي يونيو/حزيران 2019م (1440هـ)، خرج السودانيون من جديد للضغط على العسكر أمام مقر قيادة الجيش في العاصمة الخرطوم بعد تجلي ملامح استحواده على الحكم، فاستقبلهم بالرصاص الحي ووقعت مجزرة بحق المحتجين قتل فيها 87 شخصاً على الأقل، وكانت هناك وفيات أخرى خارج العاصمة.

كما عمد الجيش إلى قطع الاتصال بشبكة الإنترنت، لعزل القوى المنظمة للتظاهرات عن الجموع الشعبية الثائرة. بيد أن المظاهرات لم تتوقف واستمر الضغط الشعبي على العسكر حتى أجبر الجنرالات في النهاية على الموافقة على تكوين حكومة تشمل المكوّن المدني.

وتشكلت حكومة انتقالية جديدة في سبتمبر/أيلول 2019م (1440هـ) برئاسة رئيس الوزراء عبد الله حمدوك، كجزء من اتفاق لتقاسم السلطة لثلاث سنوات بين الجيش وممثلين مدنيين وجماعات المعارضة.

وعبد الله حمدوك الأمين العام السابق للجنة الاقتصادية لإفريقيا التابعة للأمم المتحدة. حصل على درجة الماجستير من جامعة مانشستر في بريطانيا. ويحمل الجنسية الكندية، رجع للبلاد بعد 30 عاماً

في الشتات، رئيساً لوزرائها، وينحدر حمدوك من خلفية يسارية سابقة وبحسب تعريفه بنفسه فإنه رجل برغماتي فيما يتعلق بالحكم ومصالح البلاد.

وحتى الآن، ما زال للجيش الكلمة النافذة فيما يسمى بمجلس السيادة الذي يتولى رئاسته الفريق أول عبد الفتاح البرهان. بدليل إعلانه التطبيع والاتفاقيات الأمنية وإعلان الحكم العلماني على الرغم من رفض أغلبية المكوّن المدني لذلك.

ومما يجدر تسليط الضوء عليه في هذا المقام هو أن الحكومة السودانية الجديدة تضم في مكوّناتها العسكري نفس أعضائه الذين شكلوا أذرعاً قوية لحكومة البشير السابقة، لذلك لا يزال الكثير من السودانيّين لا يقبلون بهذه الحكومة التي يرون أنها ليست إلا صفقة تسوية ملطخة بالدماء. ويتساءل بعضهم لماذا يحاكم البشير لوحده بينما رفاقه يستمرون في حكم البلاد!

مستقبل السودان

لم تهدأ تماماً البلاد رغم كل ما مر عليها من محاولات التهدئة وإبرام اتفاقيات السلام، حيث شهدت محطات لها دلالاتها المستقبلية، منها محاولة اغتيال حمدوك في آذار/مارس 2020م (1441هـ)، التي نجا منها بعد تعرض موكبه لتفجير قنبلة وإطلاق النار، مما أثار جدلاً في الساحة السودانية بين مصدق ومكذب يعتقد أنها حركة من حمدوك لاستجداء تعاطف الشعب السوداني.

ومنها أعمال العنف التي تندلع من حين لآخر بين القبائل في دارفور والتي أجبرت عشرات الآلاف على الفرار من منازلهم.

ومع أن محادثات السلام وصلت لاتفاق نهائي لتقاسم السلطة مع حركات التمرد المسلحة في ولايتي جنوب كردفان والنيل الأزرق إلا أن الاتفاق لم يشمل جميع الحركات المسلحة حيث لا يزال جزء منها يحمل السلاح.

ثم يبقى أبرز معلم في المشهد السوداني هو حقيقة أن الشعب السوداني يعارض قرارات حكومته في تطبيع العلاقات مع الاحتلال الإسرائيلي باعتباره موالاة لليهود، وقراراتها في تطبيق القوانين العلمانية المخالفة للدين الإسلامي، يتجلى ذلك في الاحتجاجات التي تندلع من حين لآخر في شوارع البلاد

وتحرق خلالها أعلام الاحتلال الإسرائيلي وفي بيانات العلماء والدعاة والمؤسسات التي أعلنت رفضها للقرارات الحكومية المعادية للإسلام، كان منها الاتحاد السوداني للعلماء والأئمة والدعاة الذي أصدر بياناً للرد على قرار الحكومة في التحول لنظام الحكم العلماني، يحمل عنوان “تجاوز البرهان حدود ما أنزل الله”. حيث أكد فيه الاتحاد على أن قرار العلمانية، “فيه تجاوزٌ وطغيان وبغيٌّ وعدوان، وانتهاكٌ لإرادة الغالبية العظمى من شعب السودان المسلم الذي له هويته وخصوصيته.”!

كما أكد أيضاً على “أن الإتفاقية الأخيرة باطلةٌ ومنبوذةٌ لأنها تقوم على مبدأ يُصادم هوية وثوابت الغالبية العظمى من أهل السودان ويفرض باستبداد فكرةً مُناهضةً للإسلام ومصادمةً لنصوصه الواضحة الصريحة وهي خروج على الدين وحرب عليّة جهرية وسعي في أرض المسلمين بفسادٍ لا يحل السكوت عليه أبداً.”

وطالب الشعب السوداني بإعلان رفضه لهذا القرار، و”أن يتحمل مسؤوليته أمام الله فيقوم بدوره لإبطال هذه الإتفاقية ومناهضتها والوقوف ضدها”، ليختم بيان الاتحاد السوداني للعلماء والأئمة والدعاة خلاصاته بإشارة جادة لما قد تتجه نحوه الساحة السودانية في قابل الأيام حيث جاء فيه: “إذا رضي البرهان بالتمرد على الله ارضاءً لقلّة قليلةٍ حاملةٍ للسلاح. فإننا ندعو الأمة للتمرد عليه والانتفاضة على سلطانه ليعلم هو ومن معه أنّ الأمة لا تفرط في شيء من دينها وأنها قد بايعت الله على نصرته شريعته وإعلاء كلمته، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم قتل فهو شهيد، والله غالب على أمره وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً.”

إلى هنا تتضح لنا الخطوط العريضة للمشهد السوداني بين حكومة مكوناتها مضطربة، قد أذعنّت للغرب وقبلت بجميع شروطه وإلزاماته المجحفة التي تهمّش الإسلام وتفتح الباب لحرية غيره من ديانات ومعتقدات في أرض تعد قلعة حصينة لهذا الدين منذ قرون، كل ذلك على أمل أن ينعكس هذا التنازل على معطيات الاقتصاد وتجاوز الأزمة الاقتصادية، وبين شعب أصبح يواجه سيلاً من دعاوى التصالح مع الاحتلال الإسرائيلي ونسيان الماضي وتيارات شغلها الشاغل التخلص من أحكام الشريعة بما فيها التي تتعلق بحفظ الأسرة والمرأة، وكل ما يدخل في تزيين ما كان بالأمس مستهجنًا وقبيحاً جداً وحرماً في عقيدة السودانيّين. والشماعة مرة أخرى تحسن الوضع المعيشي.

لقد شكل هذا الوضع المعيشي المتأزم نقطة الارتكاز التي يركز عليها الغرب في دفع السودان إلى تقديم القربات له بالتنازل عن الإسلام وتاريخ السودان وثقافة شعبه وتراثه ليتحول إلى نسخة ترضي الأمريكيين واليهود وتجعله تابعاً ذليلاً لسياساتهم خادماً لمصالحهم، يخشى غضبهم وعقابهم.

وفي المقابل لم تتحقق بعد مطالب الشعب الذي خرج ثائراً طويلاً، لاستعادة كرامته وحرية، فلم تتحقق بعد الانفراجة الاقتصادية ولم تتحقق بعد العدالة بحق أولئك الذين قتلوا في الثورة على يد المجلس العسكري الذي يحكم البلاد اليوم أو الذين ظلموا خلال ثلاثة عقود من حكم البشير، في وقت يبدو مستحيلاً تحقيق هذه المطالب بينما يحكم البلاد الجنرالات أنفسهم في مقدمة المشهد السياسي.

الخلاصة في المشهد السوداني

من كان يعتقد أن الغرب سيسمح بصعود السودان قوياً اقتصادياً وقوة متنامية في المنطقة التي يتم إعدادها لسيادة اليهود فهو واهم، فكل ما يحدث هو عملية ترويض، لأجل أشع استغلال ممكن لهذه البلاد المسلمة، ترويض بدأ العمل عليه منذ إدراج السودان في قائمة الدول الراعية للإرهاب بحسب التصنيف الأمريكي، ثم بانفصال جنوب السودان وتصاعد النبرة التغريبية داخل المجتمع السوداني تقودها شخصيات تربت في أحضان الغرب وتشربت من فساد أفكاره.

وأما عن وعود هذا الغرب بشأن الاقتصاد السوداني فإن الدول الكبرى تكافح ليصمد اقتصادها فلن تقدم أكثر من فتات للاقتصاد السوداني مقابل تنازلات عظمى تمس وجوده وكيونته.

نعم قد يقدم الغرب للسودان بعض الفتات لإنعاش الاقتصاد بعد فصل الدين الإسلامي عن الدولة لكن مقابل ذلك سيتم ضخ الأفكار الغربية المريضة في المجتمعات السودانية بمعية حركة التغريب التي تعمل على قدم وساق وتسخر لأجلها الخزائن والوسائل والخطط والعملاء والإعلام والأبواق، لتتحول السودان تدريجياً، لبلاد الإلحاد والشذوذ والتحول الجندري والبيدوفيليا والبهيمية التي لا قاع لها ومحطة لتجارة المخدرات والجنس وما يهدم المجتمعات، ومركزاً لدعوات التنصير والتهويد تدعمها دول كبرى وتمويلات ضخمة تتربص بالفقراء والمحتاجين، ستتحول البلاد لمستنقع رذيلة وكفر، لكنها لن ترى أبداً اقتصاداً قوياً كما يزعم الغرب.

فتأمل كيف تتم مقايضة العقيدة بتحسين المعيشة، وكيف يجعل الغرب التنازل عن الإسلام شرطاً أول لأجل كف حصاره الجائر، وكيف يروض السودان فينسلخ من عقيدته وتاريخه ومقوماته بسوط التجويع والإذلال. مع أن أصل المشكلة في الاقتصاد!

قال تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ).

ولن يكون السودان الأول ولا الأخير الذي يقع في فخ العلمانية والإلحاد، بل كل دول المنطقة مستهدفة، سواء أعلنت التطبيع المخزي أو لا تزال تُسرّه أو يجري استدراجها بطعم الاقتصاد وتحسين الأوضاع المعيشية، إنه الفخ الذي تبين بوضوح أن وظيفته الأولى هي تهميش الإسلام من حياة المسلمين وسد فراغه بكل ما حط من معتقدات وأفكار هدامة ثم إجبار الجميع على تقبيل يد اليهود طاعة ورهبة وطمعاً، لأجل أن تتهياً المنطقة لاستقبال مشروع دولة إسرائيل الكبرى، من الفرات إلى النيل!

والمستجير بالغرب حين كربتته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وختاماً، إنها معركة عقدية في أصلها، فنهضة الشعوب المسلمة وازدهارها لا يكون بجرمانها الإسلام الذي هو سر قوتها وتفوقها، بل بتنحية الفاسدين من مراكز صنع القرار وتسليم القيادة للقوي الأمين الذي يقود سفينة البلاد لشط الأمان تحذوه التقوى، فليس الإسلام هو الذي يحول دون خروج الدول من أزمتها بل عدم الحكم بالإسلام هو السبب في بقائها في ذيل الأمم، ولن يخرج السودان من أزمتته بتعرية نسائه وبيع الخمور في أسواقه، بل بقطع جبال الهيمنة التي تمنع تعافي البلاد وريقها، ونيل حرثته للتصرف في ثرواته ومقوماته بعدل ورشاد، وبعيداً عن كل المبررات فإن قطار العلمانية الذي ركبه السودان اليوم يضع الشعب السوداني المسلم أمام امتحان وجوده وكيونته، فإما أن يكون أو لا يكون.

قال تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ).

ومن ابتغى العزة بالغرب أذله الله.

المسلمون في الهند بين الإبادة العرقية ومطرقة الخذلان

هل تكفي الكلمات أو العبارات لوصف حجم الجرائم التي تستهدف المسلمين في الهند كل يوم على مدار السنة؟ أم هل سترفع التقارير والمقالات العتب عن الخذلان المرافق لممارسات الهندوس الوحشية ضد كل ما هو إسلامي!

لا يخفى على متابع لأحداث الهند أن جميع المؤشرات تتجه نحو إبادة عرقية ضد المسلمين في هذا الجزء من العالم. وهي إبادة تجري بمباركة وتسهيلات حكومية وسط تجاهل دولي لم يعد مستغرباً.

ليس المقام لسرد قائمة الجرائم التي تردد صداها حديثاً وأثارت سخط المسلمين في العالم على الرغم من أنها واقع يتكرر منذ عقود رافقه التهميش والإهمال، وإنما المقام للتذكير بواجب النصر واستنهاض الهمم لتغيير حال أمة تداعت عليها الأمم من كل حذب وصوب!

إننا نعيش في عالم نفاق بشع، يملك فيه السلطة الفاسدون الظالمون، وتُساس فيه الشعوب بالأكاذيب والخداع، ففي الوقت الذي كانت المواقع والحسابات تتشارك تسجيلاً الانتهاكات الجسيمة والاعتداءات الأقبح بحق المسلمين العزل الضعفاء في الهند، كان رئيس الوزراء الهندي مودي يحاضر عن الحريات والديمقراطية في أمريكا!

وفي تلك الأثناء التي كانت الجماهير الأمريكية تصفق لخطاب الزعيم الهندوسي - بجرارة وإعجاب - كانت تنتشر لقطات لرجال الشرطة الهندية في ولاية آسام وهم يصبون جام حقدهم على مسلم أعزل، حتى بعد أن انهار وسقط على الأرض، لترسل صيحات النذير، لقد كانوا يتناوبون على ضربه بكل وحشية ثم حين سقط يلفظ أنفاسه الأخيرة، قفز المصور الهندوسي المجرم الحاقد، بيجوي بانيا، الذي كان يرافق فريق الشرطة. مرات متكررة وهو يدوس على جسده الساكن قهراً، في مشهد يختصر عليك الكثير من الكلام والتفصيل عن درجة الإجرام التي وصل لها الهندوس ضد المسلمين في الهند حيث أصبح الحقد الأعمى وسام شرف تثني عليه الحكومة والإعلاميون!

ثم إن الدوس على جثة هامة لمسلم قتل بيد الشرطة بشكل متعمد ليس إلا حلقة من سلسلة أفعال لسلسلة مجرمين من الهندوس، من رأس السلطة إلى الذنب، يتعاونون على الإثم والعدوان في كل يوم

بلا حساب ولا رادع، ولعل لقطات رجال الشرطة وهم يحتضنون المصور ويجوي بانبا بعد جرمته بالقفز على جثة المسلم، هي في الواقع أشد قسوة من لحظات جرمته بحد ذاتها لمن أبصر أبعادها وخطورتها.

لقد كانت هذه اللقطات، سبباً في إشعال فتيل السخط في العالم الإسلامي، ولكن!

للأسف فإن قضية اضطهاد المسلمين في الهند تاريخ ممتد لم يحرك ضمائر الكثيرين إلا بعد لقطات قفزات المصور اللئيم! مع أن الهند جزء لا يتجزأ من جسد أمة الإسلام، الذي يشهد له التاريخ والحاضر بمساهمات جمة في العلم والدعوة والحضارة والدولة، وإخراج أجيال الأعلام والنجباء والمجاهدين.

ومع ذلك غابت مئات المشاهد الوحشية ضد المسلمين - التي احترقها المتطرفون الهندوس بقيادة وتحت حماية الدولة الهندية - غابت عن حديث العالم قبل هذه الحادثة! فكان واقع المسلمين في الهند بين سندان العدوان الهندوسي ومطرقة الخذلان العالمي.

أكبر إنجاز للحكومة الهندية

ثم إن المتابع لخط سير حكومة الهند وأدائها يجد أن أكبر إنجاز لحزب بهاراتيا جانانا الحاكم بزعامة مودي، كان في إذكاء مشاعر السخط ضد المسلمين والنيل منهم بالعنف الوحشي الذي لا يميز بين طفل وشيخ وامرأة! فهدمت المساجد ونهبت الممتلكات وطرد المسلمون من منازلهم وحرموا حقوق ما يسمونه المواطن، وكانت وسيلة الحكومة الهندية في ذلك الإعلام المأجور، وكتم كل صوت يدعو للكف عن هذا الإجرام المدعوم، ونتيجة لذلك، يعتقد العديد من الهندوس الآن بأن أكبر مشكلة تواجه الهند هي الإسلام. بينما كانت أكبر مشكلة تواجه الهند قبل أن يتولى مودي زمام الحكم في عام 1435هـ / 2014م، الفقر، والنمو الاقتصادي غير الكافي، والفساد المستشري!

فمنذ تولي مودي الحكم لا يزال التدهور الاقتصادي مستمراً، ومعدلات البطالة والفقر متصاعدة. لم يقابلها محاولات لتصحيح الوضع واستدراك العجز، بل قابلها تصاعد آخر في معدلات العنف والعنصرية ضد المسلمين مما دفع المراقبين لتصنيفها كمحاولة من الحكومة الهندية لصرف الانتباه عن المشاكل الأخطر التي تتهدد الهند، وللتهرب من المسؤولية. والآن بدل الحملات الانتخابية التي تقدم

الوعود بمعيشة أفضل، تحولت منصات الزعماء الهندوس إلى سباق خطابي لشيطنة المسلمين والتعبئة ضدهم وتزوير التاريخ والحقائق في سبيل الفوز في الانتخابات والبقاء في السلطة.

الدعم الأمريكي "للإرهاب" الهندوسي

ويدعم هذا الإرهاب¹ والتطرف الغرب بقيادة الولايات المتحدة، فلا يزال الرئيس الأمريكي جو بايدن يعلن في المحافل الدولية بأن مودي حليف ديمقراطي لا يستغنى عنه، وهو كذلك في الواقع، إذ تبين أن هذه الديمقراطية ليست في الأخير إلا الاضطهاد والعدوان الذي يمارس على المسلمين حصراً وأن كل من يشارك في الحرب على الإسلام حليف لا يستغنى عنه.

وهو مودي نفسه الذي ما فتئ يتفاخر بالمذابح التي وقعت في غوجارات عام 1423هـ / 2002م عندما كان رئيساً لوزراء تلك الولاية، وهو الذي يعتبر مقتل مئات المسلمين وتشريد الآلاف منهم، إنجازاً سمح بصعوده للحكم، لذلك لا يجد حرجاً في نشر صور أنقاض المساجد الأربعة التي دمرت في المنطقة على سبيل الفخر، فأبي منطلق يمكن أن يستوعبه مثل هذا الكائن يمثل هذه القناعات!

الخوف من دولة إسلامية جديدة في الهند

ومن يتأمل في التهم التي يوجهها الهندوس للمسلمين يبصر مخاوف القوم، فهم يخشون من تزايد نسبة النمو السكاني بين المسلمين، لذلك يهتمونهم بالحرص على التفوق الديمغرافي على الهندوس بهدف إقامة دولة إسلامية، وذلك بالنظر إلى تاريخ المنطقة المزدان بحضارات الدول الإسلامية المتوالية.

ومن المثير للسخرية خشيتهم على أبقارهم المقدسة، فيمنعون المسلمين من ذبحها، ويعتدون عليهم إن فعلوا، ولا تزال دوافعهم الإيديولوجية العنصرية تغذي رغباتهم المريضة في إعدام المسلمين دون محاكمة! وهكذا يكفي أن تكون مسلماً ليحيز الهندوس استهدافك بدم بارد في الهند!

(1) مع العلم أن مصطلح "الإرهاب" يتم توظيفه غالباً عند وصف المقاومة السننية والجماعات الجهادية وكل مسلم يرفض الخضوع للطغاة، وتوظيفه هنا من باب الإشارة لسياسة الكيل بمكيالين أمام جرائم الهندوس حين يكون الضحية هو المسلم.

على خطى بورما وتركستان الشرقية

وعلى خطى بورما وتركستان الشرقية تنضم كشمير وولاية آسام وبقية المناطق التي يقطنها المسلمون في الهند إلى قافلة المشردين في الأرض، بلا حق ولا قوة تحفظ حقوقهم في عيش كريم، وبدل أن يتفاعل العالم مع هذه المأساة، نشاهده يتفاعل مع ثناء مودي على "رسالة غاندي" والحديث عن السلام واللاعنف والاحترام والتسامح المزعوم بهدف الترويج للثقافة الهندية و"سعة صدر" نيودهي المزعومة، وهو وصف لا يخرج عن صفحات الصحف ودعايات الخطب بعيداً تمام البعد عن الواقع. مع العلم أن تكريم مودي لغاندي يأتي في وقت يمجّد فيه قادة حزب بهاراتيا جاناتا علانية قاتل غاندي الذي كان متعصباً هندوسياً من سلالتهم.

والواقع الهندي الآن يخضع لمتطلبات رواية الحزب الحاكم الوحشية واللاإنسانية ضد المسلمين. فأعضاء حزب بهاراتيا جاناتا الحاكم يشيرون إلى المسلمين الهنود على أنهم "نمل أبيض" يأكل موارد الهند، ويحرم الهندوس من حقهم في أرضهم. لتبرير جرائمهم البشعة بحق المسلمين بشكل قانوني سليم.

بداية لما هو أبشع

ورغم ما وصلت له الممارسات الهندوسية من بشاعة إلا أنه يعد في الأخير مجرد بداية لما هو أبشع ينتظر المسلمين في كشمير والولايات الهندية التي يقطنها المسلمون خاصة مع محاولات التجريد من الجنسية الهندية والتغيير الديمغرافي والترحيل القسري للمجمعات المسلمة وتشتيت شملها وإضعافها، ومسح معالم الإسلام في البلاد على مستوى التاريخ والحاضر على حد سواء.

ومن المهم الإشارة في هذا الصدد لما ذكرته مجلة "تايم" الأمريكية بشأن أحداث ولاية آسام الأخيرة حيث قالت: "إن ولاية آسام هي مختبر مودي الكبير، حيث إنه يضع المسلمين في اختبار حقيقة المواطنة، قبل أن يطبقها على كل الهند فحزبه يريد ببساطة أن تتخلص الهند من "المهاجرين البنغلاديشيين" لكنها تستخدمه كرمز للمسلمين الهنود، وقد حرم ما يقرب من مليوني شخص من حق التصويت في الولاية. كان أقرب تشابه لما فعلته حكومة مودي بالسحب الواسع للجنسية، هو الحرمان الجماعي لمسلمي الروهينجا عام (1402هـ) 1982م من حق التصويت في ميانمار، قبل المذابح

والنزوح الجماعي بعد ذلك بسنوات وفي ولاية بيهار المجاورة لآسام، تطلب الحكومة من الناس الإبلاغ عن “المهاجرين غير الشرعيين المشتبه بهم”.

ولا غرابة أن يقلق 17 مليون مسلم في ولاية بيهار بشدة بشأن مستقبلهم و25 مليون آخرون في ولاية البنغال المجاورة، التي تقع على الحدود مع بنغلادش، بعدما أصاب إخوانهم في ولاية آسام مؤخراً. وهذا يدل على أن الصمت على ما يجري حالياً ليس إلا مساهمة في تدمير مستقبل المسلمين في المنطقة بشكل كامل. وأن ما مر من ظلم وعدوان ولا يزال يُنقل إلينا ليس إلا البداية فقط لما ينتظر المسلمين في هذه الأرض. وكأن مصيرهم مصير أندلس جديدة!

استهداف اقتصاد المسلمين

وما يؤكد أن ضربات الهندوس مدروسة بشكل دقيق، تركيزهم على اقتصاد المسلمين، فقد شملت الهجمات الهندوسية الباعة والتجار وشركات يملكها المسلمون ولا تزال في تصاعد لافت. وتُظهر العديد من مقاطع الفيديو مسلمين يتعرضون للضرب حتى الموت بالعصي والقضبان الحديدية. ومن الشائع جداً أن نشاهد لقطات لرجل يسحل من متجره قبل أن يضرب حتى الموت. تم يتم بث مقاطع الفيديو هذه على منصات دولية مختلفة. كأنه إعلان حرب.

ولا داعي لترجمة الشعارات المعادية للمسلمين في نيودلهي التي يطلقها حزب بهاراتيا جاناتا، كما يعي القلم عن تسجيل عدد الاعتداءات التي تنال من المسلمين وتنشر بشكل مقاطع فيديو مؤذية لمن يشاهدها من إخوانهم المسلمين.

ولا غرابة أن تتفق التقارير على أن المسلمين هم الأفقر بين جميع الطوائف الدينية في الهند وأنهم يتركزون في وظائف منخفضة الأجر في القطاع غير الرسمي.

فمنذ تولي حزب بهاراتيا جاناتا السلطة في الولاية الشمالية في عام 2017، كانت إحدى خطواته الأولى هي إغلاق المسالخ ومحلات اللحوم التي يملكها المسلمون بحجة مخالفة اللوائح القانونية. وتم فرض إغلاق جميع متاجر اللحوم وحظر جميع المطاعم من تقديم الأطعمة غير النباتية في مواسم الهندوس احتراماً “للمشاعر الهندوسية”. وأثرت هذه القرارات بشكل مباشر في تجارة المسلمين حيث أنهم أكثر من يعمل في تجارة اللحوم والدواجن في الهند.

وتشير المتابعات إلى أن الهجمات الهندوسية تذهب باتجاه إضعاف القوة الاقتصادية للمسلمين وإفقارهم حيث لم ينج من هذه الهجمات حتى بائعو الفاكهة بحجة نشرهم فيروس كورونا. ووضعت ملصقات في عدة قرى تعلن أن الباعة من المسلمين غير مرحب بهم في تلك المناطق. مع العلم أن نسبة الموظفين المسلمين في الحكومة الهندية لا تتعدى الـ1% وهي في انخفاض مستمر.

ويرى الكثير من المراقبين أن خلف هذه الهجمات المدروسة ضد المسلمين ونشاطاتهم دوافع أيديولوجية، حيث يعتقد زعماء الهندوس أنهم بفرض الفقر على المسلمين سيتم إجبارهم على اعتناق الهندوسية في سبيل لقمة العيش! يشير إلى ذلك الخطاب الذي ألقى في كانون الثاني (يناير) 2021، في بانشايات هندوسية (أي تجمعات جماهيرية) في ميروت بولاية أوتار براديش، الذي ألقاه الداعية المعادي للمسلمين “سوامي أناند سواروب” حيث قال فيه إن الهندوس “يجب أن يقرروا أنهم لن يشتروا أي شيء من المسلمين”. وقال لحشد من المئات: “إذا قمنا بتدميرهم اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، فسوف يبدأون في التحول إلى الهندوسية من الإسلام”. ما يلخص طبيعة الصراع الإيديولوجي الذي يدور في الهند في نهاية المطاف. وتعبير آخر فإن الهندوس يمارسون سياسة تركيع المجتمع المسلم من خلال زيادة تهميشه اقتصادياً إما لأجل أن يرتد عن الإسلام ويعتنق الهندوسية أو للبقاء في حالة استضعاف لا حول لهم ولا قوة. فيتم استعبادهم على أكمل وجه.

دعم فيسبوك للاضطهاد

ويبدو أن حملة اضطهاد المسلمين لم تقتصر على تعاون الإعلام المحلي بل وصل التعاون معها إلى غاية شبكات إعلامية عالمية مثل منصة فيسبوك المثيرة للجدل، فقد أكدت فرانسيس هاوجين، الموظفة السابقة في فيسبوك، أن المنصة الزرقاء لم تتخذ سوى القليل من الإجراءات لمنع الترويج للروايات الاستفزازية المعادية للمسلمين على منصتهم في الهند. وقالت إن محتوى “الترويج للخوف” و “نزع الصفة الإنسانية” يتم الترويج له من خلال حسابات فيسبوك المرتبطة بالمنظمة القومية الهندوسية (راشتريا سوايام سيفاك سانغ).

وقالت هاوجين إن الخطابات المعادية للمسلمين استهدفت المجتمعات المؤيدة للهندوس بقصد العنف والتحريض. وأنه لم يتم اتخاذ أي إجراء ضد معظم هذه المحتويات لأن الشركة تفتقر إلى “المصنفات

الهندية والبنغالية”. والمصنفات عبارة عن خوارزميات تكتشف الكلام الذي يحض على الكراهية. ويعني عدم وجودها أن الكثير من هذا المحتوى لم يتم الإبلاغ عنه أو اتخاذ إجراء بحقه.

لقد كان فيسبوك على دراية تامة بتلك المحتويات التي يتم الترويج لها على منصته في الهند، لكن “الاعتبارات السياسية” منعت المنصة من اتخاذ إجراءات حقيقية بحسب الوظيفة السابقة التي أكدت بأن هناك عدداً من المنشورات اللاإنسانية تقارن المسلمين بـ”الخنزير” و”الكلاب” والمعلومات الخاطئة التي تزعم أن القرآن يدعو الرجال لاغتصاب الهندوسيات.

ويشترك في فيسبوك من الهند أكثر من 530 مليون مستخدم، وهي أكبر سوق من حيث مستخدمي فيسبوك في العالم.

ومع ما يعيشه المسلمون في الهند من حملات قمع واضطهاد لا تزال أصواتهم تعلق للاستغاثة بتنظيم الاحتجاجات وإرسال الرسائل والنداءات يصلنا بعضها بأصوات مبحوحة تدمي الفؤاد!

الإسلاموفوبيا في الهند مع تنامي تأثير بوليوود

لم يقف أمر التطرف الهندوسي على السماح له بالانتشار في منصة فيسبوك والشبكات الإعلامية الهندية، بل ينتشر أيضاً بواسطة “بوليوود” المؤسسة الإعلامية الهندية العالمية التي تحرص على نشر الثقافة الهندية بكل تفانٍ، وحققت درجات وصول كبيرة في العديد من الدول في العالم الإسلامي مثل ماليزيا وتركيا وإندونيسيا ودول الخليج.

ولا ينبغي الاستهانة ببوليوود بحسب بعض التقارير الإعلامية، نظراً لحقيقة أن هذه الصناعة تنتج أكبر عدد من الأفلام سنوياً – بمعدل 1200 فيلم سنوياً في هذه الصناعة التي تبلغ قيمتها مليار دولار. ما يجعل من بوليوود ذراع نيودهي لنشر الثقافة الهندية في جميع أنحاء العالم كأداة فعالة للقوة الناعمة للهند.

وهناك بعدان لهذا النفوذ الهندي المتزايد؛ المشاركة الثقافية مع بقية العالم بالإضافة إلى أنواع أخرى من المكاسب، بما في ذلك المكاسب الاقتصادية من خلال تجارة الملابس، والتي قد يكون لها تأثير أقل من

المشاركة الثقافية التي تروج للهندوس بكثافة في السنوات الأخيرة وتلغي معالم الإسلام في البلاد وتشجع الإسلاموفوبيا.

الإسلام في الهند

حمل المسلمون الأوائل الإسلام إلى الهند، يدعون الناس إلى التوحيد والإخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعاً. في وقت كانت فيه الهند تعن من الفرقة والنظام الطبقي الجائر فأقبل الهنود على دين الله أفواجاً وانشرحت قلوبهم لهذا الدين العظيم، الذي حررهم من عبء الجاهلية، والوثنية الهندوسية المحشوة بالخرافات والأساطير. وكان لهذا الإقبال بركاته فازدهر الإسلام في الهند وانتشر. وقد كان قدومه لهذه الأرض قديماً جداً منذ عصر الخلفاء، يقول أبو مسعود الندوي: “وليعرف كل من اطلع على التاريخ أن بلادنا - الهند- تنورت أيضاً بنور الإسلام في القرن الأول من الهجرة، وتشرفت بأقدام المجاهدين الأولين من العرب” وبالفعل فقد بدأ التفكير في نشر الإسلام في الهند منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أشار لواليه في البحرين بتسيير جيشه إلى الهند وكان فيه عدد من الصحابة رضي الله عنهم. أعقب ذلك فتوحات السند أيام عهد الدولة الأموية حيث استمر حال المسلمين في الهند أمة واحدة في حال طيبة حتى جاء الاحتلال البريطاني فتسبب في محنة المسلمين.

ولا تزال صفحات التاريخ تستعرض بفخر بطولات وأمجاد صاحب الدولة الغزنوية “محمود الغزنوي” في هذه الأرض، فقد كان أول من دخل الهند من الفاتحين بطريق الجبال الشمالية الغربية وليست الحقبة الوحيدة لصعود المسلمين في هذه البلاد، فقد شهدت الهند قيام العديد من الدول الإسلامية العريقة، فبعد الدولة الغزنوية قامت الدولة الغورية ودولة المماليك، والدولة الخليفة والدولة الطغلكية والدولة المغولية ووصلت خلال ذلك الهند إلى أعلى مستويات الحكم الإسلامي حيث رافقتها حضارة ماجدة لا تزال آثارها تترصد بها الأحقاد الهندوسية.

أما الآن فيعدّ الإسلام ثاني أكبر ديانة في الهند بعد الهندوسية، نحن نتحدث عن 400 مليون إلى 500 مليون مسلم، وفقاً لإحصائيات غير رسمية، أما الأرقام الرسمية فلا شك أنها أقل من ذلك بكثير فيما يدخل في سياسة التقليل من أعداد المسلمين التي نشاهدها مع كل بلاد يعيش فيها المسلمون كأقلية.

الحلول الممكنة

بعد عد المآسي والتواصي بالتنديدات والشجب آن أوان العمل الجاد.

بداية، كما يستهدف الهندوس المسلمين ثم ينشرون جرائمهم إعلامياً بلا مبالاة يجب أن تستمر المناصرة الإعلامية بشكل مكثف، لتحقيق الضغط على الهند.

ثانياً: بما أن الهندوس يستهدفون اقتصاد المسلمين فلن أنصح بمجرد مقاطعة المنتجات الهندية بشكل عام بل أرى أن يتم تركيز المقاطعة على منتجات الهندوس، وأن يقتصر التعامل مع المنتجات من شركات المسلمين، وحبذا التعامل المباشر مع المصدرين المسلمين في الهند بدل الهندوس، حيث يجب مساعدة اقتصاد المسلمين ودعمهم، ويدخل في ذلك العاملة الهندية المسلمة، ورفض الهندوسية بكل أشكالها.

ثالثاً: بما أن منطق القوة هو ما تتعامل به حكومة مودي فيجب دعم حركات المقاومة والتحرر الإسلامية في البلاد حتى وإن اقتصر الدعم على المستوى الإعلامي فقط، مثل تلك في كشمير، فهذه الجماعات الإسلامية تسعى للاستقلال منذ عقود ومناصرتها ضعيفة بين المسلمين مع أن مطالبهم مشروعة وعادلة. ولا يزال الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي، والتعذيب أبرز ما يصف الواقع الكشميري، إضافة إلى حصار مطبق وقمع لا ينتهي سيستمر في تغذية الرغبة في الاستقلال وتقوية صفوف المقاومين والمجاهدين.

رابعاً: بما أن الخذلان قد استمر طويلاً مع المسلمين في الهند فمن المهم ربط جسور الدعوة والتطوع معهم، والعناية بنتائجهم الأدبي والإسلامي ودعمهم بالدعاة والعلماء، والمتطوعين والمترجمين، كما أن رحلة تطوع لمساعدة المسلمين في إدارة المدارس التعليمية والمراكز الدعوية هي إنجاز في قائمة الإنجازات المهمة لدى النجباء. دون أن ننسى صناعة الوعي بتاريخ الإسلام في هذه البلاد وتثمين دور المسلمين فيها فلا يندثر بالتحريفات الهندوسية. ولعل بعض الاجتهاد سيسمح بتطوير آليات تسمح بحفظ الحضور الإسلامي قويا رغم عقبة العدوان الهندوسي.

خامساً: بما أننا أمة قد تقطعت أوصالها وتفرقت صفوفها فإن العمل على عودة الوحدة الإسلامية تحت سلطان الخلافة الإسلامية يعد من أوجب الواجبات اليوم ويجب العمل عليه بشكل حثيث،

ويدخل في ذلك إعلان الولاء للمسلمين الهنود والبراءة من أعدائهم جميعاً، ومقاطعتهم ومنع تسلل ثقافتهم إلى مجتمعاتنا، مع العلم أن وحدة القلوب تسبق وحدة السلطان فليكن العمل على توحيد كيانات ومجتمعات المسلمين حتى تتهيأ لاستقبال عصر الخلافة الواعدة بإذن الله، كمثل جسد واحد.

سادساً: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فليقم كل مسلم بالنصرة التي يقدر عليها حتى يعذر أمام الله وليحرص على ألا يدعم هندوسياً أبداً.

ختاماً: نفس المآسي تتكرر في تركستان الشرقية وبورما والهند وإفريقيا الوسطى منذ سنوات طويلة، يشترك المسلمون في هذه المناطق جميعاً في نفس المصير، وأي مصير! إبادة عرقية تجري على قدم وساق بمباركة وتسهيلات دولية. إنه زمن تداعي الأمم، ولا حل لأزماته إلا العودة للإسلام، منهجا يحكمنا ومنظومة حياة.⁽¹⁾

(1) المراجع: تقارير متابعة إعلامية لأحداث الهند

كشمير : كل ما يجب أن تعرفه كمسلم عن قضية الإقليم المنسي

تعيش بلاد كشمير ذات الأغلبية المسلمة صراع وجود وهوية منذ أكثر من سبعين سنة⁽¹⁾.

وتتميز كشمير بموقع استراتيجي هام بين وسط وجنوب آسيا حيث تشترك في الحدود مع أربع دول هي الهند وباكستان وأفغانستان والصين. مما أكسبها عمقاً أمنياً إستراتيجياً لجيرانها وخاصة للقوتين النوويين الهند وباكستان.

وكانت كشمير وقت تقسيم شبه القارة الهندية تتكون من خمس مناطق هي وادي كشمير، جامو، لاداخ، بونش، وبلتستان وجلجت. وبعد عام 1947م سيطرت الهند على جامو ومنطقة لاداخ، وبعض الأجزاء من مقاطعتي بونش وميربور ووادي كشمير -أخصب المناطق وأغناها-، في حين بسطت باكستان سيطرتها على ما يسمى الآن بكشمير الحرة وهي مناطق بونش الغربية ومظفر آباد وأجزاء من ميربور وبلتستان. واتخذت الهند من مدينة سرينجار عاصمة صيفية للإقليم ومن مدينة جامو عاصمة شتوية له، في حين أطلقت باكستان على المناطق التي تسيطر عليها آزادي كشمير أي كشمير الحرة وعاصمتها مظفر آباد.

أما الصين فتحكم حالياً منطقة ديمشوك، ووادي شاكسغام، ومنطقة أكساي شن، وتنازعها الهند على هذه الأقاليم التي تدعي الصين امتلاكها منذ استيلائها على أكساي شن خلال الحرب الهندية الصينية عام 1962م.

ويعيش في كشمير نحو 13.5 مليون نسمة في إحصاء 2014م بحسب الوكيبيديا منها حوالي 77% مسلمين، وبقية السكان من الهندوس والسيخ والبوذيين ومسيحيين وأقليات أخرى.

وتقدر المصادر الكشميرية شبه المستقلة تعداد الكشميريين بواقع 8.5 ملايين نسمة في جامو وكشمير، و2.5 مليون نسمة في كشمير الحرة، ومليون نسمة في جلجت وبلتستان و1.5 مليون نسمة موزعين في الهند وباكستان ودول الشرق الأوسط وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2019م.

الهند تستولي على كشمير

ورغم إقرار الهند بحق تقرير المصير للشعب الكشميري الذي أعلنته الأمم المتحدة في قرار مجلس الأمن الدولي رقم 47 الصادر في عام 1948م أعلنت نيودلهي في 7 أغسطس 2019م ضم الإقليم لممتلكات الهند فيما اعتُبر عدواناً جديداً بحق الكشميريين يحرمهم من حقهم السابق في الاستقلال في جميع المسائل باستثناء الشؤون الخارجية والدفاع والاتصالات.

وعلى إثر هذا القرار؛ أطبقت الحكومة الهندية الحصار على كشمير وفرضت حظر التجول على السكان وأغلقت خطوط الهاتف والإنترنت، ليحرم قرابة التسعة ملايين شخص في المنطقة من الاتصال بالعالم الخارجي ولم ترجع الخدمة إلا جزئياً بحسب تصريحات مسؤولين في الحكومة الهندية.

كما نشرت عشرات الآلاف من القوات الهندية في شوارع البلاد وبدأت مرحلة من الاحتلال الهندي للبلاد المسلمة. وهو الاحتلال الذي أدى وفقاً للباحثين إلى ارتفاع حالات الانتهاكات لحقوق الإنسان والأعمال الإرهابية ضد السكان المدنيين بما في ذلك القتل خارج نطاق القضاء، والاعتصاب، والتعذيب، وحالات الاختفاء القسري .

كشمير التي يضطر فيها الرجال للتسلل من أجل أداء الصلاة وتحشى فيها النساء على أنفسهن من الاعتداء تشكو عدوان الهند منذ أكثر من 7 عقود يشتد في محطات ويهدأ في أخرى مما ولد حركات مقاومة داخلية تنشد الاستقلال.

ولا يمثل إعلان حكومة الهند إلغائها الحكم الذاتي للإقليم أمراً جديداً، ذلك أن الجيش الهندي لطالما انتهك حقوق كشمير والكشميريين ولكن التصعيد الأخير ينذر بمحاولة الهند التي يقودها حزب بهاراتيا جاناتا الهندوسي القومي المتطرف بأن يتعرض الإقليم لعملية إبادة ومحو وجود.

وكما في كل مرة أدى العدوان الهندوسي الجديد على كشمير لتوتر شديد مع الجارة باكستان وارتفعت معه احتمالية نشوب حرب جديدة بين دولتين تتمتعان بقدرات استراتيجية فائقة، ما زالت شراراتها تتوالى.

ويجدر الإشارة إلى أن كشمير ينبع من أراضيها ثلاثة أنهار رئيسية للزراعة في باكستان (السند وجلهم وتشناب) ويعد احتلال الهند لكشمير تهديداً مباشراً للأمن المائي الباكستاني.

تاريخ من العدوان الهندوسي

وما يجري اليوم في كشمير ليس إلا حلقة ممتدة من مسلسل اضطهاد وظلم نال من الكشميريين قبل تاريخ 1947م، تاريخ منح ولاية جامو وكشمير حق الحكم الذاتي مقابل انضمامها إلى الاتحاد الهندي بعد الاستقلال في نفس العام.

فمنذ صدور هذا القرار كشفت السلطات الهندية عن حقد دفين على الإقليم، وبدأت سلسلة من الإجراءات التعسفية والقمعية والعدوانية بحق سكانه.

وفي الواقع عانت كشمير كل أشكال المعاناة منذ سبعة عقود ارتفعت خلالها أصوات الكشميريين مطالبة بالحرية والاستقلال والكرامة وتطورت معها أساليب الكفاح للتحرر من الإرهاب الهندوسي دون تحقيق هدف الحرية المنشود.

ولو رجعنا قليلاً في محور الزمن سنجد تاريخ كشمير حافلاً بالأحداث والتغيرات والحروب والمواجهات.

فكشمير دخلها الإسلام منذ عهد الوليد بن عبد الملك (86-96هـ)، وامتد لقرون عرفت خلالها البلاد الاستقرار والأمن، وسمحت عدالة الإسلام بخلق نوع من التعايش بين جميع الأقليات الدينية والعرقية. وازدهرت خلال هذه القرون العديد من الصناعات والحرف.

ولكن الاحتلال البريطاني الذي كان يعتبر المنطقة من أهم مناطق التاج البريطاني، فتح باب معاناة الكشميريين واسعاً، بداية من خلال وجوده كمحتل يستنزف البلاد لمصالحه ويستعبد أهلها، ثم من بعد انسحابه الذي ترك خلفه توتراً لا زال مستمراً إلى اليوم.

فبعد انسحاب بريطانيا السريع تزامناً مع نهاية الإمبراطورية البريطانية في شبه القارة الهندية. تم تقسيم شبه القارة إلى دولتين هما الهند وباكستان، وتركت كشمير معلقة تنتظر حسماً لتقسيم أراضيها بين الدولتين الجديديتين وكان ذلك في أغسطس/آب 1947م.

ولكن الهند أطلقت يد الهندوس المسعورة لتسطر المذابح الجماعية ضد أهالي كشمير المسلمين مما أدى إلى مقتل نحو مليون شخص على الأقل فيما نزح أكثر من 12 مليون من مساكنهم يبحثون عن ملجأ آمن، فحفرت في صفحات التاريخ قصة مأساة لا تنسى.

ومنذ خروج الاحتلال البريطاني خاضت الهند وباكستان 4 حروب شاملة، انتهت الأولى عام 1949م بتقسيم كشمير وخضعت ولاية جامو وكشمير للسيادة الهندية.

بينما فشلت الثانية عام 1965م حيث امتدت المواجهة المسلحة بين الجيشين النظاميين الهندي والباكستاني لمدة 17 يوماً لم يتحقق فيها نصر حاسم لأي من الدولتين، وانتهت الجهود الدولية بعقد معاهدة وقف إطلاق النار بين الجانبين في الثالث والعشرين من الشهر نفسه.

أما الحرب الثالثة عام 1971م فكانت المواجهة من جديد لكن هذه المرة كان الميزان العسكري لصالح الهند وتمكنت بفضل ذلك من تحقيق انتصارات عسكرية على الأرض مما أدى إلى تغير التفكير الإستراتيجي العسكري الباكستاني وأدخل البلدين في دوامة من سباق التسلح كان الإعلان عن امتلاك كل منهما للسلاح النووي أهم محطاته. وأسفر قتال 1971م إلى انفصال باكستان الشرقية وتأسيس جمهورية بنغلاديش ولم يستطع الرئيس يحيى خان الباكستاني مواجهة الغضب الشعبي، فقدم استقالته في 20 ديسمبر/كانون الأول 1971م.

واندلعت الحرب مرة أخرى في عام 1999م بعد أن تدهورت الأوضاع بين البلدين من جديد حيث استخدمت المواجهة بين الهند وباكستان الطائرات والأسلحة الثقيلة كما شهدت سلسلة تجارب نووية أجراها طرفا النزاع، من باب التهديد بالقوة الفتاكة التي طورها كلا البلدين.

محاولة طمس الهوية الكشميرية

إعلان إلغاء الحكم الذاتي اليوم من قبل الحكومة الهندية كان وراءه تحركات أخرى فسرت بمحاولة مسح الهوية الكشميرية بالكامل، حيث تسعى الحكومة الهندية إلى تشجيع الهندوس على الهجرة إلى كشمير بهدف تغيير الهوية الديموغرافية للإقليم الوحيد ذي الغالبية المسلمة في الهند.

كما فصلت الحكومة الهندية الشخصيات المؤثرة في المجتمع الكشميري وعمدت لعزلهم بالإقامة الجبرية في وقت لعبت فيه الآلة الإعلامية الهندية دوراً رائداً في تشويه تاريخ كشمير وعادات الكشميريين وتراثهم، كما شجع المسؤولون الهندوس الزواج من كشميريات لتذويب الهوية الكشميرية في مكونات المجتمع الهندي الكبير.

متآمرون مع الإجرام الهندوسي

ويدعم الحكومة الهندية حكومات أخرى من أبرزها "إسرائيل" التي تقدم معلومات استخبارية عن حركات المقاومة الكشميرية، إلى جانب حضور محابراتي إسرائيلي في الأراضي الهندية. وقد أشارت الباحثة الإسرائيلية المتخصصة في الشؤون الهندية في جامعة بار إيلان، نوهت بيروودكي، لهذا الدعم الإسرائيلي لحكومة الهند حيث قالت في تحليل نشرته صحيفة "إسرائيل هيوم"، في 23 يونيو 2019م، إن حاجة الهند إلى تحسين قدرتها على مواجهة التنظيمات المتشددة دفعها إلى تعزيز أنماط تعاونها مع كل من "إسرائيل" والسعودية والولايات المتحدة. وتصف عادة "إسرائيل" كل مقاومة مشروعة بتنظيم متشدد.

وبدل التنديد والإقدام على تحركات جديدة لردع العدوان الهندوسي بحق كشمير، سارعت حكومات غربية وعربية للإشادة بالحكومة الهندية، وكان أول المسارعين لدفع عرابي التقارب والتقدير للحكومة الهندية ولي العهد السعودي الذي وقّع على خمس اتفاقيات ومذكرات تفاهم ثنائية بين الجانبين مما أثار غضب باكستان.

من جانبه دخل دونالد ترامب خلال تجمع كبير بأيدي متشابكة مع رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي، ليتقدم الزعيمان على صوت قرع الطبول لموسيقى البانغرا الهندية، وسط هتاف حضور يُقدر بـ50 ألف شخص. وليعلن ترامب عن تحالف أمريكي هندي لحرب ما يسمى الإرهاب الإسلامي. وهذا بعد تأييد سيد البيت الأبيض إلغاء الحكم الذاتي لكشمير الذي سطر معه الهنود أبشع مشاهد الإرهاب الهندوسي الحاقده.

المستقبل الغامض

وهكذا امتدت معاناة الكشميريين منذ عام 1947م إلى يومنا هذا بسجل حافل من العدوان الهندوسي بحق الكشميريين المسلمين تحت صمت وتآمر المجتمع الدولي. وفي وقت يمثل الجوار الصيني الذي انتهج نفس السياسة مع التركستانيين المسلمين حصاراً آخر لا يقل خطراً لأجل غير معلوم.

فهل ستشرق شمس الحرية يوماً على كشمير أم ستبقى ضحية الإرهاب الهندوسي والتأمر الدولي؟ سؤال تحسمه عزيمة الكشميريين على انتزاع حريرتهم من يد المحتلين وصدق أخوة باقي المسلمين في العالم بدعم مطالبهم لتحقيق العدالة واسترداد الحقوق المسلوقة (1) (2).

(1) المراجع: كشمير.. نصف قرن من الصراع - تغيير ديمغرافي بدعم إسرائيلي.. ماذا تحدف الهند من تقسيم كشمير؟ - باكستان والهند: بعد قرونٍ من الحكم الإسلامي، جاءت بريطانيا ورحلت.. فتسببت في حربٍ لم تهدأ لـ 70 عاماً - ترامب ومودي يتعهدان بحرب بلا هوادة ضد الإرهاب.

(2) Aljazeera: 'Kashmir women are the biggest victims of this inhumane siege' / Kashmir's struggle did not start in 1947 and will not end today

لماذا لا يحرك العالم الإسلامي ساكناً ضد سياسات القمع ومحو الهوية للمسلمين في تركستان الشرقية؟

(ترجمة)

هذا المقال ترجمة بتصرف.

لقد التزمت الدول الإسلامية الصمت أمام حملة القمع الصينية بحق الإيغور، وهم المسلمون في تركستان الشرقية المحتلة من الصين.

• ويُرجع الخبراء والناشطون سبب هذا الصمت إلى خشية هذه الدول من تداعيات الانتقام الصيني بسلاح الاقتصاد.

• في حين يقول آخرون إن السبب يعود إلى أن العديد من الدول العربية تحمل أيضاً سجلات ثقيلة من انتهاكات حقوق الإنسان وتخشى لفت الانتباه إليها.

• سبق وأن حاولت تركيا الوقوف في وجه الصين ولكن بكين لم تنس لها ذلك.

لقيت حملة القمع التي تقودها الصين بحق الإيغور المسلمين تحقيقات دولية مكثفة في الأشهر الأخيرة. ففي أغسطس/آب الماضي أعربت الأمم المتحدة عن بالغ قلقها، من التقارير التي تتحدث عن اعتقال الصين ما يصل إلى مليون شخص من الإيغور في داخل معسكرات خاصة في شينجيانغ بغرب الصين.

وفي شهر أبريل/نيسان ، أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية _ التي عادة ما تمارس جرائم حرب ضد المسلمين بحجة مكافحة الإرهاب وتدعم الحكام المستبدين والدكتاتوريين في أكثر من بلد مسلم _ بأنها تحيط علماً بخبر الإيغور الذين اختفوا أو احتجزوا في ظروف غامضة.

وفي هذه الأثناء التزمت الدول الإسلامية الصمت بشكل تام.

وخلال السنة الماضية، تمكن النشطاء من العثور على أدلة تثبت تعمد السلطات الصينية مراقبة نشاط الهواتف المحمولة للإيغور، وإجبارهم على حلق اللحى وتقصير الثياب. في حين يقول آخرون بأن

الصين قد أجبرت المغتربين الإيغور على الكشف عن معلوماتهم الشخصية بتهديدهم بعائلاتهم وذويهم.

من جهتهم نفى المسؤولون الصينيون وجود أي معسكرات اعتقال، رغم إقرارهم بوجودها خلال برنامج “الاستيعاب” المخصص للأشخاص الذين تم تصنيفهم كـ”متطرفين”. وقد أجرت صحيفة بيزنس إنسايدر اتصالات مع الحكومة الصينية في سبيل الحصول على توضيحات بهذا الصدد.

وقد سبق وأن تفاعلت البلدان الإسلامية مع حقوق الإنسان ، مثلما حدث في ذروة العنف الذي سألته الجيش المينيماري ضد المسلمين الروهينجا، أواخر العام الماضي. حيث نظم الأردنيون والإيرانيون احتجاجات عديدة تضامنا مع الروهينجا.

وأدانت بعثة المملكة العربية السعودية لدى الأمم المتحدة ما يجري مع الروهينجا في بيان لها نشرته على الإنترنت.

من جهتها تعهدت منظمة التعاون الإسلامي ، وهي تجمع دولي يحمل اسم “الصوت الجامع للعالم الإسلامي”، تعهدت في شهر أيار / مايو الماضي بإجراء تحقيق وافٍ بشأن أزمة الروهينجا.

فلماذا إذن لا نشاهد أي أحد يتحدث عن قضية الإيغور في الصين؟

المال ثم المال ثم المال

يقول خبراء إن العديد من البلدان المسلمة لا تظهر إنكاراً علنياً لأنها لا تريد المخاطرة بمستقبل علاقاتها الاقتصادية مع الصين.

وتشارك عدة حكومات في آسيا الوسطى والشرق الأوسط في مبادرة الحزام والطريق (BRI)، وهو مشروع ضخم أُطلق في عام 2013م ليربط 78 دولة بين آسيا وإفريقيا وأوروبا وأوقيانوسيا عن طريق شبكة من خطوط السكك الحديدية وممرات الشحن وغيرها من مشاريع البنية التحتية.

ومقابل هذا الاحتضان لمبادرة الحزام والطريق تستفيد هذه الحكومات من الصفقات الصينية التي تقدم قروضاً ضخمة لاقتصادات ضعيفة.

وهي القروض التي تثقل كاهل الدول لسدادها كباكستان التي تجد صعوبة في سداد القروض الصينية. ويبدو أن هذه الصفقات الاقتصادية هي التي تمنع هذه الدول من التحدث فتح ملف الإيغور مع بكين.

وقال سايون فان نيونيهويزن ، وهو باحث في السياسة الصينية في جامعة سيدني للتكنولوجيا ، في حديث له لصحيفة بيزنس إنسايدر: “مثل أغلب الدول ، فإن العديد من الدول الإسلامية لديها علاقات اقتصادية وثيقة مع الصين لا تزال في تصاعد.”

وأضاف: “هناك إجماع عام على أن التحدث عن الوضع في شينجيانغ قد يعرض تنمية العلاقات الاقتصادية للخطر ، وبالتالي ليس من مصلحتهم القيام بذلك.”

واعتبر أليب إركن، الناشط الذي يدير “شبكة النشرة الإيغورية” من أستراليا، مبادرة الحزام والطريق عائقاً. وقال “إن سندان الفرص التجارية والاستثمارية الضخمة، ومطرقة عبء الديون الصينية لا تضيق الخناق فحسب على الدول المسلمة ولكنها أيضا تدفعها للتعاون بشكل نشط مع الصين في قمعها للإيغور.”

بل حتى مصر التي تعتبر أحد الدول المشتركة في مبادرة الحزام والطريق، قدمت المساعدة للصين في حملتها ضد الإيغور.

ففي صيف العام الماضي ، بحسب ما أعلنت منظمة هيومن رايتس ووتش، احتجزت مصر العشرات من طلاب الإيغور بلا سبب معلن، ومنعتهم من إجراء أية اتصالات بعائلاتهم أو بالمحامين.

ووفقا لصحيفة نيويورك تايمز فقد رحلت القاهرة - في نفس الفترة - ما لا يقل عن 12 شخصاً من الإيغور إلى الصين.

وقال بيتر إيروين وهو مدير البرامج في مؤتمر الإيغور العالمي في حديث لصحيفة بيزنس إنسايدر أننا “كنا ننتظر - أغلب الظن - أن نشاهد الدول المسلمة تسارع لتقديم الدعم تلقائياً للإيغور وتوجيه النقد للصين، لكن على عكس توقعاتنا لم نشاهد أي رد فعل منها، ولم نعد ننتظره مع ما نراه

من طموحات الصين الاقتصادية التي تتجلى في مباداة الحزام والطريق، بغض النظر عن نجاح المشروع أو فشله.”

قد لا تهتم الدول العربية أصلا بمعاملة الصين السيئة للإيغور

سيكون من السذاجة أن نصف الارتباط الاقتصادي بالصين كسبب وحيد للمبالاة الدول الإسلامية بمأساة الإيغور على يد الصين.

فان نيوينهويزن يرى بأن العديد من دول الشرق الأوسط لديها سجلٌ ثقيلٌ من انتهاكات حقوق الإنسان، وتولي الاهتمام باستقرار نظام الحكم على حساب حقوق الإنسان تماما كما هو الحال مع الصين.

ذلك أن الصين تبرر حملتها على شينجيانج بشعارات حفظ السلام ومكافحة الإرهاب، وقد اتهم الإيغور المسلحون بإشعال فتيل الاقتتال العرقي في شينجيانغ وشنّ هجمات إرهابية في جميع أنحاء البلاد منذ عام 2009 حتى عام 2014م.

وبحسب فان نيوينهويزن فإن العديد من الدول العربية “تتفهم” مسألة التركيز على الاستقرار الاجتماعي كأولوية على حساب حقوق الإنسان.

وقالت أيضا بأن “العديد من دول الشرق الأوسط لديها سجلٌ ثقيلٌ من انتهاكات حقوق الإنسان بما في ذلك حقوق الأقليات الدينية. ويتفوقون مع سياسة الصين في تجاوز حقوق الإنسان هذه، أي أن الاستقرار الاجتماعي في نظرهم يسبق حقوق الأفراد.”

وبهذه الطريقة تمكنت الحكومة الصينية من تبرير وجود معسكرات لمحو الهوية الثقافية للإيغور وممارسة الإجراءات القمعية المختلفة.

وكما قال إركين لموقع بيزنس إنسايدر فرغم أن العديد من دول الخليج لديها القدرة على تحمل تبعات موقف سياسي مناهض للصين إلا أن ”أغلبها، دول قمعية للغاية تنادي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى وذلك لتحمي نفسها من تدخل الآخرين في شؤونها.”

وأوضح إركين بأن صمت الدول الإسلامية بشأن المعاملة المروعة التي يعيشها الإيغور على يد الصينيين، وخصوصاً حملة التطهير الثقافي الأخيرة التي تعرضت لها منطقة تركستان الشرقية أمر محبط ولكنه غير مفاجئ.

ويطلق اسم تركستان الشرقية على منطقة الإيغور في شينجيانغ.

وأضاف إركين قائلاً: "في الحقيقة إنه لأمر محبط أن يتحول مبدأ الأخوة بين المسلمين إلى أداة سياسية خارجية انتقائية ترتبط بشكل وثيق بالسياسة الدولية للدول الإسلامية وليس برسالة وحدتها وتضامنها معاً". بيزنس إنسايدر أجرت اتصالات بمنظمة التعاون الإسلامي للحصول على تعليق بهذا الشأن ولكنها لم تتلق أي رد.

ما الذي حدث عندما حاولت تركيا الوقوف في وجه الصين؟

تركيا وهي دولة ذات غالبية مسلمة، انتقدت معاملة الصين للإيغور في السابق، ولكن الصين لم تنس لها ذلك.

ففي عام 2009م وصف رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان، الذي يرأس حالياً تركيا: العنف العرقي في شينجيانغ على أنه أشبه بالإبادة الجماعية. وقال: " نجد صعوبة في فهم موقف القيادة الصينية التي تجلس في مقعد المتفرج أمام هذه الأحداث."

ثم لم يمض الكثير من الوقت على هذه التصريحات، حتى نشرت صحيفة تشاينا ديلي (الصين يومياً) الحكومية، تحذيراً مباشراً لأردوغان، ليتراجع عن تصريحاته، تحت عنوان " لا تتلاعب بالحقائق."

وفي عام 2015م، آوت تركيا اللاجئين الإيغور الذي نجحوا في الفرار من الصين، وكان الرد من صحيفة تشاينا ديلي مرة ثانية التحذير الموجه لأردوغان تحت عنوان "قد تسمم العلاقات وتهدم التعاون بين البلدين."

ومع أن أردوغان لم يعد يتحدث عن هذه القضية في الآونة الأخيرة إلى أن وسائل الإعلام الصينية التي تديرها الحكومة ما زالت مستمرة في تهديد تركيا.

وحيث شهدت تركيا أزمة اقتصادية ضخمة في هذا الشهر، قامت صحيفة التابلويد الحكومية، بنشر مقالة في افتتاحيتها ليس لتقديم الدعم الاقتصادي الصيني، بل لتحذير تركيا من مغبة الاستمرار في “التصريحات اللامسؤولة بشأن السياسة العرقية في شينجيانغ.”

ما هو رأي الإيغور؟

بحسب ما أوضحت مايا وانغ، الباحثة البارزة في هيومن رايتس ووتش لصحيفة بيزنس إنسايدر، فإنه من الصعب تحديد رأي الإيغور في شينجيانغ حول هذه المسألة، بسبب القيود الحكومية المفروضة بشدة على حركة المعلومات إلى خارج البلاد.

لكن من جهة أخرى يرى العديد من النشطاء الذي هم على صلة بالمنطقة، بأنه رغم العجز الذي يشعر به الإيغور في بلادهم أو في الشتات، فلا زالوا يحملون الأمل بالتغيير.

وقال إركين، مدير شبكة النشرة الإيغورية، لصحيفة بيزنس إنسايدر، بأنه “لا شك في أن الإيغور في تركستان الشرقية وكذلك في الشتات يشعرون بالعجز الشديد في مواجهة حملة التطهير الثقافي الجارية في بلادهم. ونحن نأمل أن تشدد الأمم المتحدة والدول الكبرى في العالم، على الصين وتدعم حقوق الإيغور الدينية والثقافية الأساسية كحق من حقوق الإنسان.

“ومع ذلك ورغم ما أبدته تركيا من تضامن سياسي ومساعدة للإيغور المهاجرين في السابق، فإن الكثير من الإيغور، يأملون في أن تبقى تركيا كمدافع عن الإيغور حين تستقر علاقاتها الدولية وتتجاوز مشاكلها الاقتصادية.”

وأضاف إروين من المؤتمر العالمي بشأن الإيغور قائلا: “صحيح أن المجتمع الإيغوري يفتقد للدعم حاليا، ولكنه بالتأكيد لم يُنخل عنه.”

وقال: “على الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وغيرهم أن يكونوا صريحين حين يتعلق الأمر بحقوق الإنسان، ويوحدوا صفوفهم مع الدول التي تؤمن بذلك، للوقوف بشكل جماعي ضد هذه السياسات.”

“ورغم إساءة الصين وخرقها لقواعد السلوك الدولية، إلا أن قيادتها، ما تزال قلقة بشأن كيف يُنظر إليها على المستوى الدولي.”

الروهينجا.. إبادة مع سبق الإصرار والترصد

"الروهينجا" الأقلية المسلمة التي تعيش في ميانمار (بورما) وأراكان. قد استنزفت كل ألوان الأسي، منذ تسلط عليها البوذيون والقوات الميانمارية في حملات إبادة مدروسة متوالية وعنصرية بلا حدود. شعب مسلم يعيش في أرضه، تعرض لأبشع طرق القتل والتنكيل والإذلال والإهانة والتشريد، تهمته الوحيد أنه مسلم غير مرغوب فيه. كم هائل مروّع من الصور والتقارير والحوادث والشهادات وكل ما يمتّ للمأساة بصلة ويوثق هذا الإرهاب البوذي المتعمد والباغي على أطفال ونساء وشيوخ لم يعرفه العالم كما في هذه البقعة المضطهدة، بات روتيناً متداولاً بين مواقع التواصل الاجتماعي.

لن نبالغ إن قلنا أننا بتنا لا نصدق أن هناك بشراً يقدمون على مثل هذه الجرائم غير المصنفة لشدة بشاعتها، إننا نتحدث عن جرائم البوذيين بحق المسلمين الروهينجا، وتآمر الحكومة الميانمارية (البورمية) في هذه الجرائم بلا أدنى رحمة.

التجريد من الجنسية وباقي الحقوق

جُرد المسلمون الروهينجا من مواطنتهم منذ قانون الجنسية لسنة 1982م وجردوا معها من كل حقوق أخرى كالسفر -إلا بإذن رسمي- وامتلاك الأراضي والولادات فلا يسمح لهم بأكثر من طفلين وقد أجبروا على توقيع إلتزام بذلك. إنهم مسلمون يعانون من انتهاكات لحقوق الإنسان في ظل المجلس العسكري البورمي منذ سنة 1978م عرفوا حملات الإبادة والقتل والتشريد ففر منهم الملايين إلى مصير الأسر والقتل وأنواع القمع وأجبرت نساؤهم على الإجهاض القسري!

حملات الإبادة

كانت أولى حملات الإبادة الجماعية عام 1942م، نفذتها الحكومة البورمية وراح ضحيتها أكثر من (100000) مسلم ومسلمة، ولم تكتف بذلك بل سعت منذ ذلك الحين إلى تطبيق سياسة (البرمنة) في التعامل الشرس مع القبائل غير المنضوية تحت سلطة المعابد البوذية، ورغم تمكنها من فرض البوذية بين أغلب القبائل إلا أنها فشلت فشلاً ذريعاً مع القبائل المسلمة، فلم يرتد أحد منهم عن دينه بل

زادوا تمسكا بالتوحيد وكان جواب البوذيين الموت ذبحا وحرقا في حملات إبادة استهدفت الاختطاف لأطفالهم والنهب لثرواتهم، والنسف لتراثهم، والحو لآثارهم وشعائهم، والمصادرة لحقوقهم.

أما آخر حملات الإبادة فكانت في بداية هذا العام، عندما قامت المليشيات البوذية المسلحة بإحراق وتدمير قرى المسلمين، وقتل السكان، ومطاردة الفارين منهم في الحقول والبساتين، فسقط جراء هذا البغي خمسمائة قتيل، وأكثر من ألفي جريح، ثم تكرر الهجوم بعدها بشهرين، وكان الهدف سكان مدينة (تونغو) ليلاقوا نفس المصير المرّوع.

أسئلة مشروعة

• أين هو المجتمع الدولي الذي ما فتئ يسارع لدفع قوات ما يسمى “حفظ السلام” لاحتلال كل بلد مسلم يعلن فيه إرهاب وفيه ضحايا زعموا؟!!

• أين هي جيوش الغرب التي لا تتأخر في التدخل لإحكام السيطرة حين يكون البلد مسلما أو الإرهاب إسلاميا أو هموا؟!!

• أين هي قرارات مجلس الأمن التي تصدر سريعا بنكهة القلق لفرض الهيمنة الغربية على دولة مسلمة اضطرت لارتفاع حالات القتل ومعدلات الهجرة ولأن من ورائها أنواع الفائدة كشفوا؟!!

اليوم نشاهد جميعا المجازر الدامية المبكية التي يعيشها المسلمون في أركان ولم يتحرك المجتمع الدولي بخطوة فعلية جادة واحدة لإعلان هذا العدوان إرهابا وتصنيف المعتدي في قائمة الإرهابيين بل وإرسال الأرتال العسكرية لحماية هؤلاء المستضعفين!..

لا بد أنه لن يفعل لأن ميانمار ليست دولة مسلمة!

ولابد أنه خيال حالم ذلك الذي ينتظر تحركا من منظومة دولية تم تشييدها خصيصا لتحكم العالم وتتسلط على رقاب المسلمين لصالح الدول العظمى الغربية الكافرة!! هذا ما حفرته نوازل المسلمين في أذهاننا.

إن كلّ مسلم شاهد الظلم الذي يعيشه إخوانه في أركان لا بد أن ينتفض، أن يستنكر، أن تحمله عزة الإسلام وأخوة الإسلام لا إلى الشجب فحسب بل للعمل بجد على تغيير هذا الواقع المرير وهذه المنظومة المفروضة وهذا الظلم المستمر حتى يتمكن المسلمون المستضعفون من تحصيل حقوقهم دون تسلق على مآسيهم ومتاجرة بقضاياهم باسم الديمقراطية وحرريات الشعوب التي لم تقدم إلا الظلم الحقيقي تحت شعارات كاذبة.

اللاجئون الروهينجا

كان لا بد للمجازر المروعة والعدوان المنظم أن يهجر آلاف بل ملايين المسلمين الروهينجا إلى أي بلد يطمعون فيه بعيش آمن يربوا فيه أبناءهم بحريتهم الدينية، إلا أن مأساة اللاجئين أصبحت عقبة أخرى في وجه هذا الشعب المسلم المضطهد، فحالتهم أسوء من أن توصف، وإن كانت تعتبر ماليزيا أفضل ملجأ كونه الأقل سوءاً مقارنة مع غيرها من أمصار عمدت إلى احتجاز اللاجئين وإذلالهم، فإن المقابر الجماعية للروهينغا التي عثر عليها العام الماضي على طرفي الحدود الماليزية التايلندية دون أن يتم التحقيق فيها أو تقديم أحد للمحاكمة أو استنكار الحادثة، سوى استخراج الجثث المقتولة من القبور وإعادة دفنها دون التعرف على هوية أصحابها . هي دلالة على عمق المأساة.

مصير من في الداخل

أما من أثر البقاء في بلده وموطنه على الخروج إلى مصير مجهول، فهو عرضة للقتل والتنكيل والوقوع تحت أغرب وأبشع طرق الإبادة البشرية والإذلال اللاإنساني هذا من جهة ومن جهة أخرى، بين اعتداءات واستفزازات القوات الميانمارية التي لا تتوانى في التحرش بالروهينجا المسلمين في الطرقات والتعدي عليهم بالضرب والسلب والنهب والإهانة والقسوة دون أدنى محاسبة..فضلا عن المكر من الحكومة الميانمارية التي تماطل في حل المشكلة وتأمين المستضعفين الروهينجا وكفّ يد المعتدين البوذيين، والاعتراف بهم كمواطنين لهم كامل الحق في هذه الأرض.

ورغم إعلان الحكومة الميانمارية مؤخرا مشروع تسجيل أبناء عرقية الروهينجا في إقليم راخين بأركان، شككت منظمات روهنغية في نوايا الحكومة وقصة منحهم بطاقات خضراء تزعم أنها تهدف إلى تصحيح أوضاعهم القانونية.

ويكمن المكر في مشروع البطاقات حسب رئيس جمعية الروهنغيا في ماليزيا نيانغ فيصل في أن الاستمارة التي توزع على الروهنغيين تطلب منهم الإجابة عن أسئلة تنتزع منهم إقرارا بأنهم أجنب، مثل البلد الأصلي وتاريخ الوصول إلى ميانمار ووسيلة النقل، وهي معلومات تطلب عادة من الأجانب عند وصولهم نقاط العبور للدول. مما دفع بمنظمات الروهنغيا إلى دعوة الناس في الإقليم إلى عدم ملء الاستمارات، كونها لا تعدو خدعة أخرى كسابقتها وهي البطاقات البيضاء التي أعطيت لأبناء عرقية الروهنيجا عام 1982م، بعد استنكار العديد من البلدان تجريد عرقية الروهنغيا من المواطنة، فكانت حيلة حكومة ميانمار تقديم الوعود لمن يتسلمون البطاقة البيضاء بالحصول على بطاقات هوية كمواطنين، لكن ذلك لم يحدث حتى الآن. وما هي اليوم تعدهم نفس الوعد بالبطاقة الخضراء! واختلفت الألوان والمكر واحد!

حملات الإبادة مستمرة

إن كان ما يعيشه الروهنيجا من مجازر ينتظر تقييما فإنه على سلم البشاعة الإنسانية الأول بلا منازع، ورغم نداءات الإستغاثة المتتالية التي صدرت من بقعة أرض تكاد أن تباد تحت أسماع وأبصار العالم وبسبب الإصرار والترصد، لا زالت الجريمة من طور إلى طور تتحدى ثبات المسلمين في أراكان، وآخر تهديد يحاصر هؤلاء العزل، موجة إبادة جديدة تتبع سابقتها، أعرب عنها رئيس جمعية الروهنغيا البورميين في تايلاند ميانغ تشيا مو بعد اختفاء نحو ألف شخص في أيام قليلة.

وحين يؤكد بيان الجمعيات والمنظمات الروهنغية في تايلاند بأن معظم ضحايا الهجمات الأخيرة التي يشنها البوذيون هم من النساء والشيوخ والأطفال، وأن الشباب فروا نحو الغابات والجبال، فعلينا أن نتخيل حجم الجرأة من البوذيين على إخواننا المسلمين في أراكان.

جرائم متواصلة

لم يتوقف مسلسل الجرائم في أراكان، وآخر ما استجد فيه وليس أخيرا قيام عصابات من منظمتي “969” و”ماباتا” بهدم مسجد تاريخي للروهنغيا شرقي أراكان بتواطؤ من القوات الأمنية الميانمارية.

وجاء تدمير هذا المسجد مع تصاعد التوترات في ميانمار بشأن الاسم الذي يجب إطلاقه على الروهينجا المسلمين الذين يضطهدون بعنصرية منذ سنين حيث ترفض الحكومة الميانمارية إسم (الروهينجا المسلمون).

الحل

ليس على المسلمين أن ينتظروا شفقة من حكومة متواطئة مماطلة هي سبب مأساة المسلمين الروهينجا بل عليهم أن يقووا أنفسهم في كل الميادين، فلو كانت الجمعيات الخيرية مثلاً قادرة على سد حاجات المسلمين الروهينجا لحففت بالتأكيد من معاناتهم، ولو أن المسلمين شكلوا دعماً خاصاً لتقوية المستضعفين هنالك بإيصال صوتهم والذب عنهم وتأجيج الرأي العام لتفعيل قضيتهم بما تستحقه من اهتمام، وفرض الضغط السياسي بل والتهديد العسكري لحفظ حياة ملايين المسلمين، فإن المعادلة بكل تأكيد ستتغير.

لو كان الروهينجا من اليهود، هل كان سينساهم أحد؟ لا بد أن نعيد لهذه الأمة مكانتها، ونعلم الأمم قيمة دمائها وأبنائها وأعراض نسائها وصرخات الهلع التي أرعبت أطفالها، لا بد أن نعزز مكانتها من جديد بالعمل بشكل جماعي موحد لنهضتها وتحررها واسترجاع حقوق المسلمين في زوايا الأرض.. وإلا فسنبقع فريسة سهلة يتربص بها ضباع البشر من شر ما خلق، ولا بواقي علينا إلا من أنفسنا، فيا أيها المسلمون من لثارات الروهينجا المسلمين من هؤلاء المستضعفين من البشر .. من يوصل الصوت ليلبي النداء!

المسلمون الروهينجا: الأقلية الأكثر اضطهاداً في العالم

في الوقت الذي انشغل فيه العالم بسيل من الأحداث الكبرى التي أعقبت الربيع العربي فاستقطبت العدسات في تونس ومصر واليمن وسوريا وليبيا، وانشغلت عناوين الأخبار بتغطية الحرب التي يشنها التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية على ما يسمى الإرهاب على رأسه تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، هناك في دولة ميانمار وتحديدًا في ولاية أراكان (راخين)، أمة مسلمة تباد وعملياً تطهير عرقي تجري على قدم وساق لم تهدأ، والبوذيون بمساندة الحكومة الميانمارية مستمرون في تسجيل أبشع الجرائم ضد الإنسانية مستفيدين من انكباب الاهتمام العالمي على الساحات الأخرى، ليبقى نداء الاستغاثة يتردد صده في الآفاق ولا يجيب..

تهجير ممنهج وتواطؤ دولي

لقد عكس مشهد وصول 500 لاجئ على الأقل من أقلية الروهينجا المسلمة من غرب بورما إلى بنجلاداش مؤخراً تحملهم قوارب مكتظة فرارا من الهجوم الذي يشنه الجيش البورمي والبوذيون منذ أكتوبر على ولاية راخين غرب بورما، عكس درجة المعاناة التي يتّمن منها المستضعفون المسلمون في هذه الأرض، الذين يلقون بأنفسهم في البحر للنجاة من مجازر دامية هي الأبرع على الإطلاق في العصر الحديث. في وقت رفضت الدول المجاورة توفير إقامة دائمة لهم، كما ليزيا واندونيسيا التي عمدت إلى إبعاد مئات من الروهينجا الفائزين إليهما بحجة عدم قدرتها المالية لتحملهم، إذ صرّح نائب وزير الداخلية الماليزي مؤخراً قائلاً: “علينا إرسال رسالة واضحة أنهم غير مُرحّب بهم هنا”، وكذلك رفضت البحرية التايلاندية استقبالهم وبدأت تلوح بالطرد! ليبقى الساحل الوحيد الذي يلجأ إليه المسلمون الروهينجا هو في بنغلاديش، وهي دولة ذات أغلبية مسلمة، والتي آوت الروهينجا لسنوات بشكل غير رسمي، لكن مؤخراً بدأ مسؤولوها يتحدثون عن نية الحكومة إجلائهم عن المخيمات الحدودية التي نزحوا إليها منذ عقود، باعتبارها دولة تعاني اقتصاداً هشاً وحكومة ضعيفة مع كثافة سكانية ضخمة لا تقوى على احتضانهم.

وتأتي حملة التهجير هذه وفق مخطط اضطهاد وتصفية عرقية للمسلمين الروهينجا عرف أقبح الانتهاكات لحقوق الإنسان التي قادها الجيش البورمي والبوذيون وشملت مصادرة الأراضي والسخرة

والاغتصاب والتعذيب وحرق الممتلكات وتدمير المباني والقتل العشوائي دون تفرقة بين المرأة والرجل ولا الشيخ والطفل الصغير انتهاءً بالإعدامات الجماعية دون محاكمة كما أوردت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان في تقريرها عام 2013م.

ورغم أن المشكلة ذات جذور قديمة إلا أنها ازدادت سوءاً بشكل واضح في السنوات الأخيرة؛ ويرى المراقبون أن انتقال ميانمار من حكومة يقودها العسكر إلى أخرى أكثر ديمقراطية - نوعاً ما - كان السبب وراء حدوث أسوأ أحداث العنف التي تعرض لها المسلمون هناك.

أصل الاضطرابات في ميانمار

وبالرجوع إلى جذور الاضطرابات الحالية نجد أنها تتصل اتصالاً مباشراً بالماضي الاستعماري للبلاد، ففي 1826م، ضم الاحتلال البريطاني الجزء الشمالي الغربي الحالي من البلاد، إضافة إلى الإقليم الذي يسكنه حالياً من تبقى من مسلمي الروهينجا في ميانمار ومكّن البوذيين من توسيع نفوذهم في البلاد والهيمنة.

وتسجّل حادثة قتل مجموعات بوذية متطرفة عشرة من دعاة مسلمي الروهينجا في شهر يونيو /حزيران 2012م، حين عودتهم من رحلة العمرة. نقطة الانفجار التي أعقبتها حرب شاملة على المسلمين الروهينجا في إقليم أراكان (راخين) من قبل البوذيين المسلحين بأسلحة بيضاء وعصي، الذين قاموا بأعمال قتل وتعذيب واغتصاب وحرق وهدم للبيوت في أبشع صورها المروعة.

فزاد هذا العدوان من معاناة ومأساة المسلمين الروهينجا وانضم لما يعيشونه من قمع وتقتيل وتهجير وتجويع منذ أكثر من ستة عقود، بحجة أنهم مهاجرون غير شرعيين، لقد حوصروا اقتصادياً وطردهوا من وظائفهم الحكومية فحلّت شبه مجاعة على أهاليهم واستمر العدوان إلى محاولة محو هويتهم الإسلامية بهدم المساجد والمدارس التاريخية والآثار الإسلامية ومنع ترميمها والحيلولة دون تطوير المدارس الإسلامية وعدم مصادقة الشهادات الصادرة عنها بل وصل الأمر إلى إجبارهم على تغيير أسمائهم الإسلامية وغير ذلك من صور الاضطهاد والتطهير العرقي والتهجير.

رأس الإجرام

ويقود رأس هذا الاجرام مجموعة رهبان بوذيون ينتمون لحركة تسمى رقم 969، وهو رقم أضحى يثير الفزع وينشر الرعب داخل نفوس المسلمين المستضعفين، لأنه مقرون برائحة الغدر والدم وملطخ بمراة اغتصاب النساء وحرق الأحياء. ورغم كل ما تم توثيقه من جرائم هذه الحركة لم يتم إدراجها في قائمة المنظمات الإرهابية في العالم، ذلك لأن ضحاياها مسلمون!

حركة 969 زعيمها الراهب البوذي المتطرف آشين ويراثو المسؤول المحرض الرئيسي لخطاب الكراهية وهيستيريا العداة ضد مسلمي الروهينجا. وهي حركة دينية قومية بوذية، تهدف إلى وقف انتشار الإسلام ومحاربتة وجعل ميانمار قبلة البوذيين في العالم وتدعو إلى حماية الهوية البوذية في البلدان البوذية.

وتقوم حركة 969 بشن حملات تحريضية وتحث على مقاطعة مسلمي الروهينجا تجاريا وعلى استخدام العنف ضدهم ما جعل الأمم المتحدة تصنف الأقلية الروهينجية كواحدة من أكثر الأقليات اضطهادا في العالم.

وأما دلالة الأرقام 969 ف9 ترمز لتسع سمات خاصة لبوذا و6 تشير إلى تعاليم بوذا ما يسمى دارما و9 الأخرى تشير إلى السمات التسعة لـ السانغا (الرهبان) فبوذا والدارما والسانغا هي الجواهر الثلاثة لديانة البوذية واستعملت هذه الأرقام الثلاثة 969 لتشير إلى تلك المعاني الدينية المذكورة.

خطوات التخلص من مسلمي الروهينجا

وبحسب إفادات المراسلين الصحفيين الغربيين وما يشاهد على أرض الواقع فإن الحكومة الميانمارية قامت بتقسيم مهمة التخلص من مسلمي الروهينجا على النحو التالي:

- تتوالى عصابات مسلحة بتحريض ومشاركة مباشرة من الرهبان وتجارهم وقياداتهم عملية الاحراق والتدمير والقتل والاعتصاب والنهب والترويع والتخويف وغيرها.
- تتولى الحكومة عملية الاعتقال والتفتيش والمداهمات وحظر التجوال والتغريم والتجريم والسجن وسحب الوثائق الرسمية القديمة ومصادرة الأملاك وغيرها مما يتعلق بالأمر الرسمية.

الإرهاب الذي يمارس بحق مسلمي الروهنجا

ويقول الباحث الروهنجي أيوب السعيدي : “إن المجموعات البوذية المتطرفة تتجول ليلاً في المدن والقرى التي يعيش فيها الروهنجيون لتهديد أمنهم ونهب ممتلكاتهم وخطف بناتهم والقوات الحكومية في ميانمار تكفي غالباً بموقف المتفرج حيال تلك الأحداث في غالب الأحوال، وربما تتواطأ مع البوذيين وتشاركهم في أعمال النهب والسرقة وتهديد الأهالي المدافعين عن ممتلكاتهم بإطلاق الرصاص تجاههم.”

كما تمنع تلك الجماعات البوذية بتواطئ من الحكومة الميانمارية من وصول الإغاثات الإنسانية للمسلمين المنكوبين، تجلى ذلك بالمسيرات والاحتجاجات العارمة في أراكان التي تطالب بطرد المنظمات الإغاثية العاملة في مناطق وجود اللاجئين الروهنجيين ومنع الوفود الدولية من زيارة مخيماتهم التي تزداد أحوالها المأساوية سوءاً يوماً بعد يوم.

و يمثل المسلمون في ميانمار 15 بالمائة على الأقل من تعداد ميانمار البالغ 60 مليون نسمة. ولكنهم شعب يباد أمام سمع العالم وبصره ولا مستجيب لنداءات استغاثة.

حملات التهجير والقتل

لقد نجحت الممارسات البوذية القبيحة والعدوانية في تهجير حوالي من 3 إلى 4 ملايين مسلم حتى الآن وأسفرت عن مئات الآلاف من القتلى ولا زالت الأعداد في تصاعد دون أن يدون اسم هذه المجازر في سجل الإرهاب العالمي ودون أن تتحرك الجيوش الغربية لإحلال السلام في أراكان!

ما يعكس النفاق الدولي في التعامل مع القضايا الإنسانية خاصة عندما تتعلق بالمسلمين، وإن الحل الأمثل لإنقاذ المسلمين الروهنجا لن يكون بدون يقظة المسلمين واتحادهم ووقوفهم معاً لاسترجاع مكانتهم التي كانت تكسبهم الاحترام بين أمم العالم.

إن المجازر والمعاناة المستمرة لمسلمي الروهنجا ستبقى شهادة تدخر في ضمير الزمن لتشهد على خنوعنا وذلتنا وتهاوننا في نصره إخواننا هناك، إن الواجب علينا أن نتحرك بحزم ونضغط بطريقة فعالة ونحرك القضية بقوة وبلا تسويق إعلامياً وسياسياً وبكل السبل المتاحة، لعلنا نستدرك بعض الأرواح

ونرفع بعض الآلام عن مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بات يقتل ويشرد لا لسبب آخر إلا إيمانه بهذه العقيدة السامقة⁽¹⁾.

(¹) تقرير دولي: الروهينجا في ميانمار: الأقلية الأكثر اضطهاداً في العالم.

إيران: معاناة أهل السنة تغوص جذورها في أعماق الزمن

قراءة في تاريخ إيران

الزرادشتية هي الديانة التي كان يعتنقها سكان إيران قبل وصول الإسلام وانتشار رسالته السامية، وهي ديانة منسوبة للفيلسوف الفارسي "زرادشت" الذي ذاع صيته في تلك البلاد، واعتقد الناس فلسفاته لحد العبادة، ولم يتأثر الإيرانيون آنذاك بوجود بعض البوذيين واليهود في ديارهم كما لم يتأثروا بالمسيحية حتى بعد انتشارها في أرمينيا وأوروبا وشمال إفريقيا-إلا القليل منهم- لكنهم تأثروا بنور الإسلام الذي أبلأ أن يضوء ظلام الجاهلية وينتشر بقوة في أرض استعصت على هيمنة المسيحية واليهودية والبودية.

رسالة الإسلام في فارس

لقد وصلت رسالة الإسلام أرض فارس لأول مرة في التاريخ حين أرسل رسول الله ﷺ دعوة لحاكمها كسرى يدعوه فيها إلى دين الله الحق، ولكن كسرى آنذاك استكبر واستعلى ورفض الدعوة، ثم بعد وفاة رسول الله -ﷺ- انطلق الفتح الإسلامي المبارك، فوطئت حوافر خيل الصحابة الكرام-ﷺ- أرض فارس في عام 13هـ وكان ذلك في أواخر عهد خليفة رسول الله -ﷺ- أبي بكر الصديق-ﷺ-.

واستمر الفتح في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب-ﷺ-، وقد سجل المسلمون في تلك الحقبة من الزمن نصراً تاريخياً في معركة نهاوند في عام 21هـ، التي أطلق عليها اسم (فتح الفتوح)، لأنها كانت القاضية على دولة الساسانيين وذلك بمقتل يزيدجرد الثالث آخر ملوكهم وكانت أيضاً الممهدة لتوسع فتوحات المسلمين لتصل في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان-ﷺ- إلى جميع أرجاء إيران التي انضمت إلى خلافة المسلمين المنبسطة على الأرض.

المذهب السني والشيعة في فارس

منذ أن فتح الصحابة فارس سيطر الإسلام-بمذهبه السني- على خطا الرسول-ﷺ- والصحابة الكرام، واستمر الحال في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وما بعد سقوط الخلافة العباسية، إلا في عهد الدولة البويهية، اعتمد التشيع مذهباً اشتهرت معه مدن قم وأصفهان وطوس، وكذلك استولى

الصفويون على سدة الحكم وأقاموا دولتهم الصفوية فيها في عام 906هـ، وأعلنوا بعد عام من قيامها اعتماد المذهب الشيعي الإمامي مذهباً رسمياً للبلاد، وهكذا بعد أن كان المذهب الشيعي محصوراً في أربع مدن فقط وهي آوه، كاشان، سبزوان، قم، أصبح بعد سيطرة الأسرة الصفوية يكتسح البلاد الإيرانية، واستمر بهم الحال إلى يومنا هذا.

أصول التشيع

وترجع أصول التشيع في إيران إلى القائد مسلم بن عوسجة، الذي فتح مناطق أذربيجان، وعُرف بدعوته لولاية أهل البيت وتشيعه لعلي بن أبي طالب -عليه السلام-، وتأزم التشيع أكثر خلال عهد الدولة الأموية، حين كانت خراسان هي المنفى الرسمي لمعارضى الأمويين من العلويين، وأيضاً كانت مهد الثورة على الحكم الأموي بقيادة أبي مسلم الخراساني، الذي كان من أسباب قيام دولة العباسيين وحليفاً مهماً لهم.

بداية معاناة أهل السنة في إيران

ويمكن القول أن معاناة أهل السنة الحقيقية في إيران بدأت منذ أعلن الشاه إسماعيل الصفوي اعتماد المذهب الشيعي الإمامي مذهباً رسمياً للدولة الصفوية، فأطلق على إثر هذا القرار حملة قتل وتذريح في أبناء السنة وسجل له التاريخ مجازره الدامية حين أمر بأن يرمى من مآذن المساجد أكثر من 70 عالماً وطالب علم يومياً من علماء السنة.

وهو الذي عمد إلى نشر الشتم والسب للخلفاء الراشدين -عليهم السلام- ليألفه الناس بينهم، فكان يرسل صبيته المعروفين باسم "براءة جويان" أي المتبرئون من الخلفاء الراشدين لشتيم أبي بكر وعمر وعثمان -عليهم السلام- أجمعين ولإجبار أهل السنة على فعل ذات الأمر الشنيع، فمن امتنع عُذب وقُتل ونُكِّل به فانتهى المطاف بأهل السنة للفرار بدينهم وهجران ديارهم أو البقاء والرضوخ لمذهب الشيعة خشية الموت.

وقد وصف الباحث العراقي الدكتور علي الوردي فترة حكم شاه إيران إسماعيل الصفوي قائلاً:

كفى أن نذكر هنا أن هذا الرجل عمد إلى فرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة. وكان شديد الحماس في ذلك سفاكاً لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه. قيل إن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس.

مجازر في حق أهل السنة

ولم تتوقف مجازر الشيعة بحق أهل السنة حتى انتشرت أخبارها المؤلمة في كل مكان وغضب الخليفة العثماني-السلطان سليم الأول- فأعلن الحرب ضد الشاه إسماعيل الصفوي ودولته. وقد نجح سليم الأول في فتح مدينة تبريز، ولكن ما لبثت أن سقطت مرة أخرى في أيدي الصفويين الذين رؤّعوا الناس بمجزرة لم تشهدها عين بشر في تلك الأرض، وقُبر هنالك أهل السنة وفر من فرّ، وأصبحت المدينة شيعية بالكامل.

وتذكر الإحصاءات التاريخية أن عدد القتلى من أهل السنة في تلك المجزرة كان مهولاً حيث بلغ في يوم واحد أكثر من 140000 سنياً، وهكذا استمر تاريخ الاضطهاد والاعتداء والقتل والتشريد لأهل السنة مع توالي الحكومات في تاريخ إيران، كالزندية والقجيرية والبهلوية (أسرة رضا شاه)، وحتى وقتنا الحاضر على يد الخمينية مما سبب تناقص أعداد أهل السنة مقابل تزايد في أعداد الشيعة والمتشيعة ولتصبح الآن الغالبية في إيران شيعية.

أهل السنة في حاضر إيران

ورغم أن حياة أهل السنة في إيران خلال فترة الحكم الصفوي كانت حياة معاناة وقهر واضطهاد، حُرّموا معها جميع الحقوق والمزايا التي كان يتمتع بها الشيعة في مختلف جوانب الحياة، إلا أنهم احتفظوا بحق حرية الاعتقاد وبناء المساجد والمدارس ومزاولة أنشطتهم العقديّة ولو تحت المراقبة، لكن ما إن قامت الثورة في إيران واستلمت الحكومة الحالية مقاليد الحكم أُعلن العداء الجرم لكل من لا يدين بالشيعة مذهباً، وشهد أهل السنة في هذه الحقبة حملات اضطهاد ممنهجة وسوء معاملة كلفتهم الكثير وقوّضت تواجدهم في البلاد وحُرّموا حتى حرية الاعتقاد.

• الحصار العقدي

فقد حُرِّموا أي حرية في ممارسة عباداتهم على منهج أهل السنة وأعلنت الحرب على كل ما يسمى الوهابية وهي في الواقع حرب على كل من يدعو إلى مذهب أهل السنة والجماعة ويحارب البدعة.. حُرِّم أهل السنة من التوسع في نشاطاتهم الدينية، كبناء مساجد ومدارس خاصة في المناطق التي يتمركز فيها الشيعة بكثافة، فضلاً عن هدم عدد من المساجد والمدارس التعليمية لأهل السنة.

لم تكتفِ الحكومة بهذا الحصار العقدي بل شنت حملة ضد معتقدات أهل السنة وشنت حملات للنيل من الصحابة الكرام في الدوائر الحكومية-ومن جهات رسمية-حتى يشعر أهل السنة بالعجز. ولاشك أن الإعلام كان سلاح الحكومة في نشر مذهبهم والنيل من مذهب أهل السنة. وكذلك بُنيت المناهج التربوية والتعليمية بناءً على المعتقدات الشيعية منذ المرحلة الابتدائية، المحاربة للوجود السني شملت أيضاً وسائل الحد من أي نشاط اقتصادي قد يقوي نفوذ أهل السنة في البلاد، وكذا حرمانهم من أي نفوذ سياسي، فلا تجد من أهل السنة من يحمل عضوية في البرلمان الإيراني إلا أفراداً بعينهم لأنهم يعينونهم على سياستهم.

حتى حق التأليف مُنِع منه أهل السنة ومُنعت دورهم للنشر من المشاركة في معرض طهران الدولي للكتاب. ومُنِعوا من إقامة صلاة الجمعة والعيدين التابعة للسنة في المدن الكبرى. كما لا يستطيع السنة تسمية أبنائهم بكر أو عمر أو عثمان أو عبد الرحمن.

انتهجت الحكومة أيضاً سياسة التصفية الجسدية لقادة السنة وعلمائها، وهذا ما أكدته جمعيات حقوق الإنسان خاصة في الأحواز وبلوشستان، فقد شهد أهل السنة عمليات الإعدام بلا رقيب ولا حسيب فضلاً عن أحكام بالسجن لأنفه الأسباب.

ومن جانب التنمية تُعد مناطق أهل السنة الأكثر تخلفاً وفقراً في إيران. ومن الجانب الاجتماعي تعاني هذه المناطق من تفشي المخدرات وخاصة في المناطق الكردية إلى درجة يظهر معها المكر المنظم بدعم من بعض الجهات الرسمية دون أي أمل في ردع المفسدين.

و من يتأمل في ألوان هذا المكر الرافضي بحق أهل السنة يتعجب من ذلك الثبات الذي تميّز به أهل السنة في إيران الذين ازدادوا تمسكاً بدينهم وبعقيدتهم، في حين يعرف الشباب الشيعي اضطراباً عقدياً وكثيراً ما يؤول بهم الأمر إلى التحول للمذهب السني أو الانحدار إلى ملة الكفر والإلحاد.

إيران: معاناة أهل السنة، قراءة في حاضِر إيران

في الواقع من الصعب تحديد عدد الذين ينتمون إلى أهل السنة والجماعة في إيران لعدم وجود إحصائيات رسمية يمكن اعتمادها. ولكن هناك إحصائيات تجزم أن عددهم يتراوح بين 18 إلى 20 مليون نسمة من إجمالي السكان أي أكثر من 25% من سكان إيران، أكثرهم من الأكراد بحوالي 8 ملايين، يليهم الشعب البلوشي في المرتبة الثانية.

ويشكل الفرس في إيران الأكثرية بنسبة 51% أما العرب فتصل نسبتهم إلى 3%، وبعض التقارير تتحدث عن نسبة تصل إلى 7%.

كتاب الحقائق الخاص بوكالة الاستخبارات الأمريكية لعام 2012م أشار إلى أن إجمالي عدد المسلمين السنة في إيران يبلغ 9% من إجمالي السكان. وبعض المصادر تقول بأن العدد الحقيقي للسنة يبلغ حوالي 15% أو 20% نصفهم من الأكراد.

أهل السنة في إيران

يتوزع أهل السنة في المناطق الحدودية وفي مناطق متفرقة بعيدة عن بعضها البعض اتفقت التقارير على أنها كالتالي:

- محافظة كردستان: يقطنها الأكراد السنة وهي واقعة في غرب إيران ومركزها مدينة (سندج).
- محافظة أذربيجان الغربية: أغلبها من الأكراد السنة وهي تقع في شمال غرب إيران.
- محافظة كرمنشاه: الواقعة غرب وشمال غرب إيران. ويشكل الأكراد السنة أكبر نسبة من سكانها ومركز المحافظة مدينة كرمنشاه.
- محافظة خوزستان (الأحواز): الواقعة في غرب وجنوب غربي إيران، أكثر سكانها من العرب السنة.

- **منطقة تركمن صحراء:** الواقعة في شمال إيران، أي من سواحل بحر قزوين إلى الحدود الجنوبية لدولة تركمنستان.
- **محافظة خراسان:** الواقعة في شمال إيران وهي تمتد إلى حدود أفغانستان في شرق إيران.
- **محافظة سيستان و بلوشستان:** وهي واقعة في جنوب شرق إيران ويشكل الشعب البلوشي المسلم أكبر نسبة من سكانها. وهذه المنطقة تمتد من جنوب خراسان إلى بحر عمان في الجنوب ومن الشرق إلى حدود باكستان.
- **محافظة هرمزكان:** خاصةً مدينة بندر عباس وضواحيها وجزيرة قشم والمناطق الواقعة على سواحل الخليج وبحر عمان.
- **محافظة فارس:** وخاصة في منطقة (لارستان) وضواحيها وقراها وأيضاً في مناطق أخرى مثل: طلة دار، خور، اوز، خنج، بستك، فيشور وجناح وغيرها من المناطق.
- **مدينة بوشهر والمناطق والقرى المحيطة بها وأيضاً مناطق:** بندر مقام، طاوبندي وكشكنار ومناطق أخرى في جنوب غربي إيران.
- **ضواحي مدينة خلخال التابعة لمحافظة أردبيل.**
- **منطقة طوالش وعنبران** الواقعتان في غرب بحر قزوين في الشمال.



إيران شيعة!

وهكذا بعد أن كانت إيران منذ حوالي 500 سنة سنّية بالكامل تحولت بالقوة والقتل والبطش إلى المذهب الشيعي، ويجدر التأكيد أن حملات التشييع العنيف هذه فشلت أمام الأقاليم الأبية مثل كردستان وبلوشستان وجلسستان (ذات أكثرية تركمانية)، وأجزاء كبيرة من إقليمي الساحلي وبوشهر التي تسكنها أكثرية سنّية.

وتشير التقارير إلى أن إقليم الأهواز أو عربستان، الذي تطلق عليه إيران مسمى خوزستان، يشهد تحولاً ملحوظاً إلى المذهب السني.

أهل السنة في إيران أغلبهم من الأكراد الذين يعتمدون المذهب الشافعي أو البلوش والتركمان على المذهب الحنفي، أما العرق العربي فينتشر في منطقة خوزستان (الأحواز)، ولكن أغلب الأحوازيين شيعة وليسوا سنة كما هو مشهور. والطوالش، وبعض العرب في منطقة لنجة، وبعض الأذريين يتبعون المذهب الحنفي النقشبندي.

تحديد النسل

وقد سبق وأن فرضت الحكومة الإيرانية خطةً لتحديد النسل إلا أنه ورغم الخناق الاقتصادي وتفشي البطالة في الوسط السني شوهد ارتفاع نسبة السنة في البلاد بشكل ملحوظ، ما دفع السلطات الإيرانية إلى ترويج زيادة الولادة وإلغاء التحديد الذي كانت تبنته خوفاً من تغلّب أهل السنة تعداداً.

تغلّب بات محل تعليق الكثير من المفكرين والمحللين حتى قال عنه الباحث والمفكر الإستراتيجي زينغيو بريجنسكي:

تجنبوا التفكير في هجوم استباقي على إيران، لأن الوقت والإحصاءات السكانية وتغير النسل ليست في صالح الحكومة الإيرانية أبداً

الدستور الإيراني وأهل السنة

ورغم أن الدستور الإيراني اعترف بوجود الأقليات الدينية الزرادشت واليهود والمسيحيين وسّمح لها بالتمتع بالحريّة في أداء طقوسها الدينية، إلا أن أهل السنة في إيران هم الوحيدون الذين يتعرضون

لمضايقات تمنعهم حريرتهم في العبادة. فيلى اليوم لا يمكنهم أداء صلاة الجمعة والعيدى على منهج أهل السنة في طهران.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد المساجد لأهل السنة بلغ 10 آلاف مسجد وفق الإحصاءات الرسمية فضلاً عن المؤسسات الدينية السنوية في إيران التي توجد في محافظات الشمال وبلوشستان وسيستان على وجه الخصوص، من أشهرها الجامع المكى في مدينة زاهدان في إقليم سيستان يتسع لآلاف المصلين ويُسمح فيه بأداء صلاة الجمعة، أما في طهران العاصمة يقطن بها قرابة المليون سني فيها 15 مسجداً لأهل السنة أشهرها مسجد صادق، لا يُسمح فيها بأداء صلاة الجمعة والعيدى.

كما حُرّم أهل السنة غير الفارسيين كالبلوش والتركمن والعرب، من التعلم بلغاتهم، ومُنعوا من إصدار الصحف والمجلات بلغاتهم.

انتهاكات في حق أهل السنة

ولعل من أبرز محطات الاضطهاد الشيعي لأهل السنة أحداث مدينة زاهدان عام 1992م حين هُدم مسجد (الشيخ فيض) في مدينة مشهد من قبل الاستخبارات الإيرانية واغتيل العالم السني البارز "أحمد زاده" على يد سلطات الأمن الإيرانية بدس السم له بعد عملية اعتقاله، فضلاً عن عمليات اعتقال تحت ذرائع مختلفة.

وفي الوقت الذي كانت تخرج فيه نداءات الاستغاثة من أهل السنة في إيران إلى الحكومات العربية، كانت الردود مُحِبَّة للغاية في رسائل الود والسلام مع إيران.

ومن أحدث أخبار العدوان الشيعي التي وُثِّقت على أهل السنة في إيران ولم تلاقِ صدًى، إعدام 25 من الدعاة والناشطين السنة الأكراد في 2 أغسطس الماضي، فأصدر على إثره أئمة أهل السنة في بلوشستان، وكردستان، بيانات إدانة شديدة اللهجة.

تنديدات أعقبت العديد من الرسائل وجهها الشيوخ إلى المرشد الأعلى الإيراني علي خامنئي، للمطالبة بضرورة إعادة محاكمة المعتقلين ولكن لا حياة لمن تنادي.

إعدامات جائرة وردود حكومية خائفة أضحى روتيناً تعود عليه أهل السنة في إيران في ظل صمت مطبق من الدول العربية وأهل السنة في العالم، صمّت يدفع الحكومة الإيرانية إلى التمادي في البطش والقتل، والاستمرار في خطة القضاء على أهل السنة في إيران.

وتكفي جولة واحدة على حسابات بعض الناشطين السنة من إيران على الشبكة العنكبوتية، لنكتشف عمق المعاناة التي يعيشها المسلمون في تلك الأرض، فصور الشنق والأجساد المعلقة في خشبات الإعدام لشباب أهل السنة وأئمتهم ودعائهم متكررة باستمرار، وتعكس درجة الظلم والاستهانة بالدماء التي وصل إليها القوم، ورغم ذلك لم نسمع بتحريك دولي ممن زعموا أنهم دعاة السلام ويحركون الجيوش لأجل الأقليات المضطهدة في العالم بل لم نسمع إلا عن إعادة تفعيل العلاقات وعقد الصفقات وتوسيع دائرة التعاون مع الحكم الشيوعي في سبيل هيمنة غربية عالمية ضحيتها أهل السنة.

هل تواجه إيران مصير العراق؟

مشهد يعكس حقيقة مؤلمة وواقعاً مريراً إن لم يتدارك خطورته أهل السنة في كل الأمصار، فلن يكون مصيرهم أفضل من العراق مهد الخلافة العباسية والحضارة الإسلامية وملتقى أئمة أهل السنة، والتي بين يوم وليلة سلّمت على طبق من ذهب لحكم شيوعي لم يزل يغرز ميليشياته الرافضية المجرمة في خاصرة العراقيين السنة حتى أضحت جدران الأطلال توثق بشاعة مجازر القمع والإبادة التي تشهدها الأرض في هذه الحقبة من الزمن، عبارات كتبت عليها هي الأوضح دلالة على ملامح التمدد الصفوي.

ولا أفضل من واقع الشام اليوم، الذي عجزت طائرات التحالف الدولي عن قصف الميليشيات الإيرانية التي تتمدد في عمق الأرض السورية لتمكّن النظام النصيري من حصد أرواح أهل السنة، في حين وجدت طريقها على أسقف العزل من أهل السنة، لتبيد ذرايعهم وفلذات أكبادهم بأنواع القنابل المحرمة دولياً-زعموا-، على مرأى ومسمع عالم منافق، ينادي بالسلام ويدعم أهل الإجرام والقتل.

ثم إن الشيعة في السابق، كانوا يجرّمون الجهاد إلى أن يظهر مهديهم المسردب، ولكن بعد ثورة الخميني صار رفع السلاح وتجييش الميليشيات أهم أهداف أنصار الخميني بل أصبح واجباً مقدساً، يستهدف الموحدون من أهل السنة لا غير، في حين بقية الملل تنعم باتفاقات الأمن والسلام.

ولا شك أن أحد أسباب الحد من هذا الطغيان الإيراني هو تقوية صف أهل السنة داخل إيران ودعمه
بشئى الطرق حتى يُحبط المكر الرافضى الذى يتطلع لأبعد من قمع أهل السنة فى إيران، أو على الأقل
الاستجابة لنداءاتهم ودعم قضيتهم التى هى قضية أمة الإسلام قاطبةً، لأنها جزء منها ونصرتها واجبة
عليها.

وإلى أن نرى تحركاً ملموساً يرتقى لمستوى الخطر، يبقى حال أهل السنة فى إيران بين سندان الحكومة
الإيرانية ومطرقة ضعف أهل السنة حتى يشاء الله ويُحدث بعد ذلك أمراً.

الأكراد: بحث عن الخلاص في مسالك الغرب الفاسدة

الأكراد... اسم ارتبط بالبطولة والفداء، بالعزم والتضحية، بعبقرية صلاح الدين الأيوبي في صد الصليبيين والباطنيين، وتسطير الانتصارات الماجدة، وفتح بيت المقدس، ارتبط بوفاء الأكراد لسلطان الخلافة الإسلامية على مر العصور منذ صدر الإسلام الأول، بعدما استجابوا لنداء الهداية وأقبلوا بكلهم يرددون الشهادتين، ويسابقون لخدمة الدين بالنفس والنفيس، وقد خرج من صلبهم العلماء والقادة الأجلاء، فكان الأكراد جزءاً لا يتجزأ من وحدة كاملة تجمع المسلمين -أيّاً كانت أصولهم- تحت سقف أمة الإسلام العظيم.

تاريخ الإحباط الكردي

ويرجع تاريخ الإحباط الكردي إلى تاريخ انهيار الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وإلى تمزق جسد الأمة الإسلامية باختراق قوى الغرب لسلطان الخلافة، وتقسيم التركة بين الأوروبيين، حين سجل التاريخ قائمة من المعاهدات والاتفاقيات الماكرة؛ التي تصب أهدافها في سياسة تفتيت الغرب لأمة عاشت طيلة حياتها تحت ظل خلافة واحدة، جامعة، لا فرق فيها بين عربي وأعجمي، ولا أبيض وأسود. فأصبح العلماني مصطفى كمال أتاتورك -بفضل دعم الحلفاء الأوروبيين له- يحكم قبضته على الأكراد في تركيا الجديدة؛ التي تقلصت مساحتها من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى حدود بلاد ما يعرف اليوم بتركيا، وكان هذا أقصى طموح لعلمانية أتاتورك -العميل، الوفي للغرب-.

تاريخ من المآسي

ويسجل التاريخ للأكراد العديد من المواجهات الدامية، والمآسي، والمجازر في تركيا منذ عهد كمال أتاتورك، وكذلك في إيران والعراق -أين سطرت مجازر الكيماوي ودفن الأكراد أحياء-، ولم يكن حال الأكراد أفضل في سوريا -أين عانوا لعقود طويلة من سياسة التهميش والاضطهاد التي مارسهما بحقهم النظام البعثي-.

كل هذا التاريخ الطويل من المعاناة مع أنظمة وظيفية أقامها الغرب؛ ليقمع شعوبها، ويخمد روح الأخوة والدين في أنفسهم، نال الأكراد ما نالهم من عواقب قمعها وحرمانها على الإسلام، كما نال بقية الشعوب المسلمة، وهم يدينون ديناً واحداً، وينتمون لمذهب واحد؛ هو مذهب أهل السنة.

عزم لم يقطعه فشل

ويسجل التاريخ عزم الأكراد المستمر على إنشاء دولة مستقلة، وفي ظنهم أنها الخلاص لجميع مشاكلهم ومآسيهم، إلا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل، وكان آخرها: الاستفتاء الذي شارك فيه نحو خمسة ملايين نسمة في إقليم كردستان شمال العراق بتاريخ 25 من سبتمبر 2017م، الذي خرج بأغلبية ساحقة فاقت 92% من الأصوات المؤيدة للاستقلال عن الحكومة المركزية في العراق، وأجري في محافظات الإقليم الثلاث (أربيل، والسليمانية، ودهوك)، إضافةً إلى كركوك المتنازع عليها.

وتعزو حكومة الأكراد اللجوء لهذا الاستفتاء -رغم كونها تحكم إقليمياً، شبه مستقل، ويتمتع بصلاحيات الحكم الذاتي- إلى عدم احترام الحكومة المركزية في بغداد، والتي يهيمن عليها الشيعة، حقوق الحكم الذاتي الذي حصل عليه الإقليم بعد الإطاحة بصادم حسين عام 2003م.

معارضة دولية شديدة

ولكن هذا الاستفتاء الذي نادى الأكراد بمشروعته لاقى معارضة شديدة من حكومات بغداد وأنقرة وطهران المجاورة؛ خشية أن تنتقل عدوى الانفصال إلى سكانهم الأكراد. خاصة تركيا التي تقاتل "التمرد" الكردي، وتصفه بالإرهاب في جنوبها الشرقي منذ عام 1984م. ولم تكن المناورات العسكرية التي أجرتها مع إيران إلا رسالة واضحة بأن عواقب الإصرار على الانفصال؛ ستؤدي لحرب طاحنة في المنطقة.

المعارضة للاستفتاء لم تقتصر على دول الجوار؛ التي تخشى على أمنها القومي، ولكن أيضاً شملت الولايات المتحدة؛ التي أظهرت ردود فعل متباينة بين رئيسها ترامب الذي أعلن أنه يقف على مسافة واحدة من بغداد وكردستان، في حين أعلن وزير خارجيته ريك تيلرسون أنه يساند حكومة بغداد ولا يرى مصلحة في الاستفتاء، أيضاً تعارض هذا الاستفتاء الأمم المتحدة خشية أن يشغل القوى عن

حرب تنظيم الدولة الإسلامية، وعارضته دول أوروبية؛ خشية تأثيره على مشاريع انفصال غربية تستعر اليوم في كاتالونيا وغيرها.

سياسة التخبط والتهيه

مشهد المعارضين لهذا الاستفتاء كان يجب أن يرسخ لدى الأكراد أن فكرة الحل والخلاص بإنشاء دولة مستقلة، صغيرة، مرهون بقاؤها برضا جيرانها والمجتمع الدولي مشروع فاشل، ولن يقدم أكثر مما قدمته سايكس بيكو للمسلمين من هيمنة، واستعباد، ونهب للأموال والثروات لصالح الغرب، ثم كيف نسلك نفس المسالك التي يتيحها الغرب لنا بحجة خلاصنا، وقد ثبت فسادها؟

وبالنظر للعقلية التي يفكر بها الساسة الأكراد: فإنهم أبعد ما يكونون عن السبيل الأنجح لمعالجة جراحاتهم، والوصول إلى تحقيق المستقبل الأفضل -الذي ينشدونه- حين عزلوا أنفسهم -كشعب مسلم- عن محيطهم الإسلامي، وتشبثوا بدعاوى العلمانية والنعرات الجاهلية.

فتناسوا تاريخهم -المرتبط بتاريخ أمة الإسلام الماجد-، الذي لن يعود من جديد إلا إذا ساهموا هم أيضاً بنصيبيهم من البذل والعطاء والتضحية في سبيل عودة الوحدة الإسلامية، ومشروع الخلافة الكبرى؛ التي تحفظ للمسلمين عزهم وقوتهم في ظل عالم لا يرحم الصغار، ولا ينجو فيه الأقرام؛ الذين تفرقوا شذر مذر، وغرهم أمانى الديمقراطية والعلمانية المهترئة.

فصب هذا التخبط والتهيه كله في صالح القوى الكبرى، والنظام الدولي المهيمن، وكانت صورة نقيية للاستعباد الجاهلي في عصرنا الحديث حين تُسخر القوى الصغرى لخدمة قوى الشر الكبرى، وتدفع لها الجزية.

وتكفي ردود الحنق والغضب، ولغة التهديد والوعيد، وإجراءات الحزم والحصار التي رافقت إعلان الاستفتاء؛ ليتأكد للأكراد أنهم مجرد قوة معزولة صغيرة، تفترسها الدول المحيطة بها في أي لحظة -مهما حاولت أن تظهر من عزم وحزم أو شرعية قانونية في تناول مسألة الاستقلال، ومهما أغرقتها ثقة زائدة بحلفائها الأمريكان تتبدل مع تبدل المصالح-.

البارازاني ضحية طموحه

لكن إصرار مسعود البارازاني على المضي قدماً في هذا الاستفتاء، وحصوله على تشجيع من بعض القوى على رأسها إسرائيل، ودول الخليج كلفه -لاحقاً- ثمناً باهظاً، وأضحت المناطق التي سيطرت عليها قوات البشمركة الكردية -خلال حربها على تنظيم الدولة الإسلامية- في قبضة الحشد الشعبي، بقيادة الرافضي -قاسم سليمان-، وسجلت فيها أبشع الانتهاكات الإنسانية؛ التي هي سمة مشهورة عند كتائب هذا الحشد، وانتهت المغامرة الجريئة بقصة فشل مريرة.

فعلى رأس هذه المناطق خسر البارازاني كركوك؛ المدينة المتنازع عليها، والمشهورة باحتياطيات نفطية كبيرة، وتصدير النفط الخام من خلال خط أنابيب عبر البحر المتوسط يمر من إقليم كردستان العراق وتركيا. وتنتج حقول كركوك لوحدها حوالي 150 ألف برميل من نحو 650 ألف برميل نفط يومياً، تنتج باسم إقليم كردستان. أي أن حقول كركوك لوحدها تنتج 15% من إجمالي الإنتاج العراقي. ونحو 0.7% من إنتاج النفط العالمي، ولا يشك عاقل في أن النفط هو الثروة التي تدخل بكل تأكيد في سياسات الهيمنة، والمساومات الدولية.

هروب من المأزق

وبهذا فشل الاستفتاء الذي أعلنه رغبة الشعب الكردي في الاستقلال من تحقيق أي من مطالبه، ووجه البارازاني أصابع الاتهام لجزء من الأكراد الذين وصفهم بـ”الخونة”؛ كونهم باعوا الحلم الكردي لحكومة بغداد، وأعلن بعدها تنحيه عن الرئاسة، وعدم رغبته في الاستمرار في جولة جديدة في الحكم بعد انتهاء مدة صلاحيته -ما ترجمه البعض بالفرصة الأخيرة لحفظ بعض ماء الوجه والخروج بدبلوماسية من الورطة الكبيرة التي وضع فيها الأكراد.-

وفي هذه الأثناء لجأت السلطات الكردية إلى توزيع صلاحيات البارازاني -بسبب عدم ظهور أي منافس كُفء له- على كل من البرلمان، والحكومة، والمجلس القضائي؛ والتي يعتبر بعض المراقبين أنها خطوة فاشلة، ستؤدي إلى مزيد من تأزيم الوضع الداخلي الكردي، وربما انفجار البرلمان الكردي والكتل السياسية داخله، ما يهدد مصالح وحدة الأكراد تجاه قضاياهم المصيرية.

الانقسام الكردي

ويجدر الإشارة إلى أن أغلب الأحزاب المهيمنة على الساحة السياسية الكردية؛ هي أحزاب علمانية. ويظهر الانقسام الكردي مع كل أزمة يتعرض لها الأكراد، وقد تكون نتائجه مشخنة، كما حصل في العراق عندما خاض أبرز فصيلين كرديين "الاتحاد الوطني الكردستاني"، و"الحزب الديمقراطي الكردستاني" حرباً أوقعت نحو ثلاثة آلاف قتيل بين 1994م و1998م، ثم تصالحا في عام 2003م.

ويبدو أن صفحة استفتاء الأكراد المثيرة للجدل قد طويت اليوم واتجهت إلى التهدئة، في حين بدأت مرحلة الترشقات بين الأكراد أنفسهم، فهذه أصوات تصنف قرار الانفصال بالنكسة الحقيقية، وأخرى بالنتيجة المأساوية والمدمرة بسبب سياسات البارزاني الخاطئة، وأخرى بالمناورة الفاشلة؛ لفشل الوعود الخارجية الكاذبة، وغيرها بالخيانة القاتلة من الداخل الكردي، وهلم جرا.

واتفق الأكراد على ألا يتفقوا! كل هذا بفضل الأمراض التي نخرت في المجتمع الكردي كغيره من مجتمعات إسلامية بتوظيف العلمانية والديمقراطية؛ لتزيد من عمق معاناة المسلمين وتشقتهم، وتفرقهم، وتشردهم، فكانت العصبية المنتنة، وكان الخلاف المحتوم.

قراءة في المشهد

وفي الواقع، بالنظر للمراحل التي مر بها قرار الاستفتاء، والضجة الإعلامية التي أثارها وجملة الردود المختلفة التي رافقته وأعقبته، بدا واضحاً ذلك التواطؤ الإقليمي الدولي ضد رغبة إقليم كردستان في الاستقلال، يوازيه تواطؤ عربي إسرائيلي، وشراكة أميركية جزئية؛ لدفعه لاتخاذ قرار الانفصال، وإن تعارض الاتجاهان إلا أن كليهما يصب في مصلحة عزل الأكراد عن مفهوم أمة الإسلام الواحدة، وتغذية نعرات القومية والوطنية والعلمانية البائسة .

خشية أن تتوطد أحلام الأكراد مع أحلام المسلمين في العالم، وتتحد جهودهم في سبيل النهوض بأمتهم من جديد، والعمل على الحل الجذري لكل مشاكلهم بدل التخبط في اجتهادات فردية مبتورة الأصل، لا تزيد إلا من مزيد سيطرة وهيمنة غربية؛ هي منتهى المنى بالنسبة للساسنة الأمريكين، والأوروبيين، والروس، واليهود، وكل من دخل في دائرة العداء للإسلام.

ثم مع هذا كله انكشف الستار عن الدور الأمريكي المتناقض مع القضية الكردية؛ بحيث تدعم واشنطن بقوة قوات سوريا الديمقراطية (الكردية)، وتسمح لها بالسيطرة على مساحات شاسعة في الشمال السوري، وهي تعلن بلا تردد عن عزمها إنشاء دولة فدرالية كردية -رغم الرفض التركي الصارم إزاء هذا المشروع-، وبين رفضه لاستفتاء إقليم كردستان، وبالتالي الاستقلال الكردي، وإنشاء دولة كردية!

وإن حاولت التحليلات تبرير السياسات الأمريكية المتناقضة، فلا أوضح من استغلال أمريكا للأكراد؛ لتحقيق مشاريعها في بلاد الشام بتوظيف رغبتهم في الاستقلال، وإنشاء دولتهم الكردية أبشع استغلال؛ إذ أن جميع المؤشرات وخاصة تلك التي تطلقها ساحة الصراع في سوريا، تشير إلى أن الملف الكردي لن يُطوى بسهولة في وقت قريب، وأن المستقبل يخفي لنا الكثير من المفاجآت في ظل لعبة الأمم الكبرى.

ومحوران يتنازعان النفوذ (روسي وأمريكي)، وفي وقت أضحى مشروع تفتيت سوريا وتقسيمها على طريقة سايكس بيكو القديمة على الطاولة، بينما بقي اسم الأكراد مرتبطاً بقومية وطنية بحتة، ونسيت معه أمجاد البطل الكردي المسلم -صلاح الدين الأيوبي-، وفتح بيت المقدس، ووحدة الأمة الإسلامية؛ التي لو سعى لعودتها الأكراد، لكانت إنجازاتهم أفضل بكثير من تاريخ مثقل بالإحباطات، والفشل المتوالي⁽¹⁾.

(¹) هذه المقالة كتبت في عام 2017م.

القصة الكاملة لكل ما يجري في ليبيا ومكر المجتمع الدولي

سطرت ثورة ليبيا انتصارا ساحقا على نظام العقيد معمر القذافي في عام 2011م، ونجحت في القصاص من الرئيس الدكتاتوري الذي جثم بحكمه القمعي على صدور الليبيين لأكثر من أربعين سنة، ولكن ما لبثت أن تحررت ببركات هذا النصر حتى غرقت في أتون التجاذبات الدولية والتدخلات الإقليمية التي تسعى لإجهاض فرص الثورة في النجاح وتطويع العملية السياسية في البلاد بما يوافق أطماع الغرب.

وتمخضت هذه المرحلة التي كانت مرحلة تدافع القوى والتيارات الليبية مع تدخل الأطماع الخارجية المختلفة إلى رسم مشهد متعدد الأقطاب، انقسم على 3 حكومات وقوات اللواء المتقاعد خليفة حفتر المسماة “كرامة ليبيا”.

ليعكس لنا حجم الفوضى السياسية التي غرقت فيها البلاد منذ اندلاع الثورة، ومدى التسابق المحموم الذي تسعى له كل من أمريكا وأوروبا لتوسيع نفوذهما في البلد الساحلي الذي يطل على أسوار روما، بوابة أوروبا.

أول حكومتين أعلنتنا في ليبيا

وكانت أول حكومتين أعلنتنا في ليبيا في ظرف شهر واحد فقط، حكومة طبرق التي اتخذت لها مركزا مدينة البيضاء شرق ليبيا، ورئيسها عبد الله الثني والتي انبثقت عن برلمان طبرق، وهي متحالفة مع قوات خليفة حفتر المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر والإمارات.

الحكومة الثانية

والثانية هي حكومة الإنقاذ التي اتخذت لها مدينة طرابلس العاصمة غرب ليبيا، ورئيسها خليفة الغويل، والتي انبثقت عن المؤتمر الوطني العام الليبي في آب/أغسطس 2014م، تحظى بدعم بريطانيا والدول الأوروبية، لكن مسيرتها تعثرت بعد الخسارة التي منيت بها في الانتخابات، وبعد فشلها في كسب

اعتراف دولي رغم تمكنها من السيطرة على أجزاء واسعة من غرب وجنوب ليبيا نهاية 2014م وبداية 2016م بدعم مجموعات إسلامية كمجلس شورى ثوار بنغازي.

الحكومة الثالثة

والحكومة الثالثة وهي الأحدث، حكومة الوفاق الوطني، تشكلت في شباط/فبراير عام 2016م بموجب اتفاق مدينة الصخيرات في المغرب الذي وقع عليه في 17 كانون الأول/ديسمبر عام 2015م تحت رعاية بريطانيا والدول الأوروبية، ثم ما لبث أن تحوّل إلى اتفاق دولي رعته الأمم المتحدة عن طريق ممثلها غسان سلامة وزير الثقافة اللبناني السابق بعد انتهاء ولاية سلفه مارتن كوبلر ، و قبلت به أمريكا كما أوروبا، وكسبت هذه الحكومة بذلك الاعتراف الدولي.

وبعد ظهور حكومة الوفاق الوطني في الساحة الليبية، أعلنت حكومة الإنقاذ عن انسحابها ومغادرتها السلطة في 5 نيسان/أبريل 2016م، وبالتالي تسليم زمام الحكم إلى فايز السراج، ولكن هذا التسليم لم يدم طويلا ففي 14 تشرين الأول/أكتوبر 2016م سيطرت حكومة الإنقاذ على مقار المجلس الأعلى للدولة في طرابلس العاصمة، وأعلن رئيسها خليفة الغويل من جديد أن حكومته هي الحكومة الشرعية المنبثقة عن المؤتمر الوطني العام، ووجه دعوة مباشرة إلى عبد الله الثني رئيس حكومة طبرق إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية ومن دون وساطة أجنبية في وقت كانت حكومة طبرق قد أعلنت فيه موقفها المعارض لحكومة السراج منذ الإعلان عنها.

قوات حفتر

أما قوات حفتر فظهرت في المشهد عندما أعلن اللواء المتقاعد الانقلاب على السلطة في 21 مايو 2014م، رافعا شعار "مكافحة الإرهاب" ومصنفا الجماعات الثورية كفجر ليبيا التي تدعمها تركيا وقطر، والإسلامية كأَنْصار الشريعة بإرهابية وبث بيانه من قناة العربية التابعة للسعودية، لينكشف معه التدخل الخارجي بحلف السعودية والإمارات الذي احتضن القيادات المدنية الموالية لحفتر في أبو ظبي.

في حين حصل اللواء المتقاعد على الدعم العسكري الجوي والأرضي من مصر، وتبع ذلك هجوم لقوات "الزنتان" الموالية له على "المؤتمر الوطني العام" في محاولة لاعتقال ممثليه وحله بالقوة، في المقابل هاجمت قوات "فجر ليبيا" "كتيبي" "الققعاع" و"الصواعق" التابعتين للواء حفتر، والمتمركزتين

منذ سنوات في مطار طرابلس الدولي وانتزعت منه، واستمر الاقتتال بين الطرفين يهدأ تارة وينفجر تارة أخرى.

وقد لعبت الميليشيات دوراً مهماً في دعم الحكومات الثلاث وقوات حفتر في ليبيا، فقد ساند حكومتي السراج والإنقاذ كتائب مصراتة، وكتائب تيار الإسلام السياسي، وساند قوات حفتر بقايا الجيش الليبي بالإضافة إلى كتائب الزنتان فيما استمرت الكتائب الإسلامية الجهادية تخوض قتالها لأجل تثبيت حكم إسلامي في البلاد عارضه التيار الليبرالي والأحزاب العلمانية وبقايا نظام القذافي فضلاً عن قوات خليفة حفتر بشدة.

التدخل الأمريكي

اقتحام خليفة حفتر هذا المشهد المضطرب حاملاً شعار “محرابة الإرهاب” كشف درجة التأثير الأمريكي رغم استمرار العملية السياسية في البلاد بدعم بريطانيا والاتحاد الأوروبي، فحفتر الذي يبلغ من العمر 71 عاماً عرفت به صحيفة الغارديان على أنه: “عميل سابق للسي أي إيه ولديه الجنسية الأمريكية، يتلقى الدعم من دول غربية والسعودية ومصر والإمارات رغم وجود أدلة على ارتكابه جرائم حرب في ليبيا”، في المقابل عمد الإعلام السعودي والإماراتي والمصري على تصويره بطلا قومياً في وقت يصور فيه الثوار الذين قاتلوا قتالاً شرساً ونجحوا في إسقاط نظام القذافي، يصورهم كإسلاميين متشددين وإرهابيين.

ولم يقتصر التدخل الأمريكي في دعم اللواء حفتر سياسياً وعسكرياً ولكن أيضاً بمساعدة قواته في السيطرة على منطقة الهلال النفطي في 12 أيلول/سبتمبر 2016م، التي تشمل ميناءي السدرة ورأس لانوف، ثم ميناء الزويتينة، لتحكم بذلك سيطرتها على كامل الهلال النفطي، وأربكت هذه التحركات الأمريكية تحركات الأوروبيين خاصة بعد محاولات المصالحة بين حفتر وعقيلة صالح رئيس مجلس نواب طبرق في شرق البلاد وفايز السراج رئيس حكومة الوفاق في غرب البلاد.

التنافس الأوروبي الأمريكي في ليبيا

وإن كانت فشلت هذه المحاولات إلا أنها مكنت أمريكا بعد أن استعانت بالأجهزة الاستخباراتية وحكومة السيسي وأحمد أبو الغيط الأمين العام لجامعة الدول العربية، من فرض خليفة حفتر في أي

اتفاق سياسي يجرى مستقبلا في ليبيا. وتسليمه الملف الأمني والعسكري في أي حكومة ممكنة قادمة، وورقة الضغط التي استعملتها لأجل تحقيق ذلك كانت استمرار حالة الحرب والاقتتال داخل ليبيا إلى ما لا نهاية، وهكذا كسبت أمريكا نقاطا أمام منافسيها الأوروبيين.

ويستمر التنافس والمراوغة بين الأمريكيين والأوروبيين في ساحة ليبيا في أعقد صراع عرفته ليبيا منذ سقوط نظام القذافي، وقد استفاد من هذا التنافس والمراوغة اللواء خليفة حفتر بشكل كبير، إذ حظي الحليف الأمريكي القديم بدعم ليس فقط أمريكي بل حتى أوروبي، وهذا ما كشفته صحيفة لومند الفرنسية في سنة 2015م عندما تحدثت عن وجود قوات فرنسية تقاتل إلى جانب قوات حفتر بنغازي، تواجد أقره اعتراف فرنسا بمقتل جنود لها هناك بعد ذلك بأشهر قليلة.

أما إيطاليا فالتاريخ والجغرافيا يدفع روما لحضور قوي في ليبيا كونها تمثل أحد أهم المستعمرات الإيطالية في إفريقيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وتعتمد إيطاليا على تدفق النفط والغاز الليبي لإنتاج أكثر من 70% من احتياجاتها في مجال الطاقة، وقد لعبت دورا بارزا في دعم اتفاق الصخيرات وحكومة السراج، حيث تتحدث التقارير عن دور روما في عمليات ترتيب الأوضاع الأمنية في طرابلس، إضافة إلى دعمها السياسي لفائز السراج.

وعملت إيطاليا على استيعاب جميع المكونات العسكرية والسياسية والأمنية الموجودة في الغرب والوسط، والقابلة بالانضمام إلى شرعية الاتفاق السياسي. استيعاب مدفوع بالرغبة الشديدة في مصالحها في الساحة الليبية لدرجة دفعتها لقبول خليفة حفتر والإعلان عن ضرورة البحث له عن موقع في الاتفاق السياسي، متراجعة بذلك عن اتهاماتها له سابقا بزعزعة الاستقرار في ليبيا، وخاضعة بذلك لرغبة الأمريكيين.

ولولا الدعم الخارجي الذي تلقاه خليفة حفتر، لما تمكن من البقاء صامدا في الساحة الليبية خاصة بعد تراجع قواته، أمام سيطرة أنصار الشريعة على مدينة بنغازي ثاني أكبر المدن الليبية والتي تعتبر كبرى الجماعات المسلحة ذات التوجه الجهادي في ليبيا وتضم داخلها إلى جانب العناصر الليبية بضعة آلاف من المقاتلين الأجانب من جنسيات تونسية وجزائرية ودول إفريقيا جنوب الصحراء، حينها تعرضت العاصمة طرابلس لقصف جوي قالت الحكومة الليبية أنها لا تعرف الجهة التي شنته، فيما

اتهمت حركة "فجر ليبيا" كلا من مصر والإمارات بالضلوع فيه واختار السكان الليبيون توجيه أصابع الاتهام إلى حلف "الناتو".

روسيا تبحث عن موطن قدم

وفي وقت يشهد فيه العالم توسع النفوذ الروسي وتأثيره في مختلف الساحات كان لا بد لحكومة بوتين من أن تبحث لها عن موطن قدم في ليبيا، وأسهل طريق وجدتها كانت عن طريق دعم اللواء حفتر، ومجلس النواب المتحالف معه.

وقد استقبلت موسكو اللواء حفتر أكثر من مرة، كما استقبلت رئيس البرلمان المتحالف معه عقيلة صالح المحسوب على نظام القذافي، كما استقبلت قيادات عسكرية تنتمي لمصراتة وتتبع حكومة الوفاق.

وظهر حفتر على متن حاملة طائرات روسية عند مرورها في المياه الإقليمية بمحاذاة ليبيا ما يعده المراقبون رسالة واضحة ترسلها روسيا عنونها أنها قادرة على التدخل عسكريا في ليبيا.

تدخل لم يعد بعيدا بعد تأكيد عسكريين أمريكيين بينهم قائد القوات الأمريكية في (أفريكوم) الجنرال توماس هاسر لوجود قوات روسية تقاتل إلى جانب معسكر حفتر.

لم تتوقف التدخلات أو بشكل أدق الأطماع الغربية في ليبيا منذ استقلالها في عام 1951م، من جهة لموقعها القريب من أوروبا ومن جهة أخرى لحجم الثروات النفطية والغازية الكبيرة التي تزخر بها هذه البلاد التي يحيط بها النيجر والتشاد والسودان، دون أن ننسى أهمية ليبيا كمحطة ترانزيت من إفريقيا لأوروبا للاجئين الذي يغرق الكثير منهم أثناء رحلة الموت لمستقبل مجهول.

والتي شغلت قضيتهم كثيرا دول أوروبا بتركيز جهودها في السيطرة على هذه الحركة ووأدها عند السواحل الليبية. لكن هذا التدخل اتخذ شكلا أكثر تعقيدا بعد ثورة ليبيا، بتباين السياسات بين أمريكا والدول الأوروبية لتأمين مصالح كل طرف، دون مبالاة بمعاناة الليبيين.

الوضع الإقليمي

أما دول الإقليم المحيطة بليبيا فمنقسمة بدورها بين طرف يدعو إلى الحل السياسي الذي تشترك فيه كل الأطراف تقوده قطر وتركيا ومعهما الجزائر والمغرب والسودان ويدعم حكومة فايز السراج، ودول أخرى تنحاز إلى طرف واحد يتمثل في معسكر الكرامة الذي يقوده اللواء حفتر وتقوده مصر والإمارات التي اهتمتها الأمم المتحدة بحرق الحظر الأممي المفروض على توريد الأسلحة إلى ليبيا، وكل طرف يستخدم أوراق الضغط الدبلوماسي وغير الدبلوماسي لتعزيز موقفه.

على صعيد موازي فإن حالة التفكك الحاصلة في البلاد أتاحت الفرصة لأنصار النظام السابق لكي يرفعوا أصواتهم في عدة مناطق على رأسها طبرق وبنغازي للمطالبة بإطلاق سراح نجل القذافي سيف الإسلام وتمكينه من حكم ليبيا، كما طالبوا بإطلاق سراح رموز نظام القذافي الذين يحكمون في غرب ليبيا بدعوى أنهم من الشخصيات الوطنية، وانتهت تلك الدعوات التي اعتبرت "مستساعة" بإطلاق سراح سيف الإسلام في ظروف أقل ما يقال عنها أنها غامضة ليطوى معها سجل جرائمه بصمت، ولتجلى ملامح التأثير العميق لرجالات القذافي الباقون بعد سقوط رأس النظام في الصراع الليبي.

وقد أدى اقتتال كتائب الثوار وميليشيات كرامة ليبيا بقيادة اللواء حفتر على نطاق واسع في طرابلس وبنغازي مطلع آب 2014م إلى تهجير 250 ألفا، وإخلاء سفارات أجنبية كثيرة، وتعطيل المطارات الدولية، إلى جانب مقتل المئات، ليعكس مشهد حرب أهلية تحولت إليها الثورة الليبية فيما يصفه محللون بمواجهة بين فصائل الثورة التي تقودها فجر ليبيا والفصائل الإسلامية وبين فصائل الثورة المضادة التي يقود لواءها حفتر وميليشياته أو ما يسمى كرامة ليبيا، وفي 4 أيلول أعلن مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في جنيف عن فرار ربع مليون شخص جراء القتال الأخير والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان في ليبيا.

الوضع الحالي في ليبيا

انطلقت مؤخرا في تونس جولات مفاوضات تعديل الاتفاق السياسي الموقع بمدينة الصخيرات المغربية في 2015م بين أطراف النزاع، وذلك بعد أسبوع من إعلان المبعوث الأممي إلى ليبيا غسان سلامة، عن خارطة طريق لحل الأزمة الليبية تركز على 3 مراحل رئيسية هي تعديل اتفاق الصخيرات، ثم

عقد مؤتمر وطني يجمع الفرقاء السياسيين الذين لم يشاركوا في الحوارات السابقة، ثم إجراء استفتاء لاعتماد الدستور، وانتخابات برلمانية ورئاسية.

وبسبب تباين المواقف المستمر، يستبعد المراقبون توصل الفرقاء الليبيين إلى توافقات سياسية في وقت وجيز، خاصة بعد تصريحات اللواء حفتر الأخيرة "المحبطة" والتي اعتبرتها الأطراف الأخرى، محاولة إجهاض للحل السياسي وفرض نفسه بالقوة من أجل قيادة ليبيا وفق نظرتة وأجندته الخاصة رغم حجم الجدل الذي تثيره شخصيته في كواليس السياسة الليبية باعتباره مجرم حرب.

الخلاصة في قصة ليبيا

تتلخص في بداية ثورة منتصرة على نظام القذافي عام 2011م، لتمر بفترة اقتتال مسلح توازيه محاولة إرساء ديمقراطية غربية متعثرة عامي 2012 و2013م، وصولاً إلى بلد يدخل نفق الاقتتال المظلم بأطراف تتجاذبها المصالح الدولية والجهاديين الذين لا يقبلون بغير تحكيم الشريعة مطلباً، باتجاه مستقبل ما زالت ملامحه غامضة عند الليبيين وآمالهم فيه مرهونة بدرجة تمسكهم بشورتهم ومبادئ دينهم القويم، في حين ترتبط فرص الفشل فيه بدرجة استسلامهم للأيدي الغريبة الطامعة التي تتلاعب بما تقضيه مصالحها لأجل إرساء هيمنة لها في ليبيا المختار لا تختلف وعودها كثيراً عن الوعود القذافية لكنها بنكهة عمالة غربية أقوى⁽¹⁾.

(1) كتبت هذه المقالة في عام 2017م.

ليبيا: مشهد معقد وتدخل أجنبي وآمال الثورة لم تتحقق بعد

ليبيا المشهد المعقد لساحة صراع جمعت بين ثورة شعب انتفض، وتدخلات أجنبية، وجماعات إسلامية مقاتلة، وميليشيات متحالفة، وبرلمانات متنافرة، وحكومات متنافسة ودعم غربي مزدوج، ودعم عربي متضاد وصراع مسلح على النفط وأزمة اقتصادية خانقة وحالة تناقض رهيب في السياسات والعمل العسكري.

نظرة للخلف

في 17 فبراير من العام 2011م انطلقت الثورة الليبية بقوة، تجاوب معها جلّ الشعب الليبي الذي لم يهنأ له بال حتى أسقط نظام معمر القذافي وقتله شر قتلة بعد إذلال وإهانة لم يذق مثلها الرئيس المخلوع ولم يكن ينتظرها من شعبه المقموع، وانتهت بعد ذلك مع سيل الثورة الجارف آخر أشكال الدولة المركزية التي حكمت ليبيا بيد من حديد طوال 42 عاما.

تطورت الثورة بعد ذلك إلى نزاع مسلح بين أطراف عدة لا تزال تدور رحاه إلى اللحظة، ورغم إعلان الغرب إيقاف التدخل الدولي في ليبيا وسحب قوات الناتو من الفضاء الليبي في 19 مارس من العام ذاته، إلا أن التدخل إلى الآن بلغ ذروته في الكواليس وغرف الاستخبارات والعمليات العسكرية. تدخل أنكره الساسة الأوروبيون مراراً إلا أنهم في نهاية المطاف أذعنوا لأدلة وجوده واعترفوا به على مضض.

أهم القوى اللاحقة في الساحة الليبية

انقسمت البلاد سياسياً و عسكرياً على وقع ثلاث حكومات وسيطرات متنازعة بين الجماعات الإسلامية، وتنظيم الدولة الإسلامية وقوات اللواء حفتر.

• حكومة طبرق

تسمى أحياناً “الحكومة الليبية المعترف بها دولياً” يسيطر المجلس على حوالي ثلثي البلاد رغم تنازعه النفوذ في بعض المدن كبنغازي ودرنة وغيرها مع الجماعات الإسلامية المقاتلة وتنظيم الدولة الإسلامية.

• حكومة طرابلس

هي تحالف من القوى السياسية التي خسرت انتخابات 2014م وكونت إثر ذلك "المؤتمر الوطني العام الجديد" برئاسة نوري أبو سهمين، الرئيس السابق للمؤتمر الوطني العام أو ما يسمى أيضاً بـ"فجر ليبيا" المكونة من القوى الإسلامية (الإخوان المسلمون وحزب العدالة والبناء وقوى أصغر) والمليشيات المسلحة التي ساهمت في إسقاط نظام القذافي (غرفة عمليات ثوار ليبيا ودرع ليبيا) التي سيطرت على العاصمة و جميع هذه القوى لا يُعترف بها دولياً.

• حكومة الوفاق

والتي تشكلت برعاية الأمم المتحدة، يرأس مجلسها الرئاسي فائز السراج، معترف بها دولياً مرة أخرى بعد حكومة طبرق، هدفها حل الحكومتين المتنازعتين -طبرق وطرابلس- اللتان تخوضان مواجهات عسكرية منذ ما يزيد على العام. وقد جاءت هذه الحكومة بعد جهود غربية حثيثة لإنشاء حكومة تتماشى وسياساتهم في ليبيا، على رأسها تمرير طلب التدخل الغربي في ليبيا بشكل رسمي. وقد وصل الأمر في دعم هذه الحكومة إلى فرض الاتحاد الأوروبي عقوبات على عدد من الشخصيات الليبية بسبب عرقلتها ممارسة حكومة الوفاق الوطني لمهامها، مما لا يساعد على خلق بيئة حوارية تفاوضية بين أطراف دولية تقدم نفسها للمجتمع الدولي على أنها شريك وراع للسلام في المنطقة.

• اللواء خليفة حفتر

تجدر الإشارة أن الصراع الدائر في ليبيا لا يشمل الحكومات الثلاث المتنافسة فحسب، بل المكانة التي حظي بها اللواء خليفة حفتر الذي يشغل منصب القائد العام للجيش الوطني الليبي في الحكومة، وقائد عملية "الكرامة" الجارية الآن والتي تهدف إلى قتال الجماعات المسلحة الليبية على اختلافها وغير المعترف بها دولياً، قد أصبح بمثابة حكومة رابعة، عرفت دعماً غريباً سرياً وخاصة من فرنسا، في حين تتحدث التقارير عن دعم عربي من الإمارات ومصر. وحفتر يعارض بشدة حكومة الوفاق ليكشف تناقض السياسات الغربية التي تدعم الأطراف المتنازعة بازواجية قد تؤدي لما لا يحمد عقباه.

• ميليشيات أخرى

ميليشيات أخرى تنشط في الساحة الليبية وإن كان بدرجة أقل وهي ميليشيات قبائل التابو والطوارق الليبية في الجنوب والأمازيغ في أقصى الغرب، و لكنها لا تبدو مؤثرة بقوة في الصراع الدائر.

• لا سيطرة لأي كيان عسكري

ويمكن تلخيص واقع الخريطة السياسية العسكرية على أرض ليبيا أن لا سيطرة تامة لأي كيان عسكري سياسي على مناطق نفوذه، فمدينة بنغازي لا تخضع للسيطرة التامة للحكومة المعترف بها دولياً، بل تخضع عدة مناطق في بنغازي لمختلف الجماعات الإسلامية المقاتلة كتنظيم الدولة الإسلامية وتنظيم أنصار الشريعة فرع القاعدة.

ويوجد مناطق في الشرق الليبي تحديداً لا تخضع لسيطرة أحد، ويرى مراقبون على ضوء هذه الخريطة أن المحاولات الدولية والإقليمية لتشكيل حكومة ليبية موحدة تأخذ على عاتقها الحفاظ على وحدة البلاد يعد ضرباً من ضروب المستحيل.

لماذا التدخل الأجنبي في ليبيا؟

بالنظر في تاريخ هذه الأرض، فإن ليبيا لم تنزل محط نظر أطماع الأوروبيين منذ القدم ولم تنزل آثار الاحتلال الإيطالي تحفر مآسيها على جدران تاريخها، وقد اقترن الاحتلال الإيطالي في الذاكرة الليبية بثورة المختار التي انتهت بتحرير البلاد واستقلاليتها عن إيطاليا .ولكن خروج إيطاليا لم يكن يعني نهاية التدخل الأوروبي في الشأن الليبي، بل لم تنزل أوروبا تسعى لحفظ مصالحها في ليبيا وتأمينها بشتى الطرق الممكنة، سياسياً وحتى عسكرياً، وفي حين يعزو التدخل الأجنبي اليوم تورطه في الساحة الليبية لمحاربة الإرهاب، يرى المراقبون أن المصالح الغربية في ليبيا كونها دولة إستراتيجية لا تبعد عن إيطاليا أكثر من 200 ميل بحري .. تعد من الأسباب الرئيسية لهذا التدخل وعلى رأس هذه المصالح تتربع الثروة النفطية.

وكما هو معلوم فإن ليبيا من أغنى الدول نفطياً، إذ تقدر الاحتياطات النفطية المؤكدة فيها بنحو 46.6 مليار برميل، وهي الأكبر في إفريقيا، وتشهد المنشآت النفطية في ليبيا وجود العديد من الحضور الغربي الخاص بمجال النفط وبشكل أكبر منذ سقوط نظام القذافي.

ملاحح التدخل الأجنبي

بدون الاعتماد على تصريحات الساسة الغربيين المتضاربة وإنما على التقارير الميدانية المتكررة فإن أول أشكال التواجد العسكري الغربي في ليبيا، كانت شركات التأمين الخاصة، غالبيتها بريطانية وفرنسية وبعض المرتزقة الذين يعملون على تأمين مصالح الغرب النفطية من شركات ومنشآت، فضلاً عن شركات الحماية الخاصة كـ "بلاك ووتر" و "كنترول ريسكس" و "تاجو سبيشيال بروجكتس".

• فرنسا

ومنذ بداية الصراع كانت تصريحات المسؤولين الغربيين تنفي أي تواجد عسكري في ليبيا، إلا أن سقوط المروحية الفرنسية التي كانت تساند قوات حفتر مؤخراً، ومقتل 3 جنود فرنسيين أجبرت فرنسا للمرة الأولى للاعتراف بتواجد قوات خاصة لها على أرض ليبيا.

وقد نشرت كل من صحيفتي لموند الفرنسية و تليغراف البريطانية، تقارير عن وجود عناصر من القوات الخاصة لكل من فرنسا، بريطانيا، الولايات المتحدة) داخل ليبيا ما أكدته وزير الدفاع البريطاني مايكل فالون، حين تحدث عن إرسال أكثر من 1000 جندي ومستشار عسكري إلى ليبيا.

من جهتها كشفت لموند الفرنسية أن فرنسا تخوض حرباً سرية في ليبيا وتعتمد بشكل رئيسي على عناصر من القوات الخاصة.

• إيطاليا

النشطاء الليبيون أكدوا أيضاً أن وحدات إيطالية تعمل بنفس الطريقة قد انضمت للنشاط العسكري للمحور الغربي (الأوروبي أمريكي). وقد أكدت التقارير أن المحور الغربي يعتمد على التنسيق الإستخباراتي واستخدام إيطاليا كترانزيت ومنصة انطلاق للمقاتلات الأمريكية نحو العمق الليبي.

• أمريكا

على نفس السياق أعلن البنتاغون في وقت سابق أن فرقا أمريكية صغيرة تساعد في إطار العمليات الاستخباراتية في ليبيا. وأعلن عن شن ضربات عسكرية على سرت استجابة لطلب الحكومة الليبية برئاسة السراج، رغم أن التواجد الأمريكي بقوات خاصة لم يعد يخفى على ليبي بعد مشاهدتهم عياناً في قواعد عسكرية وغرف عمليات مشتركة.

انطلاق الضربات الجوية الأمريكية فسره المراقبون بوفاء فايز السراج بالمهمة التي أنيطت به من قبل الأمريكيين، والغرب عموماً، وهو الهدف الذي أظهرته عدة تقارير غربية التي تؤكد أن المطلوب من السراج هو تمرير طلبات التدخل الأجنبي بشكل رسمي في ليبيا.

ويرى المراقبون أن تزايد التدخلات الخارجية، خطر داهم سيبتلع ليبيا ويتركها فريسة التفكك والفوضى، وسيشكل تهديداً مستمراً لدول الجوار التي بدأت ترفع من وتيرة إجراءاتها لتأمين حدودها.

من يدعم من؟

• تركيا وقطر والسودان

تدعم كل من تركيا وقطر والسودان جناح الحكومة الليبية في طرابلس غير المعترف بها دولياً، بكل مليشياتها العسكرية بالمال والسلاح، حيث توفر السودان ترانزيت للنقل. في حين شاركت قطر عسكرياً في قصف قوات القذافي مع الغرب وقدمت الدعم المالي والعسكري لحكومة طرابلس. أما تركيا فدعمت حزب العدالة والبناء الليبي الذراع السياسية لجماعة الإخوان المسلمين في ليبيا حيث اعترفت تركيا بحكومة طرابلس وعينت في سبتمبر 2014م، مبعوثاً خاصاً في ليبيا، وأصبح أول مبعوث يلتقي علناً بالسلطات غير المعترف بها دولياً في طرابلس.

أيضا سمحت تركيا لرحلات شركة الخطوط الجوية التركية باستئناف الطيران إلى مصراتة في سبتمبر 2014م. فضلاً عن دعمها للحكومة عسكرياً حيث ظهرت التقارير المتعلقة بالدور التركي المتنامي منذ يناير 2013م، عندما كشفت عن شحنات أسلحة صادرة من تركيا باتجاه ليبيا في مناسبات متكررة.

• مصر والسعودية والإمارات

من جهة مقابلة تدعم كل من مصر والسعودية والإمارات جناح حكومة طبرق المعترف بها دولياً والجيش الوطني الليبي وقائده اللواء خليفه حفتر، حيث يحظى الأخير بالدعم العسكري والتنسيق الاستخباراتي. دعم أكدته صحيفة النيويورك تايمز في تقرير لها على لسان مسؤول أمريكي رفيع المستوي بأن مصر والإمارات العربية المتحدة قد قامتاً سراً بشن العديد من الغارات الجوية على كتيبة مصراتة الموالية للجماعات المقاتلة وحكومة طرابلس، دعم غض عنه محور الغرب الطرف لأن الإجراءات الميدانية للولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا في ليبيا تصب في مصلحة هذا الجناح.

دعم متناقض

بهذا الدعم الدولي المتناقض لأجنحة متنافسة على خريطة الصراع في ليبيا أصبحت ليبيا تعاني من تكافؤ في القوى المتنازعة على السلطة، وقد عكس التدخل الغربي حالة تناقض رهيب في السياسة يؤكد الاضطراب في التعامل مع قوات اللواء حفتر التي تحظى بالدعم العسكري والاستخباراتي واللوجستي من الأوروبيين والأمريكيين، ثم في نفس الوقت يحظى خصمها فايز السراج الذي يرأس حكومة الوفاق الوطني المدعومة من الغرب بدعم مستمر ونداءات من الأمم المتحدة تدعو لدعم حكومته.

ولعل أوضح صورة لهذا الاضطراب التقاء القوتين عند سرت ومسارعة المبعوث الأممي في ليبيا لدرء الأزمة بمحاولة خلق نوع من التنسيق بين القوتين المتنازعتين على أبواب سرت في وقت رفض فيه حفتر أي تنازل لصالح السراج بل وبدأ تحركاته الفعلية لإحكام السيطرة على المنشآت النفطية التي تعتبر ورقة مهمة في ملف السلطة الليبية.

الشارع الليبي ضد التدخل الأجنبي

ولا زال التدخل الأجنبي في ليبيا يعقد مشهد الصراع بين القوى في الساحة ويطيل من أمده، ولا شك أنه تدخل لم يحظ بتأييد شعبي بل يواجه معارضة واضحة وتنديداً مستمراً.

فبعد سقوط الطائرة الفرنسية واعتراف الجانب الفرنسي بمقتل جنودهم فيها، أدانت مؤسسات رسمية حكومية وأحزاب سياسية ليبية وبرلمانيون الوجود العسكري الفرنسي في البلاد، معتبرةً ذلك "تدخلاً سافراً، وانتهاكاً للسيادة الليبية"، مطالبين بـ"إدانة الإجراءات الفرنسية ومساعداتها التي تقدمها إلى قوات حفتر"، داعين الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة، مارتن كوبلر، إلى "العمل مع الأطراف الأخرى في المجتمع الدولي لاتخاذ موقف قوي من تخلي فرنسا عن التزاماتها".

كما شهدت العاصمة طرابلس، ومدن الزاوية، وصبراتة، ومصراتة، وغريان، مظاهرات منددة بالتدخل العسكري الفرنسي.

الحرب على الإرهاب والإغاثة الإنسانية مظللتان للتدخل

ويرى مراقبون الحرب على الإرهاب والإغاثة الإنسانية مظللتين أساسيتين تسعى من خلالهما فرنسا إلى تبرير تحركاتها والتدخل في الشأن الليبي والإفريقي على حد سواء.

الدكتور خيرى عمر، أستاذ العلوم السياسية بجامعة سقاريا التركية، الخبير بالشأن الليبي، أكد أن فرنسا موجودة منذ مدة طويلة، بدأ دخولها تحت مظلة الناتو لمواجهة تنظيم الدولة الإسلامية، ورغم أن وجودها مخالف للقوانين الدولية، وما نص عليه مجلس الأمن الدولي إلا أنها عمدت لإخفاء هذا التواجد والنشاط على أرض ليبيا.

وقد انتقد عمر التباين الفرنسي الواضح في تعامله مع طرفي النزاع الليبي، فدعم لوجيستي وعسكري لقوات حفتر، في مقابل تجاهل تام ومعاداة لقوات حكومة الوفاق الوطني في طرابلس، التي تدعمها الأمم المتحدة والولايات المتحدة؛ مما يثير الريبة في الموقف الفرنسي.

وعلى الجانب الآخر طالب وزير الدفاع الفرنسي، جان إيف لودريان، بفتح تحقيق بشأن "الكشف عن أسرار الدفاع الوطني" بعد نشر صحيفة "لوموند" يناير/كانون الثاني الماضي، لمعلومات عن وجود قوات فرنسية خاصة في ليبيا.

فرنسا تحت المجهر

استراتيجية فرنسا تعتمد على تنفيذ عملياتها من خلال القاعدة الفرنسية "مادما" شمالي النيجر، بالإضافة إلى نشر قوات بحجة تأمين المنشآت الحكومية الجديدة. وتوجد قاعدة "مادما" الفرنسية في وسط الصحراء، في أقصى شمالي النيجر، ويوجد بها نحو 200 عسكري يعملون حالياً على بناء قاعدة عسكرية على أبواب ليبيا.

ويفسر الخبراء التواجد الفرنسي في النيجر لخشيته على ملكيتها لمناجم اليورانيوم، إذ تعد النيجر رابع أكبر منتج عالمي لليورانيوم، وهذا ما أكده نائب في البرلمان البلجيكي حين قال:

الهدف من الحرب الفرنسية على مالي هو السيطرة على اليورانيوم ونحن لسنا مغفلين

كذلك تطمع فرنسا لإثبات حضور دولي وتكون لها الكلمة في إفريقيا عبر وجود عسكري واسع، ينطلق من النيجر، لا شك أن تدخلها العسكري في ليبيا حلقة محكمة منه.

الخلاصة

وعلى ضوء إعلان البنتاغون شن حملات عسكرية أمريكية ومع استمرار المعارك بين الأطراف المتنازعة على الساحة، وتلخيصاً للمرحلة التي تمر بها ليبيا يرى عمران خليل الباحث الليبي في الشؤون الأمنية والاستراتيجية، بأن التدخل الأمريكي لدعم حكومة الوفاق في سرت، ليس أمراً عابراً وليس مجانياً، بل هو دور تحاول من خلاله الإدارة الأمريكية إحراج نظرائها الأوروبيين، الذين فشلوا من وجهة نظرها، بحسم الملف الليبي لصالحهم.

تواجد بري أمريكي

تواجد أمريكي لم يقتصر على الجو بل بات مدعماً على الأرض بجنود الكوماندوز الذين يرتدون الزي العسكري المرقط وسترات واقية من الرصاص يعملون انطلاقاً من مركز عمليات مشترك في أطراف سرت، على بعد 450 كم شرق طرابلس بالتنسيق مع نظرائهم البريطانيين لتحديد مواقع للضربات الجوية وتزويد شركاءهم بالمعلومات الاستخبارية والدعم اللوجستي والعسكري لا بد أنه تطور جاد على الساحة الليبية.

فهل سيشهد التدخل الأمريكي العلني تغييرا في خريطة القوى المتنافسة أم أنه فشل جديد ينضم للفشل الأوروبي في الوفاء بالوعد المعلنه على الأقل؟ ولكن الحقيقة المؤكدة إلى هذه اللحظة هي أن ملف ليبيا ما زال يلتهب بالتطورات وأن أمل الثوار لا زال لم يتحقق بعد.⁽¹⁾

(¹) تاريخ كتابة هذه المقالة (في شهر أغسطس من عام 2016م)

التجربة الطالبانية بين الأمس واليوم

قبل نحو عقدين من الزمان أطلق الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن حملته العسكرية العالمية لغزو أفغانستان والإطاحة بحكم الإمارة الإسلامية التي أقامتها حركة طالبان آنذاك، وخاطب العالم قائلاً: “هذه المرة سننشر الجنود على الأرض وسنبقيهم هناك حتى طرد الطالبان ونشوء مجتمع حر”(1).

واليوم خرجت القوات الأمريكية بشكل فوضوي غير منظم كبّدها خسائر بشرية ومادية كبيرة حتى في اللحظات الأخيرة من خروجها، وتلخص مشهد “المجتمع الحر” في عدد من الأفغان يتشبثون بالطائرات الأمريكية، ينتظروهم الموت بالسقوط من الطائرة المحلّقة في السماء أو برصاص القوات الأمريكية المباشر في مطار كابول، أما البقية فتدافعت إلى سبل الفرار من البلاد وإن كان اللجوء إلى أدغال إفريقيا(2)!

وفي هذه الأثناء التي انشغلت فيها العدسات الغربية بهول الصدمة وتلاشي التطمينات الأمريكية، وانكشاف الحقيقة، أعلنت حركة طالبان عودة حكم الإمارة الإسلامية في أفغانستان من جديد، ورافق هذا الإعلان الكثير من مظاهر الاعتزاز بالنصر والإشادة بتضحيات القادة السابقين والوفاء للأسرى والإصرار على تطبيق الشريعة ورفع رايات التوحيد البيضاء في كامل التراب الأفغاني بما في ذلك مبنى السفارة الأمريكية في كابول. كما رافقه في نفس الوقت الكثير من الجدل والاتهامات والتخوين والتشنيع الإعلامي وتضارب التصريحات والغموض!

ولاشك أن هذا الحدث قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه كونه للمرة الأولى منذ سقوط آخر شكل للدولة الإسلامية المعترف بها دولياً، تتمكن حركة إسلامية من أن تنتزع الحرية بالقتال وتطالب العالم بقبولها بنظامها الإسلامي، مما أثار اضطراب النظام الدولي ورفع حالة التأهب لمحاولة استيعاب الواقع الجديد الذي فرض نفسه فرضاً.

(1) الرئيس الأمريكي الأسبق: جورج بوش، مذكرات: قرارات مصيرية (ص258)

(2) تي آر تي بالعربية: بطلب أمريكي.. أوغندا تستقبل 2000 لاجئ أفغاني.

وما يهمننا في كل هذه الأحداث التي تتوالى هو الاستفادة من التجربة الطالبانية التي استغرقت 27 سنة، قضتها في صراع مع أنواع الفساد وأحلاف الغرب ومحاولة ترسيخ مشروعها بين الأفغان وفي العالم، وتلخيص محطات التطور التاريخي لهذه الحركة الإسلامية التي أعلنت في ظرف قياسي عن حكومتها وبدأت بمزاولة نشاطها كدولة إسلامية مستقلة، ولعلنا نجيب أثناء ذلك عن السؤال الذي يتكرر: هل حققت حركة طالبان أهدافها التي أعلنت عنها منذ تأسيسها أول مرة؟!.

الملا عمر مجاهد وتأسيس حركة طالبان

لا تزال كلمات الملا عمر مجاهد تتردد مع صدى الأحداث في أفغانستان بشكل مهيب، حيث قال حين توعدته الولايات المتحدة بالهزيمة: “لقد وعدنا الله بالنصر، ووعدتنا أمريكا بالهزيمة، وسوف نرى أي الوعدين أصدق.”

لم يكن الملا عمر يعلم أنه سيصبح من أشهر أعلام الأمة الإسلامية بسبب مواقفه البطولية التي لا تزال مضرِباً للأمثال في الشجاعة وقوة المبدأ. ولم يكن يحسب أن مجرد قرار منه بالتطوع لنصرة المظلومين سيبارك الله فيه ليصبح أمير إمارة إسلامية ذات سلطان ونفوذ يقترن اسمها باسمه في كل مكان وزمان.

ولد رجل طالبان الأول في عام 1379هـ (1960م) بقرية من قرى قندهار⁽¹⁾. تربي طفلاً يتيم الأب عند أعمامه، ثم تحمل مسؤولية أسرته مبكراً. وهو من عشيرة “هوتك” البشتونية، التي اشتهرت في التاريخ المعاصر لأفغانستان بتأسيس كبيرها القائد الأفغاني المعروف “مرويس بابا الهوتكي” إمبراطورية أفغانية على أنقاض دولة شيعية بعد فتحه مدينة أصفهان⁽²⁾.

التحق بالمدارس الشرعية المحلية، ثم قطع دراسته، لينفر للجهاد الشعبي ضد الاحتلال السوفيتي - الذي بدأ في عام 1398هـ (1978م) مع دخول القوات الروسية الأراضي الأفغانية- انتقل من حزب إلى آخر ونظراً لكفاءته القيادية المرصودة، بقي لفترة طويلة قائداً في “حركة الانقلاب الإسلامي” التابع للمولوي محمد نبي محمد⁽³⁾.

(1) سيرة الملا محمد عمر التي نشرتها حركة طالبان.

(2) موقع المعرفة: صفحة محمد عمر، كتاب نجوم على الطريق صفحة (115-116)

(3) الجزيرة: حديث العالم.. قصة حياة الملا عمر مؤسس حركة طالبان.

وفقد الملا عمر عينه اليمنى خلال الجهاد ضد الاحتلال السوفيتي. وهذا ما أظهرته الصورة النادرة التي انتشرت له.

وجدير بالذكر أن الحرب ضد هذا الاحتلال استقطبت الكثير من المجاهدين العرب الذين نفروا لأفغانستان من كافة أنحاء العالم، بدون أي عقبات بل بتسهيل حكوماتهم ورغبة أمريكية نكائية في الروس، فشاركوا في المقاومة الأفغانية الشعبية، وبرز خلال هذه الفترة العديد من الأسماء العربية منها الشيخ عبد الله عزام، والشيخ أسامة بن لادن، وأكسبت أفغانستان المهاجرين إليها، خبرات قتالية ورصيد تجارب زاخر ووفرت لهم محطة اجتماع للطاقت وتلاقح الأفكار. وبعد هزيمة الاتحاد السوفيتي التي كانت آخر مسمار يدق في نعشه، لينقضي عصر القطب الثاني في النظام الدولي، بقي في البلاد قسم من المهاجرين، ورجع القسم الآخر إلى بلاده أو إلى مكان ما في العالم الإسلامي.

وبعد خروج الاحتلال السوفيتي، انجرت البلاد إلى اقتتال الأحزاب والفصائل الأفغانية على السلطان، فاعتزلهم الملا عمر ورجع إلى بلدة سنج سار القريبة من قندهار ليتفرغ لإكمال دراسته. وكذلك فعل الطلبة الذين اعتزلوا الاقتتال الداخلي ورجعوا للدراسة، لكن الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن والاستقرار عمّت أفغانستان، وتفشت مظاهر القتل والنهب والسرقعة، فدفع هذا الواقع من الفساد الملا عمر للتحرك.

وقد حدثنا بنفسه عن كيف كانت بداية هذا التحرك في تسجيل بثته إذاعة "صوت الشريعة" في قندهار، الناطقة باسم حركة طالبان، حيث قال:

"كنت أدرس في مدرسة ببلدة سنج سار بقندهار مع حوالي 20 من زملائي الطلاب، فسيطر الفساد على الأرض، واستشرى القتل والنهب والسلب وكان الأمر بيد الفسقة والفجرة، ولم يكن أحد يتصور أنه من الممكن تغيير هذا الوضع وإصلاح الحال، ولو فكرت أنا أيضاً وقلت في نفسي (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) لكفتني هذه الآية، ولتركت الأمر، لأنه لم يكن في وسعي شيء، لكنني توكلت على الله التوكل المحض، ومن يتوكل على الله هذا النوع من التوكل لا يخيب أمله أبداً.. لعل الناس يتساءلون: متى بدأت الحركة؟ ومن كان وراءها؟ ومن يمولها؟ ومن يوجهها ويديرها؟.

وأقول: بداية الحركة؛ أنني طويت الكتب في المدرسة في سنج سار، وأخذت معي شخصاً آخر وذهبنا مشياً على الأقدام إلى منطقة زنجاوات، واستعرت من هناك دراجة نارية من شخص اسمه سرور، ثم ذهبنا إلى تلوكان .. هذه هي بداية الحركة، وأخرجوا كل تصور غير هذا من أذهانكم.

بدأنا نزور الطلاب في المدارس وحلقات الدرس في صباح ذلك اليوم، وذهبنا إلى حلقة درس يدرس فيها حوالي 14 شخصاً، فجمعتهم في دائرة حوي وقلت لهم: إن دين الله يداس تحت الأقدام، والناس يجاهرون بالفسق، وأهل الدين يخفون دينهم، وقد استولى الفسقة على المنطقة كلها، يسلبون أموال الناس، ويتعرضون لأعراضهم على الطرق العامة .. يقتلون الإنسان ثم يسندونه إلى حجر على قارعة الطريق، وتمر به السيارات ويرى الناس الميت ملقى على قارعة الطريق ولا يجرؤ أحد على أن يواريه التراب!

قلت لهم: لا يمكن الاستمرار في الدراسة في هذه الظروف، ولن تحل هذه المشكلات بالشعارات المجردة، نريد أن نقوم نحن الطلبة ضد هذا الفساد، إن أردتم العمل لدين الله حقيقة فلنترك الدراسة، وأصارحكم القول بأنه ما وعدنا أحد أن يساعدنا بروبية واحدة، حتى لا تظنوا أنا سنوفر لكم الطعام، بل سنطلب الطعام والمساعدة من الشعب.

قلت: إن هذا ليس عمل يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة، بل سيأخذ وقتاً طويلاً .. هل تستطيعون القيام بذلك أم لا؟

وكنثُ أشجعهم وأقول لهم: إن هذا الفاسق الجالس في مركزه مثل القدر الأسود لشدة الحر - وكانت تلك الأيام في فصل الصيف شديدة الحرارة - يحارب دين الله علانية، ونحن ندعي أننا من أهل دين الله ولا نستطيع أن نقوم بعمل شيء لنصرة شرعه.

قلت لهم: إننا إن فتحنا منطقة سندافع عنها، ثم لا تعترضوا لعدم وجود دراسة أو لعدم توافر المال والسلاح، فهل تستطيعون القيام بهذا العمل .. أم لا؟.

فلم يوافق أحد من هؤلاء الـ 14 على القيام بهذا العمل، وقالوا: يمكن أن نقوم ببعض الأعمال أيام الجمعة، فقلت لهم: من سيقوم به في الأيام الأخرى؟

أشهد الله على أن الحقيقة هي هذه، وأني سأشهد بذلك أمام الله عز وجل يوم الحشر..

هذه الحركة نتيجة التوكل المحض لأنني لو قست على هذه الحلقة باقي المدارس والحلقات لعدت إلى مدرستي، لكنني وفيت بالعهد الذي كنت قطعته على نفسي لله تعالى فعاملي بما ترون، فذهبت إلى حلقة درس أخرى وكان فيها حوالي 7 طلاب، فعرضت الأمر عليهم كما عرضت على طلاب حلقة الدرس الأولى فاستعد الجميع للعمل. هؤلاء كلهم أمة واحدة، لم تكن بينهم فروق الشباب والشيخوخة أو الطفولة والشباب أو الذكورة والأنوثة، لكن هذا العمل كان مبنياً على حكمة من الله تعالى، فأوقعني منذ بدايته في الامتحان.

فتحولنا على هذه الدراجة إلى صلاة العصر على المدارس وحلقات الدرس، حتى استعد 53 شخصاً من أهل التوكل المحض، فعدت إلى مدرستي وقلت لهم: تأتون غداً الصباح، لكنهم جاءوا في الساعة الواحدة ليلاً إلى سنج سار، فكانت هذه هي البداية..

إن العمل بدأ قبل أن تمضي على الفكرة 24 ساعة، وكان أحد أصدقائي يصلي بالناس، فلما صلى بهم صلاة الفجر قال أحد المأمومين: إنني رأيت الليلة في المنام أن الملائكة دخلت إلى سنج سار، وكانت أيديهم ناعمة، فطلبت منهم أن يمسحوني بأيديهم - للتبرك - وطلبنا في صباح الغد الساعة العاشرة سيارتين من الحاج بشر أحد تجار المنطقة، فأعطانا سيارتين سيارة صغيرة، وسيارة شحن كبيرة، فنقلنا هؤلاء الطلاب إلى منطقة "كشك نخود" وانضم إلينا آخرون، ولما كثر العدد استعرنا الأسلحة من الناس، فكانت هذه بداية هذه الحركة حتى استمرت "أه.

ولا شك أن قصة هذه الانطلاقة العجيبة تزخر بالعبير والدروس ليس المقام لعرض تفاصيلها الآن إلا أنها الرواية الأدق بشأن بداية حركة طالبان، كون الروايات تعددت وتضاربت وجميعها من مصادر مجروحة ومتهمة، إضافة إلى أن صاحب هذه الرواية مؤسس الحركة بنفسه.

ولعل أبرز ما فيها إعظام التوكل على الله سبحانه وتعالى وقوة اليقين بوعد الله جلّ في علاه، ثم التنظيم ووضوح الرؤية، إنها قصة ملهمة لكل مسلم يريد الانطلاق ولا يملك سوى المبادئ.

واسم "طالبان" هو جمع "طالب" بلغة البشتو، ذلك أن الجماعة تأسست من طلبة العلم في المدارس والمعاهد الشرعية في أفغانستان، الذين شارك أغلبهم في الجهاد الأفغاني الأول وكانوا متوزعين

على الأحزاب الأفغانية المختلفة. ويُعتقد أن صفة العلم التي عُرف بها أعضاء طالبان واجتمعوا على أساسها، تعد من أهم أسباب نجاح الحركة.

وقد عملت الأحزاب الأفغانية المختلفة على الإطاحة بحكومة نجيب الله الأفغاني الشيوعية الموالية للروس والتي انهارت مع دخول هذه الأحزاب إلى العاصمة كابل في عام 1413 هـ (1992م).

لكن هذا الانهيار أعقبه مرحلة تدافع وتنازع بين الأحزاب، التي اختار جزء منها التحالف مع الشيعة والشيوعيين، وبدأ التسابق على السلطة. بينما غرقت البلاد في حالة من الفساد والفوضى، وتحولت إلى ساحة يتقاسمها أمراء الحرب وقطّاع الطريق، وأصبح الأفغاني يخشى على نفسه من الموت أو السرقة.

وفي عام 1415 هـ (1994م) شاء الله أن يصل خير مفرغ للملا عمر، وهو خير اختطاف فتاتين أفغانيتين عند نقطة سيطرة لأحد الفصائل الأفغانية، واغتصبت الفتاتان ثم تمت تصفيتهما⁽¹⁾، ففزع الرجل الشهم وسارع لجمع زملائه الطلبة الذين سبق أن جمعهم بهدف تلبية الاستغاثات الشعبية من هذا القبيل، وهم الزملاء الذين شكلوا لاحقاً نخبه حركة طالبان.

شن الملا عمر والطلبة هجوماً على نقطة التفتيش المتورطة بالجريمة، وقتلوا قائدهم، وعلقوا جثته لتكون عبرة لمن يعتبر. وانطلقت بعد ذلك هجماتهم على نقاط الفصائل والأحزاب وقطاع الطرق، فطهروها تطهيراً ورفعوا عن الناس عبء الإتاوات والمكوس والضرائب الثقيلة، حتى تمكنوا من السيطرة على مديرية أرغستان بالكامل.

ذاع في هذه الأثناء صيت الملا عمر، فأقبل عليه الطلبة من كل مكان من داخل أفغانستان ومن باكستان، وتوسع نطاق عملهم، ففتحو المدارس الإسلامية وأقاموا المحاكم الشرعية وفي نفس الوقت سيطروا على مخازن الأسلحة والذخيرة، ولم ينته عام 1415 هـ (1994م) حتى كانت مدينة قندهار بالكامل تحت يد حكم طالبان. ولعل هذه الظروف التي برزت فيها حركة طالبان كانت من أهم أسباب استمراريتها وإكسابها الشرعية.

(1) موقع المعرفة: صفحة طالبان.

ثم بعد أن استتب الأمن في قندهار أرسل الأهالي من الولايات المجاورة مناشدات للملا عمر كي يحكم ولاياتهم أيضا ويضبط أمنها، فاستجاب لهم وبدأ بتطبيق الشريعة وفرض الأمن وفي نفس الوقت جمع أسباب الاستمرارية من أنواع العتاد والسلاح والذخيرة. وانتشرت أخباره في كافة أفغانستان فطالب أهالي غزني من طالبان تقلد الحكم أيضا وكان فيها آنذاك قوات الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار، فاشتبكت مع قوات طالبان لكنها انهزمت وسيطرت طالبان على الولاية في عام 1416هـ (1995م). وتوسعت سيطرات طالبان في كل مناطق الحزب الإسلامي، وكان مما روي عنهم في هذه الفترة تمكنهم من فك الحصار الذي أطبقه حكمتيار على القوافل الإغاثية للأمم المتحدة والمساعدات الإنسانية حيث احتجزها للضغط على أهل كابول، حتى يستجيب له برهان الدين رباني وأحمد شاه مسعود الذي أسس لاحقا تحالف الشمال، أقوى معارضة ضد طالبان.

وشهد عام 1416هـ (1995م) انضمام الشيخ جلال الدين حقاني، مؤسس شبكة حقاني لطالبان⁽¹⁾. وفي نفس العام تقدمت الحركة إلى أطراف كابول وسيطرت عليها.

ورافق التقدم العسكري مراسلات سياسية من الملا عمر لقادة الأحزاب يدعوهم لبند الشيوعيين والوحدة حول الشريعة ولم يكن يعلن قتالهم حتى يعرض عليهم التسليم الآمن، لكنها رسائل لم تلاق قبولهم ولا استجابتهم.

وفي هذه الأثناء كسب الملا عمر تأييد علماء ودعاة أفغانستان بعد وصول الحركة إلى كابل، حيث بايعه حوالي 1500 من أهل العلم والدعوة في عام 1417هـ (1996م)، وانتخب بالإجماع أميراً لحركة طالبان ولقب بـ "أمير المؤمنين".

لقد عاش الملا عمر على الزهد والورع فقدم مثالا نادرا لسيرة الحاكم المسلم الذي حمل هم رعيته أكثر من هم نفسه، حيث استمر يعيش مع أسرته في بيت متواضع في مدينة قندهار، يستخدم سيارته الوحيدة بنفسه، لا يبالي كثيرا بالحراسة الشخصية.. على مكانته! وفي نفس الوقت كان يدير جميع شؤون الإمارة بنفسه عن طريق الهاتف واللاسلكي من قندهار.

(1) فرانس برس: أفغانستان: ما بين قدامى محاربي و"أبناء قادة"... من هم زعماء طالبان الأربعة؟

ومع استمرار توسع الحركة وازدياد سيطرتها والتفاف الشعب حولها، جذب الصعود الطالباني وأداء الحركة، كبار الشخصيات في البلاد، نذكر منهم الشيخ يونس خالص الذي بايع الملا عمر مع قواته. ولم يكن لوحده الذي بايعه بل معه العديد من قادة الأحزاب الذين انفصلوا عن أحزابهم وجذبهم قوة طالبان وسياساتها.

وتمكن طالبان من نجيب الله الأفغاني، سنة 1417هـ (1996م) وعلّفته على أعمدة الكهرباء في كابل ليكون رسالة لعملاء الروس ومعارضى طالبان.

وسيطرت طالبان على ولايات الشرق والجنوب والغرب والشمال الغربي إلى غاية هرات ولم تصل سيطرتها إلى معظم شمال البلاد إلا في عام 1418هـ (1997م) حيث شنت الحركة حملة كبيرة للسيطرة على هذه المناطق لكنها تعثرت بالعدو والمكيدة مما كلفها ثمناً باهظاً، فقد وقع الطلبة في استدراج ماكر من قبل الميليشيات الأوزبكية الشيوعية المتحالفة مع الشيعة الأفغان، وحصل ذلك حين أظهر أحد قادتهم انجيازه لطالبان وأمنهم في مزار شريف فلما دخلتها جنود طالبان أطبقوا عليهم من كل الجهات وسطروا مجازر وحشية بحقهم، قتل فيها نحو عشرة آلاف من طالبان. ونقلت قصص دامية عن تعذيب وحشي ومثلة وتصفية لبعض كبار قياداتها. مع ذلك سرعان ما استرجعت طالبان أنفاسها من أثر الصدمة وأسرت انتقامها، وواصلت من جديد تقدمها شمالاً فانهارت أمامها قوات دوستم.

وبقي مسعود مع بعض المعارضين منهم حزب الوحدة الشيعي في باميان. التي سقطت في عام 1419هـ (1998م)، وقتلت طالبان في هذا السقوط نحو 4 آلاف شيعي قصاصاً على مذبحه مزار شريف⁽¹⁾.

وسيطرت حركة طالبان على كل أفغانستان عدا ولايتي بدخشان وبنجشير، أين تمركزت المعارضة، وفي هذه الأثناء استقرت إمارتها الإسلامية التي أصبحت تمثل أفغانستان دولياً حيث اعترف بها عدد من الدول. وكانت تستقبل الوفود والسفراء. كما كانت تقيم علاقات دبلوماسية مع باكستان والإمارات

(1) مقال بعنوان الميزان لحركة طالبان، ليوسف العييري والويكيبيديا. مع العلم أن الرقم غير محدد.

والسعودية ولها سفارات في أراضيهم أيضا، يذكر من سفرائها، في باكستان “الملا عبد السلام ضعيف ” وفي الإمارات “المولوي عزيز الرحمن عبد الأحد.”

ومع كل هذه التطورات وتسابق العدسات لتصوير الملا عمر، لم يكن يبالي بالظهور الإعلامي، ومما ذكر عن سيرته التي نشرتها طالبان، أنه كان دائما يفتح صباحه بتلاوة القرآن الكريم، ثم يقضي يومه في العمل وإدارة شؤون البلاد، ومن أشهر مواقفه خلال هذه الفترة، إصداره أمراً في عام 1422هـ (2001م) بدم التماثيل البوذية في مدينة باميان ضارباً بعرض الحائط جميع المطالب الدولية والمناشدات.

وكان طبيعياً أن تستقبل طالبان جميع المجاهدين العرب، جماعات وأفراد، من الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي، وكان من أبرز هؤلاء، أسامة بن لادن، الذي اختار الاستقرار في أفغانستان بعد خروجه من السودان فاستقبله الشيخ يونس خالص وأكرم ضيافته. وكان أسامة قد أسس تنظيم القاعدة منذ أيام الاتحاد السوفيتي وكان يقود نشاطه وتوسعه من أفغانستان، وهو التنظيم الذي أصبح العدو الأول للأمريكيين لأن استراتيجيته تركز على استنزاف الولايات المتحدة بشكل مباشر باعتبارها رأس الأفعى، فإن ضعفت ضعف الذيل، في إشارة لكل ما يرتبط بها من أنظمة، فيسهل التخلص من أفعال الهيمنة، وهي استراتيجية أثارت جدلاً واسعاً، ولا تزال، وكان ظهور الشيخ أسامة الإعلامي مستفزاً للأمريكيين خاصة لإثارته قضية فلسطين والدعم الأمريكي لدولة الاحتلال الصهيوني.

ثم كان ما كان من أحداث الحادي عشر من سبتمبر في عام 1422هـ (2001م) والتي قلبت العالم رأساً على عقب فخرج الأمريكيون في سخط بالغ يبحثون عن القاعدة في كل مكان للانتقام من جماعة كانت أول من ضرب الولايات المتحدة في قلبها وأول من ضرب هيئة وزارة دفاعها المقدسة “البن تاغون”، مما شكل إهانة كبيرة وهزة لا نظير لها أثارت ردة فعل لا نظير لها أيضاً. مع العلم أن الأرض الأمريكية كانت دائما بعيدة عن استهداف الأعداء حتى خلال الحروب العالمية وأقرب ضربة تلقتها كانت من اليابان على ميناء بيرل هاربر في جزر هاواي أثناء الحرب العالمية.

وأرسلت أمريكا الوفود للملا عمر من أجل تسليم أسامة بن لادن، لكن رده لم يكن متوقفاً لعقلية الصلف والكبر الأمريكية، التي اصطدمت برجل، يتمسك بالشرعية والأعراف الأفغانية أكثر من

تمسكه بملكه والحياة! وتوالت العروض الدولية بين ترغيب وترهيب وتعددت أشكالها والإغراءات. لكن الملا عمر لم يتزحزح عن قراره، فلن يسلم مسلماً لكافر!

لقد كلف الملا عمر هذا الموقف البطولي سقوط إمارته، حيث انطلقت الحرب العالمية الجديدة بقيادة أمريكا في عام 1422هـ (2001م) بوحشية وعنف لا يميز بين حي ولا جماد، ولا بين أخضر ولا يابس! ودمرت أفغانستان تدميراً، فأنحازت طالبان إلى الكهوف والجبال ونشرت شبكاتهما في الأرياف والمدن لتبدأ مرحلة جديدة من الحرب!

ومع أن الإدارة الأمريكية جعلت من أولوياتها إلقاء القبض على الملا عمر، حيث خصصت جائزة قدرها 10 ملايين دولار لمن يدل عليه أو يساعد على اعتقاله، لكن العروض المالية المغرية لم تفقد الملا عمر إخلاص حاشيته وبقي في مأمن في مكان ما من أفغانستان يدير قواته في قتال قوات الاحتلال الغاشم.

خاضت طالبان والقبائل الأفغانية المخلصة، الحرب أمام أمريكا وحلفائها المحليين والدوليين، فكانت فصولاً ملحمة من نضال شعب لأجل تحرير وطنه. ولعل هذا ما يفسر دعوة الرئيس السابق حامد كرزاي - الذي أقامته أمريكا في أفغانستان - للملا عمر بالترشح في الانتخابات الرئاسية لعام 1435هـ (2014م) قبل إجرائها بعامين لأجل شعبيته ونفوذه بين الأفغان.¹ لكنه اشترط عليه وضع السلاح! وهو أمر غير قابل لمجرد الطرح فضلاً عن النقاش بالنسبة لطالبان.

ورغم حجم الإنفاق العسكري وعمق الخطط الاستراتيجية وكمية المكر السياسي وطرق الاحتيال الغربية وشراسة الحرب الإعلامية وتسلسل التغريب للمجتمعات الأفغانية، لم تتمكن قوات التحالف الدولي من هزيمة طالبان ووجدت نفسها غارقة في ذات المستنقع الذي غرق فيه الروس قبلها بسنوات فخرجوا منه باختيار اتحادهم يجرون أذيال الهزيمة! وكان ذلك من أسباب إطلاق اسم "مقبرة الإمبراطوريات" على أفغانستان كما أكدته الرئيس جو بايدن في اعتراف وتبرير على خجل لهزيمة قواته في هذه الأرض⁽²⁾.

(1) الجزيرة: حديث العالم.. قصة حياة الملا عمر مؤسس حركة طالبان.

(2) بعد عودة طالبان.. بايدن: التاريخ أثبت أن أفغانستان هي مقبرة الإمبراطوريات.

وفي الواقع فإن حرب العصابات، حرب المستضعفين كانت لها كلمة أخيرة في كل فصل من فصول الصراع بين طالبان والأمريكان، ومن ثمراتها إجبارها في عام 1435هـ (2014م) الأمريكان على إتمام صفقة تبادل لـ 5 أسرى معتقلين من حركة طالبان في سجن غوانتانامو مقابل إطلاق الحركة سراح جندي أمريكي. وسنجد الوفاء الطالباني للأسرى يتكرر على طول امتداد محور التاريخ في أفغانستان ونشاهد الأسرى بالأمس القادة اليوم. كما نشاهد أيضاً انعكاس معاملة طالبان المنصفة للأسرى الأعداء في الجهة المقابلة، ما يفسر اعتناق عدد منهم للإسلام وثنائهم على معاملة طالبان لهم خلال الأسر. من بينهم الصحفية البريطانية “إيفون ردي” الشهيرة التي أعلنت إسلامها بعد إطلاق سراحها.

استمر الحال على ما هو عليه، في استنزاف متواصل لقوات التحالف الدولي، إلى أن مرض الملا عمر في عام 1434هـ (2013م) وتوفي على إثر هذا المرض في نفس العام، فدفنته عائلته واتفق بعض قادة طالبان مع أفراد عائلته على إبقاء خبر وفاته سراً لأجل مصلحة الجهاد والبلاد التي تخوض حرباً مع أعداء غير تقليديين، خاصة وأن الجيش الأمريكي كان يستعد للانسحاب الكامل وفق ما خططت إدارة الرئيس باراك أوباما وأرادت طالبان أن يتم ذلك بدون تشويش.

وبقي خبر وفاة القائد مخفياً خلال الحرب، حتى ظهر في عام 1436هـ (2015م) وأقره الملا مُجَّد يعقوب الابن الأكبر للملا عمر ورئيس اللجنة العسكرية في طالبان، واليوم وزير دفاعها، في تسجيل صوتي قائل أن سبب وفاة والده كان المرض، وداعياً لوحدة الصف ومواصلة العمل. كما أكد الابن على أن والده توفي في أفغانستان وأنه لم يغادر بلاده كما أثارت التقارير الكثيرة التي نشرت خبر وفاته⁽¹⁾.

واستلم القيادة بعد الملا عمر، نائبه المقرب، الملا أختر منصور بإجماع من مجلس الشورى، وهو من مواليد عام 1388هـ (1968م) من جنوب أفغانستان قرب قندهار.

شغل في التسعينات منصب وزير الطيران المدني والنقل، ومنصب حاكم طالبان في قندهار حتى عام 1428هـ (2007م)، كما شغل رئاسة الشؤون العسكرية في طالبان حتى عام 1431هـ

(1) الجزيرة: حديث العالم.. قصة حياة الملا عمر مؤسس حركة طالبان.

(2010م)، ليختاره الملا عمر في نفس العام، نائبا له، فشغل هذا المنصب حتى عام 1436هـ (2015م) ثم بعد اعلان وفاة الملا عمر، اجتمع أعضاء الشورى لطالبان وبايعوا الملا أختر منصور، أميراً جديداً لطالبان⁽¹⁾.

لكن الأعين الأمريكية كانت تترصد بالملا الجديد، فما لبث أن قتل في قصف أمريكي في عام 1437هـ (2016م) لترثيه طالبان ثم ليختار مجلس الشورى، القائد الثالث للحركة، الملا هبة الله أخوند زاده خليفة له. وسنلاحظ أن حركة طالبان لا تقبل في قيادتها إلا الملا أو المولوي وهي مراتب علمية لطلاب الشريعة، متعارف عليها في أفغانستان.

وحمل الراية المولوي هبة الله، وهو عالم دين متخصص في الحديث وعلومه وكان يتأسر المحاكم الشرعية في إمارة أفغانستان الإسلامية، عرف عنه أنه المسؤول عن أغلب فتاوى طالبان وبقدرته على حل المشاكل الداخلية⁽²⁾، أطلق عليه الملا عمر اسم "المعلم"، وعينه الملا أختر منصور نائبا له إلى جانب سراج الدين حقاني إلى أن تم اختياره خلفا له. ليستمر في حرب العصابات ضد الاحتلال بنفس التفاني والإصرار، يكفي لوصف هذه الحقيقة، ما قاله الرئيس الأمريكي السابق، دونالد ترامب عن طالبان خلال فترته الرئاسية حيث قال: "جاءني الجنرال من أفغانستان وقال: سيدي سيكون هناك ربيع قاس في أفغانستان، قلت لماذا؟ (في سنتي الرئاسية الأولى) لماذا؟ قال سيدي سيخرج طالبان من الجبال ويبدأون في القتال، قلت له: لماذا سيكون ربيعاً قاسياً! إنهم يفعلون ذلك منذ 1000 عام، يخرجون في الربيع ويقاتلون. هذا ما يتقنونه، هم جيّدون جداً، مقاتلون جيّدون جداً، هذا ما يتقنونه! مثلاً توبي يجب مشاهدة كرة القدم الأمريكية أنا أحب أن أفعل أشياء أخرى وهم يحبون القتال، هذه هوايتهم! اسألوا الروس إن كانوا أقوياء أم لا؟!"⁽³⁾

وقفه مع الهزيمة الأمريكية

لا داعي لسرد التقارير والدراسات الغربية الكثيرة التي تكشف عن درجة الاستنزاف التي نالت من الولايات المتحدة وحلفائها في المستنقع الأفغاني وبكفينا النظر في حصيلة الحرب حيث تشير التقارير

(1) ويكيبيديا: أختر مجد منصور.

(2) ويكيبيديا: هبة الله أخوند زاده.

(3) يوتيوب: ترامب عن #طالبان: إنهم يقاتلون منذ 1000 سنة، إنهم مقاتلون جيّدون، واسألوا الروس عن قوتهم.

إلى أن تكلفه الحرب على أفغانستان منذ 20 عاما بلغت 2.261 تريليون دولار (منها تكاليف مستمرة حتى بعد انتهاء الحرب كتكاليف العلاج ورواتب مصابي الحرب والفوائد) بالإضافة لمقتل 6294 أمريكي (جنود ومتعاقدين وموظفين من وزارة الدفاع) بحسبما نشر مركز نورس للدراسات.

مع التنبيه إلى أن العدد الحقيقي للخسائر البشرية أكبر مما هو معلن. كما كشفت تسريبات الواشنطن بوست الأمريكية عن أن التعقيم على الخسائر والتلاعب بالبيانات لتخفيف الصدمة كان من صميم سياسة الجيش الأمريكي في أفغانستان، بل في كل ساحة صراع.⁽¹⁾

وبحسب جامعة براون الأمريكية قتل 929 ألف شخص، وتحول 38 مليون للاجئ أو نازح، وبدأت الحرب في أفغانستان لتمتد إلى 85 دولة كما أدت إلى دمار وانتهاكات لحقوق الإنسان والحريات المدنية وتكلفة حرب بلغت 8 تريليون دولار.

وفي هذه الأثناء التي كانت تتكبد فيها الولايات المتحدة الخسائر والتكاليف الثقيلة كان التنين الصيني يتقدم بهدوء ويحرز المزيد من المكتسبات الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

ولأن أغلب الحروب في العالم تنتهي باتفاقيات تحدد المرحلة المقبلة، كان طبيعياً أن يصل الصراع الأمريكي الطالباني إلى مرحلة التفاوض، بعد عجز الخيار العسكري عن تحقيق حسم كما أراد ساسة الأمريكان في بداية الحرب. كما حصل في حرب فيتنام بعد 20 سنة من الحرب.

لقد شعر الأمريكان بأن الأوان قد حان لوضع حد لمغامرة متهورة واستراتيجية فاشلة كلفت بلادهم الخسائر البشرية والمادية الهائلة. وفشلت بعد كل ذلك في إعادة برمجة الشعب الأفغاني وفق مقاييس الغرب متجاهلة طبيعة نظامه القبلي المتمسك بالإسلام والتقاليد الشعبية، وبدلاً من ذلك أغرقت البلاد بعد إعطاء الشرعية للفاسدين، في العنف والجريمة والنهب، وانتعشت تجارة المخدرات فبلغت أعلى مستويات قياسية. حيث قالت صحيفة لوموند الفرنسية: “طالبان كانت قد حرمت زراعة المخدرات فانتهت من أفغانستان، وبعد السيطرة الأمريكية على البلاد أصبحت أفغانستان أكبر منتج للمخدرات في العالم، ومصدر 90% من الهيروين الذي يدخل أوروبا، ووزراء الدفاع والداخلية وشقيق رئيس الجمهورية كانت لكل منهم عصابة محلية لزراعة وتصدير المخدرات²” والتقارير والإحصائيات

(1) وهو ما كشفت عنه صحيفة الواشنطن بوست في مقالة بعنوان At war with the truth

(2) Le monade: Comment les Etats-Unis ont consolidé un narco-Etat en Afghanistan

في ذلك كثيرة ومتواترة تؤكد على أن تجارة المخدرات ازدهرت على يد قوات الأمريكية ودعاة الديمقراطية! وسنجد الصحافة الأمريكية تغطي على هذه الحقيقة وربما أخرجت تقارير مناقضة لتلميع صورة أمريكا، كما اشتهرت وكالة "سي أن أن" الخبيثة بصناعة الكذب الإعلامي.

والآن بعد كل هذه الخسائر التي تكبدتها أمريكا، جاء خروجها بسيل من التعليقات اللاذعة والانتقادات الحادة من الحلفاء الأوروبيين، فضلا عن سخرية الروس والصينيين الذين أتهموها بالفشل والتخبط، فقد رجعت طالبان بعد عقدين من الزمان لتسيطر على أفغانستان بمساحة أكبر من التي كانت لديها خلال 1422هـ (2001م) مع بداية الحرب بما في ذلك المناطق التي استعصت عليها سابقا كوادي بنجشير.

لكن أغلب المراقبين يتفقون على أن طالبان قد اكتسبت الكثير من المرونة والفهم لطبيعة النظام الدولي، وتحولت لمرحلة المناورة السياسية والنفس الطويل ولعلها شكل جديد أشبه ما يكون بحرب عصابات سياسية إن صح التعبير. فمن يراقب تصريحات الحركة السياسية ثم ينظر لتحركاتها على الأرض يدرك أن طالبان تناور النظام العالمي وتعلم أنه لا يحترم إلا الأقدام الثقيلة في الميدان وسيرى أن الكثير من التصريحات لم تكن سوى حقن تخدير للمجتمع الدولي كما ظهر في إعلان شكل الحكومة ورفض الديمقراطية. ولذلك أشارت بريطانيا إلى أنه لا يعتمد على تصريحات طالبان بل على أفعالها.

وفي الواقع رغم حجم التكهينات والتحليلات التي رسمت نهاية مختلفة لما نراه اليوم أثناء تفاوض الحركة مع الأمريكان، فإن طالبان قد عودتنا على أن نعتمد في قراءة منهجيتها على الأفعال لا الأقوال، فكل ما أثير بشأن شكل الحكومة الجديدة إعلاميا، ذهب أدراج الرياح بعد أن فرضت طالبان بكل سلاسة حكومة من مكوناتها الأساسية في مفاصل صناعة القرار وتجاهلت مطالب الديمقراطية والتعددية الحزبية التي يرددها المجتمع الدولي، وقرنت جميع مطالبها بمطلب الشريعة الإسلامية، وهي عبارة لازمت كافة تصريحاتها عند التعامل مع النظام الدولي، مثل قبولها جميع قرارات وموائق النظام الدولي ولكن التي تتفق مع الشريعة الإسلامية.

ومن يدقق النظر فيما ينشر يجد أن أغلب التحليلات ارتكزت على تكهنات وأماني الغرب، لكن في الواقع الوعود الطالبانية لا تذهب أبعد مما تريده الحركة.

لقد حاولت أمريكا أن تحفظ لنفسها بعض الهيبة من خلال التفاوض مع طالبان ومحاولة انتزاع بعض ما يحفظ ماء الوجه لكن الأيام الأخيرة لسحب قواتها لم تُبق لها من هيبة. فالولايات المتحدة عندما شاهدت فشل الحل العسكري، سعت جاهدة لتقبل حركة طالبان بالمفاوضات، وكانت الحركة ترفض هذا الطلب في البداية، ثم قبلت وفق شروطها، فخففت الإدارة الأمريكية من لهجة التهديد وجلست مع جماعة تصنفها إرهابية ولا تعترف بها من الأساس مع أنها كانت تقول في بداية الحرب أن التفاوض مع إرهابيين أمر مستحيل، ثم ها هي الآن تضطر للتعامل مع طالبان لإخراج مواطنيها بسلام من أفغانستان!

ويكفي النظر في تعليقات الصحف الغربية على هذا الحدث والعبارات القاسية على الساسة الغربيين التي استعملت لوصفه، لندرك أننا بالفعل أمام انعطافة جادة في الصراع الأمريكي في أفغانستان وصفها بعض الباحثين ببداية التراجع الأمريكي في العالم.⁽¹⁾

وما استغربه الكثير ممن اعتاد على عناوين الأخبار اليومية، هو سرعة سيطرة حركة طالبان على مقاليد الحكم في البلاد لكنه لمن يتابع الدراسات والتقارير الغربية يعلم أنه مصير لا مناص منه، وقد ورد على ألسنة المسؤولين بشكل صريح في مناسبات عديدة، فاستراتيجية السيطرة لطالبان تحتاج لدراسة وإطلاع لأنها لم تأت من فراغ بل من حسن قراءة لبنية الأعداء وتسليح عبر ثغراتهم واستقطاب للولاءات من داخل المراكز المؤثرة، وقد فصلت بعض الدراسات هذه الاستراتيجية بشكل كافٍ وهي متوفرة على الشبكة لمن أراد معرفة استراتيجية طالبان الفعالة في الحرب.

ثم إن تركيبة طالبان على بساطتها إلا أنها مكنتها من الاستناد لهيكل متين خاصة باعتمادها على نظام الشورى وعلى دستور موحد (الشريعة الإسلامية). كما لم يطرأ تغيير كبير على قيادتها الصلبة، فنفس قادتها النخبة لا يزالون اليوم في القيادة، وهم من مؤسسيها الأوائل، وهذا من أبرز الأسباب في استمرار تماسك هذه الحركة رغم ما مرت به من عقبات وتهديدات تترص بصفوفها.

(1) يوتيوب: هل يشهد العالم الأيام الأخيرة للإمبراطورية الأمريكية؟

ولاشك أن خروج القوات الدولية من أفغانستان ليس إلا انعطافة جديدة في الصراع التاريخي على هذه الأرض، لذلك يبدو أن المرحلة المقبلة هي مرحلة الضغوط الاقتصادية والسياسية ومحاولة ترويض الحركة سواء باحتوائها أو اختراقها وتفكيكها.

ولعل هذه المرحلة هي الأخطر والامتحان فيها هو الأعسر لكون المستهدف مقاتلين اعتادوا على حياة الجهاد وفتنة بارقة السيوف لكنهم اليوم أمام فتنة التمكين وانفتاح الدنيا لهم!

والآن بعد 20 سنة من منطق "إما معنا وإما مع الإرهاب" وتخيير العالم كله وفق هذا المنطق، نرى أن طالبان قد قدمت في واجهتها أسرى غوانتنامو كرسالة أخرى على طبيعة التفكير الطالباني العنيد.

الاستراتيجية الطالبانية تهزم نظيرتها الأمريكية

لقد انتهت الحرب العسكرية فعلياً في أفغانستان لكنها زعزعت الثقة في المراكز الاستراتيجية الأمريكية وكشفت قصورها رغم حجم خبراتها وبراعة عقولها، لقد تحطمت هيبة كل ذلك بالانسحاب المذل من هذه البلاد دون تحويل المجتمع الأفغاني لنسخة أمريكية أو القضاء على طالبان.

لا يمكننا تلخيص حجم الترسانة العسكرية والإصرار الاستخباراتي وأشكال الأسلحة المدمرة التي جربتها أمريكا وحلفائها في أفغانستان، كل هذا الجمع عجز أمام رجال قبائل يحملون ثقافة حرب العصابات، قد تكيفوا معها عبر التضاريس الصعبة للبلاد. فضلاً عن قدرتهم على تغيير تكتيكات القتال وفق ما تقتضيه المرحلة.

ولعل أبرز ما ساهم في إنجاح الاستراتيجية الطالبانية في ميدان المواجهة العسكرية، الطبيعة الريفية للحرب في أفغانستان والانتشار الواسع المدرس لطالبان بين العديد من القرى والمدن، الذي أجبر قوات التحالف على إنشاء قواعد متباعدة، تتطلب طريق إمداد حياتي لها، مما يعرضها للهجمات التي لا تمل طالبان من تكرارها. سواء باستهداف القاعدة بحد ذاتها أو باستهداف خطوط إمدادها.

لم يقف نجاح الاستراتيجية الطالبانية على تكتيك حرب العصابات إنما أيضاً على قدرة جهازها الاستخباراتي على اختراق شبكات الأعداء، وهو ما ساعد في حسم الكثير من المعارك مسبقاً

وإجهاض خطط العدو في مهدها. فضلاً عن حفظ العلاقات مع وجهاء البلاد وشيوخ قبائلها المؤثرين.

ولا غرابة أن أصرت طالبان على مواصلة نشاطها العسكري خلال المفاوضات ذلك أنها تدرك جيداً أنه السبب الأول الذي أخضع أعداءها للجلوس معها، فكانت تفاوض بيد وتضرب باليد الأخرى. وهذه السياسة المزدوجة أكسبتها الكثير من التأثير في قرارات التحالف الغربي.

فقد فرضت طالبان منطقتها، ولم تتمكن قوة ولا اتفاقية من حرمانها من السلاح، وبقيت متمسكة بمطلبها الأساسي القديم، استقلالية البلاد من كل محتل وإقامة إمارتها الإسلامية.

أما عن بنود الاتفاق مع الأمريكان، فقد حصلت طالبان على استقلال أفغانستان الكامل من جميع قوى الاحتلال، مع ضمان عدم التدخل في الشؤون الأفغانية وإطلاق سراح 5000 أسير تحولوا لجنود في جيشها، مقابل ضمان عدم انطلاق أي هجوم ضد الولايات المتحدة من أرض أفغانستان من الجماعات الجهادية.

واعتقد الكثير من المتابعين أن طالبان قد تغيرت بعد توقيع هذه الاتفاقية لكن المراقبين يتفقون على أن أبرز تغيير طرأ على حركة طالبان كان في الجوانب الاجتماعية والإعلامية والتي كانت في زمانها الأول ترفض التنازل عنها، كالإزام الرجال باللحى والنساء بالنقاب وعدم خروجهن إلا بمحرم وتحريم التصوير وحظر التلفاز. فقد أصبحت الحركة أكثر سعة لهذه الفئات تحت سلطانها. لكنها بالمقابل لا تزال تفرض مطالبها بطريقة مختلفة.

طالبان هبة الله وطالبان الملا عمر

من تابع سياسات حركة طالبان منذ بداية تأسيسها لا يجد الفرق الكبير بين منهج كل منهما، فقد أعلن الملا عمر عن أهداف الحركة كما أعلنها الملا هبة الله، وهي إقامة الحكومة الإسلامية وأسلمة القوانين والاقتصاد والتعليم وكافة النواحي. وأصر كلاهما على ضرورة طرد المحتلين واستقلالية البلاد.

وقال الملا عمر: “إنّ استقلال أفغانستان وإقامة النظام الشرعي فيها هما من القيم التي لن تسام عليها الإمارة الإسلامية” وحذر مخططي تقسيم أفغانستان قائلاً: “الإمارة الإسلامية بمعاونة الشعب

الأفغاني لن تسمح لأحد أن يطبق هذا المشروع المشؤوم، أو أن يُقسّم البلد على أساس العرق أو الإقليم أو غيره” ، وأكد على أن أهداف الحركة من جهادها هو أن تكون أفغانستان داراً لجميع الأفغان، وليسكنوا فيها جميعاً في جوٍّ من الوحدة⁽¹⁾ وهو نفس ما يتردد اليوم على ألسنة المسؤولين الطالبانيين.

وتماماً كما أكد الاتفاق الطالباني الأمريكي بأن لا تسمح طالبان بأن تنفذ أي هجمات ضد الغرب انطلاقاً من أرضها، كان يتفق مع ذلك الملا عمر حيث قال في بيان عيد الفطر 1433هـ (2012م): “والإمارة الإسلامية تطمئن العالم بأنّها لا تسمح لأحد باستخدام أراضيها ضد الآخرين.”

وأقدم من ذلك بتاريخ 1428هـ (2007م) قال الملا عمر في رسالة له موجهة إلى الشعب الأفغاني والعراقي: “إن الإمارة الإسلامية لا تتدخل تدخلاً غير مشروع في الشؤون الداخلية للدول الأخرى أبداً، ولا تقبل في بلادها التدخل غير مشروع للدول الأخرى أيضاً”، وفي بيان عيد الفطر لعام 1429هـ (2008م) قال الملا عمر: “لو تتركون أنتم ترابنا، فنحن نستطيع أن نهيء لكم فرصة معقولة لخروجكم. ونعيد مرة أخرى موقفنا بأننا لسنا ضرراً لأحد في العالم، كي نُوضع نقطة النهاية لتلك قلاقلكم المزيفة التي تجعلونها ذريعة للاحتلال.”⁽²⁾

وقال الملا عمر، كما ورد في بيان له بمناسبة عيد الأضحى لعام 1430هـ (2009م): “إننا نريد في بلدنا النظام الإسلامي الذي يُحتفظ فيه على حقوق جميع أفراد شعبنا رجالاً ونساءً، النظام الذي يقوم على نفسه، ويملك إرادته، وينتهج في سياساته الداخلية والخارجية قاعدة لا ضرر ولا ضرار الشرعية.”

وأكد الملا عمر في بيانه لعيد الفطر للعام الذي بعده في 1431هـ (2010م): “إننا سنبنّي سياستنا الخارجية على أصل دفع ضرر الغير وعدم إضرار الآخرين.”

فوعود طالبان اليوم هي ذات وعودها بالأمس ولم نر اختلافاً في تصريحات الملا عمر أمس والمولوي هبة الله اليوم.

(1) الملا مُجّد عمر، بيان بمناسبة عيد الفطر المبارك 2012م.

(2) مآرب برس- عن CNN الملا عُمر يعرض "فرصة معقولة" لخروج الأمريكيين من أفغانستان.

ولطالما كان الخطاب السياسي للحركة يشتمل على مصطلحات “الوطنية” جنباً إلى جنب مع الشريعة الإسلامية منذ تأسيسها، فضلاً عن بيانات الشكر والتعزية للدول العربية.

وكما أكدت طالبان هبة الله بأنه لا وجود لمقاتلين أجنب في صفوفها، سبق أن أكد الملا عمر في أحد رسائله عام 1433هـ (2012م) على سعي طالبان لأن يكون المصير السياسي للبلد “ذا صبغة أفغانية وإسلامية خالصة.”⁽¹⁾

واتفق كل من الملا عمر وخلفه هبة الله على أن دستور البلاد ينبغي “ألا يكون فيه مادة أو بند ضد الأصول الإسلامية والمصالح الوطنية والأعراف الأفغانية.”⁽²⁾

أما عن التعامل مع الشيعة، فمعلوم أن الشيعة تواجدتهم قديم في أفغانستان، وقد حصل بينهم وبين طالبان الكثير من القتال العنيف ولا يزال الصراع بينهما يتخذ أشكالاً أخرى⁽³⁾، ولكن سياسة طالبان كانت الاحتواء منذ عصر الملا عمر، فعند سيطرة طالبان على الكثير من معاقل الشيعة بما فيهم الهزارة والإسماعيلية وإحكام قبضتها على أبرز معاقلهم في ولاية باميان، فإنها لم توسع القتال ضدهم، وكان خطابها وتوجهها ودياً ومطمئناً تجاههم، كما تفعل اليوم في عصر هبة الله. كي لا تغرق البلاد في اقتتال داخلي خلال فترة حرجة من الصراع مع الغرب. وهذه كانت سياسة طالبان الشرعية مع الشيعة والرافضة. التي أثنى عليها البعض وانتقدها البعض الآخر. مع العلم أنها سياسة سبقتها إليها الدولة العباسية.

وتبدو هذه السياسة أكثر وضوحاً في خطاب الملا عمر الذي وجهه إلى الشعبين الأفغاني والعراقي في عام 1428هـ (2007م) حيث قال: “وهكذا إني أرجو من الإخوة العراقيين بأن يتركوا الاختلافات باسم أهل التشيع، وأهل السنة إلى الوراء، وأن يقاوموا متحدين ضد العدو المحتل، لأن النصر غير ممكن دون الاتحاد.”

وفي لقاء مع مسئول اللجنة السياسية التابعة لإمارة أفغانستان الإسلامية الشيخ معتصم آغا جان في عام 1430هـ (2009م)، أجاب المسؤول على سؤال المحاور: “كما تعلمون أن الشعب الأفغاني

(1) الملا محمد عمر، بيان بمناسبة عيد الأضحى المبارك، مجلة الصمود، 24 أكتوبر 2012م.

(2) متن موقف الإمارة الإسلامية المعلن في المؤتمر البحثي بفرنسا، مجلة الصمود، 25 ديسمبر 2012م.

(3) الجزيرة: علاقة متوترة تاريخياً.. لهذه الأسباب إيران حذرة من سيطرة طالبان على أفغانستان.

منتّم إلى المدارس والمذاهب الإسلامية العديدة مثل الحنفية والسلفية وإخوان المسلمين بالإضافة إلى فرقة الشيعة... ما موقف الإمارة الإسلامية نحو هذه المذاهب والمدارس الإسلامية؟” فقال مسؤول طالبان: ”إن أفغانستان وطن لجميع الأفغانيين، فيجب عليهم أن يختاروا المعيشة الأخوية والتعاون فيما بينهم، وإن إمارة أفغانستان الإسلامية تعترف بحقوق واحترام أصحاب جميع المذاهب والمدارس الإسلامية المختلفة دون التمييز، وترى بأنهم متساوون في جميع الحقوق، وتود لجميع أفراد بلادها في ظل النظام الإسلامي الموحد العيشة المحترمة ذات أمن كامل واستقرار دائم.”

وهذا دليل على أن طالبان لا تزال تمشي على نفس سياسة مؤسسها الملا عمر إلى اليوم. مع التنبيه إلى أن طالبان تعتمد في جميع خيارات سياستها الشرعية على المذهب الحنفي.

ثم لم يختلف الملا عمر عن هبة الله في سياسة “تصفير” المشاكل وإبرام علاقات طيبة مع دول الجوار، وهي باكستان، إيران، الصين، أوزبكستان وطاجيكستان وتركمنستان، وليس بشيء جديد على طالبان الحرص على بناء علاقات مع جيرانها، فمنذ تأسيسها كان الملا عمر يستقبل الوفود ويكرمهم.

ويظهر حاجة الدول المحيطة بأفغانستان لعلاقات ودية مع طالبان - أرض المعسكرات والخطب الجهادية، أرض تسري فيها عدوى حمل السلاح والقتال كالنار في الهشيم - فباكستان تحتاج لعلاقة جيدة مع السلطة في أفغانستان، من أجل أن يكون لها “عمقٌ استراتيجيٌّ” بمواجهة الخصم الهندي” العدو الأخطر لباكستان الذي يملك قوة نووية.

ولم يسجل تاريخ الحركة اصطداماً مباشراً مع باكستان، رغم ما صدر منها من تعاون كبير مع الأمريكان، ولم تر طالبان مشكلة في حفظ العلاقات مع باكستان منذ عصر الملا عمر، حيث كان لديه سفارة في باكستان خلال فترة حكمه. وهذا موضوع يستحق دراسة منفردة لما في هذه العلاقة من تعقيد وتشعب وتفاصيل مطولة.

كذلك علاقة طالبان مع إيران تجمعها المصالح بين البلدين، مع الخلاف التاريخي العميق بينهما، وقد أشارت طالبان في بياناتها لدوافع هذه العلاقة والتي من أبرزها تواجد أكثر من مليوني مهاجر أفغاني في إيران.

أما الصين فعلى الرغم من حرص طالبان منذ عهد الملا عمر على علاقات جيدة مع الصين توازن الضغوط الأمريكية، إلا أن ذلك لم يمنعها من استضافة الجماعات التركستانية المسلحة المعارضة للحكومة الصينية، ووفرت لها معسكرات التدريب التي كانت تنشر صورها وتسجيلاتها الدعائية إعلامياً حتى حديثاً أثناء المفاوضات مع الأمريكيين. ونذكر من علاقة الصين بحركة طالبان ما قاله عبد السلام ضعيف سفير طالبان باكستان في عهد الملا عمر: “أما سفير الصين، فكان الوحيد الذي يقيم علاقات جيدة مع السفارة وأفغانستان، وقد طلب السفر إلى أفغانستان ومقابلة أمير المؤمنين، فتوليت تدبير الرحلة وتسهيلها.. عبّر السفير عن قلق حكومته إزاء الشائعات بأن إمارة أفغانستان الإسلامية تساعد المسلمين في شينيانغ⁽¹⁾، وهي دولة إسلامية سابقة، أما الآن فهي جزء من الصين وتشهد صراعاً مسلحاً بين مجموعات إسلامية مقاومة والحكومة المركزية، فطمأنه الملا عمر أن أفغانستان لا تتدخل في شؤون الصين الداخلية، ولا تسمح لأي مجموعة أن تستخدم أراضيها للقيام بأي عمليات تدعم ما يحدث في شينيانغ.”⁽²⁾

إذا فعلاقة طالبان مع الصين قديمة منذ تأسيسها وليست وليدة الساعة. وسياسة طالبان تقضي بالآلا يتدخل أحد في شؤونها كما أنها لا تتدخل في شؤون غيرها، لذلك فهي تستقبل المعارضين للدول وتقدم لهم العناية التي يحتاجون إليها وفي نفس الوقت تقيم علاقات سياسية مع حكومات هذه الدول.

وعن نظرة حركة طالبان للعلاقات الدولية يلخصها لنا الملا عمر في خطابه لعام 1430هـ (2009م) حيث قال: “إن إمارة أفغانستان الإسلامية تؤمن بإقامة علاقات ثنائية إيجابية مع جميع الدول في إطار من الاحترام المتقابل، وتريد فتح باب جديد للتعاون الشامل معها في مجالات التنمية الاقتصادية وحسن الجوار، إننا نعتبر المنطقة كلها بمثابة بيت واحد في مقاومتها للاستعمار³” وهو نفس خطاب الحركة اليوم لمن يدقق.

كذلك الحال مع الروس العدو التاريخي المنهزم في أفغانستان، فمعلوم أن طالبان كانت تدعم الجهاد في الشيشان حيث كانت أول من اعترف باستقلالها، وأول من مدها بمعسكرات التدريب. وما نشاهده

(1) تركستان الشرقية.

(2) عبد السلام ضعيف، حياتي مع طالبان، ص244.

(3) الملا محمد عمر، بيان أمير المؤمنين بمناسبة عيد الأضحى، مجلة الصمود، العدد 42، ص3، 1430هـ / 2009م،

من تدافع الروس على طالبان إنما يخفي خشية الكرملن من أن يتمدد الفكر الجهادي إلى دول الاتحاد السوفيتي السابقة.

وعن علاقة حركة طالبان مع الغرب، فقد كانت واضحة منذ تأسيسها أنها على أساس الاحترام المتبادل. قال الملا عمر في بيان له بمناسبة عيد الأضحى المبارك 1433هـ: "إننا سنحافظ على العلاقات الحسنة مع كل جهة تحترم أفغانستان كدولة إسلامية ذات سيادة مستقلة، ولا تكون علاقاتها ومناسباتها بأفغانستان ذات صبغة سلطوية استعمارية وأرى أنّ هذه هي مطالبة وأمل كل أفغاني حرّ مسلم. وحول المفاهمة مع القوات الخارجية فأقول: بأننا سنستمرّ في الكفاح السياسي إلى جانب عملنا العسكري لتحقيق أهدافنا وآمالنا الإسلامية والوطنية، وقد عيّنا جهة خاصّة في إطار مكتب سياسي لمتابعة المسيرة السياسية، والمكتب السياسي يتعامل مع الأجانب وفق مصالحنا الإسلامية والجهادية."

ثم تأتي لقضية التعامل مع الأمم المتحدة، فليس جديداً على طالبان السعي لتحصيل اعتراف دولي من الأمم المتحدة، لكونها ترى في ذلك ضرورة سياسية واقتصادية لترسيخ حكمها، وظهر ذلك في عصر الملا عمر حيث سعت الحركة للحصول على مقعد أفغانستان في الأمم المتحدة، "وأرسلت الحركة الحاكمة في كابل وفداً رفيع المستوى إلى نيويورك لإقناع الأطراف المعنية بحقها في شغل هذا المقعد"⁽¹⁾. ومع تكرار الطلب إلا أن الحركة كانت تشدد في طلبها للأمم المتحدة ألا تلتزم حكومة طالبان بأي قرار أو بند يتناقض مع الشريعة الإسلامية "وهو نفس ما يتكرر اليوم في عصر الملا هبة الله فقد أكدت طالبان على رغبتها في تحصيل الاعتراف الدولي وعلى استعدادها لاحترام جميع القوانين الدولية والمواثيق لكن شريطة ألا تتعارض مع الشريعة الإسلامية. كما أنها ترفض مطلقاً إقامة أي علاقات مع الاحتلال الصهيوني مع ترحيبها بكل علاقات مع الدول الأخرى لأجل الاقتصاد والتنمية وتبادل المصالح، بشرط ألا تتدخل في شؤونها الداخلية .

في حوار للنطاق الرسمي بإسم إمارة أفغانستان الإسلامية "قاري مُجد يوسف أحمد" مع جريدة الشرق الأوسط في عام 1431هـ (2010م) قال: "إن المتفحص لبيانات الإمارة الرسمية وأحاديث مسؤوليها يجد أن لدينا أربعة أهداف نسعى إلى تحقيقها بعد طرد الاحتلال وهي: أولاً: إيجاد حكومة شرعية مستقلة قادرة على إدارة البلد وممثلة لكافة أطراف الشعب الأفغاني المسلم.

(1) الشرق الأوسط، طالبان تبدأ حملة لـ "احتلال" مقعد أفغانستان في الأمم المتحدة، 27 سبتمبر 2000م.

ثانياً: تحقيق الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي بين فئات الشعب.

ثالثاً: إعادة بناء أفغانستان جديدة قوية ومزدهرة.

رابعاً: بناء نظام علاقات قائم على العدل والمساواة والتكافؤ مع جميع دول الجوار والإقليم والعالم وفي مقدمته العالم الإسلامي بالطبع في ضوء القرارات الشرعية.”

ومن يدقق النظر سيجد أن هذه المطالب هي نفس المطالب التي ترددها اليوم طالبان في عام 1443هـ (2021م) وشرعت في تحقيقها.

طالبان ترى من السياسة الشرعية التعامل مع الهيئات الإقليمية والدولية من باب الحاجة الواقعية وهذا واضح ومستمر منذ تأسيسها إلى اليوم. ويظهر جلياً في بياناتها وزيارات الوفود الدولية واستقبالها السفارات.

وقد سعت طالبان لإقامة علاقات “أخوية” مع الدول في العالم الإسلامي وحصلت على تمثيل دبلوماسي في السعودية والإمارات وقطر. وما بقي مشاهداً في سياسة طالبان قديماً وحديثاً هو إصرارها على عدم تدخل الغير في شؤونها الداخلية. وهو ما يفسر رفضها تسليم التركستانيين وأسامة بن لادن.

ثم من المهم أن نفهم بنية حركة طالبان ومنهجها منذ تأسيسها حتى نستوعب ما يصدر عن الحركة وما هي أهدافها.

ولا تزال حركة طالبان تتفاعل مع القضايا الإسلامية في العالم وفي مقدمتها فلسطين ويظهر تفاعلها في بياناتها مع الثورات وأحداث مصر والتركستان وإفريقيا الوسطى وبورما.

وإلى اللحظة رفضت الدول الاعتراف بإمارة أفغانستان الإسلامية، إلا أنها مضطرة للتعامل معها بصفتها السلطة الحالية للبلاد والتي تمسك بزمام أمنها ومؤسساتها.

أفغانستان بلغة الأعراق والعقيدة

تضم أفغانستان الحالية مناطق شاسعة من بلاد خراسان التاريخية، وهي تحتضن أدياناً ومذاهب عديدة. مع نسبة 90% من الشعب الأفغاني من أهل السنة الأحناف بينهم مذاهب مختلفة، وأقلية شيعية

بنسبة 10% بما فيها الإثني عشرية وكذلك الإسماعيلية، فضلا عن نسبة ضئيلة من السيخ والهندوس واليهود.

تشمل طالبان أكبر مكون أفغاني، البشتون، الذين حكموا البلاد منذ القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) إلى اليوم، وموطنهم الرئيسي شرق وجنوب شرق البلاد، ومن أشهر مدتهم قندهار وجلال آباد، ومع توسع الحركة، دخل في مكوناتها الطاجيك أو الفرس وهم المكون الثاني من حيث الحجم في أفغانستان. ويتمركز الطاجيك وسط وشمال وغرب البلاد ومن أشهر مناطقهم هرات، وبدخشان، وپنجشير.⁽¹⁾

ويأتي الأتراك الأوزبك في المرتبة الثالثة لمكونات المجتمع الأفغاني، وموطنهم الأصلي شمال غرب أفغانستان في ولايات جوزجان وفارياب ويكثرون في مدينة مزار شريف إضافة إلى الأقلية التركمانية - من أصل تركي - الذين يعيشون في أفغانستان وموطنهم نفس مناطق الأوزبك.

أما الهزارة فينحدرون من الجنس المغولي، موطنهم الأصلي منطقة باميان. كما يعيش في أفغانستان البلوش في ولايتي نيمروز وقندهار، وكذلك النورستانيين والعرب وبدو الأيماق. والشعب الأفغاني بجميع أطيافه شعب محافظ متدين تغلب عليهم البداوة.

وتشير أغلب التقارير إلى أن طالبان، سنة أحناف من المدرسة الديوبندية، وهم أحناف في الفقه وماتريديية في العقيدة.

مع ذلك سأنقل ها هنا بعض شهادات قادة الجماعات الجهادية التي تغلغل أفرادها في مكونات طالبان من القيادة إلى الجنود، وكانت تربطهم علاقات استراتيجية تظهر في بياناتهم الرسمية وتصريحات قادتهم البارزين والتي تعكس حقيقة أن الجماعات التي تحمل الفكر السلفي الجهادي، كانت على انسجام تام مع طالبان وعقيدتها ولم تكن تنتقدها في هذا الباب. بحكم تاريخهم المشترك في الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي واستضافتها للمهاجرين العرب وما تلا ذلك من علاقة غامضة.

(1) بحسب ماجد العباسي إعلامي إيراني ناشط في حقوق الأقليات وأهل السنة في إيران، باحث في التاريخ <https://twitter.com/majedalabbasi/status/1435668317998616577>

ولم يعرف عن طالبان بحسب تاريخها وتصريحاتها، تكفير الأنظمة العربية التي تكفرها تنظيمات السلفية الجهادية نظراً لاتباعها المدرسة “الديوبندية” وقد ذكر ذلك الباحث أبو مصعب السوري في كتابه “طالبان ومعركة الإسلام” نقلاً عن المسؤول الإعلامي لإمارة أفغانستان الإسلامية أحمد مختار في لقاءه مع موقع “الجزيرة توك” الذي نشر في عام 1430 هـ (2009م) حين سئل عن حكم الأنظمة العربية فأجاب: “أريد أن أقول بأننا لا نكفر أحداً من الحكام ولسنا في مواجهة مباشرة معهم.”⁽¹⁾

وحركة طالبان منذ عصر الملا عمر تطلق لفظ “إسلامي” على الدول بما فيها إيران، حيث نددت في عام 1429 هـ (2008م) بالعقوبات الجديدة من قبل مجلس الأمن على ما سمته: “جمهورية إيران الإسلامية”. وخطابات الملا عمر عديدة وواضحة في الاعتراف برؤساء الدول المسلمة كذلك بيانات طالبان لا تخلو من الشكر والتعازي الموجهة لبعض الدول العربية. وهو ما يتعارض ومبادئ الجماعات الجهادية السلفية، مع ذلك لم يمنع هذه الجماعات من إظهار الثناء والمدح والتبجيل لطالبان، ولو نظرنا في آخر خطاب صدر من الخصم اللدود حالياً لحركة طالبان، تنظيم الدولة الإسلامية، سنجد الإشادة الصريحة بحركة طالبان والثناء الذي لا لبس فيه عليها، وذلك على لسان الناطق الرسمي السابق باسم التنظيم “أبو محمد العدناني” في كلمة صوتية له في عام 1432 هـ (2011م) قال فيها: “إلى تلك العصاة التي تقاتل على أمر الله، إلى أولئك القوم الذين لا يخافون في الله لومة لائم، إلى جميع المجاهدين عامةً في شتى بقاع الأرض، ولا يسعني إلا أن أخص منهم الجبل الأبيّ الأشم والبحر الحمي الخضم، بأبي هو وأمي، الشيخ الفاضل الملا عمر مع بشتونه والطالبان، صخرتنا القوية وقلعتنا العصية”.

بل أضاف على هذا الثناء قصيدة خاصة تمدح الملا عمر وطالبان الديوبندية الأحناف الذين لا يكفرون الأنظمة وقيمون علاقات دولية ويطالبون باعتراف الأمم المتحدة، قال فيها:

يا من ظلمتَ ارحل إلى الملا عمر * وقفاته عدلٌ ورشدٌ نادرٌ

بشتونه والطالبان حماتنا * قد عاهدوا الرحمن أن لن يغدروا

(1) محاضرات مفرغة: بيانات وإصدارات وحوارات الجماعات الجهادية وفتاويها وتاريخها.

لن يُخذل الإسلام لا * ما دامت الأرواح فيهم أو دماءً تقطرُ

وهذا يدل على أن عقيدة طالبان المعلومة لم تكن محل خلاف لدى أشد الجماعات تركيزاً على الفرق والعقائد والتكفير.

فعقيدة طالبان هي نفسها التي انطلقت بها منذ أيام الملا عمر، والسياسة التي تنتهجها الجماعة كما أسلفنا هي نفس السياسة التي تمضي بها اليوم مع تغيير في الاستراتيجية الإعلامية والمرونة في التعامل مع الملفات الاجتماعية. كما ظهر من خلال التصريحات القديمة والجديدة المنسجمة لمسؤولي الحركة.

ولعل من أبرز التعليقات على قضية عقيدة طالبان، جواب أحد قادة القاعدة المعروف باسم “يوسف العييري” الذي أجاب على سؤال: هل طالبان قبورية؟ وما معنى كونهم “ديوبندية”؟ وهل هم متصوفة، أو أشاعرة؟!

فأجاب على هذا السؤال في كتابه “الميزان لحركة طالبان”، الذي كتبه في عام 1422هـ (2001م) قائلاً:

“لا نزعم أن حركة طالبان حركة سلفية ومن قال عن جملتهم ذلك فهو مخطئ، وكذلك ننفي عنهم أنهم قبوريون يشوبهم شرك أكبر، ولكننا نقول: يوجد منهم سلفيون ومنهم متصوفة مبتدعة والسواد الأعظم منهم على المذهب الحنفي عقيدة وفقهاً وطريقة، هذا فيما نعلم عنهم وما قلنا ذلك إلا لتتضح الصورة باختصار.

لأننا رأينا من يخلط الأمور ويقول إن طالبان (ديوبندية) وهو يظن أن الديوبندية عقيدة مستقلة، وفي الحقيقة أن الديوبندية ليست عقيدة جديدة، ولكنها مدرسة نشأت في بلاد الهند نسبة إلى مدينة ديوبند التي أسست فيها قبل أكثر من 200 عام، وهذه المدرسة تعتمد المذهب الحنفي مذهباً فقهياً، وقد حفظ الله الإسلام في بلاد الهند منذ القدم بفضل ثم بفضل جهود هذه المدرسة التي انتشرت حتى وصلت بلاد أفريقيا السوداء.

فالديوبندية مدرسة وليست عقيدة مستقلة، مثل الأزهر في مصر، فالأزهر مدرسة نشأت في مصر وانتشرت فروعها، وليس كل خريج من الأزهر لا بد أن يكون شافعي المذهب أشعري العقيدة،

فالأزهر تخرج منه علماء سلفيون وتخرج منه علماء من أهل الحديث، تماماً كما هو الحال مع المدرسة الديوبندية، والمدرسة الديوبندية تتأثر بعقيدة وطريقة من يكون رئيساً لها إلى حد ما، إلا أنها في العقدين الماضيين وبسبب قرب تلك المدرسة من الجهاد الأفغاني بدأ متعصبة الأحناف يطلقون على الديوبندية وهابية.

ولا بد من تصحيح هذا المفهوم الذي يبني عليه الحكم على حركة طالبان، علماً أن الديوبندية اليوم يعدون من القريبين جداً من مذهب أهل الحديث في الهند، ففي الاجتماع الأخير لعلماء ديوبند في بشاور الذي كان في منتصف شهر شعبان لعام 1422هـ كان الذي قرأ البيان الختامي للاجتماع هو فضيلة الشيخ سميع الحق عميد الجامعة الحقانية لعلوم الحديث في باكستان وهو مرجعية أهل الحديث والتفسير لتلك البلاد.

والطالبان أيضاً ليسوا جميعاً من خريجي المدرسة الديوبندية، بل إن أكثرهم خريجو الجامعة الحقانية لعلوم الحديث في بشاور والقسم الآخر خريجو الجامعة الإسلامية في كراتشي، وأكبر مؤثر عليهم فيها هو فضيلة الشيخ نظام الدين شامزي عميد كلية الحديث في الجامعة.

أما مفهوم التصوف لدى الطالبان فسوف يشير إليه عدد من المسؤولين الذين قابلناهم لا سيما المسؤول الإعلامي لأمير المؤمنين المولوي أحمد جان، ونكتفي في هذه المقدمة بذكر كلمة يسيرة عن هذا المفهوم (التصوف) إجابة على سؤال وجهه الشيخ أبو سلمان للمولوي حمد الله مسؤول المهاجرين في قنصلية كويتا وكان بحضرته المفتي فضل عميد جامعة الجهاد التابعة مباشرة لمكتب أمير المؤمنين، حيث كان سؤال الشيخ قوله: يتهم بعض الناس الطلبة بأنهم صوفية؟ فقال: ليس هذا وقت الصوفية هذا زمان الجهاد مشدداً على أن التصوف فكر انعزالي يتنافى مع الجهاد في سبيل الله الذي نذر الطلبة أنفسهم له، وأقره المفتي على هذا الكلام ووافق على قوله وأكد أنهما لا يعرفان أحدا من القيادات أو الشخصيات المرموقة في الطلبة يعتنق هذا الفكر.

أما عن الأضرحة والقبور فنوجز الكلام فيه أيضاً بإجابة من المولوي حمد الله والمفتي فضل على سؤال آخر قدمه لهما عقب السؤال المتقدم الشيخ أبو سلمان فقال فيه: هل الطالبان جادون في تغيير الوضع المتعلق بالأضرحة والقبور؟ فأجابا: نعم إن الطالبان جادون بإزالتها، وقد هدموا سرا وفي الليل بعض هذه الأضرحة في هرات وغيرها إلا أن إعلان ذلك في هذه الفترة سابق لأوانه وهم يراعون في

تغيير ذلك المنكر أن لا يترتب عليه ما هو أنكر منه ويقومون بحملة توعية عند المزارات وفي الإذاعة والمساجد¹. اهـ.

هذا الرد يكفي لتبيان كيف ينظر السلفية لعقيدة طالبان وحقيقتها في وقت توالت فيه حملات التشويه لعقيدة هذه الحركة، وهو نفس ما ذهب إليه الباحث أبو مصعب السوري الذي زار أفغانستان بنفسه واختلط بطالبان.

وفي هذا الصدد، قال الشيخ محفوظ بن الوالد (أبو حفص الموريتاني)⁽¹⁾ في تغريدة له على تويتر:

“من أبرز الشخصيات السلفية في طالبان:

الشيخ عبدالرحيم، وهو شيخ المجاهدين السلفيين في كنار.

حاج حياة الله ابن أخ الشيخ جميل الرحمن، شيخ السلفية في أفغانستان .

حاجي حكيم حاكم ولاية نورستان.

الشيخ منيب، نائب الوالي.

محب الله هجرة رئيس اللواء العسكري في نورستان.”

ما يدل على سعة حركة طالبان مع من ليس على مذهبها.

وخلاصة القول في هذا الباب، إن تحرير بلاد مسلمة وإخراج المحتل منها، إنجاز لا يُبخس، وقد حرر بيت المقدس أشعري، وقبله فتح القسطنطينية صوفي، مع ذلك اشترك المسلمون جميعا وعلى مر الأزمنة والعصور في تثمين هذه الإنجازات.

الخلاف مع تنظيم الدولة الإسلامية

ألقت خلافات الشام بين تنظيم دولة العراق الإسلامية والتنظيم الأم “القاعدة” بظلالها على أفغانستان، فبعد الخلاف الذي نشب بين التنظيمين، على إثر إعلان أمير التنظيم في العراق التمرد للشام، على اعتبار جبهة النصره تابعة له، رفضت الأخيرة إعلانها ورفعت الخلاف إلى قيادة القاعدة

(1) حسابه على تويتر AbuHafsMuritani

التي كلفت شخصيات جهادية وعلمية للحكم فيه، ولكنه خلاف لم يحسم بل وصل إلى مرحلة الاقتتال الشرس وإعلان البراءة بين الطرفين، وعلى ضوء هذه الخلفية أعلن تنظيم الدولة في العراق والشام تغيير اسمه إلى تنظيم الدولة الإسلامية على اعتبار أن أميره أصبح خليفة المسلمين في كل العالم، وأعلن بناءً على ذلك إسقاط شرعية جميع الجماعات والحركات الإسلامية، وبدأ باستقطاب أتباعها لجمع البيعات وإنشاء مراكز له موازية منافسة في كل ساحة نشاط لهذه الجماعات، فتشكل مشروع موازٍ لمشروع القاعدة الأم لكنه خصم، واندلع القتال بينهما، وأثناء ذلك استجاب له أعضاء في حركة طالبان، فانشقوا عن جماعتهم، وأعلنوا ولاءهم وأسسوا على إثر ذلك فرعاً له في أفغانستان. فاعتبرت طالبان هذا الانشقاق، نكثاً لبيعة كبرى ألزمت بها الأعضاء المنتسبين إليها، نظراً لعدم اعترافها بإعلان الخلافة من العراق واعتبارها غير شرعية، وقاتلت المنشقين عنها باعتبارهم خوارج خرجوا عنها واتهمت الأمريكان بتقديم التسهيلات لهم لإضعافها ومن ذلك تحريرهم من سجونها، واستمر القتال بينهما في أفغانستان في نفس الوقت الذي لا تزال فيه حركة طالبان تقاتل قوات التحالف الدولي بقيادة أمريكا، وأعلن تنظيم الدولة أن قتال طالبان قتال ردة وكفر واتهمها بالتعاون مع الأمريكان ضده، كما أعلن تكفير تنظيم القاعدة وأجاز قتاله غالباً لأنه لم يكفر طالبان. مع العلم أن التحالف الدولي كان قد أعلن الحرب عليهم جميعاً.

واستغلت الولايات المتحدة هذه التطورات بامتياز، فراهنّت على الخلافات واصطدام المشاريع فوظفتها إعلامياً وسياسياً لتضرب الجماعات بعضها ببعض وتشغلهم عنها. ولا يزال الخلاف مستمراً واصطدام المشاريع واضحاً. وفصوله معقدة وتفصيلها تطول والترتب الأمريكي بين السطور.

جانب غامض في المشهد

عندما نتحدث عن حركة طالبان وتاريخ مسيرتها لا بد أن نتحدث عن علاقتها الغامضة مع تنظيم القاعدة، العدو اللدود للولايات المتحدة، الذي بسببه أطلقت أولى حروبها بتحالف دولي كبير على ما يسمى الإرهاب، ولم يتردد رئيسها آنذاك في إطلاق اسم “الحرب الصليبية الجديدة” على هذه الحرب، والتي تبين لاحقاً أنها كانت تستهدف كل ما يتصل بالإسلام لا فقط التنظيم الواحد وخلفت خسائر جمة ودماراً هائلاً.

ونجد أن القاعدة تردد في أدياتها ووثائق أميرها التي أفرجت عنها وكالة الاستخبارات الأمريكية، حقيقة وجود بيعة تربط القاعدة بإمارة أفغانستان الإسلامية، على أساس مشروع إقامة الخلافة الإسلامية، ونجد هذه البيعة ملزمة لجميع فروع القاعدة، بما فيها الفرع العراقي الذي كان تحت قيادة أبي مصعب الزرقاوي، ونص البيعة كما تظهر ووثائق أبوت أباد، كان على الجهاد وإقامة خلافة إسلامية، وتجلت بوضوح علاقة الاحترام والتقدير التي تبديها فروع القاعدة بما فيها العراق حتى في زمن قريب لطالبان في بياناتها الرسمية. ولعل في ذلك تفسيراً لعدم إظهار طالبان أي تصريحات انتقادية للقاعدة علناً وتجاوزها أسئلة الصحفيين بهذا الشأن سوى في حدود المطلب الأمريكي بشأن منع أي هجمات للتنظيم من على أرضها .

وقد رصد هذا الغموض العديد من الباحثين الغربيين الذين لا يتردد بعضهم في اعتبار الخطة الطالبانية مجرد فخ للولايات المتحدة وأن المفاوضات لم تكن إلا طريقة لكسب الكثير من الوقت وتخفيف الهجمات الأمريكية من أجل إرساء قواعد التمكين، واستغلال الإدارة الأمريكية، بدليل سرعة سيطرة الحركة على البلاد وتخطب الإدارة الأمريكية مع أزمة كابول، ثم انتهاء الأمر بإعادة حكم الإمارة الإسلامية الذي لا تقبل طالبان المساومة عليه. ويرى هؤلاء أن خروج جميع القوات من أفغانستان لا يعني إلا مزيد حرية ومساحة لأنشطة هذه الجماعات مع التنبية إلى أن الاتفاقية لا تحمل أي بنود تلزم طالبان بقتال القاعدة أو الانخراط في حملات مكافحة الإرهاب.

ولابد من الإشارة إلى إعلان حركة طالبان باكستان تجديد البيعة للملا هبة الله مباشرة بعد سيطرة طالبان من جديد على أفغانستان⁽¹⁾، ثم تهنئة تنظيم القاعدة بالانتصار على الأمريكان⁽²⁾. وهي معطيات تحتاج لمزيد قراءة وبحت ومتابعة خاصة أن آخر خطاب من طرف طالبان باتجاه القاعدة رصد في فترة الملا أختر منصور الذي أعلن قبول تجديد بيعة القاعدة⁽³⁾، ولا تزال طبيعة هذه البيعات بحاجة لدراسة عميقة لفهم أهدافها وأبعادها وخصائصها الشرعية .

(1) بي بي سي: طالبان: ما مصير البيعة التي تربط تنظيم القاعدة بالحركة؟

(2) آر تي بالعربية: نشطاء يتداولون رسالة تهنئة من "القاعدة" ل"طالبان" ب"النصر العظيم" في أفغانستان - سي أن أن بالعربية: القاعدة في شبه الجزيرة العربية تهنئ بانتصار طالبان وتتعهد بطرد "المحتلين من أراضي المسلمين" -

أيضا - مؤخراً- تم تعيين سراج الدين حقاني وزير الداخلية في إمارة أفغانستان الإسلامية. رغم أنه لا يزال في قائمة المطلوبين لأمريكا وعليه مكافأة 5 ملايين دولار لمن يدلي بمعلومات عنه. (1) ومعلوم علاقته الوطيدة بالقاعدة، فهو القائد الفعلي لشبكة حقاني وأحد أبرز حلفاء التنظيم مما أثار تساؤلات لدى العديد من المحللين الغربيين وسخط الأمريكيين. كما لا تزال التساؤلات تطرح أيضا بعد احتفاء طالبان بالمولوي سنجين (2)، المسؤول العسكري السابق لولاية بكتيكا الذي قتل في قصف أمريكي في عام 1434هـ (2013م) وسبق أن أجرى لقاء مع إعلام القاعدة يعلن فيه عن العلاقة الأخوية والوطيدة بين التنظيم وطالبان (3).

إضافة لذلك، نشاطات تنظيم القاعدة في استهداف الولايات المتحدة لا تزال جارية وتأكيدا على استمرار استراتيجيتها لا يزال مرصوداً. وتواترت التقارير التي تؤكد نشاط التنظيم داخل أفغانستان وإجراء الأمريكان قصفاً ضد قاداته، مع أن طالبان تنكر ذلك باستمرار .

وعموما الارتباط التاريخي للجماعات الجهادية بأفغانستان باعتبارها المدرسة الأولى التي تخرجت منها الأجيال الجهادية، معقد وبجاجة لدراسة مفصلة مع الأخذ بعين الاعتبار أن التحالف بين هذه القوى وطالبان لم تمنعه التصنيفات العقيدية ولا الاختلافات السياسية الواضحة بينها، وأدبيات هذه الجماعات تلخص ذلك بوضوح. وهو ما يصب في صالح فكرة إمكانية إنشاء التحالفات الإسلامية ومشروع توحيد الأمة حول الأهداف الاستراتيجية الكبرى، الذي كنت طرحته في مقال سابق عن الاستراتيجية (4).

ويرى المراقبون الغربيون أن استقلال طالبان وإقامة حكمها الإسلامي بحد ذاته أهم جميع الجماعات الإسلامية المتمردة وجعل من أحلامها في تحقيق مشاريعها ممكنا جداً .

(1) Longwarjournal: Taliban lionizes Haqqani commander who celebrated ties to Al Qaeda, held American hostage

(2) Longwarjournal: Taliban lionizes Haqqani commander who celebrated ties to Al Qaeda, held American hostage

(3) لقاء السحاب مع المسؤول العسكري لولاية بكتيكا المولوي سنجين.

(4) مقالة: قراءة في الاستراتيجية.

الخلاصة

يظهر جلياً من خلال تتبع المسار التاريخي لطالبان أنها لا تزال تحافظ على نفس نهجها القديم منذ استلمت مقاليد الحكم، لكن التغيير الأساسي الذي ظهر ليس في القيم والمبادئ والأهداف التي تحملها الحركة إنما في سياسة التعاطي مع القضايا التي استغلها الإعلام الغربي لمهاجمتها كقضية المرأة والأقليات.

واليوم تقف حركة طالبان مع مشروع إمارتها الإسلامية أمام امتحان عسير، بين ضغوطات الترويض الدولي وملف الاقتصاد وإدارة الدولة، واحتمالية اشتعال الفتنة الداخلية وتوالي الحملات من المعارضة والخصوم لإسقاطها، ووحدها الأيام المقبلة ستكشف لنا كيف ستتعامل هذه الحركة مع الأحداث والمكائد والعقبات، لكن ما سجلته التجربة الطالبانية بغض النظر عن كل الجدل المرافق وما يمكن أن يحدث، هو أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، وأن وحدة الصف ووضوح الأهداف والاستراتيجية تهزم تحالفات دول كبرى!

ومما يجدر تسليط الضوء عليه من خلال هذه التجربة، ذلك الارتباط الوثيق لحركة طالبان بالعلماء في أفغانستان وباكستان، فهي حركة أسسها طلبة علم، وتستند في كل خطوة لها على العلماء الذين يكونون مجلس الشورى للحركة، وهذا الموضوع يحتاج لدراسة مفصلة لفهم كيف يقود العلماء حركة طالبان منذ تأسيسها، وكيف شكلت المرجعية الدينية قاعدة ارتكاز أساسية ضمنت تماسك الحركة واستمراريتها على نفس النهج لتحقيق أهدافها المنشودة. وفي الواقع هذه التجربة ليست بعيدة عن تجارب الدول الإسلامية الماضية التي قامت في أرض خراسان، الأرض التي تمتلك مقومات قيام الدول عبر التاريخ⁽¹⁾.

وتبقى نقطة تستحق الاهتمام في التجربة الطالبانية هي قدرة جهازها الإعلامي على مواكبة التطورات والأحداث، ومخاطبته العالم باللغات المختلفة بما فيها العربية، ونشاط ممثليه على مواقع التواصل ونقلهم ما يدحض الإشاعات ويرد الاتهامات التي تصدر من خصوم الحركة وأعدائها، وربطهم الجسور مع الشخصيات الناشطة في الساحة الفكرية، فنشاهد الأعلام المختلفة تكتب في مجلاتهم ومواقعهم

(1) مقالة: آسيا الوسطى: قصة الإسلام في بلاد ما وراء النهر - الجزء الأول

الإعلامية، ومن ذلك التسجيلات التي تصور لنا عناية الحركة بقوتها العسكرية وتخريجها المستمر لدفعات عالية التدريب من القوات الخاصة التي لا تتردد في عرض غنائم الحرب في لقطاتها واستعمال أسماء ترتبط بالتاريخ الإسلامي مثل كتيبة بدر 313 للقوات الخاصة.

وأشدد في الختام على أنني لم أناقش هنا سياسة طالبان واستراتيجيتها من زاوية شرعية، ولا حرصت على نقد أديائها ومناقشة أخطائها التي لا تخلو منها جماعة، ولا تطرقت إلى وجهة نظر معارضيتها ومآخذهم عليها، إنما حرصت - كمدخل - على عرض مختصر لتاريخ وحاضر هذه الجماعة مع تسليط الضوء على أبرز المعالم لفهم بنية الحركة الفكرية والعقدية ومنهجها السياسي، واستراتيجيتها على الأرض وفي الإعلام، كما هي وكما تعتقد حركة طالبان منذ تأسيسها إلى اليوم، لنفهم كيف تفكر هذه الحركة⁽¹⁾، ومالذي تريده بالضبط، لا كما يريدنا الإعلام أن نُضممه، ولندرك أنها تمكنت - إلى الآن - من تحقيق أهدافها في نهاية المطاف والتي كانت تبدو مستحيلة بالنظر لقوة أعدائها، ثم بناء على هذه المعطيات الجديدة علينا أن نستثمر خلاصاتنا في تحقيق الانبعاث الإسلامي الجديد بدل بث الانهزامية بين الجماهير.

وبعد كل ذلك لا أزال أتساءل، أين وصل إعلان الرئيس السابق بوش الابن الذي قال مع بداية الحرب: "لقد بدأت الحروب الصليبية الجديدة، إما ستكونون معنا أو معهم."⁽²⁾

(1) الموسوعة (الجزيرة): حركة طالبان.. النشأة والفكر والتنظيم.

(2) من المراجع: ملامح المشروع السياسي لطالبان (المعهد المصري للدراسات) ووثائق أبوت آباد التي نشرتها الولايات المتحدة.

مراجعة كتاب مستقبل الخوف .. دراسة في واقع الخوف ومستقبله

“ مستقبل الخوف ” هكذا اختار الأستاذ أحمد دعدوش -الباحث والصحفي المهتم بالقضايا الدينية والفكرية والمشرف على موقع السبيل- عنوان كتابه الجديد الذي شمل تسعة فصول ومقدمة، افتتحها بالإهداء الذي قال فيه: “إلى كل مسلم وصل إليه هذا الكتاب.. أرجوك، اقرأه كأنه كُتب خصيصاً لك.”

كتاب جاء ما بين اجتياح وباء كورونا للعالم، وتزايد التدهور الاقتصادي، وإعادة ترتيب مواقع القوى، وتوالي تداعيات الثورات والاحتجاجات، وانهميار الأخلاق وفوضوية الإعلام وانتشار التفاهة. لي طرح الإجابات عن: أين موقعنا من هذا العالم؟ وما موقفنا من الفتن؟ وكيف نفكر في “مستقبل الخوف” أثناء بحثنا عن مشاعر الأمان؟

المقدمة

أشار الكاتب في مقدمته إلى أن الكتاب جاء محاولة للنظر في واقع اليوم حيث يتسارع الزمن إلى درجة يصعب معها الإمساك بالحاضر، وإلى ما وصفه بالصدمة الأشد وقعاً في المرحلة الانتقالية بين العقدين الأول والثاني من القرن الميلادي الحادي والعشرين. وآثارها الأكثر عمقاً. وبغض النظر عما طوره عامة الناس من مهارات اللامبالاة لتجاوز تداعيات الصدمة على حياتهم اليومية بحسب الكاتب، فإن الخوف هو السائد حينما نظرت والغموض هو شعار كل مرحلة جديدة.

ولعل أهم ما جاء في مقدمة الكاتب قوله “: أكتفي بالقول وأنا أضع بين يديك -عزيزي القارئ- خلاصة قراءتي وعصارة أفكاري: أرجو أن تضع كلماتي في موضعها الصحيح، فكتابي هذا ليس دراسة أكاديمية لقراءة التاريخ واستشراف المستقبل، ولا خارطة طريق عملية لإرشادك في مستقبل شعاره الخوف، فأنا لا أملك سوى التفكير والتحليل والتحذير، ولا أنسى التحلي بروح الأمل وأستأنس بالدعاء والتضرع بين يدي المولى عسى ألا تأسرنا ريقة الخوف.”

الفصل الأول: وباء كورونا.. الخوف المباغت

في فصله الأول؛ ناقش الكاتب حديث الساعة وأكثر موضوع يشغل الأذهان في الوقت الراهن؛ ألا وهو وباء كورونا، وكيف أن الفيروس المستجد لم يحول وجهته نحو الفقراء في الهند وأمريكا الجنوبية إلا بعدما كشف عورات أوروبا وأنها سياسياً واقتصادياً على نحو غير مسبوق.

واستغرق الكاتب في تفصيل مشاهداته وخلاصاته في هذا الملف من حيث التكيّف والمرونة والجدل الدائر بشأن المؤامرة، وكيف أن جميع نظرياتها المتضاربة – بالرغم من أن الاحتمال وارد للمؤامرة – لا ترقى إلى مستوى الأدلة.

ولم يفت الكاتب الحديث عن الوجه الآخر والمعضلة الأخرى التي تقابل عقلية المؤامرة وهي عقلية اللامؤامرة. كما كشف في هذا الفصل أيضاً عن الوجه الآخر للحضارة الغربية وكيف فضح كورونا هذا الوجه اللاأخلاقي للإنساني.

كما تناول الكاتب في فصله الأول حقيقة العولمة والرأسمالية والديمقراطية التي أصبحت كلها على المحك مع انتشار الوباء. وطرح الكاتب الأمثلة والأرقام عن عجز الولايات المتحدة التي فشلت في الاختبارات الثلاثة وهي: أساس جودة الحكم الديمقراطي، وتسهيل تزويد العالم باحتياجاته، وحشد الاستجابة الدولية للأزمات، في وقت قفزت الصين بسرعة لتملأ هذا الفراغ.

وكذلك عرض الكاتب الآراء في مستقبل الرأسمالية وكيف استغل مشاهير الفكر الماركسي فرصة ذهبية للتشفي من الرأسمالية. مستنداً إلى جولة استطلاعية لأهم الأقوال في هذا الشأن. والتي انتهت بأن كورونا دفع المثقفين الغربيين إلى مراجعة عميقة تُنزل الديمقراطية عن عرشها المقدس، وتكاد تلمس ما كنا نتحدث عنه في النظام الإسلامي عن “الحكم الرشيد” و”الشورى”.

كما عرّج الكاتب على تاريخ الأوبئة وواقعها وحقيقة توظيفها، ثم بعد الحديث عن المأزق الحاد لليبرالية والرأسمالية والديمقراطية عاد الكاتب بالنقد إلى الأصل الفلسفي الذي نشأت عنه كل هذه الأنظمة ألا وهو رؤية الحضارة الغربية للإنسان ولعلاقته بالمجتمع والطبيعة ثم موقفهما من الإله.

ناقش الكاتب في هذا القسم أيضاً الخلاصة من تجربة كورونا القاسية، وهل غيرت شيئاً في قلوب الناس والجبابة، مستشهداً بالآية 65 من سورة العنكبوت:

(فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ).

الفصل الثاني: المدينة الفاضلة بين الخوف والحلم

تتطلب عرض الشرائح هذه للجافا سكريبت.

استهل الكاتب هذا الفصل بذكر قصة وصوله في صيف 2020م إلى مونتريال؛ المدينة الكندية التي وصفها بأيقونة من أيقونات الرأسمالية الحديثة، لخص فيه شعور الخوف الذي عاشه مع المشردين في مدينة تعتبر من أكثر المدن أماناً في العالم.

وتناول الكاتب في هذا الفصل حقائق عن الرأسمالية المتوحشة مشيراً إلى أن هذه السياسة الاقتصادية لم تقتصر على اقتصادات الدول العظمى بل باتت منهجاً معتمداً لدى المؤسسات الدولية الكبرى مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، حيث فرضت بدورها هذه السياسة على الدول النامية التي لم تتمكن بعد من بناء اقتصادات وطنية تقوى على دخول السوق ومنافسة العمالقة.

كما لفت الكاتب الانتباه إلى كيف أصبحت الكوارث الطبيعية في النهاية مدخلاً لاستعباد الإنسان أينما كان.

وتحت عنوان جانبي "الماركسية ونهاية التاريخ" ناقش الكاتب أطروحة المفكر الفرنسي الماركسي هنري لوفيفر في كتابه "نهاية التاريخ"؛ الكتاب الفلسفي المعقد، الذي يعيد فيه قراءة سيرورة التاريخ من خلال نظرية الجدلية (الديالكتيك) لدى هيغل وصراع الطبقات لدى ماركس وتراتبية الحضارات لدى نيتشه.

وعلى الرغم من أن نموذج المدينة الفاضلة التي تنبأ بها ماركس تفضي إلى نهاية حتمية للتاريخ، تسود فيها المساومة عندما يملك العمال وسائل الإنتاج، إلا أن التجربة التطبيقية للفكرة انتهت بإحدى أشجع كوارث الدكتاتورية العمياء بحسبما لخص الكاتب. الذي أوضح بعد ذلك كيف انهار نموذج

المدينة الفاضلة مع انهيار سور برلين وانحلال الاتحاد السوفيتي، لكنه بقي في كوريا الشمالية التي تصر على أنها المدينة الفاضلة الوحيدة على هذه الأرض.

كما ناقش الكاتب ما وصفه بأحلام الشعراء والفلاسفة مع المدينة الفاضلة، وكيف أن بعض فلاسفة عالمنا الإسلامي لم يتخلفوا عن اقتباس الفكرة ومحاولة أسلمتها، كان أبرزهم الفيلسوف أبو نصر الفارابي الذي وضع في القرن العاشر الميلادي كتابه “آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها”، على نفس الأسس الأفلاطونية، ولكن بنكهة إسلامية.

ثم انتشرت الكثير من الأفكار الجديدة والحاملة في بداية عصر النهضة الأوروبية؛ كفكرة إحياء المدينة الفاضلة، وانتشرت أكثر مع انفتاح الأوروبيين على العالم في عصر الاكتشافات الجغرافية بحسب ما أوضح الكاتب.

وتحت عنوان “النقطة التي عرفها الإنسان من المزارع والغابات إلى الروبوتات”. يفصل الكاتب أكثر في أن الأمر لم يقتصر على التنظير والشعر، إذ حاول بعض الحكام في العصور القديمة تنزيل الحلم على الواقع بسن تشريعات جديدة وإنشاء بني تحتية متميزة؛ أملاً في بناء المجتمعات النموذجية.

كما تناول في هذا القسم التعاونيات الزراعية كأحد أفضل المحاولات وأكثرها قرباً من أحلام الفلاسفة، وأيضاً ظاهرة “الهيبيز” التي ظهرت بعد انتشار حالة اليأس من الحضارة كلها عقب الحرب العالمية الثانية وتفجير القنبلتين النوويتين على رؤوس العباد في اليابان.

مدينة هيروشيما اليابانية بعد سقوط القنبلة النووية الأولى عليها.

كما تناول الكاتب نماذج المدن الذكية، ثم ضرب مثلاً مدينة رسول الله ﷺ وعظمة البناء. ثم تحت عنوان جانبي تحدث الكاتب عن حلم “العولمة الفاضلة” ثم “عولمة الهوية”. وتناول في ذلك النظريات الحاملة التي لا تتعدى حدود الساحة الثقافية النخبوية في الشرق والغرب. لكن هذا الفكر العولمي هو الذي أقيمت على أساسه المنظمات الدولية، وتسعى لنشره حكومات عظمى بشتى الوسائل.

وتناول الفصل الثاني من كتاب “مستقبل الخوف”؛ “العلمنة غطاء للشيطنة” حيث قال الكاتب تحت هذا العنوان الفرعي: “تعد الفلسفة الإنسانية اليوم وعاءً فكرياً للمشاريع العولمية السابقة، ومحافل

الجمعيات السرية -الماسونية وأخواتها- هي العقل المدبر لها، والأمم المتحدة وفروعها هي الحامل والراعي الرسمي لتنفيذها.”

وفي هذا القسم سلط الكاتب الضوء على حقيقة أن شخصاً مؤدجاً مثل البريطاني هكسلي -عالم بيولوجيا مهووس بنظرية التطور الدارويني- أوكلت له مهمة توحيد ثقافات العالم وهو يؤمن صراحة بفلسفة تأليه الإنسان وازدراء الأديان.

ومن خلاصات الكاتب المهمة في هذا القسم أن ما يحدث الآن حقيقة؛ هو انتزاع سلطة سن القوانين والتشريعات من الوحي ووضعها في يد إبليس عبر وكلائه في الجمعيات السرية، وضرب أمثلة عديدة على ذلك.

وبعد الحديث عن المدينة غير الفاضلة لخص الكاتب دور هوليدو؛ معقل اليسار الليبرالي العولمي أو منبر الشيطان كما يراها وكما هي حقيقة، حيث أنها لم تقصر في تناول سيناريوهات نهاية العالم بكافة الأشكال التي تحقق أهدافها.

ومن خلاصات الكاتب في عالم ما بعد الحداثة أنها تسقط الركائز الكبرى للإنسانية فلم يعد الإنسان صاحب الأفضلية على بقية الكائنات، ولم تعد هناك ثقة بأن طبيعته يغلب عليها الخير، ولم يبق أي مبرر للاعتقاد بوجود “قانون طبيعي” ولا جدوى من التفكير بإمكانية إصلاح الإنسان بالدين أو العلم أو السياسة. وهي عقيدة إلحادية شيطانية.

ثم انتقل الكاتب إلى خلاصة جامعة تحت عنوان “عود على بدء” رجع خلالها الكاتب بعد جولة بين النظريات والأحلام والمشاريع الجريئة والفاشلة لتفاصيل مغامراته في مونتريال مع قصة المشردين . ثم ضرب مقارنة مع أهل سوريا وما يعيشونه من مأساة ليؤكد أنه مع ذلك لا نشاهد المشردين في شوارعها كما نشاهده بكثافة في مونتريال.

الفصل الثالث: صناعة الخوف

كما يظهر من عنوانه يسير الكاتب في هذا الفصل أغوار صناعة عقلية الخوف، في عالم تحكمه سياسة الدولة السجن، مستنداً في ذلك إلى الحقيقة التاريخية أن “لا شيء يجمع الناس على قلب رجل واحد

مثل الخوف"، وهي الحقيقة التي أدركها كل الطغاة والمستبدين والطامحين إلى استعباد الناس على مر العصور ومازالوا ينجحون في استغلالها جيداً حتى الولايات المتحدة التي ترفع لواء الديمقراطية.

وتحدث الكاتب في هذا الفصل عن تحطيم الإنسان وترويضه، ومفهوم الخنوع أولى من الحب. كما تناول مفهوم الدولة السجن وعناوين فرعية أخرى: "الغرب المتحضر" و"الحروب الأكثر حداثة"، وما يسمى "الحرب على الإرهاب".

وفي تشخيصه لحال الحروب الحديثة طرح نموذج انتصار طالبان على الولايات المتحدة الأمريكية. وسلط الضوء أيضاً على تكلفة ما يسمى بحرب الولايات المتحدة على الإرهاب في مثل العراق وسوريا وأفغانستان وباكستان التي قُدِّرَ أنها ستصل إلى 6.4 تريليون دولار في عام 2020م بحسب تقرير سنوي صدر عن جامعة براون في نهاية 2019م.

وخلص في هذا القسم إلى أن الخوف ليس دائماً نتيجة عدوان خارجي بحت بل قد يتم تضخيمه أحياناً وربما صناعته في أحيان أخرى. وأصبح الخوف بحسب ما خلص الكاتب الوسيلة التي يحارب بها العدو، لقد أصبح الخوف ضرورة لاستمرار اللعبة أيّاً كانت، فالخوف مفتاح السيطرة وصناعته هي حرفة السياسة.

كما سلط الكاتب الضوء على مفهوم الشمولية الليبرالية وكيف يستعمل السياسيون الخوف للنجاح في الانتخابات. وعرض نموذج ماكرون في فرنسا بعدائه الشديد للإسلام، واستغلاله لمشاعر الغضب من الإساءة للنبي ﷺ وتفاصيل عديدة مهمة عن الواقع الفرنسي أبحر معها الكاتب لسبر أغوار قصة صناعة الخوف في فرنسا.

ليختم الكاتب فصله الثالث من كتابه "مستقبل الخوف" بعنوان جانبي "عندما يخاف الطاغية". واستشهد فيه بعبد الرحمن الكواكبي وكتابه الشهير "طبائع الاستبداد" الذي أبدى إعجابه الكبير بما حواه من خلاصات متينة نافعة.

الفصل الرابع: تجارة الخوف

تناول الكاتب في الفصل الرابع من كتاب "مستقبل الخوف" حركتي البقائية والتخفف، وكيف استثمر الرأسماليون في تجارة الخوف عندما انفتح شبح الإرهاب في العالم الغربي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

وكيف أصبحت قيمة النجاح التي جعلتها الرأسمالية بخلفتها البروتستانتية والبراغماتية وسيلة للتوحش ومبرراً لكل أشكال الجريمة ولا شيء يدعو للخوف بل يغذي وحش الخوف أكثر من هذا. وختم فصله الرابع بما وصفه "سوق التمرد". حيث سلط الضوء فيه على حركة "الهيبيز".

الفصل الخامس: عولمة الخوف

ناقش الكاتب في الفصل الخامس من كتاب "مستقبل الخوف" نظريات سيادة الليبرالية في العالم، وعرج فيه على الأيديولوجية الهرمجونية التي يعتنقها بوش الابن كسلفه الرئيس الأمريكي الأسبق؛ رونالد ريغان. ثم صراع القوى مع الصين ونظرية صعود الاتحاد الأوروبي والتكتلات الكبرى وتراجع فرانسييس فوكوياما عن نظريته لنهاية التاريخ وسيادة الرأسمالية الأمريكية إلى الأبد.

تناول الكاتب في هذا القسم أيضاً قضايا الدعاية والهوية المعولمة، وكتاب بعنوان "سيارة لكزس وشجرة الزيتون" للصحفي الصهيوني توماس فريدمان. وأشار الكاتب إلى زيارته لثلاث دول إفريقية للسياحة وهي تنزانيا وإثيوبيا وسيشل، حيث عاين بنفسه الحضور الصيني اللافت في هذه الدول.

ليعقبه بعد ذلك قسم بعنوان "من ينتصر النسر أم التنين؟" ناقش فيه الصراع بين أمريكا والصين محذراً من "وحشية جديدة"؛ ووحشية الصين الأخطر.

وتحت عنوان جانبي آخر "النمل بين الأفيال" قدم فيه الكاتب مثلاً على واقع بلدان المسلمين في مشهد الصراع الدولي. وخلص الكاتب إلى أن كافة السيناريوهات سواء اندلاع حرب نووية أو باردة أو عدم اندلاعها كلها تذهب إلى مستقبل مقلق.

الفصل السادس: الخوف من الشيطان

تحدث الكاتب في الفصل السادس من كتاب "مستقبل الخوف" عن قصة آدم وإبليس وتأملاته في الصراع بينهما. وأجاب خلال ذلك على عدة أسئلة وعرض النظريات والأمثلة من التاريخ والحاضر. ولعل من أهم خلاصاته في هذا الباب؛ أن إبليس وبقية الشياطين لم يوفروا أية فرصة لاختياد موقع الآلهة التي تعبد؛ أي منافسة لله جل وعلا على الألوهية، وليس الاكتفاء فقط بتضليل بني آدم وصرفهم عن عبادة ربهم والإيمان به وحده. مع تفاوت الطرق والوسائل والمناهج، بتنوع الشياطين أنفسهم وتنوع عابديهم.

كما سلط الضوء في هذا القسم على إصرار الشركات الكبرى العاملة في الصناعة الثقافية والترفيهية على إغراق أطفال العالم كله بقصص السحر والعرافيت. وبيّن فيه تلك العلاقة التي جمعت الجمعية الملكية والماسونية وحقائق مهمة عن الماسونية التي حملت في مرحلتها الذهبية على أجنحة العلم في كل مكان.

ووقف الكاتب بعد ذلك عند عنوان جانبي "مؤامرة أم خيال" الذي يشكل نقطة منهجية أمام تيارين متناقضين يحشدان أدلتهم ووثائقهما. تناول فيه عقليتي المؤامرة المطلقة واللامؤامرة. وقول الإسلام الذي يحسم ذلك.

الفصل السابع: الخوف من الدجال (أو آخر الزمان)

ناقش الكاتب في هذا الفصل حديث الفسطاطين، وما ورد في السنة من أحاديث عن ابن صياد والجساسة وليجيب عن سؤال: متى يخرج الدجال؟ مشدداً على خطورة الفتن قبل خروج الدجال والمقدمات التي تسبق خروجه، وعارضاً خلاصاته في هذا الباب.

وختم الكاتب فصله بعنوان جانبي "بين الخوف والأمل" ناقش فيه عقلية التواكل عند المسلمين بانتظار ظهور المخلص وتفاعسهم عن العمل على استعادة الخلافة أو حتى مقاومة العدو والسعي لامتلاك بعض أسباب القوة.

ووجه الكاتب توصياته ونصائحه في هذا الباب والتي تستند على الحديث والسنة كي يتحرك المسلم للعمل لا لليأس أو التواكل، ومما قاله في ذلك: “إننا أحق بالخوف من كل الأجيال التي سبقتنا منذ نزول آدم عليه السلام إلى الأرض، فإبليس لم يبلغ من القوة والسلطة ما بلغه اليوم ولم يكن الدجال قريباً من الخروج كما هو حاله اليوم.”

ويؤكد الكاتب في نهاية هذا الفصل على حقيقة أن الخوف ضروري لتحريض على العمل والامتناع عن الركون إلى الدنيا مستشهداً بالحديث النبوي:

"من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة."

الفصل الثامن: الخوف من الإسلام

في هذا الفصل انتقل الكاتب إلى نوع مختلف من الخوف؛ هو الخوف من الإسلام، الذي لا يغيب عن يدرك حقيقة الصراع القائم اليوم، حيث تناول الموضوع بضرب الأمثلة بتناقضات الغرب في التعامل مع شعائر الإسلام وحرية المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانه.

ثم سلط الكاتب الضوء على قضية ما وصفه بـ “الاستبدال العظيم”، حيث ناقش المصطلح وتطوره ملتزماً بالتسلسل التاريخي لظهوره.

ثم انتقل الكاتب إلى باب جديد بعنوان “الإرهاب الأبيض الجديد” وإنشاء جيل كامل من الإرهابيين في الطرف الآخر المعادي للإسلام بعد عشر سنوات حافلة بتغذية وحش الكراهية والخوف من الإسلام. لكن مع ذلك بقي الإرهاب صفة لصيقة بالمسلمين رغم أن حجم الجرائم ارتفع بشكل لافت في الغرب خاصة في أمريكا.

ومن أهم الملفات التي تناولها الكاتب في هذا الفصل؛ ملف دعم الإسلاميين “المعتدلين”، والثورات والربيع العربي. وبعد تمهيد لقضية المهاجرين تناول الكاتب الحديث عن الخوف من المهاجرين. ثم عن الذعر المزيف من “الاستبدال العظيم”، في كل من أوروبا وأمريكا.

وفي نفس الفصل تناول الكاتب ما أسماه “إحياء الاستبدال العظيم” وتناقضات القضاء الغربي وميوعة القوانين التي يفرضها تيار العولمة الليبرالي مستشهداً بحادثة نيوزيلندا ومجزرة المسجدين في منتصف مارس 2019م.

ملف آخر مهم تناوله الكاتب في هذا الفصل تحت عنوان “الإسلاموفوبيا على الطريقة الهندوسية” ناقش فيه المصطلح ثم تاريخ اضطهاد المسلمين في الهند، وأحاط الكاتب في هذا القسم بأشهر مآسي الأقليات المسلمة المضطهدة في العالم في هذا الزمان وهي الروهينجا والايغور والمسلمون في الهند والمسلمون في الغرب. وطرح الكاتب بعد هذا السفر المليء بالتفاصيل المهمة والمؤلمة، التساؤل: خوف على المسلمين أم منهم؟ واستشهد فيه بقبصص واقعية عن “الذعر من النموذج الإسلامي.”

ومن النقاط المهمة التي أشار لها الكاتب في هذا القسم؛ أنه ليس فقط الحكام الذين يتحركون بعقلية المصالح والصراع الاستراتيجي، بل حتى الحقوقيون، وخلف ذلك سر الليبرالية العولمية التي هي عقيدة أشد أصولية من الإسلام وكل الأديان الأخرى.

وختم الكاتب فصله هذا بفقرة عنوانها: أليس منكم رجل رشيد؟

أكد فيها على أن المسلمين يتشاطرون مسؤولية ضعفهم وانشقاق صفوفهم إذ لا تكاد تجد جالية مسلمة في أي بلد غربي قادرة على حل مشاكلها بنفسها فضلاً عن أن تقدم صورة مشرقة للإسلام الذي ينبغي أن تحمل رسالته.

الفصل التاسع: الخوف من الموت وما بعده

“سبحان من قهر عباده بالموت” بهذه العبارة استهل الكاتب فصله التاسع من كتابه “مستقبل الخوف”، ليدخل في مناقشة سؤالين:

• الأول: من يتحدى الموت؟

• الثاني: ماذا أعددت لها؟

وبطريقته العلمية بطرح الأمثلة والمفارقات ومناقشة الأقوال الغريبة وتناقضاتها والاستشهاد بشواهد الإسلام ختم الكاتب فصله الأخير بعنوان جانبي: “كجناحي طائر”، عرض فيه خلاصة الفقهاء

بضرورة التوازن حتى يكون الخوف والرجاء جناحاً طائرهما متوازياً متساويان، مؤكداً على أن الخوف من الله يجرد المسلم من مخاوفه الأخرى، فهو وجه من وجوه التوحيد وسلامة القلب وصفاء العقيدة.

ختم الكاتب أحمد دعدوش فصول كتابه "مستقبل الخوف" بعدد من التوصيات والنصائح عرضها في هذا الفصل. وأخيراً قبل الوداع، عرفت فالزم.

خلاصة المراجعة

لقد تميّز كتاب "مستقبل الخوف" الذي عرض فيه الأستاذ أحمد خلاصاته في نحو 370 صفحة بذلك الربط الجميل السلس بين يوميات الكاتب والأفكار التي تشغله لبناء هذا التأليف، فيجعلك تعيشها بشكل واقعيّ وتدرك حقيقة أن خلاصاته لا تنفك تستند إلى حقائق من الواقع الذي نعيشه جميعاً.

ثم ذلك السرد التاريخي المهم جداً لفهم الواقع واستيعاب أحداثه ومتغيراته، ومناقشة الأقوال والآراء والنظريات بحسب مصادرها المختلفة بإحاطة واسعة بخلفيات أصحابها وتفاصيل ظهورها وقصورها، فضلاً عن غزارة الاستشهاد التي تكشف قوة الرصد والاستطلاع التي يمتلكها الكاتب لدراسة الساحة الإعلامية وللإحاطة بمكونات مشاهد الصراع المختلفة بما في ذلك النظريات، والمؤلفات، والأفلام، والوثائقيات.

وهذا ما سهّل مهمته في إجراء مقارنات وافية وضرب الأمثلة الواقعية وتحديد المفارقات والحقائق المهمة على طول امتداد الزمن، والتي لا تخلو من آرائه وقراءاته الشخصية وشهادته على العصر، دون تعصّب أو تغييب لبقية المعطيات وإن خالفتها.

كما كان لافتاً ذلك الربط التحليلي بين مفاهيم الخوف في مختلف البيئات والأزمنة والظروف والحيشات، الذي يستند في نفس الوقت إلى خلفية إسلامية عقدية راسخة تجلت بوضوح في خاتمة الكتاب وفصوله الأخيرة.

كتاب "مستقبل الخوف" إضافة زاخرة للمكتبة العربية والإسلامية، تجمع العديد من المحاور التاريخية والسياسية والعقدية والاقتصادية والثقافية والتربوية والدعوية وحتى العسكرية، انتهت بطرح ماتع لصناعة الوعي، أنصح بقراءته والاستفادة منه.

جزى الله كاتبه خير الجزاء ونفع بجهوده وإضافاته المميّزة في مجال البحث في القضايا المصرية لهضة الأمة المسلمة⁽¹⁾.

(1) ذكر الكاتب أحمد دعدوش في كتاب "مستقبل الخوف" قصة سلطنة بروناي في إطار تسليطه الضوء على حقيقة الذعر من النموذج الإسلامي حيث قال: "سأذكر لك عزيزي القارئ هنا مثلاً يُعني عن أي بيان، ففي جزء من جزيرة بورنيو، ما بين إندونيسيا وماليزيا، تقع مملكة صغيرة للغاية تدعى "سلطنة بروناي"، ولو لم تكن غنيّة بالنفط ويحكمها سلطان يتباهى بترائه الفاحش ما كان سيسمع بها معظم الناس . في عام 2013 أعلن سلطان بروناي حسن البلقية المصادقة على قانون يسمح بتطبيق الشريعة الإسلامية في القانون الجنائي خلال ستة أشهر، وذلك بعد نقاشات استمرت عدّة سنوات.

ومع أنّنا نتحدّث عن بلد صغير للغاية، بالكاد يبلغ عدد سكانه 437 ألف نسمة تقريباً، ومع أن تطبيق الشريعة سيقصر على المواطنين المسلمين فقط الذين تبلغ نسبتهم إلى بقية السكان 78 % تقريباً، أي أنّ عدد الذين سيخضعون لقوانين الشرع الإسلامي يبلغ حوالي 355 ألفاً فقط، وهو أقل بسبع مرّات من عدد سكان حيّ بروكلين وحده في مدينة نيويورك. مع ذلك كله، انتفض العالم الغربي كله لهذا الخبر، ولم تبق وسيلة إعلام تقريباً إلا نقلت لنا تصريحات كبار المسؤولين للتأكيد بالقرار، ولم يفكر أحد منهم بحق هذه الدولة في تطبيق القانون الذي تريده استناداً إلى ثقافتها وعقيدة شعبها.

لم يقتصر التنديد على الحكام الذين يتحركون بعقلية المصالح والصراع الاستراتيجي كما شرحها لنا هنتغتون، بل كان الحقوقيون في المقدمة، إذ اعتبرت منظمة هيومن رايتس ووتش مثلاً أن بروناي "كشفت عن وجهها الإقطاعي كدولة تعود إلى القرن الثامن عشر أكثر من كونها عضواً مهماً في جنوب شرق آسيا في القرن الحادي والعشرين"، ووصفت تطبيق الشريعة بأنه أمر "مُشين تماماً وغير مرر!" وأضاف: "ما حدث بعد ذلك كان موافقاً لتوقعات الكثيرين، إذ أجل السلطان تطبيق القرار بضع سنوات، وفي مارس 2019 أعاد السلطان إعلان تطبيق الشريعة، وخلال دقائق، ولا أقول أياماً، بدأت الحملات الغربيّة ضد الدولة التي كان العالم قد نسي موقعها على الخريطة. لم يضيع النقاد وقتهم في مناقشة القرار وحيثياته، بل تمّ التركيز على أمر واحد فقط وهو "حقوق المثليين" إذ كان العالم قد تمّ تطبيع بنجاح مع هذه الحقوق...."، "وكما هو متوقّع، طالبت الدول الغربية على الفور بضرورة فرض عقوبات على بروناي"...

"لم يكتف السياسيون بالنقد كي لا يظلّ الأمر محصوراً في أروقة الصراع الاستراتيجي بل تفرّغ مشاهير هوليوود للمشاركة في حملة مقاطعة الفنادق التي تملكها وكالة بروناي للاستثمار التابعة للسلطنة... حاولت بروناي الصمود قليلاً، وأرسلت خطاباً إلى الأمم المتحدة تعلن فيه تمسّكها بحقّها في تطبيق الشريعة، لكن الضغوط كانت أقوى، وسرعان ما أعلنت التراجع عن قرارها مرة أخرى!".

عبقرية صلاح الدين الأيوبي.. ما نحتاج إليه اليوم

“صلاح الدين” اسم تردد كثيراً في صفحات الكتب وعلى ألسنة العباد، ينبعث طيفه من جديد عند كل نازلة أو احتلال الكافرين لجزء من بلادنا، ولم يقتصر الأمر على المسلمين الذين يجدون في ذكرى انتصاراته وإنجازاته أملاً يحدوهم في ظلام المشهد الذي يعيشونه اليوم، وإنما تعدى الأمر إلى انبهار الأعداء أنفسهم بعبقريته، سواء القادة منهم أو المفكرين أو حتى العوام وتسابقت فيه أقلام المستشرقين يثنون عليه ويطلقون الاهتمام رغم الحقد الذي تلوكه ألسنتهم ولا ينفك يظهر في كتاباتهم عن تاريخ المسلمين في كل زمان.

ولأن كتابات المستشرقين كانت لدراسة واقعنا وفهمه وفق معتقداتهم وبما يسمح لهم بضربنا من الداخل وتفتيت أي قوة يمكننا الاستناد إليها للوقوف من جديد، نجد التأمل في بعض أقوالهم يساعد في إدراك مكان قوتنا، كما في قول المستشرق البريطاني هاملتون جب الذي قدم تشخيصاً لحال الأمة يدعو للتفكير ليس لوصفه الذي نعرف سببه الأول وهو الإسلام بل بسبب ذكره لاسم صلاح الدين بطريقة تستحق الاستفهام، حيث قال: “إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد.”

فلماذا صلاح الدين دون غيره من عمالقة في تاريخ الإسلام، هو الذي يُبعث طيفه من جديد عند الحديث عن المقاومة والجهاد، أو نهضة الأمة وعودة المجد للإسلام في عصرنا الحديث، رغم المسافة التي تبعد بيننا وبينه إلى أواخر القرن السادس للهجرة (القرن 12 ميلادي)، لماذا نجد اسمه في قلب كل مسلم وذاكرة كل غربي ممن عرفوا عبقريته، مهما غبرت السنون.!

لماذا صلاح الدين؟

ما يدفعنا لتسليط الضوء على صلاح الدين، أنه عاش في فترة الحملات الصليبية الأولى وسطر إحدى ملاحم التاريخ الكبرى في العالم، ولا نعيش اليوم إلا امتداداً لتلك الحملات وإن تعددت مظاهرها

وأشكالها وتغيرت أسبابها وأسمائها، فهي ذات الحملات التي لا زالت تعمل على تعميق الوجود الغربي النصراني وهيمنتته على شواطئ العالم الإسلامي.

وربما ما يجعل التعلق أوثق بصلاح الدين، أن القدس ثالث الحرمين التي حررها بتفانيه وجهاده، وقعت من جديد تحت وطأة الاحتلال، ثم لم تنزل النوازل تحل بديار المسلمين ويذكرنا أعداؤنا بمدى تأثير صلاح الدين في نفسياتهم، فهذا القائد البريطاني إدموند ألنبي يعلن وهو يدخل القدس سنة 1917م، قائلاً: “اليوم انتهت الحروب الصليبية”.

وذاك القائد الفرنسي هنري غورو بعد أن دخل دمشق في شهر يوليو من سنة 1920م، ركل قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يصيح “استيقظ يا صلاح الدين، قد عدنا، تواجهدي هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال”.

ثم يكفي النظر في حال الأمة في زمان صلاح الدين وفي زماننا، سنجد العديد من نقاط التقاطع بين الواقعين، لقد كانت الأمة ممزقة، مقطعة دويلات وإمارات، تماماً مثل حالنا اليوم، ينفرد كل حاكم فيها برأيه ومصالحه ومع انقسامها تشتت أهل العلم وتفرقوا في الأمصار وبين السجون والأغلال، واحتل اليهود القدس وكامل فلسطين كما احتلها قبلهم الصليبيين، ولا زال الحال أسوء بصعود رافضي يريد أن يعيد عصر الفاطميين من جديد، وصليبيون يعيثون في أرض الإسلام حرباً ونهباً ودماراً.

ولا غرابة في أن يعجب هاملتون جب بصلاح الدين فيقول: “يشكل عهد صلاح الدين أكثر من مجرد حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية، فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري... استطاع صلاح الدين أن يتغلب على جميع العقبات لكي يخلق وحدة معنوية برهنت أن لها من القوة ما يكفي القول للوقوف بوجه التحدي من الغرب”.

نعم ففي هذه اللحظات المثيرة تعاونت الظروف السائدة مع مناقب صلاح الدين نفسها في خلق البطل لتلك الفترة، ولعل هذا السبب هو الذي يجعل الكثير من المسلمين اليوم يحملون بطيف صلاح الدين الجديد يجوس خلال الديار ويفتح الفتح المبين.

ماذا فعل صلاح الدين؟

قاد صلاح الدين مرحلة هامة جداً لاستعادة القدس، يسميها بعضهم مرحلة الاسترداد، وقد استند في هذا المشروع الضخم إلى إقامة دولة إسلامية موحدة تمتد من ليبيا إلى اليمن إلى الشام. وتحقق له الحلم وفتح بيت المقدس بعد معركة تاريخية لا يزال صدى تكبيرات الانتصارات فيها يتردد إلى اليوم. هي معركة حطين.

لقد عاش صلاح الدين في أحد أخطر المراحل التاريخية التي مرت على العالم الإسلامي تتربصه جيوش الأعداء ومؤامرات الخونة واللائم فتجاوز كل العقبات وقلب موازين القوى وحقق النهاية السعيدة، لكن الصحيح أنها كانت نهاية تفاني سلسلة طويلة من أبطال المقاومة والجهاد لا يقلون بريقاً وإخلاصاً - كما نحسبهم - لدينهم وأمتهم، أمثال القائد نور الدين زنكي، الذين كانوا يكبرون مع الأيام وتعاكسهم الظروف إلى أن جاء صلاح الدين يتمتع بالصفات التي كانت تحتاجها تلك الفترة العصيبة، وقدم نموذج المجاهد الذي بمثله يحقق ما حقق.

أعمدة تقوم عليها قبة النصر

اعتمد صلاح الدين على مفهومين أساسيين لبناء قبة النصر، الأول هو إيمانه المطلق في أن الجهاد هو الحل، والثاني، إدراكه التام أن الأمر لن يتم بدون توحيد الجبهة الإسلامية التي كانت مفككة متفرقة آنذاك، وهما ذات المفهومين اللذين انطلق منهما نور الدين زنكي ولكن الموت قطع عليه طريق العطاء.

البداية: توحيد الجبهة الإسلامية

وقد بدأت عملية توحيد الجبهة الإسلامية بأول خطوات عمل عليها عماد الدين زنكي بعد أن تولى الموصل - ذات الأهمية الاستراتيجية التي فاقت بغداد في ذلك الزمان - وتولى معها عملية الجهاد وجمع إمارتي الموصل وحلب، فتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية في الشام، ومشى بعدها الخطوة الأولى في المشروع الضخم لاقتلاع الاحتلال الصليبي، بتدمير أول إمارة لهم هي إمارة الرها، ويرجع المؤرخون فترة عماد الدين كبداية فترة التوازن مع القوى الصليبية والتي لم يكن ليحققها لولا أنه استند إلى المشاعر الدينية التي أوقد شعلتها العلماء والوعاظ في الناس، وتزاحمت الجماهير على أعتاب المساجد كما جرى

في بغداد سنة 505 هـ، حين كسر الصاخبون الباكون المنبر واستجاروا بنخوة الخليفة والسلطان السلجوقي، وبنفس الطريقة استجاب المسلمون في بلاد الشام وخرج أهل حلب نساءً ورجالاً وصبياناً سنة 532 هـ ودخلوا المساجد ومنعوا الناس من الصلاة، مطالبين بالجهاد حتى كسروا المنابر!

وقام العلماء بدورهم في الدعوة والتحريض حتى أصبح الجهاد عقيدة متينة لدى الجماهير، وكذلك فعل الشعراء، ولكن لم ينجح عماد الدين في إتمام مشروعه في توحيد الجبهة الإسلامية بالشكل المطلوب واستلم بعد اغتياله الراية ولداه.

حكمة نور الدين

وفي وقت توقع فيه الأعداء اشتعال الحرب بين الوريثين، كان الابن العاقل نور الدين يحمل من الذكاء والحكمة الشيء الكثير، وسارع بوصول أخيه يتألفه ويطلبه بتوحيد الكلمة، كان ذلك في وقت انقسمت فيه المملكة بينهما إلى شطرين وأنهار محور الموصل حلب الذي أقامه والدهما واستند إليه، ولكن بفضل كياسة نور الدين التي قادته إلى إدراك أهمية الوحدة مع أخيه وكسب الموصل كعمق استراتيجي له وسند، كان لهذه الوحدة وهذا الاستقرار الأثر الكبير في توازن المنطقة، وتكفي غايته من هذا كله أن قال يوماً لأخيه: ” حتى تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا.“

وتسألأت مرحلة نور الدين بالنجاحات، وأفشل الحملة الصليبية آنذاك وانطلق يعمل على توحيد الجبهة الإسلامية واضعاً نصب عينيه هدفاً تحرير القدس بل حتى أنه أعد منبرا للمسجد الأقصى تيمناً بفتحه والخطبة فيه.

واقع مشابه

ولعل من المشاهد التي نعيشها اليوم، ما عاشه أهل دمشق في ذلك الزمان وما شعروا به من خزي وعار في تحالف أمرائهم مع الصليبيين ودفع الجزية لهم وفي رؤيتهم يدخلون البلاد ويخرجون بالأموال بكل حرية ودون أدنى سؤال، وكانت حجة الأمراء آنذاك أن هذا أفضل من أن يهاجم نور الدين دمشق ويستولي عليها، وهو ما نعيشه اليوم من واقع مرير مع حكومات تقف على رضا الغرب وتدفع له الجزية والقرايين، وتقطع الطريق على كل صالح كي لا يصل إلى سدة الحكم.

فزادت هذه الذلة من الأمراء للصليبيين في الهوة بينهم وبين الجماهير وكان هذا هو السبب الأول وراء مراسلة أهل دمشق ورجالها لنور الدين يستنجدون به ويشكون له ظلم هؤلاء الصليبيين وكذلك فعل أهل حوران، فكتب نور الدين إلى “أنر” ملك دمشق يعرض مساعدته له لدفعهم عنهم، فكان الرد البائس من صغير نفس: ليس بيننا وبينك إلا السيف.

وتردد نور الدين في أخذ دمشق خوفاً من أن يستجير ملكها بالصليبيين. فكان يتعامل معه بالدبلوماسية الهادئة حتى سقطت عسقلان، فلم يجد من بد إلا إتمام مشروعه في توحيد الجبهة الإسلامية، وساعده في فتح دمشق أهلها، الذين تعاونوا مع جنده في فتح الأبواب. وكان دخول نور الدين عرساً كبيراً وبهجةً وسروراً عند الأهالي كما العلماء.

وربط بهذا نور الدين شمال الشام بجنوبه، وانتقل مركز الثقل إلى محور حلب دمشق وبقية الموصل عمقاً استراتيجياً، وجعل هذه الأرض الممتدة كاملة بيده وتحت حكمه الواحد، وهي تقع في مقابل الإمارات الصليبية الثلاث على الساحل.

جبهة مصر

ثم جاءت نور الدين الفرصة النادرة لدخول مصر حين وصله في دمشق الوزير الفاطمي “شاور” ليستنجد به ضد خصمه ضرغام ويطمعه بملك مصر وبدفع ثلث دخلها وبأن يكون نائبه فيها، وبعد استشارة وتفكير، عهد نور الدين بهذه المهمة الصعبة إلى أبرز قواده أسد الدين شيركوه شقيق نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وبدأت منذ تلك اللحظة ملحمة صلاح الدين بعد أن انتقل إلى مصر في رفقة عمه.

صلاح الدين الأيوبي

بطلنا اسمه يوسف ولقب بصلاح الدين، هو سليل أشرف الأكراد، الهكارية الروادية، كما قال ابن الأثير: “وهذا النسل من أشرف الأكراد”، كانت دروس صلاح الدين الأولى التي تلقاها، القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وشيئاً من الفقه والعلوم الإسلامية وتاريخ الرسالة، كما تلقى فنون الفروسية والقتال وركوب الخيل واستخدام السيف والتمرس بفنون الحرب وألعابها.

ومع اشتداد عودته، تردد على دور العلم والشيخ وأتقن أكثر فنون الفروسية وبرع في لعبة الجوكان وهي تقاذف كرة من الخشب بمضارب طويلة واللاعبون على ظهور الخيل وقد ذكر أنه كان يلعبها في مرج دمشق مع نور الدين بعد فتحها، ولا شك أن مرافقته لنور الدين تركت في ذاته الأثر الحاسم، فقد أخذ عنه أصول الإدارة والعدل في الناس، والإيمان بفريضة الجهاد ضد أعداء الإسلام والمحتلين لأرضه.

تحركات صلاح الدين

دخل صلاح الدين الجو السياسي من بابه الأوسع، والجو في غاية الاعتراك والتعقيد والترقب، وميزان القوى بين الجبهة الإسلامية الناشئة وبين الصليبيين قابل لكل احتمال، لا سيما وأن الجبهة المصرية الفاطمية كانت تعاني من الفوضى والضعف الشديد، والمراقبون من الصليبيين والمسلمين مع نور الدين، ينظرون بعين القلق إلى تطوراتها، الأوائل يطمعون في الاستيلاء عليها لضمان استقرارهم ونور الدين يخشى على الجناح الإسلامي الثاني أن ينهار ويقتله الصليبيون. فيستبدوا بالأرض الإسلامية وبالتجارة الدولية ويصبح من الصعب اقتلاعهم من المشرق الإسلامي.

الانعطاف التاريخية

وتطورت الأحداث على محور الزمن وتسارعت معها المتغيرات، وعمد شاور للتحالف مع الصليبيين وإدخالهم إلى مصر فأرسل له نور الدين، أسد الدين شيركوه فقتله، وحينها أسند الخليفة العاضد الفاطمي الذي كان مجرد خليفة شكلي لا صلاحيات له تماماً كما كان حال الخليفة العباسي، أسند الوزارة إلى أسد الدين شيركوه وبعد وفاته انتقلت ليد صلاح الدين على عمر يناهز 32 سنة، ومنذ ذلك التاريخ بدأ صلاح الدين في إحداث تغييرات كبرى في مصر.

ولا يمكننا تلخيص براعة صلاح الدين في تحويل مصر إلى الجبهة الإسلامية لأهل السنة في هذا المقام، ولكن عبقريته السياسية والعسكرية برزت بجلاء في هذه الحقبة، وكانت النتيجة مبهرة.

قال صلاح الدين لصديقه ابن شداد في تلك الفترة: "لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل (الشامي) لأنه أوقع في نفسي ذلك."

وحين رأى صلاح الدين أنه أصبح يمتلك من القوة ما يمكنه من تحقيق مشاريعه وفق فكره وعقيدته وأنه يمكنه الاعتماد على قوتين، القوة العسكرية التي تجمعت حوله من الشام خاصة، ومن مصر، وقوة الجماعات السنية التي كانت مبعدة عن نظام الحكم وتعتبره زيغاً، وتحمل الرضا لأداء صلاح الدين وعمله وقبل ذلك عقيدته.

بدأ عطاء تلك الروح المهمومة التي يحملها جسد لا يفتر والتي لم تنقطع عن التفكير والتدبير للجماعة الفاطمية، مع العلم أنها لم تكن - الجماعة - بالهينة لا في العدد ولا في النفوذ، ولا سيما في الجيش الفاطمي، وعمل صلاح الدين على تقوية أهل السنة ونشر المذهبين الشافعي والمالكي اللذين كانا السائدين قبل استفحال أمر الفاطميين.

ويمكن القول أن الأمر تم في مصر لصلاح الدين بعد إحباطه خطة الفاطميين في التعاون مع الصليبيين للتخلص منه، فقام بقتل رئيسهم عند أول فرصة، وكان اسمه جوهر مؤتمن الدولة، وضيّق صلاح الدين على عصب الفاطميين، حتى اضطروا لطلب الأمان فيما يعرف بواقعة العبيد، وكان هذا الانقلاب مصيرياً حاسماً في حكم مصر، وانهار بذلك الجدار العسكري المذهبي الذي كان أمام صلاح الدين وتحجم نفوذ الفاطميين.

ثم النتيجة ماتت الخلافة الفاطمية في صمت وتغيرت بذلك مصائر البلاد، ومن الله على صلاح الدين بعد ذلك بالنصر في معركة دمياط وهزم الصليبيين والبيزنطيين، وأصبح رجل الساعة.

يقول ابن المقفع⁽¹⁾: ”إن الملك صلاح الدين عامل رعيته في بلاد مصر بخير يعجز الواصف عن وصفه وأرسى العدل وأحسن إلى المصريين وأزال مظالم كثيرة على الناس وأمر بإبطال الملاحية في بلاد مصر وأبطل كل منكر شرير وأقام حدود شريعة الإسلام، وكان يجلس للحكم بين الناس فينصف المظلوم من الظالم ويكون في مجلسه مجموع من الفقهاء ومشاهير الدولة للنظر في القضايا بين الناس والعمل بما توجبه أحكام الشريعة والحق والعدل.“

ثم انتقل إلى مرحلة تأمين الطريق بين مصر والشام، وفي ذات الوقت عمل على ضمان ولاء الناس له في مصر بعد إلغاء الخلافة الفاطمية والإعلان عن الخلافة العباسية بأمر من نور الدين الذي تم في أول

(1) الأنا ساويرس بن المقفع في كتابه (تاريخ البطارقة)

جمعة من محرم سنة 567 هـ، سبتمبر 1171م في جو من الاستعداد بعد أن هباً صلاح الدين للأمر أسبابه من حراسة وترقب. ولكن العاضد توفي قبل أن يعلم عن الأمر شيئاً بسبب مرضه الذي أقعده.

في هذه المرحلة وافت المنية القائد الفدّ نور الدين زنكي وانطلق تلميذه القائد والسياسي البارع صلاح الدين يشق عنان الأرض ليجمع مصر وسوريا والحجاز وتامة والعراق في دولة إسلامية موحدة قوية تحيط بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب، شديدة الوحدة والتماسك.

المرحلة الثانية

ثم انتقل إلى المرحلة الثانية من مخططه وهي محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد حينما قام أرناط آل شاتيون صاحب الكرك باعتراضه لقافلة للمسلمين فأعمل فيها قتلاً ونهباً وغدراً ثم رفض الاستجابة لمطالب صلاح الدين بإطلاق الأسرى وإرجاع الأموال، فقدم الفرصة لصلاح الدين باستدعاء الجنود لحرب أرناط، ومنذ ذلك التاريخ وصلاح الدين يعمل على حرب الصليبيين وإجلاتهم من ديار المسلمين وهو من نصر إلى نصر، حتى منّ الله عليه بواقعة حطين الشهيرة في 583 هـ-1187م، وفتح بجيشه مدينة القدس، وأطاح بالصليبيين، الذين كانوا قد استولوا على المدينة قبل 88 سنة خلال الحملة الصليبية الأولى، وبهذا تم لصلاح الدين الأمر، بعد توحيد الجبهة الإسلامية، ففتح بيت المقدس واسترجع المسجد الأقصى وطهره من رجس الصليبيين الذين دنسوه بدناءة أخلاقهم وبلادة أحقادهم.

ملامح ميزت شخصيته

لقد كان صلاح الدين شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آتته ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا لمن يذكره..، ويقول ابن شداد: (ما رأيتته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط).

وهو ذاته ابن شداد رفيق صلاح الدين إلى آخر أيامه الذي نقل عنه قوله: في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

وكان يقول: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، أما ابن الأثير فقال: إنه كان رحمه الله كريما حليفا حسن الأخلاق متواضعا صبورا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه.”

رحيله

وفي سنة (589هـ) اشتد به المرض فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) تبسم، وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه، ومات وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحابه وأصحابه، وغلقت الأسواق، وأخذ الناس في البكاء.”

ورحل صلاح الدين بعد أن أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وقهامة واليمن تحت راية الخلافة العباسية، وبعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت بظلامها 262 سنة. وبعد أن أعاد لنا المسجد الأقصى معززا مكروما وزينه بمنبر نور الدين الزنكي وفاء بالعهد.

رحل وترك الجميع يرثونه ويعترفون له بالعبقرية بما فيهم الأعداء، من بينهم فيلهم الثاني إمبراطور ألمانيا الذي زار دمشق وتوجه إلى مدفن صلاح الدين ووضع باقة زهور جنائزية على قبره عليها نقش معناه “ملك بلا خوف ولا ملامة، علم خصومه الفروسية الحقيقية.”

فمن أراد أن يبحث عن أسباب النصر عليه أن يهیی له قادة نجباء يقومون بأثقاله، وكذلك للجماهير دور لا يقل أهمية عن القيادات، حين تُدفع دفعا بدفة الجهاد ولا تقبل القعود أو الخذلان وتفرض مطالبها فرضا أمام الأمراء.

ولا شك في أن الظروف الراهنة ستسمح بصناعة شخصيات بقامات سامقة من العطاء والبذل والمنافسة تغیر موازين القوى وتنقلنا من الضعف للقوة، ولكن، إلى أن يخرج لنا صلاح الدين الجديد، وإلى أن يمنّ الله علينا بجماهير تصنع الأحداث وتسيرها بإرادة شماء، علينا أن نطيل الابتهاال وسؤال الله من فضله العظيم.

جلال الدين خوارزم شاه آخر سلاطين الدولة الخوارزمية

نتناول فيما يلي سيرة السلطان أبي المظفر جلال الدين منكبرتي، ابن علاء الدين مُجَد الخوارزمي، آخر سلاطين الدولة الخوارزمية. اشتهر باسم خوارزم شاه؛ أي أمير خوارزم. وهي سيرة حافلة بالبطولات المبهرة والشجاعة الأسرة والخيانات المفجعة والفتن المؤلمة والكثير من العبر والدروس الملهمة.

سيرة تجاذبتها الأقسام بين مثنى لعطاءات صاحبها وبين منتقد لأخطائه الجسيمة. إلا أن المطلع على تفاصيلها يدرك أن الطرفين يتفقان على علو همة السلطان جلال الدين التي ازدان بها، ودرجة العزم والشجاعة التي تميز بها، وعلى استحقاقه مرتبة البطولة عن جدارة وابعتراف ألد أعدائه؛ المغول؛ حيث قال عنه قائدهم جنكيز خان: “هكذا يكون الرجال الشجعان.”

لقد كان السلطان جلال الدين ينبعث في كل مرة من جديد بشكل أقوى بعد خسارة كل شيء، وبعد خذلان القادة له وتفريق الجنود عنه، ويرحل من أرض إلى أرض فيتجشم الصعاب ويتجاوز العقبات ليصنع من كل أرض وطناً، ويكفي أنه أول قائد مسلم سجل انتصارات مهيبة ضد جيوش المغول التي كانت مصدر الفزع في العالم، ويكفي أن المغول لم يتمكنوا من قتله أو أسره، فأعياهم قتالاً ومطاردةً وهم في أوج قوتهم فكان في ذلك مصدر الإلهام والمثل.

ويكفي أن نستفيد من أخطائه فلا نكرها ونعتبر من نقاط ضعفه فنتعظ بها.

الدولة الخوارزمية (490هـ - 628هـ) (1096م - 1231م)

شهد القرن الخامس الهجري تأسيس الدولة الخوارزمية لكنها لم تدم طويلاً جداً بسبب اشتباكها مع المغول الذي انتهى بانحيارها. وكانت مدة بقائها منذ توليها خوارزم شاه مُجَد بن أنوشتكين في سنة 490هـ (1096م) إلى مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي تزيد على 138 سنة حكم فيها سبعة سلاطين.

وانطلق سلطان الدولة الخوارزمية من على إقليم خوارزم وهو الآن موزع بين أوزبكستان وتركستان، واتسعت رقعتها وتقلصت خلال مراحلها من سلطان لآخر.

وعرف إقليم خوارزم الإسلام مع فتوحات القائد المسلم الشهير قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، واستمر الإقليم تابعاً لسلطان المسلمين في الخلافة العباسية، ثم انتقل إلى سلطان عدد من الدول التي عرفها التاريخ في المنطقة، فكان جزءاً من سلطان الدولة الطاهرية ثم الدولة الصفارية ثم الدولة السامانية ومن بعدها الدولة الغزنوية، لينتهي به الأمر تحت سلطان الدولة السلجوقية منذ عام 432هـ (1041م)؛ والتي شهد عصرها بوادئ تأسيس الدولة الخوارزمية، بفضل التركي أنوشتكين؛ ساقى السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، الذي كسب ثقة السلطان فتدرج في المناصب حتى تم تعيينه والياً على خوارزم في عام 471هـ (1077م).

وبعد وفاة أنوشتكين سنة 490هـ (1096م) خلفه ابنه قطب الدين مُجَّد، برضا السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي خلال فترة حكمه. وكان قطب الدين يحضر كل عام إلى بلاط سنجر مع ابنه أئسز ويقاوم في صفه. ويعتبر تاريخ تولي قطب الدين حكم خوارزم تاريخ تأسيس الدولة الخوارزمية. لكن الإقليم بقي في طاعة السلاجقة رغم تمكن قطب الدين من بسط حكمه عليه وتقوية نفوذه، وبقي كذلك قوياً مستقلاً وفي ذات الوقت لا يخرج عن طاعة السلاجقة حتى توفي في سنة 521هـ (1126م)، فظهرت نزعات الاستقلال مع ابنه علاء الدين أئسز، الذي ازدحمت ولايته بالحرب والسلم مع السلطان سنجر إلى أن وافته المنية في عام 551هـ (1156م).

وخلف علاء الدين أئسز ابنه إيل أرسلان، وتزامن ذلك مع انشغال السلاجقة في الاقتتال والنزاع على السلطة بعد وفاة آخر سلاطين السلاجقة العظام، وكان في بداية حكمه مطيعاً لسنجر إلا أن بعد وفاته وبداية انهيار الدولة السلجوقية استغل إيل أرسلان الأوضاع وسيطر على مناطق من خراسان وما وراء النهر، ولكنه قبل أن يتوسع أكثر عاجلته المنية في عام 568هـ (1172م).

ثم بعد وفاة إيل أرسلان دخلت الدولة الخوارزمية في نزاع على السلطة بين ولديه السلطان محمود شاه وعلاء الدين تكش الذي سيطر على مقاليد الحكم في نهاية المطاف بشكل تام بعد أن توفي محمود شاه في عام 589هـ (1192م)، فاستقر ملك الدولة الخوارزمية بلا منازع في يد علاء الدين تكش؛ الذي استغل استمرار النزاعات بين السلاجقة وضعفهم ليوسّع سلطان دولته، فدارت بينه وبينهم معارك، انتهت بعد انتصاره على آخر سلطان للسلاجقة في العراق بالسيطرة على الكثير من المدن والقرى والقلاع وذلك في عام 590هـ (1194م)، واستمر في توطيد أركان ملكه إلى أن عاجله

الموت في عام 596هـ (1200م). وقد اضطر الخليفة الناصر العباسي -على الرغم من الخلاف بينه وبين الخوارزميين- إلى إصدار منشور يعترف له فيه بلقب سلطان ويقرّه على حكم غرب خراسان وما وراء النهر وخوارزم. وتعد فترة حكم علاء الدين تكش التي امتدت أكثر من ربع قرن؛ العصر الذهبي للدولة الخوارزمية.

السلطان مُجَّد خوارزم شاه والد السلطان جلال الدين

بعد هذا التاريخ المتشعب استلم حكم الدولة الخوارزمية مُجَّد خوارزم شاه؛ ابن علاء الدين تكش، وتميزت فترته بطموحات التوسع فاصطدم مع الدولة الغورية ودولة الخطا، لكن سلطان الدولة الخوارزمية تمكن في نهاية فصول صراع طويل من هزيمة الدولة الغورية ودولة الخطا وضم أملاكهما لدولته وأنهى بذلك وجودهما للأبد.

ولم تقف طموحات مُجَّد خوارزم شاه عند هذا الحد بل استمر في توسيع نفوذه حتى بلغت الدولة الخوارزمية أقصى مساحة لها في عهده، إلا أن هذا التوسع أوصل الخوارزميين لحدود دولة جنكيز خان الصاعدة؛ حيث امتدت من حدود العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.

واعتبر المؤرخون هذا التوسع الكبير للدولة الخوارزمية بداية نهايتها؛ كونه جاء على حساب هدم الحصن الحصين بين الخوارزميين وبين المغول؛ وهو دولتا الغور والخطا، فأصبحت الدولة الخوارزمية في محاذة المغول بشكل مباشر وفي مرمى أهدافهم.

أخطاء السلطان مُجَّد خوارزم شاه تكلفه ملكه

وُرجع الروايات التاريخية سبب فساد العلاقات بين مُجَّد خوارزم شاه وبين جنكيز خان إلى احتكاكات سابقة ظهر خلالها ضعف سياسة سلطان الخوارزميين حيث تسبب بنفسه في جلب عداء المغول، ومن ذلك قصة تروى عن السلطان مُجَّد خوارزم شاه في شتاء عام 612 هـ (1215م) أنه خرج يعبر من مدينة جند حوالي نهر سيحون فالتقى في صحراء القبجاق بجمع من المغول على رأسهم ابن جنكيز خان؛ جوجي دوش أتوشي، وكان الأخير ممتنعاً عن الحرب لكون سبب تواجده في المنطقة كان بهدف سحق أحد المتمردين من المغول، إلا أن مُجَّد خوارزم شاه لم يقبل منه ذلك وقاتله، فاشتعلت معركة بين

الطرفين حتى أوشك السلطان أن يهلك لولا أن لحق عليه ابنه جلال الدين الذي كان يمر من المكان بالصدفة، فضغط بثقله مع من برفقته من الجند وأنقذ والده، ثم ليلاً انسحب جوجي بهدوء وعاد الخوارزميون أدراجهم، ولكن بقي لهذه الواقعة أثرها لدى جنكيز خان.

ويرجع السبب الأبرز لاندلاع الحرب بين الخوارزميين والمغول إلى مقتل تجار من المغول في مدينة أترار التابعة للدولة الخوارزمية على يد حاكم المدينة. وكانت أترار في مقدمة ديار خوارزم شاه ويحكمها ابن خال السلطان مُجَّد، واسمه ينال خان أو غاير خان، الذي كان يعمل تحت حماية ترکان خاتون أم السلطان مُجَّد، فأثارت الحادثة سخط جنكيز خان الذي طالب مُجَّد خوارزم شاه بتسليم القتلة، لكن الأخير رفض ذلك على أنه سيحاكمهم بنفسه. وكانت تلك قصة بداية اشتعال فتيل الغزو المغولي الوحشي. ويقال إن حاكم أترار طمع في التجار المغول فنهب ما لهم وقتلهم وتستر على ذلك فحماه السلطان لقرابته من أمه السلطانة.

وفشل مُجَّد خوارزم شاه في معالجة القضية ولم يتمكن من تهدئة جنكيز خان بل أهمل غضبه فكان لذلك تداعيات جمة. ووقعت احتكاكات عديدة بين الخوارزميين والمغول انتهت بإرسال جنكيز خان لجيش يصل إلى نحو 200 ألف جندي، فأمعنوا تدميراً في حواضر الإسلام؛ بخارى وسمرقند، واقترفوا الجازر الدامية ونهبوا الأموال الطائلة، وكان أثرهم فظيماً على ملك الدولة الخوارزمية ومن بعدها على الأمة الإسلامية قاطبة.

ثم استقر جنكيز خان في سمرقند، وأرسل عشرين ألفاً من جنده لمطاردة السلطان مُجَّد خوارزم شاه الذي نجح في الهروب من مدينة إلى أخرى حتى استقر به المقام في جزيرة آبسكون في وسط بحر قزوين، مع من فر معه من أفراد أسرته وحاشيته، لكنه في هذه الجزيرة اجتمع عليه المرض والهمل واليأس لما كان يصله من أخبار المغول الفظيعة وفتكهم بمملكته ورعيته، فتوفي بعد مضي شهر واحد فقط في هذه الجزيرة، مضي كأنه دهرٌ كاملٌ لثقله وثقل أحداثه، وذلك في عام 617هـ (1220م). وكان مما نُقل عنه قوله لمن حوله:

لم يبق لنا مما ملكنا من أقاليم الأرض قدر ذراعين تحفر فنقبر، فما الدنيا لسكانها بدار، ولا ركونه إليها سوى الخداع واغترار.

وتوفي السلطان مُجَّد خوارزم شاه ولم يكن لديهم ما يكفونوه به، فخلع أحد مقربيه قميصه وكفنوه به وواروه التراب.

ويذكر أنه لم ينج من أبنائه من مذابح المغول إلا ثلاثة؛ جلال الدين ابنه الأكبر، وقطب الدين أوزلاغ (ركن الدين)، وآق شاه أبو المظفر (غياث الدين)، الذين لحقوا به في الجزيرة، بينما أُسرت أم مُجَّد خوارزم شاه تاركان خاتون، وقُتل نساؤه وأطفاله.

وأوصى السلطان قبيل رحيله بالملك من بعده لابنه جلال الدين الذي رأى فيه الأمل الوحيد لاسترجاع ملك الخوارزميين. وفي هذه الأثناء كانت جيوش جنكيز خان قد انطلقت تعيث في الأرض فساداً، فدمرت أذربيجان وخراسان وخوارزم وبلخ ومرو ونيسابور وهراة والري، وكما قيل: إنه لم تمر على البشرية منذ خلق آدم ما يشبه هذه الأفعال من قريب ولا بعيد، بل كان هذا من أعجب الأمور التي مرت بالأرض على الإطلاق.

من أسباب هزيمة السلطان مُجَّد خوارزم شاه

يرى المؤرخون أن أحد أبرز أسباب هزيمة السلطان مُجَّد خوارزم شاه هو تدخل والدته السلطانة تركان خاتون وأقاربها بما شكّل سلطة موازية لحكمه، ضاعف من تأثيرها ما تملكه السلطانة من نفوذ كبير في البلاد وعلى القبائل، فتسبب ذلك في انقسام الصف وتفراق الكلمة وضعف القيادة واختلال الآراء والعصبيّة، فكانت الهزيمة جزاءً وفاقاً.

وقد انتهى أمر تركان خاتون بالأسر على يد جنكيز خان مع بقية نساء القصر؛ اللاتي تزوج بعضهن من المغول، أما السلطانة فقضت نحبها تتجرع مذلة الأسر. حتى أسلمت روحها في عام 630هـ (1233م).

هذا دون الحديث عن أسباب ضعف بارزة أخرى في شخصية القائد نفسه السلطان مُجَّد خوارزم شاه حيث عرف عنه الجبن في الكثير من المواقف وفقدان الحكمة في الكثير من السياسات، فضلاً عن اضطراب الجيش الذي تشتتت قواه بلا فائدة أو إدارة واعية.

ويبدو أنه جنى تداعيات تفكك الوحدة الإسلامية على إثر حملته على بغداد بهدف عزل الخليفة العباسي، وتعمده نحو اسم الخليفة من الخطب والعملات، حيث سفك في سبيل ذلك الكثير من الدماء المسلمة فكأنها اللعنة قد حلت به.

الخوارزميون والخلفاء العباسيون

تزامنت حقبة جلال الدين مع الخلفاء العباسيين المعاصرين له وهم الناصر لدين الله (575 - 623هـ) (1178 - 1226م) (ثم الظاهر بأمر الله (622 - 623هـ) (1225م - 1226م) ثم المستنصر بالله (623هـ - 640هـ) (1226 - 1234م) وأما الخليفان الثاني والثالث فكانا على توافق مع السلطان جلال الدين، أما الناصر الذي عاصر تكش و محمد الخوارزميين والخلافات بينهما فكان يحمل حقداً كبيراً على الخوارزميين ولم يكن على وفاق مع جلال الدين.

السلطان جلال الدين منكبرتي

في مثل هذه الظروف الدامية والمعنويات المحبطة والصعود المغولي والضعف الخوارزمي ورث جلال الدين منكبرتي الملك، وقد خسرت دولته معظم مدنها وأراضيها وجنودها ومصادر قوتها وثرواتها. لكن السلطان الجديد كان يحمل عزيمة كبيرة، اشتهر به منذ الصغر حيث كان أكثر أبناء السلطان تعلقاً بامتشاق الحسام وأكثرهم اتصافاً بصفات الشجاعة والجسارة والعقل؛ مما أهله بجدارة لأن يحظى بمرافقة والده في مجالس صناعة القرار وساحات القتال.

قال الشهاب النسوي المؤرخ الذي رافق جلال الدين خوارزم شاه: "كان جلال الدين أسماً تركياً قصيراً منعجم العبارة، يتكلم بالتركية والفارسية. وأما شجاعته فحسبك ما أوردته من وقعاته، فكان أسداً ضرغاماً، وأشجع فرسانه إقداماً، لا غضوباً ولا شتاماً، وقوراً، لا يضحك إلا تبسماً، ولا يكثر كلاماً، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب."

ويذكر أن جلال الدين كان قد عارض قرار والده بالفرار من المغول وآثر المواجهة، لكنه لم يتمكن من تغيير قرار السلطان. وقال النسوي أن العقلاء والمفكرين كانوا يقولون للسلطان محمد خوارزم شاه في وقت المشورة وتدارس المصلحة: "إن الجيوش يجب أن تحشد في وقت الحرب مع المغول، ويُتخذ من جيحون خندقاً، ويكون الزحف عاماً، ولا يترك المغول يتجاوزون الماء". ولكن السلطان لضعفه فضل

الفرار وترك رعيته من خلفه تواجه الموت بدم بارد، وبالفعل هرب إلى ما وراء النهر ثم إلى خراسان ومنها إلى العراق ثم إلى مازندران ليأوي لجزيرة "آبسكون" حيث أسلم الروح.

الانبعث الأول من جزيرة آبسكون

توجه جلال الدين بعد وفاة والده من جزيرة آبسكون إلى خوارزم بصحبة أخويه قطب الدين أوزلاغ شاه وآق شاه، حيث رحب بهم الأهالي أحر ترحيب وأوا في عودتهم الأمل في رد عادية المغول.

وبدأ جلال الدين بالعمل من نيسابور إلى غزنة يخطط للجهاد ضد المغول، وكان يحظى بقبول واسع بين الغزنويين، فقد كان دخوله بمثابة إحياء لعزائم الناس وإعادة أمل وثقة، ولقيت دعوته للعمل على بناء الجيش تمام الشغف والدعم من الأهالي الذين لم ييخلوا بكل ما يملكون في سبيل ذلك.

لكن بذرة الشقاق التي زرعتها السلطنة ترکان خاتون كان لها أثرها الفاسد، ففي الوقت الذي كان من المفترض أن يجتمع الجميع في وحدة صف واحدة بدأ أنصار أوزلاغ شاه -الذين لم يعجبهم توريث مُجد خوارزم شاه السلطنة لابنه جلال الدين- بالتآمر لقتل جلال الدين أو سمل عينيه غير مبالين بالظروف المصيرية التي تمر بها الدولة.

وكان مُجد خوارزم شاه قد نصب أوزلاغ شاه ولي عهده بتأثير جدته السلطنة ترکان خاتون وأمه، لكنه بعدما عاين شراسة المغول وما يتميز به جلال الدين من كفاءة عن أخيه تراجع عن قراره قبل وفاته وجعل جلال الدين ولي عهده وألزم أبناءه بهذه الوصية.

وكشف جلال الدين خيوط المؤامرة بمساعدة بعض الأوفياء من حوله ففرّ باتجاه خراسان ومعه قرابة ثلاثمائة فارس، وفي طريقه تمكن من تجاوز كمين خطير لجنكيز خان الذي كان يتربص به كأخطر رجل في الخوارزميين يجب القضاء عليه، فخاض جلال الدين معركة شرسة مع المغول في سهول براون شمال شرقي غزنة في سنة 618هـ (1221م)، وانتصر عليهم ليكمل مسيره إلى نيسابور. وهنا يجب التركيز على جزئية تربص جنكيز خان الذي كان يشاهد كل خلافات الخوارزميين ويتحرك بناء على ذلك.

ففي نفس الوقت الذي نصب فيه كميناً لجلال الدين أرسل القائد المغولي جنوده إلى خوارزم وكان لا يزال فيها أوزلاغ شاه وآق شاه، فلم يجدا من بد إلا اللحاق بجلال الدين والفرار من هذا الزحف

الوحشي لكنهما لم يوفقا في الفرار فاشتبكا في معركة بنواحي خراسان مع المغول قُتلا فيها وانتهت منازعة أوزلاغ شاه للملك، ليستقر بيد جلال الدين بشكل نهائي. أما مدينة خوارزم فكان مصيرها دامياً.

سقوط عاصمة خوارزم

وجه جنكيز خان أقوى جيوشه للاستيلاء على عاصمة خوارزم مدينة كهنه غرغانج سنة 617هـ (1221م)، فأطبق عليها الحصار لمدة خمسة أشهر كاملة ومع ذلك عجز عن دخولها لشدة مقاومة أهاليها، فدفع جنكيز خان بالمزيد من الجند ليضاعفوا الضغط على أسوار المدينة حتى تمكنوا من إحداث ثغرة فيها، ودخلوا المدينة حيث دار قتال عنيف شرس بين المغول والمسلمين، وكانت خسائر الطرفين جسيمة فقد استمات المسلمون في هذا القتال واستبسلاوا، وبعد أن سيطر المغول على المدينة هرب المسلمون أو اختفوا في السرايب والخنادق والمنازل، فعمد المغول إلى هدم سد كبير على نهر جيحون، وأغرقوا المدينة بكاملها وقتل بذلك أهل خوارزم جميعاً واندثرت مدينتهم بشكل كامل. وكانت هذه من أبشع جرائم المغول في التاريخ.

مرحلة الإعداد والجمع والتلاحم

استرجع جلال الدين أنفاسه وقوته ومكانته في ظرف قياسي وتمكن من بناء الجيش وإعداد العدة وتحصيل أسباب القوة لتنتهي جهوده ببناء جيش كبير في غزنة من الفلول الهاربة من المغول وممن أخذتهم الغيرة على الإسلام وحب الجهاد من المتطوعين، كما حصل على التمويل لجيشه من أغنياء المسلمين وحتى فقرائهم الذين قدموا بلا تردد في مقام لا يتخلف عنه مسلم.

وتزامن مع هذا النشاط العسكري الذي اجتمع في غزنة نشاط سياسي آخر بإرسال الرسائل واستنهاض الهمم لسائر الملوك والأمراء الذين تمردوا سابقاً على السلطان مُجدد خوارزم شاه وسائر المعارضين والجيران من الممالك الإسلامية والإمارات، فلقبت دعاوي جلال الدين قبولاً كبيراً وحصل على الكثير من الدعم. كما أنه هادن من يستوجب المهادنة. فانتهدت جهوده لاجتماع القوى من حوله واشتداد أمر الجيش وتمام الاستعداد لمواجهة المغول.

وكان ممن انضم إليه سيف الدين بغراق أحد ملوك المسلمين، وكان مشتهراً بشجاعته وإقدامه ورجاحة عقله في الرأي ومكيدة الحروب. ولم يكن هذا التطور ليغيب عن أعين المغول حيث كان جنكيز خان يخطط لغزو وسط أفغانستان وجنوبها لقتال جلال الدين، وكانت غزوة في مرمى أهدافه.

معركة بروان والنصر التاريخي

ومع ذلك ومع شدة التبرص، فقد فاجأ جلال الدين المغول بأول هزيمة لم تكن في حسابهم حين هجم على جمع من المغول في حصارهم لقلعة واليان في أفغانستان، وتشير لها بعض المصادر بقلعة كابول، فقضى عليهم وقتلهم شر قتلة، ونقل فلول الناجين من المغول الخبر إلى جنكيز خان الذي بدوره قرر أن يرسل جيشاً إلى جلال الدين لينهي أمره قبل أن يشتد، وما منع جلال الدين عن المغول الفارين إلا هدمهم لسد في المنطقة فحال الماء بينه وبينهم.

وبالفعل أرسل جنكيز خان جيشاً ضخماً بقيادة صهره قوتوقو نويان (شيكي قوتوقو)، والتقى الجيشان في بروان ويقال في منطقة بجوار مدينة غزنة تدعى بلق، وهنا في هذه المعركة ظهرت قدرات جلال الدين القيادية واكتشف المغول كيف أن مقابلهم رجل حرب وحنكة، الذي كان في قلب الجيش وعلى ميمنته أمين الملك (والد زوجته) وعلى ميسرة الجيش سيف الدين بغراق الذي يرجع بعض المؤرخين النصر لبراعته وحنكته أيضاً في هذه المعركة.

ولم تنطل على جلال الدين حيل المغول ولم يزل يمعن فيهم قتلاً وأسراً طيلة ثلاثة أيام، فألحق بهم هزيمة كبيرة في عام 618هـ (1221م)، ومن شدة فرح جنود جلال الدين بهذا النصر قاموا يثقبون آذان المغول بالأوتاد انتقاماً لجرائمهم الفظيعة في بلاد المسلمين. ولم يكن مجرد نصر بل سبباً كبيراً في استعادة الثقة بالنفس والانطلاق بقوة وعزم أكبر، كانا كافيين لهدم الفرع الذي ترسخ في قلوب الناس في كل مكان عند ذكر جيش المغول الذي لا يهزم.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينهزم فيها جيش المغول الكبير في بلاد المسلمين وإن كان قد سبقها انتصارات أخرى على طلائع وجيوش المغول الأصغر في مواقع مختلفة على يد جلال الدين منها التي أباد فيها جند المغول إبادة تامة.

ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم

ورغم أن النصر على المغول تسبب في استبشار كبير لدى المسلمين في كافة العالم الإسلامي، وفتح باب أمل كبير لهم بعدما ذاقوه من ويلات وهزائم وما سمعوه من فظائع ومجازر، إلا أن سنة الله في التنازع والفشل تحققت من جديد مع الخوارزميين؛ فبدل الاستفادة من فضل النصر تحطم كل إنجاز بتنازع قادة الجيش على تقاسم الغنيمة، ولم يتمكن جلال الدين من حسم النزاع فانسحب بعض القادة بقسم كبير من الجيش الخوارزمي بلا مبالاة بالعواقب ولا مناقشات السلطان، ويقال أن أبرزهم هو سيف الدين بغراق الذي رفض توسلات جلال الدين خوارزم شاه.

ضعف جيش المسلمين وتفككت وحدته، وتمكن المغول الذين كانوا يراقبون المشهد من الانقضاض عليهم فرادى فأثوهم بسهولة بعد تفرقهم إلا من نجا منهم. وذلك من تداعيات العصبية بين القادة وضعف الإخلاص وافتقاد الحكمة في أصعب النوازل التي عاشها المسلمون.

أما جلال الدين فلم يكن أمامه من حل بعد انهيار جيشه إلا الانسحاب إلى سهل يقع غربي نهر السند أمام أخبار تقدم المغول بقيادة جنكيزخان نحوه للانتقام من هزيمته على يد جلال الدين.

معركة نهر السند

وفي هذه الأثناء عمل السلطان على جمع السفن للإبحار في نهر السند مع جنوده باتجاه الهند، لكن خبر تقدم طلائع جنكيز خان اضطره إلى خوض معركة مفاجئة لم تكن في الحسبان، فحمل جلال الدين بنفسه على الجيش المغولي حملة تتفجر قوة أردتهم بين قتيل وفار بنفسه، لم يكن يتوقعها جنكيز خان الذي انبهر بشجاعة جلال الدين، فراح يتقدم بكل ثقله نحو نهر السند لتجري بعد ذلك فصول حرب عظيمة قد سطر التاريخ الصفحات في شرح هذه الموقعة الضروس ولهجت السنة المؤرخين بالشجاعة التي أبدتها جلال الدين خوارزم شاه وجنكيز خان في مواجهة بعضهما البعض في عام 618هـ (1221م).

ولشدة هول المواجهة قيل عنها:

إن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال.

بل من شدة حنق جنكيز خان على جلال الدين وعجزه عن قتله أو أسره، عمد إلى قتل ابن السلطان الذي وقع في الأسر ولم يتجاوز عمره 8 سنوات، فقتله بيديه مما يعكس شدة القهر التي أوصله لها ثبات جلال الدين.

وتتحدث بعض الروايات إلى أن هذه المعركة استمرت مدة ثلاثة أيام لحقت فيها خسائر جسيمة بالفريقين رغم عدم تكافؤ القوتين.

وفي هذه الأثناء مع اشتداد الضرب والقتل سمع جلال الدين صيحات والدته وزوجته يستغثن به كي يغرقهن ولا يقعن في ذل الأسر في يد العدو، فأمر بهن فأغرقتن فكان مشهداً من أحزن مشاهد الحزن في تاريخ الخوارزميين، عندما يضطر الرجل الغيور أن يختار بين موت أحبائه أو أسرهم فيرى هلاكهم بعينه.

لقد كانت قوة المغول أكبر بكثير وأساليهم أفتك، وعان جلال الدين ذلك بنفسه وأدرك استحالة هزيمتهم في مثل ظرفه، فلم يجد من بد هذه المرة إلا الفرار فقذف بنفسه في النهر بفرسه من على ارتفاع 20 ذراعاً في مشهد مهيب، وسبح بسلاحه مقاوماً طغيان الماء وتبعه من بقي من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى. وقال المؤرخون:

أن الجواد الذي خرج من فيضان طاع ودوامة عميقة حاملاً السلطان ظل يرافقه في كل مكان حتى فتح تفليس.

ثم أحاله على التقاعد.

وأمام هذا المشهد البطولي كتب الجويني يصف ردة فعل جنكيز خان الذي أدهشه المنظر؛ فوضع أصابعه بين أسنانه متعجباً، وقال لأولاده بين عسكره الذين أخذتهم الدهشة: هذا الشبل من ذاك الأسد، وقد نجا جلال الدين ووصل سالمًا للضفة الأخرى.

والتقى جلال الدين بعسكره ممن نجح في اجتياز النهر، أما من فشل فكان مصيره القتل بسيوف المغول الذين أمعنوا قتلاً وأسراً في أفراد عائلة جلال الدين فلم يرحموا حتى الرضع.

ومع أن جلال الدين بعد مغادرته الجزيرة التي توفي فيها والده قد حقق هدفه باسترجاع نفوذ واسع في ظرف قياسي؛ فأخذ كلا من كرمان وفارس والعراق وأذربيجان وهاجم نواحي القفقاز وفتح أجزاء من غرب آسيا الصغرى وأخضع ملوك تلك الحدود، حتى وقعت الحرب الكبيرة مع المغول، لكن حكم السنوات العشر لجلال الدين وهو ييسط يده على كل هذه المناطق اختلف كثيراً عن حكمه وهو يواجه شوكة العدوان المغولي الهائل.

ولم يسمح جنكيز خان بملاحقة جلال الدين في الماء. واكتفى بما حققه من نصر ولكنه صب جام غضبه على بلاد المسلمين، فضاعف دماره وشهد المسلمون الويلات، خاصة مدينة غزنة الحصينة التي شهدت نصر المسلمين على المغول. وتقع غزنة الآن في أفغانستان على بعد حوالي مئة وخمسين كم جنوب مدينة كابل، في وسط جبال باروبا ميزوس الأفغانية.

الهند والانبعاث الجديد

وصل السلطان جلال الدين إلى الهند برفقة أربعة آلاف من جنده الذين نجحوا في الفرار معه، ولكنهم وصلوا في حالة مزرية للغاية.

ورغم أن جلال الدين أضحى شريداً بلا عتاد ولا عدة ولا موطن إلا أنه كسب من نصره على المغول في حرب بروان انبعاث الشجاعة ضد المعتدين المغول فتبعها ثورات في هرات ومرو من العصيان عليهم طمعاً في تحقيق نصر كنصر جلال الدين، وهاجت الكثير من المدن الإسلامية المحتلة من المغول الذين اضطروا إلى كف أيديهم عن حصار عدة قلاع في ذلك الوقت، فكان أقل بركاتها أن تسببت في الاضطراب.

واختلفت الروايات بشأن ما عاشه جلال الدين وجنوده في الهند فبعض الروايات تشير إلى أنهم في طريقهم للبحث عن مأوى لهم توحشوا، فأغاروا على بعض البلاد ونهبوها وفرضوا على أهلها الإتاوات التي سمحت لهم بالاستقرار في الهند ثلاث سنوات انشغل خلالها جلال الدين بجمع قواته التي تفرقت في الأمصار، وانضم إليه كثير من القادة الخوارزميين والمتطوعين الراغبين في الدفاع عن الإسلام، وساعده في ذلك غزوه لبعض الأقاليم الهندية الواقعة في حوض نهر السند وسيطرته عليها وحجم

الغنائم التي حصل عليها والتحاق المعارضين لحكام الهند به. لكن الشوق للعودة إلى بلاده كان غالباً، فكانت مرحلة الهند مرحلة نجاة من المغول وجمع لهم.

وبعض الروايات تصف جلال الدين بالشخصية القيادية التي يمكنها الانطلاق من جديد في كل أرض وصناعة ملك ووطن تحت أي ظرف، فقد اتجه السلطان إلى الغرب بعيداً عن أنظار المغول وأنشأ مملكته الجديدة التي استقطبت الخوارزميين المتفرقين وفرضت هيبتها واحترامها بين الهنود.

عودة جلال الدين القوية

وفي الواقع لم يكن جلال الدين يطمع في حكم الهند بل بقي فيها يتحين الفرصة للانتقام من المغول فكانت الفرصة مواتية تماماً بعد رجوع جنكيز خان سنة 621هـ (1224م) إلى منغوليا وذلك لقناعته أن جلال الدين لن يرجع، فانسحبت جيوشه الرئيسية من أقاليم الدولة الخوارزمية إلى العاصمة المغولية قراقورم. وكان في هذه الأثناء غياث الدين أخو السلطان جلال الدين يراقب الأوضاع ويتنظر الانفراجة للعودة من جديد، وبالفعل نجح في استرجاع بعض الأقاليم وفشل في استعادة أقاليم ما وراء النهر.

ولضعف خبرته وسوء قيادته حيث قال عنه الموفق عبد اللطيف: “كان غياث الدين أجمل الناس صورة وأرقهم بشرة، لكنه ظلوم وأمه تركية.”

عاشت الأقاليم خلال حكمه الاضطراب والفوضى، وتزامن ذلك مع عزم جلال الدين على مغادرة الهند فاستقر به الرأي مع قاداته على استرجاع الملك من غياث الدين، وبالفعل في عام 622هـ (1225م) خرج السلطان من الهند بمعية أربعة آلاف من رجاله، وسارع للسيطرة على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية التي كانت تحت حكم أخيه.

وتحولت غزنة وكرمان وأصفهان إلى حكمه، وتزوج جلال الدين ابنة البراق؛ وهو عامل سابق في جهاز كورخان الخطائي كان يشغل منصب الحجابة، وسبق وأن جاء كرسول ومندوب لكورخان إلى بلاط مُجدد خوارزم شاه في النزاع بينهما لكنه لم يسمح له بالعودة فأقام في البلاد إلى زوال دولة القراخانيين، وتولى الحجابة لدى خوارزم شاه ثم لما فر الأخير دخل البراق في خدمة ابنه غياث الدين.

واستمر جلال الدين في التخطيط حتى استولى على كافة المدن والأقاليم التي كانت تحت يد غياث الدين، وكسب بذلك ولاء قادة الدولة الذين أعلنوا بيعتهم له بدل غياث الدين. وحصلت وحشة بينه وبين أخيه لكنها انتهت بالمصالحة.

السفر إلى خوزستان وفتح تبريز

اتجه جلال الدين إلى خوزستان بعد استقرار أوضاع العراق العجم (الواقعة شرق عراق العرب بما في ذلك مدن مثل أصفهان والري وقزوين وكرمنشاه) فحاصر مدينة تُسْتَر في مطلع سنة 622هـ (1225م) وكانت تحت يد الأمير مظفر الدين مملوك الخليفة الناصر لدين الله العباسي، ففشل في الاستيلاء عليها، ثم أرسل جزءاً من جيشه إلى البصرة وجزءاً آخر إلى بعقوبا.

واستمر جلال الدين في التمدد حتى بلغ ذروة قوته وملكه في عام 623هـ (1226م) بعد أن ضم ملك عراق العجم وفارس وكرمان وأذربيجان وتبريز وتفليس إلى سلطانه، بعضها لم تكلفه عناء القتال فاستعمل السياسة والحيلة وبعضها كلفته الحروب الضارية كما كان حال تفليس وحرية الشرسة مع الكرج.

وساعده في ذلك موت جنكيز خان سنة 624هـ (1227م) وانشغال المغول في أمور خليفته. كما ساعده أيضاً استقرار الملك في يده دون منازعة.

وعزم جلال الدين ضم العراق العربي التابع للخلافة العباسية إلى سلطانه، ثم بعد احتكاكات بينه وبين العباسيين، واستنفار الخليفة لجيشه، أرسل جلال الدين رسالة للخليفة العباسي يقول فيها:

إن قصدي ليس تسخير بغداد وإنما أن أطمئن لرضاء الخليفة ومساعدته.

وانتهى الأمر بينهما بالصلح.

وبعد عودة السلام بين العباسيين والخوارزميين، توجه بعد ذلك جلال الدين إلى همدان عن طريق كردستان، ثم ناحية أذربيجان. وكانت تحت حكم الأتابك أزيك بن الأتابك مُجْد جهان بهلوان الذي تزوج من ابنة طغرل الثالث آخر ملك سلجوقي. وكان رجلاً يقضي وقته في الشراب فلما عرف أن جلال الدين وصل تبريز هرب إلى كنجه تاركاً المدينة في يد زوجته الملكة.

فوصل جلال الدين إلى تبريز وحاصرها. فرأت الملكة بعد مشورة أن تسلمه المدينة بشرط ألا يصيبها وحاشيتها بأذى. وتم الأمر كذلك. فقرأ الخطبة باسم الخليفة في المدينة ثم انتقل السلطان لحرب الجورجيين.

حاكم تبريز يموت كمدأ

يذكر أن زوجة الأتابك ابنة طغرل عرضت نفسها للزواج على جلال الدين فقبل بشرط أن تثبت طلاقها منه، ففعلت، فتزوجها وأدخل مدينتي سلماس وأرومية وتوابعهما ضمن حوزته فلم يضر الأتابك أزيك أخذ جلال الدين لتبريز في البداية عندما تسلط على أذربيجان وآثر السلامة لضعفه، لكن عندما سمع بزواجه من زوجته الملكة وعرف بوجوده معها اضطرب اضطراباً شديداً ومرض ومات بعد أيام. واعتبر المؤرخون زواج جلال الدين من هذه المرأة خطأ كبيراً.

الحرب مع الجورجيين

واستعرت حرب ضروس آلت إلى ثبات حاسم بفعل شجاعة جلال الدين وجيشه مع الجورجيين حيث واصل السلطان هجومه حتى أنجاز حوالي النواحي الجنوبية للقفقاز والشمالية لنهر أرس بهدف التقدم نحو تفليس، لكن وصلته أخبار بأن شمس الدين طغراي وابن أخيه نظام الملك قد شرعا في التمرد ويقصدان قتله. فعاد إلى تبريز قبل أن يستفحل أمر الفتنة. فاكتشف حينها أن الطغرائي وابن أخيه أبرياء بعد أن حكم عليهما بالقتل، فأعادهما إلى تبريز، وأصبح يستشيرهما في مجالسه.

ثم عاد جلال الدين من جديد لصراعه مع الجورجيين.

فتح تفليس

خرجت ملكة جرجيا من تفليس قبل أن يصل جلال الدين وعهدت بالدفاع عن المدينة لقائدين من قادتها، ولكن السلطان أحبط خطط الجورجيين واشتعلت نار الحرب بينهما واستعر لهيها واستمرت حتى هزم الجورجيين وقضى على نحو أربع وعشرين ألفاً من الجورجيين وأسر القائدين لهما وقيدهما بالسلاسل. ثم أعطى جلال الدين الأمان للجميع استجابة لطلب أهل المدينة الأمان.

ووصف النصارى هجمة جلال الدين عليهم أنها أقوى ضربة نزلت بالنصرانية في القفقاز، ويعدونها نظيراً لسفك الدماء في أورشليم على يد تيتوس إمبراطور الروم على حد تعبيرهم.

ووصل جلال الدين بعدها إلى كرمان حيث أرسل له اليراق الحاجب الهدايا وطلب الصفح منه بعد وحشة بينهما. فاضطر جلال الدين إلى العودة قاصداً أصفهان ليستريح. ودارت أحداث كثيرة قبل أن يقاتل جلال الدين الحشاشين ثم يصطدم مع الأيوبيين.

السلطان جلال الدين والإسماعيلية الحشاشين

كان حضور الباطنيين من فرقة الإسماعيلية في هذا الوقت متصلاً بمحضورهم في واقع الدولة السلجوقية، وكان جلال الدين يدرك خطورتهم وشرهم على الإسلام، فبعد عودته من الهند ولى أرخان على نيسابور وأعمالها وكان وعده بذلك بالهند، وكان نائبه بها يتعرض لبلاد الإسماعيلية المتاخمة له بهستان وغيرها بالنهب والقتل، وقال ابن الأثير:

“إن السلطان بعد مقتل أرخان سار في العساكر إلى بلاد الإسماعيلية من الموت إلى كردكوه فاكنتسحها وخرها وانتقم منهم وكانوا بعد واقعته قد طمعوا في بلاد الإسلام فكف عاديتهم وقطع أطماعهم وعاد فبلغه أن طائفة من التتر بلغوا الدامغان قريباً من الري فسار إليهم وهزمهم وأثنخن فيهم. ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحره فأقام في انتظارهم في الري.”

وقد حاصر الخوارزميون في عام 624هـ (1226م) الإسماعيليين في قلعة الموت الشهيرة في رودبار والتي كانت مركز سلطانتهم، واقتص منهم السلطان بحزم لجرائمتهم واغتيالاتهم الغادرة. وبعد ذلك بسنة واحدة دخل جلال الدين أراضي أرمينية وملك مدينة خلط التابعة للملك الأشرف الأيوبي، وذلك بعد حصار طويل كما سيأتي ذكره.

وسقطت جميع قلاع الحشاشين وقضي عليهم في الزحف المغولي في المنطقة.

حرب جلال الدين خوارزم شاه في أصفهان

واستنفر جلال الدين جيشه مع وقع خبر اقتراب المغول، فانطلق يجمع ما أمكنه من قوة للقائهم، لكنه كان قد استنزف في حروبه التوسعية. ومع ضعفه هذا، تمكن من إلحاق بعض الهزائم بالمغول؛ فقد

قضى جنوده على كتائب المغول التي تسللت إلى جبال اللر في بختياري للإعداد لهجومها وحصار أصفهان، فطاردوهم في المضائق والمسالك وقضوا على الكثير منهم وأسروا المئات منهم وخنقوا منهم في القصر بأيديهم وألقوا بأجسادهم للكلاب.

ومما يذكر من بطولات جلال الدين في هذه المعركة التي وقعت في عام 625هـ (1227م) أنه انقطع عن عساكره فالتف المغول من حوله من كل ناحية وسدوا عنه طريق الخلاص، ولم يبق إلا قلة قليلة من حرسه، فحمل حملة على المغول أذهلت من حوله، فكان يسقط الواحد من صهوة جواده ويمزق الآخر من معدته ويطيح برقبة الثالث ويجرح المهاجمين إلى أن فتح ثغرة في الدائرة لنفسه ورفاقه وخرج من مضيق الموت.

يقول النسوي: “حكى واحد من أمراء المغول الذي انفصل عنهم بعد ذلك والتحق بخدمة السلطان أنه عندما تبين الخوارزم شاه بهذا الجلد وتلك الرجولة طريقاً للخروج من المعركة تحرك القائد المغولي تيانيا “ياينال” في إثره سريعاً وكان يخاطبه من شدة الإعجاب والدهشة قائلاً:

لتبق سالماً في كل مكان فأنت أسد زمانك وشجاع أوانك!

وتفرق جيش جلال الدين بعد هذه الحرب بين فارس وأذربيجان وكرمان وأصفهان، واختفى جلال الدين ثمانية أيام لم يظهر عنه أي خير حتى هم العامة بمد أيديهم على ماله لكن قاضي أصفهان رفض بشدة وطلب مهلة حتى عيد الفطر كي يتأكد من مقتله، ثم تنصيب الأتابك يغانطياسي مكانه . ولكن ما أن حان موعد صلاة العيد حتى وصلتهم بشارة وصول السلطان سالماً، فاستقبلوه بحفاوة وصلّى معهم.

استعانة جلال الدين بالقبجاق والقتلى

لجأ جلال الدين إلى طلب المساعدة خلال هذه الأيام الشديدة من سلاسل طائفتي القبجاق والقتلى؛ لما لهما من علاقة صداقة قديمة مع الخوارزميين، خاصة بعد سعي جنكيز خان إلى القضاء عليهما حيث كان يخشى من قدراتهما القتالية وشدة ثباتهما. فلقي مطلبه القبول والترحيب. وقد نفعه ذلك في وقائع لاحقة مع الجورجيين والتي تصدرت بطولات جلال الدين تفاصيلها. وانتهت بتغلبه

عليهم بعد هزيمة ساحقة لقائد الجيش الجورجي وأبنائه الثلاث ففتح النصر شهيته لكن هذه المرة نحو خلاط! (وهي ما يعرف الآن بمقاطعة بيتليس، بتركيا).

جلال الدين يصطدم مع الأيوبيين

كانت خلاط في ولاية الأشرف بن العادل بن أيوب، وكان نائبه بها حسام الدين علي الموصللي. وترك جلال الدين خلفه الوزير شرف الدين بتفليس قبل أن يرحل إلى كرمان فضاقت على عساكره المؤونة، فبعث جنوده إلى أعمال أرزن الروم فاغتنموا منها وحين عودتهم مروا بخلاط فاعترضهم نائبها حسام الدين وأخذ ما معهم من الغنائم. فكتب الوزير شرف الدين بذلك إلى جلال الدين فسار السلطان إلى خلاط وأطبق الحصار عليها وقتلها مرات عديدة واستعمل المنجنيقات. ومع ذلك لقي مقاومة شديدة من أهل المدينة، فأظهر مقابلها جلال الدين ما أعجز الواصفين من صبر وجلدة وإصرار فبقي على ذلك الحال حتى أخذ المدينة عنوة فنال من أهلها بالقتل والقهر والغنيمة.

ويذكر التاريخ درجة الأذى التي ابتلي بها أهل خلاط من الحصار والقتال حتى بلغ بهم الحال لأكل لحوم الكلاب والقطط والأحصنة. ثم دخلها جلال الدين بعد دمار كامل، ليعود بعدها إلى تبريز.

من غريب قصص الخوارزميين

من غريب قصص الخوارزميين أنه كان للسلطان مُجَّد خوارزم شاه ابنة قد تزوجت من عثمان خان حاكم سمرقند، وبعد مقتله في الغزو المغولي على خوارزم أسرت مع السلطانة ترکان خاتون، فاختار دوشي خان جوجي خان ابن جنكيز خان ابنة مُجَّد خوارزم شاه زوجة له، وبقيت هذه المرأة تكاتب أخاها جلال الدين بين الحين والآخر تطلعه على الأخبار. فأخبرته في رسالة أن “الخان الكبير أوقطاي خان قد تلاطف مع دوشي وأمر أن يتعلم أولاده القرآن وأن يطلعهم ويطلعهم على شجاعتك (جلال الدين) واتساع ملكك ويدي ميله للسلم ويرغب في أن يكون نهر جيحون حداً فاصلاً بين ممتلكاته وبينك.”

وجاء في الرسالة:

هذا فإن كانت لديك طاقة المواجهة أمامه فلتشجذ همتك وعدتك وإلا فهذه هذه الفرصة المناسبة للسلم.

إلا أن جلال الدين كان باله منشغلاً بحصار خلائط وتسخيرها فلم يقف عند كلمات أخته المهمة والتي كان من الممكن أن تغير مصير دولته للأفضل!

أخطاء استراتيجية كلفته ملكه

لم تكن هذه التوسعات على حساب ممالك المسلمين إلا أخطاء جسيمة كلفت جلال الدين ملكه، فبدل أن يمد يده لمن حوله من مسلمين لصناعة وحدة متينة أمام خطر المغول؛ فضّل التغلب عليهم ومنازعتهم الملك مستهيناً بثمن الدماء والاعتداء، وهو ما أثار نقمة جميع الملوك والحكام المجاورين له، وسكان المدن والبلاد التي استولى عليها دون الحديث عن عدوانية جنوده وسوء معاملتهم لهم وسيرتهم السيئة.

فانفض الناس من حوله، وفارقه بعض أتباعه المقربين ليدخل مرحلة مظلمة ضعفت فيها أركان دولته منذ سنة 627هـ/1229م. في وقت يتقدم فيه المغول والسلطان في أمس الحاجة للمدد والوحدة التي هدم فرصها بسبب سوء تخطيط لم يحسب حساب أيام الكرب.

ومع تمكن جلال الدين في البلاد واسترجاعه سلطانه وثقة رعيته أمام المغول إلا أنه لم يتمكن من استثمار الظرف بموت جنكيز خان واضطراب المغول خير استثمار، وبدل أن يؤسس وحدة إسلامية مع الممالك الإسلامية المجاورة، ويوحد قلوب أهلها على قضية واحدة؛ انشغل بتوسيع نفوذه وسلطانه على حسابها.

بل بلغ الطموح إن لم يكن الجشع بجلال الدين إلى الطمع في ملك الأيوبيين وسلاجقة الروم، بل وصل به الأمر إلى الطمع في الخلافة العباسية نفسها. كما أنه اقتتل مع أخيه غياث الدين بدل المسايسة والاتفاق فانعكس ذلك على أخلاق جنده سوءاً وقسوة.

وتسببت هذه الطموحات غير المدروسة في تشتيت قوة جيشه وتفككه وضعفه، وتراكم الأحقاد ضده، في وقت لم تكف جيوش المغول عن التربص به ورصد تحركاته.

هزيمة جلال الدين أمام الأيوبيين والسلاجقة

استدعى سوء التخطيط من جلال الدين وجشعه تحالف الأيوبيين مع السلاجقة على إثر استيلائه على خلاط حيث بدأت هزائمه تتوالى بداية أمام سلطان السلاجقة الروم؛ علاء الدين كيقباد بن أرسلان ثم أمام الملك الأشرف صاحب دمشق والجزيرة و خلاط وذلك في عام 627هـ/1229م.

معركة ياسي جمن

تحالف كل من علاء الدين والملك الأشرف وأمراء الموصل وحلب والجزيرة ضد جلال الدين، وأنفقوا ما أمكنهم في سبيل تقوية حلفهم، وساندهم في ذلك الملك الكامل ملك مصر لكنه لم يتحرك لقتال جلال الدين بسبب انشغاله بالصليبيين آنذاك وهجماتهم على سواحل الشام ومصر فاضطر للعودة. من جانبه تحالف جلال الدين مع جهان شاه؛ حاكم السلاجقة المتمردي في أروم.

والتقى الجمعان في معركة ياسي جمن في الأناضول، فيما يعرف الآن بمقاطعة إرزينجان في عام 627هـ (1230م). واستمرت المعركة لمدة ثلاثة أيام. كاد جيش جلال الدين أن يهزم التحالف السلجوقي الأيوبي في اليوم الأول، ولكن تزامنت المعركة مع مرض السلطان حتى أنه لم يكن يقدر على ركوب الخيل والقتال، ففرق جيشه وانهمز.

وبينما كانت رحى الاقتتال تشتعل بين جيوش المسلمين كان المغول يتقدمون بشكل مسعور، فاستولوا على الري ثم همدان ثم أذربيجان ولم يكن بإمكان جلال الدين أن يصد هذا الزحف المدمر لانشغاله بمعارك جانبية جلبت عليه وعلى العالم الإسلامي الخسائر الفادحة.

الصلح خير

وبعد هزيمة جلال الدين خوارزم شاه أمام تحالف الأيوبيين والسلاجقة وتجلي الطوفان المغولي في الأفق، تردد شمس الدين التكريتي رسول الأشرف بينه وبين الأشرف وعلاء الدين لأجل إبرام الصلح.

لقد كان هؤلاء الحكام يدركون تمام الإدراك رغم القتال مع جلال الدين أنه ملجأهم الأخير أمام طوفان المغول الذي يقترب، فسرعان ما تلاشت أحقادهم وسارعوا بعد فرار السلطان الخوارزمي من

ياسى جمن لتأليف قلبه، يقول النسوي: “شرع الملك الأشرف الذي مثل حجر الزاوية في الاتحاد مع علاء الدين كيقباد وهزيمة السلطان في مكاتبة للوزير شرف الملك فأرسل له ما مفاده:

“إن مليكم حامي الإسلام والسد المحكم بين المسلمين والمغول، وليس خافياً علينا حجم الهزيمة التي حلت بحوزة الشرع والدين بسبب موت أبيه، ونحن ندرك ضعف هذا السلطان وهزيمته كضرب عام، وأنت نفسك رأيت حلو الأيام ومرها، وتجرعت غصص الدهر وعرفت النفع من الضرر فلماذا لا تدعو السلطان إلى سلوك الطريق المستقيم توخياً للصواب ولا تشوقه إلى الوحدة والاتحاد؟ ومن جانبي وعلاء الدين كيقباد والناس أن أحقق ثباتاً وتعاوناً بصفاء فيه رضاء الخوارزم شاه فتضيع الوحشة والنفور والعداوة.”

وكان مما قيل في جلال الدين في ذلك الظرف؛ أنه بمثابة السد الذي يمنع يأجوج ومأجوج (المغول) من اجتياح العالم الإسلامي. واستجاب جلال الدين لدعوة الصلح فرفع يده عن خلاط ونواحيها بعد ذلك وعهد بما إلى الملك الأشرف، وتسامح مع علاء الدين كيقباد وأرجع له النقاط التي أخذها منه.

المواجهة مع المغول من جديد

اختار المغول الابن الثالث لجنكيز خان أوقطاي خان خلفاً له، فقاد حملته الجديدة على بلاد المسلمين بوحشيته المعتادة وعلى عكس ما كان ينتظر جلال الدين أن المغول سيقضون الشتاء قبل مهاجمته، فيسمح له ذلك بتجهيز نفسه لصددهم، فاجأه جيش المغول وهو في أضعف حال لم يتمكن بعد من استجماع قوته بعد هزيمته الأخيرة وطول استنزاف، فما أن اجتاز المغول نهر جيحون حتى اجتاحوا الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية واستولوا على الري وهمدان وحتى أذربيجان، فلم يتمكن جلال الدين من مواجهة هذا السيل الجارف وفر منهم إلى تبريز ثم إلى سهل موقان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين.

وانتهى الأمر بجلال الدين إلى حفر خندق عميق يحيط به في مكان تركزه بجانب قلعة شير كبود في موغان، لكنه في منتصف الليل تسلل المغول إلى معسكره فهرب من بينهم واتجه نحو نهر أرس. وأرسل رسله ليحذروا بقية الأمراء والملوك من خطر المغول، بينما واصل هو فراره من مدينة إلى أخرى والمغول يطاردونه فأظهر مهارات عجيبة في الخلاص منهم.

نهاية جلال الدين خوارزم شاه

وفي هذه الأثناء تمكن جلال الدين من جديد من جمع شتات جيشه واستقر مؤقتاً في ماهان - أورومية أين قضى شتاء 628هـ/1231م في ضيافة عز دين صاحب قلعة شاهق الذي أحسن استقباله وخدمته وجلب الأخبار له إلى أن كشف أمره المغول، وتزامن ذلك مع خيانة وزيره الملك الأشرف له الذي سرعان ما ندم وعاد يحمل كفنه يطلب الصفح، ويرى بعض المؤرخين أن هذا الوزير كان سبب الكثير من المصائب التي جرت في ذلك الزمان، وأنه لم يكن يتميز بالكفاءة التي تجعله يسجل أحداثاً تاريخية أجدر وإنجازات تليق . لكنه فر إلى مصر وبقيت وعوده بالعودة بالمدد مجرد حبر على ورق.

وتحرك جلال الدين وغير موقعه ثم استنجد بالخليفة العباسي وأمراء ديار بكر وخلاط ومدن الجزيرة لكنهم لم يستجيبوا له بسبب خشيتهم من أن ينقلب عليهم لاحقاً، وذكر النسوي أن جلال الدين كان يتوقع ذلك منهم لكنه أراد أن يثبت لقادة عسكره ومستشاريه أن هؤلاء الأمراء والملوك مجرد أعداء يدعون الصداقة! وكان كل منهما يحمل على الآخر، ويقال إن جلال الدين كان ناقماً على علاء الدين كيقباد؛ حيث إنه حثّه ضد الملك الأشرف الأيوبي على تسخير أخلاط ثم انقلب عليه وتحالف مع الملك الأشرف وقاتلا السلطان فهزماه!

وفي تلك الأوقات الحرجة كان المغول يتقدمون باتجاه ديار بكر وآمد باتجاه السلطان جلال الدين، ولم يدّخر فيها جلال الدين جهداً في الجمع والبحث ونصب الخطط لكن الخيانة والجبن وضعف المشورة كانت تفاجئهم، وفشلت خطط جلال الدين في الذهاب إلى أصفهان واتجه بدلاً من ذلك إلى آمد بديار بكر، فقطع عزمه حصار المغول لجيشه وتسلمهم بينهم، فقرر الانفصال عن جنده والفرار على أن يشغل جنده المغول فنجحوا في ذلك ثم فروا إلى أصفهان واستقروا فترة حتى غلبهم المغول من جديد وأسروا قائدهم.

أما السلطان مع قلة معه ففر للبحث عن ملجأ ولكنه أخطأ المشورة مرة أخرى حين وثق من جديد في خاله أوترخان الذي سبق أن خذلته مشورته في اختيار الطرق، فتسلط عليهم اللصوص ثم هرب خاله في مشهد خيانة مؤسف، ليتزكه لمصيره حيث أحاط به المغول في مفترق طرق، لكن جلال الدين تمكن من الإفلات منهم بينما قُتل وأسّر من كان معه، وانطلق جنود المغول من جديد يطاردون

السلطان جلال الدين، حتى تمكن من قتل عدد منهم والتخلص من مطاردتهم ثم قفلوا عائدين يائسين من الإمساك به.

وانتهت خطوات السلطان إلى ميفارقين، ولما وصل إلى قرية بالقرب في جبال كردستان بقي هائماً على وجهه لا يدري أين يذهب، فلقى رجل كردي من المنطقة فقصّ عليه جلال الدين خبره وأعلمه بمن يكون، وطلب مساعدته مقابل جزاء سخي، فاستجاب له الكردي وأخذ له بيته لكنه عندما خرج ليجمع الخيل والعدة لجلال الدين دخل على السلطان كردي آخر صاحب الأول، كان قد قُتل أخوه في معركة مع جيش الخوارزميين، فعرف السلطان وانقض عليه وقتله بجرية كانت في يده، لفظ معها آخر سلاطنة الدولة الخوارزمية أنفاسه الأخيرة في شهر شوال من عام 628هـ (1231م).

وذكرت روايات أخرى لمقتله مع اختلاف في التفاصيل منها أن قاتليه كانوا لصوصاً من الأكراد. فكانت مدة سلطنته نحو اثنتي عشرة سنة، وسقطت بمقتله الدولة الخوارزمية للأبد.

أبناء جلال الدين خوارزم شاه

كان لجلال الدين العديد من الأبناء حيث يعرف له ابن أول قتله جنكيز خان بيديه في معركة نهر السند لا يتجاوز الثامنة من عمره، ثم ابن ثان من زوجته التي تزوجها بعد عودته من الهند وهي أخت شهاب الدين سليمان شاه حاكم أيوه، لكنه قتل أيضاً؛ حيث يقال إن مرضعة ابنة جلال الدين كانت أمها ابنة أتابك فارس قد سمته وأهلكته. ويقال إن له ابناً آخر من جارية، اسمه دوشي لكنه توفي في حادثة عجيبة لذلك لم يخلفه أحد، وكان له أيضاً ابنة من بنت الأتابك سعد.

تقدير البطولة

رغم الخلافات التي كانت بين جلال الدين خوارزم شاه والعديد من حكام الإمارات والممالك الإسلامية التي وقعت تحت هجماته، إلا أنهم كانوا في صميم أنفسهم يكونون له الاحترام لما أبداه من بطولات خارقة أمام المغول ومن إخلاص في حفظ سلطانه واسترجاع دولته، ومما يدل على ذلك أنه بعد وفاة جلال الدين أرسل الملك المظفر صاحب ديار بكر شخصاً إلى المنطقة التي كان السلطان قد قُتل فيها، فجمع كل ما يتعلق به من جواده الأصيل بسرجه وسلاحه وسيفه المشهور والعودة التي كان

يربطها في وسط شعره حيث شهد معارفه منهم أمير الاضطبل أنها له، ثم حمل الملك المظفر عظام جلال الدين ودفنها.

وإن في ذلك لدلالة على أهمية البطولة في سير الرجال، فعندما تقرأ سيرة بطل من أبطال الإسلام حمل من العزة والشجاعة والقوة ما تعجز الأقلام عن إيفاءه حقه من الوصف، تتلاشى كل أخطائه وكل نقائصه، ذلك أن البطولة مجد يلقي بظلاله في سيرة الرجل على امتداد الأزمنة والعصور. فحري أن نحارب الضعف بالبطولة وأن نمسح النقص بالبطولة فما رأيت مثلها في تاريخ الرجال.

وقد أعقب موت جلال الدين العديد من الشائعات والأساطير تعكس درجة حاجة المسلمين لبطولاته، وعدم استسلامه لخبر مقتله الذي بقي لغزاً لمدة 30 سنة، يمنون أنفسهم بأنه يجمع العدة للقتال من جديد لينقذهم من المغول، وبقي آخرون يعتقدون أنه لم يقتل وتخفى وطوى أرض الكرد حتى مماته. مما يدل على عظيم أثر الرجل في نفوس الناس، وحتى في نفوس المغول الذين كانوا يفزعون لخبر ظهور شبيه له، فلا يهدأ بالهم حتى يتأكدوا من حقيقة الخبر ويقضوا على من يشبهه به.

أسباب هزيمة جلال الدين

لم يهزم جلال الدين أمام المغول بسبب أخطائه فحسب بل تداخلت الكثير من العوامل التي تسببت في ذلك من تراكم أخطاء والده وجدته ومن طمع القادة وسوء التدبير وأخطاء الأعوان وعصيان الوزير ونزاع الأخ وفرقة الملوك والأمراء وتنافسهم ثم انحدار مملكته في الاستهانة بشرب الخمر في آخر أيامها والجرأة على سفك الدماء المعصومة.

ومن العدل القول إنه ليس سهلاً أن يخرج جلال الدين بعد كل هذه الأهوال التي مرت عليه بدون أخطاء، وأن يحقق انتصارات تعلقت بها قلوب المسلمين رغم انطلاقه من العدم بعد وفاة والده، ومع ذلك فقد أثبت جسارته وذكاءه في اتخاذ القرارات الصائبة في أحلك الظروف وفي قلب الخذلان. ومهما بلغت الخلافات بينه وبين الممالك الإسلامية ما كان يجدر بالعقلاء إلا التنازل والوحدة فهي سبيل الخلاص الوحيد أمام المغول.

ورحل جلال الدين خوارزم شاه واستمر كابوس المغول، لتبدأ مرحلة مظلمة في تاريخ العالم الإسلامي حيث اجتاحت هؤلاء المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان بغداد وحلب ودمشق، وحصلت مجازر

يعجز القلم عن وصف فظاعتها، وسقطت الخلافة العباسية، ولكن الله ادّخر لهذه الأمة بطولات أخرى مبهرة انبعثت معها الأمة من جديد رغم هول المصاب والكارثة. ذلك أنها أمة منصور⁽¹⁾.

(¹) المصادر: السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ تأليف مُجد دبير سياقى ترجمة وتقديم أحمد الخولي. الكامل في التاريخ لابن الأثير . البداية والنهاية لابن كثير . سيرة جلال الدين المنكرتي للنسوي . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي . دكتور راغب السرجاني: المغول من البداية إلى عين جالوت . المغول في التاريخ، فؤاد عبد المعطي الصياد .

نخضة دولة السلاجقة العظمى

لعبت دولة السلاجقة العظمى دوراً تاريخياً حاسماً في القرنين الخامس والسادس الهجريين، حيث تمكنت هذه الدولة الإسلامية من حفظ سلطان الدولة العباسية السنية أمام منازعة الدولة العبيدية الشيعية لها في مصر والشام، وخلصتها من سطوة البويهيين الشيعة الذين جثموا على صدور العباسيين وسيطروا عليهم مستغلين حالة ضعفهم.

كما ساهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني، لنشر العقيدة الإسلامية.⁽¹⁾

وشكلت حصناً منيعاً أمام الغزوات الصليبية الغربية، ولقنت دروساً عظيمة للجيوش البيزنطية ومرتزقتها، واستمرت كذلك لعقود إلى انهيارها، ويكفي دلالة على دورها المصري، النظر إلى تاريخ أول حملة صليبية على بلاد المسلمين في الشرق، حيث انطلقت في عام 491 هـ بأوامر من البابا أوربان الثاني في كليرمونت جنوب فرنسا من أجل انتزاع القدس وعموم الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وذلك بعد نحو 6 سنوات فقط من وفاة سلطان السلاجقة ملكشاه بن ألب أرسلان في عام 485 هـ أي بعد أن دخلت الدولة السلجوقية في مرحلة الانهيار والتنازع والانقسام مباشرة بعد وفاته.

كما لا ننسى إنجازات الدولة السلجوقية الفكرية وتقدمها في كثير من علوم الحضارة، وازدهار الحركة العلمية في عصرها حيث نشط العلماء في دحض شبهات الرافضة والإسماعيلية بالتوازي مع الجهود العسكرية في القضاء عليهم، مما ساهم في تقوية صف أهل السنة.

وبلغ أكبر امتداد لدولة السلاجقة العظام في عصرها الذهبي في عصر السلطان ملكشاه حيث حكم السلاجقة من حدود الصين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وضمت أقاليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغرى والعراق والشام، وخضع لها قياصرة الروم فدفعوا الجزية المفروضة عليهم بشكل سنوي دون إخلاف أو تسويق، لكن كثرة التنازع على الملك بعد وفاة ملكشاه تسببت في تقلص رقعة الدولة السلجوقية وانقسامها.

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى 31.

ثم لابد أن نشير إلى أن السلاجقة انقسموا إلى عدة فروع رئيسة وهي:

- السلاجقة العظام: وهم طغرلبيك، وألب أرسلان، وملكشاه، حيث استقرت وازدهرت الدولة في عصورهم، وبعض المؤرخين أضاف لهم أبناء ملكشاه بركياروق ومُحمَّد وسنجر أحمد رغم كثرة التنازع في عصرهم وتسلسل الضعف لأركان الدولة.
 - سلاجقة العراق: وهم أمراء السلاجقة الذين سيطروا على العراق والري وهمذان وكردستان واستمر نفوذهم من سنة (511هـ-1117م) إلى سنة (590هـ-1194م) وانتهى عصرهم بتمكن الخوارزميين من القضاء عليهم.
 - سلاجقة كرمان: تركز نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس وفي بعض مناطق الوسط سنة (433هـ-1042م) واستمر حتى سنة (583هـ-1187م) وانتهى عصرهم بقضاء التركمان عليهم.
 - سلاجقة الشام: تركز نفوذهم في المناطق التي استولى عليها السلاجقة من العبيديين أو الروم في الجزيرة والشام وانتهى نفوذهم سنة (511هـ-1117م) على أيدي أتابكة الشام والجزيرة.
 - سلاجقة الروم: تركز نفوذهم في أراضي الروم التي فتحها السلاجقة في آسيا الصغرى واستمر نفوذهم حتى سنة (700هـ-1301م) وانتهى عصرهم بصعود العثمانيين الذين قضوا عليهم.
- ونسافر الآن مع قصة البداية والنهاية منذ قيام دولة السلاجقة العظام إلى غاية سقوطها، لنستخلص العبر ونستلهم الدروس، (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

الواقع قبيل قيام الدولة السلجوقية



كان العالم الإسلامي يعيش حقبة التنازع بين الخلافة العباسية السنية في بغداد، والدولة العبيدية الشيعية في مصر والشام، ثم الدولة الأموية السنية في قرطبة بالأندلس، كما برزت على ساحة العالم الإسلامي دولٌ أخرى كان أبرزها، الدولة الغزنوية في بلاد ما وراء النهر والهند والدولة السامانية الفارسية.

وعانت كل هذه المكونات لمشهد الواقع، قبيل قيام الدولة السلجوقية، من الاضطرابات الداخلية والخارجية والتي انتهت إلى تهيئة الأرض لظهور الدولة السلجوقية على مسرح الأحداث مع كل يوم تزداد فيه قوة.

ومما يجدر تسجيله هنا أن دولة السامانيين (204هـ - 395هـ)، والتي ينحدر مؤسسوها من أسرة فارسية عريقة. وموطن أهلها الأصلي مدينة بلخ، قد دخلت في مرحلة الضعف والانهيار للدولة، منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وانقسمت الأسرة السامانية الحاكمة، وتزامن هذا الضعف مع صعود البويهيين الشيعة الذين كانوا قد تمكنوا من العراق، وتطلعوا للسيطرة على أملاك الدولة السامانية، واشتبك الطرفان في سلسلة حروب شرسة انتهت بسقوط الدولة السامانية، فتقاسم تركتها ما وراء النهر القرخانيون وما تبقى ملكه الغزنويون.

أما الدولة الغزنوية (351 – 582 هـ) فأصل تسميتها من مدينة غزنة إحدى مدن أفغانستان أسسها سبكتكين بعد أن تولى منطقة غزنة من قبل السامانيين ثم مد سلطانه في الشرق وضم إليه خراسان سنة 384 هـ مكافأة له من الدولة السامانية على قمع حركات الخارجين عليها في بلاد النهر وقتاله للبويهيين الذين رغبوا في الاستيلاء على خراسان من أملاك السامانيين.

لكن طموحات سبكتكين اتجهت به نحو الهند فانطلق نحو الحدود الهندية وفتح القلاع وحفر الملاحم البطولية، فتمكن في الأرض وملك السلطان وخلفه من بعده ابنه محمود بن سبكتكين الغزنوي الذي عظم أمره مسطراً سيرة بطل فاتح من كبار الفاتحين وذاع صيته في الآفاق لبطولاته وفتوحاته. وفي ظل هذه المعطيات ظهر السلاجقة.

أصل السلاجقة

أسس السلاجقة دولتهم في القرن الخامس الهجري فكان لها الأثر البالغ في تغير الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي. ولكن اسم السلاجقة ظهر لأول مرة تاريخياً منذ أواخر القرن الرابع هجري (العاشر الميلادي).

وينحدر السلاجقة من قبيلة “قنق” التركمانية، وتشكل مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى من القبائل التركمانية ما يعرف بقبائل “الغز”(1) وكانت مواطنهم الأولى في منطقة ما وراء النهر وهي تركستان اليوم، وهي مساحة ممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً.

وفي النصف الثاني من القرن السادس ميلادي، تحركت هذه القبائل باتجاه آسيا الصغرى في أسراب ضخمة مهاجرة، واختلفت الروايات التاريخية في تحديد سبب هذه الهجرة، فمنها من أرجعتها لأسباب اقتصادية بحثاً عن مصادر للعيش الكريم ومنها من فسرتها بأسباب سياسية، بحثاً عن الاستقرار والأمن.

(1) أخبار الدولة السلجوقية للحسين ص 2 ، 3، نظام الوزارة للزهراني ص 31.

واستمرت تلك القبائل المهاجرة في التوجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان⁽¹⁾، فأصبحت بمحاذاة الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21هـ - 641م.

وبدأت قصة السلاجقة من جددهم دقاق الذي خدم مع أسرته أحد ملوك الترك، يعرف باسم بيغو⁽²⁾، وكان دقاق بمثابة شيخ قبائل الأتراك الغز، يأتمرون بأمره وبمضون بوصيته، وظهرت عليه أمارات القيادة الفذة، فأشعلت هذه الصفات نيران المكر في قلب زوجة الملك، وأوغرت صدره عليه لكي يقتله فلا يكون له منافساً في يوم ما، خاصة مع تزايد شعبية دقاق وإقبال الناس عليه، فبلغ مسامع الأخير الخبر، فجمع كل من معه ورحل إلى دار الإسلام وأقام بنواحي جند قريباً من نهر سيحون، حيث أعلن سلجوق إسلامه وأعلن الجهاد على الكفار الترك.

واستمر سلجوق كذلك إلى أن توفي في جند، وأكمل أولاده مسيرته من بعده في غزو الترك الوثنيين وحماية ثغور المسلمين، وقد تمرسوا فنون القتال والغزو فازدادت قوتهم وتوسعت أراضيهم وكسبوا احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم ولا شك أن مقابل هذه الانجازات كان هناك التضحية والصبر والإصرار الذي غذى الرغبة في إقامة دولة لهم، وهذا ما تحقق بالفعل في عام 429هـ.

الصراع الغزنوي السلجوقي



(1) نهاوند، شوقي أبو خليل ص 55-70.

(2) الدولة السلجوقية منذ قيامها، سميرة الجبوري ص 68.

بعد سقوط الدولة السامانية ارتفع ذكر الدولة الغزنوية، وهي دولة ذات آثار جلييلة تستوجب تأليفاً منفرداً، ولمع نجمها بشكل لافت في عصر السلطان محمود الغزنوي الذي تمكن من توسيع حدود دولته فامتدت من شمال الهند في الشرق إلى العراق في الغرب، ومن خراسان وطخارستان وجزء من بلاد ما وراء النهر في الشمال إلى سجستان في الجنوب، وكانت مدينة لاهور مقراً لحكمه في الهند حيث عين نائباً له هناك.

لكن قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر بدأت بالتعاضم في بداية القرن الخامس الهجري مما آثر مخاوف السلطان محمود الغزنوي وقرر في سنة 415هـ أن يكبح جماح السلاجقة فعبر نهر جيحون لمقاتلتهم، ونجح في القبض على زعيمهم أرسلان وولده قتلش وعدد من كبار أصحابه ثم بعث بأرسلان إلى الهند وسجنه هناك حتى قضى نحبه بعد أربع سنوات من السجن.⁽¹⁾

وفي عام 419هـ خرج السلطان محمود لقتال السلاجقة مرة أخرى وأنزل بهم هزيمة ساحقة⁽²⁾ حفظت سلطان دولته من تهديد دولة ناشئة.

وكان السلطان محمود الغزنوي الذي توفي سنة 421هـ - 1030م، صاحب سيرة عظيمة اشتهر بحبه للعمل والتقرب إلى الله بحمل راية الدعوة وبث روح الجهاد والاستشهاد في جنده، ونشر السنة، وقمع البدع وما كان يتحلى به من قيم إسلامية مثلى كان لها أعمق الأثر في ازدهار مملكته والتفاف الناس حوله في محبة وتفان ووفاء.⁽³⁾

وقد وصفه ابن كثير بالملك العادل الكبير المشاغر. المرابط المؤيد المنصور المجاهد يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين صاحب بلاد غزنة وتلك الممالك الكبار، وفتح أكثر بلاد الهند قهراً، وكاسر بُدودهم، وأوثانهم كسراً، وقاهر هنودهم وسلطانهم الأعظم قهراً.⁽⁴⁾

(1) النجوم الزاهرة (5/50) الدولة السلجوقية منذ قيامها ص 24 .

(2) الدولة السلجوقية منذ قيامها ص 24.

(3) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء للعظم ص 180.

(4) البداية والنهاية (628/15) ..

معركة دندانقان وقيام السلطنة السلجوقية

لم يهدأ السلاجقة بعد الهزيمة التي نالت منهم على يد الغزنويين فظلوا يتحينون الفرصة للثأر ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد وفاة السلطان محمود وتولية ابنه مسعود بمهام السلطنة عام 421 هـ، فأحرزوا انتصارات كبيرة على جيوشه، ومع ذلك عرضوا عليه الصلح والدخول في طاعته فقبل منهم، ومنح زعماءهم الإمارات والولايات، وكان سخياً جواداً معهم، ولكن في نفس الوقت دفعته المخاوف من ازدياد قوتهم إلى تكليف عامله على خراسان سنة 429 هـ بقتالهم فاقتتلوا قرب مدينة سرخس.

وتحول السلاجقة في نفس العام بقيادة زعيمهم ظفر بك نحو نيسابور حيث بسط نفوذه عليها وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي.

فاستثار هذا التصرف مسعود الذي زحف بجيوشه نحو خراسان واشتبك مع السلاجقة بمعركة حاسمة في مكان يعرف باسم دَندانقان، وكانت هذه المعركة إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي ونقطة النهاية لدولة الغزنويين حيث هزموا فيها هزيمة كبيرة، وكان ذلك عام 431 هـ، توفي بعدها بعام فقط أي في عام 432 السلطان مسعود، فخلفه ابنه مودود ولكن الغزنويين ضعفوا ضعفاً شديداً بعد خسارتهم لجيوشهم والعديد من ممتلكاتهم. وهزم مسعود نفسياً وعسكرياً فلم يقدم على أية مقاومة وانسحب تماماً إلى الهند. وانتهى اسم دولته بعد أن استولى الغوريون على أملاكها هناك سنة 582هـ.

بينما سجلت معركة دَندانقان بالنسبة للسلاجقة نقطة ميلاد لأكبر قوة في خراسان وتم تنصيب طغرل بك سلطاناً وتمت مبايعته. ثم ما لبث أن أرسل السلطان الأول للدولة السلجوقية رسائل إلى أمرائه المجاورين له يعلمهم بخبر انتصاره وتسلطه. وطاردت قواته الغزنويين المنهزمين إلى غاية شواطئ نهر جيحون لإجبارهم على الهرب إلى ما وراء النهر.

وتقاسم قادة السلاجقة الأرض، واستفرد كل قائد بمملكته وكان هدفهم الإحاطة بالسلطنة الغزنوية ومنعها من محاولة استعادة خراسان ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غز جدد.⁽¹⁾

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 30.

وساهمت الغنائم التي حصلوا عليها من معركة دندانقان لكثرتها في تمديد توسعهم، وكلما ازدادت قوتهم كلما التحقت بهم جيوشهم المتفرقة من أطراف خراسان وأضحت قوتهم مضرب الأمثال.

كل ذلك دفع الأخوين جفري بك وطغرل بك للاجتماع مع عمهما موسى بن سلجوق المعروف باسم بيغو وأبناء أعمامهم وكبار السلاجقة وقاداتهم، وتعاهدوا على الاتحاد معاً، يقول الراوندي: “ولقد سمعت أن طغرل بك أعطى لأخيه سهماً وقال له: اكسره. فتناول أخوه السهم وكسره في هوادة، ثم جمع له سهمين فكسرهما أيضاً في هوادة ثم أعطاه ثلاثة فكسرهما بصعوبة، فلما بلغ عدد السهام أربعة تعذر عليه كسرها، فقال له طغرل بك: إن مثلنا مثل ذلك فإذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع أحد أن يظفر بنا، فإذا نشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء وذهب الملك من أيدينا⁽¹⁾”.

وجدد السلاجقة العهد لطغرل بك كقائد أعلى لجيوشهم وسلطان لهم على دولتهم، مع أن أخاه جفري بك كان أكبر سنناً إلا أن طغرل بك تميز بشجاعته النادرة وقوة شخصيته مع تدين ملحوظ وذكاء حاد.

وباجتماع السلاجقة على زعامة طغرل بك، باشر مهامه السياسية والقيادية والإدارية لأول مرة في عام 429 هـ وسجل هذا التاريخ محطة البداية الفعلية لقيام الدولة السلجوقية في خراسان، واعترف به الخليفة العباسي في عام 432 هـ، وإن جاء الاعتراف متأخراً إلا أنه يبقى اعترافاً شكلياً كون الخلافة في ذلك الزمان كانت تعاني الضعف ولا تملك قوة مادية تسمح بفرض أي قرار، وهذا ما يجعل الخليفة يعترف بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة سواء أراد ذلك أو لم يردده فهو خاضع للأقوى⁽²⁾.

ومع تمكن السلطان السلجوقي توجهت أنظاره باتجاه العراق، وحاضرة الخلافة العباسية بغداد من جهة لبيسط نفوذ دولته وتوسعها، ومن جهة أخرى لإنقاذ الخلافة والمذهب السني من السيطرة البويهية الشيعية⁽³⁾.

(1) راحة الصدور ص 165 .

(2) المصدر نفسه ص 36 .

(3) المصدر نفسه ص 31 .

الدولة السلجوقية في عصر مؤسسها طغرل بك

هو السلطان أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق التركي الملقب بـ "طغرل بك"، وكان هذا السلطان طوق نجاة للخلافة العباسية، حيث عمل على تقوية نفوذ الدولة السلجوقية بشكل مبهر حتى رجحت بقوتها كفة أهل السنة وأعدت الاعتبار لخلافتهم.

وكان أساس قوتها ابتداء من الفتوحات التي شملت كلاً من خراسان وكرمان وأذربيجان وهمدان وجرجان. التي تقاسمها كبار السلاجقة بينهم، وكانت بلخ من أقوى مراكزهم في الشرق ونيسابور في الغرب ومن هذين المركزين أخذ نفوذهم في الانتشار والتوسع وقد اختار طغرل بك مدينة الري لتكون حاضرة ملكه.

ولعب تنظيم إدارة الدولة دوراً أساسياً في نجاحها وتوسعها، حيث تم تقسيمها بشكل أقاليم وعيّن على كل أقاليم حاكماً من البيت السلجوقي لقب باسم شاه وملك، في حين حمل السلطان الأكبر للدولة لقب سلطان. وعمد طغرل بك إلى إشباع حاجات الأمراء، فأعطى لكل رأس سلجوقي أرضاً وجيشاً ووزراء وحجاب ومساعدين. لكن هذا الخيار كان له تداعيات كارثية مع انهيار الدولة حيث تنازع الأمراء الملك واشتعل القتال بينهم.

وشهدت الدولة السلجوقية في عصر طغرل بك تكريماً كبيراً للعلماء وشيوخ الصوفية، وكان لذلك تأثير واضح على حضارة السلاجقة في كل أرض ملكوها.

ونجح طغرل بك في السيطرة على فارس والعراق حيث توجه إليهما على رأس جيش كبير في عام 433 هـ، فهزم الديلمة الذين كانوا يسيطرون آنذاك على معظم أجزاء بلاد فارس والعراق بسبب ضعفهم ونزاعهم الداخلي المستمر، فانتصر السلاجقة عليهم في جميع حروبهم معهم، وأنهوا حكمهم، وسيطروا على أملاكهم، ثم توجه طغرل بك إلى خوارزم ففتحها في عام 434 هـ، ثم سيطر على كل ما يجاورها وأصبح السلاجقة أكبر قوة في بلاد فارس وما وراء النهر.

وتوالى السيطرات السلجوقية فضموا الري إلى سلطانهم والتي تحولت إلى عاصمة لدولة طغرل بك. وخضعت مع هذا التمدد جميع الأقاليم الغربية من بلاد فارس، وأصبحت قزوين وأبهر وزنجان وهمدان وأذربيجان تحت سلطان الدولة السلجوقية. ومع فتح كرمان في عام 443 هـ، انتهت دولة الديلمة.

وبعد أن تمت للسلاجقة السيطرة على كامل بلاد فارس وأصبهان توجهت جيوشهم نحو الأناضول. وفي سنة 440 غزا إبراهيم ينال - أحد قادة السلاجقة - الروم وانتصر عليهم وغنم الكثير.

وتسجل الروايات التاريخية في عصر طغرل بك انتصارات كبيرة على الروم والأبخاز وأسر العديد من جنود الروم وحتى قاداتهم. كان منهم ملك الأبخاز الذي فدا نفسه بثلاثمائة ألف دينار وبهدايا قُدر ثمنها بمئة ألف ولكن لم يقبل ذلك منه⁽¹⁾ واستمر إبراهيم ينال يغزو تلك البلاد ويجمع غنائمها حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يوماً.

واستفادت كثيراً دولة السلاجقة من هذه الانتصارات فأضحت بعدها أكبر قوة في العالم الإسلامي وذلك في عام 447 هـ وكان السلاجقة حينها قد بسطوا حكمهم على بلاد فارس وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين، وتوغلوا داخل الأراضي البيزنطية وقاتلوا جيش الروم، فكانت هذه التطورات دفعة أمل كبيرة ورد اعتبار للعالم الإسلامي بعد امتهان الروم للخلافة العباسية الضعيفة.

وبفضل جهود السلاجقة، تخلصت الخلافة العباسية من النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق ومن النفوذ العبيدي في مصر والشام. حيث استطاع طغرل بك إسقاط الدولة البويهية عام 447 هـ، في بغداد، وأن يقضي على الفتن، كما أزال من على أبواب المساجد سب الصحابة وقتل شيخ الروافض أبا عبد الله الجلاب. وتزامن قضاء السلاجقة التام على البويهيين التصدي للعبيديين.

وبعد هذه الانتصارات والإنجازات دخل طغرل بك بغداد واستقبل استقبالاً عظيماً وخلع عليه الخليفة خلعة سنوية وأجلسه إلى جواره وأغدق عليه ألقاب التعظيم. ونقش اسمه على العملة وذكر اسمه في الخطبة في المساجد، وهكذا حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على أمر بغداد وتسيير الخليفة العباسي بحسب إرادتهم.

وتم توطيد العلاقات بين السلاجقة والعباسيين بشكل أكبر حيث تزوج الخليفة القائم بأمر الله من أرسلان خاتون خديجة ابنة داوود جفري بك، أخ طغرل بك، بينما تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسي وكان قد تألم حين طلبها منه، واستعفى فلم يعف، فزوجه بها لكن السلطان السلجوقي ما لبث أن توفي في شهر رمضان (455هـ، 1063م). ولم يترك خلفه ولداً.

(1) الكامل في التاريخ نقلا عن الدولة السلجوقية ص 141.

وكان طغرل بك عاقلاً حليماً كثير الاحتمال شديد الكتمان للسر محافظاً على الصلوات والصوم، مواظباً على لبس البياض وبلغ عمره يوم موته سبعين سنة وكان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً، ويقول:

"أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني بجانبها مسجداً".

الدولة السلجوقية في عصر القائد البطل ألب أرسلان

بعد وفاة السلطان طغرل بك اجتمع الأمر على السلطان الكبير، والمملك العادل، أبو شجاع ألب أرسلان، محمد بن السلطان جغر بك داود ميكائيل بن سلجوق بن تفتاق ابن سلجوق التركماني، العززي، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم⁽¹⁾، ملك بعد عمه طغرل بك، فسار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً، شفوفاً على الرعية رقيقاً على الفقراء، باراً كثير الدعاء، كثير الصدقات، ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة، بل يقنع من الرعايا بالخراج في قسطين، رفقاً بهم.⁽²⁾

واعتمد ألب أرسلان في الوزارة على نظام الملك، وهو وزير صدق، أتقن عمله وأحسن إكرام العلماء والفقراء وساهم في حفظ وحدة الصف وإخماد الفتن بشكل مبهر.

وشهدت حقبة ألب أرسلان تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة وضمها إلى دولته.

وكان متلهفاً للجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام في داخل الدول النصرانية المجاورة له كبلاد الأرمن وبلاد الروم وفي الواقع، فقد كانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قادها ألب أرسلان فأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد في العالم الإسلامي وحريصاً على نصره دين الله ونشره في تلك الديار ونجح في رفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية.

وبقي السلطان ألب أرسلان 7 سنوات يتفقد أجزاء دولته المتزامية الأطراف قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما اطمأن على استتباب الأمن وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان

(1) سير أعلام النبلاء (414/18).

(2) البداية والنهاية (39/16).

الخاضعة له أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد النصرانية المجاورة لدولته. وإسقاط الخلافة العبيدية في مصر وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا فافتتحها وضمها إلى مملكته كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق.

وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها، صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة 414 هـ وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من العبيدي سنة 462 هـ، ثم أرسل قائد الترك أتسنسر بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس من العبيديين، ولم يتمكن من عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر وبذلك أضحى السلاجقة داخل بيت المقدس.

ومشى السلطان ألب أرسلان في استراتيجيته التي تعتمد على محورين، الأول: التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية، والثاني: طرد العبيديين من بلاد الشام وسد مكائهم ثم استرجاع مصر منهم. ولأجل ذلك قام بخطوات استباقية كان منها حفظ ظهره من تحالف البيزنطيين مع العبيديين وكان ذلك بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها. ثم بدأ مشروعه الثاني هجومه على العبيديين.

معركة ملاذكرد التاريخية

بعد أن توسع السلاجقة في الشام وتمكنوا في نفس الوقت من صد الهجمات البيزنطية، قام ألب أرسلان في عام 463 هـ بحملة كبيرة على الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوب أذربيجان واتجه غرباً لفتح بلاد الكرج والمناطق المطلة على بلاد البيزنطيين، وانضم إليه وهو في مدينة مرند في أذربيجان أحد أمراء التركمان ويدعى طغتكين وكان خبيراً بالغزو في تلك المناطق، واجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس في طريقه إلى بلاد الكرج وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك، هاجمت حصوناً ومدناً بيزنطية، واستمرت فتوحاته الكبيرة في الأراضي الأرمينية.

فخضع لها ملك الكرج وسارع لمهادنة ألب أرسلان ومصالحته على دفع الجزية، وأصبح الطريق بعد ذلك مفتوحاً أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول، فتقدموا وسيطروا على دروب الأمانوس في عام

459هـ وهاجموا قيصرية حاضرة كبادوكية، في العالم التالي. واستمروا في تقدمهم إلى أن وصلوا نيكسار وعمورية في عام 461 هـ. وإلى قونية في العالم التالي وإلى خونية القريبة من ساحل بحر إيجه في عام 463 هـ. وهكذا فتح ألب أرسلان بلاد الكرج والقسم الأكبر من أرمينية، ليشكل تحدياً لبيزنطة التي دقت طبول الحرب.

فاجتمع ملوك الروم على حرب السلاجقة، وخرج ملك الروم رومانوس في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، حتى قدر ذلك الجمع بثلاثمئة ألف جندي.

ومع أن جيش ألب أرسلان وكل من معه لم يتجاوزوا 15 ألف جندي، إلا أنه كان مستعداً للقاء الروم بعزيمة مبهرة وإقدام قتال. وقال مقولته الشهيرة في وقت لم يكن يمكنه استجلاب المدد من المناطق التابعة له:

أنا أحتسب عند الله نفسي وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي.

وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء وكان فيها عشرون ألفاً معظمهم من الروس، فأحرز المسلمون عليهم انتصاراً عظيماً وتمكنوا من أسر معظم قوادهم.⁽¹⁾

واجتمع الجمع في يوم الخميس 25 ذي القعدة 463هـ، للمعركة الفاصلة فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان ألب أرسلان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع. وقال لهم: “نحن مع القوم تحت الناقص، وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً فما هاهنا سلطان بأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني، ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة أو الغنيمة ومن مضى

(1) المنتظم (261/8).

حقت عليه النار والفضيحة” ، فقالوا : “مهما فعلت تبعنك فيه وأعناك عليه⁽¹⁾” ، فبادر ولبس
البياض وتحنط استعداداً للموت وقال: “إن قُتلت فهذا كفي⁽²⁾”

وانطلق القتال بين الطرفين فنزل ألب أرسلان عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وأظهر الخضوع والبكاء لله
تعالى وأكثر من الدعاء ثم ركب فرسه وانغمس في الأعداء.

ففتح الله عليه فتحاً ميبيناً وقتل السلاجقة من الروم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم جموعاً كبيرة، كان على
رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان المسلمين فأحضر ذليلاً إلى السلطان.⁽³⁾

وقد قبل فيه السلطان الفداء، فاشتري نفسه بألف ألف دينار وخمس مئة ألف دينار، وإطلاق كل
أسير في بلاده، فأطلق سراحه وبعث معه عدة وأعطاه نفقة توصله، لكن الروم بعد هزيمة قائدهم
ملّكوا آخر، وهو ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس، وكان مصير رومانوس المنهزم الاعتقال
وسمل عينيه.

ولم يكن النصر في ملاذكرد نصراً عسكرياً فحسب بل كان بمثابة دعوة للإسلام، حيث انتشر
السلاجقة في آسيا الصغرى عقب المعركة، وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على 400 ألف كم
لتنيرها أنوار الإسلام لأول مرة.

وإن كانت معركة اليرموك ونتائجها قررت مصير بلاد الشام فقد قررت معركة ملاذكرد مصير آسيا
الوسطى.

وقضت المعركة التي تعد أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس هجري،
قضت على التحالف البيزنطي العبيدي.

وسجل التاريخ غزو ألب أرسلان بلاد الروم مرتين فافتتح قلاعاً وأرعب الملوك ثم سار إلى أصبهان
ومنها إلى كرمان وذهب إلى شيراز ثم عاد إلى خراسان وكاد يتملك مصر.

(1) المنتظم (262/8) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص 199.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الفتوح الإسلامية ص 199 .

(3) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص 199.

لكن قدر هذا الفاتح المسلم العظيم كان أن يلقي ربه قريباً بعد نصره في ملاذكرد، فقد توفي الأسد الشجاع ألب أرسلان في 465 هـ بعد أن غدر به علج يقال له يوسف الخوارزمي كان معتقلاً بين يديه، فضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً فاستدعى وزيره نظام الملك وأوصى إليه وجعل ولده ملكشاه ولي عهده وكان عمر ألب أرسلان أربعون سنة. وترك من الأولاد ملكشاه وإياز وتكشي وبوري برس وأرسلان أرغون وسارة وعائشة وبناتاً أخرى وقيل توفي عن 41 سنة، ودفن عند والده بالري.

الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه بن ألب أرسلان

وانتقل حكم الدولة السلجوقية إلى يد ابن ألب أرسلان، ملكشاه، وهو السلطان الكبير أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان مُجَّد بن جغري بك السلجوقي التركي، ودبر دولته الوزير نظام الملك تحت وصية ألب أرسلان.

وكان ألب أرسلان والوزير نظام الملك قد أعدا ملكشاه إعداداً ملكياً ودرياه تدريباً سلطانياً، وعلماه من معين العلم، كما لم يكتف ألب أرسلان ونظام الملك بتدريبه نظرياً على العلوم العسكرية بل أنزلاه ميادين القتال حتى ألفها وتمرسها، ولقناه أصول الحكم وتدبير شؤون الرعايا بالممارسة وليس عن ظهر قلب فحكم ملكشاه بأمر رسمي من السلطان قبل أن يرث السلطنة.

وتولى ملكشاه السلطنة سنة 465 هـ، وعمره 18 سنة، وتتفق المصادر التاريخية جميعاً على أن نظام الملك الوزير كان له الفضل الأكبر في إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية والفكرية والعقائدية على الباطنية والفلاسفة في عصر ملكشاه، وذلك باهتمامه الكبير بالعلماء، ونشر المدارس النظامية في أرجاء الدولة السلجوقية، التي تعد مثلاً رائعاً يقتدى به في بناء الدول وصناعة الأجيال خاصة وأنها أخرجت للأمة كبار القادة منهم عماد الدين ونور الدين زنكي.

وعرف عصر ملكشاه نهضة علمية وعسكرية، فبرع في الحروب وارتفع العمران وانتشرت القناطر وظهرت معالم الحضارة الراقية في كل ربوع مملكته، وأسقط المكوس والضرائب. حتى عده أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف، ويرجع الفضل في ذلك لنشاط وحنكة وزيره نظام الملك.

وخطب المسلمون في عصره للسلاجقة من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن ومن حدود الصين إلى آخر الشام.

واهتم ملكشاه برعيته أيما اهتمام وأرسى قواعد الأمن والعدل بينهم، وكان يسمع احتياجاتهم بنفسه وإن بعدت المسافة، فقد كان يجوب أرض مملكته ليعاينها بنفسه ويرافقه في ذلك نظام الملك في جميع سفراته وجولاته وهو الذي يدبر الأمور له.

وفي عصر ملك شاه أكمل استراتيجية والده، فبعد أن ثبتت أركان ملكه واستتب الأمر له جميعاً، توجه طرفه إلى بلاد الشام فغزاهما، وقضى على الدولة العبيدية، وولى على هذه المنطقة أميراً سلجوقياً أخاه تاج الدولة تتش وولاه أيضاً ما يفتحه في تلك النواحي. وأصبح تتش بن السلطان ألب أرسلان يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، لكن بقيت المناطق الساحلية تدين بالطاعة للعبيديين.

وأرسل حملة للسيطرة على مصر والتي كانت بدورها تحت حكم العبيديين، فدخل أراضيها حتى وصل القاهرة وحاصرها، لكنه لم يتمكن من فتحها، ورجع إلى الشام.

وظهرت في زمان ملكشاه سلطنة سلاجقة الروم التي أسسها سليمان بن قتلмыш، الذي يعد بحق جد سلاطين آسيا الصغرى، وكانت سلطنته من بركات معركة ملاذكرد، استقرت في قونية وأقسرا وقيصرية وغيرها من المدن في آسيا الصغرى وكانت تحت سيادة ملكشاه، ومدينة نيقية عاصمة له.

كما توفي في عهد ملكشاه الخليفة القائم بأمر الله العباسي سنة 467 هـ واستلم الخلافة بعده المقتدي بالله، لكن علاقته مع ملكشاه تدهورت كثيراً، بسبب سوء الفهم بين المقتدي وزوجته خاتون ابنة السلطان ملكشاه، فأرجع الأخير ابنته إلى قصره في موكب عظيم من بغداد، وذلك بعد أن اشتكت له من زوجها الخليفة، ولكنها ما كادت تستريح في بيت والدها حتى فارقت الحياة في نفس السنة، فتمت التعزية بها في أصبهان وبغداد.

وتسبب موتها في إيغار صدر ملكشاه على المقتدي، فبدأ يضغط عليه ويذله وانتهى بطرده من بغداد، ولم يمهل ساعة للخروج منها ولولا تدخل وزير زوجة ملكشاه ترکان خاتون، تاج الملك أبي الغنائم لما حصل على 10 أيام ليرتب خروجه.

فلم يجد المقتدي إلا اللجوء إلى الله يدعوه ليل نهار أن يفرج كربه ويخرجه من هذا المأزق فكان يقضي ليله قياماً ونهاره صياماً في خشوع وتضرع، وقبل أن تنتهي العشرة أيام، خرج السلطان ملكشاه للصيد لكنه رجع مريضاً بشدة ووافته المنية. فكان موته نجاة للمقتدي الذي تخلص من عار محقق ومأساة واقعة، وكان قد وصل لدرجة ضعف لا يحسده عليها عدو.

وعموت ملكشاه في 15 شوال سنة 485 هـ - 1092م انقضى العصر الذهبي لدولة السلاجقة العظام وبدأ عهد الانقسامات السياسية والحروب بين ورثة العرش السلجوقي مما أدى إلى تشتيت صفوفهم وإضعاف سلطتهم.

وترك ملكشاه خلفه 4 أبناء ذكور من 3 زوجات، هم: بركياروق من زوجته زبيدة وكان أكبرهم، وابنيه الثاني والثالث، مُجَّد وسنجر من جاريتة المملوكة واسمها تاج الدين خاتون السفرية وابنه الرابع وهو أصغرهم، محمود، من زوجته ترکان خاتون، فضلاً عن بناته.

الحسن بن الصباح والدعوة النزارية الإسماعيلية الحشيشية

كان أحد أبرز التحديات التي واجهت الصعود السلجوقي، دعوة النزارية الإسماعيلية الحشيشية، أو ما يعرف بالباطنية، ورئيسها الحسن بن الصباح، وتعود جذورها إلى سنة 478 هـ، حيث توفي الخليفة العبيدي المستنصر دون أن يبايع لابنه الأكبر نزار رغم أنه أبدى رغبته في ذلك، وبويع بعده ابنه الأصغر المستعلي بالله، فانشقت بذلك الدعوة الإسماعيلية لشقين، النزارية والمستعلية، وكان الحسن بن الصباح الحميري قد نشأ بالري في بلاد فارس وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية العبيدية وزار مصر والتقى بالمستنصر.

وكان الحسن الصباح قد اتصل ببلاط ملكشاه قبل ذهابه لمصر، ثم هرب إلى الري بسبب انكشاف نشاطه مع الباطنية والعبيديين، وخرج إلى مصر ليحضر دروس عبد الملك بن عطاش في الباطنية ويقابل إمامهم المستنصر ويعلن الولاء له وأثناء مكوثه في مصر لأكثر من سنة مده المستنصر بالأموال وأمره بدعوة الناس إلى إمامته في بلاد العجم، وعزم على نشر دعوة المستنصر في فارس وخراسان وتكوين مجتمع إسماعيلي صرف.

وبالفعل، بعد أن رجع إلى فارس وبلغ أصفهان سنة 473 هـ، باشر دعوته السرية لكن نظام الملك ضيق عليه الخناق، فرحل إلى قزوین واستولى على قلعة الموت الحصينة فوق جبل الموت العالي بنواحي قزوین، وجعلها مقراً له ولجماعته فتوسعوا وأكثروا الفساد في البلاد.

وعمل الحسن الصباح على تحصين نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقاليم وعرة مثل أقاليم بحر قزوین وثبت مركزه في قلعة الموت سنة 483 هـ، وكان صاحب غدر وخيانة، فقد بث الرعب في قلوب الناس بالاغتيالات الغادرة.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن أهم ضحاياه كان الوزير نظام الملك الذي شدد على الدعوة النزارية وحاربها. مع أن عدداً من المؤرخين من أمثال ابن الجوزي والذهبي، قد أوردوا آراء أخرى تجعل عملية اغتيال الوزير مدبرة من السلطانة ترکان خاتون زوجة ملكشاه، حيث نصبت مكانه وزيرها تاج الملك لتستفرد بالحكم لصالح ابنها الصغير.

وسجل التاريخ غدر الحشاشين الباطنية، وقتلهم للخلفيتين العباسيين المسترشد والراشد وهددوا ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي من بين أمراء المسلمين.

لقد كان عمل الحسن الصباح على هدم العقيدة من الداخل وكل صفات الألوهية والتوحيد، ورفض السنة وتعاليم النبي -ﷺ- ونفي الفرائض بالاعتماد في ذلك على نظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس بتأثر واضح بالفلسفة اليونانية. فيخرج من يتبعهم من دين الله بالجملة. وقد شبهها بعض الباحثين بالماسونية في عصرنا الحاضر.

ورغم فساد دعوتهم إلا أن شدة تنظيم الساعين لها سمحت بنشر الحركة الإسماعيلية بشكل لم يسبق له مثيل وبقاؤها إلى اليوم يعود لتلك الجهود في الباطل.

لقد استغفل الباطنيون الناس بالشعوذة والمخاريق والتظاهر بالولاية والتأله.

يقول فيهم ابن الجوزي: "إن الثنوية والمجوس أرادوا إرجاع ممالكهم وإبطال الإسلام ولكنهم رأوا ضرورة إخفاء مقاصدهم بالتستر بالإسلام⁽¹⁾" فكانت فرقة ضلال وظلام وظلم.

(1) المنتظم (110/5).

محاولات السلاجقة للتصدي للباطنية

تراوحت سياسة ملكشاه مع الصباح بين المهادنة والمقاومة، فلما استولى الصباح على قلعة الموت في عام 483 هـ وأرسل أسراب فدائييه يفتكون بالأمنين بالاغتيلات، أرسل له السلطان السلجوقي الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان، وكان فقيهاً عالماً بالأصول لمناظرتهم، لكن دون جدوى، فتحول ملكشاه إلى السلاح، فأرسل الأمير أرسلان طاش سنة 485 هـ فحاصر القلعة ولكنه هزم، وفشلت محاولته في حصار قلعة أخرى لهم وهي "ديرة"، واستمر دجلهم في الانتشار أوساط الجهلة الأغرار.

وأرسل ملكشاه للصباح رسالة تهديد فكان رده أمام الرسول أن طلب من أحد الشباب قتل نفسه فأخرج سكيناً فقتل نفسه وسقط ميتاً، وقال لآخر ألق نفسك من هذا الموضع فرمى نفسه من رأس القلعة إلى الأرض، فتقطع، وقال للرسول هذا الجواب، وفي رواية قال: "أخبر سيدك أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم لي"، فعاد الرسول إلى السلطان فأخبره بما رأى فعجب من ذلك وترك كلامهم.

ويلاحظ أن ملكشاه لم يبذل في مقاومتهم جهداً يتناسب مع قوته ومكانته فلم يتوجه بنفسه مثلاً لحرهم كما فعل في مناسبات كثيرة عندما كان يتهدد دولته خطر من الأخطار كما أنه تجاهل نصائح وزيره نظام الملك عندما حذره من أخطار هذه الفئة، ولم يدم السلطان في الحياة كثيراً بعد استيلاء الحسن الصباح على القلعة، فبقي شر الأخير يؤرق حياة من خلفه من سلاطين.

من جانبه حاول الحسن الصباح التأثير في ملكشاه ولعله سبب رخوة يده عليه، حيث أرسل له رسالة حشوها الافتراء على بني العباس والطعن فيهم، وقد قال ابن الجوزي، ذكر عن ابن عقيل؛ "أن السلطان ملكشاه، كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنية، ثم تَنَصَّلَ من ذلك ورجع إلى الحق"⁽¹⁾، وتتجه الأحداث الأخيرة في حياة ملكشاه إلى أن هبته الخليفة والخلافة العباسية قد زالت من نفسه وأغلظ عليهم في آخر أيامه كما رأينا مع زوج ابنته الخليفة المقتدي بأمر الله.

(1) البداية والنهاية (133/16).

قيام دولة الإسماعيلية في إيران

تمكن الحسن الصباح من السيطرة على القلاع المجاورة لقلعة الموت حتى ضم لحكمه المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين برمتها، قلاعها وأرجاءها. والتي تبلغ نحو 60 قلعة، وسط أراضٍ صالحة للزراعة، ومصادر للمياه جميعها بالقرب من نهر شاهرود وفروعه وكانت بمثابة أول دولة للإسماعيلية في المناطق التي سيطر عليها الباطنية، إضافة إلى ولاية قهستان⁽¹⁾، المجاورة لخراسان منذ سنة 484هـ التي رغم بعدها النسبي عن مركزهم كانت تابعة للدولة، وظل حكامها المحليون يتبعون ملوك الإسماعيلية في الموت حتى قضى عليهم المغول.⁽²⁾

ويعتبر أهل السنة، الإسماعيلية بجميع فروعها من فاطمية "عبيدية" أو قرامطة أو نزارية "حشيشية" أو غيرها، من فرق الغلاة الباطنية لأنهم تطرفوا في العقيدة وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية، ألف العلماء الكتب التي تدحض ادعاءاتهم.

الوزير نظام الملك

شخصية نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي نموذج رائع لنجاح رجل في صناعة مجد أمة، فقد تمكن هذا الوزير الملهم من إعادة هبة الخلافة والدولة بذكاء وبصيرة، حيث قال أبو شامة في الروضتين عن آثار دولة السلاجقة ووزارة نظام الملك:

"فَلَمَّا مَلَكَ السَّلْجُوقِيَّةَ جَدَدُوا مِنْ هَيْبَةِ الْخُلَافَةِ مَا كَانَ قَدْ دَرَسَ، لَا سِيَّمَا فِي وَزَارَةِ نِظَامِ الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ أَعَادَ النَّامُوسَ وَالْهَيْبَةَ إِلَى أَحْسَنِ حَالَاتِهَا".

وشهد التاريخ لنظام الملك أنه كان أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس. وشرع في عمارة مدرسته النظامية ببغداد سنة 457هـ، وقال القزويني واصفاً حاله: "آثاره في بلاد الإسلام تثني عليه وعلى علو شأنه وينبئ عن غاية عدله وإحسانه ويكفي شهوداً لإحيائه السنن وإعلائه معالم العلم."

وضبط نظام الدين الحكم لما تولى ملكشاه السلطنة، حيث انفلت العسكر وفسطوا أيديهم على أموال الناس، وكان ملكشاه قد أوكل له المسؤولية الكاملة، وألقبه: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فنجح في

(1) هي الجبال التي بين هراة ونيسابور.

(2) دولة الإسماعيلية في إيران ص 97.

عمله بشكل أثلج الصدور. وعملت جهود نظام الدين المضنية في نشر العلم وتقدير أهله، وتيسيره لطالبيه، على رفع مرتبة العلم والعلماء والمكتبات.

وأما عن علمه فقال أبو شامة في حقه: "وَبَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا مَبْلَغًا عَظِيمًا لَمْ يَنْلِهِ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَالِمًا فَصِيحًا دِينًا خَيْرًا مَتَوَاضِعًا عَادِلًا يَجِبُ أَهْلَ الدِّينِ وَيَكْرَمُهُمْ وَيَجْزِلُ صِلَاتَهُمْ، وَكَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْهُ وَأَحْبَبَهُمْ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ، وَكَانَ يَنْظُرُهُمْ فِي الْمَحْفَلِ، وَيَبْحَثُ عَنْ غَوَامِضِ الْمَسَائِلِ، لِأَنَّهُ اشْتَغَلَ بِالْفَقْهِ فِي حَالِ حَدَاثَتِهِ مُدَّةً، وَأَمَّا صَدَقَاتُهُ وَوَقُوفُهُ فَلَا حَدَّ عَلَيْهَا وَمَدَارِسُهُ فِي الْعَالَمِ مَشْهُورَةٌ لَمْ يَخُلْ بِلَدٍ مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا حَتَّى جَزِيرَةَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ هَيْبٍ فِي زَاوِيَةِ مِنَ الْأَرْضِ لَا يُؤْبَهُ لَهَا بَنِي فِيهَا مَدْرَسَةٌ كَبِيرَةٌ حَسَنَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَعْرِفُ الْآنَ بِمَدْرَسَةِ رَضِيِّ الدِّينِ، وَأَعْمَالُهُ الْحُسْنَى وَصَنَائِعُهُ الْجَمِيلَةُ مَذْكُورَةٌ فِي التَّوَارِيخِ لَمْ يَسْبِقْهُ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ وَلَا أَذْرَكَهُ مِنْ كَانَ بَعْدَهُ."

وكان مجلسه عامراً بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح، وكان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن -لما تولاه-، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ.

ويذكر من أخلاقه أنه ما جلس قطاً إلا على وضوء، ولا تَوَضَّأَ إِلَّا وَتَنَفَّلَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَتْلُوهُ مُسْتَنَدًا، إِعْظَامًا لَهُ، وَيَسْتَصْحَبُ الْمُصْحَفَ مَعَهُ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ..، وَيَصُومُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَالْحَمِيسِ.

وكان نظام الملك يقول:

"كنت أتمنى أن يكون لي قرية ومسجد أتخلى فيه بطاعة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك قطعة من الأرض بشرها أقوت برفعها، وأتخلى في مسجد في جبل، ثم الآن أتمنى أن يكون لي رغيث كل يوم وأتعبد في مسجد".

قال عنه الذهبي: "الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير سعيد متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء، وإنشاء المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم وأدرّ على الطلبة الصلوات، وأملى الحديث، وبعد صيته تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكة على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه، وأشار إلى ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة

فيما بعد، ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر، والجزيرة.”

وتعتبر المدارس النظامية التي أنشأها وسهر على نجاحها نظام الملك، أحد أبرز معالم القوم للأمة المسلمة منذ عصر السلاجقة إلى صلاح الدين، فقد كانت تهدف إلى صناعة الرجال، علماً وخلقاً وكل ما ترتقي به النفوس والهمم.

لقد امتدت بركات هذه المدارس لأجيال لأن الإيمان هو القوة الهائلة والرافعة الكبرى لمقدرات الأمم ومستقبل الشعوب، ناهيك عن كونه القوة النفسية الكبرى التي تحيي القيم وثوابت الأخلاق في واقع الناس وحياتهم.

وقد عمل نظام الدين وفق مقولة أبي الحسن الماوردي: إنه «ليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر في وهيه أثر» وما كان يردده ابن خلدون: “الدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهزوم، وما لا حارس له فضائع.”

واهتم الوزير العبقري بالتنظيمات الإدارية حيث أشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية بشكل كبير، مستفيداً من فهمه ومعرفته بنظم الإدارة، حيث ألف كتاب “سياسة نامه” جمع فيه عصارة الآراء والنظريات الإدارية التي تعتبر أساساً لنظام الحكم وإدارة الدول والممالك.

كما كان شديد الحرص على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة وال دراويش وغيرهم يتنصمون الأخبار ويرسلونها للسلطان أولاً بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته.

وقد نجح نظام الملك في إحباط العديد من المؤامرات والفتن التي كانت تتربص بالدولة السلجوقية، وكان شوكة في حلوق المبتدعة والضالين، كما راقب العمال تحت حكمه حتى ينضبط الجميع بالنظام. وقد أشاد بفضله حتى من غير المسلمين مثل ول ديورانت في قصة الحضارة.

وعن وفاته فيروي أنه خرج مع السلطان ملكشاه في يوم العاشر من رمضان عام 485هـ، من أصبهان قاصداً بغداد، فاجتاز في بعض طريقه قرية بالقرب من نهاوند، وحان وقت الإفطار فصلى المغرب

وَجَلَسَ عَلَى السَّمَاطِ وَعِنْدَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَقَّهَاءِ وَالْقُرَّاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَوَائِجِ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ شَرَفَ الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلَهُ مِنْ أَرْضِ نَهَاوندِ وَأَخْبَارَ الْوُقُوعَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهِ بَيْنَ الْفَرَسِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَمَنْ اسْتَشْهَدَ هُنَاكَ مِنَ الْأَعْيَانِ وَيَقُولُ: "هَذَا الْمَوْضِعُ قُتِلَ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ زَمَنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ- فَطَوَّبِي لِمَنْ كَانَ مَعَهُمْ."

فلما أظفر بجاءه صبي ديلمى في هيئة مستغيث فلما أجابه نظام الملك، غدر الصبي به بضربة بسكين في فؤاده، وهرب ثم عثر عليه فقتل. وقيل أن عملية الاغتيال كانت من تدبير الحسن الصباح، وكنا أشرنا إلى أن ابن الجوزي والذهبي، قد أوردوا آراء تؤكد على أن مقتله كان بتدبير من زوجة ملكشاه ترکان خاتون.

وجاء السلطان ملكشاه عند نظام الملك فبكاه وهو يجود بنفسه حتى مات شهيداً بعد أن عاش حميداً. وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: "لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفو عن عني، وتشهد ومات". وحمل الوزير إلى أصفهان ودفن بها.

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه، وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد، منهم مقاتل بن عطية، قال:

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ لَوْلَا * بَيْمَةً صَاعَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ

عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الْأَيَّامُ قِيَمَتَهَا * فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدَفِ

تنازع ورثة ملكشاه الحكم بعد وفاته

بعد وفاة ملكشاه والتي سبقتها بقليل جداً (أقل من شهر) وفاة الوزير نظام الملك، فقدت الدولة السلجوقية أهم ركائزها فتفككت وبدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصالها خاصة مع الاقتتال على الملك الذي نشب بين أبناء السلطان وإخوته وأحفاده فضعفت سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها.

وكان أول انقسام كبير بعد وفاة ملكشاه، بين ابنه الأكبر بركياروق ابن زبيدة ابنة ياقوتي بن داود، وهي ابنة عم ملكشاه، وأخيه الأصغر محمود بن ترکان خاتون، وكان نظام الملك قبل وفاته قد رشح بركياروق لخلافة والده، وكان يبلغ من العمر آنذاك 13 سنة، وكان في أصفهان، لكن ترکان خاتون ورغم أن ابنها كان صغيراً جداً وعمره 4 سنوات كانت مصرة على أن يخلف والده ويحكم البلاد وكانوا في بغداد عقب موت السلطان في رحلة الصيد.

وكما كان في صف بركياروق أبناء نظام الملك وأنصاره، كان في صف مُجد أمه ووزيرها تاج الملك أبو الغنائم الذي خلف نظام الملك، واستطاعت ترکان خاتون بالاتفاق مع تاج الملك إخفاء نبأ موت السلطان ملكشاه حتى يتسنى لها ترتيب أمور البيعة لابنها محمود.

وبعد مبايعة الطفل محمود اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً جديداً للدولة السلجوقية تحت ضغط أمه وما كان يملك قدرة للاعتراض، وبايعه الجنود أيضاً حيث أن ترکان خاتون كانت قد مهدت مسبقاً لهذه المرحلة وأغدقت الأموال والعطايا عليهم، وكانت امرأة صاحبة عقل ودهاء، من نسل الملوك الترك، قد توغلت في دهاليز السياسة وإدارة الحكم، وقيل أنها من نسل أفراسياب.

ولأن محمود كان صغيراً ولا يمكنه الحكم فاشتراط الخليفة العباسي لذلك، أن تكون السلطنة لمحمود والخطبة له ولكن يتولى قيادة الجيوش وتديرها ورعاية البلاد، وأما تاج الملك فله جباية الأموال وترتيب العمال، ورغم رفض ترکان خاتون بداية تمكن أبو حامد الغزالي من إقناعها على مضم.

وحتى تضمن ترکان خاتون السلطنة لابنها، سجن بركياروق أخاه الأكبر إلا أن فرحتها لم تدم طويلاً حيث تمكن أنصاره من النظامية (نسبة لنظام الملك) من إخراجه من السجن ونصبوه سلطاناً على أصفهان نكاية فيها. وأصبحت دولة السلاجقة على سلطانين، محمود في بغداد، وبركياروق في أصفهان وبدأت مرحلة المنازعة.

وكان أول المنازعة من جهة ترکان خاتون حيث سارت في جيش مع ابنها وتاج الملك لقتال بركياروق، والتقى الجيشان في بروجود. في أواخر ذي الحجة 485 هـ، واشتعلت نيران الحرب، لكنه لم يكن في حسابان ترکان خاتون أن ينحاز جمع من العسكر لصف بركياروق أثناء المعركة، فهزمت وعادت مع ابنها إلى أصفهان، لكن بركياروق تابعهم وحاصروهم فاتفقوا على الصلح بشرط أن تدفع ترکان خاتون

خمسمائة ألف دينار لبركياروق وأن تكون بلاده أصفهان وجميع البلاد تحت حكمه كسلطان عليها ويترك بلاد فارس لها ولائها محمود.

ومع ذلك لم تهدأ شهوة الحكم في نفس ترکان خاتون، فحاولت في محرم 486هـ منازعة بركياروق بحرب جديدة لكنها هزمت مرة أخرى لدعم أبناء وأنصار نظام الملك لبركياروق وانحياز جماعة من الأمراء كانوا معها لصفه. فهُزم جيشها شر هزيمة وفرت هي إلى أصفهان بينما فر تاج الملك إلى نواحي بروجرد، لكن النظامية أمسكوا به فقتلوه، وفصلوا جسده أجزاءً، وحملت إلى بغداد إحدى أصابعه، في نفس العام 486هـ.

ثم توجه بركياروق مع أنصار نظام الملك إلى همدان فكون جيشاً قوياً ورجع به إلى أصفهان فدخلها وقضى على حكم ترکان وأنصارها. واتخذ بركياروق عز الملك الحسين بن نظام الملك وزيراً له مكافأة على تضحيات النظامية ودعمهم له.

ومما يجدر ذكره أن ترکان خاتون كانت قد وعدت خال بركياروق إسماعيل ياقوتي بالزواج منها مقابل أن يحارب بركياروق، وبالفعل قاد جيشه لمحاربة ابن أخته في رمضان 486هـ لكنه هزم هو الآخر وأسر بركياروق وقتله في نفس العام.

وجرت الأسباب ليكون الملك بيد بركياروق، فعاجلت المنية أخاه الصغير محمود، حيث أنه مرض وأصيب بالحمى والجدرى، ومات على إثر ذلك، وكذلك مرض بركياروق بالجدرى لكنه شفي منه.

وقوي أمر السلطان بركياروق وارتفع ذكره بين الأمصار، فاعترف به المقتدي بأمر الله سلطاناً للدولة السلجوقية في 14 محرم عام 487هـ ولقبه بركن الدين. وما لبث أن توفي المقتدي بأمر الله في ثاني يوم، أي 15 محرم، وخلفه ابنه وولي عهده أبو العباس أحمد المستظهر بالله، فاعترف بسلطان بركياروق أيضاً.

لكن التنزع على الملك استمر بعد ذلك حيث نازعه عمه تتش سنة 488هـ وكان والياً على دمشق وما جاورها في بلاد الشام، بأمر من ملكشاه إبان حكمه، ومن خطط تتش أنه نوى الزواج من ترکان خاتون والتعاون معها لإسقاط بركياروق، فراسلها لتلحق به لكنها توفيت في الطريق قبل أن تصل إليه، فنفرق عساكرها وانضم أكثرهم إلى بركياروق.

ومع ذلك استمر تتش لوحده في خطته وسيطر على عدد من الديار فاستثار غضب بركياروق الذي قاد جيشه وانضم إليه آق سنقر بجيشه أيضاً فهزم جيش تتش شر هزيمة، واستمر النزاع بينهما حتى قضى عليه بركياروق في نهاية عام 488هـ وقيل أنه قتل على يد أنصار آق سنقر براً لقسم الثأر منه.

ورغم مقتله بقيت البلاد تعاني من حروب كثيرة واقتتال بين صغار الأمراء، واشتعلت الدسائس في البيت السلجوقي في بغداد حتى قيض الله عماد الدين ونور الدين زنكي فوحدا هذه البلاد وأخضعها لسلطة واحدة.

وكان من هذه النزاعات تمكن عم بركياروق أرسلان أرغون، وكان في بغداد، من انتزاع بعض الديار وكانت قد استعصت عليه نيسابور لأن أهلها رفضوه فسار إلى مرو، وسيطر عليها، وتوسعت مملكته في بلخ وترمز ونيسابور وسائر خراسان وراسل بركياروق ووعدته أنه قد اكتفى ولن يتمدد.

وكان بركياروق آنذاك مشغولاً بأخيه محمود فسلم له شكلياً لكنه أرسل عمه الآخر بوري برس بن ألب أرسلان لقتال أرسلان أرغون في حدود خراسان، والتقى العسكران فانهزم أرسلان أرغون وعاد إلى بلخ، فاجتمعت له حشود كبيرة من التركمان، فسار إلى مرو وفتحها عنوة بعد ما خرب أسوارها وقتل الكثير من أهلها، وتوجه لقتاله بوري برس عند مرو لكنه انهزم وأسرته واعتقله أخوه أرسلان أرغون في ترمز، وتم قتله.

واستبد أرسلان أرغون في حكم خراسان فهدم كل حصن فيها وخرّب البلاد وظلم العباد، وكان أرسلان أرغون شديد الهيبة والظلم لغلماّنه، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، مما دفعهم إلى قتله في سنة 490هـ. وكان مقتله قبيل وصول جيش بركياروق وكان قد أرسله إلى خراسان لمحاربة عمه أرسلان أرغون فوجده قد قتل.

وعين بركياروق أخاه معز الدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه على خراسان، وكان سنجر على رأس الجيش فدانت له بلاد خراسان في عام 490هـ ثم وبقيت تحت حكم سنجر لمدة عشرين عاماً وكان والياً على بلاد ما وراء النهر فسمي ملك المشرق.

واستقر ملك السلطان بركياروق نسبياً حتى نشب الخلاف بينه وبين أخويه مُجّد وسنجر، وهو ما سنتناوله إلى غاية نهاية الدولة السلجوقية في الجزء الثاني بإذن الله.

ولابد أن التفكك الذي عرفته الدولة السلجوقية كان من أكبر العوامل التي نجحت بفضلها الحملة الصليبية الأولى على الشام، فلم تكن هناك قوة تردعها، وانشغل أهلها في التنزع، بينما نشط الشيعة في مصر، لذلك انتزع الصليبيون معظم بلاد الشام قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).⁽¹⁾

⁽¹⁾ المراجع: كتاب دولة السلاجقة وبرز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي للدكتور علي محمد الصلّائي. البداية والنهاية لابن كثير. الكامل في التاريخ لابن الأثير. موقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني. الفتوح الإسلامية عبر العصور. المنتظم. الدولة السلجوقية منذ قيامها. تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

نهضة السلاجقة العظمى: عوامل النهضة وأسباب السقوط

نواصل قصة البداية والنهاية لدولة السلاجقة العظمى، وتدافع الأحداث بعد وفاة ملكشاه بن ألب أرسلان ووزيره النجيب نظام الملك باتجاه اضطراب مملكة السلاجقة وتفككها .

النزاع بين بركياروق وأخويه مُحمَّد وسنجر



اندلع النزاع بين أبناء السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، بركياروق الأكبر وأخويه الأوسط مُحمَّد والأصغر سنجر، بعد أن استقر الحكم نسبياً في يد بركياروق، واستمر هذا النزاع لـ 5 سنوات منذ 492 إلى 497 هـ. تمكن خلالها مُحمَّد من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد سنة 492 هـ بموافقة الخليفة المستظهر العباسي.

وسنجر ومُحمَّد من أم واحدة وهي الجارية المملوكة لملكشاه، تاج الدين خاتون السفرية. فاصطف الأول مع الثاني ضد بركياروق. وانتهت الحرب بينهما بعقد الصلح بعد إدراكهما لعواقب هذا النزاع، يقول السيوطي: “إن الحروب لما تطاولت بينهما وعم الفساد وصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة،

والبلاد مخربة، والسلطنة مطموعاً فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قادرين دخل العقلاء بينهما في الصلح وكتبت العهود والإيمان والمواثيق⁽¹⁾.”

ولقد تقرر أن يبرم الصلح وفق جملة شروط وقواعد أرسل بها بركياروق إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله، فما كان من الخليفة إلا أن أجابه بقبولها وأمر بإقامة الخطبة لبركياروق كسلطان للسلاجقة سنة 497هـ⁽²⁾.

وعين السلطان بركياروق من جانبه أخاه سنجر والياً على خراسان، وكان الأخير صاحب هبة كبيرة وخبرة بفنون السلطنة والحكم في البلاد ولذلك استمر حكمه واحداً وستين عاماً، كان خلالها ملكاً على خراسان لمدة عشرين عاماً بأمر من أخيه بركياروق، ثم واحداً وأربعين عاماً سلطاناً للسلاجقة، ويعده المؤرخون آخر السلاجقة العظام وهو سادسهم.

وفاة السلطان بركياروق بن ملكشاه بن أرسلان

أصاب السلطان بركياروق مرض توفي على أثره بعد نحو عام فقط من تاريخ الصلح، أي في سنة 498هـ وذلك ببروجرد، ويقول ابن كثير فيمن توفي من الأعيان في هذا العام: “بركياروق بن ملكشاه ركن الدولة السلجوقي، خطب له ببغداد ستّ مرات وعزل عنها ست مرات وكان عمره يوم مات أربعاً وعشرون سنة وشهوراً وقام من بعده ولده ملكشاه، فلم يتم أمره بسبب منازعة عمه مُجّد له⁽³⁾.”

وقال الذهبي عنه: “وكان بركياروق شاباً شهماً شجاعاً لعباً، فيه كرم وحلم، وكان مدمناً، للخمر، تسلطن وهو حدث، له ثلاث عشرة سنة، فكانت دولته في نكد وحروب بينه وبين أخيه مُجّد، يطول شرحها وهي مذكورة في الحوادث... مات بعلّة السّل والبواسير، وكان في أواخر دولته قد توطّد ملكه وعظم شأنه ولما احتضر، عهد بالأمر من بعده لابنه ملكشاه بمشورة الأمراء، ففقدوا له، وهو ابن خمسة أعوام⁽⁴⁾.”

(1) تاريخ الخلفاء ص 283.

(2) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (4/41، 42).

(3) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.

(4) سير أعلام النبلاء (19/196).

ولم يسمح مُجد لابن أخيه ملكشاه بتولي الحكم لصغر سنه، فنازعه فيه حتى استقر له بعد ذلك مدة أكثر من ثلاثة عشر عاماً يقول في ذلك التنازع الذهبي: “عمت الفوضى في أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في بلاد الشام وأمام القوات الأخرى المعادية في جوف الدولة الإسلامية وأهمها الطائفة الإسماعيلية” (1).

وهكذا أعقب وفاة السلطان بركياروق انقسام شديد لسلطان الدولة السلجوقية بسبب مسألة التنازع على الملك، حيث أصبح كل جزء منها تابعاً لوالٍ مستقل، يقول الذهبي: “فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر، والأجزاء الشمالية تخضع لحكم أخيه مُجد وبلاد الشام تحت سيطرة أبناء تتش، وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلش وتفككت وحدة الدولة عما كانت عليه في عهد السلاجقة العظام” (2).

الدولة السلجوقية في عصر السلطان مُجد بن ملكشاه



نموذج من المدارس النظامية

(1) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.

(2) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.

بعد تعيين ملكشاه بن بركياروق سلطاناً بوصية والده واعتراف الخليفة العباسي بذلك، سارع السلطان مُجَّد بن ملكشاه إلى بغداد ودخلها من الجانب الغربي وخطب له في مساجد هذا الجانب، في نفس الوقت الذي كانت تقام فيه الخطبة باسم ابن أخيه في الجانب الشرقي وهكذا أصبح هناك سلطانان في وقت واحد.

لكن الأتابك أياز (أتابك ملكشاه الصغير) والوزير الصفي أبا المحاسن، اتفقا بعد ذلك على الصلح مع السلطان مُجَّد وتسليمه السلطنة، وطلبا العهد والأمان لملكشاه بن بركياروق ومن معهم فقبل السلطان مُجَّد منهم ذلك.

وقمت البيعة بالصُّلح على يد الفقيه إلكيا الهَرَّاسي مدرس النظامية، ليتجلى دور العلماء والفقهاء في أزمات الدولة الإسلامية وانخراطهم في قلبها للإصلاح وحفظ بنيتها.

وبذلك أصبح الملك غياث الدين أبو شجاع مُجَّد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، التركي السلجوقي، السلطان الوحيد للدولة السلجوقية دون منازع وخطب له في سنة 498هـ.

ويجدر بنا نقل رسالة الإمام أبي حامد الغزالي للسلطان مُجَّد عند توليه الحكم، حيث قال له فيها: “أعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا، ويفارقونها وإيمانهم سالم وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله⁽¹⁾. ليتجلى لنا مرة أخرى دور العلماء في توجيه السلاطين ونصيحتهم.

وتميز عصر مُجَّد بن ملكشاه بالتركيز على حرب الباطنية والإسماعيلية، حيث شن عليهم السلطان في عام 500هـ، هجمات مكنته من إبادة الكثير منهم وتعطيل نشاطهم. وكان مُجَّد بن ملكشاه أول سلطان سلجوقي يخرج لحرب الباطنية بنفسه.

ويلاحظ في عهد السلطان مُجَّد الإصرار على اقتلاع سم الإسماعيلية والباطنية بشكل لم يسبقه له أحد من سلاطين السلاجقة، الذين كانت الأولوية لديهم الحد من خطرهم فقط.

(¹) وفيات الأعيان (72/5 ، 73)

ومن أبرز إنجازاته في حرب الإسماعيلية والباطنية، تمكنه من أخذ قلعة أصبهان "شاه دز" في عام 500هـ وكانت من أخطر مراكزهم ومن أكثرها فساداً وأذية، وقتل زعيمهم الكبير أحمد بن عبد الملك بن عطاش بعد أن ملكها اثنتي عشرة سنة.

ثم حصاره لقلعة ألموت الحصينة، المركز الرئيسي لحسن الصباح، ومعناها عش النسر، وذلك منذ عام 505هـ، لمدة تزيد على ست سنوات بقيادة الأمير أنوشتكين شيركبر بعد أن استفحل بها فساد الباطنية الذين كانوا يقطعون الطريق وينهبون الأموال ويقتلون الناس ويفرضون الضرائب.

وقد نجح الأمير أنوشتكين شيركبر في أخذ عدة قلاع من الباطنية لكنه لم يكمل حصاره لقلعة ألموت، بعد أن كان الاستسلام قاب قوسين أو أدنى وذلك بسبب وفاة السلطان مُجَّد في عام 511هـ وإصرار الأمراء والجند على الرحيل بعد سماعهم هذا النبأ. وهكذا تبخر جهد حصار سنوات للقلعة. فاسترجع الباطنيون أنفاسهم وقويت شوكتهم من جديد.

ولم تكن حرب السلطان مُجَّد لهذه الطائفة سهلة وبسيطة فقد واجه الكثير من الغدر والمؤامرات والمكائد والشائعات التي حاولت صرفه عن هدفه في اقتلاعهم مما يعكس درجة تغلغل الباطنيين ومكرهم.

واستفادت الباطنية كثيراً من وفاة السلطان مُجَّد حيث استغل أتباع حسن الصباح الفرصة للنهوض والانتشار من جديد. خاصة مع انشغال السلاجقة في الصراع الذي أعقب وفاة السلطان مُجَّد بين ولده محمود وعمه سنجر.

وتمكن الباطنيون خلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت وفاة السلطان مُجَّد من تمديد نفوذهم إلى بلاد الشام، ومن الاستيلاء على بعض القلاع والحصون.⁽¹⁾

وتوفي مُجَّد بن ملكشاه، بعد سيرة من الصراع مع الباطنية، ويذكر من عدله أنه أبطل بيغداد الميكن والضرائب ومنع من استخدام يهودي أو نصراني، وكسا في نهار أربع مئة فقير، وقد كان كفاً مماليكه عن الظلم، ودخل يوماً إلى قُبة أبي حنيفة، وأغلق على نفسه يُصلي ويدعو، وقيل: إنه خَلَّف من

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 142.

الذهب العين أحد عشر ألف ألف دينار ومات معه في العام صاحب قسطنطينية، وصاحب القدس بغدوين لعنهما الله.⁽¹⁾

وقال أحمد القرماني عن آخر أيامه: “ثم مرض زماناً طويلاً فقيلاً له: مرضك سحري، وإنما سحرتك زوجتك، فأعضل داؤك وأبطل دواؤك! وحملوا السلطان إلى أن كحلها وحبسها في بيت ضيق، واعتقلها، وأخرجوا خاتم السلطان وقالوا إنه أمر بخنقها، ومن عجيب القدر أن الزوجين توفيا في ساعة واحدة، فالختون في بيتها خنقت، والسلطان على فراشه نفسه زهقت في أواخر سنة إحدى عشرة وخمسائة، وخلف خمس بنين، وهم محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان وسلجق⁽²⁾، وكلهم ورثوا السلطنة سوى سلجق. وتزوج الخليفة المقتفي بابنته فاطمة.

ومع أن محمود ورث والده السلطان محمد بشكل رسمي إلا أنه واقعياً كانت سيطرة البلاد آيلة بلا شك لعمه سنجر الذي كان والياً لخراسان.

الدولة السلجوقية في عهد أحمد سنجر

تمت مبايعة محمود بن محمد بن ملكشاه للسلطنة بعد وفاة والده وكان حينئذ في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة العباسي المستظهر بالله على إقامة الخطبة له ببغداد في سنة 512هـ.

لكن عمه سنجر لم يكن ليقبل بهذا الأمر، كونه اعتبر نفسه أحق منه بالسلطنة بعد وفاة أخيه محمد، فأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة وغير لقبه من ناصر الدين إلى معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وأدى ذلك إلى انقسام الدول السلجوقية واندلاع القتال بين سنجر وابن أخيه محمود وجمع كل منهما جيشه وقوته.

وبالفعل التقى الجمعان بالقرب من مدينة ساوة سنة 513هـ، واستعمل سنجر في هذه المعركة الفيلة فرجحت كفة النصر لصالحه، لكن مع ذلك أبرم اتفاق الصلح بين العم وابن أخيه، حيث أن محمود توجه إلى عمه سنجر، فأكرمه وصفح عنه وسامحه عما بدر منه، وعامله معاملة حسنة وقبل شفاعته

(1) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 19 صفحة 507.

(2) أخبار الدول وآثار الأول (458/2 ، 459).

في آخرين وقبل محمود كل شروط عمه، وأطاعه واحترمه، فقرر السلطان سنجر اختياره ولياً لعهد
ونائباً عنه في العراق سنة 513هـ، وسمح له بالتلقب بلقب سلطان.

وخطب للسلطان سنجر وابن أخيه السلطان محمود معاً في عام 514هـ، على أن يكون محمود تحت
حكم عمه سنجر الذي أعاد لابن أخيه كل ما كان تحت سلطانه ما عدا الري، وظل محمود يحكم
لمدة أربعة عشرة عاماً حتى توفي عام 525هـ وقال عنه ابن كثير:

"كان من خيار الملوك وكان فيه حلم وأناة وبر وصلابة وجلسوا لعزائه ثلاثة أيام، سامحه الله".

وكما جرت به العادة فقد أعلن الخليفة العباسي المسترشد بالله في سنة 513هـ سنجر سلطاناً أعظم
للسلاجقة وأقام الخطبة باسمه في كافة أقاليم الدولة السلجوقية، ومن جانبه أكرم السلطان سنجر بن
ملكشاه أبناء أخيه مُجَّد، فوزع عليهم حكم مدن وأقاليم إيران والعراق، وتمكن بفضل حنكته القيادية
وسياسته في الحكم من بسط نفوذه على كل أراضي ما وراء النهر حيث كان ينتقل بنفسه إلى أقاليم
هذه المنطقة للاطمئنان على أحوال سلطنته فيها.

وتمكن السلطان سنجر من إخضاع جميع حركات التمرد في دولته وتأليف قلوب من يطمع في الملك
من أسرته، مما أدى إلى استقرار الدولة السلجوقية في عصره، وبذلك استحق لقب سلطان جميع
الممالك السلجوقية.

وامتد نفوذه إلى سائر البلاد حتى يقال إن الخطبة له وصلت إلى كاشغر، وأقصى بلاد اليمن ومكة
والطائف ومكران وأذربيجان وغزنة وسمرقند، وخراسان وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وأصفهان،
وهمدان، والري، وآرنه، وآرمينية، وبغداد والعراقين، والموصل، وديار بكر، وديار ربيعة والشام والحرمين.

وضربت له السكة في جميع هذه الأقاليم، وبذلك تمكن السلطان سنجر من إعادة الهيبة والوحدة
والقوة للدولة السلجوقية ولكن لآخر مرة، فسجل عصره آخر حقبة لعصر السلاجقة العظام.

السلطان سنجر آخر السلاجقة العظام

هو معز الدين أحمد سنجر، واسمه أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن
ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، واسم سنجر يعني يطعن. وسمي سنجر لأنه ولد في مدينة سنجر على

عادة الأتراك آنذاك أن يسمى الوليد باسم مسقط رأسه. وقد ولد في سنجر عندما كان والده السلطان ملكشاه نازلاً فيها بعد اجتيازه لديار بني ربيعة متوجهاً إلى غزو بلاد الروم. وسنجر في الفارسية الطير الجارح.

واختلفوا في سنة ولادته رغم اتفاقهم على اليوم، فمنهم من قال إنها كانت في 25 من شهر رجب سنة 479 هـ، ومنهم من قال في سنة 477 هـ وقال البنداري في سنة 471 هـ، وقد توفي والده السلطان ملكشاه في سنة 485 هـ، لذلك فجميع الروايات التاريخية متفقة على أن سنجر كان صغيراً عند وفاة والده.

وكانت والدته امرأة فاضلة سالحة متدينة متصدقة وكثيراً ما كانت ترسل الجمال إلى طريق مكة وهي محملة بالصدقات لغرض توزيعها على الحجاج في موسم الحج. وقد تعرضت للأسر خلال الحرب التي اندلعت بين أبناء ملكشاه حول العرش، حيث أسرها بركياروق، وافتداها سنجر بما لديه من أسرى وفك أسرها.

وتزوج السلطان سنجر من تركان خاتون بنت أرسلان خان صاحب سمرقند، ولم يذكر له زوجة غيرها، وكانت تصاحب زوجها في جميع أسفاره وحروبه، مما عرضها للأسر مرتين، الأولى عند هزيمته في معركة قطوان سنة 536 هـ / 1141 م أمام القراخانيين الصينيين فافتداها بخمسائة ألف دينار. والمرة الثانية عندما أسرت مع زوجها السلطان على إثر هزيمته أمام الغز سنة 548 هـ / 1153 م.

ومما يذكره المؤرخون أن السلطان سنجر لم يحاول الهروب طول مدة أسره وفاءً لزوجته التي مكثت في أسرها ثلاث سنين حتى توفيت هناك سنة 551 هـ.

وكان السلطان سنجر باراً بأبناء إخوانه وأخواته، فبعد توليته محمود بن مُجَّد ولاية العهد، ثم توفي بعد ذلك، استخلف على خراسان ابن أخته محمود بن مُجَّد بن بغراخان، وهو على فراش الموت، واستدل المؤرخون بذلك على أن سنجر لم يكن له أبناء ذكور يوليهم السلطنة من بعده بينما أشارت المصادر إلى وجود بنات للسلطان إذ تزوج السلطان محمود بن مُجَّد من ماه ملك خاتون ابنة سنجر سنة 513 هـ / 1118 م. وكذلك تزوج الخليفة العباسي المسترشد بالله 512 هـ - 529 هـ من ابنة سنجر، سنة 518 هـ / 1124 م وبني لها داراً فاخرة على نهر دجلة.

وتشير بعض المصادر إلى أن لسنجر ابن واحد أُسر في معركة قطوان مع والدته سنة 536هـ/1142م ولم يظهر له أثر بعد ذلك.

تألق الدولة السلجوقية في زمن السلطان سنجر

ومع ما أُشيع عن سنجر بأنه كان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة، إلا أن فترة حكمه عرفت نجاحات مبهرة عسكرياً وثقافياً، وأصبح عصره من العصور المهمة في تاريخ الأدب الفارسي، بسبب تشجيعه للعلم والكتابة.

ويعد عصره أطول مدة لسلطان سلجوقي، يصفه اليزدي قائلاً:

"جلس على مسند العز والرفعة والقدرة منذ سن النشوء والنمو إلى عنوان عهد الصبا وقد أطاعه جبابرة العجم وأكاسرة العالم ودانوا بالطاعة والولاء".

وكان السلطان سنجر شديد الجود والكرم مع الرعية حتى لامه الكثير من خواصه وعاتبوه فقال: "أما رأيتموني أفتح إقليماً يشتمل على أضعاف ما وهبته من المال، وأهبه بكلمة واحدة لمن أراه قبل السؤال".

ولعل أبرز صفة اتسم بها السلطان سنجر بعد الحزم والقوة هي صفة الصفا عن خصومه فقد كان كثير الصفا والعفو عنهم وكانت شيمته الحلم كما عرف عنه طيلة حياته.

وقد يتكرر عفوهُ عدة مرات كما حصل مع خوارزم شاه أتسز صاحب إقليم خوارزم بعد كل تمرد يقوم به ضد سنجر رغم شدة خطورة هذه التمردات. فسبق عفو السلطان سيفه.

إخماده للفتن

لم يستتب الحكم لسنجر ولم تستقر دولته في زمانه حتى تمكن من إخماد جميع الفتن والتمردات التي كانت تهدد وحدة صفوف السلاجقة، فقد أخذ سنجر تمرد ابن عم أبيه الأمير مُحمَّد بن سليمان، ويعرف بأمر أميران، وتمرد صاحب سمرقند وما وراء النهر، واسمه قدر خان، وتمرد السلطان الغوري الحسين بن الحسين.

وفي سنة 526هـ خرج على سنجر ابنا أخيه سلجوق ومسعود في إيران فاقتتل الطرفان في الدينور في الأهواز وانتصر سنجر عليهما، فخضع مسعود لعمه واستسلم له، فعفا عنه وأعادته إلى مملكته الأولى.

ومن أبرز مواقفه ما روي عنه في سنة 512هـ حين جاءت إلى السلطان سنجر زوجة أخيه مُجَّد من أصبهان، فلقبها ببلخ فأكرمها، فقالت له: “أدرك ابن أخيك محمود وإلا تُلِف، فإن الأموال قد ترمقت، والبلاد قد أشرفت على الأخذ، وهو صبيٌّ وحوله من يلعب بالملك”. وكان وزير محمود قد أنفق في أربعة أشهر ما ورثه محمود في الخزائن عن والده.

فاستجاب لها سنجر وخرج في سنة 513هـ ليضبط الأمور فتمرد عليه ابن أخيه محمود بن مُجَّد وقاتله وكاد أن يهزم عمه، حتى استدرك الأخير نفسه وقاتل قتال موت فغلب جيش محمود، وانهمز الأخير إلى أصفهان لكن عفو سنجر سبق غضبه فصيح عنه وأعادته ملكاً وزوجه ابنته.

ورغم ما مر به من خطوب في سنواته الأخيرة نجح سنجر بعزيمته وسياسته في أن يستعيد شيئاً من مكانته وهيئته، وأن يدين له بالولاء أغلب ملوك خراسان، إلا أن الموت كان له بالمرصاد.

صراعه مع الباطنية

استمر صراع السلاجقة مع الباطنية طويلاً، ووقع سنجر في خطأ كبير بعد أن كاد يقضي عليهم وهو إبرام الصلح معهم، فقد طاردهم السلطان سنجر في عام 494هـ فقتل جنوده خلقاً كثيراً منهم، وحاصروا قلعة “طبس” ودمروا سورها وكانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط، ومع ذلك فإن أصحاب سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنهم مقابل ألا يبنوا حصناً ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعوا أحداً إلى مذهبهم¹.

وقد أثار هذا الصلح سخط كثير من الناس على سنجر، بسبب ما نالهم من إجرام الباطنية، ولأنهم أهل غدر ونكث، وهذا ما حدث بالفعل، ففي عام 498هـ خرج جمع كبير منهم من قلعة “طريثيت” قرب مدينة بيهق وأغاروا على النواحي المجاورة لهم، وأمعنوا القتل والنهب وسبي النساء ولم يقفوا على الهدنة المتقدمة⁽²⁾.

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 138 نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(2) دائرة المعارف الإسلامية (377/3) مادة إسماعيلية.

ويعتبر عام 498هـ نهاية المرحلة التي قاوم السلاجقة فيها نفوذ الباطنية مقاومة فيها الكثير من الحذر بسبب الخلافات في البيت السلجوقي التي تمكن خلالها الباطنيون من التسلل إلى المراكز الهامة في بلاط السلاطين، ومن أدلة ذلك موقف أحد قادة سنجر الذي أوكل له مهمة قتالهم، فقبل رشوتهم في عام 494هـ ورحل عنهم بعد أن حاصر قلعتهم وأوشكت على السقوط. كما عدّ قبول سنجر الصلح معهم تهاوناً في قتالهم.

وبقي حسن الصباح في قلعة ألموت الحصينة بقية حياته ولم يخرج منها مدة 35 سنة حتى وفاته. وأمضى وقته في القراءة ومراسلة الدعاة وتجهيز الخطط وكسب الأنصار والسيطرة على القلاع الجديدة.

وتوفي الصباح عام 518 هـ/1124م في قلعته، وكانت وفاته طبيعية، واختلفت المصادر عن مصير ذريته حيث تشير بعضها لقتله أولاده بنفسه في حياته، وخلفه بزرك أميد “برزجميد”، واستمر أتباعه في نفس ضلال الصباح، يفسدون في الأرض بانتظار الإمام المزعوم ليتولى شؤون الطائفة الإسماعيلية.

وكان حسن الصباح مفكراً وكاتباً وله نصان واحد عن قصة حياته والثاني في اللاهوت. وصفه ابن الأثير بأنه كان رجلاً حاد الذهن عالماً بالهندسة والحساب والفلك والسحر. وبقي حسن الصباح يحظى باحترام كبير عند الإسماعيليين باعتباره المحرك “للدعوة الجديدة”، أي النظرية الإسماعيلية المعدلة أو المسماة بالنزارية، وباعتباره ممثل الإمام المزعوم.

وقدمت الباطنية درساً مهماً للمسلمين في كيف يمكن لآلة الاغتيالات أن تفتك بالدولة الإسلامية والحركة العلمية، بالنظر إلى توقيتها ونوعية أهدافها. فقد استهدف الباطنيون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسة والفكر والجهاد في سبيل الله. ولم يتوانوا في التحالف مع الصليبيين وكل عدو في سبيل دعوتهم الضالة.

وكانت أغلب اغتالاتهم الغادرة تستهدف الهدف وهو صائم، أو في وقت تأدية صلاة الجمعة أو خلال مجلس للوعظ الديني والإفتاء في بيوت الله، فكانت شيمتهم الغدر.

معركة قَطْوَان

شكلت معركة قطوان بالقرب من سمرقند في الخامس من صفر من سنة 536 هـ/1141م نقطة النهاية لدولة السلاجقة العظام، حيث التقى الجيش السلجوقي بقيادة السلطان سنجر مع جيوش دولة قراخطاي الصينية الشمالية بقيادة الملك كو خان، وهزم الصينيون جيش سنجر وأسروه، وانتهت المعركة بمقتلة كبيرة في صفوف السلاجقة. وكان هذا الانتصار لاحقاً مشجعاً للمغول بقيادة جنكيز خان على غزو أواسط آسيا الإسلامية في سنة 616هـ.

وكانت هذه المعركة نتيجة طبيعية لتمدد دولة قراخطاي، حتى أصبحت متاخمة لحدود الدولة السلجوقية. وبعد هزيمة السلاجقة استمر حكم الصين على ما وراء النهر إلى سنة 612هـ حتى استرجعها منهم علاء الدين مُجَّد الخوارزمي.

وذكرت المصادر التاريخية الخلاف الذي وقع بين السلطان سنجر وسلطان خوارزم أنسز بن مُجَّد بن نوشتكين حيث هرع الأخير إلى الصينيين يطمّعهم في البلاد ويسهل عليهم أمرها، وتزوج منهم، وحرضهم على غزو دولة السلطان سنجر والاستيلاء عليها.

ومما يجدر تسجيله في هذه المعركة انضمام بعض القبائل التركية للملك الصيني كو خان في حربه لإخضاع أراضي السلاجقة، وتسمى هذه القبائل بالقارغلية.

ويرجع أصل كراهية هذه القبائل للسلطان سنجر، تلبية الأخير لنداء الاستغاثة من ملك سمرقند محمود خان في عام 431هـ، حين هاجمه كو خان. فخرج سنجر بجيشه وعبر إلى ما وراء النهر وهزم الملك الصيني في خجندة، كما هاجم القبائل التركية التي دانت بالولاء لكو خان، فهربت هذه القبائل من الجيش السلجوقي ولجأت للملك الصيني الذي طالب السلطان سنجر بالعفو عن الأتراك القارغلية، فكان رده الرفض ودعوة الملك الصيني للإسلام مع تشديد اللهجة في التهديد وهو ما عارضه وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك، ونصحه بعدم الوقوع فيه، حيث كتب سنجر مبالغاً في وصف مهارة جنوده في القتال: “وإنهم يشقون الشعر بسهامهم!”، فاستثار الخطاب كو خان الذي من شدة غضبه نتف حية الرسول السلجوقي ثم أعطاه إبرة، وطلب منه شق شعرة من لحيته فلم يقدر أن يفعل ذلك، فقال: كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بإبرة؟.

وجمع كو خان جنوده وقوته لقتال السلطان سنجر، وخرج بثلاث مئة ألف فارس وبالفعل التقى الجمعان في هضبة قَطْوَان شمالي سمرقند، وقاتل الملك الصيني بأسلوب المناورة بينما واجهه سنجر بالترتيب التقليدي للجيش بيمينه وميسرة، فتمكن الجيش الصيني من حصار جيش سنجر في أحد الوديان وأمعن فيه تقتيلاً، وقتل من جيش سنجر مئة ألف أو أكثر، وأسرت زوجته تركان خاتون وابنته، وقتل في المعركة عدد كبير من العلماء والفقهاء قيل إن عددهم حوالي 11 ألفاً.

وممن استشهد في هذه المعركة الإمام الفقيه أبو حفص حسام الدين ابن مازة، عمر بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري، وهو من أكابر الحنفية من أهل خراسان. وسجل التاريخ لأول مرة هزيمة مدوية لسنجر وانسحابه مع 15 من فرسانه الذين بقوا على قيد الحياة باتجاه ترمذ. وكان ممن ثبت مع سنجر في هذه المعركة ملك سجستان نصر بن خلف، الذي حكم لمدة ثمانين سنة وعاش إلى أن بلغ القرن من عمره، وقد أبلى البلاء الحسن في معركة قطوان.

وهكذا تتجلى لنا هذه المرة مسابقة أهل العلم في ساحات المعارك وتضحيتهم بالنفس والنفيس في سبيل نصره دولة الإسلام، فكان علمهم عملاً.

وبعد انتصاره بقي كو خان في سمرقند 90 يوماً، وعين عليها ملكاً مسلماً، ودانت له خوارزم وبخارى، وعدة مناطق وكانت سياسته غالباً إقرار كل ذي ملك على مملكته.

ورغم هزيمته سجل السلطان سنجر مواقف ثبات بطولية في معركة قطوان حيث إنه بقي واقفاً في عدد قليل تحت الراية لم يتراجع أو يضطرب. وترجع صفة الشجاعة التي يتصف بها السلطان سنجر إلى كونه تسلم قيادة الملك منذ أرسله أخوه بركياروق وهو في الحادية عشرة من عمره على رأس جيش لإخضاع عمه في خراسان.

لقد أظهر آخر سلطان للسلاجقة العظام مهارات كبيرة في حكم دولته المتراامية الأطراف لأكثر من ستين سنة على الرغم من صغر سنه حين توليه إمارة خراسان إذ لم يكن يتجاوز عمره 11 سنة.

يصف ابن خلكان السلطان سنجر قائلاً: “كان من أعظم الملوك همة. ومن مواقفه الشجاعة أنه كان يتحدث الموت عند خوضه المعارك الضارية وعد الموت حقيقة واقعة لا مفر منها إذ كان يقول: ومن يئس من حياته لا يفكر في العواقب، ربما ينال الظفر بما يدفع عن نفسه.”

ما بعد معركة قطوان

انتهمز إستر سلطان خوارزم الذي راسل الصينيين وأطمعهم في السلاجقة، هزيمة سنجر، فسار إلى خراسان للاستيلاء عليها فأخذ سرخس ثم مرو التي رفضه أهله فقاتلهم وقتل كثيراً منهم، ثم استولى على نيسابور، ثم بيهق.

ولم يقبل السلطان سنجر أن يقاتله خشية أن يشتت قواته فيطمع الصينيون في الاستيلاء على بقية البلاد المجاورة لجيوشهم.

لكن سنجر بقي يضمم الرد على إستر حتى عام 538هـ بعد أن تهيأت له الظروف لإعادة بسط سلطته على إقليم خوارزم، فهاجم إستر وحاصره وكاد أن يستولي على البلد لولا اختلاف بعض أمرائه. لكنه ورغم تمكنه من إستر قبل منه عرض الصلح وأعاده إلى مرو.

صراع السلطان سنجر مع الغز

واجه السلطان سنجر تحدياً كبيراً في عام 548هـ، بعد أن وقع أسيراً في أيدي الغز، وهم قبائل اليعقور المقيمون اليوم في إقليم سنكيانغ أو تركستان الشرقية في الصين، وكانوا قد أسلموا في أيام الخليفة العباسي المهدي، وانتقلوا إلى ما وراء النهر على صورة القبائل الرُّحل في طلب المرعى، ولهم تجارات إلى الهند والصين، وكانوا تحت سلطان الأمير قماج كبير أمراء سنجر وصاحب بلخ الذي تراجع عن قرار إجلاءهم عن أراضيه، وفي سنة 547هـ رجع قماج لقرار إجلائهم بعد خذلانهم له في حربه مع علاء الدين الغوري، لكنهم جمعوا قوتهم وقاتلوه حتى تمكنوا من هزيمته وأسره وابنه ثم قتلوهما. وأخذوا نواحي بلخ، وعاثوا في الأرض فساداً ونهباً.

وعندما بلغ مسامعهم عزم السلطان سنجر قتالهم راسلوه يعتذرون منه فرفض عذرهم، ورفض كل قرباتهم ومحاولاتهم لكنه عندما التقى بجمعهم لقي الهزيمة الكبيرة، ووقع أسيراً في أيديهم مع زوجته وجماعة من الأمراء. واستشهد في حربهم الفقيه مُجَّد بن يحيى.

ومن غريب ما حدث أن قتل الغز الأمراء جميعاً لكن أمراءهم اجتمعوا وقبلوا الأرض بين يدي السلطان سنجر، وقالوا: نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك، فقد علمنا أنك لا تريد قتالنا، وإنما جُمِلتَ عليه، فأنت السلطان ونحن العبيد!

وبعد مرور نحو 3 أشهر على هذه الحال، تأذى سنجر من استخفافهم واعتزل الملك، ودخل إلى خانقاه مرو مع الصوفية، فاستولى الغز على البلاد، ولكنهم أفسدوا وظلموا حتى ثارت عليهم نيسابور في رمضان سنة 548هـ فدمروها تدميراً وجعلوها قاعاً صفصفاً، وأبادوا أهلها ولم يفرقوا بين شيخ وطفل ولا عالم وعامة، ولم يسلم من فساد ونهب واعتداء الغز غير هرة ودهستان لأنها كانت حصينة فامتنعت.

وقتل الغز في نيسابور الإمام الشافعي أبا سعد محيي الدين النيسابوري، مُجَّد بن يحيى بن منصور، تلميذ الغزالي.

ولم يستمر وضع سنجر كذلك فقد تمكن من الفرار من الغز في سنة 551هـ بعد وفاة زوجته في الأسر، وذلك مع مجموعة من أمرائه هربوا من قبضة الغز، وسار سنجر إلى ترمذ فاستظهر بها وتوجه نحو خراسان ليجمع شتات ملكه الذي توزع بين أقاربه ومماليكه، فاستجاب له عدد من الأمراء والملوك، ولكن أيامه لم تطل وتوفي السلطان سنجر في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة 552هـ/ 1157م عن عمر يناهز 72 سنة، بعد أن أصابه القولنج والإسهال. ودفن في مرو عاصمة ملكه في قبة بناها لنفسه أثناء حياته سماها دار الآخرة وكان قد نقش على خاتمه عبارة "توكلت على الله".

ولما وصل خبر وفاته إلى بغداد قطعت عنه الخطبة، ولم يجلس له أحدٌ في العزاء وكان ذلك دلالة على أفول نجم السلاجقة وذهاب هيبتهم وانحيار قوتهم، وبالمقابل عادت الهيبة والقوة للخلافة العباسية في زمن الخليفة المقتفي لأمر الله حيث دارت فصول تفاصيل كثيرة بعد وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة 547هـ وبناء الجيش العباسي من جديد، يقول ابن الأثير: الخليفة المقتفي: هو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حيث تحكم المماليك على الخلفاء⁽¹⁾.

(1) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 254.

لكن الخلافة العباسية استقوت في وقت حاصرها فيه خطران، الأول من الشرق، وهو الحركة الباطنية عسكرياً وفكرياً، والثاني من الغرب، وهو الحركة الصليبية التي استهدفت الشرق وبيت المقدس.

وجاء ذلك في أسوأ وقت للأمة الإسلامية مع انهيار السلاجقة في التنزع وتربص العبيديين. إلا أن قدراً آخر كان ينتظر هذه الأمة، واستعمالاً لأبنائها الزنكيين، الذين تهيأت لهم الظروف للصعود وسد الثغور وحمل راية الإسلام خفاقة.

وصال السلطان سنجر بنور الدين زنكي

لقد بذل السلطان سنجر جهده في حماية ثغور الإسلام والمسلمين وجمع أسباب القوة لتوحيد صفوفهم وقد نجح في ذلك حتى بعد محنته في الأسر، وكان طبيعياً أن يثمن جهود قائد مسلم أعلن الجهاد على أعداء الإسلام في ثغر من ثغوره، فمن المواقف النبيلة التي سجلت للسلطان سنجر، وكانت دليلاً على صدق جهاده، مراسلته للقائد المسلم الكبير، نور الدين زنكي في دمشق، في أواخر صفر من سنة 552هـ، حيث أرسل له رسالة وعده فيها بتقديم المساعدة له في جهاده ضد الصليبيين، ومن جميل ما خطه في تلك الرسالة تعبيره عن شوقه إلى الاجتماع بنور الدين، وسروره بما يصله من أخبار جميل أفعاله، وفرح نور الدين بذلك كثيراً وأمر بزينة دمشق وقلعتها، فجللت أسوارها بالجواشن، والدروع، والتروس، والسيوف، والأعلام.

وكان مما تناولته رسالة السلطان سنجر التي أدى بها واجب الولاء للمؤمنين، ذكره لما منّ الله به عليه من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك تركمان، بحيلة دبرها، وسياسة أحكمها وقَرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه⁽¹⁾.

وهكذا انعكس مشهد للتواصي بالحق والتواصي بالصبر والوحدة بين قادة المسلمين المجاهدين في ذلك العصر فكانت لهذا المشهد بركات ألفت بظلالها على فتح بيت المقدس.

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (359/1، 360).

الدولة السلجوقية بعد السلطان سنجر

لقد زال سلطان السلاجقة في فارس بوفاة آخر سلاطينهم الأقوياء وهو السلطان سنجر بينما استولى على أكثر مملكته خوارزم شاه أُنسز بن مُجَّد بن نوشتكين ومات أُنسز قبل سنجر⁽¹⁾.

وانتهز الخليفة العباسي مرحلة الانهيار التي عرفتها الدولة السلجوقية، فاستعان بعلاء الدين تكش خوارزم شاه ضد السلطان طغرل، أحد ورثة العرش السلجوقي بعد وفاة السلطان سنجر، وذلك مقابل إقطاعه كل البلاد التي كانت لا تزال تحت نفوذ السلاجقة⁽²⁾.

وخرج بالفعل خوارزمشاه على رأس جيشه لقتال السلطان طغرل، واقتتل الطرفان قريباً من الري، في عام 590هـ وانحزم الجيش السلجوقي وقتل السلطان طغرل⁽³⁾، وزالت بهذه الهزيمة الدولة السلجوقية⁽⁴⁾، وقد كانت هزيمة الخوارزميين للسلاجقة سهلة بسبب درجة الضعف التي نالت من الجيش السلجوقي.

وانتهى بصعود الخوارزميين نفوذ سلاجقة خراسان وكرمان والعراق، وكان حينها حكم سلاجقة الشام قد زال قبل ذلك بمدة طويلة، أما سلاجقة الروم فقد استمروا حتى القرن الثامن الهجري توارث حكمهم السلاطين السلاجقة وكانت لهم إنجازات وآثار تستوجب تأليفاً منفرداً، كان منها دعمهم لقبائل الأتراك في الأناضول في عصر الغازي أرطغرل بن سليمان شاه والتي كانت القاعدة الأساسية لقيام الدولة العثمانية لاحقاً، لكن دولة السلاجقة الروم انتهت باكتساح المغول لها، وبسقوطها انتهى تماماً عصر الدولة السلجوقية التي كانت إحدى أقوى دول المشرق في التاريخ.

ومع أن الخلافة العباسية تخلصت من البويهيين بالسلاجقة ثم بالخوارزميين من السلاجقة، فقد دب الخلاف بين العباسيين والخوارزميين أيضاً، ولم ينته إلا بقضاء المغول على كليهما تبعاً⁽⁵⁾.

(1) سير أعلام النبلاء (365/20).

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن نظام الوزارة في الدول العباسية ص 67.

(3) دولة آل سلجوق ص 277 – 278.

(4) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 67.

(5) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 60.

دور النساء في حكم السلاجقة

كنا أشرنا لدور تركان خاتون زوجة ملكشاه بن ألب أرسلان في الاقتتال الذي أعقب وفاة زوجها السلطان، لدرجة أنها أخفت خبر مقتله ولم تظهر أي حزن عليه وانشغلت بالإعداد لابنها الصغير الذي يبلغ من العمر 4 سنوات فقط لتولي الحكم. وقاتلت بجيشها السلطان بركياروق بن ملكشاه، حتى منيت بالهزيمة أمامه ورغم محاولاتها للنيل منه والتحالف مع أعدائه، عاجلها الموت فتفرق جمعها وأنصارها والتحقوا بخصمها بركياروق. وقد ذكر التاريخ الكثير من دهائها وتدخلها في الحكم حتى حسب لها الخليفة العباسي حساباً في خطباته وذكر المؤرخون ضعف ملكشاه أمامها، فلم يكن يرفض لها طلباً ويسمح لها بالتدخل في حكمه.

وفي الرسالة التي أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بأمر الله إليها سنة 477 هـ، شكرها على تدخلها لصالحه عند السلطان ملكشاه، وقال: "واختتمه بشكر الدار العالية.. وإيضاحها للمجلس السامي السلطاني ما على الخواطر الكريمة الإمامية من الثقل لِمَا استمرَّ في حقِّ الرعيَّة والخواص والحاشية". ويقول الأصفهاني في وصفه لتركان خاتون: "كانت مستوليةً في أيَّام ملك شاه". وقال عنها الحسيني: "كانت مستوليةً على الأمور في أيَّام السلطان ملكشاه". وكذا ذكرها الذهبي، فقال عنها:

"وكان لها هيبَةٌ وصولَةٌ وأمرٌ مطاع، ويعود هذا النفوذ الكبير لها والمكانة العالية من نشأتها وتربيتها وأصولها الملكيَّة؛ فهي من سلالة ملوك القراخانيين حكَّام ما وراء النهر وعاصمتهم سمرقند."

وكذلك كانت زوجة السلطان طغرل بك عم ألب أرسلان، كما يقول ابن تغري بردي: "صاحبة رأي وتدبير وحزم وعزم وكان زوجها السلطان طغرل بك سامعاً لها ومطيعاً، والأمور مردودة إلى عقلها، وكانت تسير بالعساكر وتنجده وتقاتل أعداءه"¹، فقد سارت نجدة لزوجها السلطان طغرل بك في صراعه مع أخيه إبراهيم ينال متخطية آراء المعارضين لها في هذا العمل العسكري.⁽²⁾

(1) النجوم الزاهرة (101/5)

(2) تاريخ بغداد (400/9 ، 401).

ومن مظاهر انحراط المرأة السلجوقية في الحكم، تكليف السلطان ألب أرسلان قبل معركة ملاذكرد سنة 463هـ زوجته بالمسير مع الوزير نظام الملك لإيصال أُنُقَال الجيش إلى همدان⁽¹⁾.

وكانت المرأة السلجوقية في بعض الحالات تمتلك قوة ونفوذاً، كما ظهر عندما صادر الوزير السلجوقي نظام الملك أموال كوهر خاتون عمّة السلطان السلجوقي ملكشاه فحاولت التحرك بجمع الجيوش لقتال الوزير الذي أشار على السلطان بقتلها وقتلها سنة 476هـ، وقضى بذلك على حركتها⁽²⁾.

كذلك لعبت زبيدة خاتون زوجة ملكشاه الثانية ووالدة ابنه الأكبر بركياروق دوراً لا يقل أهمية عن دور تركان خاتون، وكانت سبباً في تحبط ابنها فقد أجبرته على عزل وزيره مؤيد الملك الذي اشتهر بكفاءته وخبرته وأمرته بتنصيب أبي الفتح المظفر فخر الملك مكانه ولم يكن بكفاءة وزيره مؤيد الملك. واحتجت لعزله بكونها لا ترتاح إليه. وفي الواقع كانت غايتها تنصيب من تتحكم فيه وتثق ولاءه لها.

فكان نتيجة ذلك تحالف الوزير مؤيد الملك مع رجالات العراق وهمذان وأصفهان ضد بركياروق، وتحريضه مُحمّد بن ملكشاه للخروج عن طاعة أخيه السلطان بركياروق، وأعقب هذا التدبير، نشوب القتال الذي استمر لمدة خمس سنوات بين الأخوين، وبعد أن وصل أمرهما للصالح انتقم الوزير مؤيد الملك من زبيدة خاتون، فحبسها في قلعة ثم خنقها وقتلها في عام 492هـ - 1099م. وكان آنذاك وزيراً للسلطان مُحمّد. وتقول المصادر التاريخية أن زبيدة كانت مستولية على دولة ابنها لا يصدر شيءٌ صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا برأيها.

كما تزوجت السلجوقيات من الخلفاء العباسيين، كما كان حال خاتون بنت ملكشاه الثانية زوجة المستظهر، ففي سنة 502هـ تزوج المستظهر خاتون بنت ملكشاه، وقد لعبت دوراً مهماً في الأحداث الكبرى يقول عنها ابن الساعي: "كانت رئيسة جليلة من أعقل النساء، وأشدهن حزمًا وسداداً وأنشأت مدرسة بشارع سوق العسكر ووقفتها على أصحاب الإمام أبي حنيفة وليس في الدنيا مدرسة أكبر منها"⁽³⁾.

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن النظم الحربية ص 228.

(2) النجوم الزاهرة (101/5).

(3) نساء الخلفاء ص 108، 109 الحضارة الإسلامية ص 175.

ومن النساء اللواتي كان لهن التأثير المباشر في وصول المستظهر إلى مركز الخلافة قهرمانة المقتدي التي كانت تتمتع بنفوذ كبير فهي تنفذ مهام الدار العريضة كما ينفذ الوزير مهام الديوان العزيز، وحين قدمت الطبق للمقتدي مات فجأة، فأغلقت باب الحجره ووكلت بالباب من يجرسه وأرسلت إلى الوزير، وتعاهدت وإياه على تأمين مصلحة أصحابها وأصحابه، وعندما أكد لها ذلك قالت: أحسن الله عزاءك في أمير المؤمنين، فقد زمت أمر الدار، فزم أنت أمر البلد ثم أدخلته على ولي العهد المستظهر، وقرر معه موت المقتدي وخلافته بعده ومضى الوزير إلى السلطان وتدارس معه الأمر ثم عاد وأجلس المستظهر وأشاع موت المقتدي كل ذلك كان بتدبير القهرمانة⁽¹⁾.

ومن نساء السلاجقة البارزات نذكر والدة مُحمَّد وسنجر، خاتون السفرية التي كانت حظية ملكشاه ومن جوارية، وكانت متدينة، وتبعث حمال السبيل إلى طريق مكة ولما حصلت في الملك بحثت عن أهلها وأمها وأخواتها حتى عرفت مكاهم ثم بذلت الأموال لمن يأتيها بهم، فلما وصلوا إليها ودخلت أمها كانت قد فارقتها منذ أربعين سنة، فجلست البنت بين جوارٍ يقاربنها في الشبه حتى تنظر هل تعرفها أم لا، فلما سمعت الأم صوتها نهضت إليها فقبلتها وأسلمت الأم، فلما توفيت خاتون قعد لها السلطان محمود في العزاء.⁽²⁾

وكما كان هناك ذكر للنساء في ميدان الحكم والسلطنة كان هناك ذكر لهن في ميدان العلم والزهد والوعظ، فقد ظهرت العديد من النساء السلجوقيات الرائدات في العلم مثل دلال بنت أبي الفضل مُحمَّد بن عبد العزيز بن المهدي ورابعة بنت أبي الحكم ابن أبي عبد الله الخيري والحرائية وبنت الجنيد وبنت الغراد وقد تتلمذ عليهن في الزهد أبو الوفاء علي بن عقيل وهو فريد دهره وإمام عصره، وبنت الغراد كانت منقطعة إلى قعر بيتها لم تصعد قط ولها كلام في الورع⁽³⁾.

وكان منهن فاطمة بنت عبد الله الخيري الفرضي والسيدة فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن فضلويه الرازي⁽⁴⁾ وكلهن من أهل العلم والدعوة.

(1) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 176.

(2) المنتظم (7/10 ، 8 ، 88).

(3) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 177.

(4) المنتظم (212/9 ، 229) الحضارة الإسلامية ص 177.

الديوان الخاتوني

ومما يثير الاهتمام أن الخواتين السلجوقيات كن يملكن جهازاً إدارياً يعرف بالديوان الخاتوني، أو الدار العالية أو العريضة، ولدى كل واحدة منهن وزير ونائبه وعمال حيث أضيف لقب الخاتوني إلى أسماء من يعمل في هذا الديوان.

ويتلخص دور موظفي الديوان الخاتوني في الإشراف على أملاك الخاتون، والإنفاق على الموظفين واستقبال الرسائل والردّ عليها بدلاً عن الخاتون، كذلك استقبال المبعوثين للخاتون وإرسال مبعوثين إلى من تريد الخاتون. وكانت خواتين السلاجقة يمتلكن ثروات وإقطاعات كبيرة جداً.

أسباب سقوط الدولة السلجوقية

لقد جعل الله أسباباً لكل دولة لتقوم وأخرى لتسقط، وكذلك لم تخرج الدولة السلجوقية عن هذه القاعدة، فقد سقطت كما سقطت الكثير من الدول رغم تربعها على ذروة النجاح في فترة سبقت. وكان أكثر ما أضعف الدولة السلجوقية التنازع على الملك والافتتال الذي وصل لحمل السلاح ومواجهة الجيوش بين الورثة.

كما شهدت الدولة تدخل النساء في شؤون الحكم وتصرفهن بجشع وحب للسلطة، كما كان من أسباب سقوطها عجز السلاجقة عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق، وكذا تعرض الدولة للمكر الباطني الخبيث وحمولات الاغتيالات والتصفية للعلماء والقادة والسلاطين ثم انتهاز الصليبيين فرصة الضعف السلجوقي وشنهم لحماتهم الصليبية.

ومع ذلك فإن الدولة السلجوقية قدمت القاعدة الأولى لتوحيد المشرق الإسلامي لاحقاً على يد صلاح الدين الأيوبي.

ويكفي السلاجقة شرفاً بناءهم لدولة إسلامية ومؤسسات ساهمت بشكل كبير في صناعة حضارة متأققة وحفظ سلطان أهل السنة وتأمين صعودهم، وكان على رأس إنجازاتها: ازدهار المدارس النظامية التي خرجت قادة وعلماء رفعوا راية العلم والجهاد لعصور تلت، ونشاط الحركة العلمية في عصرهم، واستلامها راية الجهاد التي حفظت قوة الدولة لقرون، كما ردت عدوان الرافضة والباطنيين والصليبيين.

لقد شكلت الدولة السلجوقية مصدر إلهام للكثير من الدول التي جاءت بعدها، ويقول ابن الأثير أن ديوان زنكي كان يشبه إلى حد كبير دواوين السلاجقة في نظمه من كثرة الحاشية وجمال الزينة ونفاذ الأمر.

وقد ورث الزنكيون النظم العسكرية من السلاجقة، فكان عماد الدين زنكي، يستعين بنفس تنظيمات السلاجقة الإدارية من تنظيمات الجيش والديوان الخاص بطعامهم ومرتباتهم وأسلحتهم، وغيرها من فنون الإدارة.

ومن تدبر في سيرة السلاجقة وجد أن امتلاك القوة والتنظيم والقدرة على إخماد الفتن والعناية بأهل العلم والتعليم كانت الأسباب الأساسية لصعود الدولة وأن التنازع والاختلال الداخلي ومكر الباطنية في وقت يترصد به الصليبيون بالمسلمين كانت أهم أسباب سقوطها.

ونُخرج من نهاية قصة دولة السلاجقة بدرس عظيم في قيادة العلماء واقتحامهم جميع مجالات الصراع لقد كان دوراً عظيماً قام به العلماء الذين قاتلوا بالقلم والسيوف ولم يزالوا يحرصون الأمة ويعبؤون الجيوش وينصحون السلطان ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم. فشهدنا العلماء في ميدان التعليم ونشر العلم والدعوة، وفي ميدان القضاء وعقد الصلح وحل الأزمات، وفي ميدان نصيح السلطان وتقويمه، وفي ميدان القتال على مقدمة الجيوش وفي عداد الشهداء، وذلك هو الدور المناط بأهل العلم لترتفع بينهم وتضحياتهم الدول الإسلامية.

وختاماً (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وإنما جعل القصص للتدبر واستخلاص العبر، فطوبى لمن أدرك أسرار بداية ونهاية الإنسان والدول⁽¹⁾.

(1) المراجع: الصلابي علي مُجد، دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي - ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن مُجد بن أبي الكرم الشيباني الكامل في التاريخ - المجلد التاسع. د. مُجد عبد العظيم يوسف أبو النصر. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ابن الجوزي البغدادي. تاريخ العراق في العصر السلجوقي - د. حسين أمين - بغداد - مطبعة الأرشاد 1385 هـ/1965م. قصة السلاجقة من الظهور إلى الزوال، قصة الإسلام. كتاب الأميرات السلجوقيات ودورهن في الحياة السياسية والعسكرية السلجوقية حتى سنة 500 هـ

المؤسس عثمان بن أرطغرل وبزوغ الدولة العثمانيين

في يوم من أيام سنة 656 هـ، الموافقة لسنة 1258م، استيقظت الأمة الإسلامية على فجيحة سقوط بغداد، حاضرة الخلافة العباسية ومقتل آخر خليفة عباسي "المستعصم بالله"، وأصبحت القلوب بالصدمة، والألسنة بالذهول؛ فعجزت عن وصف هول المجازر والجرائم التي سطرها التتار المغول السفاحون في المنطقة، حيث اكتسح اللون الأحمر المشهد، وقُتل أكثر من مليون شخص، وتغير لون النهر لحجم الدم المسفوك وحجم حبر الكتب المهذورة، وهدمت معالم حضارة بزغت لعقود بشكل لم يسبق له مثيل. فتفشى شعور اليأس بين المسلمين وتحطمت الآمال في محنة التتار. لكن القدر كان يجنبى لهذه الأمة - بمشيئة الله - صناعة مجد عجيب؛ ففي الجانب الآخر من الخريطة حيث كانت قبيلة قايي التركية المسلمة تحتضن مولودها الجديد في نفس هذا اليوم الكارثي، في خيمة زعيم القبيلة الغازي أرطغرل بن سليمان شاه. وزوجته حليلة خاتون. سماه والده باسم عثمان خان، تيمناً باسم الخليفة الثالث وأحد المبشرين العشرة بالجنة: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولم يكن يعلم أرطغرل يومئذ أن أصغر أبنائه سناً، عثمان، سيقترن اسمه بقيامة دولة إسلامية مترامية الأطراف تعيد للخلافة التي اندثرت في بغداد أمجادها، وتسجل أحد أروع سير بناء الدول في تاريخ المسلمين، وتنال شرف فتح القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين سنة 1453م، كما نبأنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما سيحدث انعطافة تاريخية عالمية بنهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة بحسب المؤرخين. دولة يدوم ملكها لـ 6 قرون متواصلة، تترامى أطرافها شمالاً وغرباً في أوروبا، وتملك بلاد القرم ومحيط البحر الأسود وبلاد القفقاس وأوروبا الشرقية وبلاد البلقان، وتصل إلى وسط النمسا وشمال إيطاليا، فكانت أول دولة مسلمة في التاريخ الأوربي تصل بجيوشها الحرارة إلى قلب أوروبا. وتعطف جنوباً لتملك الشام والعراق، والحجاز واليمن، ثم وسط شمال إفريقيا وأكثر جزر البحر الأبيض المتوسط، وتستلم مفاتيح مصر وتستلم معها مقاليد الخلافة من آخر الخلفاء الرمزيين لبني العباس الذين كانوا في القاهرة في كنف دولة المماليك سنة 922 هـ، وتزدان بتاريخ ماجد جمع شتات المسلمين تحت رايتها، راية الجهاد التي شقت الأرض دفعاً وطلباً في مواجهة دول وممالك أوروبا التي ورثت راية الروم بعد سقوط القسطنطينية.

ولا شك أن أرطغرل الذي تمّرس فنون الفروسية وشهدت له الأرض بمسيرة جهاد مبهرة وفتوحات مثيرة أورث ابنه أسرار النجاح والوصايا النيرة التي فعلت مفعولها في مستقبله، كما ورثها من والده سليمان شاه الذي قضى نجه غرقاً أثناء عبوره نهر الفرات بحصانه؛ فأفلحت تربيته وبارك الله في نسله عقوداً متوالية.

وقبيلة قايي التركية الغزبية (الأوغوزية) التي يقال إنها تعود إلى يافث بن نوح، دفعها تقدم المغول في أوائل القرن الثالث عشر الميلاديّ إلى النزوح غرباً صوب الأناضول، حيث سكنت في منطقة تابعة لسلطنة السلاجقة، وحازت على دعم الدولة السلجوقية وسلطانها علاء الدين الذي أقطع أرطغرل مناطق كثيرة بعد أن حاز على ثقته بسبب شجاعته وحبّه للغزو والقتال.

وحين توفي أرطغرل عن عمر يناهز التسعين بمرض النقرس بعد سيرة حافلة بالفتوحات والانتصارات، كان قد أسس لقبيلته ولدولة السلاجقة مكانة قوية في المنطقة. وأورث هذه المكانة لابنه عثمان وهو في سن الرابعة والعشرين على الأرجح، نظراً لكفاءته وقدراته القيادية التي أظهرها خلال مرافقة أبيه في الحروب والغزوات وخلال مجالس القضاء والمشورات، فاستلم عثمان قيادة القبيلة واستمر على نهج أبيه، وحقق نجاحات مبهرة. وكذلك فعل خلفاؤه، فقد تابعوا الحملات التي بدأها عثمان إلى أواسط القرن السابع عشر الميلاديّ، لتتحول الإمارة التي وضع أسسها إلى إمبراطورية علمية كبرى.

فصول من مراحل بناء الدولة

وأشار عدد من المؤرخين إلى أن عثمان قد خاض معركة داخلية شرسة انتهت بضبطه السيطرة على مقاليد حكم قبيلته، وكانت هذه المعركة على العرش مع أقرب أقاربه، عمه "دوندار غازي". وفي هذا الشأن نقل قادر مصر أوغلو في كتابه "مأساة بني عثمان" عن المؤرخ التركي خير الله الهندي الذي عاصر عثمان بن أرطغرل، أن دوندار كان طرفاً في مؤامرة اتفق على تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة "بيله جك" البيزنطي، تستهدف اغتيال عثمان تمهيداً لوثوب دوندار إلى الزعامة خلفاً لعثمان، فلما انفضح أمر المؤامرة نفذ عثمان حكم الردة كأحد أحكام الشريعة الإسلامية في عمه جزاء جرمته في موالاته أعداء الإسلام والتآمر معهم ضد جماعة المسلمين فقتله.

ومن بين الروايات لكيفية استلام عثمان الحكم، تلك التي تشير إلى إعجاب السلطان السلجوقي علاء الدين بعثمان وبشجاعته وإقدامه، حتى قال عنه: “أنا أنتظر مثله منذ سنوات”، ثم نصبه زعيماً على قبيلته دون معارضة من أفرادها .

وبدوره قام عثمان بإثبات جدارته بالحكم، فانطلق في الغزو والفتوحات، فضمّ لدولة السلاجقة عام (688هـ=1289م) قلعة قره حصار (القلعة السوداء)، أو أفيون قره حصار؛ فسُرَّ علاء الدين بهذا كثيراً، ومنحه لقب (بك)، وأقطعته جميع الأراضي التي فتحها، وسمح له بضرب العملة ورفع اسمه في خطبة الجمعة. وكان أئمة المساجد يذكرون على المنابر أولاً اسم الخليفة العباسي في مصر، ثم الإخنان المقيم في تبريز، ثم السلطان السلجوقي في قونية، وأخيراً اسم الأمير المحلي عثمان.

نشأته

وُلد عُثمان يوم 8 صَفَر 656 هـ الموافق لـ 13 شُباط (فبراير) 1258م، وقيل في ليلة بدر في مدينة سُكود، التي اتخذها والده أرطغرل عاصمة لإمارته. ولا توجد الكثير من المصادر عن حياته الأولى، نظراً لكون أقدم مصدر معروف عنها كُتب بعد حوالي مائة سنة من وفاته. حيث قال المؤرخ التركي “يلماز أوزطونه”: “يرجع غموض المراحل الأولى من تاريخ العثمانيين حتى فتح القسطنطينية بعامه إلى عدم توفر المعلومات، فقد أحرق تيمورلنك الوثائق التركية عند إغارته على بورصة سنة 1402م (804هـ)، ولهذا فالوثائق الرسمية المتعلقة بالفترة من نشأة الدولة وحتى غارة تيمور قليلة جداً.

نشأ عُثمان نشأة فارس مسلم كما هي عادة فتیان قبائل التُرك المرتحلة، فأتقن فنون المصارعة والمبارزة بالسيف منذ صغره، واحترف ركوب الخيل والرمي بالنبال والصيد، وبرزت مهاراته أمام أقرانه، ورافق هذا الإعداد البدني إعدادٌ روحي، حيث تلقى عثمان تعليماً إسلامياً من مشايخ الصوفية الذين تأثر بهم في زمانه، وعلى رأسهم مُعلِّمه الشيخ “إده بالي” القرماني، الذي تتلمذ على يده بتوجيه من والده .

وكان للشيخ “إده بالي” مكانة كبيرة لدى أرطغرل، وتحدث الروايات التاريخية عن وصيته لابنه عثمان بضرورة احترام شيخه وملازمته والأخذ بنصائحه ومشورته، وهي الوصية التي بقي جزء صغير منها مكتوباً عند قبر أرطغرل جاء فيه: “انظر يا بني! يمكنك أن تؤذيني، ولكن لا تؤذ الشيخ” إده

بالي”! فهو النور لعشيرتنا، ولا يُخطئ ميزانه قدر درهم! كن ضدي ولا تكن ضده؛ فإنك لو كنت ضدي سأحزن وأتأذى، أما لو كنت ضده فإن عيني لن تنظر إليك. وإن نظرنا فلن تريك، إن كلماتي ليست من أجل الشيخ“ إده بالي”، بل هي من أجلك أنت، ولتعتبر مقالتي هذه وصية لك.”

سقوط الدولة السلجوقية وبزوغ نجم الدولة العثمانية

وفي سنة 1300م تقريباً الموافقة لسنة 699 هـ، أغارت قطعان المغول بطريقتها الوحشية على بلاد آسيا الصغرى واحتلت مدينة قونية. أما سلطان السلاجقة علاء الدين، ففر من عاصمته ودخل بلاد الروم، وتوفي فيها في نفس العام، وقيل قُتل. وقُتل أيضاً ابنه غياث الدين في مواجهة المغول، وسقطت بعد ذلك الدولة السلجوقية؛ مما تسبب في حالة من الفوضى والهرج والمرج.

في هذه الأثناء، كان عثمان الوجهة الأنسب لجنود الدولة السلجوقية الفارين من المغول بخبراتهم العسكرية، فاحتضنهم عثمان وازداد بهم قوة. وهكذا بعد الدولة السلجوقية التي دام سلطانها لأكثر من قرنين من الزمان وانتهت على يد المغول، بدأ بزوغ الدولة العثمانية يلمع ليسد فراغها.

وكان عثمان قد أدرك مسبقاً حساسية الظرف مع توالي هجمات المغول، وأحسن قراءة المستقبل كما هي عادته، فأعلن استقلال أراضيه عن الدولة السلجوقية قبيل سقوطها، والتفت حوله الجماهير لتصبح الإمارة الواعدة في المنطقة.

ومما زاد من أهمية الإنجاز التاريخي لعثمان موقع إمارته، التي كانت بالقرب من طريق الحرير الذي يربط المناطق الرومىة في الغرب بالمناطق التي يُسيطر عليها المغول في الشرق، فاستفاد عثمان بشكل رائع من الخصائص الاستراتيجية والاقتصادية التي تميزت بها إمارته.

وبكونها منطقة محاذية للمناطق البيزنطية التي لم تُفتح بعد، تحولت إمارة عثمان لقبلة للمسلمين من التركمان الطامعين في الغزو والجهاد، وال دراويش والآخرين. كما اعتُبرت ملاذاً للفلاحين الفارين من بطش المغول.

قصة زواج عثمان

يذكر أن عثمان كان يبيت في تكيّة معلّمه الشيخ "إده بالي"، التي ترعرع في ظلها منذ صغره في رحلة طلبه للعلم، وكان للشيخ ابنة اسمها "مال خاتون"، بينما تذكرها روايات أخرى باسم "بالا خاتون" أو "بالا رابعة خاتون"، وما أن رآها عثمان حتى تعلق بها ورغب بالزواج منها لجمالها وصلاحتها. لكن معلمه رفض هذا الزواج، وأصاب عثمان الحزن العميق لرفضه، ومع ذلك أظهر الصبر والجلد، ورفض الاقتران بغيرها حتى جاءه الفرج برؤيا رآها، دفعت والدها للتراجع وقبول زواجهما مستبشراً.

وتقول الروايات التاريخية إن عثمان قص على معلمه رؤياه حيث رأى الهلال سعد من صدر شيخه "إده بالي" وبعد أن صار بدرأ نزل في صدره (أي في صدر عثمان)، ثم خرجت من ضلبيه شجرة كالسراي نمت في الحال حتى غطت العالم بظلّها، واستقرت جبالاً ثلاثة تحتها، وخرجت أنهار النيل ودجلة والفُرات والطنون (الدانوب) من جذعها، ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف والرماح يُحوّنها الريح نحو مدينة القسطنطينيّة. وتحت الأغصان وقف صبيانٌ نصارى سُقر وعلى رؤوسهم ثلّ أبيض ينشدون الشهادة يتبعها عهد الولاء للسُّطان. وكان الخلق من حول هؤلاء الصبيان بلا عدد على شُطوط الأنهار وفي خلجانها، يشربون ويزرعون ويصطنعون الفساقى. وكانوا يتوالدون والخير يورف في ديارهم، دونما يكف الصبيان عن الاستظلال بغصون الشجرة والإنشاد.

فسرّ الشيخ "إده بالي" كثيراً بهذه الرؤيا وأظهر تفاؤله الكبير بها، وقيل بتزويج ابنته إلى عثمان، وبشره بأن أسرته ونسله سوف يحكمون العالم، وقال له واصفاً ما يكون عليه الحاكم الصالح: "عثمان الأول أي بُني! الآن أصبحت ملكاً! من الآن فصاعداً، نحنُ نغتاظ؛ وأنت تُسعد! لنا الشقاء؛ وعليك الهناء! لنا الاتهام؛ وعليك الاحتمال! نحنُ العاجزون الخطّائون؛ وأنت الصبور! نحنُ المتقاتلون؛ وأنتم العادلون! نحنُ الحاسدون النمامون المفترّون؛ وأنتم المتسامحون! أي بُني، من الآن فصاعداً، نحنُ نُشردم؛ وأنت تُوحّد! نحنُ نتكاسل؛ وأنت تُنذر وتدفع! أي بُني! الصّبر الصّبر، فالزهرة لا تفتح قبل أوانها. إيّاك والنسيان: ارع شعبك، وستزدهر دولتك! أي بُني! حملك ثقيل، وشأنك عسير، وسلطتك مُعلقة بشعرة! أعانك ربُّ العالمين!"

ويذكر أن عثمان أمهر ابنة الشيخ إده بالي قرية في منطقة "بيله جك"، حيث كان مقر التكية الخاصة بالدها.

وقفه مع أسرته

تزوَّج عُثمان ابنة الشيخ إده بالي حوالي سنة 1280م، فولدت له.

وتضاربت الروايات بشأن اسمها، حيث ذكرت مصادر أن اسمها “مال خاتون”، وذكرت أخرى أنها “رابعة بالا خاتون”، بينما رجَّح بعض المؤرخين أنه تزوج من امرأتين، إحداهما ابنة الوزير السلجوقي عمر عبد العزيز بك.

ويبدو الخلط واضحاً في المصادر التاريخية عند ذكر اسم زوجة عثمان وتاريخ زواجها ووفاتها، سواء عند ذكر اسم “مال خاتون” أو “رابعة بالا خاتون”؛ مما يجعل من الصعب الجزم بشأن زوجة عثمان هل كانت واحدة أو اثنتين.

أمَّا أولاده، فقد أنجب عُثمان ثمانية: سبعة أبناء وبنات واحدة، وهم: أورخان بك، وباظارلي بك، وچوبان بك، وحميد بك، وعلاء الدين باشا، ومالك بك، وصاووجي بك، وفاطمة خاتون.

البراعة السياسية

وأعقب محطة زواج عثمان بابنة الشيخ “إده بالي” ظهور عُثمان اللافت على الساحة السياسيَّة، واكتسابه لوصف زعيم الجهاد في المنطقة. واعتبرها بعض المؤرخين بالخطوة السياسية البارعة. إذ أنَّ الشيخ “إده بالي” كان قائداً للفرقة البابائيَّة المنسوبة إلى بابا إسحق الذي قاد ثورة ضد سلاجقة الروم مُنذ حوالي سنة 1239م، إلى أن قُبض عليه وشُنق سنة 1241م، وكان يملك نفوذاً وتأثيراً كبيرين في المنطقة.

لكن براعة عثمان لم تتوقف عند حسن اختياره لصهره، بل أيضاً في علاقاته مع جيرانه وتحالفاته المدروسة وتمكنه ببراعة أخرى من الدمج بين التقاليد التُركيَّة والإسلاميَّة والبيزنطيَّة وكسب قلوب الناس بحسن معاملتهم وإقامة العدل بينهم. ويذكر من هذه العلاقات، علاقة عثمان مع الآخيين، وهي من الجماعات المنظمة التي اشتهر أعضاؤها بالحرفة والتجارة ورفعوا شعار العدل ومنع الظلم واتباع الشريعة الإسلاميَّة والأخلاق الحميدة، والتدخل عسكرياً عند الحاجة له.

ومن هذه العلاقات كانت علاقة الصداقة بين عثمان و”كوسه ميخائيل” حاكم قرية هرمنكايا الرومي التي استفاد منها عثمان كثيراً .

حيث تذكر الروايات التاريخية أن عثمان تلقى تحذيراً من كوسه ميخائيل بأن مؤامرة سرية أُحيكت ضده من قبل صاحبي قلعتي “بيله جك” و”يار حصار” لقتله أو أسره، وقد وجهها له دعوة إلى حفل زفاف ولديهما في القلعة الأولى. وبعد أن علم بمكرهم عثمان، أرسل أربعين فارساً من فرسانه إلى الحفل مُتتكرين بأزياء النساء، وفي رواية أخرى بأزياء مساكين، وما أن دخل هؤلاء “بيله جك” حتى أشهروا السيوف وتمكنوا من أسر كافة المدعوين بمن فيهم العروسان، وفتحوا القلعة وسيطروا عليها .

وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن هذه الواقعة أسرت فيها ابنة تكفور، وتُدعى “هولوفيرا” فاصطفاها عثمان لابنه أورخان، وأصبح اسمها “نيلوفر خاتون”، وأنجبت -أول امرأة أجنبية في سلطان عثمان- ابناً أسموه مراد، ويقال ابنا آخر أسموه سليمان.

ومن هذه العلاقات أيضاً، تحالفه مع القبائل التركمانية القادمة إلى الأناضول، فاستفاد من نشاطهم وقوتهم. حيث كان الكثير من هؤلاء التركمان مُحارِبين محترفين، يتلهمون إلى الجهاد والغزو، وبينما استفاد عثمان من المتدينين منهم من جهة عهد، ومن جهة أخرى إلى الشيوخ والدراويش مهمة تربية من يفتقدون التربية الإسلامية لإشباعهم بالقيم التي تعظم من الغزو والفتوحات لزيادة رقعة دار الإسلام.

ومما صُنِفَ عبقريةً استراتيجيةً لعثمان، تركيز فتوحاته على البيزنطيين، مما أثر بشكل مباشر في الأوساط الرومية، بذراع صيته الذي كان يوازيه انتشارُ شعبيته في الأوساط الإسلامية.

وتحاشى عثمان أي صدام مع جيرانه من الإمارات المسلمة المجاورة لدولته، مثل إمارات القرمات ومنتشا وصاروخان وغيرها، رغم أنه كان يواجه تحدياً كبيراً من هذه الإمارات المتفرقة المستبدة التي شغلتهما الدنيا عن الجهاد ومقارعة الأعداء؛ ما أطمع فيهم المغول والصليبيين، وبدل أن يتحدوا مع عثمان وقفوا حجر عثرة أمام أي فرصة اتحاد، وشكلوا بذلك عبئاً ثقيلاً على حركة الفتح الإسلامي. ومع ذلك، تمكن عثمان بسياسة تفادي قتالهم من اجتذاب وتسخير جميع القوى المسلمة في حرب الروم.

براعة عثمان برزت كذلك في سياسة دولة استوحى نظامها من الدولة السلجوقية، والسعي في تحقيق أهدافه بعزيمة مبهرة ورؤية واضحة. يقول المؤرخ أحمد رفيق في موسوعته «التاريخ العام الكبير»: “كَانَ عُثْمَانُ مُتَدَبِّبًا لِلغَايَةِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ نَشْرَ الْإِسْلَامِ وَتَعْمِيمِهِ وَاجِبٌ مُقَدَّسٌ، وَكَانَ مَالِكًا لِفِكْرِ سِيَاسِيٍّ وَاسِعٍ مَبِينٍ، وَلَمْ يُؤَسِّسْ عُثْمَانُ دَوْلَتَهُ حُبًّا فِي السُّلْطَةِ وَإِنَّمَا حُبًّا فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ.”

ويقول المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر أوغلو: “لَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ بِنُ أَرطغرُل يُؤْمِنُ إِيمَانًا عَمِيقًا بِأَنَّ وَظِيفَتَهُ الْوَحِيدَةَ فِي الْحَيَاةِ هِيَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَقَدْ كَانَ مُنْدَفِعًا بِكُلِّ حَوَاسِهِ وَقَوَاهُ نَحْوَ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ.”

لقد كانت أهداف عثمان سامية وسياسته بصيرة ونفسه مترفعة عن سفاسف الدنيا، فمن الله عليه بالنجاح والتوفيق وإقامة دولة عليّة.

البراعة العسكرية

سعى عثمان بعد فتحه قلعتي “بيله جك” و”يار حصار” إلى القضاء على صاحب “إينه گول” الذي حالف عامل “قراجه حصار” على العثمانيين سابقاً؛ كي يحول دون إبرام أي تحالفٍ آخر بين بقايا الإمارات البيزنطية في الأناضول. وقاد جيشه “طورغود ألب”، فحاصر قلعة إينه گول، ثمّ التحق عثمان به وتمكّن من فتحها. وتقول بعض المصادر التاريخية إنّ عثمان منح هذه القلعة إلى طورغود ألب، ولذلك سُميت البلدة فيما بعد “طورغود” تيمناً بأول أميرٍ مسلمٍ عليها.

وعاش عثمان حالة عداة قصوى مع المغول، ويعتقد أن صراعه مع المغول والكرمانيين كان أشد في أوائل عهد الإمارة. إلا أن عثمان سدد ضربات قاصمة للقوات المغولية في منطقتهم، فجهّز جيشاً بقيادة ابنه أوركخان، وسيّره لقتال المغول قبل تحالفهم مع النصارى فأوقع بهم هزيمة كبيرة شتت شملهم وقتلت فكرة الاتحاد مع البيزنطيين في مهدها. فأحبط بذلك مكر الروم وتخطيطاتهم.

ومن المهم الإشارة إلى أن عثمان بعد أن رتب بيته الداخلي واستتب له الأمر، ونال شرف الفتوحات المتتالية للحصون والبلدات، أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يُخبرهم بين ثلاثة أمور: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. فأسلم بعضهم وفي مُقدمتهم صديقه “كوسه ميخائيل”، الذي أصبح من خاصة عثمان، وجاءت منه دُرَيْتَه المشهورة في التاريخ العثماني باسم عائلة “ميخائيل أوغلو.”

واستجاب بعض الروم بدفع الخراج والجزية والبعض الآخر بالقتال، وتبع ذلك تشكيل الأمراء البيزنطيين في كل من بورصة ومادانوس وأدرهنوس وكنه وكستله في سنة 700هـ الموافقة لسنة 1301م حلفاً صليبيًا لمُحاربة عُثمان والقضاء على إمارته، وحينها كان تخطيط عثمان للوصول إلى بورصة -أكثر المدن الروميّة تحصيناً وأهمية في الأناضول- واضحاً كهدف من أهدافه الطموحة.

وفي ربيع سنة 1302م، زحف الإمبراطور البيزنطي ميخائيل التاسع برجاله حتّى وصل جنوب منطقة مغنيسيا وهو يعتزم الاشتباك مع العثمانيين وطردهم من مناطق التُخوم، لكن العثمانيين تجنّبوا القتال المباشر مع البيزنطيين وأهكّوهم بالإغارة على البلدات والمواقع البيزنطيّة الصغيرة لينتزعوها الواحدة تلو الأخرى حتّى تمكنوا من تطويق الإمبراطور البيزنطي وعزلوه في مغنيسيا، فتنفك جيشه دون قتال، وانسحب أغلب الروم عائدين إلى القُسطنطينيّة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أسلوب عثمان في القتال، حيث كان يتعمد إنهاك عدوه ومحاصرة المدن والبلدات بشكل منفرد ليسيّطرها بعد عزلها وإضعافها، ثم بعد دخوله وضبط سيطرته يقيم فيها العدل ويحسن معاملة سكانها، مما يكسبه قبولاً وبقاءً حكام.

وقد دفع حراك الإمبراطور البيزنطي القُرى والبلدات الإسلاميّة الحُدوديّة إلى الالتفاف أكثر حول عُثمان؛ خاصة بعد ما أظهره من قدرات قياديّة وعسكريّة عالية ومعاملات إسلامية وقيم راقية، فتحولوا لدعامة قوية لدولة عثمان الأولى.

كما التحق بصفوف عثمان بعضُ القادة الروم الذين اختاروا العمل معه على أن يعودوا لبلادهم، وكان قسمٌ منهم من أسرى الحُرُوب المعتقين، وقسم آخر من المعتنقين للإسلام الجدد ممن أعجبوا بأخلاق عثمان ومبادئه فأقبلوا على الإسلام.

جاذبية مشروع عثمان لم تقف عند هذا الحد، بل جذبت أيضاً الكثير من الجماعات الإسلاميّة تحت لواء العثمانيين كجماعة "عُزاة الروم" أو "غزياروم" بالتركيّة، وهي جماعةٌ إسلاميّةٌ كانت تُرابط على حُدود الإمبراطوريّة البيزنطيّة وتصد هجماتهم عن المسلمين منذُ عهد الخليفة العباسي "المهدي بالله"، وقد أكسبتها هذه المرابطة خبرات فائقة في حرب الروم.

دون أن ننسى النواة الأولى لعثمان وهم رفاق دربه من قادة الآخية الفتيان الذين سارعوا إلى الانضمام إليه وملازمته خلال مسيرته الجهادية، ويذكر التاريخ منهم “الغازي عبد الرحمن”، و”أقچه خوجة”، و”قونور ألب”، و”طورغود ألب”، و”حسن ألب”، و”صالتوق ألب”، و”آيكود ألب”، و”آق تيمور”، و”قره مُرسل”، و”قره تكين”، و”صامصا چاويش”، و”الشيخ محمود”، وغيرهم من قادة الآخية وقُدامى المحاربين الذين خاضوا المعارك تحت قيادة عثمان، وحتى تحت قيادة والده أرطغرل.

وانضمَّ إلى صفوف عثمان أيضاً جماعة “حاجيات روم” أي “حجَّاج أرض الروم”، وهي جماعة معنيَّة بالعلم الشرعي وتفقيه المسلمين بأمور الدين، وكان لها هدفٌ جانبيّ يتمثَّل في معاونة المجاهدين، خصوصاً في القتال.

معركة بافيوس

بعدهما فشل حراك ميخائيل، أعاد والده الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني حشد جيوشه لقتال المسلمين؛ فأرسل سراياه بقيادة “جرجس موزالون”، فعبر بهم مضيق البوسفور حتى وصل سهل بافيوس على تُخوم المدينة.

وتقابل الجمعان في السهل يوم 1 ذو الحجة 701هـ، الموافق لـ 27 تمُّوز (يوليو) 1302م وكان العثمانيون قد حشدوا جيشاً بقيادة عثمان نفسه، وسُرعان ما التحم الجيشان وانكسر الخط الأمامي البيزنطي، وانهمزت مُقدمة الجيش، فتراجع موزالون بِجُنوده وسجَّل عثمان انتصاراً حاسماً.

فقد كان لهذه المعركة أثر بالغ في التاريخ الإسلامي عموماً والعثماني خصوصاً، إذا اعتبر الكثير من المؤرخين أن النصر العثماني في هذا اليوم يُشكِّل ولادة الدولة العثمانية الفعلية، كونها “منحت الإمارة العثمانية خصائص وسمات الدولة المستقلة الفعلية القابلة للحياة، وأثبتت لجيرانها إثباتاً قاطعاً بأنَّ جيوشها قادرة على الغزو وإحراق الهزيمة بأكبر الأعداء والتصدي لهم.”

كما أتاح هذا النصر لعثمان أن يُسيطر بعد حين على مدينتي إزنيق ونيقية، بالإضافة إلى مدينة بورصة الاستراتيجية لاحقاً.

اختار عثمان مدينة “بني شهر” عاصمة لإمارته، ثم ركز تحركاته العسكرية بعد ذلك في التوسع في اتجاهين اثنين: اتجاه إلى الشمال حتى نهر سقاريه باتجاه البحر الأسود، واتجاه إلى الجنوب الغربي باتجاه بحر مرمرة، وحقق أهدافه في كلا الاتجاهين حتى سنة 1308م، حيث نجح في عزل آخر مدينة بيزنطية استراتيجية في المنطقة، وهي بورصة التي تقع أسفل جبل أوليمبس (أولو طاغ).

وكانت بورصة محصنة تحصيناً جيداً، وتمكن البيزنطيون من الاستمرار في فتح طرق الاتصال الخاصة بهم مع البحر لتلقي حاجياتهم من الإمدادات من القسطنطينية، ما مكّنهم من الصمود طويلاً بعد سقوط المناطق المحيطة ببورصة في أيدي العثمانيين. ولكن سيطرة عثمان على مودانيا قطعت آخر اتصال بين بورصة والعالم الخارجي سنة 1321م الموافق لـ721هـ، واضطر المدافعون عنها لتقديم الجزية لعثمان لمدة 5 سنوات، ثم انتهت بالسقوط في نهاية 6 أبريل سنة 1326م (2 جمادى الأولى 726هـ) على يد الجيش العثماني الذي قاده أورخان بن عثمان، الخليفة الحقيقي في شؤون الحرب والسياسة لأبيه، الذي كان ينتظر خبر هذا الانتصار بشغف كبير وهو على فراش المرض.

وشكّل فتح بورصة بعد صبر كبير وجلدة من العثمانيين خطوة هامة لهم، فقد تغيرت أملاكهم من إمارة ذات تخوم بدوية إلى ولاية حقيقة بعاصمة وحدود وسكان مستقرين وقدرات لتكوين جيش منظم يسمح بحمايتها وقيادة مزيد من الفتوحات، وكانت خطوة كبيرة نحو الاستقلالية والاكتفاء.

واستسلم حاكم بورصة، أفرينوس، لجيش عثمان وسط حالة من الضعف الكبير الذي نحر في القصر البيزنطي المنهار، واعتنق الإسلام بعد ذلك، بل ودخل في خدمة الجيش العثماني، فمنحه عثمان لقب (بك)، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين، ودخل معه عدد من القواد الذين أعجبوا بالإسلام ويئسوا من دائرة الفشل البيزنطي الذي أنهكها الصراع على العرش. وقد سجل التاريخ لجوء المتصارعين على هذا العرش في بيزنطة للعثمانيين طلباً للمساعدة؛ ما أكسب دولة عثمان مكانة ثقيلة في المنطقة.

عوامل مساعدة وتأثير المماليك

ولا شك أن عوامل أخرى في خارطة العالم الإسلامي ساعدت عثمان على بسط سلطانه وتجاوز تحديات كبرى كتحدّي المغول، فقد كان المسلمون في عصر المماليك يقودون معارك ضارية ضد المغول ويواصلون قتالهم منذ معركة عين جالوت الفاصلة بقيادة السلطان سيف الدين قطز والظاهر بيبرس.

ومن المعارك التاريخية التي تسببت في انهيار إمبراطورية المغول، معركة مرج الصفر (شقحب) التي وقعت فصولها في 2 رمضان 702هـ الموافق لـ 20 نيسان (إبريل) 1303م بالقرب من دمشق في الشام. وكانت المعركة بين المماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام، والمغول بقيادة قتلغ شاه نويان (قطلو شاه) نائب وقائد محمود غازان إخان مغول فارس. وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، لتنتهي معها طموحات محمود غازان في السيطرة على الشام والتوسع في العالم الإسلامي. وشهدت المرحلة بعدها ضعفاً كبيراً للقوة الميدانية للمغول.

وملك عثمان بدوره الأرض، ووزع المناطق على أقاربه وقادة جيشه، فأعطى إسكي شهر لأخيه “كندز بك”، وقراجه حصار لابنه “أورخان”، ويار حصار لحسن ألب، وإينه گول لطورغود ألب.

واستتب الأمر في يد عثمان بشكل كامل بعد نزوح قسم كبير من الروم عن ثغور آسيا الصغرى إلى القسطنطينية وما تبقى لهم من بلاد في أوروبا، بعد أن حسم أمرهم عثمان بتخييرهم بين البقاء والعيش في ظل دولته أو الالتحاق بإخوانهم.

وبقي قسم آخر شكّل شريحة كبيرة من رعايا الروم القاطنين في ظل الدولة العثمانية.

وأمام هذا المشهد من الضعف والهزيمة، لجأ الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني إلى التحالف مع المغول الذين كانوا يُسيطرون آنذاك على وسط وشرقي الأناضول، فأرسل إلى الإخان محمود غازان يعرض عليه التقارب الأسري بالزواج، وقيام تحالف بين الدولتين الإلخانية والبيزنطية. لكن كما أسلفنا حرمت هزيمة غازان في شقحب المغول من طموحاتهم التوسعية. وتحدث الروايات التاريخية عن مدى تأثير هزيمته في شقحب وحجم الهم والغم الذي وقع على قلبه، حتى مرض وسال الدم من أنفه، وأفرغ غضبه على قادة جيوشه فأعدم بعضهم وأذّل البعض الآخر. ولم يعيش بعد ذلك طويلاً، فتوفي يوم 6 شوال 703هـ الموافق لـ 11 أيار (مايو) 1304م، ومات غازان ومات معه أي أمل في تحالف مغوليّ بيزنطيّ، لكنه فتح الباب واسعاً لطموحات عثمان.

وفاة عثمان في قلب مشهد النصر

وواصل جنود عثمان زحفهم حتى فتحوا مدينة بورصة بعد حصار طويل، ثم شرع ابنه أورخان في تنظيم أحكامها وتحصين قلاعها، ليتوجه بعد ذلك بالبشرى لوالده الذي كان طريح الفراش. ولما دخل على

والده وشاهده ينازع الموت، اغرورقت عيناه بالدموع وخاطبه بقول: “يا أعظم سلاطين البر والبحر كم قهرت أبطالاً وافتتحت بلداناً، ما لي أراك في هذه الحالة؟! ” فأجاب عثمان: “لا تجزع يا بني هذا مصير الأولين والآخرين، وأني الآن أموت فرحاً مسروراً لكونك تخلفني وتقوم مقامي بإدارة هذا الملك السامي”، ثم فاضت روحه بعد صراع مرير مع داء المفاصل أو النقرس إلى جانب الصرع الذي أصيب به في سنواته الأخيرة. وكان النقرس مرضاً وراثياً في الأسرة العثمانية، وعانى منه الكثير من سلاطينها.

ولم يفت عثمان تنظيم أمور دولته من بعده، حيث أوصى بالملك لأورخان، ابنه الثاني، لامتلاكه مقومات الإمارة الفذة، على عكس أخيه الأكبر علاء الدين الذي كان يميل أكثر للورع الديني والعزلة.

واختلف المؤرخون في تحديد موعد وفاة عثمان، فقيل إنه توفي يوم 21 رمضان 726هـ الموافق لـ21 آب (أغسطس) 1326م، وله من العمر نحو سبعين سنة. وقال المؤرخ العثماني روحي چليبي الذي عاش خلال القرن الخامس عشر الميلاديّ ودوّن تاريخ الدولة العثمانية حتى سنة 1481م في كتابه حامل عنوان “تواريخ آل عثمان” أنّ وفاة عثمان الغازي كانت سنة 1320م، وتعددت الروايات التي اختلفت في تحديد موعد وفاته، إلا أن المؤكد أن وفاته كانت بعد فتح مدينة بورصة، وبعد وفاة الشيخ إده بالي بثلاثة أو أربعة أشهر، وبعد وفاة زوجته ابنة شيخه بشهرين.

ودُفن عثمان في سُكود بدايةً، ثم أمر ابنه أورخان بنقل جثمانه إلى بورصة، العاصمة الجديدة لمملكته. وذلك تنفيذاً لوصية عثمان التي كتبها قبل مماته، حيث قال فيها: “يا بُنيّ، عِنْدَمَا أُمُوتُ ضَعْنِي تَحْتَ تِلْكَ الْقَبَّةِ الْفِضِّيَّةِ فِي بُورُصَةَ.”

ولكن في عهد السلطان عبد العزيز، أعيد بناء قبر عثمان بعد أن تهدّم القبرُ الأوّل تماماً في زلزالٍ شديدٍ ضرب المنطقة سنة 1855م، ثم أمر السلطان عبد الحميد الثاني ببناء مقام له في سُكود حيثُ دُفن عثمان للمرّة الأولى .

وصيته

بحسب المصادر التاريخية التركية فقد ترك عثمان وصيةً مكتوبة لولده أورخان يوصيه فيها بإكمال مسيرة الغزو والجهاد ضدّ الروم، والتزام تعاليم الشريعة الإسلامية وملازمة العلماء والعدل مع الرعية والإخلاص للإسلام ورسالته. وتضمنت الوصية بعض النصائح إلى جميع أبنائه وإلى رفاق دربه. ويبرز نص الوصية

معالم تفكير عثمان ومنهجه وأسرار نجاحه حيث قال: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** يا بُنَيَّ: إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِشَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا وَاجَهْتِكَ فِي الْحُكْمِ مُعْضَلَةٌ فَاتَّخِذْ مِنْ مَشُورَةِ عُلَمَاءِ الدِّينِ مَوْثِقًا. يا بُنَيَّ: أَحِطْ مِنْ أَطَاعِكَ بِالْإِعْزَازِ، وَأَنْعَمْ عَلَى الْجُنُودِ، وَلَا يُعْرَتِكَ الشَّيْطَانُ بِجُنْدِكَ وَبِمَالِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَ عَنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ. يا بُنَيَّ: إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ غَايَتَنَا هِيَ إِرْضَاءُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّ بِالْجِهَادِ يَعْمُ نُورُ دِينِنَا كُلِّ الْآفَاقِ، فَتَحَدَّثْ مَرْضَاةَ اللَّهِ ﷻ. يا بُنَيَّ: لَسْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْحُرُوبَ لِشَهْوَةِ حُكْمٍ أَوْ سَيْطَرَةِ أَفْرَادٍ، فَحَنُّ بِالْإِسْلَامِ نَحْيًا وَبِالْإِسْلَامِ نَمُوتُ، وَهَذَا يَا وَلَدِي مَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ.

اعلم يا بُنَيَّ أَنَّ نَشْرَ الْإِسْلَامِ وَهَدَايَةَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَحَمَايَةَ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِكَ سَيَسْأَلُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا.

يا بُنَيَّ: إِنِّي أَنْتَقِلُ إِلَى جِوَارِ رَبِّي، وَأَنَا فَخُورٌ بِكَ بِأَنَّكَ سَتَكُونُ عَادِلًا فِي الرَّعِيَّةِ، مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَشْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ. يا بُنَيَّ: أَوْصِيكَ بِعُلَمَاءِ الْأُمَّةِ، أَدِمَّ رِعَايَتَهُمْ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَبْجِيلِهِمْ، وَأَنْزِلْ عَلَى مَشُورَتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَأْتُرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ. يا بُنَيَّ: إِيَّاكَ أَنْ تَفْعَلَ أَمْرًا لَا يُرْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا صَعِبَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْأَلْ عُلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّهُمْ سَيَدُلُّونَكَ عَلَى الْخَيْرِ. واعلم يا بُنَيَّ أَنَّ طَرِيقَنَا الْوَحِيدَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ طَرِيقُ اللَّهِ، وَأَنَّ مَقْصِدَنَا الْوَحِيدَ هُوَ نَشْرُ دِينِ اللَّهِ، وَأَنَا لَسْنَا طُلَّابٌ جَاءَ وَلَا دُنْيَا. وَصِيَّتِي لِأَبْنَائِي وَأَصْدِقَائِي، أَدِيمُوا عُلُوقَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَلِيلِ بِإِدَامَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. أَمْسِكُوا رَايَةَ الْإِسْلَامِ الشَّرِيفَةِ فِي الْأَعْلَى بِأَكْمَلِ جِهَادٍ. اخْدُمُوا الْإِسْلَامَ دَائِمًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَظَّفَ عَبْدًا ضَعِيفًا مِثْلِي لِفَتْحِ الْبُلْدَانِ. اذْهَبُوا بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ إِلَى أَقْصَى الْبُلْدَانِ بِجِهَادِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ انْحَرَفَ مِنْ سُلَالَتِي عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ حُرِّمَ مِنْ شَفَاعَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ يَوْمَ الْحِشْرِ. يا بُنَيَّ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ لَا يُخْضِعُ رَقَبَتَهُ لِلْمَوْتِ، وَقَدْ اقْتَرَبَ أَجْلِي بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ، أُسَلِّمُكَ هَذِهِ الدَّوْلَةَ وَأَسْتَوْدِعُكَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ. اعدل في جميع شؤونك. "...

وهكذا أنارت هذه الوصية طريق ورثة عثمان لنيل السؤدد والملك.

ومع ذلك، لم يترك عثمان شيئاً مما يترك ملوك الدنيا لورثته رغم حجم دولته وحجم فتوحاته وانتصاراته، سوى سيفه الخاص الذي اشتهر باسم "سيف عثمان" فورثه عنه ابنه أورخان، ثم حفيده مُراد، ليتوارثه السلاطين العثمانيون من بعده كتقليد في حفل تتويج السلاطين ومبايعتهم بالخلافة في حفل

كبير يقام عادة في جامع أبي أيُّوب الأنصاري بالآستانة على يد شيخ الإسلام في ذلك الزمان، أو شريف قونية.

وحصل عثمان على هذا السيف من شيخه “إده بالي” ليكون “سيف الإسلام المسلول على الكُفَّار”.

عثمان الذي وصفه المؤرخون بالرجل طويل القامة، وأبيض البشرة، وكستنائي الحاجبين. بينما وصفه آخرون بأسمر البشرة، وعاقد الحاجبين، ومُستدير الوجه، وعريض المنكبين، وتصل يده إلى رُكبتيه عند وقوفه. عاش حياةً بسيطةً زاهدة بعيدةً عن البذخ واللهو والسفاهة. يأكل من عائد إنتاج أغنامه الخاصّة، يقول قُطب الدين النهروالي عنه: “... مَا حَلَّفَ نَقْدًا وَلَا مَتَاعًا إِلَّا دِرْعًا وَسَيْفًا يُقَاتِلُ بِهِمَا الْأَعْدَاءَ الْكُفَّارَ، وَبَعْضُ حَيْلٍ وَقَطِيعًا مِنَ الْعَنَمِ اتَّخَذَهَا لِلضَّيْفَانِ، وَأَنْسَأَهَا بِأَقِيَّةٍ إِلَى الْآنِ تَرَعَى حَوْلَ بِلَادِ بُورِصَةَ أَبْفُوهَا تَيْمُنًا وَتَبْرُكًا.”

مناقبه

كانت سياسة عثمان المالية مبهرة، فسمح له زهده بتقديم أفضل إدارة مالية سواء في الحرب أو في السلم، في الغزوات أو في التمكين، وكان يعتبر الأموال والغنائم من حق الناس أجمعين وليست حكرًا على الأمراء. ويذكر أنه في زيارة له مع قادة جيشه إلى سوق مدينة فتحوها لم يستطع تقبُّل فكرة أنَّ الضريبة من حق البكوات وحدهم، فرفض الحصول عليها على الرُّغم من أنها كانت تُمثلُ مدخولاً كبيراً لدولته، ورأى بدلاً من ذلك أن توزع على الناس بالحق أو لا يؤخذ منها البتة. وكانت هذه الصفة انعكاس شخصيته التي تربت على التعاليم الإسلامية والعادات والتقاليد البدوية التي تجعل من الإيثار والجود والكرم صفة الفارس من فرسانها. وهذا يدفعنا لذكر قصة يوم النهب في السادس من شهر أيار (مايو) من كل عام، وفيه يفتح زعيم القبيلة بيته للناس، يأخذون منه ما يشاءون دون أن يخرج منه شيئاً لنفسه، وسمي هذا اليوم “فتح بيت السيد” أو “نهب بيت السيد”، وكان عثمان يحرص على هذا التقليد طيلة حياته.

ولم يورث عثمان ورثته ذهباً ولا فضةً، بل أورثهم سيفاً ومجداً. وقد وصفه المؤرخ قُطب الدين النهروالي قائلاً: "وَكَانَ لِلسَّيْفِ وَالضَّيْفِ، كَثِيرُ الإِطْعَامِ فَاتِكُ الحُسَامِ، كَثِيرُ البَدْلِ وَاسِعُ العَطَاءِ، شُجاعاً مِقْدَاماً عَلَي الأَعْدَاءِ".

زهّد عُثمان في حياته ظهر على ملبسه، فلم يكن يرتدي إلا الملابس البسيطة. وكان كثير الصدقة على الفقراء والمساكين، وذكر أنه تصدق بكل ما يقع في يده حتى بملابسه التي وهبها للفقراء.

وفتح عثمان بيته ليضيّف فيه الجميع دون تمييز بين غني وفقير، أو بين مسلم ونصراني، فاستقطب بذلك الكثير من الروم الذين اعتنقوا الإسلام على يديه، وتآلفت القلوب من حوله.

وساعدته سياسة حسن المعاملة مع غير المسلمين تحت ظل سلطانه في كسب تأييد الأهالي النصارى، وحتى جنود الحاميات الذين لم يقفوا ضده، فقد تولّى عثمان رعاية الأرامل والأيتام الروم ومنحهم العطايا وغنائم غزواته، كما كان يفعل مع أبناء قبيلته، وأظهر رفقاً بكبار السن خصوصاً، وكان إذا وعد أوفى. فعندما اشترط أمير قلعة "أولوباد" البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني ألا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك عثمان، هو ومن جاء بعده.

فكانت سياساته بعيدة النظر، سبباً في إسلام عدد كبير من النصارى.

ولا شك أن تدين عثمان والتزامه بالشريعة الإسلامية كان عنوان مسيرته، ويظهر ذلك في طريقة تعامله مع الدولة السلجوقية، فقد كان عثمان يرسل خمس غنائم الغزوات والمعارك إلى السلطان السلجوقي ويُقسّم الباقي على جنوده المحاربين؛ فكسب محبة جنوده وبالمقابل استياء السلطان. وحين راجعه في ذلك، ردّ عليه عُثمان بأنّه يُنقذ أمر الله لا أمر السلطان، لأن هذا حكم شريعة الإسلام، فكان أمر السلطان بأن يفعل ما يشاء ولا يتجاوز أوامر الله.

وتنسب لعثمان أبيات شعر تصور جمال همته يقول في ترجمتها:

“ابن مدينةً وسوقاً جديدةً بموادّ بناءٍ من القلب * اعمل ما تُريد ولكن لا تظلم فلاحاً

انظر إلى المدينة القديمة الجديدة إنه كؤل فهي قائمةٌ دائماً * اهدم بُورصة التي كسرتُ فيها الكُفّار
وابنها من جديد

اغدُ ذئباً واقصد قطيعاً، وكن أسداً ولا تتقهقر * افعل شيئاً وكن جندياً، وحاصر مضيق اللسان

لا تستخف بمدينة إزنيق، ولا تندفق كنهر صقارية * خذ إزنيق، ولا تُبال، وابن سُوراً لِكَلِّ بُرجٍ فيها

أنت عثمان بن أرطغرل من سلالة العز وقره خان * أكمل حَقَّك، وافتح إسلامبول، واجعلها
حديقة ورد.

الخلاصة

أن إنجاز عثمان الباهر خضع لجملة من القواعد التي استوعبت متطلبات مشروع استراتيجي تضافرت فيه جهود قوى المجاهدين الغزاة والآخين والدرائش، وطوائف الطرق وشتى التنظيمات والمؤسسات العلمية والاجتماعية التي احتضنها نسيج المجتمع الإسلامي في آسيا الصغرى. وساعده في ذلك امتلاك مقومات القيادة من أمانة وقوة، تدفعه الروح الإيمانية والخلقية والجهادية، ثم عوامل جانبية كالموقع الجغرافي وتكامل وترابط مكونات خريطة العالم الإسلامي.

وهكذا سقطت دولة بني العباس، وقامت محلها دولة بني عثمان، فكان قدر هذه الأمة أن تتحول المحنة الكبرى لمنحة كبرى، وإن أبلغ درس نخرج به من قصة هذا البطل المسلم، هو أن السبب الأول لنجاحه وتمكنه من إقامة دولة إسلامية عظمى هو إيمانه وصدقه وصبره وإخلاصه لأهدافه، التي كانت أهداف أمة لا أهداف رجل واحد.

وإن حاول أحدهم بخس هذا النجاح وتقزيم هذه البطولة فيكفي عثمان شرفاً أن أقام فريضة الجهاد وأعاد أجداد الفتوحات معتزلاً بإسلامه رافضاً أن يعيش عبداً عند الصليبيين والمغول، ولا يمكن لمن كان ينادي بالشهادة في سبيل الله ويدعو لنصرة المسلمين وعزتهم عن طريق القتال ومراغمة الأعداء -زاهداً في الدنيا وغنائمها مقيماً للعدل وأحكام الشريعة- إلا أن يكون صاحب حق ودعوة صادقة، فلم يضيع اجتهاده مولاه وأناله توفيقه.

جعل الله من سيرة الغازي عثمان بن أرطغرل، وقود مسيرة ونفحة انبعاث لأمة سئمت الهزيمة.⁽¹⁾

(1) المصادر: تاريخ الدولة العلية العثمانية تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامي - سلاطين آل عثمان. القرماني - تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن تأليف حضرة عزتلو يوسف بك آصف. - تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي للدكتور أحمد فؤاد متولي - موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري .

ممالك النار: حقيقة دخول العثمانيين لمصر ونهاية عصر المماليك

جرت السنن أن يكون عمر الدول كعمر الإنسان، يولد ضعيفاً ثم يستقوي ويشب ليصل إلى أوج قوته ثم يشيخ ويضعف ويموت، هذه السنة تتكرر مع الدول عبر التاريخ بشكل ثابت، وقد عرف العالم الإسلامي العديد من الدول التي هيمنت على المشهد بسطان واحد ممتد، أو تزامن وجودها مع دول إسلامية أخرى بسطانها ونفوذها المتنافس، وجميعها سقطت لكنها أورتت خلفها تركة من التجارب والعبر.

سنسلط الضوء اليوم على مرحلة حرجة من تاريخ المسلمين، تحديداً مرحلة سقوط دولة المماليك وتوسع دولة العثمانيين وهي مرحلة تناولتها الأقلام بشيء من الإنصاف أو الجور، بحسب النفسية السياسية للكاتب، وميولاته وتوجهاته، وزاد الطين بلة توظيفها في المعارك الإعلامية اليوم بإنتاج تلفزيوني يحرف الحقائق التاريخية بجرأة صارخة في وقت لم تعد فيه قراءة التاريخ حكراً على المصادر العلمية من كتب ومحاضرات وغيرها، بل أصبحت تستسقى من الدراما ووسائل التواصل الاجتماعي كرافد مؤثر في إنتاج التصورات التاريخية لدى الشعوب والأمم.

يهمنا في هذا البسط أن نعرض الحقائق بعيداً عن التحريف والتوظيف السيء للمعلومات التاريخية، لأننا نحفظ بذلك تاريخ أمة مسلمة لا يحق لأحد أن يزوره.

فقه الواقع: نبذة عن الدولة العثمانية قبل الدخول لمصر

استلم السلطان سليم الأول الغازي الحكم في الدولة العثمانية في عام 1512م واستمر فيه إلى غاية عام 1520م، توسعت خلالها الدولة العثمانية وانتصرت على الكثير من أعدائها، وكان من أسباب هذا التوسع وهذه الانتصارات، قوة وتماسك الدولة وعنايتها الجمّة بالأسلحة والجيش.

وتفرغ السلطان سليم لتوطيد أركان حكمه بشكل لا ينازعه فيه أحد، فتخلص من كل منافس ثم ولى ابنه سليمان حكم القسطنطينية، وأبرم معاهدات مع البندقية والمجر وموسكو لهدنة طويلة الأمد ليتفرغ

هو لهزيمة عدو خطير بدأ يهدد الدولة العثمانية، حيث أطلت من بلاد فارس أطماع ملكها شاه إسماعيل الصفوي الشيعي، الذي امتد ملكه من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ما وراء النهر. وأصبحت دولة الصفويين تلقي بظلالها على الدولة العثمانية وتندر بالحرب خاصة بعد أن بدأت محاولات الشاه جادة باستمالة كثير من العشائر التابعة لنفوذ الدولة العثمانية، فوصل الخبير للسلطان سليم الأول عن طريق أمراء الأناضول فبدأ بالجمع للشاه والاستعداد للحرب.

وكانت عزيمة العثمانيين آنذاك قوية تماماً كما كان تخطيطهم وتنظيمهم متيناً، فتحطمت على أعتاب هذه القوة طموحات الصفويين، وتمكن جيش العثمانيين من هزيمة جيش الشاه شر هزيمة في أغسطس سنة 1514م وسيطر العثمانيون على المدن والبلدات تباعاً وتحولت القبائل في المنطقة لحكم الدولة العثمانية وتحولت الأموال والخزائن إلى القسطنطينية.

ويقول بعض المؤرخين أن السلطان سليم جهز جيشاً مركباً من كل صنف مقداره مائة وثمانون ألفاً وأعلن الحرب على الشاه وأقام ابنه سليمان بالأستانة مكانه. وباشرة قيادة الجيش بنفسه. فعمد إلى رد الكثير من أفراد الجيش وغالبهم من التجار لأنهم لا يتحملون أثقال السفر والقتال وأبقى مائة ألف من أقوياء وشجعان العساكر، وانطلق في مسيرة الفتح داخل أراضي العدو، ففتح أذربيجان أولاً وراسل الشاه يدعو للحرب.

ولم تكن رحلة التقدم بالهينة في أراضي فارس بالنسبة للسلطان سليم فكلما توغل في أراضي العدو كلما كانت التحديات تظهر وتزايد، مما أوقد نار المعارضة بشكل متصاعد أيضاً في نفوس الجنود، الذين انتقدوا هذه المغامرة في ظروف مهلكة بابتعادهم عن مركز دولتهم والتوغل في أراضٍ مجهولة، ولكن السلطان سليم امتلك مهارات القيادة الفذة، وتمكن من تثبيت جنوده وإخماد نار المعارضة في صدورهم، والتي كانت تنعكس بشكل محاولات للتمرد وإطلاق النار والتنديد بأوامر مواصلة المسير، وفي إحدى هذه المرات التي تمرد فيها الجنود كان السلطان سليم داخل خيمته فإذا به يخرج ويخاطب الجنود بخطاب كسب به ولاءهم من جديد حيث قال: “لا يمكن الرجوع بغير حرب مع العدو وكل من يشعر منكم في نفسه بالجبن فليرجع وأما أنا فلا بد أن أحارب العدو ولو وحدي”، فلما رأوا منه هذه الجسارة الهائلة وأنه نسبهم إلى الجبن، اتحدوا على السفر بكل غيرة ونشاط فساروا معه حتى النهاية. ”وتوالت بعدها الانتصارات العثمانية على الدولة الصفوية.

فقه الواقع: نبذة عن دولة المماليك قبل دخول العثمانيين لمصر

كانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم السلطان المملوكي قانصوه الغوري وبينما كان الصراع يتقدم بين الدولتين العثمانية والصفوية، اختار الغوري الاضطراب إلى جانب الشاه الشيعي. وفي الواقع كان أمام الغوري إما أن يقف مع العثمانيين ضد الصفويين أو أن يقف في الحياد، لكنه اختار الوقوف مع الصفويين وإعلان حياده كنوع من التحايل، لكن خطاباً وقع في يد المخابرات العثمانية يؤكد حقيقة تحالف سري والعلاقة الخفية بين المماليك والفرس دفع بالسلطان سليم إلى التخطيط لتأمين ظهره بضم دولة المماليك إلى سلطانه كجزء من خطة القضاء على المد الصفوي.

وبالنظر للاختلاف الكبير بين عقيدة المماليك وعقيدة الشاه تنكر بعض الروايات حقيقة هذا التحالف بين الطرفين، لكن الخطاب الذي يوثق هذه العلاقة بقي محفوظاً في أرشيف متحف طوب قاي في إستانبول.

ثم لتأمل كيف وصف ابن زنبيل، أحد أبرز المؤرخين المعاصرين لدولة المماليك خلفية المواجهة العسكرية بين المماليك والعثمانيين حيث قال: “وما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليم غزا على إسماعيل شاه سلطان العجم وجاء أي السلطان سليم بالعساكر على البيرة (بين حلب والثغور العثمانية) وكان نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغوري، فأمر علاء الدين أهل مرعش ألا يبيعوا عسكر السلطان سليم شيئاً من المأكول ولا من غيرها، فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغوري وسليم، وحصل للسلطان سليم من ذلك غم لا مزيد عليه، فأشار عليه وزراؤه أن يرسل يعلم الغوري بذلك، فأجابه الغوري بأن علاء الدولة عاصٍ أمره، ثم كتب الغوري إلى علاء الدولة خفية يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم.”

أضف لذلك عناية الغوري المستفزة ببعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم في سبيل توظيفهم لاحقاً لصالح دولة المماليك مما أثار سخط سليم بشكل كبير. زد على ذلك التنافس على الحدود بين الدولتين، الذي كان يؤجج مشاعر العداوة ويوغر الصدور.

ولم يكن خلاف الغوري مع الدولة العثمانية مجرد دسائس ومكر في الخفاء بل تطورت للمواجهة العسكرية حيث التقت المماليك بجيشها العثماني في أغسطس سنة 1516م في بلاد الشام بقرب مدينة في مرج دابق لتشكل هذه المحطة النقطة الفاصلة في تاريخ دولة المماليك.

وقد تكرر في الروايات التاريخية حقيقة الاختلاف الذي ساد بين الدولتين في هذه الفترة، لكن المواجهة العسكرية حسمته بشكل لا رجعة فيه، حيث قُتل سلطان المماليك الغوري بعد هزيمة جيشه أمام العثمانيين في معركة مرج دابق وكان عمره ثمانون عاماً، ليفتح الباب واسعاً لتوسع السلطان سليم الأول، وبسط نفوذه على المدائن الشامية، كحماة وحمص ودمشق التي استلم معظمها بالأمان دون قتال.

معركة مرج دابق التاريخية

وقعت معركة مرج دابق في يوم 25 من رجب 922هـ الموافق 24 من أغسطس 1516م في مكان يسمى دابق، وهي قرية تقع بالقرب من مدينة حلب، توجه فيها الجيش العثماني الكبير مجهزاً بأحدث المعدات الحربية في ذلك الزمان وعلى رأسها المدافع والبنادق البدائية. قال عنها ابن زنبيل: "ولا ضرهم (أي المماليك) إلا البنادق فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة لا يعرف من أين جاءه، فقاتل الله أول من صنعها، وقاتل من يرمي بها على من يشهد لله بالوحدانية"، والتحمت الصفوف في القتال مع جيش المماليك الضعيف عدة مقارنة مع نظيره العثماني، واتجهت فصول المعركة لصالح الجيش العثماني، وانتصر العثمانيون انتصاراً كبيراً، ساعدهم في ذلك خلاف دبّ بين فرق المماليك المقاتلة والتي انحاز بعضها لصفوف العثمانيين. ويقول ابن زنبيل يصف جيش الغوري: "لقد كان جيش الغوري عامراً بالصراع الداخلي، وقدم في معركة مرج دابق فئات العسكر المماليك التي كان يخشى بأسها أو التي كان بينه وبينها عداوة، بينما احتفظ بمماليكه بعيداً عن القتال، مما أوغر صدر الفئة الأولى بل وامتنعت عن القتال، ولم تطع الأوامر في ميدان القتال."

وهكذا تلقى المماليك ضربة قاضية في سنة 1516/1517م في وقت شاخت فيه دولتهم وضعفت، بعد أن سطعت كقوة إسلامية كبرى مبهرة طردت الغزاة من الصليبيين والمغول، وسطرت بطولات تردد صداها في الآفاق إلى اليوم وأقامت حضارة لا تزال آثارها باقية إلى الساعة، لكن الضعف الذي

اعتراها في آخر عمرها، أفقدها حيويتها وقدرتها على التجديد، فانتهدت كما انتهت الدول من قبلها وتلك السنن الإلهية لا تحابي أحداً.

وقفة مع العلاقة بين الدولتين العثمانية والمماليك

لم تكن العلاقة بين الدولتين العثمانية والمماليك سيئة على طول محور الزمن منذ التقائهما، بل عرفت محطات تعاون وتحالف رائعة، وكان ذلك حتى قبل تأسيس الدولة العثمانية منذ عصر الغازي أرطغرل بن سليمان شاه، حيث تحالفت القوى الإسلامية في الأناضول ومصر والشام مع بركة خان، للقضاء على المغول الذين أهلكوا الحرث والنسل في بلاد المسلمين، واستمرت العلاقة تعاونية بعد قيام الدولة العثمانية، يدفعها التخطيط لمواجهة الأعداء على رأسهم البرتغاليون وكان ذلك بتحالف أسطوليها معاً في الحرب ضد البرتغال، أقوى دولة لها نفوذ في البحر آنذاك، والتي وفرت أيضاً قاعدة لإرسال المبشرين إلى دول آسيا، وفازت بالسبق في الكشف الجغرافية التي بها استعمر الرجل الأبيض الأراضي الجديدة.

وكان السلطان سليم بعيد النظر يبحث عن مراكز القوى التي تحفظ دولته وتضمن تمددها، وحين وصله أن البرتغال تخطط للتوسع في أراضي المسلمين، وتزامن هذا الواقع مع مراسلات من مصريين أنفسهم يطالبون القيادة العثمانية بتخليصهم من حكم المماليك، قرر أن يزيح عقبة المماليك ويسيطر على البحر الأحمر ليمنع البرتغاليين من التقدم.

ولم يكن خافياً أن طموحات الدولة العثمانية كبيرة وتخطيطها كان استراتيجياً شاملاً، يحسب حساب النظام الدولي برمته آنذاك، فكان هدف العثمانيين توحيد سلطان المسلمين تحت رايتهم، وذلك للانتصار على المكر الصليبي المتواصل خاصة بعد سقوط الأندلس وتوسع أطماع البرتغاليين الذين احتلوا عدة أمصار مسلمة كاليمن وعمان بعد اكتشافهم رأس الرجاء الصالح. لكن دولة المماليك في ذلك الوقت، وقعت بين فكي الهجمات الأوروبية، البرتغالية والإسبانية، ولم تكن نشيطة ولا حيوية في تغيير وضعها وتطوير أساليب هجومها ودفاعاتها، مما ساهم في هزيمتها واندثارها.

نعود للخلاف بين الدولتين الذي تأجج مع ارتفاع وتيرة العداء بين الشاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليم الأول. ثم محاولة الشاه الاستفادة من المماليك ضد العثمانيين. ويبدو واضحاً من خلال مطالعة

الأحداث التاريخية أن غضب سليم الأول كان كبيراً لاصطفاف المماليك مع الدولة الصفوية ضده، وهو ما جعله يرفض محاولات سفير المماليك تهدئة الأمور ورأب الصدع، وفضّل بدلاً من ذلك المواجهة العسكرية لحسم القضية. ولم يكن انتصار سليم الأول على سلطان المماليك فقط بسبب الهزيمة في معركة مرج دابق بل أيضاً لسياسة العثمانيين الذين نجحوا في استمالة ولاية بلاد الشام لصفهم وعملوا بقوة على سحب البساط من تحت أرجل المماليك بهدوء.

ومع سقوط الشام في يد العثمانيين خسر المماليك نصف سلطان دولتهم، مما شجع سليم الأول للزحف نحو القاهرة ليقضي على آخر وجود للمماليك في موقعة الريدانية لتسقط بذلك آخر لبنة في دولة المماليك التي حكمت منطقة مصر والشام لقرنين ونصف القرن أبلى فيها بعض قادتها البلاء الحسن في الغزوات والفتوحات، ولكن لكل أجل كتاب ولكل بداية نهاية.

المواجهة في مصر

استقوى العثمانيون بالشام، بعد إحكامهم السيطرة عليها، بينما قام المماليك بتنصيب طومان باي سلطاناً جديداً لهم وكان الغوري قد عينه نائباً له قبل خروجه لقتال العثمانيين، وبدأوا بالجمع والتجهيز لمواجهة العثمانيين. إلا أنه كان استعداداً تخللته الكثير من الخيانات والضعف.

وبالفعل دخل العثمانيون إلى مصر، وتمكنوا من أسر طومان باي بمساعدة بعض أعوانه الذين خانوه، وتم شنقه بأمر السلطان سليم في شهر أبريل من عام 1517م بباب زويلة.

سيرة السلطانين

اشتهر سليم الأول بالقيادة الفذة لدولته وجيشه وحسن تخطيطه وتدييره لحفظ نفوذه وتمدده ثم قراءته الثاقبة لخريطة القوى في العالم وقدرته على الاستفادة من الظروف والأسباب لصالح الصعود الإسلامي، ولكنه عرف أيضاً بسفكه للدماء في سبيل إحكام قبضته على دفة الحكم، ولم يسلم منه حتى وزرائه حيث تتحدث الروايات التاريخية عن مقتل سبعة من وزرائه لأسباب لا ترتقي لجزاء القتل. وفي الجهة المقابلة كان كثير الاهتمام ببناء المساجد، وتحويل كنائس القسطنطينية إلى مساجد.

ويذكر كتاب الدولة التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية قتل سليم الأول لأخيه أحمد حاكم بورصة، الذي كان أكبر منه سنًا، فكان ينازعه الحكم على هذا الأساس، وحين سئل عن قتله أخيه رغم التجائه إليه كان جواب سليم: “بأن أعداء الدولة الخارجين كثيرون فإذا ذهبت إلى الحرب استولت عليه شياطين الإنس والجن بالغش فيعمل مثل ما عمل ويترب على ذلك إراقة دماء المسلمين، فقتل واحد لإحياء كثيرين أمر واجب والله أعلم.”

وبعد انتصاره على المماليك سار إلى القسطنطينية وأمر بالزينة، وأقام بها إلى ست وعشرين وتسعمائة ودفن في مدفنه الذي كان عمّره في حال حياته بالقسطنطينية وكانت وفاته في سادس شوال، ومدة سلطنته ثماني سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام. وتولى الحكم من بعده ولده سليمان.

أما الأشرف أبو النصر طومان باي الشركسي فكان في مرتبة السلطان الحادي والعشرين من السلاطين الشراكسة، وهو السلطان الوحيد الذي سُئق على باب زويلة.

اشتراه السلطان قانصوه الغوري وقدمه إلى السلطان الأشرف قايتباي، ولهذا يُدعى طومان باي من قانصوه، فصار من جملة مماليك قايتباي الكتائبية. أعتقه الملك الناصر مُحمَّد بن قايتباي حين اعتلى عرش مصر ثم أخذ يرتقي في المناصب منذ ذلك الحين لكفاءته وخاصة بعد تولي قانصوه الغوري سلطنة مصر في شوال سنة 906 هـ - أبريل 1501م حتى جعله نائبا له .

ولم يكن طومان مولعا بالسلطان في الظروف التي كانت تعيشها دولة المماليك والدليل أنه رفض قبول منصب السلطان بعد مقتل الغوري لكنه اضطر لقبوله بعد إلحاح شديد من الأمراء الذين أقسموا له وتعاهدوا بالأيمان على المصحف بالسَّمع والطاعة وعدم الخيانة. ويصف ابن إياس ذلك بقوله: “اجتمع رأي الجميع على سلطنة طومان باي الدوادار وترشيح أمره لأن يلي السلطنة فصار يمتنع عن ذلك غاية الامتناع، والأمراء كلهم يقولون: ما عندنا من نُسلطنه إلا أنت ولا نُحيد لك عنها طوعاً أو كرهاً.”

لكن نهاية طومان باي رغم ما تميز به من صفات قيادية، كانت بخيانة من معه من أمراء. ويصفه ابن زنبيل، فيقول: ” كان ملكاً حليماً قليلاً الأذى كثير الخير، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، ... وكان في هذه المدة في غاية النكد والتعب وقاسى شدائد ومحناً وحروباً

وشروراً وهجاجاً في البلدان، وآخر الأمر شنق على باب زويلة. وأقام 3 أيام وهو معلق على الباب حتى جفت رائحته وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتاً ووضعوه فيه وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان غوري عمه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرس ومضت أخباره كأنه لم يكن.”

موقعة غزة

بعد هزيمة الغوري في مرج دابق وقبل موقعة الريدانية وقعت موقعة غزة في (24 من ذي القعدة 922 هـ) فأعلن طومان باي حالة النفير، وتواجه الجيشان حيث كان على مقدمة جيش المماليك جان بردي الغزالي وعلى طلائع الجيش العثماني سنان باشا بالقرب من بيسان، وانتهت المواجهة بهزيمة نكراء للمماليك، بسبب فارق القوة والعتاد.

موقعة الريدانية

وسجل تاريخ معركة الريدانية في 29 ذي الحجة 923 هجري /1517 ميلادي، نهاية العصر المملوكي في العالم الإسلامي. ويجدر الإشارة إلى الأحداث التي سبقتها بقليل، حيث وصل وفد من السلطان سليم من خمسة عشر رجلاً إلى القاهرة يحملون كتاباً إلى طومان باي. يقول الكتاب:

من مقامه السعيد إلى الأمير طومان باي، أما بعد، فإن الله قد أوحى إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً كما ملكها الإسكندر ذو القرنين. إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصلح لك ولاية، وأنا ملك بن ملك إلى عشرين جداً، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائبنا بمصر، ولك من غزة إلى مصر، ولنا من الشام إلى الفرات. وإن لم تدخل تحت طاعتنا، أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الجراكسة (الشراكسة) حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الأجنة التي في بطونهن من الجراكسة.

ومال طومان باي إلى قبول مطالب سليم لحقن الدماء لكن الأمير علان الدوادر الكبير عمد لقتل الوفد العثماني وأعلن عزمه للقتال. فلم يكن رد السلطان سليم إلا الدخول عنوة إلى مصر، ولأجل ذلك قسم جيشه إلى ثلاث فرق مستفيداً من نصائح جان بردي الغزالي من المماليك الذي بسبب خيانتته لطومان باي، تمكن العثمانيون من دخول مصر بسهولة.

الخيانة أحد أهم أسباب الهزيمة

ظهرت خيانة الغزالي أثناء تقدم السلطان سليم إلى الخانكاه، حيث ألح بـدفع المدافع بالرمال حتى لا يراها جواسيس العثمانيين ثم أرسل خطاباً إلى العثمانيين يخبرهم بقصة المدافع وبتفاصيل الاستعدادات من المماليك ونصحهم بالالتفاف من جانب الجبل لا الريدانية.

وبالفعل سارت فرقة من الجيش العثماني لمقابلة جيش المماليك في الريدانية، وفرقة أخرى سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين والخلف، وفرقة سارت في اتجاه بولاق وأحاطت بهم من الشمال. واكتشف بذلك طومان باي خيانة الغزالي لكن الموقف لم يكن يسمح بتصفيته وإرباك الصفوف.

وظهرت في مثل هذه المواقف العصبية شجاعة طومان باي، فلم يكن يملك سواها وبعض المخلصين من أتباعه، وانطلقوا في القتال بكل طاقتهم، إلا أن عزيمتهم لم تكن كافية لترجيح كفة النصر لصالحهم، أمام العثمانيين الذين تميزوا بقوة الأسلحة وحسن التخطيط والدعم الاستخباراتي، ودخل العثمانيون القاهرة يوم الجمعة 30 من ذي الحجة سنة 922هـ الموافق 23 يناير 1517م.

وكان دخول سليم الأول مدروساً لمصر حيث جعل في موكبه الخليفة المتوكل على الله ووزراءه، وأمر أن يُخطب له على المنابر قبل أن يدخل القاهرة التي دخلها يوم الثلاثاء واستلم مع دخوله مفاتيح القلعة. لكن القاهرة عاشت ثلاثة أيام من الفوضى العارمة حيث تفشى السلب والنهب ولقي أهلها الأهوال مع دخول العثمانيين. أما طومان باي ومن تبقى معه من المماليك لم يقبلوا هذه الهزيمة وجمع فرسانه وبدأ بحرب شوارع في القاهرة، وتحصن لأجل ذلك بحي الصليبية، واتخذ من جامع شيخون مركزاً للمقاومة وحفر الخنادق، وأقام تحصينات في المنطقة عند رأس الصليبية وقناطر السباع ورأس الرميطة وجامع ابن طولون.

ولكن مع تقدم العثمانيين بدأ الخوف والخور يدب في صفوف المماليك وانهمزوا نفسياً ولم يبق لـطومان باي إلا بعض رفاقه المخلصين، فاضطر للانسحاب إلى بركة الحبش ثم عبر النيل إلى الضفة الغربية بالجيزة ووصف ابن زنبل ما جرى في الصليبية بقوله: “وأما طومان باي فإنه لم يهرب وحطم عليهم

حطمة الأسد الغضبان وقتل فيهم قتلاً حتى كلّ ساعده، ولكن ماذا يفعل الواحد في مائتي ألف أو أكثر.”

وللأسف وقع ما توعده به السلطان سليم طومان باي في كتابه قبيل قتل المماليك لوفده، فما أن أحكم العثمانيون سيطرتهم على القاهرة حتى استباحوها فكانت مجازر بشرية يصفها ابن إياس:

المصيبة العظمى التي لم يُسمع بمثها فيما تقدم من الزمان، فقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيها صغار وشيوخ لا ذنب لهم، وحطوا غيظهم في العبيد والغلمان والعوام، ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح، فصارت جثثهم مرمية في الطرقات، فكان مقدار من قتل في هذه الواقعة فوق العشرة آلاف إنسان في عدة هذه الأربعة أيام، ولولا لطف الله لفني أهل مصر قاطبة بالسيف.

وأما جامع شيخون مركز المقاومة فقد أحرقه العثمانيون فاحترق سقف إيوانه الكبير، وقبضوا على نحو ثمانمائة من المماليك وضربوا أعناقهم.

ويقول المؤرخون أن القتلى من سكان مصر في هذه الأحداث بلغوا خمسين ألفاً والله أعلم، ومع ذلك لم يقطع طومان باي الأمل، وجهاز مرة أخرى في الجيزة جيشاً مركباً من الشراكسة والعرب، واندلعت الحرب كأشرس ما يكون لأنه قتال موت، حتى لم يبق من الجنود العثمانيين سوى ستة آلاف ومن جنود طومان باي أربعة آلاف ومع ذلك لم ينهزم هذا القائد إلا بخيانة، انتهت بأن يُؤخذ أسيراً ويُصلب في باب زويلة.

انتقال الخلافة للعثمانيين

كانت الخلافة بيد الدولة العباسية المنهارة قد وجدت لها تمثيلاً رسمياً في مصر، وكان فيها آخر ذرية الدولة العباسية التي لجأت إلى مصر بعد سقوط بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة هولاكو خان التتري سنة 656هـ - 1091م فتم التنازل عن اسم الخلافة إلى يد العثمانيين. فاستلم سليم الأول الخلافة والآثار النبوية الشريفة: وهي البيرق - العلم - والسيف والبردة، واستلم معها مفاتيح الحرمين الشريفين.

وقد قيل: إنَّ آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة قبل دخول العثمانيين لمصر، واستشهدوا بكون المؤرخ ابن إياس المعاصر لضمّ العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها. ولعل هذا ما يفسر إطلاق السلطان سليم لقب “خليفة الله في طول الأرض وعرضها” على نفسه منذ عام 1514م أي 920هـ وهذا قبل أن يدخل الشام ومصر.

السلطان سليم يسلم مصر ليد خيرى بك الشركسي

سلم سليم الأول مصر ليد خيرى بك الشركسي والى حلب سابقاً، وذلك أن سليم لما وصل قبل دخول مصر إلى حلب ذهب إليه خيرى بك وقال له إني أكره أن أحارب المسلمين سواء كانت مصر لك أو للسلطان الغوري فأنا لا لك ولا عليك، فسر به السلطان سليم جداً ووعدته بولاية مصر طيلة حياته ووفاه هذا الوعد.

ويذكر التاريخ قصة تكشف طريقة تفكير سليم الأول وقيادته للأمور، حيث أنه كان مع خروجه من مصر للعودة إلى مركز دولته كان يهم بركوب فرسه فسأله خيرى بك:

هل تقبل أولاد الشركاسة في العسكر وتبقي لهم أموالهم وعقاراتهم بمصر وملحقاتها كما كانوا أم لا؟ فأجابه أن: نعم، وكيف نأخذ أموالهم ونمنع أولادهم من الجيش أليسوا بمسلمين.

فقال الصدر الأعظم: ذهبت أتعبنا سدى، فأمر سليم بقتله في الحال لأجل هذه الكلمة، فقتل ورجل سليم اليسرى في الركاب واليمنى على الأرض ثم ركب جواده وسار. وحين سئل لاحقاً عن قتله للصدر الأعظم فقال: “إننا نحب أن نوفي بالوعد فبعنا خيرى بك والياً على مصر وفاء للوعد وتركنا الشركاسة أموالهم حيث لا تحل لنا وقبلنا أولادهم في الجيش كسائر المسلمين فأراد الصدر الأعظم أن يوقعني في الذنوب، وأما قتله فهو خوفاً من أن يكرر علي ذلك ملحاً وربما أثر عندي فأقع في هذه الذنوب والله أعلم.”

نهاية طومان باي

يشهد التاريخ أن طومان باي قد أزعج العثمانيين كثيراً وأرهقهم بحرب العصابات والضربات المباغتة بعد دخولهم إلى القاهرة. ولولا الخيانة لربما لم يصلوا إليه لشدة شجاعته وبأسه. يقول ابن زنبيل: “ومن

هنا نرجع إلى أخبار السلطان طوماني بعد انكسار عسكره، توجه نحو تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعي وابن أخيه شكر، مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى البوطة، فعزم حسن بن مرعي وشكر السلطان طومان هناك وكان حسن بينه وبين طومان صداقة قديمة، فأركن له طومان ونزل عنده على سبيل الضيافة، ثم أن طومان أحضر إلى حسن وابن أخيه شكر مصحفاً شريفاً وحلفهما عليه أنهما لا يخوناه ولا يغدرانه ولا يدلسان عليه بشيء من أسباب الملك، فحلفا له على المصحف سبعة أيمن، فطاب قلبه، ولما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب وأرسلوا من يعلم السلطان سليم شاه بذلك فأرسل جماعة من عسكره وقبضوا عليه ووضعوه في الحديد وأخذوه إليه. وتشتت أتباعه من بعده. وهكذا خانه حسن بعد أن حلف، وكان من أعز أصحاب طومان، ولم يثمر فيه الخير.

اقتاد الجنود العثمانيون طومان باي وهو مكبل في الأصفاد إلى معسكر السلطان سليم بإمبابة، فأجلسه بجانبه ودار بينهما حوار أشاد به ابن زبل، وبرر خلاله طومان باي مقاومته مؤكداً على أن سبب هزيمته هي خيانة خيرى بك والغزالي وكذا بنادق ومدافع الجيش العثماني. فرد عليه السلطان سليم أن الله أمرنا بالإعداد، فلماذا لم يعد الإعداد اللازم للانتصار في الحرب وهو على رأس دولة كبيرة، وتلا عليه الآية: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [الأنفال: 60].

وكان مما دار بين الرجلين في هذا الموقف، قول السلطان سليم لطومان باي:

أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأمصار، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة (يعني: الصفويين) والفجّار (يعني بهم: البرتغاليين، وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغوري، وجاء بالعساكر إلى حلب، وأنفق مع الرافضة، واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي موروث آبائي، وأجدادي، فلما تحققت؛ تركت الرافضة، ومشيت إليه.

ومع ذلك حفظ السلطان سليم لطومان باي مقامه وقال لجلسائه: “والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه في الترسيم حتى ننظر في أمره” وهو ينوي أخذه معه إلى إسطنبول. لكن خيرى بك والغزالي أوجسوا خيفة من نقمة طومان باي عليهم فأقنعوا سليم بأن بقاء طومان باي سيشكل تهديداً خطيراً كونه لا يزال يطمح للملك ويجب إعدامه، واقنع سليم بإعدام طومان باي.

وهنا يجب ذكر رواية بشأن قرار سليم إعدام طومان باي، حيث ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه أثناء المعركة التي دارت بصحراء الريدانية -العباسية حالياً- أسر المماليك سنان باشا قائد جيش العثمانيين والصدر الأعظم للدولة العثمانية، فلم يجد سنان باشا من طومان باي معاملة أسرى الحرب المتعارف عليها، حيث قام طومان باي بقطع رقبة سنان باشا بعد تعذيبه تعذيباً شديداً بشكل يتعارض ومبادئ الإسلام في الحروب، فكان هذا السبب الأول لقرار السلطان سليم إعدام طومان باي على باب زويلة بالقاهرة والله أعلم.

وفي يوم الاثنين 21 ربيع الأول سنة 923 هـ الموافق 23 أبريل 1517م أعدم طومان باي ولتأمل كيف وصف ابن إياس الذي شهد تلك اللحظات التي انتهت معها قصة آخر سلطان لدولة المماليك فقال: "وكان الناس في القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرة الوداع على سلطان مصر.. وتطلع طومان باي إلى قبو البوابة فرأى حبلاً يتدلى، فأدرك أن نهايته قد حانت.. فترجل.. وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة.. ثم توقف وتلفت إلى الناس الذين احتشدوا من حول باب زويلة.. وتطلع إليهم طويلاً.. وطلب من الجميع أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات.. ثم التفت إلى الجلاد، وطلب منه أن يقوم بمهمته. فلما شئق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل كريم الأخلاق، سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان، وفتك في عسكرهم وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات وهو في نفر قليل من عساكره."

وبقيت جثة طومان باي معلقة ثلاثة أيام كي يراها الجميع ويعلم بانتهاء دولة المماليك، ثم دُفنت في قبة السلطان الغوري، وبموت آخر سلاطين دولة المماليك، استتب الأمر للسلطان سليم الأول والخلافة العثمانية القوية بمصر وبلاد الشام، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

وهنا يجدر التنبيه إلى أن طومان باي حفر مكانة احترام في نفس سليم الأول ويتجلى ذلك في يوم 26 أبريل، حيث تم تشييع جثمان السلطان طومان باي بشكل لم يسبق له مثيل، بحضور ومشاركة السلطان سليم بنفسه حيث عمد إلى توزيع النقود الذهبية على الفقراء تطيماً لروح السلطان طومان باي لمدة 3 أيام.

عبر مستخلصة

لعل أبرز عبءة نستخلصها من مشهد الصراع بين الدولة العثمانية ودولة المماليك هو أهمية عامل القوة، حيث أن إهمال المماليك أسباب العناية بتطوير أسلحتهم وجيشهم في نصف القرن الأخير، واستمرارهم في الاعتماد على نظام الفروسية؛ الذي كان سائداً في العصور الوسطى؛ كان من أهم أسباب الهزيمة. على عكس الدولة العثمانية التي كان جيشها يتمتع بأسباب القوة وتطوير الأسلحة النارية، وبخاصة المدفعية، مما حسم الصراع لصالحها.

ويدخل في هذه معنويات الجيش العثماني العالية واستعداداته الكبيرة وتربيته الجهادية الراقية ووضوح الأهداف لديه وعلى رأس ذلك قناعته بعدالة قضيته، على عكس الجيش في دولة المماليك الذي كان يشككي الفرقة والظلم وفقدان الثقة بقيادته.

أيضاً يظهر واضحاً نتائج الجهد الاستخباراتي العثماني في رصد أحوال البلدان وشراء الذمم وكسب الولاءات وتقصي الأخبار من داخل صفوف المماليك ودرايتهم بنقاط ضعفهم من خلافات وانشقاقات ونفسيات قابلة للخيانة وحسن توظيف ذلك كله. ويوازي هذا الجهد الاستخباراتي حسن التخطيط الاستراتيجي والقدرة على الاستفادة من مكونات النصر في المشهد على الرغم من توغل العثمانيين في أراضٍ ليست لهم بالأصل.

نلاحظ أيضاً أن التنافس على الحدود بين الدولتين كان يزرع الفتنة ويوغر الصدور ولو أن السلطتين تعاملتا مع هذه المشاكل بطرق حكيمة لوفرتا على بعض هذا العداء ولكان تحالفهما أكثر قوة للأمة المسلمة. لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ولأن عصر دولة المماليك قد آذن بالرحيل حيث ظهرت أمارات ذلك واضحة من نفشٍ للظلم بين الناس، وازدياد مطالب أهل الشام وعلماء مصر بالتخلص من حكم المماليك والانضمام للدولة العثمانية. حيث كانت الرسائل تصل السلطان سليم من سوريا ومصر ترجوه أن يتدخل سريعاً وترحب بقدومه فقدمت هذه الحاضنة تسهيلات جمة للتمدد العثماني. وهذا يدفعنا للحديث عن حسن رعاية الرعية والحكم بعدل كعامل مهم لثبات الحكم، ففي الوقت الذي كان فيه رعايا الدولة العثمانية ينعمون بالعدل والأمان والاستقرار، كان رعايا دولة المماليك يشكون التمييز والقهر والظلم وحالة السخط.

ومن المعالم التي يجب تسليط الضوء عليها هي حالة الصف المملوكي المتصدع وكثرة الخلافات والفتن والبلابل والاضطراب في سلطة الحكم وكثرة الانشقاقات والخيانات التي أنهت وجود هذه الدولة. وقابل هذا الوضع حسن استيعاب الدولة العثمانية للمنشقين وتكريمها للمنضمين إلى صفوفها ولكل من أظهر ولاءً للعثمانيين جنوداً وقادة من دولة المماليك.

والخلاصة هي أن اضطراب القيادة واستياء الرعية وضعف الجيش وتدهور الأحوال الاقتصادية في مصر بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي جلب لها التجار كان أهم أسباب سقوط دولة المماليك.

ويبقى عامل مهم جداً نختتم به هذه العبر، يقف على هرم أسباب سقوط دولة المماليك، هو ضعف التزام هذه الدولة بشريعة الله فازدادت المظالم والاعتداءات وكان لذلك تداعيات مهلكة، بينما كانت الدولة العثمانية تتقدم ملتزمة بهذه الشريعة مستفيدة من بركات هذا الالتزام، فكان هذا العامل سبباً حاسماً في سقوط دولة المماليك وسبباً رئيسياً في صعود الدولة العثمانية، ثم ما أن تخلت الأخيرة عن هذا الالتزام حتى دخلت مرحلة الاندثار والموت ونالها ما نال دولة المماليك (وتلك الأيام نداؤها بين الناس).

ولا شك أن الهزيمة تأتي بعد تراكم الأسباب المؤدية لها، كما أن النصر يقوم على تعاضد الأسباب التي تبني عليها قبة هذا النصر.

نهاية خائن

ومما يجدر تسجيله في هذا المقام هو نهاية الغزالي الخائن لدولة المماليك، فبعد موت سلطان سليم طمعت نفس الغزالي في أن يتسلطن في الشام ويعيد الملك للجراكسة (الشراكسة) كما كان في الأول، وأخبر حاشيته بذلك. واستشار خيرى بك والي العثمانيين في مصر، فحذره من فعلته ومن عواقبها، لكنه مضى في كيد فوصل خبره لقيادة العثمانيين وتقدم نحوه إياس باشا بجيش وقبل أن يبلغه أرسل إليه كتاباً مع جاويش يقول فيه أن يتأهب للحرب لكنه قال كلمة في هذا الكتاب تستحق التأمل حيث قال: "إنه لو كان فيك خير لكان لأبناء جنسك فالذي ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير لغير جنسه يا خائن يا فاجر يا غدار يا مكار، وأخذ يسبه سباً مبرحاً ويسود وجهه ويلعنه". وقطع رأس الخائن في نهاية المواجهة وقتل شر قلته.

نهاية وبداية

نعم انتهت مرحلة عصيبة على أهل مصر بسقوط دولة المماليك وصعود دولة العثمانيين فكانت كحالة مخاض وقعت فيها خسائر جمة وكثير من الألم، لكن ما أن هدأت العاصفة، واستلمت القيادة الجديدة مقاليد الحكم، حتى عفا السلطان سليم الأول عمَّن بقي من الجراكسة (الشراكسة)، وأبنائهم، وأعطى كل ذي حق حقه، من قادة وجنود ورعية وأبطال المظالم والمكوس والمغارم وكذلك أحسن استلام الأمانة من بعده ابنه سليمان، فبقيت مصر منتظمةً في سلوكهم ومنقادةً تحت حكمهم إلى ما شاء الله.

وكان لدخول مصر تحت سلطان الدولة العثمانية صدى كبير في بقية البلاد الإسلامية، وكانت الحجاز تحت حكم المماليك آنذاك ولكن ما أن علم شريف مكة «بركات بن محمد» بمقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي، حتى سارع بنفسه إلى إعلان الولاء للسلطان سليم الأول، وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار، فأقره سليم بدوره على الحجاز ومكة أميراً عليهما، ومنحه صلاحياتٍ واسعة.

وانتهت هذه المرحلة وقد تحول السلطان سليم الأول إلى مقام خادم الحرمين الشريفين، ودانت له الشعوب الإسلاميَّة بالسمع والطاعة، وساعده في ذلك الأوقاف الكثيرة التي أوقفها العثمانيون على الأماكن المقدسة وحسن عنايتهم بها.

وبسطت بذلك الدولة العثمانيَّة نفوذها على البحر الأحمر فتلاشى معه الخطر البرتغاليّ عن المنطقة إلى نهاية القرن الثامن عشر. لتبدأ بعد ذلك قصة سقوط أخرى لدولة دام ملكها ستة قرون متواصلة وشكلت آخر شكل للخلافة الإسلامية- إلى اليوم.⁽¹⁾

(1) المراجع: انفصال دولة الأوان واتصال دولة بني عثمان ابن زنبيل الرمال. - لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول للإسحافي. الدولة التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية لإبراهيم بك حليم. بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس. تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر لعمر الإسكندري .

الأخوان بربوسا: من البداية إلى استشهاد عروج

شهدت الدولة العثمانية عصرها الذهبي خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (16 و17 الميلاديين) حيث قويت شوكتها وازدهرت حضارتها واتسع نفوذها في القارات الثلاث، أوروبا وآسيا وأفريقيا.

وكان القرن العاشر الهجري (16 الميلادي) مزدهراً بالأحداث الكبرى؛ ففيه انقسمت أوروبا الغربية، وبدأ التوسع في العالم الجديد (أمريكا)، وفيه اجتمعت كل الدول العربية تحت السلطان العثماني، وفيه أيضاً احتدم الصراع بين الدولة العثمانية وبين الإمبراطورية الرومانية وإسبانيا.

ورافق التفوق العثماني في هذه الحقبة الكثير من قصص البطولة والنجاح والتي نذكر منها قصة الأخوان بربوسا؛ اللذان ذاع صيتهما عبر البحار، وساهما بشكل كبير في تألق القوات البحرية العثمانية في ذلك الزمان، حيث كانت البحار ميدان تنافس شرس بين العثمانيين والأوروبيين، سجل معه المسلمون انتصارات باهرة وتركوا إرثاً تاريخياً بطولياً.

المماليك يتصدون للخطر البرتغالي

اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فسطوا سيطرتهم عليه، وشنوا سلسلة هجمات لتوسيع ملكهم في البحر الأحمر، ولأجل تحقيق ذلك سيطروا على الحبشة (إثيوبيا) وشنوا هجمات على سواحل مصر والحجاز في عهد السلطان المملوكي قانصوه الغوري (906-922هـ / 1500-1516م)، الذي انتبه بدوره إلى أن حملاتهم اتخذت شعارات صليبية، وأن أهدافها لم تخرج عن الأراضي المقدسة في مكة والمدينة .

وكان تحت سلطان المماليك آنذاك كل من مصر والشام وبلاد الحجاز. فشرع السلطان في تنظيم الدفاعات على السواحل وإنشاء السفن والأساطيل البحرية التي خاضت حروباً شرسة انتهت بطرد السفن البرتغالية من البحر الأحمر، واستمر المماليك في شن الهجمات على القلاع البرتغالية على سواحل اليمن وعمان وإيران وشرق أفريقيا إلى غاية المستعمرات البرتغالية في الهند، ورغم هزيمتهم للبرتغاليين في العديد من المعارك ومنها معركة شاول عام 914هـ (1508م)، رجع هؤلاء البرتغاليون

فور اجتماع صفوفهم وقواتهم فهزموا المماليك في معركة ديو عام 915هـ (1509م)، وتسببت هذه الهزيمة في انكفاء المماليك على البحر الأحمر وحملت الدولة العثمانية بعدهم أمانة تأمين البحار.

توسع الدولة العثمانية

في هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية تعيش أوج انتصاراتها، حيث سيطرت على القسطنطينية في عام 857هـ (1453م) في عصر السلطان مُجدد الفاتح، واستمرت في التقدم بطموح جارف لضم كل الديار المسلمة تحت سلطان العثمانيين، ومع أن بداية العثمانيين والمماليك كانت التحالف والتعاون ضد الخطر البرتغالي وضد غارات المغول بقيادة تيمورلنك وبقايا الصليبيين، إلا أن استمرار الدولة العثمانية في التوسع واقتراب حدودها من سلطان المماليك تسبب في تحويل علاقة التحالف إلى خصومة وعداء كانت نهايته سقوط دولة المماليك مع دخول السلطان العثماني سليم الأول إلى مصر في عام 923هـ (1517م) ليضمها إلى حكم الدولة العثمانية، وكل ما كان تحت سلطان المماليك.

واقع شمال أفريقيا والأندلس

في هذه الحقبة، كان يحكم شمال أفريقيا شرقاً الحفصيون (626-982هـ / 1229-1574م) ووسطاً الزيانيون (633-961هـ / 1235-1554م)، وفي المغرب الأقصى حكم المرينيون (642-870هـ / 1244-1465م).

كما شهدت هذه الحقبة سقوط ما تبقى من الأندلس -أي دولة بني الأحمر- وحاضرتها غرناطة سنة 897هـ (1492م)، ومسارعة الأوروبيين لاحتلال الكثير من المدن الساحلية في شمال أفريقيا، فاحتل الجنويون جيجل منذ سنة 638هـ (1240م)، والبرتغاليون سبتة منذ سنة 818هـ (1415م)، والإسبان مليلية منذ سنة 903هـ (1497م) وشهدت أوروبا في نفس الوقت بداية المد البروتستانتية في ألمانيا وإسكندنافيا وفرنسا وسويسرا.

وبعد سقوط غرناطة آخر معقل إسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد أكثر من سبعة قرون من الملك والحضارة الإسلامية الماجدة، احتل الإسبان المرسى الكبير في الجزائر ومدينة وهران و"أرزيبو" و"مستغانم" و"شرشال" و"بجاية" و"عنابة"، وفي عام 917هـ (1511م) طرابلس ليبيا ووجدوا

لهم أعواناً من نفس البلاد وخونة لدينهم وأمتهم وأوطانهم، فانتشر الظلم والسرقة والفقر والأمراض وكان الناس يعيشون في استضعاف وخوف.

وأكسب ذلك الإسبان الغرور ببسطهم الهيمنة المطلقة على غربي البحر الأبيض المتوسط واستمروا في مراقبة سواحل شمالي أفريقيا خشية عودة المسلمين إلى الأندلس، وكانت سفنهم تعتدي على سفن المسلمين فتنهبها وتأسر أهلها فلم يكن الخروج في البحر آمناً بالنسبة للمسلمين.

أسرة بربروسا

أسرة الأخوين بربروسا من أصل تركي، أطلق اسم بربروسا على الابن الأكبر عروج ابتداءً ثم ورثه الأخ الأصغر خضر ويعرف بخير الدين، و”باربا” تعني اللحية، و”روسا” تعني الشقراء أو الحمراء باللغتين الإيطالية، وهو لقب أطلقه عليهما الإفرنج الذين أذهلتهم بطولاتهما. والدهما يعقوب آغا أبو يوسف التركي، عمل كجندي في فرسان الدولة العثمانية وكذلك كان والده.

استقر به المقام في جزيرة ميديلي بعد فتح القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح، حيث دخلت تحت حكم العثمانيين، واستوطنها الأتراك بأمر من دولتهم، وهي حالياً ثالث أكبر جزيرة يونانية وتقع في شمال بحر إيجه.

يقول خير الدين عن أسرته في مذكراته: “كان أبي أحد المستوطنين الأوائل، وابناً لأحد فرسان السباهية، كما كان هو نفسه سباهياً أيضاً، وكان له في منطقة واردار المجاورة لسلانيك أرض إقطاع، وهبت له بأمر من السلطان محمد الفاتح عندما استقر بالجزيرة.”

تزوج يعقوب آغا من مسلمة من مسلمات الأندلس، وأنجبت له 4 أبناء هم يعقوب وعروج وخضر وإلياس، ربّتهم على حب الأندلس والوفاء لأجدادها، فكان لتلك التربية الأثر الجلي في مسيرتهم التي سجلها التاريخ الإسلامي باعتزاز. مع العلم أن خير الدين لم يذكر ذلك في مذكراته ويستنبط القارئ من خلال كتاباته أن أمه كانت رومية من سكان جزيرة ميديلي، ما يفسر إتقان عروج للغتين الرومية بشكل لافت.

وعموماً لقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد أصل زوجة يعقوب حيث ذهبت بعض الروايات إلى أنها نصرانية أرملة كاهنٍ قبل أن تتزوج يعقوب الآغا.

نشأ الإخوة الأربعة في ميديلي نشأة إسلامية جادة، واختار أكبرهم وهو إسحاق طريق طلب العلم ودراسة القرآن الكريم والفقه، مع أن مصادر أخرى أشارت إلى أنه الأخ الأصغر إلياس.

وبحسب مذكرات خير الدين فإن أخاه “إسحاق” كان مقيماً في قلعة ميديلي فيما كان هو وعروج مولعين بركوب البحر، وعلى ذلك اقتنى عروج سفينة للتجارة بينما اتخذ خير الدين مركباً ذا ثمانية عشر مقعداً. وأخذ الأخوان يتنقلان ما بين “سلانيك” وجزيرة “أغريوز” لطلب البضائع وبيعها في ميديلي. لكن طموح عروج كان أكبر من هذه المسافة القصيرة، فغادر ميديلي مع أخيه الأصغر إلياس إلى طرابلس.

عروج ببروسا

القبطان عروج، أو بابا عروج ويعرف أيضاً بعروج ريس، ولد في جزيرة ميديلي في عام 879هـ (1474م)، وكان مولده في ليلة المعراج فسماه والده عروج تيمناً بهذا الحدث العظيم. نشأ على عشق مغامرات البحر وخاض غماره مبكراً منذ كان عمره 10 سنوات فقط.

بعد قراره توسيع خط تجارته، خرج مع أخيه إلياس نحو طرابلس لكنه تعرض في البحر لهجوم على يد فرسان جزيرة رودس الصليبيين؛ وهم فرسان القديس يوحنا، ورودس جزيرة تقع في الجهة المقابلة للساحل الجنوبي لتركيا حالياً، بين قبرص وجزر اليونان وهي تابعة لليونان. وفرسان رودس لقب أطلق على رهبان يحملون اسم “الإسبتارية” أو “فرسان المشفى” منذ أيام الحملات الصليبية.⁽¹⁾

استقروا منذ سقوط عكا 690هـ (1291م) ما بين جزيرة أرواد قبالة طرطوس على الساحل الشامي (حتى 702هـ / 1302م) وليماسول في (قبرص)، ثم شنوا حملة صليبية فاحتلوا جزيرة رودس (708-710هـ / 1308-1310م) وتابَعوا منها القرصنة لاستهداف سفن المسلمين لنهبها وأسر ركبها.

(1) فرسان الإسبتارية.

وتشير الروايات التاريخية إلى مقتل إلياس خلال الاشتباك مع فرسان رودس بينما اقتيد عروج أسيراً إلى جزيرتهم لعدة سنوات، ويحكى لنا خير الدين في مذكراته عن الهم والغم الذي أصابه بعد أسر أخيه، ومحاولته إنقاذه حيث استعان بصديق نصراني يسمى "غريغو" يدير تجارة مع جزيرة رودس ليساعده في فك أسر عروج مقابل مبلغ (18 ألف أقة (العملة الفضية المحلية))، وبقي ينتظره في بودروم، وفي نفس الوقت كان عروج يسعى لفكك نفسه فاتفق مع رجل مشهور يدعى "سانتر لو أوغلو" حيث كان يتفقدته كلما تيسرت له فرصة، فاتفق معه على تمثيلية لشراؤه من الصليبيين، وبالفعل جرت الأمور كما اتفق الرجلان وما لبث أن اشتراه حتى أحبطت الصفقة، ذلك أن "غريغو" كان خائناً وأفشى سر خير الدين لفرسان رودس، وأعلمهم أن الأخ يسعى لفكك أخيه، فأرجعوا للتاجر ماله واسترجعوا عروج، ثم صبوا جل نعمتهم وغضبهم على عروج بالتعذيب والأذى، وسجنوه تحت الأرض في زنزانة انفرادية وقيده بالأغلال .

وقد تختلف الروايات في ذكر تفاصيل التخطيط لتحرير عروج من رواية لأخرى، ويروي لنا خير الدين كيف مرت الأيام والليالي عسيرة على أخيه الذي قضاها في ابتهاج وتضرع وانكسار لله، وعن الرؤيا التي رآها في السجن حيث رأى شيخاً مشرق الوجه يقول له :

يا عروج لا تحزن بسبب ما أصابك من الأذى في سبيل الإسلام فإن خلاصك قريب.

وفي اليوم التالي تغيرت نفسية عروج، وإذ بالصليبيين يقررون إخراجه إلى إحدى السفن ليعمل فيها أسيراً جدياً. فقال عروج -الرجل الذي اعتاد على الإبحار حراً-: "إن العمل في الجدف على سطح البحر نعمة بالنسبة لمن رأى الأذى تحت الأرض، يا رب لك الحمد، فقد رأيت وجه العالم."

وكان والي أنطاليا آنذاك الأمير العثماني شاهزاده قورقود (872-919هـ-1467-1513م) أحد أبناء السلطان بايزيد الثاني، والأخ الأكبر للسلطان سليم الأول، واشتهر قورقود بإحسانه للأسرى الأتراك، حيث كان يشتري كل عام مائة أسير تركي من فرسان الجزيرة رودس ثم يعتقهم في سبيل الله، ويشاء الله أن يتزامن موعد تسليم الأسرى لذلك العام مع اختيار الرودسيين لنقلهم السفينة التي يعمل عليها عروج، ولم يكن ضمن الأسرى في الصفقة لكنه كان جدياً في السفينة التي تنقلهم، وكان عروج يتقن العديد من اللغات مثل الرومية، فيتبادل أطراف الحديث مع القباطنة ودارت بينهم أحاديث عن الإسلام فأظهر حبه الشديد لهذا الدين وثباته عليه، وقد راقب ذلك قسيس السفينة، الذي قال

للقباطنة: "يجب أن تحذروا مما يقوله عروج، فلا تتحدثوا معه كثيراً، إنه يبدو متعلماً ويعرف عن الإسلام أكثر مما أعرف عن المسيحية، إياكم أن تغفلوا فهو ملحد (كافر بالنصرانية) قادر على إضلالكم جميعاً".

وعندما اقتربت السفينة من سواحل أنطاليا رست، وأنزل المئة أسير كما جرت الاتفاقية. لكن في نفس الليلة هبت رياح معاكسة، فقرر القباطنة المكوث للصباح، وخرجوا لصيد السمك في قارب صغير مضىء، إلا أن الرياح ما لبثت أن تحولت إلى عاصفة شديدة، فلم يتمكن القارب من العودة للسفينة، وانتهز عروج هذه الفرصة، في الظلام الحالك، ففك قيده وقفز في البحر وسبح إلى غاية الساحل حيث سجد شكراً لله بعد أن فك أسره بعد سنتين إلى ثلاث سنوات من الأسر والتجديف لصالح الصليبيين .

وواصل سيره بعد ذلك مشياً على الأقدام إلى أن وصل إلى قرية تركية، فاستضافته عجوز فيها وأحسنّت إليه وأطعمته وسقته وغيّرت ملابسه فبقي عندها عشرة أيام، ثم قرر عروج أن يودّع العجوز ليذهب إلى ميديلي وفي طريقه مرّ بأنطاليا، فالتقى برجل شهير يدعى "علي رئيس"؛ صاحب سفينة حربية كبيرة ذات أشرعة هوائية، تحمل تجارته بين الإسكندرية وأنطاليا، فعرف عروج لشهرته ورحب به، ثم جعله قبطاناً على سفينته. ولم يتأخر عروج الذي استلم العمل مباشرة واتجه إلى الإسكندرية وفي ذلك الوقت اتجه خير الدين إلى ميديلي بعد أن عجز عن إيجاد أخيه. لكنه تلقى رسالة من عروج تطمئنه عن حاله وتروي له مغامراته، فسر بها أبما سرور. وكان لهذه الأحداث أثرها في رصيد تجارب الأخوين بربروسا.

دخل عروج مصر، وذاع صيته ليصل إلى سلطان مصر قانصوه الغوري، فعرض عليه أن يدخل في خدمته، حيث كان ينوي بناء أسطول يحمي المسلمين من هجمات البرتغاليين بعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح كما أسلفنا، فجعل القراصنة يغيرون على السفن الإسلامية المحملة بالبضائع إلى الهند، وسفن الحجاج، فيستولون عليها ويقتلون ويأسرون، ووصل عدوانهم إلى سواحل المسلمين في الهند وشرق أفريقيا، المطلّة على المحيط الهندي، والبحر الأحمر، فتحمس عروج للمشروع وشرع في بناء الأسطول لقيادته.

لكن الرودسيين علموا بالخبر، فأغاروا عليه بأسطول كبير في باياس، فلم يتمكن من حماية السفن لكنه أنقذ بحارته وأدخلهم إلى الأراضي العثمانية، وصرفهم إلى أسرهم ثم عاد هو إلى أنطاليا، وقرر أن يشغل الرودسيين بهجماته، فصنع سفينة ذات ثمانية عشر مقعداً، وبدأ يشن غاراته على ساحل رودس فقطع أنفاس الصليبيين بالهجمات. وأصبح مجرد الحديث عن ركوب البحر بالنسبة لهم مبعثاً للذعر والخوف.

ولم يهدأ للرودسيين بال حتى جمعوا أمرهم لشن حملة كبيرة ضد عروج، لكنه نجا منها مع بحارته وعاد إلى أنطاليا بينما عمد الصليبيون إلى إحراق سفينته التي كانت راسية في الأثناء في أحد المراسي. وحاولوا استعراض قوتهم بعرض السفينة المحترقة لكن قائدهم صرخ قائلاً: “نعم هذه السفينة لعروج لكنه ليس موجوداً فيها.”!

في هذه الأثناء، تحرك الأمير العثماني قرقود من أنطاليا إلى ساروخان حيث عين والياً عليها، وكان له خازان يدعى “بيالة باي”، وكان صديقاً مقرباً من عروج، فذكره لأميته قائلاً: “إن عروج رئيس عبد من عبيدكم المجاهدين، وهو يقوم بمجاهدة الكافرين ليلاً ونهاراً، لقد انتصر عليهم في معارك كثيرة، غير أنه فقد سفينته وهو يرغب في أن تفضلوا عليه بسفينة يغزو عليها”. ولم يكن الأمير قرقود يجهل شهرة عروج، فقبل ذلك واستدعاه، ثم أهدها سفينة حربية بـ 24 مقعداً مخصصة لمطاردة سفن العدو قائلاً: “ليتمكن من مجاهدة الكفار عليها.”

وعندما جاء عروج لاستلام السفينة في إزمير، وجد في انتظاره سفينتين، إحداها من الأمير قرقود والثانية من صديقه بيالة باي، باثنين وعشرين مقعداً. فشكرهما بشدة وخرج إلى فوجا ليمضي ليلته في الدعاء والعبادة والشكر، ثم في الصباح الباكر ألق بسفينتيه، وتعمق في البحر ثم بعد بضعة أيام لقي في سواحل بوليا سفينتين من سفن البندقية، فاستولى عليهما، وغنم ما فيهما من أموال، ووزع الغنائم على بحارته، وتوالت بعد ذلك معاركه مع الصليبيين وتضاعفت غنائمه.

استلام السلطان سليم الأول الملك

في هذه الأثناء استلم السلطان سليم الأول الحكم العثماني (918-926هـ) (1512-1520م) وخشي من أخيه قرقود على العرش، حيث جمع العزم على حرب الصفويين وكان يريد التخلص من أي منافسة على العرش أثناء غيابه، فقتله، ولذلك خشي الإخوة بربروسا الذين اجتمعوا آنذاك في ميديلي

للاحتفال بانتصارات عروج، من مصير أخيهم لأنه كان مقرباً من قرقود. خاصة أن السلطان سليم الأول كان قد منع الإبحار على سواحل الأناضول وكان قائد بحريته لا يَسْمَحُ لأحد بركوب البحر كما أمر السلطان.

فخرج عروج إلى مصر سنة 918هـ (1513م) وأخذ في طريقه سبع سفن للصليبيين مشحونة بالغنائم إلى الإسكندرية، وكان يشعر بالحياء من سلطان المماليك لخسارته سفنه الأولى، لكن فانصوة الغوري سرّ به كثيراً وأحسن استقباله. وشكره على إنقاذه البحارة على الرغم من خسارة 16 سفينة من أسطوله الذي عهد به إليه، واستقر عروج في مصر إلى أن حل الربيع، فاستأذن السلطان في الغزو، فأذن له، وهو الذي قال عنه لما لمسه من أمانته: “إذا كان في هذه الدنيا أحد يرعى حق النعمة ويعرف الفضل لأهله فهو ولدي القبطان عروج.”

ذلك أن عروج كان حريصاً على أن يرسل لسلطان المماليك من غنائه في البحر. وخرج عروج في عرض البحر ونشط بالقرب من سواحل “جربة” التونسية، وكثرت غزواته وتضاعفت غنائه.

من جانبها ألقّت الخلافات على العرش العثماني بظلالها على البحار، فكان العثمانيون يطاردون البحارة على أنهم من رجال قرقود لارتباط سيرته بالإحسان إليهم، ووصلت أخبار القبطان “باشا إسكندر باشا” (قائد القوات البحرية العثمانية العام آنذاك) لمسامع عروج وإخوته من جور وظلم بالغ في مطاردة قورقود وأصحابه. وفي هذه الأثناء التي كان فيها عروج ينشط عند سواحل جربة، كان خير الدين يتهيأ للخروج من ميديلي إلى طرابلس الشام محملاً بالبضائع للتجارة.

خير الدين بربروسا

واسمه الحقيقي خضر وعرف باسم خضر ريس؛ أي قبطان البحرية، حمل لقب أخيه اللحية الحمراء بعد وفاة عروج. ولد خير الدين بربروسا في عام 883هـ (1478م) في جزيرة ميديلي، لكن تاريخ مولده محل خلاف، حيث تتحدث بعض الروايات عن أنه ولد في عام 871هـ (1466م) وأخرى في عام 875هـ (1470م)، وكان مثل أخيه عروج مولعاً بركوب البحر منذ الصغر وعملاً معاً في التجارة البحرية.

وتقول الروايات أن لقب “خير الدين” أطلق عليه بعد عملية إنقاذ المسلمين من الأندلس حيث اقترح عليه من أنقذهم أن يتسمى به، وسنجد هذا الاسم محفوراً على لائحة «مسجد خير الدين» الحجريّة التي تُوّجُ لبنائه في إسطنبول حيث كتب عليها: “أمرّ ببناء هذا المسجد المبارك السلطانُ المجاهدُ مولانا خيرُ الدين ابنِ يعقوبَ بو تركٍ بتاريخِ جمادى الأولى من سنةٍ ستّ وعشرينَ وتسعمئةٍ (926هـ) المصادفِ نيسان/أبريل 1520م.”

بينما رجح المؤرخ عزيز سامح التركي أصل التسمية لاختلاط خضر بالعرب في شمال أفريقيا، فلقبوه بخير الدين استناداً لما كتب على مسجده وإلى النقود المسكوكة باسمه.

خرج خير الدين بربروسا كما أسلفنا من ميديلي إلى طرابلس الشام محملاً بالبضائع للتجارة، ثم رسي مؤقتاً في جزيرة “أيماوري”، فشهد فيها سفينة بأربعة وعشرين مقعداً للقبطان “فتاح التركي”، وكانت لجمالها كالحلم بالنسبة لخير الدين الذي كان يعشق السفن ويحلم باقتنائها، وكان صاحب السفينة قد توفي ويريد ورثته بيعها، فاشتراها منهم خير الدين وشعر “أن العالم صار كله له” كما وصف ذلك في مذكراته.

وطاف في البحر المتوسط طويلاً وعرضاً إلى أن بلغ جزيرة جربة حيث لقي أخاه عروج. فقال له في إشارة إلى هدفهما بعد الآن: “ما دام الموت هو نهاية كل حيّ، فليكن في سبيل الله.”⁽¹⁾

لقد كانت هذه العبارة شعار القبطانين اللذين شغل تاريخهما الغزو والظفر ثم يصورها الإعلام الغربي قرصانين وقاطعي طريق لتشويه التاريخ الإسلامي، وفي المقابل يشغل أذهان أجيال المسلمين ببطولات الأفلام المزيفة.

الفرق بين القرصنة والجهاد البحري

هناك فرق جذري بين القرصنة القائمة على السلب والنهب ومجرد الأذى والقرصنة التي تدخل في الحرب البحرية الدفاعية، بهدف ضرب اقتصاديات العدو. وقد شهد العالم حقبة من تجارة الرقيق التي كانت تستهدف المسلمين في عهد الملك الإسباني شارل الخامس (شاركان) ووسيلته في ذلك فرسان مالطا.

(1) مقدمة مذكرات خير الدين بربروسا صفحة 2.

وكانوا قبلها في جزيرة رودس التي فتحها الأتراك في عام 928هـ (1522م)، لذلك جاءت “القرصنة” الإسلامية كرد فعل على القرصنة الصليبية التي عاثت في البر والبحر فساداً. ويتفق المسلمون وحتى أعداؤهم على أن القرصنة الإسلامية كانت جهاداً في سبيل الله في البحر، وشهدت تطوراً مع نهاية القرن الخامس عشر. وانتعشت أكثر على سواحل شمال أفريقيا التي توفر الرسو والتموين والحماية بفضل صخورها العالية ومراسيها الكثيرة وخلجانها وطبيعتها الوعرة.

ومن المهم الإشارة إلى أن “أصحاب اللحي الشقراء” الأخوان عروج وخير الدين بربوسا، قد خاضا المعركة الكبرى الثانية الحاسمة ضد الصليبيين، في المغرب الإسلامي من تونس إلى أقصى المغرب، بعد المعركة الكبرى الأولى الحاسمة ضد هؤلاء الصليبيين؛ معركة صلاح الدين الأيوبي في المشرق من مصر إلى العراق.

الانطلاق من قاعدة تونس

وجد الأخوان المنطقة التونسية مناسبة لإطلاق نشاطهما في البحر، وكانت تونس عاصمة الدولة الحفصية (625-982هـ / 1228-1574م) فدخلا على سلطانها أبي عبد الله الحسن المتوكل بالهدايا والأموال، وطلباً منه أن يمنّ عليهما بمكان يحفظ سفنهم للجهاد في سبيل الله، على أن يبيعوا غنائمهم في أسواق تونس فتنتعش التجارة فيها ويدفعوا لخزينة الدولة نسبة مما يدخلهم من الغنائم . فقبل السلطان عرضهم ورحب بهم بسرور حيث كان بأمس الحاجة لقوة تحمي سواحله وتحرك اقتصاد بلاده.

ومنذ عام 920-919هـ / 1513-1514م) رسا الأخوان بربوسا في ميناء حلق الوادي، واستراحا خلال الشتاء لينطلقا مع الربيع بغزواتهما البحرية التي بارك الله بها فغنما الكثير من الغنائم وتصدوا لتهديدات الصليبيين في البحر وفكوا أسارى المسلمين وأسروا من أسرهم، ثم أرسلوا للسلطان نصيبه كما كان متفقاً ووزعوا على البحارة نصيبهم وتصدقوا بالكثير على الفقراء، فرفعت لأجلهم الأكف بالدعاء.

ورغم تضاعف الغنائم وتوالي الانتصارات البحرية إلا أن هذه المعارك لم تكن بلا ثمن، كما يحكي لنا خير الدين عن إحدى معاركهم مع مركب حربي كبير متجه إلى إسبانيا كان على متنه 300 إلى

400 مقاتل، فقال: “رفعنا راياتنا الذهبية وشرعنا في قصفهم، حاولنا سبع مرات الاقتراب من المركب، وفي المرة السابعة تمكنا من الاستيلاء عليه، في هذه المعركة فقدنا مائة وخمسين شهيداً، وجرح ستة وثمانون من رفاقنا بعد المعركة، وتبين لنا أنه كان في السفينة خمسمائة وخمسة وعشرون شخصاً، أسرنا منه مائة وثلاثاً وثلاثين، وأما الآخرون فقد تم قتلهم، كان من بين القتلى وإل لإحدى المقاطعات الكبيرة بإسبانيا.”

ومن طريف ما ذكره خير الدين عن هذه الغزوة أنهم غنموا سبعين أو ثمانين ببغاء وعشرون بازياً فأهدوها جميعاً لسلطان تونس.

وكانت هذه المعركة انعطافة كبيرة حيث ذاع صيت الأخوين بربروسا، فاتفقت ممالك الصليبيين على القضاء عليهما. وقال قادتهم: “لقد ظهر تركيان اسمهما: عروج وخير الدين خضر، يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولوا إلى تنين، علينا أن نحو اسميهما من على وجه الأرض، إننا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة.”

وبينما أطلق التحالف الصليبي حملته على الأخوين بربروسا خرجا هما إلى جنوة لكن الرياح أخذتهم إلى سواحل الجزائر، فرسوا أمام قلعة بجاية، والله إذا أراد أمراً هياً له أسبابه.

المغامرة في بجاية وإصابة عروج

عندما لم يعثر الأسطول الصليبي على الأخوين توجه إلى بجاية فوجدهما فيها، لكنهما أدركا بفراستهما أن القتال على الساحل فيه خطورة كبيرة، فقررا ركوب البحر بسرعة، ولما لاحظ ذلك الصليبيون ظنوه الفرار منهم، فطاردهم إلى عمق البحر وهذا ما كان يريد الأخوان بربروسا، فالتفت سفنهم لترجع مصادمة للعدو مما فاجأ الصليبيين وتعجبوا من هذه المناورة، ثم اندلعت معركة كبيرة بينهم، انتصر فيها الأخوان بربروسا انتصاراً كبيراً وغنما 4 من السفن من بينها سفينة القيادة وكان المفترض أن يعودا إلى تونس، بعدما فر من تبقى من أسطول الصليبيين واحتمى بقلعة بجاية.

لكن عروج أصر على مطاردة هذه السفن، وهو ما كان يعارضه خير الدين ويرى فيه المخاطرة، مع ذلك أصر عروج على قراره فرجع إلى قلعة بجاية، التي كانت تزدهم بالجنود الإسبان، فهاجمها واندلعت معركة عنيفة كاد أن يستولي خلالها على القلعة لكنه ما لبث أن أصيب بقذيفة في ذراعه الأيسر

فأسقطته بينما استشهد ستون من رفاقه وجرح الكثيرون، انتهز حينها الإسبان الفرصة وفتحوا أبواب القلعة للهجوم على عروج وجنوده .

فحزن خير الدين كثيراً على ما أصابهم وثار غضباً لينطلق كالأسد الهزبر مع 300 إلى 400 مقاتل، فأعملوا سيوفهم في الجنود الإسبان حتى قتلوا منهم 300 وأسروا 150 آخرين. في هذه الأثناء كان عروج قد فقد وعيه، فاستدرك خير الدين الجنود ورجع بالسفن، لكن هذه المرة رجع ومعه 14 سفينة بدل 4 سفن.

تفاقت حالة عروج ورأى الأطباء أنه لا بد من قطع ذراعه، ولم تكمل فرحة أهل تونس بانتصار الأخوين ببروسا وحجم الغنائم، حيث حزنوا على فقد عروج ذراعه. أما خير الدين فكان يحترق لحال أخيه فقال للجراحين: “من يقوم بإنقاذ ذراع عروج فإني سأكافئه بوزنه ذهباً أو أهب له عشرة أسرى يختارهم من أيهم شاء”. مع ذلك لم يجد الجراحون من بد إلا قطع ذراع عروج، فقبل بذلك خير الدين مضطراً وهو يبكي بحرقه كبيرة فلما رآه عروج على هذه الحال من الحزن والشدة قال له: “لماذا تبكي؟ هذا قضاء الله وقدره، إني أحمد الله على أني فقدت ذراعي في الغزو، تكفيني هذه النعمة”.

الخروج إلى سواحل الأندلس

استراح المقاتلون فترة الشتاء، واسترجع أثناءها عروج صحته، ليخرج من جديد في الربيع، في غزو جديد، سنة 920هـ / 1515م وهذه المرة إلى سواحل الأندلس، حيث كانت غرناطة قد سقطت في يد الإسبان. يقول خير الدين في ذلك: “كان الإسبان يقومون بمظالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سراً في مساجد سرية قاموا ببنائها تحت الأرض، لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعداب والإحراق، خلال ذلك قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس”.

وبالفعل لقد سجل التاريخ للأخوين إنقاذهما لعشرات الآلاف من المسلمين الأندلسيين ونقلهم من سواحل الأندلس إلى شمال القارة الأفريقية، ويظهر من مذكرات خير الدين أن عملية إنقاذهم استمرت

على مراحل. حيث تمّ نقل 70 ألف مسلم أندلسي في أسطول مؤلف من 36 سفينة، وتم تأمينهم في الجزائر وتوطنوا فيها في إحدى هذه المراحل.

ويذكر لنا من بطولاتهم في هذه المهمة، إفشالهم خطة هجوم للصليبيين، ذلك عند توغلهم في جزيرة مينورقة، حيث صادفوا نحو 200 مقاتل صليبي، مسلحين جالسين على ضفاف أحد الأنهار، يشربون الخمر، ويأكلون اللحم، أغلبهم فاقد للوعي، فقتل الأخوان بربروسا وجنودهما سبعين أو ثمانين منهم واستولوا على ما معهم من أغنام وعتاد، واكتشفوا بعد استجواب قائدهم أن مهمتهم كانت الهجوم عليهم في البر بعد أن تهاجمهم عشر سفن إسبانية في البحر؛ لمنعهم من إنقاذ المسلمين الأندلسيين، فانقلب السحر على الساحر، وغنم بربروسا من جديد السفن وتحول صيتهم إلى أسطورة.

الإعداد والتنظيم والكرم!

يظهر لنا ذلك الارتباط الوثيق بجزيرة ميديلي فلا بد أن يذكرها خير الدين كمحطة استراحة والتقاء بالأحبة، وكان مما يرويه في مذكراته عنها، أنه كان يتقاسم وإخوته فرحة نصرهم مع أهلها، فيقيمون الولائم، ويطعمون الفقراء، ويقومون بختان الأطفال وتزويج العذارى، فيدخلون السرور على قلوبهم، وكان يحرص الأخوان على إسعاد الأرامل والعجزة والمعاقين، كما أغدق البحارة بالمال الذي جنوه من غزوات البحر على التجار فأصبحوا يدفعون 5 أضعاف سعر البضاعة؛ لتعم البركة تجارتهم. وكان هذا السخاء والإحسان محط ترحيب كبير وسبب محبة أكبر لآل بربروسا بين أهالي ميديلي.

لم يكن الأخوان يجبان الاحتفاظ بالمال، فقد كانا ينفقانه كله على حاجات الإبحار أو تجهيزات الغزوات. وكان نظام البحارة يقضي بأن يتكلف الأخوان بطعام البحارة، حيث يتوفر مطبخ خاص في كل سفينة، يقدم اللحم مرتين في الأسبوع. مع ذلك كان البحارة يصرفون على أنفسهم لأن الطعام لم يكن فاخراً.

وجذبت شهرة الأخوين بربروسا وحسن تنظيمهم ونجاحاتهم الشباب المسلم من كل مكان، فلاحقوا بهما من الأناضول والروملي إلى جزيرة ميديلي للعمل كبحارة، فاختر القبطانان أشجعهم وأفضلهم لضمهم إلى صفوفهم.

لقد كان الأهالي يتقربون عودة غزاة البحر محملين بالخيرات، فينالون نصيبيهم من الصدقات، وكان يصل سلطان تونس نصيبه حتى أنه كان يثني على الأخوين بربوسا قائلاً: “شرفتم مملكتي، بيّض الله وجوهكم في الدنيا والآخرة، أنتم أسيادنا”. واختصهم بالشكر وقدم لهم الهدايا منها الخيول المجهزة تجهيزاً جيداً.

ولم يفت الأخوان بربوسا إكرام العثمانيين مع توالي الانتصارات وازدياد الغنائم، فأرسلا الكثير من الهدايا للسلطان سليم، عن طريق محيي الدين بيري رئيس البحرية آنذاك إلى إسطنبول، ومحيي الدين كان ابن أخت “كمال رئيس” وهو بحار تركي قاد الأسطول الذي أغار على سواحل إسبانيا بعد سقوط غرناطة بأمر من السلطان بايزيد الثاني؛ استجابة لاستغاثة الأندلسيين. وكان أول من قام بنقل المسلمين واليهود من الأندلس لتوطيئهم في الأناضول.

وسر السلطان سليم برسالة الأخوين بربوسا جداً، ودعا لهما وأثنى عليهما، وكافأهما بسفيتين لكل واحد منهما، زُينت مؤخرتهما بطلاء ذهبي، وشحنهما بالقذائف الجديدة.

واستقبل الأخوان هدايا السلطان العثماني بفرح كبير واستبشار. لكن هذا الكرم العثماني أثر في نفس السلطان التونسي الذي شعر بأن مكانة الرجلين ستنتهي إلى القيادة العليا في الدولة العثمانية، فتسلل إليه الحسد وانقلب تعامله الطيب، وبدأ يجعل مسافة بينه وبينهما. بحسبما ذكر خير الدين في مذكراته يصف بذلك تبدل معاملته معهم.

ومما أشار إليه خير الدين في مذكراته أنه “كلما نوى عروج الزواج ليستقر في ميدلي عزف عنه؛ لشدة حبه للبحر، الذي كان يفوق كل حب ولا يعدله أي شيء آخر في الدنيا”. في إشارة إلى شدة تعلقه بالبحر.

كما أشار إلى رؤيا جديدة رآها عروج حيث قال: “لقد رأيت في الليلة الماضية رؤيا صالحة، رأيت ذلك الرجل ذا اللحية البيضاء الذي بشرني بالنجاة عندما كنت أسيراً في رودس يقول لي: يا عروج توجه إلى الغرب، إن الله قد كتب لك هناك كثيراً من الغزو والعز والشرف.”

استغاثة أهل الجزائر

مما يرويه خير الدين عن رسالة الاستغاثة من أهل الجزائر؛ أنهم أثناء خروجهم إلى مضيق سبته (مضيق جبل طارق) لإنقاذ المسلمين في الأندلس، وصلتهم رسالة من مدينة بجاية جاء فيها:

إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم؛ لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سبباً لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار.

شن بعد ذلك الأخوان هجوماً على سفن الصليبيين في البحر وحرروا الأسرى المسلمين وكان هذا دأبهم في كل هجوم على سفن الصليبيين تحرير آلاف الأسرى المسلمين، ثم تقدموا لبجاية، في نحو ألفين وثلاثة وثلاثين بحاراً وعشرة سفن، ومئة وخمسين مدفعاً وآلاف الأسرى للتجديف.

واشتبك الأخوان ببروسا مع الجيش الإسباني المتحصن في القلعة، فاستمرت المعركة بينهم لساعات، قتل فيها الكثير من الإسبان، فلما سمع المسلمون من أعراب البوادي في بر بجاية بتقدم جيش ببروسا، سارعوا للحاق به، لكنهم كانوا يفتقدون للمهارات القتالية، وبعد قتال دام تسعة وعشرين يوماً، شارفت القلعة على الاستسلام لكن نقص المدافع منع من اختراقها.

في هذه الأثناء أرسل الإسبان تعزيزات كبيرة، فانسحب الأخوان ببروسا إلى جيغل وتمركزوا يراقبون حركة التعزيزات، وكانوا قد دخلوها وسيطروا عليها مسبقاً كخطوة مهمة في استراتيجيتهم التوسعية، واختلفت الروايات بشأن تاريخ دخولهم لجيغل، وأكثر المؤرخين أكد على أن دخولهم جيغل كان سنة 919هـ/1514م. والتي كانت محتلة من قبل جمهورية جنوا آنذاك، وساعدهم في فتحها أهاليها والقبائل الساكنة بها. فأكسبهم موقعها الاستراتيجي الإسناد اللازم لتحركاتهم، وأغناهم عن تونس، وسهل فتح بجاية والجزائر لاحقاً.

وأثناء رصدتهم للتعزيزات المرسلة للجزائر، لاحت في الأفق عشرة سفن كبيرة مشحونة بالأسلحة والمعدات العسكرية فقال عروج: “هذه نعمة ساقها الله إلينا.”!

وبدأ الهجوم على قوافل التعزيزات بصيحات التكبير والتهليل، وانطلقت معركة كبيرة، انتهت بانتصار الأخوين وغنيمة كل السفن، ولم يبق من جنود الصليبيين سوى ثمانية وسبعين أسيراً. فاستخدمهم الأخوان للتجديف.

الحرب خدعة!

قاد الأخوان السفن الإسبانية برايات صليبية نحو بجاية، فظن الجنود المتحصنون بقلعة بجاية أن المدد قد وصل، فرفعوا لهم القبعات تحية وفرحة. فما أن فتحت البوابات وهرع الإسبان لاستقبال المدد الزائف، حتى خرج البحارة بصيحات التكبير، فأصاب الإسبان الهلع، واضطربت صفوفهم فما لبثت أن فتحت القلعة وأضحى الإسبان يطالبون بالأمان.

بعد فتح القلعة جاء جميع قادة وشيوخ المنطقة من بجاية ونواحيها مبايعين لخير الدين وعروج فأصبحت ملكين على هذه البلاد. وفرح الأخوان بالنصر وشكرا الله أن أبدلهما عن ملك تونس بدولة جديدة لهما. وكانا قد لقيتا فيها من البارود ما يسد حاجتهما لمزيد من الغزو.

وفي الطرف المقابل، حلت الهزيمة كالصاعقة على الإسبان خاصة مع بقاء الآلاف من أسراهم في يد آل بربروسا. وكان ملك الإسبان آنذاك شارل الخامس؛ أعظم ملوك أوروبا في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (16 الميلادي).

حكم الجزائر

ذاع صيت انتصارات الأخوين بربروسا فجاءتهم الوفود من الجزائر إلى جيجل يطالبونهم بالنجدة، وخرج عروج لفتح الجزائر. ثم لحقه خير الدين، وفي هذه الأثناء دخل السلطان سليم الأول مصر، بينما سيطر الأخوان بربروسا على مناطق كثيرة في الساحل الأفريقي الشمالي.

ومما سلط عليه الضوء خير الدين في مذكراته أن عروج كان حوله الكثير من المجاهدين العرب والبربر والأندلسيين، لكنهم بلا مهارات قتالية كالأترک، يصل عددهم إلى ما بين 5 إلى 6 آلاف لكنه لا يعول عليهم في الاشتباكات العنيفة. وكان يرافقه بجارته المحترفون في السفن الأربعين التي حشدتها معه وهم فقط من كان يعول عليهم خير الدين.

باغت عروج العدو الإسباني في الجزائر، مستفيداً من ليلة مظلمة وعاصفة مرعبة، ومن هول المفاجأة بدأ الإسبان يقتلون بعضهم البعض، ثم بدأوا بإنزال كل من على السفن إلى البر. لكن عروج قاد ملحمة بطولية كبيرة، قضى فيها على فرقهم العسكرية، ومن البحر إلى البر استمر القتال شرساً، حيث تحصن ألفا مجاهد آخر كانوا ينتظرون لحظة الصفر للقضاء على القوات الإسبانية، وعندما حانت، أيّدوا عن بكرة أبيهم، وأخذ من نجا أسيراً.

وبلغ عدد أسرى الصليبيين في هذه المعركة ألفين وسبعمائة أسير. أما الشهداء فتلاثمائة، ووصل الخبر خير الدين ففرح كثيراً، ثم خرج مسرعاً للغزو حيث أوكل إليه عروج مهمة مطاردة المنافقين الفارين الذين كشفهم خلال دخوله الجزائر.

واستلم عروج حكم الجزائر بمباركة علمائها وأعيانها وأهلها في عام 922هـ (1516م) وكان استقبالهم له استقبال الفاتحين.

تنس في مرمى الأهداف

بعد فترة من الاستجمام واستراحة المقاتل، ومع إقبال الربيع المزهر، قرر عروج غزو منطقة تنس؛ إحدى مدن الجزائر الساحلية، وكانت تعاني الخلاف والنزاع، فتسلط على أهلها الإسبان، وتزامن ذلك مع رغبة الملك الإسباني السيطرة عليها، مدعياً أنه يريد إنقاذها.

فخرج له خير الدين في عشر سفن، فما أن رأته قوات الإسبان حتى فرت من الرعب، وتركت خلفها أربع سفن، استولى عليها خير الدين الذي نزل بقواته عازماً على القتال إلا أنه لم يلاق أي مقاومة بل استقبله المسلمون بترحيب كبير، ليبشروه بفرار الإسبان ليلاً وكأن حاله (نصرت بالرعب!) وطالبه السكان بأن يستلم عروج الحكم.

لكن خير الدين لم يطمئن لهذا الفرار، فأرسل ألفي غازٍ يتعقبونهم حتى أدركوهم في عرض البحر فقالوا لهم: "إلى أين المفر أيها الملاحدة المارقون؟ ألا تعلمون أنه لا خلاص لكم اليوم من أيدينا".

وحملوا عليهم بنيران البنادق وضربات السيوف، فانتهت المعركة بنصر مابين وأسر ثلاثمائة وخمسين جندياً صليبياً، وقتل البقية. أما الشهداء فبين سبعين إلى ثمانين قضاوا نحبهم في هذه المعركة، فضلاً عن الغنائم. واستقبل خير الدين المنتصرين على الساحل بنفسه.

كان لافتاً ذكر خير الدين لقول أمير تنس الذي هرب مع هروب الإسبان حيث قال هذا الأمير: “هنيئاً لملك إسبانيا فهو سينتقم لي من هؤلاء الأتراك” فعلق عليه خير الدين قائلاً: “لقد تبين لنا أن هذا الرجل لم يبق في قلبه ذرة من الإسلام”. وفي الواقع تمكن هذا الخائن من حكم البلاد بدعم الإسبان وبعض الأعراب من حوله، مما أغضب عروج غضباً شديداً ودفعه للمسير إليه لكن قبل ذلك جمع علماء الجزائر وقال لهم: “أيها السادة: ما حكم الشرع فيمن تملاً مع الكفار الإسبان وباع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين، وقابل نصحن بالكنود؟”

فكان جواب العلماء: “أن قتله واجب ودمه هدر وماله مباح”. ثم كتبوا هذه الفتوى وسلموها لعروج الذي خرج لتنس وضرب عنقه.

وضرب عروج أعناق من ساعده. وكان هذا الأمير ابن أخ سلطان تلمسان، وهي المدينة التي يرى عروج أنها مصدر الفتن، وكانت تلمسان تحت حكم الأسرة الزيانية، حيث آل مآها لدولة فاسدة يتحكم فيها الإسبان، بعد أن دام حكمها 300 سنة إلى أن قضى عليها البيلرباي صالح رئيس سنة 962هـ (1555م).

واستمر عروج في حكم الجزائر وضم لسلطانه كلا من تنس وشرشال حيث نظم هذه المناطق وقوى اقتصادها وأتمها ونظفها من الخونة وفي نفس الوقت أحبط المؤامرات التي تستهدفه، كل ذلك وعينه على تلمسان.

استشهاد عروج

كان عروج عازماً على الاستيلاء على تلمسان، لكنها لم تكن منطقة ساحلية للوصول إليها عبر السفن، وكانت محصنة بجيش من العرب والإسبان. وفتحها كان مهمة شبه مستحيلة، لكن ما ساعد عروج هم أهل تلمسان أنفسهم الذين راسلوه يشكون له ظلم حاكمهم وعمالته للإسبان، وباعوه مبكراً، فدخلها بلا قتال، مما أفزع الإسبان، وكان أول ما فعله قطع العلاقات مع وهران حيث كان

هناك القائد الإسباني مع جيشه، وهو القائد الأكبر في أفريقيا، وبقي عروج مع ألف من جنوده في تلمسان وترك البقية في الجزائر لحراستها خشية أن يستغل الأعداء غياب القوات عنها، حيث فوّض فيها خير الدين، بينما بقي عروج يترصد به الإسبان والسلطان الهارب الذي جمع حوله أتباعه وحظي بمدد القائد الإسباني في وهران.

جمع الأعداء عشرات الآلاف من الجند لقتال عروج فأدرك الأخير أنه يجب عليه إخلاء المدينة والتحصن في القلعة. واجتاح جيش العدو تلمسان فعات فيها فساداً ثم حاصر القلعة. في هذه الأثناء علم خير الدين بخبر الهجوم والحصار فأرسل ألف جندي تركي وألفي فارس عربي، تحت إمرة أخيه الكبير إسحاق. واجتمعت القوات، حيث دارت معركة شرسة كان فيها النصر لعروج الذي قتل مقتلة كبيرة من الصليبيين.

لكن ملك إسبانيا استنهض قائده في وهران فقام بإرسال ثلاثين أو أربعين ألفاً من الجنود لقتال عروج الذي كان متحصناً في القلعة، واستمرت المعارك 3 أشهر، وعروج وصحبه في قمة الاستبسال والثبات، فأرسل الإسبان رسولاً للقلعة يقدم لعروج عرضاً بالكف عن القتال والخروج بأسلحتهم على أن يسلموا القلعة مقابل إطلاق سراحهم، فاستشار عروج من معه ثم اتفقوا على تسليم القلعة، لكن العدو أضم الحيانة، فخرج عروج ومن معه وكان أغلبهم بين مصاب وجائع ومرهق، وبينما كانوا يتقدمون في طريقهم، لحقت بهم فرقة من الإسبان، من نحو عشرين ألف جندي، وطالبوهم بتسليم أسلحتهم فقال عروج :

الموت أفضل من تسليم السلاح، ما الموت حتى نخشاه؟ إن المرء يموت مرة واحدة لكن اسمه هو الذي يبقى خالداً!

بدأ القتال على هذه الحال من الضعف والشدة، فقتل عروج الكثير من الإسبان لكن بالمقابل كان يسقط في صفه الكثير من الشهداء، وكان يوماً شديداً الحركاد المسلمون يهلكون من العطش. وتمكن عروج من الوصول إلى النهر فلم يدركه الإسبان. وفي حين كان يمكنه الهرب عبره أوقفته صيحات الاستغاثة من جنوده، فاهتز لها بابا عروج، واندفع الأب الرحيم لنجدة بحارته، فقد كان لهم نعم الأب! ولذلك كانوا يطلقون عليه اسم بابا عروج .

وانغمس القائد الوفي الشجاع بنفسه في صفوف الإسبان، فقتل نحو 100 صليبي إسباني، قبل أن يسقط شهيداً.

ثم قطع الإسبان الحاقدون رأسه ومثلوا به وأرسلوها للملك كارلوس الذي أشفى غليله برؤيتها وأمر أن يطاف بها بين البلدان. وكان إسحاق قد استشهد قبله ببضعة أشهر في قلعة القلاع وإلياس قبلهم جميعاً. وهكذا لم يبق من الإخوة بربوسا إلا خير الدين حيث قتلوا جميعاً في المعارك مع الصليبيين.

واستشهد عروج ريس في عام 924هـ (1518م) ولم يتجاوز بعد منتصف الأربعينيات من عمره. قضاها في الغزو ومقارعة الصليبيين والخنوة وتحرير الأراضي المسلمة ونصرة المستضعفين والفقراء.

وللقصة بقية بعد أن حمل خير الدين بربوسا الراية وقلبه مثقلٌ بالحزن على فراق الأحبة والرغبة في الانتقام من الصليبيين⁽¹⁾.

(1) المراجع: كتاب سيرة المجاهد خير الدين بربوسا في الجزائر (تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد الله حمادي) - كتاب خير الدين بربوسا والجهاد في البحر (1470-1547م) بسام العسلي . كتاب الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربوسا (1512-1543م)

الأخوان بربوسا: خير الدين يحمل الراية ويؤدي الأمانة

وصل خبر استشهاد عروج لخير الدين فوق عليه كالصاعقة لمكانة عروج في قلبه حيث كان قدوته ومثله في الثبات والبطولة، لكن بهذا فقد اشتد عزمه على أن يضيّق على الكفار في أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط انتقاماً لمقتل آخر إخوته.

ففضى الشتاء في الاستعداد، وشغل نفسه بالعمل كي لا يفكر في عروج، وكان خير الدين سلطاناً على الجزائر بعد أخيه، فجاءته رسالة من ملك إسبانيا يقول له فيها: “لقد مات أخوك وقتل أكثر جنوده فكسر جناحك، من تحسب نفسك حتى تقف في وجه أقوى ملك مسيحي بدون أخيك؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ خذ سفنك ورجالك واخرج من الجزائر فوراً، وإياك أن تطأ قدماك أرض أفريقيا مرة أخرى، إن هذا آخر إنذار أوجهه إليك، سوف أملاً البحر بالسفن وأعود إلى الجزائر قريباً، فإذا تمكنت منك هناك فلتعلم بأن عاقبتك ستكون وخيمة.”

قال خير الدين في نفسه: “كنت سلطاناً على الجزائر وفي الوقت ذاته كنت عبداً بسيطاً لدى آل عثمان، بمنصب بايلرباي الجزائر، إلا أنني كنت أعرف في أوروبا باسم ملك الجزائر، وعندما خاطبني ملك إسبانيا بهذا الاستخفاف، كان من اللازم إيقافه عند حده لذلك كتبت له خطاباً في غاية الشدة وأرسلته إليه”. فكان رد الملك الإسباني على خطاب خير الدين أساطيل سدت الأفق، اشتركت فيها جميع الدول الصليبية، ورست سفنهم قبالة الجزائر وأنزلوا قواتهم للبر!

لكن خير الدين كان ينتظرهم. ولم يكن غافلاً عما يجمعه الأعداء، فاستقبلهم استقبال من يحب الموت فتوهب له الحياة، وأثخن فيهم بالسيف والقتل، فاستسلم له 700 إلى 800 صليبي من أصل عشرين ألفاً، ولاذ البقية بالفرار، وهزم الإسبان شر هزيمة وعلا ذكر خير الدين في العالم.

بعد هذا النصر المهيب، أمر خير الدين أن تقرأ الخطبة باسم السلطان سليم الأول وأن تضرب النقود باسمه أيضاً؛ لتصبح الجزائر بذلك تابعة لسلطان العثمانيين الذين رحبوا بهذا الانضمام، وكانت هذه الخطوة الذكية رادعة للإسبان الذين يحسبون ألف حساب للدولة العثمانية. وقد لجأ لها خير الدين مضطراً مع حجم التبرص والمكر الذي كان يحيط به والخيانات.

يقول في ذلك خير الدين: “لقد بقيت منفرداً دون أخوتي -الذين استشهدوا جميعاً فوق أرض الجزائر- وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره، وصاحب تونس الحفصي الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا، الذي أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا -أثناء حملة بجاية- لولا لطف الله، فالرأي هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية -وهو السلطان سليم خان- ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته، والدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة -النقود- باسمه، لتنفياً ظل حمايته، فاستكانوا لذلك ورضوا به وأعلنوا بالدعاء له على المنابر وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر”⁽¹⁾. وبالفعل قد أجمت هذه الخطوة الصليبيين إلى حين.

استمر خير الدين في مواجهة الصراعات والفتن التي تشتعل بفعل أعدائه، كما تمكن في الأثناء من فتح مستغانم وإسكان ألفين ومئتين وخمسة وثمانين مهاجراً أندلسياً فيها. كان قد أنقذهم من إسبانيا. وقدم لهم الأراضي لاستصلاحها والعمل فيها، وكانوا أهلاً لذلك بما يمتلكونه من حرف ومهارات.

كما سيطر على تلمسان مرة أخرى، وذكر خير الدين في مذكراته خلافه مع سلطان تونس وحليفه ابن القاضي وكيف هزمهم وأخضعهم بعد سلسلة مؤامرات وتربص به وتأليب الناس عليه.

الخلاف مع ابن القاضي

لم يكن أحمد ابن القاضي يملك القدرة على توحيد الجزائر وحمايتها من الإسبان قبل خير الدين، بل لم يكن للجزائر منذ أكثر من مئة سنة دولة ولا حكومة، لكن في عصر آل بربروسا توحدت واستقرت وأمنت وازدهر اقتصادها.

ومما ذكره خير الدين في مذكراته أنه بعد انتهائه من أمر السلطان الحفصي وأثناء عودته للجزائر قطع طريقه أحمد ابن القاضي -وكان على النقيض من والده المحب للأخوين بربروسا- وذلك في مكان ضيقٍ حيث وقعت معركة دامية تمكّن فيها سبعمئة وخمسون بجّاراً من تجاوز الكمين واستطاع خير الدين وجيشه الوصول إلى الجزائر.

(1) كتاب خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1547م) بسام العسلي ص 108.

لكن ابن القاضي كان يؤجج حركات العصيان والتمرد على حكم الأتراك، واستجاب له أحدُ بَحَّارَةِ خير الدين واسمه "قَرَه حَسَن" طمعاً في المنصب، لكن خير الدين تنبه لذلك فطرده.

واجتمع لابن القاضي 40 ألفاً، كانت أخبارهم وتحركاتهم تصل خير الدين بفضل جواسيسه المنتشرين. وبالفعل وقعت أول معركةٍ كبيرةٍ بينهما وانتصر فيها خير الدين وقضى على جنود ابن القاضي فلم يتبق منهم سوى سبعمئةٍ، والبقية بين قتيلٍ أو أسيرٍ، ثم جمع خير الدين قادة التمرد وجمع علماء الجزائر وسألهم عن الحكم الشرعي فيهم، واستشار بحارته في ذلك أيضاً، فكانت الخلاصة: القتل. وهكذا أفشل خير الدين ثورة ابن القاضي، وقضى عليها.

لكن كثرة الفتن والدعوات المناهضة لحكم الأتراك أشعرته بأن عليه ترك الجزائر لأمر أهلها، ورأى في الليلة التي أخذ فيها هذا القرار رؤيا فيها الخضر عليه السلام فاطمأنت نفسه لقراره، وعندما بدأ مع جنده بالمغادرة ونقل أسرهم وعوائلهم في السفن اجتمع عليهم أهل الجزائر يناشدونهم البقاء.

وبدأوا بالدعاء على ابن القاضي فخاف الأخير من عواقب ذلك، ثم راسل خير الدين يطلب منه العفو والعودة للحكم، فقال خير الدين للرسول: "ها هي مفاتيح قلعة الجزائر سلمها لسيدك المتلهف على السلطان والملك، وليأتِ إلى الجزائر وليستمتع بالجلوس على عرشها بعد أن ولغ في دماء المسلمين ولننظر كيف يدير أمور البلاد". وأرسل له الأهالي العلماء يرجونه للعودة لكنه رفض بأدب.

لقد كان خير الدين مضطراً لهذا الرحيل بعد ما شهدته من تشتت شمل الجزائريين وانتشار الفتنة وتمرد قبيلة زواوة بقيادة أحمد بن القاضي ومكر السلطان التونسي واستفادة الإسبان من كل ذلك، فلم يجد من بد إلا الخروج حتى يدرك أهل الجزائر حقيقة واقعهم بأنفسهم.

إلى جيجل

ذهب خير الدين إلى جيجل بعد خروجه من الجزائر سنة 927هـ / 1520م، فاستقبله أهلها أحسن استقبال وفرحوا بقدومه، ذلك أن كل ما كان يدخل الجزائر سيدخل بعد الآن إلى جيجل. ما يعني ازدهار اقتصادها، ثم وفد إليه أعيان الجزائر وتونس يباعونه لتبعتهم للسلطان سليم وإعلان براءتهم من ابن القاضي.

ثم انطلق خير الدين من جديد للغزو البحري وانتعشت بذلك جيغل وكما كان ينتظر أهلها، أصبحت كل الأرياح تدخلها بدل الجزائر.

وفي المقابل ندم أهل الجزائر على خسارة خير الدين، خاصة بعد أن شهدوا بأنفسهم تدهور أوضاع الحكم في البلاد، وفشله في حكمها وضعف اقتصادهم، فأرسلوا لابن القاضي وفداً من خيارهم يطالبه باستدعاء خير الدين، فغضب من طلبهم وقتل رئيس الوفد وكان عالماً من علماء الجزائر. ثم ارتفعت الشكاوى من ابن القاضي ومظالمه، واقترح المقربون من خير الدين عليه تنظيف الجزائر من هذا المتسلط. خاصة أن ميناءها الرائع أصبح في أسوأ حال وسمعة.

يذكر من ذلك اقتراح سنان رئيس الذي شجع بشدة استعادة الجزائر وكان قد خرج بأمر خير الدين لنقل المسلمين من الأندلس للجزائر، وعندما وصل لمينائها منعه ابن القاضي من إنزال اللاجئين وقصفه بدل أن يستقبل هؤلاء المستضعفين المثخنين بالآلام والجراح، فأثار ذلك غضب سنان وبحارته وكان يمكنه هزيمته لكنه خشي عصيان خير الدين.

لم تقف الوفود القادمة من الجزائر تطالب خير الدين بالتدخل وتخليصهم من ابن القاضي فجمع أمره وقوي عزمه وبالفعل دخل الجزائر واسترجعها وهزم ابن القاضي شر هزيمة، ووصف خير الدين قتال رجال ابن القاضي الذين حاولوا التصدي له بالغريب، كونهم كانوا يمثلون أنهم يقاتلون ثم يفرون لأعالي الجبال ويطالبون بالأمان. ثم انتهى أمر ابن القاضي بمقتله على يد أحد شيوخ العرب الذي أرسل برأسه إلى خير الدين. واستسلم كل جنده، فعفا عنهم حاكم الجزائر الجديد، وكان مقام عفو عند المقدرة، ومنهم من انضم إليه. فكان لهذا العفو بركاته.

ولابد من تسجيل الإعجاب هنا بطريقة تفكير خير الدين مع أزمة الجزائر فقد كان من القرارات الذكية التي اتخذها صاحب اللحية الشقراء عند انتفاضة ابن القاضي عليه انسحابه بسلام وترك السلطان لمن ينازعه فيه، فقد كان على ثقة أنه سيفشل في حكم البلاد، وصدق حكمه، فما لبثت بعد ذلك الوفود تنطلق من الجزائر ترجو من خير الدين العودة للحكم بعد أن ثبت فشل ابن القاضي. وانتهى الأمر بعودة خير الدين مكرماً وبقناعة تامة من الجزائريين بأنه يستحق بجدارة قيادة البلاد.

ثم إن امتلاك القوة وانتزاع الملك أمر، وقيادة الحكم واستمرار التمكين أمر آخر.

ومن يتأمل في التاريخ يجد أن القائد الذي جمع بين القوة والسياسة استطاع أن يحفظ ملكه، أما من اقتصر على القوة فما لبث أن تلاشى ملكه.

إن امتلاك القدرة على سياسة شؤون الحكم عامل فارق في استمرارية التمكين وازدهار الدول. وهذه صفة امتلاكها خير الدين بربوسا فمكّن الله له.

ملك الجزائر يحكم بالشريعة ويقتص من الأعداء

استقر خير الدين في الجزائر فعمل على إصلاح أمرها وخدمة أهلها وتقوية اقتصادها، حتى تتمرّد حاكم تلمسان فتوجه إليه وقضى عليه ثم أجلس مكانه ابنه الذي بدوره كان معارضاً لأبيه ومختلفاً معه.

وكان خير الدين يهتم بتطبيق أحكام الشريعة، لذلك يقدر علماء الجزائر ويستفتيهم عند كل حادثة أو قضية، مثل أخيه عروج، ولا يقدم على أمر قتل أو إقامة حد حتى يحصل على فتوى منهم؛ ليكون الناس على بينة من الأمر، ومن ذلك أنه استتاب حاكم تلمسان، ثم أعاد قرانه مع زوجته باعتباره قد ارتد عن الإسلام فبطلت عقود زواجه.

وذكر خير الدين في مذكراته من هذه الحقبة خبر القلعة الصغيرة التي احتلها الإسبان والمطلة على الجزائر، حيث كانوا قبل سيطرته عليها كلما سمعوا الأذان يحطرون الناس بالقصف، لكنهم جنبوا لما استقر خير الدين في البلاد. ولم يكن الأخير غافلاً عن عدوانهم، فأمرهم بإخلاء القلعة فرفضوا، فقصفهم حتى استسلموا له، ثم أخذ خير الدين قائد المدفعية الذي دمر العديد من المآذن وقتل الكثير من المؤذنين، فقال له: “أيها الكافر أنت رام ماهر لقد كنت تدمر المنارة بقذيفة واحدة انظر الآن كيف يكون الرمي الحقيقي!” ثم أمر بوضعه في فوهة مدفع وقذفه في البحر، ثم قتل مساعده وعشرة من جند المدفعية وسجن البقية.

ثم فجر القلعة وأمر الأسرى الـ 30 ألف الذين كانوا تحت يده بجمع الصخور لبناء كاسر أمواج يربط بين القلعة والميناء، بهذا الشكل تمكن من بناء ميناء محمي وجميل للجزائر.

ومما يجدر تسليط الضوء عليه في سياسة خير الدين أنه كان من عاداته دعوة أسراه الضباط والقباطنة والولاة والرهبان والفنانين لتبادل أطراف الحديث كأصدقاء، ثم يستقي منهم الأخبار بطريقة غير

مباشرة، منها ما يصل إلى حد أسرار القصور، وكان له جواسيس في كل أوروبا وكل الطرقات، مما ساعده في التصدي لكل السفن الإسبانية والاستعداد للمؤامرات.

ولعل جانب الاستخبارات في عمل خير الدين يستحق العناية والاهتمام لأنه سر مهم من أسرار تفوقه على أعدائه.

مساعدة الأندلسيين مستمرة

لم يتوقف خير الدين عن مساعدة الأندلسيين المضطهدين، فبعد أن مرض قائد بحارته سنان كلف إيدين ريس بهذه المهمة قائلاً له: "ولدي إيدين، في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط، عليك أن تمضي إلى أن تتوغل في مضيق سبته، وفي أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تدع لهم أية فرصة للنيل منك، ثم احمل في سفنك من تقدر على حمله من إخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة، فأت بهم سالمين إلى الجزائر، لتكن بركة دعائي تحفظك، في غزوك فلا تقصر في أخذ الأسباب."

وقد تفانى قادة خير الدين في نصره الأندلسيين، يذكر من ذلك الكمين الذي نصبه لهم الإسبان بقيادة الأميرال "بورتونديو" حين عودتهم محملين بعدد كبير من اللاجئين أغلبهم نساء وأطفال في عشر سفن سنة 936هـ / 1529م أو 937هـ / 1530م، فاضطر إيدين إلى إنزالهم على الساحل رغم بكائهم وتوسلاتهم الشديدة؛ خشية التخلي عنهم، ثم خاض القائد البحري المحنك المعركة مع الأسطول الإسباني فهزمه شر هزيمة وغنم من سفنه ثم فك أسرى الأندلسيين الذين كانوا على متنه، وأعاد تحميل اللاجئين الذين كانوا يتابعون المعركة من الساحل ويلهجون بالدعاء لهم، ثم رجع إلى الجزائر منتصراً. بعد هذه المعركة أطلق النصارى لقب "الشیطان الضارب" أو "الكافر الضارب" على الأتراك. وأصبح بعدها إيدين رئيس أسطول الجزائر.

الصراع مستمر مع الإسبان

استمر خير الدين في قهر الملك الإسباني كارلوس حتى قال لقادته وأميرالاته: "لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروسا".

فتصدر قائده "أندريا دوريا" متوعداً خير الدين بالهزيمة والقتل. وخرج بعد ذلك بأسطول سفن تحول لغنيمة في يد إيدين، قائد خير الدين، حيث حرر ألفين ومئتي أسير سجدوا لله شكراً على فك أسرهم. كما أسر بالمقابل ألفاً و900 صليبي. وذاع صيت إيدين في الأطلسي، وحظي بدعم الدولة العثمانية. ونلاحظ أن البطولة لم تكن حكراً على الأخوين بربروسا بل لمع نجم العديد من القادة في عصرهم منهم إيدين وسنان وكمال. وهذا باب يستحق العناية والاهتمام، سير وبطولات فرسان الإسلام في البحار.

الأندلس تستقوي بخير الدين

ارتفع ذكر خير الدين بربروسا وبلغت انتصاراته المسلمين في الأندلس، فقويت قلوبهم وأعلنوا الثورة على الصليبيين الإسبان، فنزل ثمانون ألفاً ممن كان معتصماً بالجبال لمهاجمة القوات الإسبانية فكبدوهم هزائم كبيرة.

وما كادت أخبار الثورة تصل خير الدين حتى أمر مُجدُّ رئيس بالخروج بأسطول كبير لنصرة الثائرين، فشرع فوراً في إمداد الثوار في السواحل الإسبانية.

وفي ذلك التاريخ كان أسطول خير الدين قد شن 21 حملة على إسبانيا، حيث كان ينقذ في كل منها آلاف المسلمين من الرجال والنساء والأطفال من المحارق والسيوف الإسبانية، ينقلهم إلى سواحل شمال أفريقيا. وقاد الأسطول بنفسه في أغلبها كما تولى قيادته إيدين رئيس وسنان رئيس. كل ذلك خلال حكم السلطان سليمان القانوني وهو أمر تكرر في فترة أبيه سليم الأول وجده بايزيد.

قال خير الدين في مذكراته يصف الصليبيين الإسبان: "إن كفار إسبانيا لا يشبهون غيرهم من كفار الإفرنج، لقد كانوا في غاية الظلم والغرور، متعطشين للدماء كالكلاب المسعورة."⁽¹⁾ لقد حمل هذا القائد المسلم الفدأمانة تأمين المسلمين ورد عادية الصليبيين الظالمين.

(1) ص 158 مذكرات خير الدين بربروسا.

خير الدين في إسطنبول

لقد كان خير الدين يزور السلطان العثماني كلما غنم غنائم كبيرة لكنه كان شديد الحذر في تحركاته يحسب حساب غدر الأعداء فيؤمن المدن جيداً قبل أن يتحرك للقاء السلطان. واستمر في غنيمته الأساطيل الإسبانية، وتقديم الغنائم للسلطان العثماني، وكان في كل مرة يدخل فيها إلى إسطنبول غانماً مظفراً يستقبله أهالي إسطنبول يفوق عددهم 200 ألف شخص عند المرسى. ويتم الاستقبال في عرض مهيب، حيث يعرض خير الدين الأسرى من الأدميرالات وكبار قادة جيوش أوروبا والولادة والأعيان من بينهم أقارب الملك الإسباني الذين أسرهم في غزواته.

فزاد ذلك من رفعة مقامه في عين السلطان العثماني سليمان القانوني الذي جعله قائد أسطول الدولة العثمانية بلا منازع في عام 939هـ (1533م) وكان السلطان العثماني ينوي غزو إسبانيا وبدأ الترتيب على هذا الأساس مع خير الدين وسلطان حلب.

لقد حمل خير الدين همة عجيبة، حتى أنه كان يرغب في غزو أمريكا وقد استأذن الصدر الأعظم إبراهيم باشا في ذلك عند لقائهما في حلب لكنه لم يتحمس لطلبه وطلب منه التركيز على المتوسط ومناطق نفوذ العثمانيين.

وأذهل خير الدين حجم الإمكانيات التي تتمتع بها الدولة العثمانية في مجال الصناعات البحرية، وأبهره مصنع السفن العثماني الذي كان يحتضن مئة ألف عامل، يعملون كخليفة نحل في صناعة السفن. وكان الكثير منهم من الأسرى لكنهم يحصلون مقابل جهودهم على أموال تمكنهم من فداء أنفسهم، فيتفانون في العمل، وبعد أن درس خير الدين جميع جوانب هذا الميدان، أجرى إصلاحات على الأسطول وبدأ بشن هجمات عملاقة بحجم أسطوله فكبرت معها أحجام الغنائم وأعداد الأسرى لكن كان طبيعياً أن يصنع ذلك له الحساد.

وكما وصف ذلك خير الدين، فإن حساده لم يسبق لأحد منهم أن فتح قلعة واحدة في حياته، ولا أخذ سفينة واحدة، ولذلك لم يتمكنوا من أذيته أو إسقاط هيئته.

مجزرة تونس

توطد ملك بربروسا في عمق تونس خاصة بعد الوحشة التي فرقت بينه وبين حاكمها الحفصي بسبب التقارب مع العثمانيين، فلجأ الأخير للملك الإسباني؛ ليخرج الأتراك من تونس فتجهز له خير الدين . ولكن وقعت الخيانة التي لم تكن في الحسبان؛ حيث تم الإفراج عن آلاف الأسرى الإسبان في تونس فاستولوا على المدينة بوحشية تزامناً مع سقوط قلعة حلق الوادي التي كان يحاصرها الملك كارلوس الذي خرج بنفسه مع خيار قاداته لهذه المعركة الكبيرة.

ففقد خير الدين في هذه المعركة آلاف البحارة واستشهد قائده الثقة إيدى رئيس.

لكن الأكثر إيلاماً، كان ينتظر تونس بعد دخول الإسبان الصليبيين حيث سطروا المجازر بحق العزل، فذبحوا 30 ألف مسلم عربي، وأسروا عشرات الآلاف من النساء والأطفال كرقيق، ودمروا المساجد والمدارس وحتى المقابر، ونهبوا القصور. كما حرقوا آلاف المخطوطات والكتب في مكتبات تونس، فقتلوا على ثروة علمية وفنية نادرة. ولأنهم فشلوا في أسر خير الدين أفرغوا حنقهم على الشعب المسكين فتحولت البلاد إلى بلاد غارقة في الدماء.

قال عن هذه المجزرة ابن أبي الضياف: “إن ثلث سكان تونس تمت إبادتهم وأسر ثلثهم وطمست معالم المدينة تماماً.⁽¹⁾ وخضعت تونس والحفصيون للإسبان لكن بقيت المناطق الجنوبية وجميع السواحل الشرقية خاضعة للعثمانيين.

فشن على إثر ذلك خير الدين هجمات انتقامية ثقيلة على قلاع الإسبان امتدت حتى الأطلسي، وسلم كالعادة خمس الغنائم للخزانة العثمانية مع هدايا ثمينة للسلطان والوزراء.

الحملة العثمانية على إسبانيا والبندقية

أطلقت الدولة العثمانية حملة على إسبانيا والبندقية وفي ذلك الوقت كان صالح رئيس يقود سفينته من الهند إلى إسطنبول فالتحق بهم، ورصد الإسبان حملة العثمانيين فجمع الملك كارلوس جميع أساطيل

(1) أحمد بن أبي الضياف إتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.

البندقية وجنوة والبابوية وفلورنسا ومالطا، وجعلها تحت إمرة أندريا دوريا، يقول خير الدين واصفاً هذا الجمع: “في حياتي لم أر ولم أسمع بل حتى في كتب التاريخ لم أقرأ عن أسطول بهذا الحجم.”!

كان أسطول التحالف الصليبي يشمل أكثر من 600 سفينة، ويحمل 60 ألف جندي! بعض سفنه كانت تقل 2000 جندي! بينما كان لدى خير الدين 122 سفينة، مع 20 ألف جندي فقط.

معركة بروزة التاريخية

كان هذا الحشد مقدمة لمعركة بروزة التاريخية التي جرت على السواحل الإيطالية سنة 945هـ (1538م) بين قوتين بحريتين غير متكافئتين.

وكان خير الدين بروسا مع بداية الحملة العثمانية قد تمكن من فتح ثمانية وعشرين جزيرة وسبع قلاع خاضعة لجمهورية البندقية، ثم جعل على كل منها حامية ليغير بعد ذلك على أغريوز ويأخذ 20 ألف أسيراً أرسلهم جميعاً إلى إسطنبول.

وأمام هذا التقدم جمعت أوروبا أسطولها لملاقاته، فالتقى الجمعان عند قلعة بروزة التي تقع في الزاوية الشمالية الغربية من خليج صغير، لقد كان مدخلها ضيقاً جداً، لا يمكن للعدو أن يمر فيه قبل تدمير مدافع الأتراك المنصوبة على أسوار القلعة. وكان تحقيق ذلك أمراً في غاية الصعوبة.

وكان برفقة خير الدين قائده تورغوت رئيس، فتحركا بسفینتهما أمام أسطول الأوروبيين، فلما شاهد أندريا ذلك، أصابه الدهول من هذه الشجاعة. وفي اليوم التالي تواجه الطرفان من جديد وكان مع خير الدين ابنه؛ ابنه الحقيقي حسن رئيس وابنه المعنوي حسن رئيس الثاني، والشيخ سنان رئيس، وجعفر رئيس وشعبان رئيس وصالح رئيس، وسيد علي رئيس؛ الذي وصفه خير الدين بالعالم والشاعر الكبير. وهو الذي أملى عليه مذكراته فكتبها بخط يده. وبقي تورغوت رئيس في الأسطول الاحتياطي في المؤخرة.

ومع أن أسطول الصليبيين كان ضخماً إلا أن هذه الضخامة أكسبت خير الدين نقاط تفوق عليه، فقد كان بإمكان خير الدين التحكم في جميع وحدات أسطوله، على عكس أندريا الذي كان عاجزاً عن إدارة كل هذا الكم من السفن.

كذلك الجنود الأوروبيين القادمون من مختلف الدول الأوروبية لم يكونوا يفهمون لغات بعضهم البعض كما لم يكن عدد منهم يحب القائد دوريا.

من جهة أخرى كان مدى مدافع العثمانيين أبعد من الصليبيين، إضافة إلى أن موقع خير الدين الاستراتيجي كان يسمح له بالمناوراة بشكل أسهل، وكان أسطول خير الدين سريعاً بالمقارنة مع الأسطول الأوروبي البطيء، مما سهل عملية اختراقه وقصفه، وكما وصف ذلك خير الدين في مذكراته، كان رفاقه البحارة خفيفين لكن الكفار كانوا مثقلين بالدروع التي تعوق حركتهم. لذلك كان جنود خير الدين يقتلون الصليبيين برشاقة وخفة.

لكن التفوق الأكبر قال عنه خير الدين: “كان في قوة إيماننا وتبعيتنا لمولانا سلطان العالم” في إشارة لسلطان الدولة العثمانية.

وكانت الأحوال الجوية في صالح المسلمين في هذه المعركة فقد وقف خير الدين قبل المعركة يتضرع لله في ذلة وانكسار عندما شاهد ملامح عاصفة مقبلة، لكن بعد الدعاء، هدأت بواورها وتلاشت.

أتعب خير الدين دوريا بالمناورات المباغطة، وعندما حلّ الليل أطفأ أنوار السفن، في ليلة مظلمة، وخلال ذلك كانت نصف سفن التحالف الصليبي في قاع البحر جراء القصف العنيف الذي شنه خير الدين عليهم، وكان نصراً مدوياً ذلّت له رقاب الصليبيين من الصدمة ففروا لا يلوون على شيء. وبذلك انتقم خير الدين لمقتل إخوانه على يد الصليبيين ومرغ أنف التحالف الصليبي.

وعمت الاحتفالات كل ديار المسلمين والتهاني والمباركات، ولكن خير الدين كان يعشق الغزو، فحمل ابنه وصهر ابنه تورغوت لعرض البحر غزواً في سبيل الله من جديد!

وأعقب معركة بروزة السيطرة العثمانية على البحر الأبيض المتوسط لأكثر من 30 عاماً.

حملة شرلكان على الجزائر

كان حسن باي ابن خير الدين يشرف على شمال أفريقيا بالنيابة عنه، وعندما سمع خير الدين بأن الإسبان ينوون الهجوم على المنطقة باغتهم بهجوم على جبل طارق فاستولى على قلعة لهم لتصبح

قاعدة لغاراته على الأراضي الإسبانية، فلم يجد الملك كارلوس الخامس هابسبورغ - ويعرف باسم "شارلكان" - من حيلة إلا إرسال رسالة يائسة لخير الدين قال فيها:

"إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بيلربايا عليها حسبما تقتضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك، وها أنا ذا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان، على أن أجعلك ملكاً وحيداً على كل البلاد الأفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، وليكن معلوماً لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفاً لي، بل يكفي أن تكون صديقاً لي، وتقطع صلتك بالعثمانيين، فهذا كل ما أريده منك."

فعرض خير الدين الرسالة على العثمانيين فنصحوه بكسب الوقت بالمفاوضة حتى يتبين لهم نوايا كارلوس. وبالفعل أخبر الملك الإسباني عن استعداده للتفاوض، ففرح جداً بقبوله خيانة العثمانيين.

وأرسل الإسبان مندوبين لمفاوضة خير الدين، كان معهم طبيب يهودي من رعايا الدولة العثمانية يدعى روميو. فجاءوا إلى ابنه حسن باي، وبعد المفاوضات قام حسن باي بطرد الرسولين الصليبيين من الجزائر واعتقل اليهودي باعتباره أحد رعايا العثمانيين فأرسله لإسطنبول. فأصابت الدهشة الإسبان، مع ذلك كرروا طلبهم هذه المرة بشكل مباشر مع ابن خير الدين؛ حسن باي.

واستمرت 3 سنوات منذ معركة برروزة في المناورات السياسية بين الإسبان وآل بربروسا انتهت بحملة جديدة على الجزائر. لكنها باءت بالفشل، فقد كانت استخبارات خير الدين قوية، وتسلل العديد من البحارة الذين يتقنون الإسبانية بين جنود الصليبيين فينقلون أخبارهم ويجبطون تحركاتهم، ثم بعد الاشتباك، انتهت المعركة بينهم بقتل 20 ألف صليبي والاستيلاء على السفن والغنائم، وساعدتهم الأجواء العاصفة آنذاك.

وقال خير الدين للصليبيين الإسبان على إثر هذا النصر الجديد الذي سجل بتاريخ 948هـ (1541م): "إن هذا الظالم العائد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة، قد قام بإحراق آلاف البشر في العالم الجديد، فأراد هذا الملعون الكافر أن يتسلط على الجزائر لأنه ظن بأنها مثل العالم الجديد، الويل لبلدة مسلمة تقع في يد هذا الظالم، ترى كيف سيكون مصيرها؟ لقد ضرب لنا الكافر مثل السوء عن ذلك

في تونس قبل سنوات مضت! ” في إشارة إلى الإبادة العرقية للهنود الحمر في أمريكا، ما يدل على أن خبرها كان منتشرًا.

ولم يتحمل الملك الإسباني ما حصل معه، وكان ممن فقدوا كل شيء في هذه المعركة ولم يتبق لهم إلا ذبح خيولهم ليأكلوا لحمها، فذبح فرسه الثمينة ليعيش! واضطر لإلقاء تاجه عند فراره في البحر . بل كاد أن يقع في الأسر لولا تداركه فرسان مالطة وكان عدد رجال حسن باي قلة. وكثير من التفاصيل لم تذكر عن هذه المعركة الرهيبة التي سرت الأشعار تمجد نصر المسلمين فيها.

ومما قيل فيه:

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا * فليس له إلا هُم من زواجر

فجهز أسطولاً وجيشاً عرمرماً * ولكنه قد آب أوبة خاسر

وشارك هذه الفرحة حتى اليهود الذين كانوا يبغضون الإسبان، بعد حملة الاضطهاد في الأندلس، فوجدوا النصر والأمن على يد المسلمين ونظموا في هذا النصر القصائد! واستمروا في إحياء ذكرى النصر إلى غاية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي).

بعد هذا النصر العظيم أُطلق على حسن باي اسم “الغازي”، وكان بالفعل خير خلف لخير سلف، فقد قاد هذه المعركة بنفسه ولم يكن معه والده القائد الفدّ خير الدين. وتم ترقية حسن باي إلى مرتبة بايلرباي على الجزائر، وكان والده أول بايلرباي على هذه البلاد.

ومما زاد هذا الانتصار عظمة، أن هزيمة الجيش الصليبي الضخم كانت على يد قائد لواء بحرية! وليس على يد قائد عظيم بشهرة وصيت. لذلك قال خير الدين: “إن هذه الهزيمة سوف تحفر في ذاكرة التاريخ على أنها من الحوادث النادرة التي قلما تتكرر.”

ولكنرة الأسرى الذي أسرهم حسن باي في هذه المعركة نزلت أسعارهم بشكل كبير في سوق الرقيق. أما الملك كارلوس فأمضى شهوراً معتكفاً في الكنيسة لا يغادرها إلى أن مات من شدة القهر.

حملة خير الدين على فرنسا

لقد أصبح اسم خير الدين بروسا وأسماء قاداته مبعث ثقة وشهرة وعنوان كل من ينشد النصر، وبين عامي 950هـ و951هـ (1543م و1544م)، استنجد به حتى الفرنسيون حيث خرج خير الدين في حملة على فرنسا لتلبية نداء استغاثة ملكها فرنسوا الأول لتحرير مدنها من الاحتلال الإسباني، العدو اللدود لآل بروسا. وفرصة لكسره وإذلاله، فعسكر خير الدين في مرسيليا وتمكن على إثر ذلك من طرد الإسبان من تولوز ونيس وألحق بهم هزيمة تاريخية أخرى. واستمر في انتصارات ونجاحات إلى أن لقي ربه.

نهاية الرحلة

لقد طاف خير الدين برايته البحار وقضى عمره فوق الماء، يتحالف مع القوى المسلمة التي حملت نفس الهم: تأمين المسلمين في صراعٍ دامٍ مع الصليبيين، وإحباط المؤامرات والكمائن، وإقامة سلطان الإسلام، وذلك ما عكسته رايته التي طالما رفرت بعزة على أسطوله، واشتهر بها في الحروب والمعارك، حيث كتب أعلاها الآية القرآنية من سورة الصف: (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ). تليها عبارة «يا مُحَمَّد». ثم أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة: أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي علي الجانبين. وفي منتصفِ الرايةِ رسم لسيف علي بن أبي طالبٍ ذو الفقار. ثم نجمة سداسية في الأسفل تعرفُ باسم خاتم سليمان. أو تكتفي الراية بكتابة عبارة «لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله.»

ولاشك أن مثل هذه الأحداث العظيمة رافقها الكثير من التفاصيل الدقيقة، والخبائات والتضحيات مع التنبيه لبعض المبالغات من الرواة الذين يدخلون فيها خرافات الصوفية، ولعل من أبرز الدروس التي تركها الأخوان بروسا في تاريخ الجهاد البحري؛ هي طرائق القتال في البر والبحر، التي تحاكي أسلوب حرب العصابات، حيث تعتمد على مرحلة الاستنزاف ومرحلة الهجوم الشامل، إذ كان من المحال أن يجابه الأخوان بما يملكانه من عدة محدودة التفوق الذي تميز به التحالف الصليبي إلا بهذا الأسلوب الذي يعتمد على حركة مجموعة خفيفة توجه ضربات عنيفة ومباغتة للعدو ثم تنسحب قبل أن يستفيق من الصدمة مذهولاً! ومع استمرار هذه الضربات استنزفت قدرات العدو المادية والمعنوية قبل أن يواجه الهجوم الشامل الذي يقضي عليه تماماً.

ومثل هذه التكتيكات الحربية تتطلب كفاءة قيادية فذّة وصبراً وبصيرة. وفي المحصلة فلا بد أن انتصارات الأخوين كانت محصلة طبيعية لانسجام العوامل الثلاثة: دعم الشعب المجاهد، والقيادة الراشدة، والعقيدة القتالية الإسلامية الرائدة.

ومما يجدر تسجيله كذلك، أن خطابات قادة الإسلام للأعداء عبر حوادث التاريخ حُطّت بحبر العزة.. فلا بد أن تأسرك! قلوبهم كمدافع الحق، تحسم المعركة من مجرد رسالة يتلقاها العدو فترتعد لها فرائصه! ولا يمكن لأمة أن ترجع لسابق عهدا من الريادة والتفوق إلا حين يصبح أبطالها يشغلون أذهان الأجيال لا أبطال أعدائها! وهذه وصية أخرى يجب العناية بها مع الأجيال لتناقل ميراث البطولات التي يزرخ بها التاريخ الإسلامي.

لقد توفي خير الدين عام 953هـ (1546م) وقد ناهز الثمانين من عمره، ودفن في إسطنبول بمحاذاة مضيق البوسفور، في نفس المكان الذي اشتراه ليدفن فيه. وخلفه ابنه حسن أميراً للبحار. وذاك الشبل من ذاك الأسد.

وختاماً، لقد ترك آل بربوسا خلفهم ميراثاً من التضحيات والقيادة الفذّة والانتصارات لتقتدي بها الأجيال ولتجتمع حول حقيقة أن مصدر القوة كل القوة في كل صراعات الحق والباطل هو الإيمان والجهاد في سبيل الله لإقامة سلطان المسلمين الواعد⁽¹⁾.

(¹) المراجع: كتاب مذكرات خير الدين بربوسا، ترجمة د. مُجد دراج- كتاب سيرة المجاهد خير الدين بربوسا في الجزائر (تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد الله حمادي- كتاب خير الدين بربوسا والجهاد في البحر (1470-1547م) بسام العسلي- كتاب الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربوسا (1512-1543).

كيف سقطت الخلافة العثمانية؟

مثلت الدولة العثمانية آخر شكل لدولة الخلافة الإسلامية التي عرفها العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام وبعثة النبوة.

وقد أنجزت الدولة العثمانية -مثل الدول الإسلامية السابقة- إنجازات كبيرة كان من أبرزها فتح القسطنطينية التي كانت تمثل معقل الكنيسة الأرثوذكسية وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية العريقة.

وتمكنّت الدولة العثمانية من خلال هذا الفتح من فتح أوروبا الشرقية برمتها، ووصلت جيوشها لأبواب فيينا، كما رافق هذا النفوذ المتصاعد نهضة حضارية وعلمية كانت أحد ملامح قوتها، فكانت الدولة التي لا تضاهيها دولة من الدول بما أحرزته من الأملاك الواسعة في قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا.

ورغم أوج النجاح الذي بلغته الدولة العثمانية إلا أن انهيارها كان سنة كونية كما أصّل لذلك ابن خلدون في خلاصاته، حيث يتوقع من كل دولة تقوم في هذا العالم وتزدهر أن تصل لمرحلة الرفاهية والرخاء، ثم تبدأ أسباب سقوطها بالظهور وما تلبث أن تندثر.

أسباب السقوط

لكن سقوط الدولة العثمانية قبل قرن من الزمان لم يكن مجرد سقوط نموذجي لدولة عظمى، بل تسببت في هذا السقوط مؤامرات كثيرة أكبر من تلك التي تعرضت لها الدول الإسلامية التي قامت وسقطت قبلها.

وكانت بداية هذا السقوط بضعف تدريجي نال من مفاصل الدولة من الداخل منذ القرن السابع عشر، بعد انغماس السلاطين العثمانيين في الملذات والترف على عكس ما اعتاد عليه سلاطين الدولة العثمانية في بداية عصرها أمثال مُجد الفاتح من حياة زهد وورع.

وتراجعت مع نزعات الترف الفتوحات التي دأب عليها العثمانيون وأوصلت سيطرتهم إلى وسط أوروبا.

وحين توقف توسع الدولة العثمانية طمع أعداؤها من حولها في التوسع والاستيلاء على أجزاء منها، فانتزع الروس والصرب بعض المناطق والمواقع المهمة.

وارتفعت وتيرة المعارك على النفوذ في القرن الثامن عشر بين الدولة العثمانية من جانب والروس والنمسا في الجانب الآخر، ولم يتمكن الروس من الانتصار على المسلمين إلا بعد إشعال نار فتنة داخلية بفتيل المسيحيين في الداخل.

في هذه الأثناء التي انشغلت فيها الدولة العثمانية بالحروب، كانت أوروبا تتقدم علمياً وتكنولوجياً وعسكرياً بشكل لافت. وهو ما دفع العثمانيين للاستعانة بالخبرات الغربية الأوروبية التي دخلت بلاد المسلمين، يرافقها الفكر الغربي العلماني الذي بدأ أول دخول له في العالم الإسلامي.

لكن انهيار الدولة العثمانية العسكري تجلّى بشكل واضح بعد الحرب العالمية الأولى التي شاركت فيها حليفةً لألمانيا والنمسا المنهزمين، وانتهت الحرب بنتائج وخيمة على الدولة العثمانية، حيث دخلت جيوش الحلفاء الآستانة وسيطروا عليها وعلى المضائق (البوسفور والدرديل)، واحتلت اليونان الأقسام الغربية من الدولة، في حين سُليخت الولايات العربية وقُسمت إلا دويلات صغيرة سيطرت عليها دول الحلفاء.

ويرجع هذا الانهيار العسكري غالباً للصعود اللافت للقوى المخابراتية الأوروبية التي نشطت أكثر مما كانت عليه من قبل، يدعم هذا الصعود التغلغل الإسرائيلي في أنظمة الحكم الأوروبية ونجاح الصهيونية في كسب تحالف دول أوروبا.

ولا شك أن الصراع مع الغرب كان قائماً منذ لمع نجم الدولة العثمانية، وكانت محاولات عديدة من أوروبا لتفتيت القوى الإسلامية وتغريبها، لكن المسلمين تصدوا لهذه المحاولات بنجاح، وإن فشلوا في بعضها فسريراً ما كانوا يستدركون وينهضون من جديد لأن وحدتهم كانت عاملاً قوياً في بقائهم.

وتمكن الأوروبيون من تشكيل خلايا نائمة عبر الأقلية المسيحية في داخل الدولة العثمانية، ونشطت هذه الخلايا بوضع الخطط والمؤامرات والاعتقالات داخل القصور في وقت انشغل فيه السلاطين بحياة الترف، وتراكت الديون بعد إفلاس خزينة الدولة، وظهر التعصب القومي وتفشت الدعوات القومية التركية (الطورانية).

المؤامرات الخارجية

بدورها لعبت المؤامرات الخارجية دوراً حاسماً في سقوط الخلافة العثمانية، وكانت الماسونية حجر الأساس في هذه المؤامرات، ففي سنة 1721م تأسس أول محفل ماسوني في إسطنبول في الدولة العثمانية، ولم يكن الوحيد فقد تأسست عدة محافل أخرى واستقطب العثمانيون الأفكار العلمانية.

جمعت هذه المحافل كبار المفكرين الليبراليين والشيوعيين والقوميين والإباحيين وغيرهم من الذين رسموا الخريطة الأيديولوجية للعصر الحديث.

وبدأ إعداد جميع الأفكار اللادينية في هذه المحافل بشكل سري ومعلن.

وتزامن مع هذا النشاط الماسوني المتصاعد نشاط آخر لطائفة يهود "الدونمة"، وهم يهود في داخل الدولة العثمانية أخفوا يهوديتهم وتظاهروا بالإسلام في حين كانوا يعملون على محاربة هذا الإسلام من الداخل. وكانت هذه الطائفة تدعم المحافل الماسونية بقوة كما نشطت في إدخال الأفكار القومية إلى الدولة العثمانية، وكانت تدعمها أوروبا بشكل سري ومعلن.

وفي عام 1876م استلم السلطان عبد الحميد الثاني زمام الحكم في الدولة العثمانية التي كانت تسمى حينها بـ "الرجل المريض".

ووجد عبد الحميد الثاني الدولة تعاني من ضعف داخلي وخيانات وانشقاق دويلات وتربص الأوروبيين، ثم جرأة الصهيونية التي طالبت ببيعها فلسطين، وهو الطلب الذي رفضه السلطان في موقف تاريخي شهير سُجِّل في سيرته.

جمعية تركيا الفتاة وتنظيم الاتحاد العثماني

لم يتوقف نشاط الماسونية في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، بل تطورت لتشكيل جمعية تركيا الفتاة، وبنفس شعارات الماسونية وإعلان المعارضة للسلطان.

والجدير بالذكر أن جمعية تركيا الفتاة فتحت أول مكاتبها في باريس وبرلين قبل أن تفتتحها في داخل الدولة العثمانية، كما نشطت جمعية العربية الفتاة المماثلة لها في بلاد العرب.

وظهر تنظيم الاتحاد العثماني، وهو جناح سري تشكل من الضباط العثمانيين المعارضين بقوة للسلطان عبد الحميد الثاني.

ثم ما لبثت أن توحدت جمعية تركيا الفتاة مع تنظيم الاتحاد العثماني في عام 1906م لتشكيل منظمة جديدة هي جمعية الاتحاد والترقي.

وبدأت المنظمة الجديدة باستقطاب الضباط والنخب الفكرية والسياسية والمالية داخل الدولة العثمانية، وبدأت تسيطر على مشهد الحكم في حين لم يتمكن السلطان عبد الحميد الثاني من مقاومتها.

ولم يلاقِ السلطان أي دعم من الدول العربية التي كانت تخطط للثورة العربية وإعلان الحرب على تركيا، تؤزها في ذلك بريطانيا التي وظفت أبرز شخصية عرفها التاريخ في تلك الحقبة، وهو توماس إدوارد لورانس المشهور بـ«لورانس العرب» الذي هياً جميع الظروف لبيسط سلطان الاحتلال البريطاني في المنطقة بعد أن كسب ودّ الشريف حسين في جزيرة العرب وتحالف معه، كما ورد في كتاب «ثورة في الصحراء». وهو نفسه لورانس الذي قال متحدثاً عن سياسة بريطانيا في تلك المرحلة: «لقد وضعنا بمهارة مكة في مواجهة استانبول والقومية ضد الإسلام»، وقال في مناسبة أخرى: «علينا أن ندفع بالغرب لانتزاع حقوقه من تركيا بالعنف... لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي الإسلام) لإعلان الحرب على نفسه وبذلك نمزقه من القلب، إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا، وخليفة في العالم العربي، ويخوض الخليفتان حرباً دينية، وبذلك يُقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية.»

من جانبها تمكنت جمعية الاتحاد والترقي الماسونية من تغيير الدستور وتغيير نظام الدولة ووصلت قوتها في عام 1909م إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني في مشهد يكشف درجة تغلغل الصهيونية في البلاد، حيث تقدم رئيس معبد سالونيك الماسوني اليهودي «عمانوئيل قره صو» ليسلم السلطان باليد قرار عزله، وتم تعيين محمد رشاد سلطاناً للدولة العثمانية بدلاً من السلطان عبد الحميد الثاني الذي نفي إلى مدينة سالونيك.

تأجيج العداة

وكانت جمعية الاتحاد والترقي ويهود الدونمة وراء العديد من التهم التي ألصقت بالدولة العثمانية، مثل تهجير الأرمن واضطهاد العرب في بلاد الشام، وحملات التتريك الإجباري للجنسيات غير التركية كالشركس والأكراد والأرمن، فضلاً على حريمهم الشرسة ضد السلطان عبد الحميد واتهامه بالاستبداد.

ومن بين أبرز ضباط جمعية الاتحاد والترقي الذي اشتهر بجرائمه في الدولة العثمانية جمال باشا السفاح الذي حكم العراق ثم سوريا وحاول أن يحكم مصر أيضاً. وكان ممن تأمروا لعزل السلطان عبد الحميد الثاني مع قائدين بارزين في الجمعية، طلعت باشا وأنور باشا.

وألصقت الجرائم التي نفذها ضباط جمعية الاتحاد والترقي بالدولة العثمانية في حين كان هؤلاء الضباط أنفسهم أعداء لهذه الدولة.

ومع تصاعد النفوذ الماسوني العلماني في المنطقة اصطدمت جمعية تركيا الفتاة مع مثلتها العربية الفتاة مع أنهما من أصل واحد، ذلك أن الأولى كانت تنادي بالقومية التركية والثانية تنادي بالقومية العربية.

واستمرت سياسة التفرقة وتأجيج العداة في تحقيق مفعولها في تفتيت الدولة العثمانية، وساهمت في هذا الكيد روسيا القيصرية التي لم تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان، وتأليبهم على الحكم العثماني، ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين.

كمال أتاتورك

بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني قامت الحرب العالمية الأولى، في عام 1914م وخلال هذه الحرب، برز مصطفى كمال أتاتورك، ضابط في الجيش العثماني، يرجح المؤرخون أنه كان من يهود الدونمة.

بدأ إدخال أتاتورك تدريجياً في المشهد العسكري، حتى تولى قيادة معركة جناق قلعة (جالبولي)، وتصدى لجيوش فرنسا وبريطانيا، ويرجح المؤرخون أن الانتصار الذي حققه أتاتورك جاء بالاتفاق مع الفرنسيين والبريطانيين للانسحاب والتظاهر بالهزيمة، من أجل تلميع رجلهم الجديد أتاتورك الذي أصبح البطل العسكري والوطني في نظر المسلمين.

وانتهت الحرب العالمية الأولى في عام 1918م، واحتلت الجيوش الغربية إسطنبول عاصمة الخلافة، وكانت نكبة جديدة للعالم الإسلامي، وبدأت عملية تقسيم جسد الرجل المريض بعد أن سقط القناع عن الأطماع الحقيقية لأوروبا في العالم الإسلامي.

وتقاسمت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا بلاد العرب رغم وعود مسبقة لهم بتحريرهم من الأتراك.

ولم يكن دور السلطان العثماني مُحمَّد وحيد الدين خليفة الدولة العثمانية آنذاك يخرج من دائرة توقيع المعاهدات، مثل معاهدة سيفر عام 1920م وهو في أضعف مواقفه بعد أن مُزّقت أوصال دولته.

ولتستمر المسرحية مؤثرة، أعلن أتاتورك المقاومة، وحارب اليونان التي تعتبر أضعف رقم في سلسلة الحلفاء.

وزاد رصيد أتاتورك الشعبي بعد أن تراجعت اليونان عن الأراضي التي احتلتها من الدولة العثمانية، والتصق هذا النصر بكمال أتاتورك في موقعة سقاريا عام 1921م.

وطد الرجل الجديد علاقاته مع فئات المجتمع المؤثرة وبدأ يخطب في يوم الجمعة ويدعو ويصلي أمام الجماهير، وكان في كل جولاته يصطحب زوجته لطيفة هانم وهي تلبس الحجاب، فاشتهر كرجل دين وقائد إسلامي، ولكن إلى حين.

وفي الواقع، فإن حكم الاتحاديين القومي اللاديني مهد لأتاتورك مرحلة التغيير الأشد خطورة، بين عامي 1908 و1918م الذي عرفته تركيا.

وعمد أتاتورك باتباع السياسات البريطانية التي أدت إلى عزل السلطان مُحمَّد وحيد الدين ليحل محله ابن عمه السلطان عبد المجيد الذي وقع معاهدة لوزان سنة 1340 هـ / 1923م بعد ثلاثة أيام من توليه الخلافة، وتنازل فيها للغرب عن كل الأراضي العثمانية التي بأيديهم باستثناء تركيا، ثم خُلع بعد انتهاء وظيفته.

وبدأت مرحلة جديدة، حين أعلن مصطفى كمال أتاتورك نفسه رئيساً للجمهورية التركية في أواخر أكتوبر عام 1923م، مبتدئاً مشواره بنفي آخر خليفة من العثمانيين.

ويجدر الذكر أن العديد من الدول الإسلامية كانت تطمع مع صعود أتاتورك للحكم أن تعود معه الخلافة الإسلامية، وحصل الأخير على مراسلات عديدة يعلن فيها أصحابها البيعة له ويحثونه على إعلان نفسه خليفة للمسلمين، لكن أتاتورك كان مبرمجاً لإحداث تغيير جذري في نظام الحكم في المنطقة، وكانت هذه البرمجة تقضي بإلغاء مسمى الخلافة وإعلان دولة جمهورية على طراز الغرب.

وفعالاً، رفض أتاتورك بيعات الخلافة، وبعد 5 أشهر من استلامه للحكم في 24 مارس في عام 1924م، أعلن أن تركيا الجديدة ستكون جمهورية على الطراز الأوروبي وأصدر مع هذا الإعلان قراراً بإسقاط الخلافة.

في هذه الأثناء، كان العرب تحت صدمة الخيانة من بريطانيا، فقد استيقظوا على وقع القوات الأوروبية تحتل بلادهم بدل الوفاء بوعودها لاستقلاليتهم، وكانت مهمة الأوروبيين سهلة أمام شعوب بلا جيوش ولا دولة ولا كيان أو أي نظام يحكمهم بعد انفصالهم عن الدولة العثمانية التي كانت تدير حياتهم.

يقول لورنس العرب في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة): "لقد كنت أعلم أننا إذا كسبنا الحرب فإن عهدنا للعرب ستصبح أوراقاً ميتة، ولو كنت ناصحاً شريفاً للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم، لقد كان قادة الحركة العربية يفهمون السياسة الخارجية فهماً عشائرياً بدوياً، وكانت بريطانيا والفرنسيون يقومون بمناورات جريئة اعتماداً على سذاجة العرب وضعفهم وبساطة قلوبهم وتفكيرهم، ولهم ثقة بالعدو... إنني أكثر فخرًا أن الدم الإنجليزي لم يُسفك في المعارك الثلاثين التي خضتها، لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد!!".

واستمر هذا الاحتلال حتى تمكن من تثبيت أنظمة حكم موالية وطائفة له لا تزال إلى يومنا.

إعلان الحرب على الإسلام

وبهذا تمكن كمال أتاتورك بانفصاله عن العالم الإسلامي من فك الارتباط بين الشعب التركي والإسلام الذي كان سبب تألق دولته العثمانية، ثم بدأ حربه على الإسلام علانية بجملة قرارات دخلت حيز التنفيذ دون تسويق.

ففي عام 1928م، صدر قرار بتغيير الحروف الأبجدية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية في استهداف مباشر للغة العربية التي بدأت تندثر مع الأجيال الصاعدة.=

وأطلق رئيس جمهورية تركيا الجديدة حملة سماها "الثورة الحرفية" لمسح كل نص مكتوب بالحروف العربية، ووصلت عقوبة من يستعمل الحروف العربية لحد الإعدام.

وأطلق العلمانيون مشروع بيع أرشيف الدولة العثمانية لمن يريده كوسيلة للتخلص منه، ووصل سعر الكيلو من هذه الوثائق لـ3 قروش فقط، فاشترت بلغاريا 50 طناً من هذه الوثائق لتكتشف لاحقاً أنها اشترت مليون ونصف المليون وثيقة فيها كل التاريخ العثماني الحديث، ثم بيعت أجزاء من هذه الوثائق بعد سنوات بملايين الدولارات مما عدّ صفقة رابحة جداً.

وُمُنِع الأذان باللغة العربية والحجاب في المؤسسات الحكومية، وأُغْلِقَت المدارس الدينية وآلاف المساجد والزوايا الصوفية، وكذلك المؤسسة الدينية الوقفية، وأُجِرَ الرجال على لبس البرنيطة الأوروبية.

بل بدأت محاربة الشعائر الإسلامية بالقوة حيث مُنِع اللباس الشرعي واعتدى رجال الأمن على النساء المتحجبات في الشوارع وأجبروهن على خلع غطاء الرأس.

ولم تسلم المناهج التعليمية من زلزال التغيير، حيث تم استبدالها بمناهج غربية بحتة كما حوربت مجالس العلم والفقهاء وكل ما يتعلق بدراسة العلوم الإسلامية التي أصبحت جريمة لا تغتفر لمن يطلبها.

وأعلنت العطلة الأسبوعية لتكون يومي السبت والأحد بدلاً من الخميس والجمعة.

وبدل اعتماد التقويم الهجري كما اعتاد الأتراك إبان حكم الدولة العثمانية فُرض التقويم الميلادي بقرار حكومي صارم.

أما في القضاء فتم اعتماد قانون العقوبات الإيطالي والقانون المدني السويسري بدل قانون الشريعة الإسلامية.

وأدرجت العلمانية علناً كمبدأ في الدستور في عام 1937م.

والجدير بالذكر أن كل هذه القوانين الجديدة المختلفة بشكل جذري عما سبق واعتاده الأتراك، تم تنفيذها خلال أقل من 15 سنة فقط بقوة القمع والإرهاب الحكومي.

ويسجل التاريخ في هذه الحقبة أن أول امرأة خلعت الحجاب كانت زوجة أتاتورك، وبدل إلقاء الخطب، بدأ الرئيس الجديد يرقص مع زوجته في كل المناسبات وعلى الطريقة الغربية وظهر الوجه الحقيقي للبطل الإسلامي المصطنع.

الإملاءات الغربية

وفي الواقع لم يكن أتاتورك يأتي بقوانين من تلقاء نفسه، بل كان ينفذ إملاءات أوروبا عليه، كما تشهد لذلك معاهدة لوزان التي اشترطت فيها الدول الكبرى، لا سيما بريطانيا، على كمال أتاتورك وعلى لسان كرزون - وزير الخارجية بريطانيا آنذاك - شروطاً أربعة وهي:

1. إسقاط الخلافة الإسلامية إسقاطاً تاماً.

2. إعلان علمانية الدولة وقطع كل صلة لها بالإسلام ومحاربة الشعائر الإسلامية.

3. طرد الخليفة وجميع آل عثمان خارج الحدود ومصادرة أموالهم وأملاكهم.

4. اتخاذ دستور مدني غربي بدلاً من الدستور العثماني المستمد من الشريعة الإسلامية.

وطمأن كمال أتاتورك الأوروبيين بتنفيذ كل شروطهم، وانسحبت بالمقابل دول الحلفاء من تركيا بمباركة كرزون الذي طمأن بدوره مجلس العموم البريطاني الذين كانوا يخشون عودة تركيا لاحتلال أوروبا قائلاً: “لن تقوم لتركيا قائمة بعد أن جردناها من الإسلام والخلافة”. وبالفعل عاشت تركيا مرحلة سلخ تام من الدين عاش خلالها الشعب التركي حرباً شديدة على الإسلام وكل ما يتصل به.

وبعد هذه الرحلة المحفوفة بالمؤامرات، أصبحت الماسونية العلمانية تسيطر على مقاليد الحكم وأصبحت معها تركيا دمية في يد اليهودية التي مثلتها طائفة الدونمة.

صدمة سقوط الخلافة

وأصبح سقوط الدولة العثمانية واقعاً وحقيقة استيقظ على عواقبه العرب منهزمين ومصدومين يرددون “أُكِلت يوم أكل الثور الأبيض.”

وفي الواقع، عايش المسلمون في هذه الحقبة الصدمة الحقيقية التي فقدوا معها البوصلة وأدركوا فداحة أخطائهم، ولكنهم غرقوا حينها في دوامة الاحتلال وتداعياته؛ ما أدخلهم في مرحلة التيه التي لا تزال مستمرة إلى اليوم، وخسروا مع هذه الصدمة كل مقومات النهضة والاستدراك، ويعود السبب الأول لهذا الضياع فرقتهم وتشتتهم والأحقاد التي تعمقت في نفوسهم، ثم بعدهم عن عقيدة الإسلام منهجاً ومنظومة حياة.

ولم تقم بعد هذا السقوط دولة خلافة في العالم الإسلامي، بل استشرت سياسة «فرق تسد» منذ معاهدة سايكس - بيكو، ووعده بلفور اللذان أعقبا سقوط الدولة العثمانية وتقسيمها، ثم تجلت آثار التغريب العميق الذي كان يستهدف أركان الفكر في هذه المنطقة لإجهاض أي فرصة عمل للخلافة. وبدأت ثورة داخلية بين الإسلام وأعدائه، لم تنته فصولها بعد رغم الضعف الذي اكتنف بنيان المسلمين.

ورغم توثيق خياناته وثبوتها، لا زالت تركيا تتغنى بأتاتورك كبطل قومي، وتفتخر بتقديس قبره الذي يحمل ملامح الماسونية بلا خجل.⁽¹⁾

⁽¹⁾ المصادر: كتاب تاريخ الدولة العثمانية - كتاب كيف سقطت الدولة العثمانية - كيف سقطت الدولة العثمانية لسليمان بن صالح الحراشي - خيرى حماد - الصهيونية - كتاب الأفعى اليهودية في معازل الإسلام - كتاب تاريخ الدولة العلية - كتاب تاريخي وذكرى لرضا نور - شكيب أرسلان عن أعمال مصطفى كمال في تركيا - صدمة سقوط الخلافة الإسلامية - حلقة من برنامج السبيل .

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية

إن دراسة تاريخ الجزيرة العربية تحتاج لبحث وتنقيب في المعلومات والوثائق التاريخية التي نُجت من التلف وتتسم بالمصادقية، ولا شك أن الوثائق البريطانية تعتبر المرجع الأكثر غزارة بالأخبار والأحداث التي عرفت الجزيرة منذ بداية القرن العشرين موثقة توثيقاً يستحق الاهتمام.

وتعود أهمية هذه الوثائق من جهة أولى لكون بريطانيا كانت تمثل اللاعب الأساسي الذي أثر في تغيير خريطة العالم الإسلامي بشكل مباشر وسريع، فضلاً عن علاقتها الوطيدة بالسياسة العرب في الجزيرة العربية الذين مكنوها من تمرير مكرها الكبار في المنطقة.

ومن جهة ثانية تمثل هذه الوثائق كنزاً تاريخياً يسمح بفهم خلفيات الأحداث الكبرى التي وقعت في قلب العالم الإسلامي ويشرح كيفية رسم خريطة المنطقة مطلع القرن العشرين.

محتوى الوثائق البريطانية

وقد تميزت هذه الوثائق باحتوائها لكمّ هائل من المعلومات المترجمة التي كشفت النقاب عن سياسة بريطانيا واستراتيجيتها التي اتبعتها في إدارة الصراع منذ بداية سنة 1914م وهي الفترة التي عرف العالم خلالها الحرب العالمية الأولى وتغيرت على إثرها الخريطة وموازن القوى بعد أفول نجم الدولة العثمانية.

كما نجد في هذه الوثائق جميع المراسلات والتقارير من العمال البريطانيين الذين كانت لهم صلات مباشرة مع العالم الإسلامي ويتواصلون مع القادة والحكام العرب على اختلاف مشاربهم.

الكشف عن الوثائق بعد سرية متعمدة

لم يعرف محتوى هذه الوثائق ردها من الزمن بسبب صدور قانون يقر بكمون هذه الوثائق في أدراج الحكومة البريطانية خمسين سنة كاملة، باعتبارها وثائق يُحتم حفظها في سرية تامة.

ولكن في سنة 1967م تم تقليص مدة الكمون والحفظ هذه لثلاثين عاماً. ما اعتبر فرصة ذهبية للباحثين والمؤرخين الذين انكبوا على هذه الوثائق لدراستها وتنقيحها.

الجزيرة العربية في الوثائق

كان للجزيرة العربية نصيب الأسد في هذه الوثائق ومن قبل أن تظهر "المملكة العربية السعودية" سنة 1932م حيث تقدم لنا هذه الوثائق حيثيات نشأة هذه الدولة التي كانت مناطقها تخضع شكلياً للنفوذ العثماني في حين تتقاسم القبائل والعائلات النفوذ الفعلي والسيطرة على الأرض، فالأشراف كانوا يحكمون الحجاز وآل سعود كانوا يحكمون نجد والأدارسة كانوا يحكمون عسير وآل رشيد كانوا يحكمون حائل والجوف.

الوثائق في كتاب

ومن المؤرخين الذين اغتتموا فرصة ظهور هذه الوثائق للعلن، كان الدبلوماسي والكاتب العراقي نجدة فتحى صفوة، الذي بذل جهداً ملحوظاً في جمع كل ما يخص الجزيرة وضمه في صفحات متناسقة فشكل بهذا الجمع موسوعة من سبعة أجزاء اعتنى بها عناية فائقة من ناحية أساسيات البحث والتسلسل الزمني والدقة في النقل، وبالمثل تعامل مع الوثائق التي تخص العراق وأخرج موسوعة أخرى باسمها فأضحت مؤلفاته ضالة كل باحث.

تقسيم الوثائق

عمد نجدة إلى تقسيم هذه الوثائق الخاصة بالجزيرة العربية بعد ترجمة دقيقة دون أن يؤثر في مضمونها أو يتر منه، عمد إلى تقسيمها إلى عدة أقسام، كان الأول يعتني بتاريخ نجد والحجاز في في سنتي 1914 و1915م.

وهي الحقبة التي حرضت فيها بريطانيا الشريف حسين للثورة على الدولة العثمانية واعدته إياه بمنصب الخليفة، ومن الوثائق التي شهدت لأسلوب البريطانيين الماكر في استدراج واستغلال الشريف حسين تلك الرسالة التي أرخت بتاريخ 30 أغسطس 1915م وأرسلها المندوب السامي البريطاني في مصر مكماهون، إلى الشريف جاء فيها:

إن جلاله ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة.

فبريطانيا كانت ناقمة على العثمانيين؛ لدخولهم في صف ألمانيا إبان الحرب العالمية في 1914م بجوار ألمانيا يؤكد ذلك مذكرة إستراتيجية أعدتها الدائرة السياسية البريطانية في وزارة الهند توضح بأن المخاطر التي تحشاها بريطانيا من تصرفات العثمانيين تتمثل في: ”الخوف من ثورة المسلمين في مصر والهند ضد الوجود البريطاني وإحياء فكرة الوحدة الإسلامية مجددا.“

ومن ثم أوصت المذكرة بقطع دابر تلك المخاطر عبر إضعاف الحكومة المنظمة الوحيدة القادرة على إعطاء زخم لفكرة الوحدة الإسلامية آنذاك ألا وهي الحكومة التركية.

الجزء الثاني

أما الجزء الثاني فتخصص في سنة 1916م، وهي سنة الثورة العربية بامتياز، فكان حجم هذا الجزء كبيرا بحجم أحداث وتفصيل الثورة العربية.

وفي هذا الجزء سنكتشف كيف كان مكماهون يعمد لمخاطبة “ال الشريف” بألفاظ التعظيم، فراسله في 10 مارس 1916م قائلا: “إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر، قبله الإسلام والمسلمين، معدن الشرف وطيب المحتد، سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف، صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي، أمير مكة المعظم، زاده الله رفعة وعلاء.“

فكانت استجابة الشريف للإغراءات البريطانية سريعة وأعلن الثورة على العثمانيين في 10 يونيو 1916م، تماما كما خطط لذلك مكماهون، الذي أرسل إلى وزارة الخارجية في لندن في 14 أغسطس 1916م قائلا: “إن لدينا فرصة فريدة قد لا تسنح مرة أخرى في أن نوّمن بواسطة الشريف نفوذا مهما على الرأي العام الإسلامي والسياسة الإسلامية، وربما نوعا من السيطرة عليهما.“

وفي هذه السنة أمدت بريطانيا الشريف بالمال والسلاح، وقد أحصي -خلال العام الأول فقط من ثورته- ما يصل إلى 71 ألف بندقية وأكثر من أربعين مليون طلقة، تم تزويد الشريف بها، بل الدعم اللوجستي وصل إلى حد إرسال ألف سيجارة إلى نجلي الشريف، فيصل وعلي، لكونهما المدخنين الوحيدين في عائلتهما.

ومن ناحية أخرى عززت بريطانيا جيش الشريف بأعداد كبيرة من الأسرى العرب التابعين للجيش العثماني، ووصلت الغطوسة والبجاجة البريطانية لدرجة أن الجنرال كلايتون في أكتوبر 1917م توجه إلى معسكر الأسرى العرب ليخطب فيهم قبل التحاقهم بالشريف قائلاً:

هل من واجبي -أنا الإنجليزي- أن أذكركم بآل بيت علي ومعاوية والعباس بالأولياء والأبطال الذين صنعوا أجداد العرب في العالم، بالتأكيد إن ضمائرهم تقول لكم ذلك. ولكنني كرجل إنجليزي سأقول لكم التالي: إن إمبراطوريات العرب دمرت وجعلت تراباً بالخلافات والتكاسل، وإن نير الترك كبل أعناقكم 900 عام لأنكم أتبعتم أهواءكم ولم تكونوا متحدين أبداً. والآن بيدكم الفرصة التي إذا أضعتموها فلن يغفر الله لكم.. إن من الأفضل أن يكون المرء طاهياً في السرية العربية من أن يكون وزيراً خاضعاً للأتراك.

وجدير بالذكر أن بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية قد تقاسمت تركة الدولة العثمانية بينها في اتفاقية "سايكس بيكو" في 1916م، وهي الاتفاقية التي حرص سايكس في برقية أرسلها إلى وزارة الخارجية بلندن في 17 مارس 1916م على التوصية بكتمان بنودها عن زعماء العرب.

الجزء الثالث

أما الجزء الثالث فشمّل الوثائق المتعلقة بالجزيرة من كتب ومراسلات بين الجانب البريطاني وجدة والقاهرة والبصرة وبغداد ولندن والهند وعدن، على امتداد 1917 و1918م، إضافة إلى تطور العمليات العسكرية للثورة ومراسلات الشريف حسين وأولاده مع المسؤولين البريطانيين.

كما احتوى هذا القسم -أيضاً- على الوثائق المتعلقة "بأمير نجد" عبد العزيز آل سعود والمراسلات معه ومع الجهات المعنية حول علاقاته بابن رشيد والشريف حسين. ولعل أبرز ما احتواه هذا الجزء هو تلك المذكرة المفصلة للسير برسي كوكس بعنوان "علاقات بريطانيا مع ابن سعود" وتقارير مفصلة في التعامل مع عبد العزيز آل سعود.

لقد وثقت هذه الملفات كيف عاش الشريف أحلاماً وردية بسبب الوعود من بريطانيا بأنها ستهبه حكم الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين، لدرجة صاح في نجله فيصل عندما قال له: "سأهبه

ماذا ستفعل إذا افترضنا أن بريطانيا العظمى لم تنفذ الاتفاق في العراق؟"، قائلاً: "ألا تعرف بريطانيا العظمى؟ إن ثقتي فيها مطلقة."

ولكن أبت الحقائق إلا أن تحطم آمال الشريف، فاندلعت ثورة البلاشفة الروس في أكتوبر 1917م، ونشر البلاشفة الوثائق السرية التي عثروا عليها في مقر وزارة الخارجية الروسية بالعاصمة بتروغراد، ومن بينها اتفاقية "سايكس بيكو"، فوصلت أنباء الاتفاقية إلى الشريف، فبادر للاستفسار عن حقيقة الأمر، فاستغفل كما هي عادة البريطانيين في استغفال رجلهم المدلل وتم تغييره من جديد.

ومن تلك التبريرات السقيمة التي ابتلعها الشريف بسداجة عجيبة قول البريطانيين: "أن البلاشفة وجدوا في وزارة خارجية بتروغراد سجلاً لمحادثات قديمة وتفاهم مؤقت وليس معاهدة رسمية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا". وصدّق الشريف تبريرات الإنجليز، وبرع في الحماقة حين هنأهم بإجرامهم بحق القدس قائلاً: "إن هذا النبأ مستلزم للفخر العظيم"؛ كونه طمع أن تكون تحت بساط ملكه!

الجزء الرابع

ثم يأتي الجزء الرابع ليحتوي على الوثائق التي عرفت سنة 1919م، ويقدر عددها بـ 250 وثيقة بين برقية قصيرة، وكتاب شخصي أو رسمي، وتقرير قصير أو تفصيلي، ومذكرة رسمية وشبه رسمية متعلقة بهذه السنة، وهي السنة ذاتها التي عقد فيها مؤتمر الصلح في فرساي لإعادة رسم خريطة العالم بعد الحرب.

وهي نفسها السنة التي تفاقمت خلالها الخلافات بين الشريف حسين وحاكم الحجاز والأمير عبد العزيز آل سعود أمير نجد، وسنجد في هذا الجزء المراسلات والتقارير التي قامت بتغطية العلاقة بين هؤلاء وبين بريطانيا أيضاً، ثم قضية (الخرمة) التي أدت إلى الحرب بينهما، وانتهت باحتلال قوات الأمير عبد العزيز آل سعود للخرمة.

ويمكن القول أن هذه القرية الصغيرة على الحدود الحجازية النجدية كان لها أثارها الخطيرة التي أدت إلى تغيير مستقبل الجزيرة العربية برومته.

ثم كشفت هذه الوثائق أيضا النقاب عن زيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى لندن وهو لا يزال في الرابعة عشرة فقط وكذا مباحثاته مع ساسة بريطانيا، إضافة للوثائق الخاصة باشتراكه في مؤتمر الصلح بباريس كممثل للحجاز وهناك تفاجأ بواقع السياسة الدولية والمساومات ومشكلة فلسطين ومشكلة توزيع الانتدابات.

الجزء الخامس

أما الجزء الخامس فشمّل الوثائق الخاصة بسنة 1920م حين تصاعد الخلاف الهاشمي السعودي، ويحتوي هذا الجزء على المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين والمعتمد البريطاني في جدة، وبين المراجع البريطانية في جدة والقاهرة ولندن ومن جهة، وبين الملك عبد العزيز والوكيل البريطاني في البحرين والمفوض المدني في بغداد.

كما كشفت هذه الوثائق الستار عن أهم المشكلات التي واجهت الشريف حسين والملك عبد العزيز؛ وهي قضية الحج. ويعد في هذه المجموعة حوالي خمس وعشرين رسالة من الملك عبد العزيز إلى الشريف حسين والوكيل البريطاني وغيرها وحوالي 20 أخرى من الشريف حسين.

أضف لذلك عدة مذكرات وتقارير مهمة توضح موقف بريطانيا الحقيقي من كثير من القضايا، كمثّل مذكرات كتبها الممثلون البريطانيون، أو دوائر الاستخبارات البريطانية عن حركة الإخوان والسيطرة على الشرق الأوسط في المستقبل والحالة السياسية في نجد. دون أن ننسى العديد من المذكرات والدراسات الهامة التي أعدتها وزارة الخارجية وترتبط بمستقبل المنطقة ومكوناتها.

الجزء السادس

أما الجزء السادس، فانفرد بالوثائق التي خرجت في 1922 و1921م، من بينها المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين وابن سعود، وبين الحكومة البريطانية. وكذا الجدل الذي ثار حول مسألة حج الوهابيين إلى مكة، وتداعياتها على العلاقات النجدية - الحجازية، وما يخص المرحلة ما قبل توحد نجد والحجاز.

ويسلط هذا الجزء الضوء على عام 1921م حين أعلن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل "وعد بلفور" الذي منح بموجبه إسرائيل "وطناً" في فلسطين، وكذا الضغوط التي أدت إلى "معاهدة فرساي"، وبالتالي تقسيم فلسطين بين العرب وإسرائيل في وقت لاحق.

فاحتلت الجيوش الفرنسية سوريا، وطردت منها فيصل، نجل الشريف حسين، وعندما رفض الشريف تلك الإجراءات، وامتنع عن التوقيع على معاهدة فرساي، تخلت عنه بريطانيا ووجهت دعمها كله لأمير نجد، عبد العزيز بن سعود، الذي اجتاح الحجاز عام 1924م، ما اضطر الشريف إلى الهرب إلى العقبة ليحبره الإنجليز على مغادرتها ليعيش في منفاه الإجباري في قبرص وكانت هذه النهاية البائسة لسذاجة مهلكة.

الجزء السابع

بينما شمل الجزء السابع والأخير أهم الوثائق المتعلقة بالحجاز ونجد لسنتي 1923 و1924م كتلك المتعلقة بـ "مؤتمر الكويت" الذي عقد كمحاولة لتسوية الخلافات بين نجد والحجاز، ولكنه فشل في تحقيق ذلك الهدف، ومجمل الخلافات والتجادبات في تلك الحقبة وكذا حصار جدة الذي دام قرابة عشرة أشهر وانتهى الأمر بخروج علي ابن الشريف حسين، ودخول عبد العزيز آل سعود إلى جدة.

وسنجد في هذه الوثائق ما يتعلق بالنفط في نجد والحدود بين نجد وشرق الأردن، ومواقف الملك عبد العزيز تجاه بريطانيا والحجاز، وتضم أيضاً تقريراً مفصلاً عن "الأحوال الاقتصادية والمالية في الحجاز"، وتقريراً آخر للمعتمد والقنصل البريطاني في جدة حول موضوع الاستيلاء على الطائف.

لقد كشفت هذه الوثائق الستار عن العديد من رسائل ابن سعود المتعددة للإنجليز؛ التي توضح كراهيته للشريف حسين، وكيف كان يعتبر البريطاني أقرب إليه من أخيه!

ختاماً

لقد وثقت الوثائق البريطانية تاريخاً بشعاً وقيحاً يجدر بنا دراسته والاستفادة من أخطائه وكبائره؛ حتى نستفيد منها ونبصر أعداءنا بنظارة حقيقة، لا سذاجة مهلكة!

وقد تحققت بالفعل نظرية مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة حين قال في وقت مبكر في 1916م: "إن هدف الشريف هو تأسيس خلافة لنفسه. نشاطه يبدو مفيداً لنا؛ لأنه يتماشى مع أهدافنا الآنية؛ وهي تفتيت الكتلة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. إن العرب هم أقل استقراراً من الأتراك؛ وإذا عولج أمرهم بصورة صحيحة فإنهم يكونون في حالة من الفسيفساء السياسية؛ مجموعة دويلات صغيرة يغار بعضها من بعض؛ غير قادرة على التماسك. وإذا تمكنا فقط من أن ندبر جعل هذا التغيير السياسي عنيفاً؛ فسنكون قد ألغينا خطر الإسلام بجعله منقسماً على نفسه".

فهل نجعل هذه الخاتمة كما أرادها البريطانيون، أم لا يزال بأيدينا أن نغير واقعاً مظلماً فرض على المسلمين؛ بسبب خطيئة بعض حكامهم؟.

لا شك أن للمستقبل البقية.!

تماماً كما يفعلون اليوم مع ثوراتنا: قصة اللطمات المتوالية

إنه لمؤمّم ومؤمّم جداً أن نستذكر ذلك التاريخ الذي يصوّر لنا سداجتنا وخيانة بعضنا لنا وكذا اللطمات المتوالية والحُبث والمكر الذي يتفاخر به أعداؤنا علينا... نعم حُقّ لهم أن يفتخروا بحبثهم ومكرهم لأنهم أهلٌ للحُبث والمكر، وحُقّ لنا أن نبكي على ضعفنا وهواننا فقد كنا أهلاً للضعف والهوان.

إننا ننسى وبسرعة ثم ندفع ثمن نسياننا... ولو كنا لا ننسى لما تكرر واقعُ الأَمسِ اليومَ ولما حاول بعضهم جرّنا لِمَذاً أخطأ الماضي، ولما تجرّراً أحدٌ أن يعيد ذات السداجة أو الخيانة حين نتحدّث عن ثوراتنا في هذا الحاضر، إنها ثوراتنا التي نتعامل فيها مع ذات العقليات التي وجّهت لنا اللطمات المتوالية منذ الثورة العربية الكبرى فحُفرت مُهينةً في صفحات تاريخنا وأبينّا إلا أن نساها ونقدّم وجهنا من جديدٍ للطمّةِ أُخرى وأخرى وأخرى...

هكذا هم بعض البشر لا يتعلمون من درسٍ أول بل لا بد من دروسٍ متواليةٍ وربما لن يتعلموا أبداً، لأنهم يحبون أن يتّصفوا بالتبعية بالغباء بالضعف والانصياع وإن لم يعلنوا ذلك، لم يريدوا لأنفسهم تألّقاً ورضوا بأن يكونوا مع الخوالب والحجر.. ومن يرضى لنفسه الدنّية فلا تسأله يوماً عن الحرية.

قصة اللطمات المتوالية

دعونا نستطلع تاريخ اللطمات المتوالية ونقارنه بواقعنا اليوم... وإنه ليمزّق فؤادنا أن يخرج علينا من هم من بني جلدتنا يصقّقون كما صفق من قبلُ بعضُ السذج للورانس العرب ولسايكس وبيكو ولكل غربيّ طامعٍ في أرضنا... في عِرّنا... في آملنا، وأهدوه الهدايا وجزءاً من تاريخنا ليصمّه بالعار ويا له من عارٍ...

الطمّة الأولى: لطمّة سايكس بيكو

أوهموهم أنهم في صفّ ثورتهم، مؤلّوهم بالأسلحة والذخائر وأوغلوا توماس إدوارد لورنس (لورنس العرب)، ضابط الاستخبارات البريطاني بين صفوفهم لكسب وُدّهم وللتخطيط والاستدراج، استحوذ

على آمالهم لتحقيق آمال حكومتهم، لم يدفع لهم لورنس إلا وعود بريطانيا التي علّق بها الشريف حسين تحقيق حلمه بدولة عربية مستقلة يكون هو خليفته.

كانت الثورة العربية تضخ دماء أبنائها لإزاحة الأتراك وتسوية الأرض لجيوش أوروبا والعرب لا يدرون، وكانت المعاهدات والتقسيمات تدور على طاولات أوروبا لينتزع كل طرفٍ جزءاً من تركة الرجل المريض وهو الدولة العثمانية التي انهارت... وفي الأخير حققت أوروبا حلمها في اغتصاب بلاد المسلمين بأرخص ثمن، وبلا أدنى تعبٍ، فعمدت إلى تقسيمها دويلاتٍ تُمنّ فيها كرامتهم وتسفك دماءهم وتنهب ثرواتهم وتنفي قادتهم وتقيم عليها أطوعهم لأمرها...

وخرج الشريف حسين صفر اليدين لا خلافة ولا استقلال، كان الجميع يحلم بالثورة العربية الكبرى وبناء دولة عتيبة، فانتهى بهم الأمر في قبضة المحتل أدلةً مستضعفين، ومنذ ذلك اليوم هل تعلمنا الدرس؟ الثورة كانت تريد أمراً والغرب كان يريد أمر آخر، ولكنهم أوهموا الثوار بأنهم في صفهم تماماً كما يفعلون اليوم مع ثوراتنا. فكيف نقبل أن تتعلق ثوراتنا بمن مكر بثورتنا من قبل! وكيف نستأمن من خاننا ولم يف يوماً بالعهد!

علّق الدكتور محمد كمال الدسوقي رحمة على الاتفاق الخبيث قائلاً: “إن اتفاق سايكس بيكو الذي ظلّ سرياً ولم يُنشر إلا في شهر نوفمبر 1917م / 1336هـ على إثر قيام الثورة البلشفية، يُعدّ في الواقع وليد الجشع في أبشع صورته، ويعد رمزاً للنكوص بالعهد، وعدم احترام العهود والمواثيق التي ارتبطت بها بريطانيا مع العرب، بل هي في الواقع صورةٌ خسيصةٌ لما يمكن أن يصل إليه الاستعمار من انحطاط، بل إن بريطانيا على إثر فضح نصوص هذا الاتفاق كتبت إلى الشريف حسين في 8 فبراير 1918م / 1337هـ مؤكّدةً أن شيئاً من ذلك لم يحدث، وأن مثل هذا الاتفاق لا وجود له، وأن تلك الصورة المنشورة لم تكن إلا مجرد محادثاتٍ قبل قيام الحرب.!!!!”

هل تساءل ثوارنا اليوم إن كان ثمة اتفاقاتٍ تُحاك في الكواليس لم يسمعوا عنها؟ هل تأملوا في التاريخ أن السذاجة هي أن تصدّق عدوك وتأخذ منه العهود والمواثيق؟! هل أدركوا أنها مواجهةٌ تقوم على الخداع والكذب؟! فكيف نقبل بوعودٍ من الغرب ومنتظر مستقبلًا خطّ حطّته لنا الغرب بعد كل الذي كان من مكر!

اللطمة الثانية: لطمة وعد بلفور

وحقيقةً، لا يكاد عاقل يصدّق منتهى الاستغفال الذي حقق به اليهود أغلى أحلامهم وأصعبها على الإطلاق بأهون الطرق وأرخص الأثمان، فبعد فشل ذريع لجميع محاولاتهم في إيجاد موطئ قدم لهم في فلسطين إبان الحكم العثماني، نجحوا أخيراً بفضل بريطانيا وسداجة العرب وخيانة بعض الأتراك، أن يدخلوا أرض فلسطين بأحسن صفقة قد يكون سجّلها تاريخ، ليتجذروا فيها إلى يومنا هذا ويُحسب لهم ألف حسابٍ ولتُحرم من دخول أرضٍ هي حقّ لجميع المسلمين على الأرض.

لقد باعت بريطانيا أرضاً لا تملكها لقومٍ لا ينتمون إليها وبمعية قادةٍ منا سلموها فلسطين برضاً أو بغفلةٍ! وكما قيل وعد بلفور هو وعد من لا يملك لمن لا يستحق! وهكذا بدل أن ينتفض الشريف حسين ومن معه ويدركوا حجم الخيانة التي يُضمّرها لهم البريطانيون واليهود ارتّموا في أحضان التبريرات وحسن الظن وطلبوا مجرد توضيحٍ لما وراء الوعد؟! أهذه الدرجة كانت رؤيتهم ضبابيةً! في حين كانت في منتهى النقاوة والوضوح في أعين الغرب ويهود، ففي نهاية 1916م دخلت الجيوش البريطانية بقيادة اللنبي إلى القدس ليقول مقولته الشهيرة بل القاتلة لمن له قلبٌ: اليوم انتهت الحروب الصليبية!!

هل كانوا يحفظون تاريخهم أكثر منا ويصونون عهد أجدادهم بقسَمٍ أصدق منا، بينما نحن أينما إلا التبعية للغرب والعلاقات الودية وحسن الجوار واتفاقات السلام نوقع حتفنا بأيدينا!!

اللطمة الثالثة: تقسيم فلسطين في 1947م

لطمة قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في 1947م، حين التّمّ العربُ الطّعم ووافقوا على تمكين الأمم المتحدة من رقابهم والفصل في مشاكلهم، لقد طالبوا الجلاذ بأن يكون القاضي، كيف يمكن للأمم متحدةٍ هي بالأصل مَطِيّة الغرب ويهود أن تُقيم عدلاً أو تنصر مسلماً مظلوماً! لقد فتحت الأمم المتحدة رغم أنف كل القادة العرب آنذاك الباب على مصراعيه لتقوم دولة إسرائيل وليكون أول من يعترف بها ويرحب بها أمريكا، وكأن التمثيلية بحاجةٍ لتوضيحٍ، كيف وقد حَظِيَتْ بكل المدارة والتصفيق!

فما بالنا اليوم ننتظر قرارات أمم متحدة ومساعدات أمم متحدة ورأفة من أمم متحدة ما زالت تقبع في أدراجها قرارات بعض إنصافٍ لأهلنا في فلسطين لم ترَ ولن ترى أي نورٍ ما دامت يهودُ هي الأحق بقرارات النصر. ما بالنا نأمل حلاً من أمم متحدة سلّمت بيدها العراق على طبقٍ من ذهبٍ للرافضة تسليمًا يزعمونه شرعياً حسب معاييرهم الـ "لا عادلة"، ويتكرر ذات السيناريو مع سوريا ولبنان واليمن بكل صفاقةٍ ووقاحةٍ ونأبي نحن إلا التغافل والخضوع لنظام الغرب الكافر.

اللطومات المتوالية: اتفاق السلام وما تلاه

اتفاق السلام مع إسرائيل وما تلاه من اتفاقاتٍ للتطبيع. كامب ديفيد وأخواتها، هنا يبرز لنا كيف تغلغل اليهود بسهولةٍ ويُسّر ليفرضوا واقعهم ووجودهم، من شعبٍ بلا أرضٍ، إلى اغتصاب أحد أعلى المقدسات للمسلمين ثم لإعلان قيام دولتهم الخبيثة وإجبار المسلمين للرضوخ والتسليم لها... سمّوا الاستسلام للظلم سلاماً، واحتلال فلسطين حقاً لإسرائيل... ومعهدهً جديدةً معهم إنجازاً؟!

هل بعد هذا الهوان من هوانٍ، إنها اللطومات التي أوقعتنا في غيبوبةٍ... ليس لقوة عدوّنا بل لغفلتنا اللامحدودة. إنها الطريق الفاشلة التي أوصلتنا إلى المنفذ المسدود، وليننا واصلنا طريق عبد القادر الحسيني وعز الدين القسام وإخوانهم الذين أبوا الخنوع والتسليم لليهود والغرب فقادوا ثورتهم بجهادٍ مؤثّرٍ -لو لم يُؤاد بمكرٍ-... لو فعلنا لكان بكل تأكيدٍ حاضر فلسطين مختلفاً. فهل نتعظ من هذا في واقعنا اليوم.

لماذا ننسى ونكرر ذات الخيانة والسذاجة؟

رأينا في الموضوع السابق أوجه الشبه بين الخيانة خلال الثورة العربية الكبرى وما تلاها من لطمات للأمة الإسلامية مروراً بسايكس بيكو، ووعده بلفور، وتقسيم فلسطين 1947م، وصولاً إلى اتفاقية السلام. وبين ثورات الربيع العربي وما تلاها.

إن أقل ما يُقال عن حقبة الثورة العربية الكبرى أنها حقبة افتقدت للرجال الأفذاذ، وكيف يكون لها هذا النوع من الرجال وهي مُهمّشةٌ للعقيدة والمبادئ الأصلية في ديننا الإسلامي، لقد كانت ثورةً تُساس-برضى أصحابها- من بريطانيا الحليفة الأهم والأعز! لقد كانت تاريخاً مظلماً ملطخاً بالخيانة والقهر. صفحاته تقذف بنا إلى حالاتٍ من الحزن والأسى لا تُلام عليها ولا تُعبط لها، كيف لا وقد كَلَّفْتنا ثمناً باهظاً جداً ما زلنا ندفعه إلى هذا اليوم! أهكذا يُجذع عاقلٌ من البشر فكيف بمؤمنٍ يحمل في يده مشعل القوة والبصيرة والفراسة وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ... هكذا مع الأسف كانت ثورةً كبرى وهكذا دُبِّست بالخنوع للغرب.

فلسطين نور وسط ظلمة الخيانة

وحتى لا نظلّم ذلك النور الذي بدا من مشهد هذا الركام، فإن ثورات فلسطين التي قامت بقيادة قادة شرفاء أمثال عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني وغيرها من أفذاذ، والتي وُئدت بأيدي العرب وخيانات قادة العرب رغم التأثير الكبير لهذه القوة الضاربة في الأرض، المتنامية في الحجم والمتزنة في التخطيط والعمل، المزعجة لآمال اليهود وحلفائهم والتي لولاها لما احتفظنا ببعض الأرض إلى يومنا هذا. لنذكر كيف تكون بركات القوة والثبات على العقيدة وإن حوصرت تلك القوة أو تُهبت أو أُجهضت. فإن هذه الثورات الجهادية كانت الحلّ الوحيد لمغتصب الأرض والحق لو أنها استمرت.

ولا شك أن قادة العرب كان لهم أسوأ دورٍ وأبشع خيانة، تماماً كما هو حالنا اليوم، كان السادات عراب تلك الفترة، فرغم سُخط الشعوب الذي اشتعل على موقفه من رحلته الخائنة لليهود كان يحتاج لبضع سنين فقط ليصبح أمراً مستساغاً وليسير أكثرُ العرب بعد ذلك في ذات طريق السادات على

رأسهم قادة فلسطين من علمانيين وغيرهم يسابقون لعقد المعاهدات مع اليهود، بل وفتح السفارات والتعدي إلى العلاقات الودية الثنائية والمصالح التجارية.

فأضحى مصطلح السلام والتطبيع والتعايش مع "إسرائيل" مفخرةً تشدو بها صفحات الإعلام بلا خجلٍ بعد أن كانت تصمُّه بالخزي والعار، ونسي الجميع قصة الصفعات المتواليّة. وخيانة أعدائنا المتكررة في التاريخ ماضياً وحاضراً. وهذا الترويض هو الذي يحاولون فرضه على واقعنا اليوم... هذا الأسلوب في الإخضاع والاستغفال هو الذي يريدون منا التسليم به اليوم... أفليس خرياً بنا أن نحذّر تلك الحكومات التي ترفع شعار النصر لثوراتنا في حين أنها تُجري المحادثات السرية مع اليهود، وولاؤها للشرق والغرب من دون المسلمين، ولا تخطو خطوةً إلا لامتصاص غضب الشعوب وترويضها، وكما يُقال فإن أكثرهم صراخاً، وأعلاهم صوتاً أشدهم عمالةً وأعمقهم ولاءً.

عبرٌ ظاهرة فهل من مُجيب؟

فأيها الثوار أيها الشعب المكلم المضطهد المستهدف، إن العبر ممتدةٌ عبر التاريخ نتوارثها جيلاً بعد جيلٍ، وأمةٌ بعد أمةٍ، قد تواترت لتؤكد لنا صفات الخيانة والغدر والدسائس والمؤامرات والعلو والاستكبار التي يتصف بها أعداؤنا من يهودٍ ونصارى، فلا تقبلوا بعودهم الكاذبة ولا تخضعوا لاستغفالهم الفاضح، ولا ترضوا بمنظمتهم الغادرة، وإن طال أمد الصراع. لا تمدوا يداً لأممٍ متحدةٍ ونظامٍ عالميٍّ فاسدٍ يقوم على عقلية اليهود والنصارى لا يبصر إلا حقوقهم ولا يمكن أن يحمي حق مسلمٍ واحدٍ على الأرض، يقصفوننا عياناً، ويحرقون الهدن جهاراً وينصرون الراضة مراراً، ثم يقولون نريد سلاماً سلاماً...

إن أول خطوةٍ لعلاج أزماننا هو أن نشخص الداء دون مجاملةٍ أو مواربةٍ أو تبعيضٍ، علينا أن نغوص في تاريخنا وتجاربنا الناجحة والفاشلة على حدٍ سواءٍ لنستخلص الآليّ والعبر فإن لم نفعل فلن نستطيع أن نقدم علاجاً البتة وسنعيد ذات أخطائنا بالأمس ونتلقى أكثر اللطمات إبلاماً. ومن ذا يرضى أن يصفه التاريخ بالمغفل أو الأحمق وهل يُلدغ مؤمنٌ من جحرٍ مرتين! فكيف بمن يُلدغ مراتٍ ومراتٍ ولا يتوب!

لقد سقطت المنظمات الدولية التي تدعي الديمقراطية والحريات للشعوب، سقطت برامجها الكاذبة وشعاراتها المخادعة، وفضح الله مكرها وكيدها وخبثها وما من أحدٍ يثق بها...

أين السبيل؟

لم يبق إلا طريق القوة والأقدام الثقيلة التي تنتزع الحق بسواعد مؤمنة، وتفرض المسار الذي نريده نحن رغم أنف أممٍ متحدةٍ، فدعونا من الخطط والسياسات الفاشلة، دعونا نثمن وقتنا، ولا نضيع لحظاتنا التي هي الأثمن على الإطلاق... دعونا نزيل الركام عن ذلك النور ليسطع بقوة وينير الأرض ولا نخذله فيكتفم أنفاسه الغرب.

لقد غصنا في أعماق التاريخ لنجده تماماً كواقعنا الحاضر، فلا نتظنوا أن يُقيض الله لهذه الأمة نور الدين أو صلاح الدين لنسترجع أرضنا المباركة ونحن مُصِرُّون على الابتعاد عن ديننا والانشغال بالخلافات بيننا، إننا بهذا الشكل لن نعيد حقاً ولن نغيّر واقعاً! ولكن لنتفق على أمرٍ واحدٍ على الأقل، هو أن:

السبيل لحفظ بلادنا من خياناتٍ جديدةٍ وغدرٍ أكبر، أن ندعن لحقيقة أن تكرار تجارب الماضي، ضياعٌ وعَبَثٌ وأن التعامل مع قاضٍ جلاذٍ لهو بئس الفعل وأن الغرب لن يقدم لنا أقل من سايكس بيكو جديدةٍ ووعده بلفور جديدٍ ومعاهداتٍ سلامٍ جديدةٍ وصفعاتٍ متواليةٍ مهينةٍ...

وكما أكَّده لنا التاريخ أن أعداءنا قومٌ خيانيةٍ وغدرٍ... أكَّده لنا أيضاً أن طريق النصر هو طريق نور الدين وصلاح الدين وعز الدين القسام إن لم يُجْهَض بالخِانات والترويض للشعوب. فاعتبروا يا أولي الألباب.

القدس لنا، والمطبعون لا مقام لهم بيننا

من العضلات توضيح الواضحات ولكننا في زمن أضحى فيه تبيان الأصول وتأکید البديهيات ضروريا وملحاً، مع انتشار آلات وأدوات التطبيع مع الصهاينة في مجاهرة لم نعتدها من دول ومنظمات وشخصيات بدأت دائرتها تتسع.

وقد ظهر جلياً كيف تتسرب أفكار القبول بالتطبيع والترويج لمحاسن لم يحملها يوماً، ظهرت مراراً مع زيارة اللاعبين اليهود لبعض دول الخليج وسط ترحيب بهيج منها بهم، أو التباهي بالتنسيق الأمني والاستخباراتي بين بعض الحكومات والحكومة "الإسرائيلية"، أو التصفيق لكل صفقة تجارية تبرم مع اليهود بحجة "المصالح" ومتطلبات العصر فضلاً عن الاجتماعات واللقاءات التي يعلن عنها تارة هنا وتارة هناك لإعلان الخيانة بلا خجل والتطبيع بلا وجل.

وكل هذه التصرفات مهما أشاد بها أصحابها إنما تعكس ضعفاً شديداً في قراءة المآلات وسياسة قاصرة فاشلة تضر بالمسلمين والفلسطينيين قبل غيرهم.

ولا شك أن هذا التطبيع كان جزئياً سبباً في جرأة الإدارة الأمريكية على إعلان القدس عاصمة لدولة اليهود المغتصبين ومن بعدها الجولان كجزء من أراضيها المستحقة زعموا.

لا أريد أن أقدم تعريفاً أكاديمياً للتطبيع ولكنني أجمله في عبارة واحدة: هو كل ما يصب في مصلحة اليهود، سواء من معاملات أو تحركات أو سكنات أو تصريحات أو زيارات أو أفكار وهلم جرا.

فلا يمكن بأي حال من الأحوال عند الشرفاء اعتبار المحتل والغاصب شريكاً في لحظة أو صديقاً مرحباً به أو تطوى سجلات جرائمه التي لا تغتفر ثم يقدم كمشروع انفتاح جديد، بينما هو ليس أكثر من انتفاخ ورمي سرطاني في أدمغة المطبعين الخونة.

نعم فاليهود ظهروا كورم سرطاني في المنطقة منذ نشوء كيانه في عام 1948م إن لم يكن قبلها، على حساب حق الشعب الفلسطيني في أرضه. فاعتدوا وأوغلوا في سفك دماء الفلسطينيين، وسجلت قائمة طويلة من المجازر البشعة طالت جميع البلدان المجاورة، واليوم يقيمون لأنفسهم دولة باستجلاب

شتاتهم من العالم ويعلنون القدس عاصمة لها، يتجحون بقوة السلاح ودهاء السياسة ومغريات الاقتصاد وستار العولمة، وسط قبول وإذعان فاضح من الأنظمة في العالم الإسلامي وهو موقف معاكس تماماً لما تحمله شعوبها من حب وتمسك بالقضية الفلسطينية الذي يتجلى بوضوح عند كل استفزاز يهودي للمسلمين أو انتصار بطولي لفلسطيني.

ولكن إمعان اليهود في الظلم يستمر في حفر القناعات برفض التطبيع مع الصهاينة ذلك أن المسلمين اليوم يشاهدون اليهود يسرقون مقدساتهم وتراثهم بل وحتى أطعمتهم وأطباقهم وينظرون بأسى على لقطات احتفال اليهود وأصدقائهم في القدس وهم يتفاخرون بأكل الزعتر - الذين لا يحسنون نطق اسمه بلسانهم العبري، بحروفه العربية الأصيلة- في حين يحرم الملايين من المسلمين من زيارة هذا المكان المقدس!

ومع أن الرجوع للجانب الشرعي والتفسير العلمي لفهم النفسية اليهودية النكدة التي تتقلب مع المواقف ولا تقبل الوفاء بعهد يختصر الوقت والجهد لنسف دعاوى التطبيع أو الثقة بها، إلا أننا نجد الكثيرين اليوم يتحدثون عن التطبيع كأنه وعد حق! وهذا هو الحمق إن لم تكن الخيانة.

ونحن حين نرى الفلسطيني الذي يعيش في داخل الأراضي المحتلة لا يقوى على قبول اليهودي المحتل المعتصب الذي يستفزه ليلاً ونهاراً ويعتدي عليه بلا سبب، نتعجب من جرأة من هم خارج الأراضي المحتلة وينادون بالتطبيع من خلف أرائك الدعة والترف كيف يرحبون باليهودي ويننون عليه الآمال.

ثم لتأمل أعذار المطبوعين المجاهرين خلف هذا التطبيع المقيت، والتي لخصوها في ضرورة توحيد الصفوف مع إسرائيل لكبح جماح إيران ومحاربة ما يُسمى التطرف الإسلامي!

وما هو في الحقيقة إلا استغلال تافه وتوظيف للمصطلحات ماكر خبيث كما عهدنا اليهود وأحلافهم، فضرب إيران لا يحتاج كل هذا التريث والتأخير والجمع والنفير، إذ ضربت العراق وأفغانستان خلال ثوانٍ حين كانت المصلحة الأمريكية على طاولة القرارات الطارئة! ولكنه حجة إبليس ليتحول التطبيع لمرحلة القبول الجماهيري بطريقة بائسة.

نعم فبعد أن كان توقع التطبيع مع المحتل اليهودي ضرباً من ضروب الجنون، أصبح اليوم واقعا يزيّته التقاء المصالح والتقارب الاستراتيجي والتعاون السري مع إسرائيل وبين الكثير من الأنظمة العربية.

وكم هو مثير للسخرية أن يعرض كوشنر الصهيوني بداية حبال صفقة القرن متبجحا بحجم استثمارات بنحو ٥٠ مليار دولار فقط في الأراضي الفلسطينية والأردن ولبنان ومصر ليغري بها المغفلين!

كيف وقد أخذت خزينة ترامب البلايين من أموال المسلمين، والآن رجعت تمن عليهم بفتات ستستثمره ولا تتصدق به! أي أنها ستقيمه بشكل مشاريع مربحة ترجع لخزنتها مرة أخرى!

إن المستفيد الأول والأخير من صفقة القرن أيها السادة هو ما يسمى إسرائيل التي ستجني فوائد عظيمة من خلال التعاون الاستخباراتي والعسكري والاقتصادي الذي سيمهد بالفعل لقبولها في المنطقة كدولة يهودية ويمهد لتمددها المدروس.

ولكننا نعول على موقف الشعوب الأبية أمام هذا المكر الكبار الجديد من الصهاينة ومرتزقتهم في المنطقة، وإن الموقف الثابت الراض للتعطيل الذي أعلنت عنه الشعوب المسلمة سيكون أول عقبة أمام المطبعين، إلا أن على الشعوب أن تتيقظ لمحاولة صدهم الذي سيكون غالبا عن طريق الدس التعليمي الثقافي بهدف تفتيت المبادئ العقدية التي يقوم عليها موقفهم المبغض للصهاينة. يدخل في ذلك وسائل أهمها الإعلام والثقافة والتغريب الماكن التي على المسلمين التصدي لها وتعريتها وفضحها وكشف العاملين عليها وكشف سيرهم المشينة وولائهم لكهنة تل أبيب وإلنا أمام خطر تدمير مقومات الأمة التي يعملون على محاولة هدمها بلا كلل ولا ملل منذ عقود. وهو الاحتلال الفكري الذي يهدف للهيمنة على روح الأمة وعقلها وفكرها لصالح العدو الصهيوني.

بل بدأت أمارته واضحة جلية في بلاد الحرمين وغيرها من بلدان تحمل اسم الإسلام، ومن منا لم يشاهد مشاهد التخريب الأخلاقي والثقافي والاستهتار بمكونات هذه الأمة العقدية والدينية، والإعلان عن التغريب منهجا حداثيا ضروريا لنهضة الأمة المسلمة بكل وقاحة واستهانة.

لكننا مستبشرون رغم كل هذه السوداوية فقد مرت عقود على الاتفاقيات ولم ينجح التطبيع في الخروج من دائرة الأنظمة الحاكمة والمشروع الصهيوني وهذا إنجاز بحد ذاته ولكن نريد المزيد.

علينا أن نطور مضادات للتطبيع على مستوى الأسرة لحفظ أجيالنا من فيروسات التطبيع المزمعة.

وتشجيع دعوات مقاومة التطبيع التي تصل لمستويات المقاطعة والفضح الإعلامي لكل مشروع تطبيعي إضافة إلى تنسيق الجهود بين المكونات التي تكافح التطبيع عبر العالم الإسلامي والمسلمين في المهجر.

علينا تحصين البرامج التعليمية لأجيالنا وأبنائنا من كل ما يؤدي لقبول التطبيع، ومراقبتها من أي دس أو دخن بما في ذلك البرامج الثقافية وحتى الترفيهية.

علينا توظيف المنصات الإعلامية والأنترنيتية لغاية رفع الوعي وتفعيل قضية الأمة الأولى بالأمس واليوم، قضية فلسطين.

علينا توعية المرأة بالدرجة الأولى التي تبني الأجيال وتربي وتوجه لأنها مستهدف أول في هذه الحملة المسعورة.

علينا حفظ تاريخنا وتراث أمتنا وأصول ديننا نظيفة بعيدة عن كل تحريف أو تزوير، فنحن نتعامل مع يهود الذين حرفوا الكتاب السماوي فكيف بتراث أمة!

علينا إبراز علماء الأمة الربانيين في الواجهة، وتحميلهم مسؤولية القيادة التي يجب أن تكون في أيديهم لا في أيدي الروبيضات والخونة.

علينا إبطال سحر سحرة نتياهو وترامب وكوشنر وزبانيتهن واستغلال الدعاوى لقبول صفقة القرن والترويج لها، لجمع المسلمين من جديد صفا واحدا خلف قضايا أمتهم وحقن روح الأمة الواحدة والعزة والإباء لإجهاض أحلام الصهيوصليبية في عالمنا الإسلامي الذي لن يطول به الوقت كثيرا للنهوض بإذن الله مع انتصارات معركة الوعي فالقدس لنا والمطبعون إلى مزبلة التاريخ.

نداء استغاثة من بيت المقدس

طرق مسامعنا مصابٌ جليلٌ، فمنازل بيت المقدس تباع بمكرٍ يُشترى، خيانةٌ وصفافَةٌ تخدم الكيان الصهيوني، ليستولي - بتمددٍ خبيث - على كل شبر في مدينة القدس المحتلة.

"سماسرة" بأسماء عربية تتنكر بأثواب التعاون لتنهب المنازل وتسلمها للصهاينة، ثم ما تلبث أن تظهر إعلانات لبيعها في مواقع يهودية على شبكة الأنترنت، أثمانها تصل لملايين الدولارات للمنزل الواحد، ولا يُباع إلا ليهودي صهيوني وإلا فلا.

بالالتفاف تارةً وبالخدعة تارةً أخرى، تمكن عشرات المستوطنين الصهاينة من الاستيلاء على عقاراتٍ فلسطينيةٍ في مواقع استراتيجية داخل مدينة القدس.

ولكن تفاصيل هذه الخيانة الكبرى أو "الفضيحة" في المشهد الفلسطيني لم تتوقف عند هذا الحدّ، بل وجّه الفلسطينيون أصابع الاتهام للسلطة الفلسطينية كونها لم تبد أي جدية في ملاحقة "السماسرة" بالرغم من وجود العشرات من الوثائق التي تدين شخصيات فلسطينية في عمليات الاستيلاء هذه.

وقد أكد عضو الهيئة الإسلامية العليا لمدينة القدس، جمال عمرو، بأن نشاط تسريب العقارات في القدس ارتفع خلال السنوات العشر الأخيرة بنسبة 400 بالمائة، مقارنة بالفترة الممتدة من اتفاق أوسلو في العام 1993م وحتى اندلاع انتفاضة الأقصى في العام 2000م.

وتشير الإحصاءات بشأن نهب العقارات في أحياء البلدة القديمة وسلوان والشيخ جراح، أثناء السنوات السبع الأخيرة - لغاية نهاية عام 2016م- إلى تسريب ستين منزلاً مقدسياً ليد المستوطنين الغاصبين، ليرتفع عدد المستوطنين في القدس بنسبة 60%.

في حين يؤكد بعض الباحثين أن عدد المستوطنين الذي يقطنون في منازل الفلسطينيين المستولى عليها وصل إلى خمسة آلاف مستوطنٍ مع نهاية عام 2016م من أصل 220 ألفاً في جميع أنحاء مدينة القدس المحتلة. ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه بأسى، لماذا يضطر المقدسيون لعرض منازلهم للبيع مع علمهم بقداسة كل شبر يقيمون عليه؟

ولكن من يحيط علماً بسندان العدوان الصهيوني ومطربة الضرائب والرسوم المرهقة لكاهل المقدسيين سيدرك أن سكان القدس باتوا لوحدهم في مواجهة المكر الصهيوني، ما دفع ببعضهم للرحيل من المدينة وبيع عقاراتهم في ظروف حرموا فيها حتى حق الترميم لمنازهم. وإن تشجعوا على ذلك تكبدوا الغرامات المالية الباهظة التي تفرضها سلطات الاحتلال.

ومع ذلك لم تنهب هذه العقارات بملء إرادة المقدسيين، بل تم التحايل عليهم من قبل "سماسرة" عرب يتوارون خلف دواعي إنسانية لتقديم المساعدة بهدف حفظ هذه العقارات من الوقوع في يد الصهاينة، وبعد أن يستأنهم المقدسيون، ويستلمونها منهم بيد، يقومون بتسليمها باليد الأخرى لهؤلاء الصهاينة. وهكذا يتم نقل ملكيتها للاحتلال بشكل مباشر، أو للجمعيات الاستيطانية اليهودية الناشطة في بيت المقدس كممثل مؤسسة "عطيرت كوهنيم" وتعني تاج الكهنة، ومؤسسة "عير دافيد" أو "العاد"، وتعني العودة إلى مدينة داود. واللذان تعتبران ذراعين للكيان المحتل، مهمتهما الأولى تهويد القدس الشرقية وتدعمهما في ذلك حكومة الكيان المحتل والصهاينة والأمريكيون في الغرب.

وتزيد خطورة هذا المصاب كون القدس مدينة مقدسة يحتلها كيان غاصب، وأي تسريب لممتلكات المقدسيين فيها سيكون خيانة لله ورسوله ﷺ، كما جاء في الفتوى الرسمية التي صدرت عن دار الإفتاء الفلسطينية. حيث وصفت الفتوى كل من يتورط في عمليات تسريب هذه العقارات بـ "خائن لله ورسوله ودينه ووطنه، يجب على المسلمين مقاطعته، فلا يعاملونه ولا يزوجونه، ولا يتوددون إليه، ولا يحضرون جنازته، ولا يصلون عليه، ولا يدفونونه في مقابر المسلمين".

وقد تعالت صيحات الإستغاثة من الفلسطينيين مع تصاعد معدلات التسريب وتورط شخصيات عربية مشهورة تقدم القرابين لليهود على حساب القضية الفلسطينية وقضية المسجد الأقصى التي هي قضية الأمة الإسلامية قاطبة وفي وقت باتت بعض الحكومات بشكل علني تركب قطار التطبيع في محاولة لفرض واقعه على الشعوب المسلمة وتحويله لأمرٍ اعتيادي لا داعي لاستهجانته.

ويتوجب على كل مسلم وصله نداء الاستغاثة من بيت المقدس، تفعيل هذه القضية بما أمكنه من وسائل، وفضح المتورطين في عمليات التسريب، مع تسليط الضوء عليها بشكل مكثف حتى لا يتم تغييرها خلف ركام الأحداث اليومية مع أن هذا لوحده لا يكفي، إذ لابد لأغنياء المسلمين من مد يد العون لأهالي القدس، ومساندتهم لحفظ عقاراتهم من تسلل يد الخيانة والسرقعة إليها، وإن كان بفتح

استثمارات خاصة لتمويل المقدسين كي لا يضطروا لبيع عقاراتهم أو يرضخوا لمساومات اليهود ويدخل هذا في باب تفريج الكربات، فعن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ فَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" (رواه مسلم).

ثم على كل ناشط إعلامي أو إنساني أو حرّ أن يقوم بواجبه في مناصرة أهل فلسطين أمام سرقات اليهود لأراضيهم ومنازلهم، وعلى من له دراية بالسبل القانونية أن يسعى لتجريم المتورطين في هذه التسريبات، وتركيز الملاحقة القضائية لهم بدعم جماهيري لا ينضب من كل المسلمين ليس الفلسطينيين فحسب، ويدخل في هذا إحباط محاولات الكيان المحتل المخادعة وتلاعباته وتزويراته.

علينا مواجهة قانون أملاك الغائبين الذي يتخذه الاحتلال ذريعة لسلب العقارات لصالحه، والتصدي لدعاوى المصلحة العامة والعسكرية التي تلوح بها الإدارة اليهودية في كل حين تسلب فيه أرضاً من فلسطين المسلمة، ثم كشف الستار عن عمليات الالتفاف والتزوير وقطع الطريق على سلاسل "السماسرة" الذين يتناوبون في تمرير العقارات بالتمويه والتضليل، لتصل في الأخير ليد الصهاينة.

مع العلم أن الصهاينة يتجرأون على النهب ببجاجة المحتل، ويكفي أن يموت صاحب العقار حتى تظهر الوثائق المفبركة لتثبت ملكيته لمستوطن خبيث لم يُعرف له أثر من قبل. وما هذا إلا لونٌ واحدٌ فقط من ألوان ظلم اليهود.

ثم لا أقل من فتح غرفة عملياتٍ خاصةٍ بتتبع هذا التطور الخطير في القدس لتلتحم جهود التغطية الإعلامية والتوعية الشرعية والمساعدة الاقتصادية والمحاولات القانونية معاً لمواجهة تمدد السرطان اليهودي إلى قلب آخر معاقل المسلمين في قدسنا الحبيب وخط الدفاع الأول المتبقي أمام مسجداً الأقصى الأسير.

ومثل هذا العمل التطوعي والتعاقد، الأولوية القصوى لمن أدرك خطر الاستيلاء على عقارات بيت المقدس وأبصر في الأفق مدى شناعة تداعيات هذا الفعل وما يرتبط بتسهيله.

وإن اقتراح الحلول استجابة لنداء الاستغاثة يعد خطوة أولى لتحقيق تجاوب يليق ومستوى الحدث، حتى نخرج من حلقة التأسف حلقة التأثير، ولكن إن تحركت إرادة الجماهير المسلمة فلا بد أن تحدث

التغيير وتحفظ الحقوق، ذلك أنها الرقم الأصعب الذي يخشاه الصهاينة مهما ضمنوا موافقة الأنظمة الحاكمة، وهذا أقل ما يمكننا تقديمه لمدينة القدس وأهل فلسطين لنحفظ كرامتنا ومقدساتنا التي تهون عند "السماسرة".

التآمر الصهيوني الأمريكي وصفقة القرن

لقد آن الأوان بعد مرور سبعين سنة من الفشل المتواصل في محاولة حلّ القضية الفلسطينية دون جدوى، أن نلتفت بجدية للدوافع الحقيقية التي جعلت مؤخرا الإدارة الأمريكية تعلن -وبصفاقة منقطعة النظير- القدس عاصمة لدولة الكيان الصهيوني وتتعمد تسريب الأخبار عن صفقة مؤامرة جديدة تحاك حبالها منذ سنوات لأهل فلسطين - لا تقل خيانة وظلما عن اتفاقية أوسلو وأخواتها- سميت بـ "صفقة القرن" لكنها لا تتعدى كونها محاولة تصفية بائسة لقضية مصيرية تعتبر قلب قضايا العالم الإسلامي ومحور مآسيه.

ولابد أن الدافع الأول لهذه التحركات هو ذلك العدا المتجذر للإسلام وأمتيه، والكيد المستمر للهيمنة الغربية والمشاريع الاستعمارية بأشكالها المختلفة، ثم سياسة الترويض التي يعتمدها الساسة الغربيون في تهيئة الشعوب لتقبل جرائمهم. وما هذا الإعلان المستفز إلا أحد الحقن التمهيدية لتهيئة الأمة الإسلامية لمثل هذه الجريمة الكبرى. وجس نبض الرأي العام حين يدق ناقوس الخطر الشديد لمعرفة طرق التعامل معه وتجهيز الإجراءات لاحتوائه.

ورغم عدم إفصاح الإدارة الأمريكية عن أي تصور واضح ومعلن عن هذه الصفقة، وهي حسب الأروقة السياسية والإعلامية الجهة الراعية الأولى لها، وكيف لا تكون كذلك وهي الداعم الأول والحليف المنافع عن اليهود دائما وأبدا. فإن مصطلح "صفقة القرن" ليس جديداً، وقد تردد في عام 2006م عندما ظهر الحديث عما عُرف بـ "تفاهات أولمرت عباس".

وظهرت أماراته أوضح عند تشديد الحصار على قطاع غزة، في عام 2007م حيث فُرضت على قرابة مليوني نسمة أوضاع معيشية وصحية متردية للغاية، حتى أضحت تقارير المؤسسات الإغاثية والإنسانية تنذر باستحالة العيش في القطاع بعد سنوات معدودات، كل هذا لدفع الغزوايين دفعا إلى قبول الانتقال إلى شبه جزيرة سيناء كما هو مخطط له في الصفقة البائسة، الأرض مقابل الأرض.

ويبدو أن قرارات ترامب الأخيرة في إغلاق مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بلاده وقطع المساعدات عن منظمة الأونرا لخدمة اللاجئين، وكل مساعدة مالية للسلطة الفلسطينية جاءت لتؤكد أن موقف هذه الأخيرة لا يقدم ولا يؤخر في سير خطة تمرير الصفقة.

ومع هذا الوضع فلا أعجب من صدمة السلطة الفلسطينية بهذه الحقيقة، واستهجائها الوقفة الأمريكية المساندة للصهاينة، ذلك أنهم صدقوا لأمد أن تحقيق ما يسمى السلام أمر ممكن بإدارة أمريكية! وهذه السذاجة بعينها إن لم يكن الحمق.

ولا يظهر أن قادة المشروع الصهيوني والأميركان سيجدون وقتاً أفضل من الوقت الحالي لمحاولة فرض رؤيتهم لهذه الصفقة، والتوطئة للتحويلات الجيوسياسية التي تترصد بالمنطقة، فهناك ضعف وانقسام فلسطيني، وتشتت وتفارق عربي وإسلامي، وأنظمة فاسدة مستبدة. وثورات متراجعة، والبيئة الإستراتيجية المحيطة بفلسطين تنهكها الصراعات والنزاعات، وتجري فيها محاولات رفع جدران اليأس والإحباط وتوجيه بوصلة الصراع بعيداً عن العدو الصهيوني.

والمبتصر في التطورات السياسية والعسكرية الأخيرة يجد ذلك الإمعان اليهودي الخبيث في قهر وإذلال الفلسطينيين بجرأة كبيرة، تدفعها الثقة بأداء الإدارة الأمريكية وصكوك التطبيع من الأنظمة العربية السرية والمعلنة ثم درجة الإحباط التي وصلت إليها شعوب ثارت على أنظمة ظالمة ففوجئت بثورات مضادة يدعمها الغرب كلّفقتها الغالي والنفيس وأعادتها لمربع الصفر، أو على الأقل أعادتها للوراء كثيراً.

ولا ننسى ذلك الوضع المعيشي المزري والمتدهور في كل يوم، الذي ينشغل فيه المسلم بجمع قوت أهله وعياله بدل جمع همته وإصراره لمحاولة رفع مطرقة الجور والطغيان عن كاهله. يفرضه صندوق النقد الدولي الذي أتقن فن استعباد الشعوب بالتحكم في مدخراتهم وحركات أموالهم وبالمُنّ تارة والتهديد تارة أخرى والحديث عن أوجه ظلمه يطول في ظل أنظمة ابتليت بمتلازمة الخضوع.

وها نحن نشاهد الفلسطينيين يهجرون من قراهم وتهدم بيوتهم وتسلب أراضيهم وتمتد يد الصهيونية إليها لتقيم أوكار الاستيطان السرطانية في أرض هي بالنسبة للمسلمين تاريخ وأصالة، وعقيدة وارتباط. وفي ذات الوقت نرى عجزاً عن تحقيق انتفاضة تتصدى لهذا التمدد المشؤوم، وما مسيرات العودة في غزة إلا استغاثة استضعاف لم تلاق حجم الدعم الذي تستحقه.

لسنا هنا بصدد تبيان تفاصيل هذه الصفقة الماكرة، ذلك أنها لا تعيننا ولا تمثلنا، وكيف نعترف بها وعراها جاريد كوشنر اليهودي الصهيوني مستشار الرئيس الأميركي، وزميله جيسون غرينبلات المبعوث الأميركي للشرق الأوسط المطبل لسياسات اليهود في حين ينفذها بصفاقة المعتادة الرئيس الأميركي دونالد ترامب الذي لا يخفي عقيدته الهرمجودية في كل حديث عن حلفائه اليهود.

ولكننا نحاول رسم صورة المشهد الحقيقي للصراع ودرجة ارتباطه بمصير أمة كاملة ومكر منظومة دولية كبرى، وفي الواقع ليست صفقة القرن إلا صفقة تصفية للقضية الفلسطينية وفرضاً للاحتلال الصهيوني بتصوراته وشروطه وطموحاتها الكؤودة التي يدعمها الغرب.

ولن ينفع الخوض في بنودها وتفصيلها لأنها لن تمثل إلا رغبة وحلما صهيونيا على أرض مسلمة، ومهما اتسعت دائرة المغريات للأنظمة المتواطئة فإن الكلمة الأخيرة ستبقى بيد الشعوب المسلمة، ولن تقدم مشاريع اقتصادية وخطط تبادل للأراضي وتحويل السكان، أي تعويض يرتقي لثمن نهب أرض مقدسة مباركة وبلاد يكافح لاسترجاعها المسلمون منذ عقود يرتبط مصير وجودهم بوجودها.

فعلى الفلسطينيين أن يرفضوا كل قيادة تلبس لباس العلمانية وتدعو للسلام الذي تعزفه آلة ما يسمى بالشرعية الدولية والتي لم ينلهم منها إلا مزيد عدوان وظلم. وأن يرفعوا من درجة الحذر من كل مكيدة وشر، ويتحدوا في مصابهم ويستلهموا من تجارب من سبق، ويُنظموا صفوفهم بإيمان ويقين، لمقاومة قصوى وصمود تاريخي. لن يخسر صاحبه شيئاً بل حتما يظفر.

ولتراقب أعين المسلمين اليقظة كل الأدوات المستعملة لتنفيذ ذلك المشروع لمصلحة الكيان الصهيوني ولتقف كصف واحد أمام كل مرحلة يتم التمهيد إليها فتحبطها وترد كيدها، ولتسخر الأقلام التي لا تأخذها في الله لومة لائم لفضح كل خطوة في هذا الاتجاه وكل خائن وكل عميل وكل مُطَبِّع أو متعاون ولو بسداجة مع مشروع جريمة سيكون تحقيقه عارا على أمة دينها دين الاستعلاء بالإيمان.

فإنما معركة فلسطين معركة أمة ومعركة عقيدة ومعركة وجود.

وختاماً فإن النفوذ الصهيوني الكبير الحاضر هو حالة استثنائية مؤقتة في تاريخ الأمة، ولن يبقى قوياً إلى الأبد، كما أن الأمة لن تبقى ضعيفة إلى الأبد بوعده من الله حق ولكن الاستعمال فضل يستحقه من ثبت.

اللاجئون بين سندان القهر ومطرقة الخذلان

إن أخبارهم لتُفت الفؤاد وتقذف بالأسى لأعماق الفؤاد، يشعر المسلم بالضيق كلما عرضت عليه صورهم في تجمعات هي أشبه بالسجون، تفتقر لأبسط أسباب العيش الطيب الكريم.

إنهم اللاجئون المسلمون الذين اضطرتهم الحروب وتدايعات الصراع للفرار من مساكنهم والنجاة بأنفسهم تاركين خلفهم كل ما يملكون وأحلاماً كانوا ينتظرون.

أطفالاً فاضت أرواحهم بسبب البرد القارس ونقص الرعاية الطبية، تحذيراتٌ توالى من فرق الخدمات الطبية، نداءات استغاثة كثيرة تتزاحم في فضاء الإنسانية، كل هذا لم يكن كافياً لنجدة هؤلاء المستضعفين في الأرض.

الآلاف من اللاجئين اليوم، يتطلعون لمن يرمقهم ولو بإطلالة خاطفة، أو يرسل لهم معونة ولو بسيطة جامدة. ليس فقط في أرض الشام بل في كل أرض مسلمة تعيش الاستضعاف والحرب.

ولنا أن نتأمل إلى أي درجة أضحى حالهم مزرياً، حين نسمع عن الناشطين في مجال الإغاثة يعبرون عن صدمتهم مما رأوه من بؤس هؤلاء لم يسمعوا عنه من قبل رغم خبرتهم الطويلة في رصد نداءات الاستغاثة الإنسانية.

ثم تفرع مسامعنا الأخبار المرعبة، كخبر حرق نازحة سورية نفسها وأطفالها الثلاثة في مخيم الركبان، لأنها يمست من تأمين الطعام لعائلتها منذ أيام. ليكون الخبر توثيقاً آخر لحقيقة الخذلان. ولولا أن تداركها الجيران لكانت اليوم وذريتها في خير كان.

في حين ينام بعض بني جلدتنا ببطون متخممة من أصناف الأطعمة واللوان الملذات. وآخرون يرمون في المزابل ما تبقى من طعام بعد حالة من الإسراف مؤسفة، فأى حال آلت له أمتنا المسلمة!

ولا زالت أرقام اللاجئين في ازدياد، ولا نرى في الأفق ما يحسم مصيرهم، فرحى الصراع لا تميز المستضعفين، والبحث عن الأمن والاستقرار أضحى مطلباً عزيزاً ليس سهل المنال.

وزيد الطين بلة ما نشاهده من درجة الضعف التي نالت من يد الإغاثة الإسلامية التي لا تكاد تذكر في ساحات النوازل والمصائب التي حلت بديار المسلمين.

وإن الإنسان ليشعر بالحرقة، حين يرى بعض مؤسسات الغرب الإنسانية تقدم المعونة لإخواننا في حين تصرف أموالنا على الكماليات في حياتنا الدنيا ونعجز عن مساندة مشاريع إغاثة لنجدة المستضعفين أو إقامة خطط لإيصال المساعدات لهم.

نعم فإن الحاجة لبناء مؤسسات إغاثة إسلامية أضحت شديدة الإلحاح، في كل يوم، ولا يلزم هذا المشروع إلا تعاضد المسلمين وتكافلهم، والانطلاق من جمعيات ولو كانت في البداية مجرد وحدات بسيطة لجمع ما زاد عن الحاجة في بيوت المسلمين، ولا أخاله أمراً صعباً، فقد رأينا الغرب يبرعون في جمع التبرعات ويتسابقون لوضع ما يزيد عن حاجتهم في خدمة من هو بأمر صعباً، فقد استبقوا هذا المفهوم في التعاضد من ديننا وتاريخنا المجيد، فقد كنا أول من حفر مفهومه بين حضارات البشر وكنا للأسف أول من تخلى عنه اليوم!

ولم يخلُ تاريخ المسلمين من مواقف ضعف وحاجة، ونوازل وفاقة، ولكنه ازدان بروعة التعاضد ورقبي التكاتف، ورونق العطاء الإسلامي والتسابق في سبيل حفظ حياة المسلمين طيبة آمنة، فقد ضرب القحط في عام الرمادة بلاد الإسلام حتى فتك بالكثير منهم، وكان أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه حينها يحمل هم هذه الأمة كأصدق ما يكون، فمنع عن نفسه الزاد حتى تغير لونه ووصفه. قَالَ أَنَسُ رضي الله عنه : تَقَرَّرَ بَطْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ مَنَظَرٍ مِنْ أَكْلِ الزَّيْتِ عَامَ الرَّمَادَةِ وَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ السَّمْنَ فَتَقَرَّرَ بَطْنُهُ بِأَصْبُعِهِ وَقَالَ إِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ حَتَّى يَجِيَا النَّاسَ، وَمَنْ تَمَّ تَغْيِيرُ لَوْنِهِ فِي هَذَا الْعَامِ حَتَّى صَارَ آدَمًا. وكان ذلك في السنة السابعة عشرة للهجرة.

ونحن لا نطالب بأن تقرقر البطون من أكل الزيت بل نطالب بحد أدنى من شعور المسؤولية والتحرك في تربة الذمة من المساءلة يوم القيامة (بأي ذنب قتلت).

ثم نحن أمة ربيت على مفاهيم ذم البخل، وكثرة السخاء والكرم والجود، وبذل المال والصدقات والزكوات، ومواساة الإخوان في كل الأحوال؛ وهذا هو مفهوم التعاضد في نصره الدين، ذلك الدين

الذي يجزي حتى من يدخل مجرد سرور على قلب مسلم الأجر الكبير، فكيف بمن يقضي حاجته أو يرفع عنه هما وفاقه.

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا

وقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)، ولا شك أن هذا المفهوم في الآية الكريمة أكثر وجوباً في أيام المحن التي يمر بها المسلمون، واليوم نشاهد مجتمعات برمتها حوصرت وهجرت وشردت، لا حول لها ولا قوة إلا بالله. في فلسطين وسوريا والعراق واليمن والصومال ومينمار وكل مخيمات اللاجئين في بلاد الإسلام.

فكيف نبقى في مقاعد المتفرجين وفي دفء البيوت وسكون الضمير، في حين يمكننا المساهمة ولو بتبرع مادي صغير قد يرسم البهجة على قلوب يئست من تلبية نداءات استغاثتها.

وإني لأعجب للأغنياء من المسلمين وأصحاب الأموال والأموال، من يعيش منكفئاً على هموم دنياه ولا يجعل لآخرته نصيباً من البذل، فوالله إن فتح مشروع لإغاثة المسلمين من بين ما يديره الغني من أعمال، هو أجدى له ومجلبة للبركة والتيسير والرزق لو كانوا يفقهون. وما نقص مال من صدقة.

ولقد رأينا الغرب على كفره، يعرض نماذج للمسابقة بالإنفاق في سبيل حيوان! أو سبيل نبتة خشية الانقراض، ونحن نرى أمة كاملة منا تكاد تباد ولا زلنا نشاهد بعين من لا يعنيه الأمر كثيراً.

وللإنصاف فقد رأينا كيف جمع المسلمون في مناسبات شتى لإخوانهم في بعض محطات الحروب والفاقات، وكان الجمع مبهراً، ومواقف المسابقة للإنفاق تدرف لها المقل الدموع.

ذلك أن في هذه الأمة نماذج من المحبة للدين والخدمة له، يعجز القلم عن وصفها، ولكننا بحاجة أكثر لإدارة وتنظيم لحفظ هذا العطاء من التوظيف البشع من قبل من أصابه مرض الجشع والخيانة، أو لإحراز أفضل كفاءة وأروع أمانة في إيصال هذه المساعدات لمن هو بحاجة لها. وفي الواقع نحن بحاجة لكل قوي أمين.

لا يحتاج الأمر لأكثر من نية صادقة، وعزم حديدي، وإقدام بلا تسويق، وتحريض على شغل الأوقات والأذهان بعمل صالح ينفع اللاحثين. ثم تفعيل لقضاياهم في منابر الدعاة ومنصات الناشطين حتى لا نغفل أو نستهي، ثم لتكون قضية اللاحثين سببا في وحدتنا.

فإن لم تجمعنا المصائب والنوازل والأحزان التي تمر بها أمتنا المسلمة فكيف نطمع أن تجمعنا الأفراح ومشاهد النصر والتمكين التي تنتظرها هذه الأمة بوعد من الله حق!

لا يخفى على مسلم عاقل آفاق هذا المشروع، ولا أخال ما تخفيه قابل الأيام، إلا مزيد اضطراب في عالم يوشك على الانفجار، فهلم نعدّ ونؤسس ونقوي لبنات مشاريع الإغاثة مع الصادقين، قبل أن نقول قد فات الأوان فقد وصلنا بعض لهيب التفريط والاستهانة بحقوق أخوة الإسلام فنالنا ما نالهم، جزاءً وفاقاً!

ترويض الشعوب: تشخيص وتطبيق

لدى الأمة المسلمة قوّة وعِزة وتاريخ يميّزها عن بقية الأمم بكل تأكيد، ورغم ذلك تمكنت الأنظمة الديكتاتورية القمعية الحاكمة من ترويض شعوبها وتحويلها لقطعان ضعيفة خانعة منصاعة غير قادرة على تغيير واقعها المؤسف.

سياسة الترويض هذه استمرت أمدا طويلا فكانت عواقبها وخيمة على الأمة المسلمة، حين تجلّت في مستوى التخلف الحضاري وتفاقم معدلات الفقر والجهل والظلم والاستنزاف لموارد وطاقت وشروات بلاد المسلمين والانجرار الأعمى خلف سياسات الغرب ومصالحهم.

فكيف تمكنت الأنظمة المستبدة الحاكمة من سياسة هذه الشعوب المسلمة؟ وكيف نجحت في ترويضها طيلة عقود من الزمن رغم فساد حكامها وضعف همّتهم في الصعود بالأمة! وما هي الآليات النفسية التي اعتمدها لكي تتحكم في الملايين وتروضهم كأنهم قطعان تُسّاس لرغبات وأهواء الحكام الطغاة.

بحوث كثيرة نشرت لتفسر ظاهرة ترويض الشعوب المسلمة وغير المسلمة، وأغلبها يتحدث عن استخدام نظريات علم النفس، على رأسها نظرية الاقتران الشرطي الذي توصل إليه العالم "بافلوف" بتجربته الشهيرة مع الكلب، وهي تجربة عمد فيها "بافلوف" إلى ربط الطعام بصوت الجرس حتى أصبح لعاب الكلب يسيل بمجرد أن يسمع صوت الجرس.

لا شك أن الأنظمة الطاغية الحاكمة أتقنت فن الترهيب والتخويف ولم يزل الخوف هو الشعور المشترك بين المسلمين منذ زمن بعيد، ويتلخص هذا الخوف من السجن والتعذيب والفقر والحرمان والمستقبل، الذي وصل أحيانا كثيرة إلى درجة الرعب والشلل التام والانطواء والتخلف .. ورغم ما يكتّنه القلب من بغض شديد وكراهية لهذا النظام أو ذاك، إلا أن الجرأة على الإنكار تصل إلى درجة الصفر، خشية عواقب هذا التمرد.

لقد نجحت الأنظمة الظالمة الحاكمة في الربط بين العقاب الصارم الذي لا مفر منه وبين أي تمرد أو سلوك أو فعل أو حتى قول، يمكن أن ينال من النظام الحاكم. فترسخ لدى الناس مفهوم أن التمرد يعني الردع، يعني العقاب، فيكون التثبيط والخنوع هو الرد الشرطي المقترن في كل حالة.

ورغم محاولة الشعوب المسلمة إعلان الثورة ونجاحها في بعض البلاد من الاقتصار من الحاكم الظالم وخلق نظامه، إلا أن بقية هذه الأنظمة في غير بلاد أو حتى في نفس البلاد، لا زالت تمارس الوحشية والعنف في التعامل مع المتظاهرين السلميين - ودون تردد - تلجأ إلى تصفية المعارضين جسدياً والانتقام منهم بالتعذيب والتنكيل بأبشع وأقسى الطرق بل قد يصل الأمر إلى ترويع ذويهم والتعدي على أعضائهم وممتلكاتهم.

لا تعترف هذه الأنظمة الحاكمة بشيء اسمه "المعارضة" أو "النقد"، فكلما ذكرت معارضة أو ذكر النقد، قابلتهما أساليب الترويض ليس فقط بالتخويف والقمع بل بتطبيق كل السياسات الناجمة لإحكام القبضة وضبط هذه الشعوب بما يوافق مصالحها.

فبدل أن تستخدم العصا وحدها استخدمت معها الجزرة أيضاً، والجزرة هي الترغيب والتحكم الناعم الذكي الذي يستغفل الشعوب ويقربها من النظام الحاكم فيخدعها بشعارات الحرية و"الديمقراطية"، بينما يُبقي على جوهر الاستبداد. وهذا ما يفسر لماذا يحرص بعض الحكام العرب على إقامة انتخابات رئاسية والإعلان عنها في كل وسائل الإعلام بفخر. والجواب لأن نتائج هذه الانتخابات عادة ما تكون 99 في المائة لصالح الرئيس الحاكم، ويفسر أيضاً، لماذا تقام الانتخابات البرلمانية ويفتح المجال أمام البرلمانيين للترشح وعرض برامجهم وأفكارهم بـ "حرية"، والجواب لأن كل المشاركين فيها عادة ما يكونون من الأحزاب "الكرتونية" التي يربحها النظام الحاكم، و لا زالت مجالس النواب لا تستطيع ممارسة سلطاتها فعلياً ولا إصدار أي قانون إلا بإذن الحاكم. ولا يتعدى دورها عن إسباغ صورة "متحضرة" عصرية على أنظمة استبدادية قمعية وإيهام الشعوب بأنهم يقيمون نظاماً "ديمقراطياً" حراً يواكب حريات العالم الغربي "المتحضر" في حين أن الحقيقة عكس ذلك تماماً.

ومن أساليب هذا الترويض

الإكثار من الاحتفالات والأعياد الوطنية التي تسبب حالة نسيان لما يعيشه الشعب من واقع مؤلم، وتعزز فيه شعور الانتماء والهوية والوطنية. كما لا بد أن تعرض صورة الحاكم بشكل متلازم مع الأغاني والأهازيج الوطنية. فترسخ في أذهان الناس قاعدة ربط الحاكم بالوطن حتى يصبح هو والوطن شيء واحد، ويكفي بعدها أن توجه المعارضة اتهاما واحدا للحاكم لثتهم بالعمالة وكرهية الوطن لأن الوطن اختزل في شخص الحاكم.

وقد أدرك النظام أهمية التحكم بالعقول والتلاعب بها وترويض الشعوب عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، التي تُؤثر مباشرة في الحيز الإدراكي للناس وتُهمون المصاب وتُلمع الحاكم وتشغل الشعب بما تحدده هذه الوسائل الإعلامية وفق أهداف مدروسة، والتي تجبره في الأخير على احترام وتبجيل هذا النظام الحاكم لأجل مصلحة الوطن الواحد!

اللافتات والملصقات التي تملأ الطرق والساحات وسيلة أخرى من وسائل الترويض، والتي لا بد أن توضع في مواقع مدروسة وتُنقى لها العبارات المفحوصة! فصور الحاكم المختارة بعناية بأزياء مختلفة ووضعيات معينة، لا توضع في أي مكان ولكنها توضع في مكان أعلى من المشاهد بحيث تصبح العلاقة فوقية دونية. فيتذكر هذا المواطن في كل حركاته أن هناك من يحكمه وتحفر في ذهنه تلك الصورة الفوقية وتلك السيطرة اللاإرادية لسلطته.

حين يلحظ الحاكم بوادر تمرد أو استنكار أو يقرر تمرير حدث أو قانون يعارضه الشعب، يعمد لشغل هذا الشعب بافتعال قضايا جانبية كإثارة خلافات مذهبية فقهية أو عرقية أو اجتماعية.. يسارع لخلق أشكال من الفوضى لإثارة ردود أفعال معينة، يتفنن في تفجير أزمات أمنية أو اقتصادية، يضح سبل الشائعات المشتتة والمضللة، ثم يطرح حلولاً يتنازل الناس بموجبها عن حرياتهم وحقوقهم وتُحمد ثورتهم ويتبدد غضبهم.

خطة عمل النظام لتطبيق سياسة الترويض

يبدأ النظام أولاً بتحديد عناصر القوّة والضعف لدى الشعب. وهذا يعتمد على شبكته الإستخباراتية وعيونه المنشورة بين طبقات هذا الشعب المختلفة، وعادة ما تشمل عناصر القوّة الطبقة المفكرة والثقفة التي تسعى لإحقاق التغيير في المجتمع أو تبني تيارات بذاتها تؤمن بمشروع التغيير. ويمكننا تصنيف كل من خالف النظام أو حمل فكرياً يهدد بقاء النظام أو ينتقده في دائرة "المعارضة"، وهي تحديداً - بمختلف أوجهها- تحت رقابة هذا الحاكم في كل سكناتها وحركاتها فضلاً عن جميع مصادر الإلهام لهذا الشعب من علوم وحرّيات والتي يتم حصرها وتتبع منافذها. أما مصادر الضعف فهي تدخل في نطاق كل ما يلهي هذا الشعب ويشتت تركيزه ويشغله عن مطالبه. فيتم تغذيتها وتقويتها وبحث الأطراف التي تنشط فيها فيتم تقريبهم وإشهارهم وتوسيع صلاحياتهم بين الناس فيعلو صوت السفهاء ويعلو المنابر الجهلاء وتتصدر أخبار الفن والغناء والرياضة الاهتمامات.

ثانياً: القضاء على مصادر القوة أو إضعافها بكل الطرق المتاحة: ويتجلى ذلك في تجميد كل الحركات والأحزاب والأفراد والمشاريع التي تهدد هذا النظام وملاحقة الرموز وتشويه الرسائل الناقدة والسجن بتهم وبدون تهم والإقصاء التام من الساحة. فضلاً عن فرض رقابة على مصادر العلم وكبت الحريات وحجب مواقع الأنترنت التي تصنف مُلهمة لهذه الشعوب ومصدر قوة لأي ثورة أو نقد.

ثالثاً: سياسة شراء الذمم واستعطاف القوى والأفراد التي قد تهدد النظام الحاكم، بالإغراءات المادية وتوسيع الصلاحيات والظهور الإعلامي الواسع. لتتحول إلى بطانة لهذا النظام تدعم بقاءه وتسبح بحمده ليل نهار. وهي القدوات البديلة التي يتخذها النظام لسد الفراغ الذي يتركه إقصاء القدوات الحقيقية، ويدخل في هذه "علماء السلطان" ودعاة باعوا ضميرهم وذممهم بثمن بخس. وأغلب من يسقط في هذه الحفرة هم الجهال، الذين في قلوبهم مرض وبهم ترتفع راية الضلال ولكن إلى حين.

رابعاً: زرع كل ما يشغل الشعب بما يمنعه من التفكير في الترويض، فيصبح تأمين لقمة العيش أكبر همه، وجمع الثروة والتّرف المادي أكبر أمانيه، وتصبح الدنيا والعلو فيها أكبر أهدافه، أما القيم والمبادئ فلا يراعى لها اهتماماً، وحجته في كل نازلة أو مصاب يصيب أمة الإسلام، الردود اليائسة والروح المعنوية المحطمة والتبريرات العقيمة والانهازامية المملّة، ولا يكفي بتثبيط نفسه فقط، بل يسعى لنشر

هذا التثبيط بين الناس وكما يقال، “إذا عمّت خفت”. فيتصدى بذلك لصوت خافت قد يهتف بين الحين والآخر في قرارة نفسه، محاولاً إيقاظه من هذا السبات الذي طال.

ماذا لو ثارت الشعوب؟

حتى لو ثارت الشعوب تبقى سياسة الترويض هي السلاح المعتمد ضد الثورات ومن شبّ على شيء شاب عليه.

فتارة يعتمد النظام القوة والردع والقتل والأسر، وهي السياسة التي طالما هدد بها لضمان بقاء ملكه.. أو يعمد لسياسة الوعود والتطمينات والفتاوى المضللة والحقن الفكرية المخدرة، وقد يلجأ للتدرج في استغلال الشعب، وتمهيد نفسيته لقبول المرفوض والرضا بالمستهجن، وخير مثال على ذلك قضية فلسطين التي كانت سبب وحدة الأمة وثورتها وغضبها، فبعد أن كان إسم إسرائيل منبوذاً في كل سياسات الحكام خشية الثورة والانتقاد، بعد تطبيق سياسة الترويض، أصبح التطبيع سياسة مقبولة، والتعامل مع إسرائيل واجب المرحلة بل والتعاون مع إسرائيل من الذكاء والحذقة.

لتصبح السفارات والقنصليات الإسرائيلية في البلاد العربية والإسلامية التي كانت ترفض كل أشكال التعامل والتعاون الإسرائيلي أمراً بديهياً “ديمقراطياً” تحضرياً.. ولتصبح التجارة والمصالح الاقتصادية مع إسرائيل أولوية وذات أهمية، ولتصبح راية إسرائيل ترفرف بكل طلاقة فوق أرض مسلمة يرفض شعبها أي تطبيع مع إسرائيل باطنا ولكنه يصمت ظاهراً فقد ألف التخدير!

علنا أو من تحت الطاولة أو من وراء ستار، هكذا تروض الأنظمة القمعية شعوبها وتدفعها لقبول الفضيعة والمستبعد والمستعظم والمستنكر، وهذه خلاصة فن الترويض للشعوب، تهيئتها المسبقة للقبول بكل ما يهواه الحاكم.

لن يخلو خطاب الحاكم من شعارات رنانة للوطنية والقومية والتضحية ولكن لصالح من صيغت وصوّرت ونشرت؟!... بكل تأكيد لصالح نظام فاسد قمعي مستبد، لم يقدم لشعوب يحكمها حتى أدنى مستوى حياة محترمة ولا عدل ولا إنصاف يشكر عليه.

قد يتوهم البعض أن هذا التشخيص لحالة الترويض التي عانت منها الشعوب المسلمة ولا زالت، مبالغ فيه أو تهويل لواقع معاش، فإن كانت تشخيصات شهود عيان مطعون فيها، فدونكم كتابات الغرب وتشخيصهم لهذا الترويض، ومن بين أبرز ما كتب في هذا الباب، كتاب “أوهام ضرورية” للمفكر الأمريكي نعوم تشومسكي، أحد أشهر منتقدي السياسة الأمريكية، لعله يكشف بعض الاستراتيجيات المتبعة من دول وأنظمة طاغوتية جثمت على رقاب المسلمين أمدًا.

في الأخير، ها قد شخصنا الحالة، ولا بد لكل مرض من علاج، ولكل داء من دواء، ولن يكون التطبيب فعالاً دون النظر في فيزيولوجيا الصراع، ومسببات الترويض، ولعل أهم خطوة نحو العلاج التام هي تحطيم نظرية الاقتران الشرطي لمفاجأة النظام وإحباطه، لكسر حاجز الخوف تماماً والتخلص من شعور الوهن والعجز والفشل، وتعزيز الإيمان بالقوة والقدرة على التغيير بالعزم والإصرار، وبالنظر لتجارب الشعوب التي ثارت فاقتلعت النظام الحاكم وإن كانت تجارب نادرة أو استمراريتها مرهونة، إلا أنها نجحت في الأخير بوحدة الشعب ووحدة المطلب والثبات على خط الثورة الواحد المستمر والمنظم الهادف الواضح الرؤية، وبالإدراك التام لألا عيب وسياسات الترويض والقمع للأنظمة الحاكمة، نجحت في فرض كلمتها في الأخير على ذلك النظام الشقي التعيس الفاني لا محالة .. هذا هو سبيل انتزاع الحريات، قد حفره التاريخ من تجارب الغابرين ونوازل السابقين، بعبارة جامعة ثابتة “الحرية تنتزع ولا تعطى” .. ثم تبدأ بعدها رحلة البناء والرفي الحضاري والازدهار.

أكثر من ثلث العرب يعيشون تحت خط الفقر وهم أغنى الناس! إلى متى!؟

نتفق جميعاً أن الجوع كما تعرّفه منظمة الصحة والزراعة العالمية التابعة للأمم المتحدة (فاو)، أنه الحرمان من الطعام وسوء التغذية، الذي يجعل الفرد لا يستطيع الحصول على 1800 سعر حراري، كحد أدنى يومياً، حياة صحية ومُنتجة. ويعتمد مؤشر الجوع العالمي، على عدة معايير لقياس مستوى الجوع للدولة محل الدراسة، تتمثل بشكل أساسي في حساب كل من:

- النسبة المئوية للسكان الذين يُعانون من نقص التغذية.
- النسبة المئوية لانتشار «الهزال» بين الأطفال دون سن الخامسة.
- النسبة المئوية لانتشار التقزم بين الأطفال دون سن الخامسة.
- النسبة المئوية للأطفال الذين يموتون قبل سن الخامسة.

ويعتمد ترتيب الدولة محل الدراسة في المؤشر، على حساب النسبة الإجمالية المتوسطة للمعايير سالفه الذكر، من صفر إلى 100، وكلما ارتفعت النسبة المئوية التي حصلت عليها الدولة محل الدراسة، دلّ ذلك على ارتفاع نسبة الجوع فيها، والافتقار إلى الطعام، والعكس صحيح، فكلما انخفضت النسبة المئوية التي تحصل عليها الدولة محل الدراسة، دلّ ذلك على تقلص نسبة الجوع فيها.

وهو بهذا المفهوم بات ظاهرة ملازمة لمجتمعاتنا العربية، بل لا نختلف أبداً في أن أغلب الناس اليوم يعجزون عن توفير حاجياتهم الضرورية لمعيشتهم إلا عن طريق المساعدة، نحن لا نتحدث عن الكماليات وأشكال الرفاهيات، بل نتحدث عن تأمين الطعام والشراب، عن تأمين الحق الأدنى لكل مسلم ومسلمة في الحياة!

وكذلك اتفقت إحصائيات نسب الجوع التي بلغت البلدان العربية ونتائج تقارير المتابعة لمستوى معيشة الفرد في كل مجتمع—اتفقت—في تأكيد تزايد ارتفاع هذه الأرقام بل والتحذير من أنها لا تتوقع لها انخفاضاً.

معطيات ثروات المسلمين

ومع ذلك فإن المعطيات لثروات المسلمين لا زالت تؤكد بأنهم يمتلكون جميع المقومات لإنتاجية كافية وفائضة، وأنهم يقطنون أكثر المناطق ثروة في العالم وغناء إلا أنهم يصنفون كبلدان تسمى “نامية” وهو مصطلح لا يعكس حقيقة وضع هذه الدول، خاصة وأن الخط الزمني لنموها يتراجع بدل أن ينمو وتزداد شعوبها فاقة وتدنيا مع كل يوم.

مقارنة الدول المتقدمة بالدول النامية

وقد أثبتت الدراسات أن 23% من سكان العالم يعيشون في الدول الشمالية التي تصنف بالمتقدمة ولكن رغم قلتهم مقارنة مع عدد سكان العالم إلا أنهم يحصلون على 82% تقريبا من الدخل العالمي.

في حين يعيش 77% من سكان العالم في الدول الجنوبية التي تصنف بالنامية ولا يحصل سكانها إلا على 18% من الدخل العالمي وهذا مشهد صارخ للهيمنة الغربية والسياسة الاستعمارية التي تتخذ لها أنماطا مختلفة ولكن نتيجتها واحدة، نهب وسرقة واستنزاف لموارد الغير.

الجوع للشعوب والبدخ للحكام

وفي الواقع إن شعوبنا اليوم “فقيرة” بكل ما تعكسها الكلمة من دلالات، وفئات اجتماعية كثيرة منها أضحت أسيرة الجوع بكل ألمه ومرارته بينما حكامها وحاشيتهم ينامون ببطون منتفخة شبعاً ويصرفون الأموال الطائلة على شهواتهم وملذاتهم!

الفقر في البلدان العربية

إحصائيات الأمم المتحدة للفقر في البلاد العربية

لا تزال الأرقام صادمة حول مستويات الفقر المدقع في أغلب بلداننا العربية، لقد بلغ عدد من يرزحون تحت خط هذا الفقر إلى نسبة تتراوح بين 34 و38 بالمئة من إجمالي السكان الذين وصل عددهم إلى ما يزيد عن 300 مليون نسمة، حسبما ورد في تقرير للأمم المتحدة عقب قمة الأمن الغذائي في العاصمة الإيطالية روما، أي أن أكثر من ثلث العرب يعيشون تحت خط الفقر، أكثر من

ثلث العرب لا يجدون ما يأكلونه ويثنون تحت وطأة الجوع! أكثر من 100 مليون صامتون على جوعهم!!!

الإحصائيات المنفردة للفقير في البلدان العربية

ثم إن الإحصائيات المنفردة مخيفة في بعض البلدان فقد بلغت النسبة السقف في السودان بـ 80% جائع بينما في مصر تشير الأرقام إلى أن أكثر من 46% من الشعب المصري لا يحصل على الطعام الكافي ويعاني من سوء التغذية. ثم في الجزائر تتحدث الرابطة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان عن 10 ملايين جزائري يقعون تحت خط الفقر! وعن جارتها ذكر تقرير للبنك الدولي نشر في مطلع عام 2014، أن 13 مليون مواطن مغربي يعيشون الفقر، منهم 5 ملايين يعانون العوز الشديد بشتى ألوان غصاصته.

التقصير في تحقيق الأمن الغذائي

وبالنظر لواقع هذه الشعوب فإن تقرير الأمم المتحدة أكد أن الدول العربية تكاد تتوحد بدرجات متفاوتة في التقصير الواضح لتأمين أمن الإنسان وكذلك قالت منظمة (الفاو) مؤكدة بأن مشكلات الأمن الغذائي عندهم مرشحة للزيادة في المستقبل. وأن الحكومات لم تقم بتغيير حال شعوبها-رغم التحذيرات-بل لا زالت الهوة تتسع بين الأغنياء والفقراء وتختفي مع ذلك الطبقة الوسطى في العديد من مجتمعات تلك الدول لتدخل حيز دائرة الفقر مرغمة. كذلك أبرز البنك الدولي أن البلدان العربية، أكثر من مناطق أخرى، عرضة إلى أبعد الحدود للصدمات في أسعار المواد الغذائية. وبمعنى آخر أن الكابوس لا زال جاثماً على صدور المسلمين إلى ما لا نهاية!

إحصائيات دقيقة

ولكن مع بعض التبصّر نجد أن نسبة الفقر المدقع التي أحصتها الأمم المتحدة وكذلك منظمة (الفاو) غير دقيقة وربما ضئيلة، ذلك أن مصادر منظمة (الفاو) حكومية بحتة، تتجاهل الكثير من الأرقام الحقيقية على أرض الواقع التي لو عدّت لأذهلت الأسماع!

ولو أننا اعتمدنا إحصاءات ميدانية أكثر دقة وشفافية ومصداقية، لا شك أن العدد سيفوق المئة مليون جائع في البلدان العربية.

تقارير هذه المنظمات لم تنحصر في إحصاء أرقام الجوعى بل أردفتها بإحصاءات حول نقص التغذية التي تشير إلى أن حوالي 40 مليون عربي يعانون من نقص التغذية أي ما يعادل 13% من السكان تقريباً، بالإضافة إلى إحصاءات البطالة الدائمة أو المؤقتة التي لا تنزل عن تعداد الملايين من البطالين في شتى بلاد المسلمين.

بذخ الحكام العرب

كل هذا يحدث في وقت أنفقت به السعودية المليار للاحتفال بزيارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في قمة الرياض! وأموال أخرى لا تحصيها حاسبة استنزفت في ما لا ينفع المسلمين بأي حال! فكم كانت هذه الأموال ستسد من مليون بطن جائع في البلدان العربية؟!

موقف الشعوب العربية

ورغم أن القاعدة الطبيعية لكل كائن حيّ في هذا الوجود تؤكد بأنه في حال فقد حقوقه الطبيعية كالطعام مثلاً، فإن غريزة حب البقاء لديه تتفجر في ثورة غاضبة يسترجع بها المسلوب ويكافح للحصول عليه وإن كلفه ذلك حياته. وهذه الحيوانات-مثال واقعي-لهذه القاعدة، فمن اقترب من حياضها واعتدى على حقوقها، تدافع عنها باستماتة وهي التي تصنف لا عاقلة! وكذلك الشعوب من شتى القوميات، إن زاد سعر مادة في السوق، ضجت الطرقات بالاستنكار وتماوجت عبارات التهديد والوعيد في ثورة الغضب، وخضع الحاكم لطلباتهم بلا استهتار! إلا مع شعوبنا العربية، التي يبدو أنها قد ألفت الذلّة والقمع، واعتادت الخنوع والهوان ورضيت أن تبقى تحت سياط سلاطين الظلم أسيرة أغلال الاستعباد!

ترى الحرمان وترفض التظلم، ترى السرقة والنهب وترفض قطع اليد! ترى التماذي في القهر والعدوان وتؤثر على ذلك الصّمت! أفيعقل أن تصل أمة دينها الإسلام وقودتها النبي ﷺ وسائر الأصفياء، لدرجة ترضى فيها بعيشة إذلال لا نهاية لها؟ في حين كان يقول أبو ذر رضي الله عنه:

عجبت لرجل يبات جائعا ولا يخرج بسيفه على الناس!

ماذا بقي لشعوبنا المسلمة؟ كل هذا الظلم والعسف الذي يحاصرها عقودا من الزمن، نهب لأموال المسلمين واستغلال بشع من قبل أعداء المسلمين ثم لا حياة لمن تنادي؟ بل إن الغرب استفاد من ثروات المسلمين أكثر من المسلمين أنفسهم... ثم نكتفي بملء مقاعد المشاهدين!

لقد رأينا بكل ألم صمت شعوبنا المسلمة وهي تشاهد جيوش الكافرين تحط أرتالها وعتادها في ديارنا، متبجحة مستكبرة، وبدل أن تنتفض وترفض وتستنكر رأينا من يرحب ويقدم قرابين المودة والمحبة وتلك التبريرات المذلة! وتعجبنا حين رأينا في الصورة المقابلة شعوب هذه الدول قلقة! قد أبصرت ظلما واعتداء من حكوماتها وخطرا يحوم بأبنائها، فخرج العاقلون منهم بالملايين ينددون بالتدخل في شؤوننا! رغم ما تجنيه حكوماتهم من فوائد تعود عليهم بالريح.

ثم كم من مسلم خرج يندد يوما بتدخل أمريكي على أراضي المسلمين؟ كم من حر عبّر عن رفضه لتمادي أطماع الكافرين في ديارنا وثرواتنا؟! غُدوهم فلن يتجاوز العدد العشرات وفي أفضل حال المئات!

بل أكثر من ذلك، رأينا أعراضا تنتهك ويوتا ومساجد تهدم ومصاحف تهان وتحرق وأطفالاً رضع يقصفون بأبشع ما يكون! وإخواناً يؤسرون وأخوات يغيبن في زنازين الجور وإنسانية تجلد بكل أنواع العذاب الشيطاني التي لا يقوى على مشاهدتها قلب حي، وحضارة إسلامية عريقة تدنس بأقدام نجسة! فما انتفض شعب!

كل هذا وما زال قومنا يتحججون بالمعاذير ويتضرعون بسلامة النفس!

ثم ها نحن نرى اليوم شبح التمادي والظلم قد طرق بطونهم فأوجعهم وأفجعهم ولكنهم لا زالوا ساكنين يصطبرون على آلامهم وهم يتضورون جوعا ولا يتجرأون على الإنكار! فليت شعري! ماذا بقي يستحق الحياة؟!

هل فقدنا الإحساس؟! أم فقدنا هويتنا وديننا وأصبحنا من الأموات؟!

لا شك أن الهيمنة الغربية وأخطبوط أطماعها الذي اخترق عمق ممتلكاتنا ومصالحنا وربما بعضا من إنسانيتنا! ونهب منها بما لا يعد ولا يحصى، كان له دور مباشر في تصعيد جوع شعوبنا، ولكن يبقى الأهم من ذلك هو السلبية النكدة التي تعودت عليها هذه الشعوب في تمرير كل إثم وذنوب وكل اعتداء وغصب!

نعم قد انتهكت الأعراض وكان الصمت وسرقت الأموال وكان الكبت، واحتلت البلاد وكان الموت! فهل ننتظر أن تحرك آلام الجوع في البطن ضمير إنسان قبل أن توظف ضمير مسلم! ليتها تفعل لعلنا نطوي صفحة هذا الواقع المظلم في سفر المسلمين في العصر الحديث⁽¹⁾!

(1) المراجع: الجوع و الفقر في عالمنا العربي... الى متى؟ - 100 مليون عربي تحت خط الفقر. - 80% من السودانيين على عتبة الفقر - استطلاع للحزب الحاكم: 51% من الشعب المصري لا يكفيهم دخلهم - 10 ملايين جزائري يعيشون تحت خط الفقر ويكبيديا الموسوعة الحرة.

الثروة المائية الوجه الآخر للصراع

سلطت أزمة سد النهضة التي طالقت فصولها بين إثيوبيا ومصر الضوء على أحد أهم قضايا الأمن القومي للدول في العصر الحديث، ألا وهي قضية الصراع على الثروة المائية.

ولم يكن مستغرباً تهديد رئيس الوزراء الإثيوبي أبي أحمد بحشد الملايين من الجنود لحماية السد الجديد إذا اقتضى الأمر ذلك، في حين تحدثت التقارير الإعلامية عن نصب إسرائيل -حليفة إثيوبيا- لصواريخ على محيط السد بهدف حمايته.

كل هذا الحشد جاء لأن مصر أعلنت خشيتها من نقص حصتها في مياه نهر النيل مع قرب افتتاح السد الإثيوبي، وهي المياه التي يعتمد عليها للعيش مئة مليون نسمة بنسبة 95%، ويشكل نقصها كارثة حقيقية في البلاد.

الصراع على المياه صراع تاريخي مستمر

ليست أزمة سد النهضة أزمة المياه الأولى التي تعرفها المنطقة العربية، فقد عرف الشرق الأوسط أزمات متتالية منذ الستينيات، حيث رصدت قاعدة بيانات حول الصراعات المتعلقة بالمياه حول العالم وقوع 92 حادثاً متعلقاً بالمياه في الشرق الأوسط.

وتتوقع النماذج المناخية المتطورة بأنَّ نقص مياه بلاد الشام في القرن الـ21 يمكن أن يصل إلى مستويات كارثية، ويتأزم الوضع لحد اندلاع حرب على المياه في الشرق الأوسط.

ولم يعرف العالم أزمة المياه إلا في العصور المتأخرة لأسباب متعددة أبرزها هدر المياه بلا مبالاة، وسوء توزيع الثروة المائية، وتزايد النمو السكاني والإنتاج الزراعي، ثم الظروف المناخية التي تساعد على تفاقم هذه الأزمة كالجفاف.

ويُصنَّف النزاع على المياه في مرتبة النزاع العسكري والاقتصادي والسياسي في مقاييس النزاعات الدولية.

ويحدث النزاع عادة على المياه العذبة التي لا تتعدى مواردها نسبة 3% من مجموع موارد المياه في الأرض، بما فيها الثلثان المتوفران بشكل متجمد في المثالج والأغطية الجليدية القطبية. بينما تشكل 97% من الموارد المائية مياهاً مالحة. مع العلم أن تقنيات تحلية مياه البحر مكلفة للغاية وليست في متناول كل دولة.

أما باقي موارد المياه العذبة غير المتجمدة فتوجد في المياه الجوفية، وعلى شكل بحيرات وأنهار وجداول على سطح الأرض، أو على شكل بخار ماء.

وتولي الدول اهتماماً بالغاً بموارد المياه وتحشد لحفظها الوسائل والأسباب والتي قد تصل لدرجة إعلان الحروب في سبيل حفظ حصتها من الثروة المائية. ذلك أن هذه الثروة ثروة وجودية تتعلق بحياة الإنسان بشكل مباشر، بل يُتَوَقَّع أن يصبح الصراع على المياه أكثر حدة من الصراع الدولي على النفط والثروات الأخرى؛ لارتباط المياه الوثيق بالحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ويؤكد هذا الاتجاه تصريح هانز فان جينكل، مساعد الأمين العام للأمم المتحدة، الذي قال: إن «الحروب على المياه، سواءً كانت دوليةً أو أهلية، تهدد بأن تصبح مكوناً رئيسياً لمشهد القرن الـ21.»

وجاء في تقرير مجلة *The National Interest* الأميركية: إذا لم يُوضع حدٌ لاحتمالية الصراع على المياه التي تلوح في الأفق، فسوف تُجْرُّ الولايات المتحدة وحلفاؤها إلى حربٍ أخرى في الشرق الأوسط.

وبالنظر للموقع الجغرافي للدول العربية على الحزام الجاف أو شبه الجاف في خريطة العالم مع قلة الموارد المائية المتجددة فيه عن 1% من المياه المتجددة في العالم، بات لزاماً الإحاطة بخطورة إغفال هذه القضية المصرية للشعوب المسلمة التي يتوقع لها أن تقع تحت خط الفقر المائي خلال العقدين القادمين.

وبحسب الإحصائيات فإن 67% من مياه الأنهار في الشرق الأوسط تأتي من خارجها.

فنهـر النيل ينبـع من إثيوبيا “النيل الأزرق”، وبحيرة فكتوريا “النيل الأبيض”، أما نهـر الفرات ودجلة فينبـعان من الجبال الواقعة شمال تركيا، ويمر الفرات عبر سوريا ثم العراق، أما دجلة فيمر من تركيا للعراق مباشرة.

الاحتلال الإسرائيلي والسيطرة على الثروة المائية

ويظهر أن المنطقة التي تواجه احتمالية أكثر إثارة للقلق لنشوب صراع بين الدول بسبب ندرة الموارد والمياه، هي منطقة حوض نهر الأردن في الشرق الأوسط.

ولعل التصريحات التي لوحـت بها شخصيات إسرائيلية صهيونية في مناسبات عدة حملت تهديداً صريحاً بقطع المياه عن الأردن، تبرز بعض ملامح الخطر الذي يقـدح شرره من الكيان المحتل.

منها تصريح وزير الزراعة في حكومة الاحتلال الإسرائيلي، أوري أريئيل، الذي هدد بقطع المياه عن العاصمة الأردنية عمّان؛ رداً على إنهاء ملحقي تأجير الباقورة والغمر من اتفاقية ما يُسمى السلام، ونقلت وسائل إعلام عبرية عن أريئيل تهديداته أن حكومته ستقلص المياه التي تزود بها عمّان من 4 أيام إلى يومين في الأسبوع إذا تمّ إلغاء الملحق الخاص بأراضي الغمر والباقورة، واعتبر أن الأردن بحاجة إلى تل أبيب، أكثر من حاجة تل أبيب للأردن!

ولا تختلف التصريحات الحديثة عن القديمة في عمر الكيان المحتل، فقد قال الصهيوني بلسان هوارس عام 1921م: “إن مستقبل فلسطين بأكمله هو بين أيدي الدولة التي تبسط سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الأردن.”

وبنفس الصراحة قال ديفد بن غوريون عام 1955م: “إن اليهود يخوضون مع العرب معركة المياه، وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير إسرائيل، وأنا لم ننجح في هذه المعركة فإننا لن نبقي في فلسطين.”

فالصراع مع إسرائيل بطموحاتها التوسعية يشمل بلا شك الأطماع في الهيمنة على الثروة المائية التي تمثل قاعدة مصيرية يعتمد عليها النهوض لكل دولة، كما تمثل سلاح ضغط وتهديداً فعّالاً في كثير من الأحيان.

الثروة المائية تحدد مسار التحركات العسكرية

وبالرجوع للتاريخ، تُرجمت التصريحات الصهيونية إلى أفعال واقعية أكدت أهمية المياه لحياة إسرائيل، فالعمليات العسكرية الإسرائيلية على الحدود السورية-اللبنانية عامي 1964 و1965م انطلقت بسبب الأطماع الإسرائيلية في مياه نهر الأردن ونهر بانياس ونهر اليرموك ونهر الحاصباني، كما كان من أسباب حرب 1967م تحويل مجرى نهر الأردن، وعام 1982م شنت إسرائيل حملة عسكرية على لبنان كان من أهدافها أطماع إسرائيل في نهر الليطاني.

ويجدر الإشارة إلى ما ذكره وزير الدفاع الإسرائيلي السابق أرييل شارون، الذي قال: "في الواقع (حرب الأيام الستة) بدأت في اليوم الذي قررت فيه إسرائيل تحويل مجرى (نهر) الأردن".

ثم إن المطلع على خريطة المستوطنات التي رسمها الاحتلال الإسرائيلي منذ عام 1967 سيلمح ذلك الكيد الصهيوني الذي يحرم الشعب الفلسطيني من موارده المائية من خلال إقامة المستوطنات على الأماكن التي تتمتع بوفرة مصادرها المائية، حيث أن 70% من المستوطنات تقع على حوض الخزان الشرقي الموجود في الضفة الغربية.

وتستغل إسرائيل بذلك الخزان الجوفي الفلسطيني الذي يغطي 25% من احتياجاتها المائية في عملية نهب وسرقة للثروة المائية، تنضم لأساليبها المتطورة البشعة التي تستعين بها في سرقة مياه الآبار الفلسطينية.

فإسرائيل التي تمركزت في قلب العالم الإسلامي باحتلالها فلسطين وتوسع بالمستعمرات وغصب الأراضي والمستوطنات لم تزل تركز اهتمامها على مصادر المياه الأساسية لهذا التوسع، وهو خطر لم تدركه الشعوب ولا الحكومات في المنطقة، إلا بعد أن بسطت الصهيونية نفوذها الإقليمي على معظم الأراضي الداخلة ضمن أحواض تغذية المصادر المائية التي كانت تتطلع إليها في مخططاتها التوسعية حتى الوقت الحاضر.

وأطماع إسرائيل المتصلة بالثروة المائية تصل إلى غاية القرن الإفريقي ومنطقة البحيرات الكبرى، حيث تطالب إسرائيل أيضاً بمدها بنصيب من مياه النيل عن طريق سيناء، وهو ما يؤمنه لها النظام المصري وحليفاتها إثيوبيا.

ويذكر التاريخ الأطماع الصهيونية في هذه المياه منذ بداية القرن الماضي بمشروع اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر لهذا الغرض، لكنه مشروع لم يرَ النور.

وبمشروع المهندس الإسرائيلي "إليشع كيلبي" عام 1974م، وهو مشروع لجلب المياه لإسرائيل من الدول المجاورة، حيث يسمح هذا المشروع لإسرائيل بالحصول على 8 مليارات متر مكعب من المياه سنوياً من النيل، عن طريق قناة الإسماعيلية باتجاه النقب وساحل إسرائيل. وقد تكرر الحديث عن هذا المشروع فيما بعد خاصة بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد عام 1979م، ولن يكون مستغرباً أن يتم تمرير مثل هذه المشاريع بهدوء بعيداً عن ضجيج الإعلام.

وتسعى إسرائيل أيضاً للحصول على مياه نهر الفرات من تركيا مباشرة عن طريق شبكة إمدادات خاصة مقابل المال.

ولطالما شغلت ثروة المياه الفكر الصهيوني بألوية قصوى، فبعد صدور وعد بلفور عام 1917م تقدم حاييم وايزمان رئيس المؤتمر الصهيوني آنذاك إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا طالباً تحسين حدود إسرائيل حسب وعد بلفور، لتضم حوض الليطاني وجبل الشيخ وحرمون، أي تضم أنهار الأردن وبانياس واليرموك.

ولا أوضح دلالة على هذه الحقيقة من الخريطة المعلقة على الكنيسة، والتي تبرز الحدود الإسرائيلية المستهدفة من النيل للفرات، أي من ثروة مائية لأخرى.

الوعي الإسلامي بأهمية الثروة المائية

يعيش المسلمون في دائرة صراع ينال من كل ثرواتهم الحياتية، وعلى رأسها الثروة المائية. ومع ذلك تقف عوامل أخرى تهدد هذه الثروة وسلامتها لا بد من الاهتمام بها والسعي لاحتوائها، وعلى رأسها الهدر الكبير للمياه، سواء في الحياة اليومية أو في القطاع الزراعي، والخراب الحاصل للمياه الجوفية وزيادة الأملاح فيها، والتلوث الناتج عن المخرجات السائلة للأنشطة الصناعية، ومياه الصرف الزراعي، وما تحتويه من بقايا أسمدة ومبيدات حشرية، ومن مياه الصرف الصحي. والتبخّر الكبير الذي تتعرض له الأنهار الكبرى والسدود، واستنزاف المياه الجوفية والآبار وقلة الموارد المائية، وصعوبة تأمين الاحتياجات اللازمة في الوقت والمكان المناسبين. وضعف مشاريع الاستثمار في المياه، الذي يرجع بالدرجة الأولى

لسهولة الاستيلاء على موارد الأنهار كما شاهدنا ذلك مع سد النهضة الذي يخفض حصة المصريين في نهر النيل بشكل خطير.

ويبقى التحدي الأكبر مع سرطان العصر، الاحتلال الصهيوني المستمر، الذي يستولي على مياه نهر الأردن والضفة الغربية وجنوب لبنان والجولان وحتى النيل، ويتوسع بسياسات ابتزاز واحتلال ومكر وعدوان.

فإسرائيل قد استنفدت خلال أكثر من ثلاثين عاماً التي انقضت منذ قيامها استثمار كل ما هو متوفر تحت سلطتها من موارد مائية، سطحية وجوفية.

وتمتلك الصهاينة وضوح الأهداف والإدراك اللازم لأبعاد أزمة المياه المتوقعة لكيانهم منذ مطلع القرن، الذي حدا بهم لأن يخططوا بشكل علمي ودقيق، وبعيد المدى للخطوات التي قدروا وجوب اتباعها لمجابهة تلك الأزمة، وما رافق ذلك من المساعدات السخية وغير المحدودة، المالية منها والفنية، التي قدمها لهم الغرب لتجاوز مشاكلهم.

ثم إن كل الدلائل باتت اليوم تشير إلى أن الخطر بات يتجه من جديد نحو المياه في العالم الإسلامي، فاليهود يواصلون التصرف كما لو كانوا يتعاملون مع فراغ، غير آبهين بما للمسلمين من حقوق ومصالح في مياههم، كما نشاهد ذلك في داخل فلسطين المحتلة ومع دول الجوار.

ولاشك أن استراتيجية الحفاظ على الثروة المائية يوازئها استراتيجية الحفاظ على استقلالية الأرض المسلمة وشعبها، وهو جزء من مشروع تحرر كامل متكامل لهذه الأمة، ويستدعي رفع درجة الوعي بحجم الصراعات والإحاطة التامة بتعقيداتها وتداعياتها على مستقبل المسلمين وحياتهم، دون أن ننسى حقيقة أن القرارات الدولية لا تمثل ثقلًا مؤثراً في المشهد، كون إسرائيل لا تقيم لها وزناً أمام أطماعها وعدوانها، كما أنها لم تحقق للمسلمين عدالة حتى في أحلك اللحظات.

وبما أن حلقات الصراع في المنطقة طويلة وحلها يرتبط بشكل وثيق بحل كل مشاكل الأمة العالقة التي تحكمها أسباب لم تجتمع بعد وقد تستغرق وقتاً أطول، يبقى الحل العملي بعد معرفة حجم الخطر الذي يتهدد ثرواتنا المائية هو تسخير طاقات الأمة الصادقة وعبقريات أبنائها الكامنة لبحث سبل توفير الموارد المائية وحفظ سلامة مياهنا في الحالات الحرجة والاستثنائية، بما فيها حالات الحروب

والصراعات والأزمات وإطلاق المشاريع التي تشمل التوعية وتغيير السلوكيات الهادفة للمياه وإنقاذ ما تبقى منها، ثم الاستثمارات التي تسمح بتخفيف تبعات الصراع وإحباط مكر الأعداء وفق مبدأ “درهم وقاية خير من قنطار علاج.”⁽¹⁾.

⁽¹⁾ دراسة بعنوان: الصراع على المياه في فلسطين الجذور التاريخية والواقع المعاش للدكتور عدنان أبو عامر - الصراع على المياه في الشرق الأوسط - محمد مورو - كتاب المياه العربية وحروب المستقبل - محمد صادق إسماعيل. - الماء العربي في خطر - د. يوسف مكّي. - الحرب القادمة في الشرق الأوسط.. تنبأ بها سياسي مصري، وستشكل المشهد الرئيس في القرن الـ21 عربي بوست.

قراءة في الحرب الاقتصادية بين الصين والولايات المتحدة

سلطت تصريحات مستشار الأمن القومي الأمريكي جون بولتون في واشنطن يوم 27 نوفمبر تشرين الثاني 2018م الضوء على الحرب الاقتصادية الجديدة بين الولايات المتحدة والصين، والتهديد المتنامي من عمق آسيا الذي تبصره الولايات المتحدة وتتأهب له.

حيث قال بولتون خلال كلمة ألقاها في مؤسسة هريتيدج للأبحاث: “إن الأولوية الأهم لدى واشنطن ستتمثل في تطوير علاقات اقتصادية في المنطقة... فالمنافسون على القوة العظمى، وتحديدًا الصين وروسيا، يوسعون نفوذهم المالي والسياسي على نحو سريع في أنحاء أفريقيا”. وأضاف قائلاً: “إنهم يوجهون استثماراتهم في المنطقة عن عمد وعلى نحو عدائي لنيل أفضلية تنافسية على الولايات المتحدة”⁽¹⁾.

بداية الحرب

يُرجع المراقبون تاريخ اشتعال جذوة الحرب الاقتصادية بين الصين والولايات المتحدة لتاريخ إعلان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في 22 آذار/ مارس من عام 2018م عن وجود نية لفرض رسوم جمركية تبلغ 50 مليار دولار أمريكي على السلع الصينية بموجب المادة 301 من قانون التجارة لعام 1974م، التي تسرد تاريخ «الممارسات التجارية غير العادلة» وسرقات الملكية الفكرية.⁽²⁾ وكرد انتقامي من جانب الحكومة الصينية، فُرضت رسوم جمركية على أكثر من 128 منتجاً أمريكياً أشهرها فول الصويا.⁽³⁾

وأصبحت الرسوم الأمريكية على ما قيمته 34 مليار دولار من البضائع الصينية فعالة في السادس من يوليو، وقامت الصين بدورها بفرض الضرائب الجمركية على الواردات الأمريكية في 2 نيسان/أبريل، وذلك على 128 منتجاً أمريكياً، بما في ذلك الألومنيوم والطائرات والسيارات ولحم الخنزير وفول الصويا والفواكه والمكسرات والصلب.

(1) بولتون: أمريكا ستصدى لنفوذ الصين وروسيا في أفريقيا.

(2) Statement from President Donald J. Trump on Additional Proposed Section 301 Remedies
Trump hits China with tariffs, heightening concerns of global trade war

(3) These Are the 128 U.S. Products China Is Enacting Tariffs On

وفي اليوم التالي نشر الممثل التجاري الأمريكي قائمة بأكثر من 1300 منتج من الواردات الصينية فُرِضت عليها رسوم بقيمة 50 مليار دولار.⁽¹⁾

وفيما عُدّ رداً على إعلان التصعيد من جانب الصين، فرضت واشنطن رسوماً إضافية بنسبة 25% على كل من الطائرات والسيارات وفول الصويا.⁽²⁾ ولم يكتفِ ترامب بذلك، بل وجه الممثل التجاري الأمريكي في 5 نيسان/أبريل للنظر في فرض 100 مليار دولار إضافية من الرسوم الجمركية على الصين.⁽³⁾

وكان لهذه القصوفات التجارية بين البلدين تداعيات على الساحة الاقتصادية العالمية، حيث خفّض صندوق النقد الدولي في أبريل 2018م توقعاته لنمو الاقتصاد العالمي لعام 2019 إلى 3.3%، مقابل 3.5%، بسبب استمرار التوترات التجارية العالمية بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية.⁽⁴⁾

لكن اتفاقاً مبدئياً وقّع عليه الطرفان في 19 مايو 2018م قضى بخفض العجز التجاري الأمريكي خفضاً كبيراً، وتعليق التهديدات، وقامت على إثره الصين بخفض الرسوم الجمركية ورفع القيود وتناول مقترحات شراء بضائع أمريكية.

لكن ترامب لم يهدأ له بال، واستمر في سياسة فرض الرسوم الجمركية والتصعيد بالأرقام والتصريحات، وكذلك استمرت بكين بالرد بالمثل حتى تاريخ 1 ديسمبر 2018م، حيث أعلن ترامب ونظيره الصيني شي جين بينج التوصل لهدنة، وقررت واشنطن إيقاف الزيادة في الرسوم الجمركية المفروضة على الصين لمدة 90 يوماً، كما تعهدت بكين بشراء كمية كبيرة من المنتجات الأمريكية، وأوقفت لـ3 أشهر الرسوم الإضافية المفروضة على بعض المنتجات الأمريكية.⁽⁵⁾

إلا أن الهدوء لم يلبث طويلاً؛ ففي 10 مايو 2019 انتهت الهدنة وقررت واشنطن رفع الرسوم من 10% إلى 25%، واستهدفت الرسوم 200 مليار دولار من الواردات الصينية، كما أعلنت حظر التعاملات أو شراء معدات من الشركات الصينية كشركة "هاواي" الرائدة عالمياً في مجال

⁽¹⁾Under Section 301 Action, USTR Releases Proposed Tariff List on Chinese Products

⁽²⁾As China Fires Back in Trade War, Here Are the Winners And Losers

⁽³⁾ Trump proposes \$100 billion in additional tariffs on Chinese products

⁽⁴⁾ تايم لاين.. مراحل التصعيد في الحرب التجارية بين الصين وواشنطن.

⁽⁵⁾ تايم لاين.. مراحل التصعيد في الحرب التجارية بين الصين وواشنطن.

الإليكترونيات باعتبارها تمثل خطراً عليها وتتجسس لصالح بكين، ووضعتها على قائمة الشركات المحظورة، وأعقب هذا القرار إضافة 5 شركات ومؤسسات صينية تكنولوجية كبرى أخرى إلى “القائمة السوداء.”

من جانبها، ووفق سياسة الرد بالمثل، رفعت الصين قيمة التعريفات الجمركية المفروضة على منتجات أمريكية بقيمة 60 مليار دولار، وأعلنت عن أنها تعد قائمة سوداء بالشركات الأجنبية “غير الموثوقة.”

تصعيد مستمر رغم الوعود بالتهديئة

والتقى الزعيمان الأمريكي والصيني في 30 يونيو 2019م وجهاً لوجه في قمة العشرين في أوساكا باليابان، وأعلن ترامب أن بلاده لن تفرض رسوماً جديدة على الصين، وأنه لن يلغي الرسوم السابقة.

إلا أن ترامب أعلن مجدداً في 1 أغسطس أن بلاده ستفرض اعتباراً من 1 سبتمبر التالي رسوماً جمركية بنسبة 10% على البضائع الصينية بقيمة 300 مليار دولار، وصنفت واشنطن في نفس الأسبوع الصين دولةً تتلاعب بسعر صرف العملة، مشيرة إلى أنها ستعمل مع صندوق النقد الدولي للقضاء على “الميزة غير العادلة” التي اكتسبتها الصين من خلال خفض اليوان (العملة الصينية) مقابل الدولار إلى الحد الأدنى منذ ديسمبر الماضي.

من جانبها، ردت الصين بتعليق شراء المنتجات الزراعية الأمريكية وهددت برفع التعريفات الجمركية المفروضة.

تداعيات التصعيد

تداعيات سياسات المد والجزر بين البلدين انعسكت سلباً على الساحة الاقتصادية العالمية، حيث نشرت وكالة بلومبرج تقريراً يفيد بأن أغنى 500 شخص في العالم خسروا نحو 2.1% (117 مليار دولار) من صافي ثروتهم مع انخفاض الأسهم الأمريكية في ظل تصاعد الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة.⁽¹⁾

(1) المصدر السابق.

أيضاً يدفع المستهلكون الأمريكيون والشركات الأمريكية معظم تكاليف الرسوم الجمركية الناجمة عن هذه الحرب، ويبقى المزارعون والعمال في الولايات المتحدة أكبر متضرر من الحرب التي يخوضها ترامب مع الصين.

وتأتي هذه التداعيات في وقت يستعد فيه رئيس الولايات المتحدة لمواجهة الانتخابات الرئاسية في عام 2020م، ويتعرض لضغوط على جميع الجبهات من خصومه الديمقراطيين الذين يسيطرون على مجلس النواب ويطالبون بعزله.

وتجدر الإشارة إلى أن الصين لا تزال أكبر شريك تجاري للولايات المتحدة، وقد زادت صادراتها في العام الماضي بنسبة 7%، رغم أن صادراتها إلى الولايات المتحدة انخفضت بنسبة 9% في الربع الأول من 2019م.

ومع أن الصين قوة تصنيعية كبرى، يصغر أمامها أقرب منافسيها، وليس من السهل استبدالها في الأسواق، يعاني الصينيون من تباطؤ في النمو، وهم يصدرون أكثر إلى الولايات المتحدة مما يستوردون، ولذلك فقد يتوجعون أكثر من الحرب الاقتصادية الجارية.

في الوقت نفسه، تواجه الحكومة الصينية اضطرابات بين السكان الأيغور في شينجيانغ والمظاهرات الحاشدة في هونغ كونغ، ويحتاج الرئيس الصيني أيضاً إلى إنجازات ملموسة تساعد على تثبيت سلطته، تماماً كما هو حال نظيره الأمريكي.

وفي هذه الأثناء، لا زالت رحى الحرب الاقتصادية بين البلدين تسير نحو فرض رسوم جمركية جديدة على بضائع الآخر، تتخللها محطات هدن ومفاوضات.

طبيعة العلاقة الصينية الأمريكية

تحتل الصين بحسب الدراسات مرتبة الشريك في النظام الدولي مع الولايات المتحدة، وتعني هذه المرتبة أن الدولة الموجودة في هذه الطبقة يمكنها القيام بمناورات أو تحركات منفردة للحصول على مكاسب

أو مصالح، ولكن بشرط مهم وهو عدم الإخلال بتوازن القوى الإقليمي أو الدولي الذي تحكمه أمريكا، وعدم الإضرار بمصالح أمريكا الاستراتيجية.⁽¹⁾

والصين دولة عظمى ذات قوة اقتصادية وعسكرية هائلة، وتسيطر مع الولايات المتحدة على غالبية الاقتصاد العالمي، ورغم أنها صنفت في السابق دولة منغلقة لا تحمل طموحات استعمارية أو توسعية بعيداً عن حدودها الكبيرة، وأنها لا تسعى لفرض الهيمنة عبر البحار مثل دول كبرى أخرى عبر التاريخ، إلا أن تقارير رصد النشاط الصيني الأخيرة على جميع المستويات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية تنذر أن التنين الصيني يتمدد بالفعل لسيط نفوذه ويتحول من مجرد دولة ذات طموح محدود إلى امبراطورية تسعى لاكتساح العالم.

ومن علامات هذا النشاط، مشروعها الضخم «مبادرة الحزام والطريق» المستلهم من خط الحرير القديم، حيث تبسط من خلاله الصين شبكة نفوذها في خريطة العالم عبر مراكز دولية حيوية استراتيجية.

ثم سياستها التي تعتمد على "فخ الديون"، لتضطر الدول التي عجزت عن سداد دينها للتخلي عن ممتلكات ذات أهمية لبكين دون مقابل، مثال على ذلك سريلانكا التي فقدت أحد أهم مراكز العبور البحري لصالح الصين.

وتقع سريلانكا في موقع إستراتيجي على خط الملاحة الأكثر ازدحاماً بين شرق آسيا والشرق الأوسط وأوروبا؛ ما جذب أطماع الصين التي أعدت على هذه الدولة الصغيرة حوالي ثمانية مليارات دولار بفائدة قدرها 6.3%، وهي نسبة مرتفعة مقارنة بالبنك الدولي الذي تتراوح فوائده بين 0.25% و3%. ومقابل ذلك حصلت الصين على مرفأ "هامباتونتا" الاستراتيجي بعقد مدته 99 سنة.⁽²⁾

كينيا هي الأخرى اضطرت لرهن أكبر وأهم مرفأ لها هو "ميناء مومباسا" للحكومة الصينية، وذلك بسبب قروضها المتراكمة، حيث بلغ حجم الديون أكثر من 5.5 مليارات دولار، مما يضع كينيا ضمن الدول الأكثر عرضة لفقدان الأصول الاستراتيجية لصالح بكين.

(1) خريطة توازن النظام الدولي وكيفية فهم الصراعات - الجزء الأول - تبيان.

(2) "فخ الديون".. كيف تستخدم الصين المال لـ"استعمار" العالم الثالث؟

وبنفس الطريقة، استحوذت الصين على ميناء غوادر الباكستاني الاستراتيجي لمدة أربعين عاماً، وستمتلك 85% من إجمالي إيراداته.⁽¹⁾

وتغرق المالديف في الديون الصينية، حيث عليها أكثر من ربع إجمالي الناتج المحلي السنوي، أي 1.3 مليار دولار حجم دينها للصين. واستأجرت بكين إحدى جزرها لمدة خمسين عاماً، ويكفي تعليق الرئيس إبراهيم صلح بعد مراجعة الاتفاقيات مع الجانب الصيني، حيث وصفها بأنها مشروع لـ"الاستيلاء على أراضي الدولة".

وفي بنغلاديش أيضاً، ومع تراكم الديون على الحكومة لتصل لعشرات المليارات من الدولارات، وضعت الصين يدها على أكبر وأهم ميناء بحري فيها، وهو مرفأ شيتاغونغ.⁽²⁾

وتغزو الاستثمارات الصينية والديون عدة دول منها الجزائر ومصر وإثيوبيا وأوغندا ودول أخرى بسياسة فخ الديون تدريجياً.

وفي جيبوتي من المتوقع أن تبلغ الديون 88% من جملة ناتجها المحلي البالغ 1.72 مليار دولار، وأغلبها ديون للصين التي أصبح لديها موطئ قدم ثقيل في الاقتصاد الجيبوتي، ما قد ينتهي بتسليم البلاد أصولها لتسديد دينها. وبفضل فخ الديون هذا تسيطر بكين على قرارات البلاد المطلقة على باب المنذب؛ ما دفع ببعض المحللين الغربيين للمطالبة بسحب القاعدة الأمريكية من جيبوتي، كون الهيمنة الصينية على البلاد تهدد الوجود الأمريكي فيها.⁽³⁾

ويرى المراقبون أن سياسة الصين تخولها الاستيلاء على الموانئ والأراضي كشكل من أشكال سداد الديون المتعثرة من قبل الدول، وعلى المدى البعيد، ستتمكن الصين من التأثير على القرارات الاقتصادية والسياسية لدول إفريقية محددة.⁽⁴⁾

ويوازي هذا النفوذ المتنامي في المجال الاقتصادي، تنام للقدرات العسكرية، حيث تجلّى ذلك بوضوح من خلال العرض العسكري الأخير بمناسبة إنشاء الدولة الصينية، الذي عرضت خلاله بكين قدرات

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) It's Time the Pentagon Finds an Alternative to Djibouti The National Interest

(4) "فخ الديون... كيف تستخدم الصين المال لـ"استعمار" العالم الثالث؟ الجزيرة.

بلادها الفائقة في تصنيع الأسلحة وامتلاكها، والتكنولوجيا المتطورة التي وصلت إليها، فيما اعتبر رسالة مباشرة للأمريكيين، وأن للصين قوة مدخرة لم تُستنزف في حروب كالتى استنزفت الولايات المتحدة.

وتعكس أهمية هذا العرض تصريحات السفير الأمريكي السابق في إثيوبيا وبوركينا فاسو “دافيد شين” في مقابلة له مع صحيفة “لوموند” الفرنسية، قال فيها عن التوسع العسكري الصيني في إفريقيا إن 25% من الأسلحة التقليدية الموجودة في القارة السمراء صينية الصنع، مقابل 3 إلى 5% خلال ستينيات القرن الماضي.

وتشارك الصين بأكثر من 4 آلاف جندي في قوات المهمات القتالية التابعة للأمم المتحدة كأحد أكثر الدول المشاركة من حيث عدد القوات.

كذلك على المستوى السياسي والثقافي، حيث انتشرت مكاتب التعليم ومراكز الثقافة الصينية بشكل لافت، واشتهر معهد “كونفوشيوس” خلال السنوات الأربع الأخيرة، وهو المعهد الذي يمنح الأجانب إمكانية تعلم اللغة الصينية، ويسعى لنشر ثقافة بلاده في الخارج، وبدت جهوده قوة ناعمة تستعين بها الصين للانسياب داخل نسيج عشرات الدول. ومن آثار ذلك، أصبح تدريس اللغة الصينية أولوية عند بعض الحكومات - كأوغندا مثلاً- التي أدرجتها لغة رسمية في مدارسها التعليمية، وهذا دون الحديث عن المنح الدراسية للطلبة ودور النشر الصينية ومحاولات نشر الأدب الصيني وترجمته في دول العالم.

بل تُصنّف الصين بأنها ثاني دولة تمتلك أكبر عدد للمراكز الثقافية في العالم بعد فرنسا.⁽¹⁾

وكان للإعلام الصيني أيضاً نصيب من الانتشار الواسع في العالم. مثال على ذلك، أطلقت بكين راديو الصين الدولي، أول محطة إذاعية خارجية لها في كينيا في عام 2006، لتقديم 19 ساعة من البرامج اليومية الموجهة لتغطية أخبار الصين والعالم بما فيه الدول الإفريقية. فضلاً عن منصات إخبارية باللغة العربية واسعة الانتشار؛ لتصل الرسالة الصينية للجماهير، العربي وكذلك مع باقي اللغات.

كذلك تشهد التكنولوجيا الصينية انتشاراً كبيراً في الدول التي تسيطر عليها بكين من خلال الاستثمارات الكبرى، وخاصة في مجال الاتصالات. كما تطمح لتوفير خدمة إنترنت صينية تحاكي خدمة الإنترنت المتداولة في العالم، ولا شك أن تحقيق ذلك يعني الكثير بالنسبة للأمريكيين.

(1) China campaign to promote its literature launched in Kenya — Quartz Africa

ونلاحظ أن أمارات الصعود الصيني تظهر بوضوح في القارة الإفريقية، كون التنافس في بيئة الإفريقيين يوفر فرصاً أكبر لسحب البساط بأسهل ما يكون من تحت أقدام الأمريكيين والأوروبيين، المستعمرين الأوائل.

ولكن رغم هذا التطور في سياسات الصين التوسعية، ورغم ما أبدته من أطماع أو إنجازات، يرى المراقبون أنها لن تصل لمرحلة البديل المباشر للولايات المتحدة أو حتى المنافس بشدة، إلا في حال تحالفت مع روسيا وغيرها من القوى بهدف تحقيق توازن مع أمريكا في النظام العالمي الذي يتحول تدريجياً لمتعدد الأقطاب بدل القطب الواحد.

ومن الواضح بحسب المراقبين أن آخر ما يرغب به الطرفان هو الصراع، وبالتالي سوف تستمر الصين والولايات المتحدة على الأرجح في احتواء المنافسة.

يجدر الذكر أن كل وثائق الأمن القومي الأمريكي الصادرة منذ عام 2001م تكرر جميعاً بشكل مستمر أن الصين لن تكون "الحليف الاستراتيجي" للولايات المتحدة، بل خصمها ومنافسها الأول في القرن الحادي والعشرين، وبني البتاجون كل خطته العسكرية على هذا الأساس.⁽¹⁾

سيناريوهات محتملة

تبقى هناك عوامل مؤثرة قد تغير من سيناريو الحرب الصينية الأمريكية، ويتحول من حرب اقتصادية بحجة إلى حروب الإنترنت الإلكترونية من خلال الحرب الجاسوسية وسرقة الملكية الفكرية، بما فيها الأسرار التجارية باهظة التكاليف، وقد تتطور إلى حرب باردة طويلة المدى ومعقدة.⁽²⁾

وقد عرفت الصين بسرقة الأسماء التجارية الشهيرة ونشر منتجات تحاكيها بأسعار رخيصة، كذلك اشتهرت بسرقة الأسرار التجارية الأمريكية القيمة التي يتم الحصول عليها في كثير من الأحيان من خلال هجمات إلكترونية متطورة، وهو ما يشكل خطراً كبيراً على الولايات المتحدة إن استمرت الصين في هذه الطريق وطورت أساليبها في ذلك.

(1) التنافس الأمريكي - الصيني من أجل الزعامة والريادة الإقليمية والعالمية.

(2) المصدر السابق.

ومما يصب في نفس هذا الاتجاه خلاصة التقرير الذي أعدته مجموعة “نورثروب جرومان” الأمريكية للدفاع لحساب لجنة مراجعة العلاقات الاقتصادية والأمنية بين الصين والولايات المتحدة، الذي أوضح أن الجيش الصيني يولي أهمية كبيرة “لحرب المعلومات”، وأن “خبراء الجيش الصيني يحددون بطريقة منهجية البنى التحتية اللوجستية وأنظمة القيادة والمراقبة ومراكز الثقل الاستراتيجية للولايات المتحدة التي سيهاجمونها بطريقة شبه أكيدة في الدرجة الأولى في حال نشوب نزاع”⁽¹⁾

ويحذر التقرير من أن الكفاءات الصينية في هذا المجال “متقدمة جداً إلى حد أنها تطرح خطراً حقيقياً على العمليات العسكرية الأمريكية في حال نشوب نزاع” مع بكين، وعلى سبيل المثال ” لحماية تايوان.”

وقد تواجه الصين الولايات المتحدة في بحر الصين الجنوبي، الذي يُتمثل أن يكون أخطر نقطة استراتيجية في شرق آسيا. وهو عامل قد تتجه فيه بكين إلى المطالبة بالمزيد من الجزر والممرات البحرية إلى جنوب ساحلها، وسيدفعها الضغط من قبل الولايات المتحدة⁽²⁾ للتحويل إلى وسائل أكثر عدائية منها الاستيلاء على تايوان بالقوة، وهو ما بات مرجحاً بعد نجاح بكين في استقطاب حلفاء تايوان الأكثر قرباً.

ويمكن للصين بحسب رؤيتها لعام 2025م توظيف مجموعة من السياسات الصناعية تهدف إلى تقريب الدولة من الحدود التكنولوجية للتخفيف من حدة المواجهة، أو توسيع “مبادرة الحزام والطريق”، أو توسيع نفوذها في إفريقيا بشكل أكبر. كما تستطيع الصين أيضاً ضخ المزيد من النقد في احتياطها للبنك الدولي والبنك الآسيوي لتطوير البنية التحتية.⁽³⁾ وفي الواقع، قد استعملت الصين كل هذه الآليات، إلا أنها لم تستعملها بالقوة والوتيرة المطلوبة. ولكن استمرار ضغط الحرب قد يدفعها لتكثيف هذه الوسائل والآليات.

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) وهم الحرب الباردة بين أمريكا والصين.

من جانبها، عمدت واشنطن لعدة تحركات بهدف قطع الطريق أمام الصعود الصيني كان منها التحالف مع الهند بهدف جعل الأخيرة قوة كبرى قادرة على موازنة الصين في شرق آسيا، ويسهل ذلك تنافسهما على أسواق واحدة، ومجال حيوي استراتيجي واحد.

كما ظهرت بوضوح الجهود الأمريكية المكثفة لتطوير الصين بقواعد عسكرية في كل مكان: من بحر الصين وتايوان واليابان، إلى بحر قزوين وجمهورية آسيا الوسطى⁽¹⁾، ويكفي النظر في تصريحات السياسة الأمريكية التي تؤكد أن بحر الصين أولوية لديهم.

وتشمل الوسائل الأمريكية إجهاد كل مساعي الصين لتأمين خطوط إمدادات طاقة آمنة لاقتصادها المتوسع، وفي الحصون التي تقيمها واشنطن الآن على عجل في آسيا الوسطى بالقرب من الصين، بل يرى بعض المحللين في سيطرة الأمريكيين على نفط العراق أهدافاً تتعلق بقطع الطريق أمام الصين.

كما يُتوقع من واشنطن تفجير العديد من الأزمات الإقليمية في تايوان وشبه جزيرة كوريا وكشمير وجزر جنوب بحر الصين، إضافة إلى تأجيج الخلافات الداخلية داخل الزعامة الصينية بهدف إرهاب بكين واستنزافها.

ويأتي هذا التأهب الأمريكي لمواجهة الصين باعتبارها قوة صاعدة، تماماً كما كانت ألمانيا في النصف الأول من القرن الماضي، ولكن التأهب تسبب بحربين عالميتين، وكذلك كانت حال روسيا في النصف الثاني من القرن نفسه؛ ما تسبب بحرب عالمية ثالثة باردة.⁽²⁾

وقد تتمكن الولايات المتحدة من تقييد نفوذ الصين على التجارة، إلا أن هذا لا يعني الانتصار النهائي على الصين، فالأخيرة لا زال لديها العديد من الطرق الأخرى للانتقام، منها تصعيد المواجهة باستخدام نفوذها الاقتصادي الكبير بعيداً عن التجارة. وذلك بخفض مشترياتها من سندات الخزنة الأمريكية أو بيع البعض من الـ1.18 تريليون دولار التي في حوزتها، أو إغراق حصصها الكبيرة من الديون الأمريكية؛ إذ تمتلك الصين حوالي ثُمس الديون القومية الأمريكية التي تحتفظ بها الدول الأجنبية. ولا شك أن السياسة الصينية الخاصة بخفض ممتلكاتها ستؤدي فعلياً إلى ارتفاع كبير في تكلفة

(1) التنافس الأمريكي - الصيني من أجل الزعامة والريادة الإقليمية والعالمية.

(2) المصدر السابق.

العديد من السلع التي يشتريها الأمريكيون يومياً. وهذا سيكلف الصين أيضاً زيادة تكلفة السلع الصينية للأجانب لأن قيمة اليوان ستتعرض، ولكنه خيار يبقى في اليد للضرورة.

كذلك في يد الصين خيار إجهاض فرص ترامب في تحقيق صفقة نووية مع كوريا الشمالية، وهذا يعني تحول الحرب الاقتصادية إلى "حرب باردة جديدة"، وكله مرتبط بالطريقة التي تتجاوب فيها الصين مع الأزمات الجيوسياسية والتصعيد الأمريكي.

ومن الوسائل الفعالة التي يمكن أن تعتمد بها بكين، استهداف الشركات الأمريكية العاملة في الصين بمزيد من اللوائح والتدخلات. وهو ما يعتقد أنها استخدمته مع كوريا الجنوبية سابقاً، وتوجد مؤشرات بأنها بدأت بالفعل في تأخير طلبات الترخيص من الشركات الأمريكية في الأيام الجارية.

هل الصين خطر حقيقي في أعين الأمريكيين

وفي الوقت الذي يعتبر ساسة البيت الأبيض الصين العدو الخطير الصاعد، ويتم تغيير الاستراتيجيات لاحتواء خطره، يبقى جزء من الأمريكيين يرفض هذا التصنيف ويعتقد بدلاً من ذلك أن الصين مجرد دولة تم التهويل من شأنها.

ومن بين الرافضين لهذا التصنيف، جون إيكينيري، البروفسور في جامعة جورج تاون، الذي أعد دراسة لـ "مجلس الاستخبارات القومي" الأمريكي تحت عنوان "ردود الفعل الاستراتيجية على التفوق الأمريكي" (1)، وهو يرى أن أمام الدول الكبرى الأخرى في تحدي القوة الأمريكية استراتيجية من عنصرين: الأول، الاعتراض على بعض السياسات الأمريكية بهدف الحصول على مكاسب أكبر أو المشاركة الجزئية في القرار الأمريكي (كما تفعل الآن روسيا والصين وفرنسا). والثاني، الرضوخ والاسترضاء، أي الانضمام إلى الفريق الرابع، (كما تفعل بريطانيا ومعظم دول العالم). وفي كلا هاتين الحالتين، لن يكون ثمة مجال في الأمد المنظور لبروز قوة كبرى أو تحالف دولي لتحدي زعامة الأحادية القطبية الأمريكية.

من جانبه، ذهب مستشار الأمن القومي الأمريكي ووزير الخارجية الأشهر في مرحلة الحرب الباردة، هنري كيسنجر، إلى خلاصة غير بعيدة عن خلاصة إيكينيري إلا أنها مكلفة، حيث يرى كيسنجر أن

(1) المصدر السابق.

تحول موازين القوة في القرن الحادي والعشرين، في المجال الاقتصادي، وربما السياسي العسكري، من الغرب للشرق، يمهّد الطريق للحرب العالمية الثالثة، التي سيكون طرفاها روسيا والصين من جهة، والولايات المتحدة من جهة أخرى.

ولكن كيسنجر يجزم بأن هذه الحرب لن يخرج منها منتصراً إلا الولايات المتحدة.⁽¹⁾

وهو نفسه كيسنجر الذي أكد على أن أصحاب القرار في الولايات المتحدة أصدروا تعليمات للقوات المسلحة الأمريكية باحتلال سبع دول شرق أوسطية بطرق غير مباشرة، من أجل استغلال مواردها الطبيعية، خصوصاً النفط والغاز، مشيراً إلى أن السيطرة على البترول هي الطريق للتحكم في دول المنطقة، والسيطرة على الغذاء هي السبيل للسيطرة على شعوبها.

مستقبل الصراع

من المؤكد أن صراعاً متزايداً بين أكبر قوتين في العالم يمكن أن يشجع مرة أخرى على تشكيل مناطق نفوذ متعارضة، وهو ما تحدده تطورات الساحة العالمية في وقت لا تحفى فيه طموحات الروس ولا الاضطراب في داخل الكيان الأمريكي، مع الانقسام الواضحة ملامحه في القيادة الأمريكية بين الجمهوريين والديمقراطيين الذي يمكن أن يكون له تداعيات خطيرة إن لم يتم ضبطه.

وفي الواقع، من المبكر التكهن بمصير كلا البلدين بما يحتويه العالم من تدافع وتغييرات سريعة على محور الأحداث قد تؤثر فعلياً في قوة أحدهما أمام الآخر.

ولكن من الجدير بالذكر في هذا المقام أن أمريكا وروسيا وقعتا معاً معاهدة الحد من الصواريخ المتوسطة والقصيرة المدى المعروفة باسم "معاهدة القوى النووية المتوسطة" (أي إن إف) عام 1987م، ثم استقر الأمر إلى عدم نشر واشنطن صواريخها في أوروبا مقابل خفض موسكو لعدد الصواريخ، ودخلت الاتفاقية حيز التنفيذ رسمياً عام 1988م.

ولكن الصين لم توقع على المعاهدة، ولهذا وجدت سعة في تطوير قدراتها الصاروخية التي قد تسبب تهديداً مباشراً للقوات الأمريكية في المحيط الهادئ، جنوب شرق آسيا.

(1) المصدر السابق.

وتحدث عدة تقارير عن تمكن الصين وروسيا من تطوير تكنولوجيا صواريخ هي الأسرع على الإطلاق في مجال صناعة الصواريخ، إذ تصل سرعتها لأكثر من سرعة الصوت بمرات (1)، ولم تصل الولايات المتحدة بعد لهذه التكنولوجيا، وإن كانت تتهم موسكو بسرقة أصل التكنولوجيا لهذه الصناعة منها. (2)

وتظهر أهمية هذه المعلومة في تصريح لعميل وكالة الاستخبارات الأمريكية "سي أي إيه" السابق، "كريستوفر جونسون"، الذي قال في لقاء نشر له في مجلة "ذي إيكونوميست": "يمكن للأيام الأولى أن تحدد مصير أي حرب مستقبلية، وامتلاك قدرات عسكرية تمكن أمريكا من الوصول إلى قلب الأراضي الصينية يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للجيش الأمريكي في أي مواجهة مع الجيش الصيني". وأضاف: "إذا لم تملك أمريكا القدرة على ضرب قواعد الصواريخ المضادة للسفن، الموجودة داخل الأراضي الصينية، ستقتصر قدراتها العسكرية في المنطقة على قواعدهما الموجودة في اليابان، وسيكون إرسال سفنها الحربية إلى المياه القريبة من سواحل الصين مخاطرة غير مقبولة".

وإن كانت هذه التصريحات تسمح باستقراء مستقبل منذرٍ باندلاع حرب عالمية جديدة سر النجاح فيها هو امتلاك أقوى تكنولوجيا الصواريخ، والتي ستؤدي إلى تغيير هيكل النظام الدولي الحالي، إن قابلت حكومة بيكين العناد الأمريكي بعناد صيني يدعمه الحقد الروسي ودسائس حلفائهما.

إلا أن التحدي الأكثر جدية الآن كما يرى المراقبون هو ترتيب أمور الاقتصاد الأمريكي وكيفية إدارة ذلك الاقتصاد، وبدون تمكن أمريكا من تحقيق ذلك فإن احتمالية وقوع متاعب بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين سوف تستمر في الزيادة (3).

(1) الأسلحة الأسرع من الصوت.. هكذا تخلفت أمريكا بشكل مخيف عن روسيا.

(2) تكنولوجيا «الهايبر سونيك».. هل سرقت روسيا صواريخها الأسرع من الصوت من أمريكا؟

(3) هذه المقالة كتبت في عام 2019م.

تطبيع عُمان يُخفي حقائق صادمة

عوّدتنا على الصمت والحياد السلبيّ و”مسألة” جميع الخصوم، تلك هي سلطنة عُمان، التي لا تظهر في شريط الأخبار اليومي إلا ما ندر، ومع ذلك كان الحدث العظيم والمصائب الجلل، مع زيارة رئيس الوزراء الصهيوني “بنيامين نتنياهو” وزوجته وفريقٍ من إدارته للعاصمة العُمانية “مسقط” يدفع لكشف المزيد وتلبية الفضول حول ما تخفيه عُمان خلف هذه الزيارة وهو ما لخصه الشيخ سفر الحوالي في كتابه “المسلمون والثقافة الغربية” بذاكرة مثقلة بالمعرفة والتأمل والمتابعة كشفت عن حقائق ستكون صادمة للكثيرين ممن يجهلون واقع السلطنة.

ولا شك أن هذه الزيارة من شخصيةٍ عنيفةٍ صهيونيةٍ كشخصية نتياهو ترافقه شخصياتٌ صهيونيةٌ أخرى لا تقلّ ثنائةً، كرئيس الموساد “يوسي كوهين”، ومستشار رئيس الوزراء لشؤون الأمن القومي، ورئيس هيئة الأمن القومي “مائير بن شبات” ستثير غضب الجماهير المسلمة بل وتدفع بجملة من الأسئلة حول موقع عُمان من الإعراب في مشهد الصراع وقضية فلسطين، وتطالب بتفسيراتٍ حاسمةٍ لسياساتها المريبة تحت ستار الصمت ثم فعلها الشنيع باتجاه التطبيع العُلني الذي عكسته لقطات الترحيب الفاخر من “قابوس بن سعيد” بعصابة الصهاينة، وحرصه على حسن ضيافتهم وإقامتهم، ثم خروجهم مسرورين تظهر في أعينهم المكيدة والمكر الذي يحملهم عرقهم المغضوب عليه منذ الأزل. في وقت كانت تُقصف فيه غزة ويُسفك الدم الفلسطيني المسلم بصواريخ أمريكية وطعنات التطبيع العربية في أماكن أخرى.

ويجدر الذكر أن زيارة نتياهو تُعدّ الثالثة من مسؤولٍ صهيونيٍّ يزور عُمان، حيث سبقه في زيارتها رئيس وزراء الكيان الصهيوني الهالك “شمعون بيريس” عام 1996م وسلفه الهالك “إسحق رابين” عام 1994م.

تكبير العدسة على مشهد زيارة الصهاينة

بحسب صحيفة “نيويورك تايمز” الأمريكية فإن زيارة نتياهو وفريقه الصهيوني لسلطنة عُمان جاءت ثمرة مفاوضات استمرت أربعة أشهر، على أمل أن تؤدي هذه الزيارة إلى عودة نوع من التمثيل

الدبلوماسي بين البلدين⁽¹⁾. وقد وصف أحد المسؤولين الصهاينة عُمان بأنها "دولة تظهر للغرب وجهها ليبراليا وحديثا نسبيا في الخليج، ومتوافقا مع سياسات إدارة الولايات المتحدة"⁽²⁾.

ولعل هذا الوصف يُفسر تعليق وزير الخارجية العُماني يوسف بن علوي بن عبد الله، عقب زيارة نتياهو حين قال:

"نحن لسنا حقيقةً وسطاء إطلاقاً، سيبقى في رأينا الدور الأمريكي هو الدور الرئيسي في مساعدة الطرفين ومساعدة دول المنطقة المحاذية لها في التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين والجميع، ويعطي المنطقة فرصة من الراحة بدل الخلافات والصراعات الموجودة، إنما نحن نقدم ما نسميه التيسير"⁽³⁾.

وإن كان هذا التعليق يكشف عن درجة الثقة التي توليها سلطنة عُمان بإدارة ترامب التي ما فتئت تُضيق الخناق على القضية الفلسطينية وتسعى لتصفيتها بكل صفاقة ممكنة، فإن التعليق الذي كشفت عنه وثائق ويكيليكس المنشورة عام 2011، الذي تضمن تصريح قابوس بنفسه، الذي يعرب فيه عن ثقته في التواجد الأمريكي في بلاده قائلاً:

"لا بد لي من القول بأنه طالما أن الولايات المتحدة في الأفق، ليس لدينا ما نخشاه"⁽⁴⁾.

فإن هذا التصريح يعتبر اعترافاً صريحاً بثقة عُمان بالأمريكيين وبالتالي اتفاقها والسياسات الأمريكية المنحازة للكيان الصهيوني في المنطقة.

ثم بعد مثل هذه التصريحات نستطيع أن نفهم السرّ خلف تعليقات صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية التي تؤكد بأن الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" بدأ ينظر لعُمان على أنها الشريك الفريد الذي يُمكنه من إعادة ترتيب سياسات الشرق الأوسط على خلاف الرياض، كما سبق لمسقط أن توسطت لدى إيران من أجل إطلاق سراح ثلاثة رحالة أمريكيين اتهمتهم إيران بالتجسس⁽⁵⁾.

(1) Israeli Prime Minister Visits Oman, Offering a Possible Back Channel to Iran.

(2) نيويورك تايمز: هذا ما تأمله إسرائيل من سلطنة عمان.. 4 أشهر أثمرت عن هذه الزيارة.

(3) مسقط حول زيارة نتياهو: لا وساطة بل تيسير.

(4) كيف يسير السلطان قابوس على الحبال دون أن يسقط؟ ليس محاييداً كما يبدو!

(5) Oman is a mediator in Yemen. Can it play the same role in Qatar?

الباب الخلفي

وفي الواقع فقد أتقن قابوس فنّ الانحياز للجميع لا المحايدة. برغم تضاد الأطراف التي ينحاز إليها. وهذا ما يفسر حفاظ مسقط لعلاقات مع إيران وحزب الله ونظام بشار والحوثي وقطر في نفس الوقت حفاظها على علاقات مع الرياض وأبوظبي وواشنطن والكيان الصهيوني. وهو ما يكسب السلطنة وظيفة "الباب الخلفي" الذي تمرر من خلاله الصفقات والاتفاقيات بعيدا عن أنظار الجماهير.

ملامح الاتفاق على صفقة القرن

لا يختلف المتابعون لتطورات المنطقة في أن تحركات الكيان الصهيوني الأخيرة تأتي جميعاً لتمهيد الطريق أمام ما يسمى "صفقة القرن" لتصفية وليس لتسوية القضية الفلسطينية، وتبدو هذه الزيارة لمسقط أحد المراحل الساعية لهذا المشروع القدير- الذي سيبع أرض الإسرائء والمعرّج بثمن بخس، وبسياسة التهيب والترغيب مع دول الجوار والخليج العربي.

فما لبث أن خرج ننتياهو من مسقط حتى رجع إليها وزير المواصلات والاستخبارات الصهيوني "يسرائيل كاتس" للمشاركة في مؤتمر دولي للمواصلات، وذلك لعرض خطته التي تحمل اسم ما يُسمى "سكك حديدية للسلام" التي من المقرر أن تربط دول الخليج بالبحر الأبيض المتوسط من خلال الكيان الصهيوني، ويكون الأردن محورها. وهي تماما أحد بنود "صفقة القرن" البائسة.

وهذا ما أكدّه تصريح لـ "جايسون غرينبلات" مبعوث ترامب للشرق الأوسط، حيث قال أن:

"وزير الاستخبارات والمواصلات الإسرائيلي، يسرائيل كاتس، في زيارة إلى سلطنة عُمان لحضور لقاء دولي. وسوف يقدم خطة لبناء خط سكة حديد بين إسرائيل والأردن والسعودية والخليج. دعونا نواصل الحوار. هذه الجهود تدعم جهودنا".⁽¹⁾

وحتى ندرك درجة الرضا التي وصل إليها ننتياهو بعد زيارته لمسقط، لتأمل تغريدة له على صفحته بموقع التواصل الاجتماعي، تويتر، مباشرة بعد عودته من ضيافة قابوس، حيث قال: "في لقائي المطول

(1) غرينبلات: خطة إسرائيلية لسكة حديد تصل الأردن والسعودية والخليج.

مع السلطان قابوس بحثنا بشكل موسع التحديات التي يواجهها الشرق الأوسط. كانت هذه محادثات هامة لدولة إسرائيل ولأمنها. ستكون هناك المزيد من هذه المحادثات".

"عدت يوم الجمعة من زيارة دبلوماسية تاريخية إلى سلطنة عمان حيث التقيت الزعيم العماني السلطان قابوس بن سعيد. إنه زعيم صاحب خبرة طويلة ومبهر جدا. هذه هي الزيارة الأولى لإسرائيل في عُمان منذ 22 عاما وهي تأتي على خلفية جهود دبلوماسية بذلتها خلال السنوات الأخيرة لإزاء الدول العربية".

وكذلك تغريداته الأخرى بشأن هذه الزيارة.

تصريحات جريئة وتطبيع

أما من جانب عُمان فقد وُقِّرت علينا تصريحات وزير خارجيتها الوقت والمسافة لتبيان نوايا القوم، حيث قال بن علوي وبكل صراحة وتطبيع:

"إسرائيل دولة موجودة بالمنطقة ونحن جميعاً ندرك هذا .. والعالم أيضا يدرك هذه الحقيقة وربما حان الوقت لمعاملة إسرائيل بالمثل وتحملها نفس الالتزامات".⁽¹⁾

وأضاف بكل وقاحة في إطار التصريح بموافقة مسقط على "صفقة القرن" البائسة:

"نشعر بتفاؤل شديد حيال هذا الاقتراح لحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. سيكون الحل مفيداً للإسرائيليين والفلسطينيين على حدٍ سواء".

ولينهي التصريحات الخائنة بقوله: "التاريخ يقول إن التوراة رأّت النور في الشرق الأوسط واليهود كانوا يعيشون في هذه المنطقة من العالم".⁽²⁾

وبهذا لم يعد هناك من شك في أن مسقط قد مضت في طريق التطبيع لصالح الكيان الصهيوني بشكل علني صفيق، خاصة بعد تصريحات بن علوي الذي قال:

⁽¹⁾ سلطنة عمان تقول حان الوقت للتسليم بوجود إسرائيل في المنطقة.

⁽²⁾ بن علوي: اليهود كانوا يعيشون في هذه المنطقة من العالم.

"لا نقول إن الطريق سهل الآن ومفروش بالورود، لكن أولويتنا وضع نهاية للصراع والمضي نحو عالم جديد"، وإنّ مسقط تعتمد على الولايات المتحدة ومساعي رئيسها دونالد ترامب في العمل في اتجاه (صفحة القرن)".

ولابد أن يكون أول مرحّب بهذا التطبيع وهذه الخيانة هو المارد الأمريكي، ولذلك احتفت تصريحات جيسون جرينبلات، مبعوث ترامب إلى الشرق الأوسط، في تغريدات على "تويتر" بهذا التطبيع العلني، قال فيها أنه يرحب بـ"العلاقات المتقاربة والتعاون المتنامي بين أصدقائنا الإقليميين"، وموضّحاً بأن: "هذه خطوة مفيدة لجهودنا نحو السلام، وضرورية لتوفير مناخ من الاستقرار والأمن والازدهار بين الإسرائيليين والفلسطينيين وجيرانهم. أتطلع إلى اجتماعات أخرى مثل هذا"⁽¹⁾.

وبعد الزيارة الفاضحة، بدأت صحف الكيان الصهيوني تُسلط الضوء على عُمان وتثمن تاريخ العلاقات بين السلطنة والكيان الصهيوني. حيث قال "عاموس هارثيل" المحلل العسكري الإسرائيلي في صحيفة "هآرتس" الصهيونية: "العُمانيون يقيمون منذ عشرات السنين علاقات أمنية واقتصادية مع إسرائيل"، وأن "سلطنة عُمان كانت وافقت على علاقات علنية في الفترة التي تبعت توقيع اتفاقيات أوسلو التي كان ينظر إليها حينها كفرصة للتوصل إلى سلام"⁽²⁾.

ماذا خلف هذا التطبيع؟

وبعد هذا السرد الوافي لتفاصيل الخيانة والتطبيع من قبل سلطنة قابوس مع الصهاينة، دعونا نقف مع فقرات بعينها استوقفتني في كتاب "المسلمون والحضارة الغربية" الذي كتبه الشيخ سفر الحوالي حين تناول الحديث عن عُمان بشكل خاص، تخفف من وطأة الصدمة وتبدد ضبابية الفهم والاستيعاب لموقف دولة محسوبة على العالم الإسلامي.

يقول الشيخ في وصف عُمان: "هي دولة يغلب عليها الفقر وفيها مناخ متنوع وأهلها شبيهون بأهل اليمن وفيها شيوعيون وملاحدة، وهي تساعد الحوثيين وهي عضو في مجلس التعاون الخليجي، وكانت تحكم أجزاء من شرق إفريقيا، وسلطنة عُمان تاريخياً لا تؤمن بما يسمى القومية العربية، ولها تاريخ

(1) سلطنة عُمان تسلّم بوجود إسرائيل.

(2) هآرتس: تعاون أمني إسرائيلي عماني منذ عشرات السنين.

حافل بالولاء لفرنسا، وقد أذنت للفرنسيين قديماً بإنشاء مخازن للفحم فيها، وهم اليوم مع إيران والحوثيين وبشار".⁽¹⁾

بكل هذه التناقضات وصف الشيخ سفر عُمان، ليعطينا فكرة مثيرة للاهتمام حول تركيبة هذه البلاد المحسوبة على أهل السنة في العالم.

شدوذ عقائدي

مع أن الشيخ سفر الحوالي أشار إلى أن في عُمان نسبة كبيرة من أهل السنة، تتوزع بين عدة قبائل منهم بنو تميم وبنو كعب وهم ليسوا قلة. وأن التاريخ الإنجليزي يحتفظ بهزيمة منكرة للجيش الإنجليزي على يد قبيلة بني بو علي العُمانية. إلا أنه أكد بشدة على الشدوذ العقائدي والسياسي الذي تعاني السلطنة منهما:

فأما شدوذها العقائدي فهي الدولة الخارجية الوحيدة، وهي أيضاً الدولة الوحيدة التي تنشر المذهب الأباضي الخارجي بين المسلمين، وهي ليست على مذهب الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدات ولكن عبد الله بن أباض التميمي مؤسس الأباضية، يؤيد الخوارج الغلاة.

وأضاف الشيخ:

"كما أن الإباضية يسمون أنفسهم (جماعة المسلمين) أما دعوة الشيخ مُجدد بن عبد الوهاب رحمه الله فيسمونها "الفتنة الوهابية"، وقد عادوا من اتبع الدعوة كالشيخ صقر القاسمي ولا يزالون حتى اليوم يعادون المدرسين السعوديين الذين يذهبون إلى عُمان وينبزوهم بالوهابية".

شدوذ سياسي

أما عن الشدوذات السياسية القديمة والحديثة بحسب تعبير الشيخ سفر، فعُمان هي الدولة العربية الوحيدة التي لم توقع على ميثاق جامعة الدول العربية، ولم تدخل عضواً فيها إلا بعد سنين من تأسيسها، كما أنها الدولة العربية الوحيدة التي أيدت العدوان الثلاثي على مصر، وهي الدولة العربية الوحيدة أيضاً التي اعترفت بزيارة السادات للقدس وتوقيع معاهدة "كامب ديفيد" ذلك الحين، وهي

(1) كتاب المسلمون والحضارة الغربية ص 1232-1241.

الدولة الخليجية الوحيدة التي لم تدخل في التحالف العربي لحرب الحوثيين بل لها علاقات تاريخية وطيدة بإيران (يقصد في بداية إعلانه وانطلاقته)، ولا تزال الشاحنات العمانية تنقل السلاح براً إلى الحوثيين، ومن العجب أن يجتمع من يكفر علماً مع من يعبد في موقف سياسي واحد! ويتفقان في حرب ما يسميانه "الوهايبة".

وقد أراد لها الاستعمار أن تكون مخلب قط له في المنطقة، ولا تزال تقوم له بالوساطة بين إيران وأمريكا.

ومن شذوذها أيضاً أن وزير خارجيتها بن علوي زار بشار علانية وأيد ما سماه الديمقراطية السورية، وبذلك وقف ضد السعودية. ومع حجم المواقف المعادية للسعودية والإمارات ودول الخليج وأنحيازها للمحور الإيراني الرفض النصيري الحوثي ضد أهل السنة، إلا أن عُمان عضو في مجلس التعاون الخليجي.

وقفه تستحق النظر

ولعل من أكثر تعليقات الشيخ سفر لفتاً للانتباه، مقارنته بين تنظيم "الدولة الإسلامية" وسلطنة عُمان، حيث قال:

"وعلى كل حال فإن اعتبار تنظيم الدولة خارجياً واعتبار سلطنة عُمان دولة صديقة تناقض واضح، إذ هما يشتركان في العقيدة المتهمة بهما، بل إن سلطنة عُمان أخطر من جهة أن لها وزارة خاصة تنشر الفكر الخارجي في كل دولة تشاء، والواجب هو ترتيب العداوة الترتيب الشرعي بحسب العقيدة".

وأضاف: "وإذا كانت عداوة داعش مشروعة، فعداوة سلطنة عُمان كذلك، إذ كلاهما على مذهب واحد، فكيف يصح محاربة أحدهما دون الآخر وكيف نحارب من ينفي أنه خارجي ونوالي من يقول بلسانه إنه إباضي؟!".

لم يتوقف الشيخ عند هذا القياس بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقال:

"والخوارج أولى من الحوثيين بالعداوة وفقاً للمعايير الشرعية، فالخوارج أشد غلواً من الزيدية، نعم ليست عُمان مثل الأزارقة أو النجدات، لكنها أباضية تعتقد أن من لم يكن أباضياً فهو كافر كفر نعمه،

وليس كفر النعمة بالأمر الهين بل هو كبيرة صاحبها متوعد بالنار، قال تعالى: (ألم ترى إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفوّاً وأحلّوا قومهم دار البوار) [إبراهيم: 28].

وخلص الشيخ إلى القول أنّ: "الموقف من عُمان لا يصح لا عقيدة ولا سياسة. فسلطنة عُمان الإباضية تعاونت مع إيران الشيعية، وأقامت معها مناورات ورضيت أن تكون وسيطاً علينا للمباحثات بين أمريكا وإيران وإمدادات إيران للحوثيين، بل إن الشاحنات العُمانية نفسها تحمل السلاح من عُمان إلى الحوثيين، لاسيما عبر طريق الغظية، وإذا حكمنا على دولة وطائفة بأنهما من الخوارج، فالصحيح هو الإفادة مما فعله المهلب بن أبي صفرة معهم من المطاولة والمصابرة أملاً في انشقاقهم إذ هذا هو النهاية الحتمية لكل الغلاة، وهكذا التعامل مع من كان دينه التبديع والتضليل والإخراج من السنة." (1)

ومن يتأمل هذه الشذوذات التي سلط عليها الشيخ سفر الضوء يخفّ لديه الاستغراب من زيارة الصهاينة واستقبال قابوس لهم بحفاوة وكرم مع العلم أن الخوارج الأَقحاح لم يكانوا يوالون اليهود والنصارى ولكنه عصر جديد بنكهة نفاق عالمي.

قابوس: غموضٌ وتطبيع

ويذكر أن قابوس أقدم حاكم في المنطقة والبالغ من العمر 76 عاماً، الذي يعيش وحيداً بلا زوجة أو وريث ويحكم سلطنة عُمان بعد الانقلاب الذي حلّ بوالده واستلم هو من بعده الحكم، أصبح يمثل طرفاً مضموناً في ما يسمى "صفقة القرن" رغم بُعد عُمان الجغرافي عن ديار بيت المقدس، إلا أن حجم التطبيع الذي أظهره قابوس وحجم الصفاقة التي كشفتها تصريحات وزير خارجيته، تُنذر بمرحلة حالكة ستمر بها القضية الفلسطينية والشعوب المسلمة لم يظهر بعد كم ستدوم!

وإلى حين يتبين لنا ما تخفيه خيوط التطبيع العلني من أنظمة عميلة، يبقى ما ذكرته مجلة فورين بوليسي "أن: سلطنة عُمان اشترت التأمين الإسرائيلي لضمان مستقبل الحكم" يعكس حقيقة السياسة التي تمّ بها شراء الذمم لتمرير صفقة القرن البائسة.

(1) كتاب المسلمون والحضارة الغربية ص 1232-1241.

وإن كانت هذه الحقائق صادمة للكثيرين فلا بد أن ندرك أن إعلان الحكومات التطبيع العلني مع الكيان الصهيوني لم يعد صادماً، بل الصدمة كل الصدمة أن تقف الشعوب في مقاعد المتفرجين وتسمح بتمرير مثل هذه الخيانات والصفقات على حساب دماء الفلسطينيين على أيدي أنجس البشر وكما تدين تُدان⁽¹⁾.

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2018م.

كيف أصبحت تركيا أردوغان سبباً في سقوط حلب؟!

لمع نجم تركيا كدولة إقليمية عظمى تتميز بأداء دبلوماسي جذاب، واقتصاد قوي خولها لبلوغ المرتبة الثامنة اقتصادياً على مستوى أوروبا والسادسة عشر على مستوى العالم، ولا تزال طموحات رجالها تتطلع لحجز مرتبة بين القوى العشر الكبرى عالمياً.

ولكن رغم هذا التميز في القوة الذي لم يسبق أن بلغه نظام في الساحة العربية والإسلامية في عصرنا الحالي، انقسمت الأمة في الحكم على الرئيس التركي رجب طيب أردوغان إلى قسمين، قسم يرى فيه البطل المسلم الذي سيغير الواقع المرير الذي تعيشه أمة الإسلام الذي سيعيد إقامة خلافة إسلامية تعيد للمسلمين مكانتهم ومجدهم التليد، وقسم آخر يرى فيه الخيانة بعينها والأناية التي تتستر خلف شعارات رنانة ظاهرها حب الإسلام وداخلها المصالح التركية الخالصة، تتاجر بالقضية السورية وتبرم الصفقات في الكواليس بينما يدفع الشعب السوري الثمن من دمائه وأشلائه، واقع أثبتته سقوط حلب الأخير برضا تركي مؤسف.

وبين الفريقين حجج واستدلالات، فالفريق الأول، يشيد بجميع تصريحات أردوغان التي أدلى بها وأظهر فيها وعوداً برغبته في عودة الخلافة الإسلامية أو تلك التي عبر فيها عن تحذير واضح للمجتمع الدولي بلاءات متكررة، فضلاً عن تهديدات كلامية صدرت في وقت حساس مثل تصريحه سنة 2011 حين كان لا يزال رئيساً للوزراء، منذراً بشار الأسد من مغبة تكرار مجزرة والده في حماة في الثمانينات حيث قال: "لا يجب أن تشهد سوريا مجزرة أخرى مثل التي وقعت في حماة عام 1982".... و"ستكون تركيا مضطرة لأن تنهض بمسؤولياتها تجاه مثل هذا الموقف" أو تصريحه في 2012م حين لوح بدخول الأراضي السورية وقال: "تركيا يمكنها ممارسة حقها في ملاحقة المتمردين الأكراد الأتراك داخل سوريا في حال الضرورة". وهدد بشكل أكثر وضوحاً في أكتوبر من نفس العام قائلاً: "دمشق ستدفع ثمناً باهظاً" حين احتدت التراشقات بين الطرفين.

وتصاعدت شعبية أردوغان بشكل تلقائي بعد انسحابه الجريء أمام شيمعون بيريز، وموقفه المؤيد لسفينة مرمرة لكسر الحصار عن غزة، واتخاذ موقفها حاسماً بقطع العلاقات السياسية مع إسرائيل لتصل هذه الشعبية لأوجها عقب اشتعال الثورة في سوريا واتهام أردوغان الجيش السوري

بارتكاب فظائع أعقبها فتح الباب أمام المعارضة السورية واستضافة أنقرة لمؤتمر "أصدقاء سوريا". وعلى هذا المنوال استمرت تصريحات أردوغان تثير الحماسة وتوحي بالعزم كان آخرها تلك التي جاءت عقب مجازر حلب الأخيرة حين قال: "لن نسكت عن المجازر بسوريا وليبيا والعراق!"، زد على ذلك تشجيع أردوغان للأعمال الخيرية ومدارس حفظ القرآن وتقديمه المساعدات للمحتاجين فضلا عن دعمه المعلن للاجئين السوريين حيث وفر لهم حقوق الإقامة والعمل داخل تركيا.

لكن الفريق الثاني يرى أن إنجازات أردوغان التي يتغنى بها أنصاره ليست إلا ذرا للرماد في العيون ولا تعدوا كونها جعجعة بلا طحين، وأن أغلب تصريحاته جوفاء ومضطربة يشهد لذلك تراجعاته المباشرة فور الوقوع تحت ضغط الانتقادات الدولية، كان آخرها التباين الجلي بين تصريحاته في نوفمبر الماضي حين قال: "إن عمليات الجيش التركي في داخل الأراضي السورية تهدف لإنهاء حكم الرئيس السوري بشار الأسد"، فكان أن غير هذه التصريحات بعد الرد الروسي الرفض بشدة لها قائلا أن: "هدف عملية درع الفرات «في سوريا» ليس بلداً أو شخصا، إنما المنظمات الإرهابية."

هذا التناقض في التصريحات ليس بالأول في نظر الفريق الثاني بل يفنده التصرفات المناقضة على الأرض أيضاً، حيث فشل أردوغان في تنفيذ تهديداته التي صرح بها رغم تمادي بشار الأسد في قيادة مذابح أكثر بشاعة من تلك التي شهدتها حماة، بل تحولت هذه التهديدات بكل برودة لمجرد شجب وتنديد.

ثم كانت القفزة الخطيرة حين عادت العلاقات التركية الروسية لتطفوا على السطح بشكل يدعو للريبة والشك رغم بشاعة الدور الروسي في الصراع الدائر في سوريا، ورغم احتدام المشادات الكلامية بين الطرفين لدرجة وجهت فيها روسيا الاتهامات المباشرة وعرضت الأدلة على مساهمة تركيا في مساعدة الجهاديين في سوريا، رغم ذلك انتهى الأمر بمصافحات ولقاءات ودية بين الطرفين بل وتطبيع وتنسيق للجهود لحفظ أمن تركيا ومصالح روسيا.

ولكن التطبيع الروسي لم يكن الوحيد في قائمة التطبيعات مع القوى المعادية، فقد أعلنت تركيا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل لتعيدها دافئة بطريقة أثارت استنكار المسلمين بل تسببت في رفع درجة السخط على تركيا للذروة، حين قام أردوغان بإرسال طائرة تركية للمساعدة في عملية إخماد

الحرائق التي تجتاح إسرائيل في حين لا زالت ألسنة اللهب تتصاعد من حلب المجاورة وجثث المسلمين متناثرة في شوارع المدينة ولم تحظ بهذا الاستنفار من تركيا رغم القرب في المسافة والدين... لقد سارع أردوغان لإخماد نار تحرق إسرائيل التي قامت بنفسها بحرق غزة بقنابل الفوسفور وألقت بالحمم على رؤوس الأطفال الفلسطينيين في المدارس والمستشفيات والبيوت بلا أدنى رادع ليسقط بذلك أردوغان جميع استنكاراته التي دغدغ بها مشاعر المسلمين في حادثة سفينة مرمرة.

وهكذا انضم الطيران التركي للطيران المجرم الروسي والأمريكي لإطفاء نار المجرمين اليهود في سماء فلسطين المحتلة! وهذا ليس بمستغرب فتركيا حليف أساسي في حلف شمال الأطلسي (الناتو) بل تقلدت رئاسته أثناء الغزو الصليبي لأرض أفغانستان المسلمة وكان منها المشاركة في كل ما يهدم الكيان الإسلامي لإقامة حكم علماني يرضي أمريكا والغرب. هذا دون الحديث عن السعي الحثيث لتسليم الأسرى المسلمين للسجون السرية الأمريكية والتعاون الاستخباراتي والعسكري مع الأمريكيين ودون أن ننسى قرابين الود التي أرسلتها تركيا للاتحاد الأوروبي في سبيل الفوز بمقعد شراكة فيه رغم اختلاف التركيبة الأوروبية عن التركيبة التركية، لينتهي مشوار التودد والتوسل الطويل بتجميد أوروبا طلب تركيا الذي أساسا تكس عليه الغبار في أدرج الاتحاد الأوروبي لسنوات طويلة بحجة الدراسة، تجميد آثار غضب الأتراك!

وفي الواقع سياسات تركيا في التطبيع والتودد للقوى المعادية تمادت لتصل إلى ضفاف النيل في إثيوبيا بتقديم المساعدة في بناء سد النهضة الذي يهدد حياة المصريين وكاد يتسبب في حرب إقليمية لا زالت شراراتها تهدد استقرار المنطقة، بل عرض أردوغان على الحكومة الأثيوبية أن تشارك الشركات التركية في إتمام بناء السد حين تراجعت الشركات الصينية عن ذلك، دون أن ننسى الزيارات في شرق إفريقيا والمعاهدات التي أبرمها أردوغان مع رؤساء أوغندا وكينيا الحليفين الرئيسيين في تحالف القوى الإفريقية التي تمولها الأمم المتحدة والولايات المتحدة والتي تحارب في الصومال منذ سنوات لتخضعه للغرب.

نعم لقد أوفى أردوغان بتهديده في إرسال القوات التركية في عمق الأراضي السورية، ولكن لم يكن هذا لردع نظام الأسد أو الضغط عليه لأجل السوريين المحاصرين بل كان بكل بساطة لنقل رفاة "سليمان شاه" جد مؤسس الدولة العثمانية.. ليشهد العالم حجم القوات المستنفرة بين وحدات الجيش والطيران والاستخبارات لنقل رفاة! في حين لم تحرك تركيا ساكنا لمنع المجازر التي راح ضحيتها آلاف

المسلمين في سوريا ولا حتى التأثير على المجتمع الدولي الذي تهادى في سفك الدماء السورية بصفتها عضواً بارزاً فيه يحظى بالتحالفات الدولية القوية!

وبهذه الصورة فإن التدخل العسكري التركي لم يأت ولو مرة واحدة لأجل المستضعفين في سوريا رغم التصريحات الأردوغانية الحماسية السابقة ورغم حجم الإبادة التي يتعرض لها الشعب السوري ورغم قدرة تركيا على فتح الحدود وإمداد يد العون بل والضغط على المجتمع الدولي لتغيير هذا الواقع المأساوي للسكان المحاصرين، بل للأسف بعد التدخل لأجل رفاه "سليمان شاه"، جاء التدخل الثاني الذي لاقى دعوات صاخبة ودعايات ساحرة، لأجل عملية درع الفرات والتي هي أساساً ضد تنظيم الدولة الإسلامية الهدف منها تأمين الحدود التركية، وشاركت فيها وحدات من الجيش التركي برضا روسيا، تدعمها الطائرات الأمريكية وكتائب من المعارضة المسلحة السورية لا ناقة للثورة السورية فيها ولا جمل بل تعزز بقاء النظام النصيري وتدعمه.

كذلك الثورة التي تعلقنا بالتصريحات الأردوغانية المتناقضة التي تتجاهلها المصالح التركية بحسب مستجدات الصراع، تفاجأت بشن أردوغان هجوماً على المعارضة المسلحة للتوقف عن التصعيد ضد بشار الأسد الذي كان هدف الانتقادات اللاذعة من أردوغان في يوم مضى! لتؤكد من جديد أن التصريحات الأردوغانية لا يعول عليها.

لنطو هذه التصريحات المتناقضة وننظر في جهود أردوغان والحكومة التركية في رعاية ما يزيد عن ثلاثة ملايين لاجئ سوريا أضحت إنجازاً يتباهى به الأتراك في ظل نزيه بشري متواصل بسبب القتل والتهجير يعاني منه السوريون مع استمرار تقدم قوات النظام والقصف الروسي المدمر وميليشيات إيران وحزب الله الطائفية، فلأسف أردوغان لم يتوان في استعمال ورقة اللاجئين كوسيلة للضغط على أوروبا، لضمان تحقيق حلمه الثمين في الفوز بمقعد في الاتحاد الأوروبي، حيث قال أردوغان في 25 نوفمبر عقب تصويت الاتحاد الأوروبي على تجميد مفاوضات انضمام تركيا، "تركيا لا تفهم لغة التهديد، وإذا بالغتم في إجراءاتكم، سنفتح المعابر الحدودية أمام اللاجئين".

يوازى هذه العقلية في التجارة بقضية اللاجئين لأجل المصالح الذاتية، تأكيد أردوغان اتخاذ حكومته جميع الإجراءات اللازمة لإيصال المساعدات الإنسانية للمدنيين الخارجين من حلب وليس المقيمين فيها، ما قرأه بعض المراقبين كتشجيع على تفرغ المدينة وتسهيل مهمة سيطرة النظام النصيري عليها،

خاصة وأن هذا القرار جاء في وقت لم تعرف فيه حلب صدق هدنة ولا تهدئة من الأطراف الدولية والمعنية بالصراع.

لا شك أن سقوط حلب الدامي خلق صدمة في الشارع العربي والإسلامي، ما أفقد تركيا رصيدها الشعبي بشكل كبير ورفع لافتات الاستنكار لهذا الدور المشين في خذلان حلب، خاصة مع تواتر التقارير التي تؤكد الاتفاقات السرية بين تركيا وروسيا بمباركة أمريكية، تقضي بتسليم حلب لروسيا في مقابل درع الفرات لصالح تركيا.

وهكذا تعالت صيحات المسلمين الذين كانوا بالأمس يشيدون بمواقف تركيا أمام قضاياهم حين تفاجأوا بالسياسة المزدوجة التي تسير عليها حكومة أردوغان والتي تبين بشكل لا يشوبه شك أن مصلحة تركيا عندها فوق كل مصالح الشعب السوري، وأن المصالح المشتركة مع قوى العالم لا يمكن أن تقايسها بحرية الشعب السوري، ويرى المراقبون أن أردوغان قد ضيع فرصة ثمينة جدا في احتلال شعبية عالية في الوسط العربي الإسلامي وتغيير واقع المسلمين الميرير باستغلال قوته ومكانته الاستراتيجية ولو لتحقيق الحد الأدنى من حقوق السوريين بوضع حد للقصف الروسي وتخفيف معاناة سكان حلب، ويعبر عن ذلك المراسل الأمريكي بلال عبد الكريم من داخل حلب حين قال: "أردوغان قراءتك جيدة للقرآن ولكنك أضعت الفرصة بأن تصبح بطلاً لهذه الأمة وتنقذ هؤلاء المساكين."

في هذه الأثناء تستمر تركيا في تشغيل 9 قواعد للنااتو على أرضها، منها قاعدة الجريك التي تقلع منها طائرات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة لقصف المسلمين في الشام والعراق، ويبقى السلاح التركي موجها فوهاتة على كل ما يهدد النظام الدولي، لا ما يهدد الشعب السوري، وتستمر ملامح الخيانة بالتجلي، بعد السيطرة على مدينة جرابلس حيث أحس مقاتلو فصائل المعارضة المسلحة بأن دورهم في المكان ليس إلا لاستنزافهم في تأمين حدود تركيا، دون أي أمل في تحصيل دعم لهذه الفصائل في حربها ضد النظام النصيري وليختتم أردوغان المسرحية مع نظيره الروسي فلاديمير بوتين في اسطنبول بإعلان اتفاقهما على تلبية المطلب الروسي في مغادرة مقاتلي جبهة فتح الشام من حلب ، قائلا: "التوجيهات اللازمة أعطيت لأصدقائنا وهم سيفعلون ما هو ضروري". في وقت تعد جبهة فتح الشام من الأرقام الصعبة في الثورة السورية وقوة ضاربة لا يمكن للشعب السوري الاستغناء عنها وتشارك مع بقية الفصائل القتال ضد النظام النصيري في غرف مشتركة، لكن تركيا تقدم القربات

لروسيا دون أن تغير من واقع المجازر بحق السوريين ولو بتدخل عسكري واحد يضع نظام الأسد عند حده.

في الواقع إن المشهد بشع بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فتحسن علاقات أنقرة مع موسكو جاء على حساب المعارضة السورية المسلحة وأشلاء المسلمين في حلب. وتفاعل تركيا مع الأحداث تقوده قراءاتها وحساباتها وتنبؤاتها وحتى تحالفاتها والتزاماتها والتي تصب كلها في الأهداف والمتطلبات والاحتياجات التركية قبل كل شيء التي تحرص على مصالح الغرب المشتركة. لكن ستبقى صور الأشلاء في حلب لا تبرح ذاكرة المسلمين، ودعواتهم في عمق الألم لا تستثن المتاجرين بمأساة الشعب السوري، وإن كسب أردوغان روسيا وإسرائيل والمجتمع الدولي فقد خسر الشعب السوري ومن خلفه أمة مسلمة.⁽¹⁾

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

ماذا أفعل لنصرة المسلمين في حلب؟ إليك أبرز 10 وسائل

من منا لم تهزه مجازر حلب، من منا لم تزلزله نازلة حلب، من منا لم يبك، أو يصرخ أو تتلعثم الكلمات لتأبى الخروج إلا آهات وصل صداها إلى أيام الغزو التتاري الدموي لحلب!⁽¹⁾

تشعر بمرارة الأسى، بفضاعة الألم، ببشاعة الظلم...! وأنت تعيش بألم عينيك مشاهد الدمار والقتل والإبادة المتعمدة للمسلمين في حلب تحت مسمع ومرأى جميع الأمم والبشر! تخنقك العبرات، وتتحشج الأنفاس، وتتسارع ضربات القلب! إنه الغضب! إنه لمكر كبار وكيد سعار وتكالب للكفرة والفجار على أهل السنة بلا رادع أو مانع! فما أنا فاعل لنصرة حلب، ما أنا فاعل لرد هذا الغزو التتاري الجديد ومحو هذا العار الثقيل من صفحة حاضر المسلمين!

كل هذا شعور طبيعي وفطري في قلب المؤمن، لا شك أننا جميعاً نشترك في النازلة وفي الشعور بالفاجعة ولكن يختلف بعضنا عن بعض في طريقة التعامل مع هذه العاصفة، لا يمكن البتة أن نقبل التنازل والسقوط في منحدر اليأس والعجز، لن نرضى أبداً أن نكون منهزمين أمام قوة البطش والتآمر والقتل ذلك لأننا قوم مسلمون مؤمنون لدينا عقيدتنا السماوية النيّرة ودستورنا الإلهي العظيم من استمسك به نجى ومن تخلى عنه هلك! فكيف نسلم أنفسنا لمن كفر بالإله ومن غره الاستعلاء والكبر في هذه الحياة، وما هو إلا مخلوق لن يعدو قدره وإن استقوى وتجبر وظلم!

لنقف وقفة حازمة جادة ونحكم العقل بإيمان ويقين حتى ندرك أين نحن وما فحوى هذه الرسائل الإلهية، ما علينا فعله وما علينا تفاديه وما علينا الحرص بقوة عليه!

• ترسيخ عقيدة الإيمان والفرار إلى الله عند الابتلاء

نعم قد توالى السنن منذ خلق الله الأقسام البشرية على هذه الأرض ومع كل سنة رسالة وموعظة، قال تعالى: (وَلَنَبِّئَنَّهُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبِّئُوا أَخْبَارَكُمْ) هي سنة الابتلاء إذن التي ابتلانا الله بها في هذا الوقت تحديداً ليحطم معها كل الغفلة التي عانينا منها وكل الاستهانة التي دأبنا عليها وكل القسوة التي تعودنا عليها، إنها النازلة التي تحيي القلب المؤمن وتدفعه دفعا للفرار إلى ربه!

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

للعودة إلى خالقه وقرآن بارئه ووصايا نبيه المؤمن على رسالته! إن أول سؤال يخطر بقلبك حين يحاصرك الخطر من كل حدب وصوب، فلينجدي ربي!!! (جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فلنفر إلى الله وحده لا شريك له أولاً وقبل كل شيء!

• البحث عن الحل في ضوء شريعتنا ووصايا نبينا الكريم

قال رسول الله ﷺ (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم) إذن الحل الأول بلا جدال هو الالتزام بأمر الله ورسوله ﷺ إنه الاستجابة لما يبيحك وقد وصفته سورة التوبة بتفصيل، إنه الجهاد في سبيل الله، أقبل بإيمان لا يشوبه شك أن الحرية ورد المظالم لن تكون إلا بالجهاد! الذي لولاه لما انتصر المسلمون على الفرس والروم، ولولاه لما استرجع صلاح الدين الأيوبي الأقصى، الذي لولاه لما هزم قطز وبيبرس التتار وما أدراك ما التتار في وقت ضعف وقلة حيلة وتفرق للمسلمين تماماً كما هو حالنا اليوم! عليك أن تدرك أن الجهاد فرض عين في حالتنا اليوم بإجماع علماء المسلمين منذ صدر الإسلام الأول إلى يومنا هذا وإلى آخر الزمان.

• لا تكلف إلا نفسك!

قد يهولك عظيم المشهد وضعفك كفرد في الأمة أمام أخطبوط الأعداء المتجبر، لا تهن ولا تحزن فالجواب في كتاب ربك، الذي خلقك ويعلم طاقتك ولم يكلفك بأكثر ما تستطيع عليه نفسك، قال تعالى: (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا) وقال أيضا: (وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) فابحث بنفسك عن طرق النصر ولا شك أن أولها هو الإنكار بالقلب واللسان وإن أمكنك فبالإعداد والقتال! ولا تنس أن الجهاد أبواب وفصول، يدخل فيها الدعاء والإنفاق والتحريض والدعوة والإعداد والقتال بالنفس! فابحث عن باب تطرقه وإياك والقعود.. قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

• استقم كما أمرت واحذر المعاصي

كيف تأمل أن يرفع الله عنا هذا البلاء وأنت لا تدعو ربك وتعبده كما أمر، لا تنهى عن منكر ولا تأمر بمعروف ولا تدعو للخير! كيف ترضى أن يكون بيتك عشا للمنكرات وعائلتك في غفلة مع الغافلين! قم وأصلح حالك وبيتك وإياك والاستهانة بالذنب، إياك والاستهانة بالغفلة وكذا التسوية، قال رسول الله ﷺ (... وجعل الذل والصغار على من خالف أمري) إن الذنوب كالقيود .. كالأغلال تمنعك تحقيق التغيير وإحراز النصر. ذكر ابن النحاس الدمشقي في كتابه الممتع "مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق" قصة جيش للمسلمين أراد أن يفتح حصنا للعدو فاستعصى عليه، فجمع الأمير جنده وسألهم عن ذنوب يخفونها منعتهم النصر! فتذكروا جميعا حالهم وخلصوا إلى أن الذنب الوحيد هو تخليهم عن سنة السواك!! فتأمل معي سنة واحدة تركوها لم ينصروا بسببها، فكيف بمن يذنب الليل والنهار ثم يرفع يديه مبتهلا يطلب العون والمدد! ما أن استاك القوم وعادوا لسنة نبهم فتح الله عليهم ونصرهم نصرا عزيزا! أما نحن فأضحينا في وقت أضعنا معه الفرض قبل السنة! فأيتها الناس عودوا لدينكم استقيموا كما أمركم الله ورسوله ثم ارفعوا أكفكم وبقينا لن يرد الله دعاءكم وليهزم من عدوكم قال تعالى: (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ).

• لا تستهن بقدراتك وتأثيرك لرفع هذا الظلم عن إخوانك

كل نجاح مقرون بالإيمان، ولا شك أن المؤمنين هم الفائزون في الأخير، فقد نصروا إيمانهم بيقين أن الله لن يخذلهم فأحسنوا ظنهم بربهم فأحسن إليهم وأكرمهم! أيها المسلم أيتها المسلمة، لا تستهن بما تقدمه للمسلمين اليوم في حلب بل وفي كل مكان يسامون فيه سوء العذاب، بل ليكن شعارك معذرة إلى ربكم سأستنفذ جهدي كله في سبيل أن أنجح في كفّ هذا الظلم ونصرة المستضعفين. لقد أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ وقال: (كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام) هذه صورة رائعة على المسلم أن يقتدي بها وهي معاداة كل من يؤذي المسلمين ولو بأقل إسهام ممكن! ويدخل في هذه كل أنواع الإيذاء لأهلنا في الشام بما فيه الإرجاف وتزوير الإعلام ونشر التخذيل والوهن والضعف بين صفوف المسلمين فلتتصد لها جميعا بالهمة والعزيمة واليقين ورد كيد الخائنين في نحرهم.

• الصدق في كل الأمر

لا يمكن أن يثمر إقبالك إن افتقد الصدق، لا بد أن تكون صادقا في نصرتك واستقامتك وفي طلبك رفع البلاء، فالصدق في نية الجهاد يعني الإعداد كما أمر الله ورسوله ﷺ قال تعالى: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) والصدق في الدعاء أن تذكره في كل حين ومكان لا تغفل وأنت حريص على آدابه وأوقات استجابته، والصدق في النصر أن تتابع الأحداث وتتفاعل معها لترفع الهمم وتسقي اليقين وتمد الناس بالنصح الثمين منتزعا اليأس من قلوبهم ومحطما الإحباط في نفوسهم ... وتذكرهم بالله فتحييهم وتحيي معهم أمة كادت أن تباد. والصدق في الرجاء يعني أن تنتظر العون من الله وحده لا أحدا غيره، أن تتوكل عليه هو وحده لا شريك له، فلا يمكن أن تربط رجاءك بالله وبعبد من عباده، فقد أثبتت لنا فاجعة الشام كما غيرها من الفاجعات أن الاعتماد على المجتمع الدولي وكل ما يسمى نظام دولي فاشل تماما وأصل العبث بقضية المسلمين، لا بد أن نقبل أخيرا أن العدو لا يمكن أن يقدم لك عوناً وأن الإستعانة بالله مع حسن عبادته هي طريق الفلاح والنجاة.

• لا تنتظر أحدا بل سابق بلا تسويق

بعض الناس يدرك الخلل ويعرف الحل ولكنه ينتظر أن يتقدم أحد قبله كي يتحرك! والله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

فالله لن يسألك عن الدولة الفلانية أو الحاكم الفلاني أو الجماعة الفلانية! إنما هو فرض عين، ستسأل عنه لوحدهك! فلا تنظر في من حولك بل فيمن سبقك.. ثم تذكر قول ابن السماك: الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل. فما أنت فاعل بهذا القليل من القليل! إنما هي حياة واحدة فهبها لخالقها.

• حتى لا تحرم التوفيق

قال ابن عثيمين رحمه الله: ” حتى تعرف أن المسألة مسألة توفيق، انظر إلى الذكر من أسهل الطاعات ولا يوفق له إلا القليل”. فإن أردت التوفيق فيما ترجوه وتسعى إليه فعليك إذن أن تقف على الباب

ولا تحيد عنه حتى تنال مبتغاك ذلك أن الله يمتحن صدقك قبل أن يوفقك، ينظر في إصرارك على التغيير والتأثير قبل أن يعطيك ما تريد، فإن أنت فقدت الصبر وسرعان ما مللت وتأففت فكيف تطمع في توفيق من الله هو لمن حازه ظفر بخيري الدنيا والآخرة! تفكر فيها، إن الصبر مع الأجر خير من السخط مع الخسارة ثم إن التغيير يحتاج لوقت وبذل وجهد متواصل فلا تكل ولا تمل.

• توحيد الصفوف

إن أول أسباب مأساتنا هو الفرقة التي فتكت فينا وتفشت بيننا في عقر ديارنا، نعم الجميع متفقون على أسباب ضعفنا ويشخصونها بما فيه كفاية وافية ولكن قليلون هم الذين ينبرون لتغيير حالنا وواقعنا.. قليل هم من يقدم العلاج ويضمم الجراح ويسارع في تطبيب الجسد المريض! إذن فلنكن جميعا مصلحين داعين لوحدة الصفوف، لا مفرقين ومتعصبين في وقت كثرت فيه الرايات والجماعات والدعوات! لنجمع الجميع في صف المسلمين الواحد تحت ظل الشريعة الغراء لندعو الجميع للتراض كالبنيان المرصوص! لنحرص على الجمع على تقريب المسافات وتذليل العقبات وتهوين الاختلافات حين يكون هناك هدف نبيل عظيم هو نصره هذه الأمة والسبب كبير هو مصاب هذه الأمة الذي لن يستثني أحدا من أبناءها، إن لم نتحد اليوم وتناسى جميع خلافاتنا فكيف سنهزم جموع الأعداء التي (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) و (يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ).

• اجث عن المفاتيح لتجاوز المحنة

لا شك أن هناك تفاوتاً في التأثير بين الناس بحسب المكانة التي جعلها الله لكل واحد من خلقه، (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن دُونِ الْأَرْضِ مَنَازِلَ وَمِنْ دُونِ الْأَرْضِ الْأَنْبَاءَ وَسَوَاءٌ يَسْأَلُهُمْ فِيهَا حَاقِقَاتٌ لِّبُلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)، فضع نصب عينيك العلماء والأغنياء وأصحاب التأثير وأهل الحل والعقد في هذه الأمة، كن محرضاً لهم مذكراً لهم ، أعلمهم أنك لن تسامحهم إن قصرُوا في أداء واجبهم ، حرضهم على توحيد الجهود والقيام بالواجب المنشود منهم، ذكرهم بالعز بن عبد السلام ثم احتسب هذا كله وتذكر (إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً).

هذه كانت عشرة وسائل، احفظها واعمل بها وانشرها بين المسلمين لعل الله يصلح حالنا ويعفو عن ذنوبنا ولا يستبدلنا بقوم خير منا يحبهم ويحبونه!

الفلوجة.. قصة لن تنتهي بالسقوط

منذ عرفت الأرض بنيانها والتاريخ يسطر أحداثها والأمثال تضرب لأمجادها.. هي مدينة عنواها الصمود ومصيرها المواجهة بين الحق وألوان الباطل، بين عباد مسلمين أحرار وعبيد كافرين أشرار، إنها مدينة أبت إلا أن تشغل صفحات الماضي بسجل ثقيل من الدماء والتضحيات والمواقف المشرفة.⁽¹⁾

هكذا تميّزت “الفلوجة” بعزة وإباء في كل نازلة، محتفظة لنفسها بذاك البقاء والاستمرارية بهويتها الإسلامية، ولتصبح اليوم ثالث أكبر المدن السنيّة في العراق، والتي رغم ما حفرته المعارك في آثارها وما صنعه جحافل الأعداء في معالمها، إلا أنها تزدان بطبيعة خلاصة هادئة، يحترقها نهر الفرات العتيق، ليجرف معها تلك الذكريات المؤلمة التي تظهر مع كل محطة في تاريخ زمن لا زال ينسدل.

هي المدينة التي أبت بكل ما تملك من قوة الاستسلام للقوات الأمريكية المعتدية بعد أن اجتاحت أراضي العراق بترسانتها العسكرية المتضخمة، ولم تتمكن إلا من التورط في وحل تراها بعد سير الدبابات على جثث أبنائها الذين لم يسلموها إلا بثمن أرواحهم، اليوم “الفلوجة” تجدد تاريخ الصمود المضرج بالدماء بعد أن دخلت في حربها الثالثة مع إعلان رئيس الوزراء العراقي الرفض حيدر العبادي مؤخرًا بدء عمليات ما يسمى “تحرير” مدينة الفلوجة المستعصية.

الفلوجة قبل الإسلام مدينة مهمة

الفلُوجَةُ هو اسمها الحديث ويعني الأرض المصلحة للزرع حيث تتفلق تربتها حين يمسه ماء السماء عن خيرات الأرض، بينما عرفت أسماء أخرى قديمة مثل إسم «هوكست ديزه» (أي الحصن البعيد)، وبعد أن استولى عليها الرومان تسمت بـ «المدينة الوسطى» ثم بعد أن فتحها سابور، سماها بمدينة (سابور المنتصر). وهكذا، على امتداد ستة قرون، بقيت الفلوجة المدينة المهمة التي لا بد من الظفر بها خلال الحروب الفارسية – الرومانية.

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

الفلوجة بعد الفتح الإسلامي

وحين أطل الفتح الإسلامي على بلاد ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي، دخل الإسلام ديار الفلوجة، وقد كانت قريبة من مدينة الأنبار القديمة التي فتحها خالد بن الوليد رضي الله عنه عام 12 هجرية الموافق لـ 633م، في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والأنبار هي عاصمة العباسيين الأولى قبل تشييد أبي جعفر المنصور عاصمته بغداد، وقد تحولت الفلوجة مع الوقت لمدينة استراتيجية لأنها كانت المحطة الرئيسية التي تتوقف عندها القوافل المتجهة من مناطق الصحراء العربية إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. ولأنها كانت غنية بالموارد المائية، غدت أرضها موقعاً مثالياً للنشاط الزراعي.

وفي عام 1941م، إبان الانتداب البريطاني الذي فُرض على العراق، بعد أن احتلته القوات البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وفصله عن سلطان الدولة العثمانية، حاولت هذه القوات دخول الفلوجة لتأديب المقاومة هناك، فواجهت دفاعاً مستبسلاً وشرساً من أهلها وهزمت بالمدينة فكانت صفحات من الصمود.

وخلال فترة الحكم البعثي، ورغم تمركز البعثيين في الفلوجة إلا أن هذا لم يمنع من قيام بعض الحركات ضد حكم الرئيس السابق صدام حسين كحركة مُجدِّ مظلوم الدليمي في التسعينات والتي انتهت بقمعها وإعدام قادتها ومواجهات واسعة في الرمادي.

لماذا تزعج الفلوجة الرافضة؟

تقع الفلوجة في ما يعرف باسم «المثلث السني» الذي هو عبارة عن رقعة من أرض، في غرب العراق وشمال غربه، قدمت الجزء الأكبر من النخبة العسكرية العراقية منذ حكم العثمانيين وتعتبر حامية عسكرية بارزة وحيوية. لقد اشتهرت الفلوجة باستعصائها على الغزاة وبصفة الدفاع عن النفس، عززه شخصية الفلوجة الدينية، إذ تعد المدينة أكبر نقطة تجمع لأهل السنة منذ القرن التاسع عشر ولهذا يحرص الرافضة على إسقاطها ومن قبلهم الأمريكان.

إبء الفلوجة إبء الغزو الأمريكي الأول للعراق

في غزو العراق الأول عام 2003م، قصفت الفلوجة بالصواريخ التي لم تتميز المدني من العسكري، بل كان أول استهداف لسوق شعبي مفتوح بداخلها أسفر عن مقتل نحو 150 من المدنيين الأبرياء. فضلاً عن اغتصاب القوات الأمريكية لمبانٍ في المدينة لاتخاذها مقرات لجنودهم، الأمر الذي أدى إلى توالي موجات الإستنكار من الأهالي، بشكل أزعج الأمريكيان.

ومنذ ذلك الحين والفلوجة تمثل مسرحاً للمظاهرات شبه اليومية التي تندد بالغزو الأجنبي حتى غدت مركزاً رئيسياً للمعارضة التي تأسست ضد التحالف الغربي. وبفضل الموقع الجغرافي للفلوجة تمكن المقاومون من شن حروب عصابات ضد الجيوش الغازية، فالمدينة تحيط بها بساتين نخيل كثيفة ومزارع، كما أنها بنيت على ضفتي نهر الفرات، مما يعني إمكانية التحرك عن طريق النهر دخولاً وخروجاً دون أن ننسى الطبيعة الطينية لأرض المدينة التي تجعل من الصعب على المعدات العسكرية التوغل فيها بسهولة. وتتميز الفلوجة بمتاهات من الأزقة والشوارع الضيقة التي تعج بأعداد هائلة من الناس الذين يعيشون في مساكن صغيرة نسبياً.

الفلوجة في قلب المعارك

معركة الفلوجة الأولى

اندلعت معركة الفلوجة الأولى عام 2003م على إثر قيام مقاومين بقتل أربعة من عناصر شركة "بلاك ووتر" الأمريكية، وسحل جثثهم وتعليقها. وقد فشل الأميركيون في اقتحام المدينة في تلك السنة وتكبدوا خسائر فادحة، إلا أنهم صبّوا جلّ غضبهم في القصف العشوائي، ورغم سقوط عدد كبير من المسلمين فيه، لم تستسلم المدينة ولم تسقط.

وتكبد الجيش الأمريكي في هذا المعركة خسائر جسيمة لم تكن في الحسبان، دفعت الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن أن يعلق بأسى قائلاً: (لقد واجهت قواتنا أسبوعاً قاسياً. وأنا أصلي كل يوم من أجل أن تتراجع الخسائر) ولا زال الأميركيون يذكرون تاريخ 2 أكتوبر 2003م الذي أسقط فيه المقاومون مروحية شينوك أمريكية في الفلوجة - ضاحية الكرمة مما أدى إلى مقتل 16 جندي أمريكي وجرح 26 آخرين.

لقد سطرت معركة الفلوجة الأولى صفحة صمود رائع في تاريخ العراق بينما كانت للأمريكيين صفحة عار لا يُنسى.

معركة الفلوجة الثانية

بعد فشل الأمريكيين في معركة الفلوجة الأولى جاءت معركة الفلوجة الثانية والتي وقعت في الفترة ما بين 7 نوفمبر، و23 ديسمبر 2004م، حيث دفع الفشل الأول الأمريكيين إلى جعل معركتهم التالية الأشرس، فضاعت القوات الأمريكية تعزيزاتها 7 أضعاف عن المعركة الأولى، وبلغت أعداد جنودها أكثر من 15 ألف جندي، مقابل حوالي 1000 مقاتل فقط كانوا متحصنين داخل المدينة فضلاً عن استخدام الأمريكيين لأسلحة محرمة دولياً والدفن في الصفوف الأولى بقوات الجيش العراقي ذي الأغلبية الشيعية سعياً منهم لإخماد أي صوت للمقاومة هناك.

شرعت القوات الأمريكية بقطع تيار الكهرباء والمياه عن المدينة وبقصف شرس مدة خمسة أشهر متواصلة منذ شهر أيار 2004م إلى بداية الهجوم في نهاية عام 2004م، وركزت على المستشفيات والمراكز الطبية. ويجدر الإشارة إلى أن القوات الأمريكية كانت قد عجزت عن اقتحام المدينة بعد عدة محاولات لاختراقها من جهاتها الأربع وبقيت تحاول أكثر من 7 أشهر دون جدوى أمام المقاومة الباسلة لأهالي الفلوجة، مما دفعها إلى الإستعانة بطائرات B52 العملاقة وقاذفات من أحدث طراز، ليصل القصف إلى ذروته الوحشية باستخدام الأسلحة الكيماوية، والفسفور الأبيض، والقنابل العنقودية، والقنابل فائقة الوزن وقنابل النابالم شديدة الاحتراق مما أدى إلى مقتل العديد من المدنيين ونزوح الآلاف فضلاً عن تدمير المباني والمساجد وبيوت الأهالي.

لقد استعملت أبشع الأسلحة في الفلوجة، حتى ظهرت تشوهات في المواليد الجدد، مما دفع بأستاذ السموم البيئية في جامعة ليدز البريطانية بمطالبة قوات التحالف الغربي بكشف طبيعة الأسلحة التي استخدمت في الفلوجة والتي تسببت في حدوث هذه التشوهات للمواليد الجدد بالمدينة.

ويرجع مراقبون تأخر القوات الأمريكية في حسم معركة الفلوجة الثانية من جهة للمقاومة الشرسة، ومن جهة لخشية الأمريكيين من ارتفاع أعداد قتلاهم وخسارتهم البشرية والعسكرية وخاصة الإعلامية التي

يحرصون على إخفائها عن أمتهم خشية استذكار أيام فيتنام، وفي الواقع فإن مشروعهم لغزو العراق تفاعلاً بحقائق لم تكن في الحسبان، ألا وهي مقاومة هذا الشعب المسلم للغزو الأمريكي.

صمود الفلوجة كلف الأمريكان حينها 500 قتيل أمريكي حسب مصادرهم الرسمية، فضلاً عن سقوط ما يقرب من 2000 من المرتزقة الخدم للجيش الأمريكي.

تقدم الجيش الغازي للفلوجة الصامدة بعد استنفاد جميع الوسائل الوحشية في مقدمتها الجيش العراقي ذو الأغلبية الشيعية، والبشمركة الذين وُعدوا بدولة كردية تُقام في الشمال، ثم انتهت المعركة بدك المدينة دكاً بجميع أنواع الأسلحة المحللة والمحزّمة، فهدمت البيوت، والمساجد، وقصفت بأسلحة فظيعة ولا زالت صور القتلى الغربية تأتي أن تمنحي من الذاكرة منذ ذلك الحين.

لقد دخل الأمريكان الفلوجة ولكن بعد أن دمروا 90% من مرافق وبنائات المدينة. ورغم دخول القوات الأمريكية للمدينة الصامدة إلا أن المعارك لم تتوقف بل استمرت المقاومة المسلحة في مواجهة الأميركيين مما كلفهم الأثمان الباهظة. ومع أن الأميركيين ضخوا جهوداً مضاعفة للسيطرة على الفلوجة وتسليمها للحكومة الراضية في العراق برئاسة المالكي، إلا أنها في الأخير خرجت عن سيطرة هذه الحكومة في الأول من يناير عام 2014م على يد أبناء العشائر المنتفضين بوجه المالكي.

معركة الفلوجة الثالثة

في 23 مايو/أيار 2016م، بدأت عشرات الآلاف من قوات الأمن العراقية الراضية وعناصر الحشد الشعبي الراضية عملية جديدة لاحتلال الفلوجة كانت بدايتها قصفاً مكثفاً عشوائياً أودى بحياة الكثير من سكانها وأخضعت الفلوجة إلى حصار جديد محكم، تمهيدا لاقتحام المدينة.

وبحسب تقارير صحافية ميدانية فإن معركة الفلوجة الأخيرة صنفت على أنها الأكبر في الكلفة البشرية في كل المعارك المعاصرة، بمعدل 70 قتيلًا في اليوم الواحد!

وهذا يعكس الأسلوب العسكري الذي ينتهجه الإيرانيون في حربهم والذي يعتمد على تكثيف الهجوم بحشد بشري كبير غير مدرب جيداً - دون الاهتمام بالخسائر في الأرواح - حتى يتم التمهيد للقوات الخاصة المدربة لتتمكن من الدخول لإنهاء المعركة لصالحها!

ولا شك أن معركة الفلوجة الأخيرة مصيرية في تاريخ الرفض في العراق، فهي تحدّ حقيقي دفعهم للضح بكل ما يملكون لأجل إحكام قبضتهم على مدينة الصمود، مدينة المساجد، مركز مقاومة أهل السنة في العراق، ومما يدل على أهميته، مقتل شقيق أحمدى نجاد رئيس إيران في المعارك الضارية التي تشتعل هناك والذي شارك بنفسه فيها باعتبارها فارقة بالنسبة لإيران.

هذه المعركة الثالثة لا تقل بطولة عما سبقها من معارك، فصمودها وصف بالأسطوري، حصار محكم وقصف مستمر كشف نفاق المجتمع الدولي الذي يدعي حفظ حقوق الإنسان بينما يشارك في قصف الأطفال والنساء ولا تحرك معه صور القتلى البشعة أي ضمير إنساني.

الفارق بين معركتي الفلوجة الأولى والثانية والمعركة الحالية

منذ أسابيع يقوم عشرات الآلاف من الجيش العراقي الرفضى بحملة مسعورة لاستعادة فلوجة الصمود، يرافقه الحشد الشعبي الرفضى والدعم الإيراني العسكري والمادي، دون أن ننسى الغطاء الجوي الأمريكي الواسع، في مشهد يشبه معركتي الفلوجة الأولى والثانية مع فارق بسيط، هو تنحي الأمريكيين عن المواجهة المباشرة وفتح المجال لمن رخصت دماء أبنائهم (الرفضة) ليكونوا وكلاءهم في هذه الحرب مقابل غنيمة الأرض وقمع أهل السنة في العراق.

سر صمود المقاومة في وجه الاحتلال الأمريكي

قد يتساءل سائل كيف يمكن لترسانة عسكرية مهيبة للأمريكيين أن تتعثر أمام بعض المقاومين بأسلحة بسيطة؟!

والجواب على هذا السؤال يلخصه الخبراء العسكريون في أن أي ترسانة عسكرية ضخمة ستكون شبه عاطلة أمام حرب عصابات قائمة على التنظيم المحكم ونصب الكمائن واللجوء إلى تقنية الكر والفر والهجمات الخاطفة، ولا يسع الجيش الأمريكي إلا القصف العشوائي الذي يطال غالباً المدنيين والذي يفقده أي دعم شعبي مما يقوي حاضنة المقاومين ويضعف موقف القوى الغازية غير المرحب بها وباختصار يضطره لإسقاط قناع النفاق الدولي باسم الحريات وحقوق الإنسان.

قصة لن تنتهي

نعم لقد اجتاحت قوات الرفضة الفلوجة بعد خسائر مهولة في صفوفها، ورغم إعلانها السقوط الكامل للمدينة قبل أن تسيطر على 50% منها إلا أن تاريخ الفلوجة ومعاركها السابقة مع الأمريكيين لا بد أن تكون عبرة للغزو الرفضي-الأمريكي الجديد، فلا يمكن لمدينة الصمود إلا الانتفاضة من جديد على الظلم والعدوان ومن شبّ على شيء شاب عليه، فعلى الرفضة ألا يستعجلوا الفرح وليتعظوا من فرحة الأمريكان التي لم تكتمل أبداً وأن ينتظروا تلك الأيام التي يداولها الله بين الناس وليعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

بعيداً عن أخبار الفن والكرة... هذا ما يحدث في الفلوجة على أيدي الرافضة

الفلوجة تذبح مرتين⁽¹⁾

الفلوجة أشهر المدن العراقية صموداً، تتصدر عناوين الأخبار اليوم، بكل أسى وألم تُعرض صور ضحايا الجحيم والحصار الذي يعيشه أهلها الأوفياء منذ تمدد الطمع الأمريكي في المنطقة ومنذ تغلغل الرافضة في العراق. هي قصة بطولة أو قصة ثبات، تأبى الفلوجة إلا أن تكون عنوان المعارك والمواجهات.

بالأمس، القوات الأمريكية بجيوشها الجرارة وترسانتها التي لا تُضاهى! خرجت تجر أذيال الهزيمة بعد أن أسقطها ثبات الفلوجة في وحل مجرمي الحروب.

واليوم وكلاؤها-الرافضة-مع كل ما جمعوا من أذئاب، يدفعهم طيران التحالف الغربي والدعم الإيراني والتهليل العربي على رأسه السعودية وبعض المستترين باسم الجماعات الإسلامية، ليشهد العالم قتلة متعمدة لمدينة إسلامية قهرت الغزو الصليبي الرافضي ولا تزال.

انطلاق الهجوم

لقد حُشدت الحشود ودُقت طبول الحرب ورفعت رايات الرافضة وشعاراتهم الخائبة وأعلنت بداية المعركة، حيث ركزت القوات الرافضية هجماتها على محيط الفلوجة لعزل المقاتلين داخل المدينة بدعم من طيران التحالف الدولي الصليبي بقيادة واشنطن. ومنذ بدء الهجوم احتلت القوات الرافضية مناطق واسعة في محيط الفلوجة، وخاصة قضاء الكرمة (13 كم شرق المدينة).

من بين القوات التي شاركت في الهجوم كانت قوات مكافحة الإرهاب للحكومة الرافضية والتي تؤكد أن المعركة مصيرية ولهذا تشارك بأكبر قوة لها إلى جانب قوات الجيش وميليشيات الحشد الشعبي الذي يضم مجموعاته الإيرانية مثل أنصار الحق وكتائب حزب الله المشهورة بسجل حافل لجرائم إبادة أهل السنة في ديالى وتكريت وغيرها.

⁽¹⁾ هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

بعد سقوط الكرمة والتي تعد خط الدفاع الأول للفلوجة، (45 كيلومتراً غرب العاصمة بغداد)، تحولت لبلدة أشباح، لا يُرى فيها أثر لمديني سوى المتاجر المحطمة والمحروقة والمباني المدمرة، وقوات الحشد الشعبي تكتب على جدران مبانٍ في البلدة، عبارات تلخص حقيقة الحرب منها “شكراً إيران.”

وقد تم تطويق الكرمة بسواتر ترابية بأمر من قائد عمليات بغداد الرفضية، وهذه السواتر لها منفذ واحد باتجاه العاصمة بغداد، ولها حاجز أمني يمنع الدخول إلى الكرمة أو الخروج منها إلا بعد التدقيق والتفتيش من قبل هذا الحاجز والحواجز الأخرى التابعة لقيادة عمليات بغداد الرفضية لإطباق الحصار على الأهالي وزيادة معاناتهم.

الدور الأمريكي

أعلن المتحدث باسم قوات التحالف الدولي العقيد الأميركي ستيف وارين، أن طائرات التحالف نفذت عشرين غارة خلال أربعة أيام فقط. في حين أكد السفير الأميركي السابق في العراق جيمس جيفري على أن

“دور القوات الأمريكية في معركة الفلوجة هو دور داعم للقوات العراقية الرفضية، وأنها ستدعم الحشد الشعبي الإيراني إذا كان تحت إمرة الجيش العراقي وكذلك ستدعم المليشيات السنية التي تنسق مع الجيش العراقي.”

التغطية الإعلامية

تسابق المحللون والخبراء والأمنيون والسياسيون، للحدّث عن المعركة الحاسمة والمصيرية، وبين من يصفها بمعركة تحرير وبين من يصفها بمعركة إبادة ومجزرة، ينتهي المطاف بالمواقع الإخبارية لتوثيق مأساة عظيمة من مآسي المسلمين ونازلة قاصمة لأهل السنة في العراق بل لكل المسلمين، لم تشهد أي دعم حقيقي على الأرض بل مجرد استنكارات تتناقلها مواقع التواصل الاجتماعي في حين اكتفى البعض بالدعاء وما يدخل في دائرة أضعف الإيمان.

مسير نحو 50 ألف شخص داخل الفلوجة لم يحرك ضمير منظمات حقوق الإنسان ولا منظومة دولية داعمة للرافضة ولا ما يسمى الدول العربية. فتحت نيران القصف الكثيف وتحت وطأة الجوع من الحصار المستمر، يقبع مسلمون تهمتهم الوحيدة أنهم أهل السنة.

ردود

في الوقت الذي خرجت فيه أصوات تدعّم الاحتلال الرافضي لمدينة الفلوجة السنيّة مع تجاهل تام لحقيقة المجزرة على الأرض-التي يقتل فيها الأهالي عمداً وتنتشر لها أبشع الصور الدامية للشيخ والنساء والأطفال- كان على رأسها حكومة السعودية وبعض الممثلين للأحزاب السنية كحزب الإخوان المسلمين الذي أعلن ناطقه صراحة أن “تحرير الفلوجة عنوان لمرحلة جديدة في ترميم العلاقات الوطنية، ونرجو ألا نضيع هذه الفرصة.”

خرجت أصوات أخرى تندد بهذا الهجوم وتستنكره وتحذر من عواقبه، حيث وصف مركز جنيف الدولي للعدالة معركة الفلوجة بـ“عمليات إبادة تستهدف المدنيين” ضمن “توجّه طائفي”

كما أكد الكاتب والمحلل السياسي العراقي لقاء مكّي أن “عناصر الحشد الشعبي قامت بتفجير وإحراق مساجد وممتلكات عامة مع رفع رموز طائفية في بلدة الكرمة شمال شرق الفلوج”

وأكد: أن عمليات التدمير التي يقوم بها عناصر الحشد الشعبي هي عمليات ممنهجة وليست فردية ولأغراض غير عسكرية هدفها:

“شن حرب نفسية ضد سكان الفلوجة وترويضهم وكسر إرادة المدينة التي إن بقيت صامدة ستشكل مشكلة للسلطة التي تريد نمطاً طائفيّاً معيناً.”

ومن جهته اعتبر الباحث في المركز العربي لدراسة السياسات حيدر سعيد قرار معركة الفلوجة أميركياً بالكامل، مشيراً إلى أن:

الأميركيين هم من بنوا التركيبة المقاتلة ضد الفلوجة.

وقال: “إن وجود الحشد الشعبي في معركة الفلوجة ليس ضرورياً، مشيراً إلى أن الهدف من وجوده هو أن بعض الأطراف الشيعية تريد أن تجعل من المعركة رأس مال لها لتقوية موقفها في العملية السياسية. مؤكداً أن:

“إيران الحرس الثوري أو إيران الخمينية لها استراتيجية إقليمية كبرى وتريد بمعركة الفلوجة دعم تيارها السياسي في العراق”.

لن تنتهي القصة بسقوط الفلوجة

وفي الوقت الذي يتوقع فيه المراقبون سقوط مدينة الفلوجة قريباً لشدة القصف والحصار يخشى الأهالي من عمليات انتقامية رافضية لبعض مسلحي الحشد الشعبي، كما أظهر شريط مصور لمجموعة من عناصره وهي تتوعد بأخذ الثأر من أهالي الفلوجة وتسوية بيوتهم بالأرض.

من جهة أخرى لا شك أن تلك الدماء المسلمة التي استبيحت على أيد الرافضة وحلفائهم في الفلوجة أن تنتظر قصاصاً عادلاً، ويتوقع المراقبون أن تولد مجزرة الفلوجة موجة انتقام ستطول معها المواجهة بين أهل السنة والرافضة في العراق.

وبالنظر إلى فشل أمريكا سابقاً في السيطرة على العراق منذ احتلالها له، رغم حشدها لأكثر من ربع مليون جندي ومرتق وضباط الاستخبارات العسكرية والمخابرات والموظفين من جميع الأصناف وغيرهم، بالإضافة إلى تجنيدها لألاف من المتعاونين والمخبرين العراقيين:

يبدو أن الاستعانة بالرافضة لترويض العراق مصيره مصير الغزو الأمريكي الأول أمام مقاومة أهل السنة الطويلة والباسلة، إذ لا بد للقوات الغازية وإن حشدت جميع قواتها، لا بد لها من الخروج يوماً وإن طال الزمن.

سيناء حين تُطبق العزلة وتُحل ظلمة النسيان

رغم ما تحتله سيناء من مكانة تاريخية واستراتيجية للمسلمين في العالم العربي، ورغم ما مرت وتمر به من أحداث مصيرية ومأساوية، إلا أنها لم تحظ بتلك التغطية الإعلامية اللائقة بمعاناة أهالي سيناء وبالثمن الذي يدفعونه كل يوم لذنب لم يقترفوه.⁽¹⁾

نعم قد اهتم لأخبار سيناء المستقلون من الصحفيين المحللين العرب منهم والأجانب تحت معاناة أمنية شديدة، ولكنها أخبار تتوقف حيناً وترتفع أحياناً كالموج في البحر، بينما معاناة أهالي سيناء لا تحاكي خط الأمواج، بل هي دائمة مستمرة مع كل يوم.

تكتيم وتضييق

منذ أكثر من ثلاث سنوات تقبع سيناء المنطقة الاستراتيجية التي تفصل مصر عن فلسطين، تحت نيران الحرب بين قوات النظام المصري والجماعات الجهادية، لا يصل لمسامع الناس تفاصيل نيرانها إلا من خلال البيانات العسكرية المختصرة التي تخرج بين الحين والآخر على لسان المتحدث العسكري الرسمي والتي تعد المنفذ الوحيد لمعرفة تطورات هذه الحرب.

ولا شك أن التغطية الإخبارية من طرف واحد ستكون غالباً منحازة تفتقر للإنصاف، وهذا الذي أثاره بإنكار أهالي سيناء في كل فرصة تتاح لهم. ولعله السبب الأول الذي دفع بنشطاء من الأهالي في المدن المهمة في سيناء تحت أسماء وهمية مجهولة لإنشاء صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي وظيفتها تغطية أخبار سيناء التي لا يمكن أن يعثر عليها باحث في المواقع الإخبارية العامة والرسمية. وتعكس تغطيتهم الإخبارية من خلف هوية مجهولة الخشية من أن يكونوا ضحية عقاب الجيش المصري الذي أطلق حملته لإبادة الجماعات الإسلامية في سيناء منذ 2013.

إن أهمية الدور الذي يلعبه هذا النوع من "المراسلين" على مواقع التواصل الاجتماعي، تكمن في القدرة على تنفيذ أو رد تفاصيل البيانات التي ينشرها الجيش المصري والتي عادة ما تكون مقتضبة

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

وبحاجة إلى توضيح أو متضاربة بحاجة إلى تدقيق. فضلاً عن فتح باب مباشر مع العالم لسكان سيناء كي يعلو صوتهم بشأن الانتهاكات التي يتعرضون لها.

مواقع التواصل الاجتماعي والمصادقية

ويجدر الإشارة إلى أن الصفحات التي تغطي أخبار سيناء من نشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي لا تخلو من ثغرات في المصادقية لأنها تدار أحياناً على خلفيات سياسية وانحيازات في الآراء ولا تنقل الحقيقة كاملة أو بموضوعية، ولكن تعدد هذه الصفحات يسمح للمتابع بمقارنة الخبر والتحقق من صحته والإمام بتفاصيله وشهادات الشهود.

الحقوقيون والمراقبة

وقد منعت القوات المسلحة المصرية استخدام الكاميرات في سيناء، وهي جريمة تؤدي إلى الاعتقال. ووصلت الجدية في تطبيق هذا القرار أن أبلغت منظمة "هيومن رايتس ووتش" عن آلاف المدنيين الذين تمت محاكمتهم عسكرياً خلال العام ونصف الماضيين.

الاعتقال

أحد الحقوقيين المصريين يقول إن الأوضاع في سيناء غير واضحة أو مفهومة بالمرّة، لا سيما في ظل التعتيم الذي يفرضه الجيش والقوات الأمنية على طبيعة العمليات. ويوضح الحقوقي الذي لم يكشف عن هويته، بأن ملف سيناء حساس وشائك. وأن الأمر الثابت والمؤكد هو وجود انتهاكات جسيمة، تظهر جلياً من خلال متابعة ما ينشره ناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي، من معلومات عن قتلى وجرحى في صفوف المدنيين. ويعزز مصادقية هذه المعلومات الخبرة التاريخية المجردة التي تفيد بأن تدخل الجيوش في أي منطقة يقطنها مدنيون، يؤدي إلى حدوث انتهاكات جسيمة وسقوط قتلى وجرحى على إثر تلك العمليات العسكرية القاسية.

ويوضح الحقوقي المصري أن وسائل الإعلام المختلفة وحتى التي تأخذ طابع المعارضة تعاني التكتيم وسياسة المراقبة والتقييد، فلا تجرؤ على الحديث حول سيناء إلا في إطار المعلومات التي تصدر عن الجيش أو قوات الأمن تحديداً، ومع استمرار هذه السياسة المستبدة يبقى جانب معاناة الأهالي يتفاقم

ويقرر إعلامياً، وهو ما قد يكون له عواقب وخيمة لا يدركها النظام الحالي، من زيادة انفصال سيناء عن مصر وإحساس أبنائها بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية وبالتالي تتزايد أسباب التمرد واللجوء للسلاح.

منظمات المجتمع المدني أيضاً

التضييق لم يقتصر على وسائل الإعلام وحسب بل وصل مداه لكل منظمات المجتمع المدني وبالأخص الحقوقية، خاصة إن كان الأمر يتعلق بتوجيه انتقادات لعمليات تعذيب أو إهمال طبي في أماكن الاحتجاز، مما يجعل مسألة إصدار تقارير حول وضع حقوق الإنسان المتردي، صعبة ليس فقط لناحية تربية الجيش بأي شخص يتجرأ على الأمر، ولكن أيضاً لصعوبة توثيق هذه الانتهاكات، فإمكانية أن تصل منظمة حقوقية إلى سيناء لتتواصل مع الأهالي ولتكشف الستار عن عدد القتلى والجرحى تعد ضرباً من الخيال وتحد جنوبي.

وحسب شهود عيان فإن معاناة الأهالي في سيناء تتعدى الخسائر البشرية إلى الخسائر المادية التي يتكبدها الأهالي جراء عمليات القصف، فضلاً عن الأضرار التي تلحق بالقطاع الزراعي وقطع أرزاق الأهالي، دون أن ننسى نقص المياه وانقطاع التيار الكهربائي لفترات طويلة، إما عن قصد أو نتيجة إصابة الشبكات بقذائف وصواريخ، ويستغرق وقت إصلاحها الكثير من الصبر.

قصف

ويرجع مراقبون معاناة أهالي سيناء وحالة التكتيم التي يعانون منها إلى قانون الإرهاب الذي يحظر نشر أخبار تتعلق بالقوات المسلحة إلا من خلال مصادرها الرسمية.

الوضع الأمني

تتعرض مواقع عسكرية وشرطة وأفراد الأمن المصري في سيناء لهجمات مكثفة خلال الأشهر الأخيرة مما أسفر عن مقتل العشرات من أفراد الجيش والشرطة، وقد تبنت الجماعات الجهادية أغلب هذه الهجمات.

من جهته يستخدم الجيش المصري المروحيات الأباتشي والمقاتلات إف-16 الأمريكية، والمدركات في عمليات تستهدف مقرات تمركز ونشاط الجماعات الجهادية وكثيرا ما يقع المدنيون الأبرياء ضحية هذه الهجمات.

حالة الطوارئ

وتعتبر هذه المرة الثامنة على التوالي، التي يعلن فيها رئيس النظام المصري، عبد الفتاح السيسي، حالة الطوارئ في سيناء، وتحديدًا في مدن العريش والشيخ زايد ورفع، ويرى مراقبون أن هذا القرار لا يكرس فقط عملية التلاعب بالدستور المصري، تحديدًا المادة 154 منه، والتي تتعلق بآليات وإجراءات فرض حالة الطوارئ، بل يتسبب بوقوع خسائر بشرية ومادية وبانتهاكات قانونية في تلك المدن.

ورغم استمرار حالة الطوارئ إلا أنها تبدو بلا تأثير واضح على سير العمليات العسكرية ضد الجماعات الجهادية وعلى عكس ما يصدره النظام الحالي وأجهزته العسكرية والأمنية، حول ضرورة استمرار فرض حالة الطوارئ لما لها من تأثير كبير على مواجهة المسلحين، فإن حالة الطوارئ لم تتمكن من وضع حد ملموس للعمليات الجهادية، إذ تصاعدت حدة الهجمات على قوات الجيش والشرطة خلال الشهرين الماضيين، ليتراوح عددها بين 27 و30 عملية في غضون ثلاثة أسابيع.

السكان هم الضحية

إن حالة الطوارئ واستمرار عمليات القتال في سيناء تحولت إلى وبال على المدنيين، مع التوسع الكبير من قوات الجيش والشرطة المصرية في الانتهاكات التي وصفت بالمنهجية بحق أهالي سيناء، في ظل عدم القدرة الفعلية على بسط السيطرة على الأرض. وقد سجل سقوط مئات القتلى والجرحى من المدنيين من بينهم عدد كبير من النساء والأطفال، خلال العمليات العسكرية سواء بقذائف المدفعية أو صواريخ الطائرات الحربية، أو إطلاق الرصاص العشوائي على الأهالي وكأن الجيش المصري يريد الانتقام منهم جميعاً لفشله في وضع حد لهجمات الجماعات الجهادية.

أهالي سيناء اليوم هم أول متضرر من حالة الطوارئ التي تؤدي إلى تدهور الأوضاع الحقوقية، في ظل صمت منظمات المجتمع المدني التي لا تتاح لها الفرصة لتوثيق حجم الانتهاكات التي تصاحب العمليات العسكرية.

رفض شعبي لتمديد حالة الطوارئ

يرفض نواب وسكان محافظة شمال سيناء التصويت على تمديد حالة الطوارئ. والتي لا يرونها إلا إجراءً عقابياً لأهالي سيناء، لا سيما أن دماء المدنيين تسيل في كل مكان مع كل تحرك عسكري من قبل الجيش المصري، في ظل التوسع في القتل دون محاسبة لأحد. أصبحت الساحة تشكو ما يصفه أحد السكان بـ ”جرائم حرب“. ويرى شيوخ سيناء أن جميع الأهالي أُصيبوا بالملل من جراء المطالبات بوقف الانتهاكات بحق المدنيين، مع سقوط قتلى من النساء والأطفال. ويتساءل أحدهم: “لماذا يصرّ الجيش على عداة الأهالي...”

فحالة الغضب من الجيش والشرطة تتزايد يوماً بعد يوم، مع عدم وجود أفق لانهاء العمليات العسكرية، واستمرار الانتهاكات والقتل والتصفيات تحت ذريعة أنهم إرهابيون مع العلم أن الإرهابيين “لا يتواجدون وسط الأهالي كما يدعي الجيش، وبذلك ينفذون عمليات انتقام جماعي“. وقد تواترت شهادات الأهالي لتؤكد أن الحياة في سيناء باتت خربة، والأوضاع المعيشية سيئة للغاية، وانقطاع الكهرباء والمياه لا يتوقف.

ويشير شيخ قبلي من سيناء إلى أنه حتى في ظل رفع حالة الطوارئ، لا يتم وقف الانتهاكات بحق المدنيين، لا سيما أن هذه “الانتهاكات كانت موجودة قبل فرض الطوارئ، ولكن بالتأكيد زادت لأنه بات هناك غطاء قانوني ودستوري.“

كوارث إنسانية

أصوات كثيرة حذرت من كوارث إنسانية جراء استمرار حالة الطوارئ والتضييق الذي ينجم عن كمائن الجيش، ومنع دخول المواد الغذائية أو تأخرها ليوم أو يومين، لخشية القوات الأمنية أن تذهب إلى المسلحين. ويشعر الأهالي في سيناء أن الجيش المصري وضع المدنيين مع المسلحين في سلة واحدة، وهو ما يتضح في “تعامله وقصفه للمنازل والتهجير والقتل والتصفيات العشوائية والمنهجة.

تأخر سيناء عن الركب التنموي

تحت وطأة الحرب والصراع لا يمكن لسيناء أن تنعم بحركة تنمية أو تطوير للخدمات والبنية التحتية ورغم التبرعات التي وصلت الخزينة المصرية من دول الخليج لأجل هذا الهدف، إلا أن إطلاق مشاريع تنمية حقيقة لم تتحقق بعد، رغم كثرة الحديث عن مشاريع التنمية المعلنة لسيناء، والتي ترجع أسباب تأخيرها حسب الأجهزة الحكومية المصرية إلى المرحلة الأمنية غير المستقرة التي تعيشها المنطقة.

وهكذا فبعد مرحلة الإهمال التي شهدتها سيناء في عهد الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك، تبقى سيناء تنتظر تأثيراً ملموساً يلي احتياجات وطموحات الأهالي فضلاً عن تحقيق استقرار أمني يحفظ دماء سكانها وممتلكاتهم الذين أضحووا الضحية الأولى للممارسات اللامسؤولة للجيش المصري.

قوات متعددة الجنسيات في سيناء

نشر معهد دراسات الأمن القومي في إسرائيل، دراسة للباحث «أساف أوريون» حول الوضع في سيناء والقوات متعددة الجنسيات فيها. تؤكد الدراسة وجود القوات المتعددة الجنسيات في سيناء منذ ٢٥ أبريل عام ١٩٨٢، حيث وُضعت لمراقبة الترتيبات الأمنية بين مصر وإسرائيل. وفقاً للملحق الأمني في «معاهدة السلام» الموقعة بين البلدين مارس ١٩٧٩؛ وهذا لتأمين منطقة عازلة استراتيجية منزوعة السلاح بين مصر وإسرائيل في سيناء، كبديل عن وجود الجيش الإسرائيلي.

توصيات مؤتمر هيرتسليبا: كيف تستخدم الحكومة المصرية تنظيم الدولة لصالحها؟

لفت انتباهي الضجيج الذي أحدثته مؤخراً أصوات موالية لحكومة الانقلاب في مصر، حينما أشهرت مطالبها التي تعكس المخاوف التي تترتب بأرض سيناء الاستراتيجية منذ زمن غير بعيد، لقد بدأنا نسمع عن ضرورة إخلاء شبه الجزيرة الهامة في مصر لأجل أمن مصر!⁽¹⁾

في الواقع إن التطور الجديد يدفع بالعقلاء للعودة إلى أرشيف الخطط والدراسات التي تناولت مستقبل سيناء، والنظر في أصل هذه المطالبات خاصة عندما يكون الضجيج مرتفعاً من حناجر مناصرة لأنظمة وظيفية علاقتها مع "إسرائيل" لا تزال متألقة.

وبين دفاتر المؤتمرات الكثيرة التي أبرمت في ظهر هذه الأمة، وبدون علم أغلب أبنائها، طفا على السطح مؤتمر هرتسليبا السابع عشر الأخير، الذي عقد في الفترة ما بين 20 و 22 حزيران 2017م، تحت عنوان "ميزان الفرص والمخاطر على دولة "إسرائيل" بمشاركة ما يزيد على مئة وثمانين شخصية سياسية وعسكرية وأمنية، فضلاً عن شخصيات أكاديمية وإعلامية وقانونية من الكيان الصهيوني وخارجه. وبالنظر في ملفات المؤتمر التي تمت مناقشتها، وجدت أبرز ما اختص به المؤتمر ذلك الحديث بحرية عن علاقات التعاون الاستخباراتي والأمني بين الكيان الصهيوني والدول العربية، التي يشيّر لها رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو بالـ "الدول السنية المعتدلة"، ويقصد بها مصر والأردن والسعودية والإمارات، والتي تختص على الأقل بتوافق في الرؤى بين المؤسسة الأمنية والاستراتيجية في الكيان الصهيوني وبين الطبقة السياسية.

ودعونا نتأمل اسم المؤتمر "هرتسليبا"، وهو اسم مستعمرة على الساحل الفلسطيني شمالاً، والتي اقتبس اسمها من المؤسس الأبرز للحركة الصهيونية وأهم دعاة اليهودي "تيودور هيرتسل"، ما يعكس الأصل الذي بني عليه اسم المؤتمر، الذي بلا شك يعد جزءاً من المشروع الصهيوني الأوسع على أرض المسلمين.

(1) هذه المقالة كتبت في عام 2016م.

وهكذا بعد سبعين عاماً من تأسيس الكيان الصهيوني عام 1948م قدم القادة الصهاينة شكرهم للقادة العرب الذين باتوا أكثر تعاوناً مع كيانهم لنشتم بقوة رائحة التطبيع بين الكيان الصهيوني وبعض الأنظمة العربية وفي مقدمتها السعودية، الذي تجلّت ملامحه في عدة مناسبات ليس المقام للتفصيل فيها الآن.

القضايا التي تناولها المؤتمر

ثم لننظر في أول قضية أجمع عليها المتحدثون في المؤتمر، إنها عدم إمكانية إقامة دولة فلسطينية وأن أقصى ما يمكن التوصل إليه هو إقامة كيان أقل من دولة أو حكم ذاتي محدود بحجة أن "إسرائيل" غير مهيأة لإخلاء أعداد كبيرة من المستوطنين، لا نفسياً ولا اجتماعياً ولا اقتصادياً ولا أمنياً. وبأن مبدأ الأرض مقابل السلام الذي اعتمدت عليه اتفاقية أوسلو قد ثبت فشله بعد 24 عاماً، وأن البديل هو تبادل السكان والأراضي، وهذا ما يفسر السعي من الجانب الإسرائيلي للتوصل لتسوية إقليمية شاملة وتطبيع كامل وعلمي للعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول العربية كمدخل للتوصل لتسوية مع الفلسطينيين، وبالتالي الحصول على شرعية عربية لوجود "إسرائيل" وترسيخ مكانتها الدولية. وكذا التمتع بعمق استراتيجي وتعزيز التعاون الأمني مع الدول العربية والوصول إلى أعماق مما وصلوا إليه إلى حد الآن. دون أن ننسى فرصة إقامة علاقات اقتصادية تزيد من مدخولات "إسرائيل" 45 مليار دولار سنوياً.

ويقدم الكيان الصهيوني بديلاً عن معادلة "الأرض مقابل السلام" التي وصفها بالفاشلة، معادلة "تبادل الأراضي"، وبمعنى أبسط، الإحالة إلى مخططات "الترانسفير".

ولا شك أن مخططات "الترانسفير" هي جزء من ملخص خطة رئيس الأمن القومي الصهيوني السابق غيورايالاند أو ما يسمى بـ "فكرة الوطن الفلسطيني البديل" والتي هدفها توطين الفلسطينيين في سيناء كوطن بديل وإسقاط شرعية اللاجئين في العودة لبلادهم.

هنا نستخلص من جديد أن مؤتمر هيرتسليلا لم يأت بجديد إنما يعيد إحياء مخططات الصهاينة القديمة بثوب جديد ويمضي في تنفيذ أجندياته في المنطقة مستعينا بالحكومات العربية المتعاونة معه على رأسها حكومة السيسي.

وبالنظر في أحد أهم أهداف حكومة السيسي، الذي هو إطالة أمد سلطتها الطاغية على أرض مصر، فهذا يعني تعاوناً استراتيجياً مستمراً مع جارقتها وحليفاتها ”إسرائيل“، وبالتالي، تبادل المصالح يقضي بقبول التنازل عن سيناء.

دور حكومة السيسي في تمرير المخططات

وإن أقل ما يمكن حكومة السيسي فعله لتحقيق هذا الحلم الصهيوني العتيد، تعتمد إثارة مخاوف الشعب المصري واللعب على أعصابه بوجود تنظيم الدولة الإسلامية في سيناء، الذي يوفر لها أيضاً فرصة الابتزاز المتقن للمجتمع الدولي، ما يفتح الباب على مصراعيه لسياسة الاستبداد والقمع للشعب المصري وتمرير المخططات بالاستغلال من جهة والحصول على الدعم الدولي المستمر إلى أجل غير مسمى من جهة أخرى.

نشاهد بوضوح كيف تبرز حكومة مصر نفسها اليوم كجزء من المنظومة الدولية التي تحارب الإرهاب في العالم، وتحاول الظهور في المحافل الدولية والأحلاف العسكرية وغرف التنسيق الاستخباراتية كرقم مهم لا يستغنى عنه وهو كاف لبقاء حكومة العسكر أطول أمد ممكن.

ولا أشك أن حكومة السيسي لن تضيع الفرصة في استغلال وجود تنظيم الدولة في سيناء، لتعميق المخاوف المحلية من جهة ولفرض استراتيجيتها في الابتزاز دولياً ثانياً.

فنلاحظ أن مصر ما زالت تحتنق من توالي الأزمات الاقتصادية ومن الضغوط الاجتماعية منذ تولي سلطة الانقلاب الحكم، وفي نفس الوقت لا يصبّ إعلام الحكومة اهتمامه إلا على مقتل الجنود وإصابتهم هنا وهناك. وهكذا تدوب مطالب الشعب وحنقه في سيل الإرهاب النفسي.

ذلك الإرهاب الذي لن يتوانى نظام السيسي بهويله ببعض الأيدي الاستخباراتية الآثمة وتعميق المخاوف من النهايات على غرار السيناريو العراقي والسوري واليمني، ليستسلم الشعب المصري لمصير سيناء وينظر لها كورم وجب استئصاله أو بتره. ومع اقتراب الانتخابات المصرية في 2018م، سيكون السيسي بطلاً قومياً للمصريين إذ أنه قضى على الإرهاب وتخلص من تهديد سيناء وأنقذ البلاد وإن مات الناس جوعاً وإن حقق للصهاينة الحلم.

استعمال ورقة تنظيم الدولة

لهذا فإنه ليس مستبعدا أن يستعمل النظام المصري ورقة تنظيم الدولة بطريقة معاكسة لما يظهر للناس الآن، كأن يسمح لتنظيم الدولة بالصعود في سيناء ولو لفترة زمنية محددة.

ويبدو أن الخطوات من الجانبين تتجه لحصر سيناء بين سندان المخططات الصهيونية وسندان الخيانة من الحكومة المصرية، ما يجعلني أشاهد مستقبلا قاتما لسيناء يقترب.

أهمية الدور الأمريكي في توسع إسرائيل

ولا يفوتني هنا أن أذكر أهمية الدور الأمريكي والتحالف الاستراتيجي مع "إسرائيل" الذي يدفع بتحقيق الكثير من الإنجازات كتعزيز قوة "إسرائيل" ومكانتها الدولية، عدا الدعم العسكري والاقتصادي والغطاء السياسي الذي يمنحها القدرة على تنفيذ مخططاتها وجرائمها والتهرب من المؤسسات القانونية الدولية.

وفي الطرف الثاني مقاومة سنوية ضعيفة تتخبط، غير قادرة على التكاتف والتوحد لحفظ البلاد من الخطر المترص بها من كل جهة. فلم يبق لنا إلا أن نفضح المخططات ونسقط الأقنعة لعل وعسى أن يأتي الله بمن يرد هذا الكيد ويعيد لأمة الإسلام الحرية والمجد.

استشراق مستقبل سيناء على خلفية المطامع الإقليمية والتمرد السيناوي

إن المتفحص لخريطة التطورات الميدانية في شبه جزيرة سيناء الاستراتيجية، لا شك أنه قد أبصر ذلك التوتر الذي عرفته المنطقة بشكل بارز منذ ثورة 25 يناير 2011م حيث شغل شريط الأحداث فيها تزايد نشاط مجموعات مسلحة تقوم بتنفيذ عمليات عسكرية تستهدف غالباً الجيش والشرطة والقضاة من الحكومة المصرية والذي وصل آخر تحديث فيه لتزايد الأصوات الموالية لهذه الحكومة بالمطالبة بتهجير سكان سيناء بشكل عاجل. في وقت لا زال يحاول فيه النظام المحلي والدولي معاً منذ زمن بعيد ولأجل قائمة من الأهداف، رسم مستقبل جديد لهذه الأرض التي تجاذبتها سلسلة الأطماع والتنازعات للسيطرة عليها منذ عقود طويلة باعتبارها رقماً صعباً في خريطة التوازنات الدولية والإقليمية غالباً لموقعها الجغرافي الحساس.

وتأخذ سيناء شكل المثلث قاعدته الشمالية على امتداد البحر الأبيض المتوسط (من بور فؤاد غرباً إلى رفح شرقاً) بطول يبلغ قرابة 200 كم، أما رأسه فيقع جنوباً في منطقة رأس محمد (التي تبعد عن ساحل البحر الأبيض بحوالي 390 كم)، ويبلغ امتداد الحد الغربي لمثلث سيناء حوالي 510 كم (ويشمل هذا الامتداد خليج السويس وقناة السويس) أما امتداد الحد الشرقي فيصل إلى نحو 455 كم (ويشمل خليج العقبة والخط الوهمي للحدود السياسية الشرقية لمصر) (وتبلغ المساحة الكلية لشبه جزيرة سيناء حوالي 61,000 كم مربع، أي ما يقارب من 6% من إجمالي مساحة مصر (مليون كم مربع)).



ولن نتبحر الآن في الأهمية التاريخية والدينية لسيناء ولا في الحديث عن الثروات الطبيعية والموارد المادية والبشرية المتوافرة فيها بشكل مغرٍ، والتي جعلتها تحتل مكانة اقتصادية لا يستهان بها. ولكننا سنسلط الضوء على التطورات الميدانية التي شهدتها المنطقة ونحاول من خلالها استشراف مستقبلها.

فقد استعرت نار الحرب في سيناء بعد انقلاب 3 يوليو 2013م، لتتحول إلى أرض معركة - كما وصفها الأعلام-، ما فتح باباً عريضاً للتساؤلات حول الدوافع والتداعيات المنتظرة لهذا التطور. وقد اهتمت بعض الأبحاث والدراسات بسبر أغوار هذه المسألة وتخمين مستقبل سيناء مع الأخذ بعين الاعتبار الأطراف السياسية المختلفة في مصر سواء نظام السيسي والقوى المعارضة له وعلى رأسها الإخوان المسلمون أو الأطراف الإقليمية الأخرى كالاحتلال الإسرائيلي والفلسطينيين، أو دولياً اليونان وروسيا وأمريكا.

يمكن حصر قائمة الطامعين الرئيسيين في سيناء كما يلي:

- الاحتلال الإسرائيلي ذلك لأهميتها الدينية والاستراتيجية وطموحاته التوسعية لتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل.
- واليونان لأهميتها الدينية والتاريخية.
- إضافة إلى العديد من القوى الكبرى الطامعة في إقامة قواعد عسكرية في البحر المتوسط خاصة مع إنشاء روسيا لقاعدة عسكرية بحرية في طرطوس بسوريا، والإعلان عن إنشاء قاعدة عسكرية أمريكية بحرية في حيفا.
- هذا دون أن ننسى المطامع الإقليمية والدولية في قناة السويس.

وفي ضوء هذه المعطيات استخلص المراقبون خمس سيناريوهات تنتظر مصر في أفق مستقبلها.

السيناريو الأول

(الفوضى المحكّمة)، وهو ما يعني استمرار الوضع القائم في سيناء ربما لعدة سنوات أخرى مقبلة، ويحكم هذا الوضع عوامل متغيرة قد تزيد من عمر الفوضى وتمدها، منها:

• إصرار عبد الفتاح السيسي على تقديم نفسه بأنه جزء من المنظومة الدولية التي تحارب الإرهاب في الشرق الأوسط، ما سيدفع النظام الدولي لدعم موقعه في مصر.

• استفادة السيسي من هذا الوضع لصرف الانتباه عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها مصر من خلال تسليط الضوء على مقتل ضابط مصري هنا أو جرح جندي هناك.

• استغلال نظام السيسي الوضع لإقصاء معارضيه بإرسالهم إلى سيناء وشغلهم عن دوائر التأثير الرئيسية في مصر.

• الاستفادة من سياسة ترهيب الشعب المصري، فيظهر السيسي نفسه بشكل الحامي والمدافع عنه، وأن غيابه يعني النهايات المأساوية.

• تضخيم الحقائق نتيجة تدخل الأيدي المخابراتية المصرية بجعل تنظيم الدولة في سيناء “البعبع” الذي لا بد من التصدي له.

• تخطيط نظام السيسي للتخلص من سيناء وإقناع المصريين أنها صدع حقيقي في الأمن القومي المصري، خاصة مع تصاعد أعداد القتلى من الجنود؛ وفي ظل رغبة الأهالي في عدم إرسال أبنائهم إلى سيناء.

وفي ظلّ هذا السيناريو يتوقع بروز المعارضة المصرية أيضا: فلا شك أن المشهد الحقيقي للقوى الثورية المصرية المعارضة يعكس ضعفا تبرره انشقاقات داخلية؛ وتشنتت المواقف إزاء القضايا المصرية؛ والتي طفت على السطح خاصة بعد انقلاب 3 يوليو، ما يعدّ نتيجة طبيعية لاعتقال القيادات المؤسسة والوازنة في قوى المعارضة من قبل نظام السيسي. يسندها المواقف الدولية الداعمة للانقلاب؛ وافتقار هذه المعارضة لأدوات قوية على الأرض مؤثرة وضاغطة على نظام السيسي بشكل ملموس.

كل هذا يجعل ما يجري في سيناء فرصة لهذه القوى لإثبات وجودها أمام القوى الإقليمية والدولية لتأكيد أن أحداث 3 يوليو لم تقض عليها. فضلا عن الاستفادة من تأكيد حقيقة أن السيسي يتجه بمصر إلى الحرب الأهلية في سيناء.

وستتجلى في هذا السيناريو من جهة أخرى تدخلات الاحتلال الإسرائيلي

فالعارف بسياسات الاحتلال الإسرائيلي وبالنظر في مبادئه ونظرياته فقد أدرك صفة الانتهازية التي يتميز بها هذا المغتصب، ما يجعل الوضع في سيناء فرصة على طبق من ذهب قد يستغلها هذا الاحتلال بأبشع الطرق. وذلك بانتهاز الفرصة للتعاون مع نظام السيسي الضعيف باسم محاربة المسلحين، مقابل حصوله على معرفة أدق عن كل ما يدور في سيناء، في الميادين الأمنية والاقتصادية والاستراتيجية. وربما مواصلة الحصار على قطاع غزة، في وقت أوضحت تقارير الأمم المتحدة تؤكد أن الوضع فيها قد تدهور كثيرا بسبب الحصار وأن الاستمرار على نفس الوتيرة يعني أن القطاع في عام 2020م سيصبح منطقة غير صالحة للعيش.

وربما لإضعاف قوات الجيش المصري وتحين فرصة السيطرة على سيناء بحجة ضعفه، ويصب هذا كله في مصلحة مشاريعه التوسعية في أرض يعتبرها مقدسة تاريخيا لليهود ومن حقه.

وقد تستفيد المقاومة الفلسطينية في هذا السيناريو أيضا، فرغم تدمير عدد كبير من الأنفاق الواصلة بين مصر وقطاع غزة والتي كانت بمثابة نظام مواصلات تسمح باستمرار المصالح التجارية وأعمال المقاومة. وربما تستفيد المقاومة من هذه الأوضاع المتغيرة في تمرير بعض صفقات الأسلحة لغزة مروراً بسيناء. وقد تكون عبر البحر أو البر؛ أو بحراً ومن ثم برا.

وبهذا المشهد الشامل للتحركات المتوقعة للقوى الفاعلة في سيناء، نكون قد لخصنا مجمل الأسباب التي ستسمح بإطالة مدة الصراع الحالي وهو تحديداً فحوى السيناريو المحتمل الأول. لننتقل الآن إلى دراسة السيناريو المحتمل الثاني.

السيناريو الثاني تقسيم سيناء

يرى المراقبون احتمالية تقسيم سيناء خياراً غير مستبعد ولكن قد يتحقق بأشكال مختلفة:

- إما بإنشاء منطقة حدود آمنة يقيمها الاحتلال الإسرائيلي، بحجة تأمين نفسه من التهديد الذي تسببه هذه المنطقة على أمنه القومي.

- وإما بضم جزء من سيناء إلى منطقة قطاع غزة وهو ملخص خطة رئيس الأمن القومي الصهيوني السابق جيورايلاوند أو ما يسمى بـ "فكرة الوطن الفلسطيني البديل" وهي فكرة قديمة متجددة هدفها توطين الفلسطينيين في سيناء كوطن بديل وإسقاط شرعية اللاجئين في العودة لبلادهم.

وفي الواقع فإن مشروع إعادة توطين الفلسطينيين على أرض خارج فلسطين مشروع قديم جداً وإن طفى على السطح في لقاء السيسي مع عباس في الخامس من أيلول/ سبتمبر 2014 حين اقترح أن يتم إقامة الدولة الفلسطينية على 1600 كم مربع من مساحة سيناء. بحيث تكون هذه المساحة امتداداً لقطاع غزة.

وتعود أصول هذا المشروع إلى مقترح يتسحاق عيتسيون و دافيد تترسكي في 1954م أو ما يسمى بتأسيس لجنة تُسمى "سلطة تأهيل اللاجئين" تقترح ترحيل الفلسطينيين خارج أراضي الاحتلال بحجة عدم قدرة الاحتلال تجاوز المشاكل الديموغرافية، وهو ما عرف بسياسة الإبعاد. ليتحور هذا المقترح مع مرور السنوات إلى خطة جيورا إيلاوند لتقسيم سيناء في عام 2004م.

حيث اقترح الميجور جنرال الإسرائيلي المتقاعد جيورا إيلاوند رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي (2004-2006م)، إقامة وطن بديل للفلسطينيين في سيناء؛ وهو مقترح نشره مركز بيكن- السادات للدراسات الاستراتيجية في منتصف يناير 2010م ويسمى خطة التبادل الثلاثي للأراضي. ونصت الخطة على مضاعفة مساحة غزة مرتين أو ثلاث مرات، وذلك بضم 600 كيلو متراً مربعاً من سيناء إلى القطاع. بما فيها 20 كيلومتراً مربعاً على طول ساحل البحر المتوسط.



وفيما يخص إسرائيل؛ فإنها ستقوم بنقل أراضي تخضع لسيطرتها في منطقة وادي فيران بجنوب صحراء النقب إلى مصر، وتعتمد مساحة تلك الأراضي على المفاوضات متعددة الأطراف. كما أنها ستلتزم بالانسحاب من قطاع غزة.

وتحصر الدراسات التي تناولت هذا المشروع الخطط الموصلة لتحقيقه بعدة سيناريوهات، منها نشوب حرب قاسية على غزة تجبر سكانها على الفرار إلى سيناء والاستيطان فيها، أو قد تفرض خطة ممنهجة، يسمح من خلالها نظام السيسي لأهل غزة بالتملك في سيناء وشراء الأراضي والعقارات، وربما قد يتحقق نتيجة أخذ المقاومة الفلسطينية قراراً بالسيطرة على منطقة جغرافية محددة تمثل عمقا أمنيا لقطاع غزة وذلك لسوء الأوضاع في سيناء ولضرورة تأمين غزة.

وعودة لسيناريو التقسيم فقد يصبح واقعا أيضا مع قيام تنظيم الدولة بالسيطرة على منطقة جغرافية محددة؛ مثل شمال شرق سيناء “رفح - الشيخ زايد”؛ بسبب تنامي المناصرة للسلفية الجهادية هناك. مع العلم أنها استراتيجيا لا تنفع لسيطرة جماعات مسلحة كونها أرضاً منبسطة وغير آمنة وكونها بجوار اليهود.

وأخيرا قد يتحقق التقسيم بسبب إنشاء منطقة خاضعة للنفوذ اليوناني بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا يرجع لوجود دير “سانت كاترين” التاريخي والأثري، الذي يقع على جبل سانت كاترين وهو أعلى قمة في مصر ويبلغ ارتفاعه حوالي 2641 متر فوق سطح البحر. وقد ظهرت مؤشرات لهذا الاحتمال منها - تواطؤ أجهزة الدولة وبأوامر مباشرة من نظام مبارك تسمح للرهبان بالسيطرة على مساحات كبيرة وتشيد أسوارا هائلة بالكيلومترات. وكذا مساهمة الاتحاد الأوربي في التأسيس لهذه المنطقة كتمويل خط توصيل مياه النيل إلى سانت كاترين بتكلفة 18 مليون يورو. كما تم رصد 71 موقعا في سيناء كأماكن للدير، والمواقع التي تم حصرها وضع عليها علم اليونان.

وفي حين تطورت الأوضاع في سيناء بهذا الاتجاه فإن تقسيم سيناء سيكون ضربة قاسية يستفيد منها الاحتلال الإسرائيلي بالدرجة الأولى، ويتحقق معها تخطيطاته الماكرة في توسيع نفوذه وتمدد دولته.

السيناريو الثالث

وهو نتاج التدخلات الدولية. والتي قد تتجلى في أشكال مختلفة منها شكل الحماية الدولية ، أين يستجيب المجتمع الدولي للمطالب اليهودية في التدخل للقضاء على تنظيم الدولة في سيناء خاصة مع فشل نظام السيسي في هذه المهمة، ويتم نشر قوات دولية لتصبح المنطقة تحت الوصاية الدولية. ولا يكلف المشروع أكثر من زيادة أعداد القوات الأمريكية الموجودة أصلا في سيناء؛ مع زيادة في الصلاحيات والمهام المنوطة بها داخل سيناء.

وقد يظهر هذا التدخل الدولي باحتلال خارجي مباشر لسيناء؛ إما بإرسال الولايات المتحدة الأمريكية قوات إضافية إلى شبه جزيرة سيناء، بحجة قتال تنظيم الدولة الإسلامية، أو بتوسيع النفوذ الروسي في المنطقة نظرا لتصريحات الخارجية الروسية بحق بلادها في الدفاع عن نفسها في أعقاب تفجير الطائرة الروسية A321 في سيناء المصرية الذي تبناه تنظيم الدولة الإسلامية.

السيناريو الرابع

ثم تعرض الدراسات التي تستشرف مستقبل سيناء السيناريو الرابع وهو سيطرة تنظيم الدولة عليها. وحسب بعض الإحصاءات فإن تنظيم الدولة بسيناء بات يسيطر على مساحات واسعة من قرى مدينتي رفح والشيخ زويد ولفترات زمنية محددة، على الرغم من الحرب التي يقودها الجيش المصري هناك. وقد يظهر تواجد تنظيم “الدولة” بسيناء على قرى “الفيئات، والزوارعة، والتومة، وأبو العراج” الواقعة في جنوب غرب الشيخ زويد.

ومن العوامل التي قد تساعد تنظيم الدولة في السيطرة على سيناء نجاحه في إبرام تحالف مع العائلات والعشائر البدوية فيها، وكسب تعاطفهم بسبب مذابح القوات المصرية الكبيرة في حق العائلات الكبرى في هذه المنطقة.

ثم أيضا إذا نجحت الأجهزة الأمنية الصهيونية في اختراق تنظيم الدولة لتتحكم بتوجيهه وفق مسار أهدافها. وقد يستغل هذا السيسي بنفسه ويسمح لتنظيم الدولة بالسيطرة على سيناء لفترة زمنية محددة بهدف ابتزاز الدول الكبرى والحصول على دعم. وتعزيز حكمه في مصر على اعتبار أنه بدوره محارب ضد الإرهاب في سيناء.

احتمال آخر لنشوء هذه السيطرة وهو في حال تدفق مقاتلون لتنظيم الدولة من سوريا والعراق وليبيا فرارا من الحرب الشرسة التي يتعرضون لها هناك فيدفعون بثقلهم في سيناء ويطبقون حكمهم فيها.

للسيناريو الخامس: وهو الاحتلال الصهيوني المباشر

لا شك أن المتابع للإعلام اليهودي قد لمح ذلك التركيز اليومي في تغطية الوضع الأمني في مصر وتحويل عواقبه ما ينذر بحملة تمهيداً للأسوء. وبالنظر في قائمة الأسباب التاريخية والدينية التي تربط سيناء باليهود، فإنها تبقى على سلم أهدافهم الأولى كوطن قومي لليهود. وقد سبق وأن اقترح هرتزل مشروعاً أسماه مشروع العريش ليمنح اليهود امتيازاً باستغلال الأراضي الواقعة في شبه جزيرة سيناء التي تحيط بمنطقة العريش وتبلغ مساحتها 630 ميلاً مربعاً، وكان من المقترح أيضاً إنشاء أنفاق تحت مياه قناة السويس لتمير 51 ألف متر مكعب من المياه كل ثانية.

ولم تنزل أطماع اليهود بارزة رغم ما حصلوا عليه من تنازلات في معاهدة السلام وتجلت في توالي الدعوات التي ترددت أن مصر لا تحتاج إلى شبه جزيرة سيناء، وأن إسرائيل من الضروري أن تسيطر على سيناء حتى لو اضطرها الأمر إلى إعطاء مقابل مادي عن هذه الأراضي. وتجدد الإشارة إلى أن الأجهزة الصهيونية تؤمن بضرورة عزل سيناء تماماً عن مصر لتكون بمثابة قاعدة آمنة للمشروع الاستيطاني، كما يؤمن الصهاينة وعلى رأسهم بيجن أن الاحتلال الإسرائيلي أفدر على تعمير سيناء من المصريين أنفسهم.

وأمام هذه الحقيقة فليس أمام الاحتلال الإسرائيلي إلا احتلال أجزاء من سيناء لإقامة حزام أمني على مدى الحدود على مسافة تتراوح بين خمسة إلى 7 كيلومترات من شبه جزيرة سيناء، بحجة تأمين حدوده مع مصر وهذا الخيار يحظى بمباركة المجتمع الدولي.

أو بتقديم الدعم لبدو سيناء من أصول وجنسيات مصرية الذين يدينون لليهود للقيام بشورة مسلحة وإشاعة الفوضى بوسط وشمال سيناء، بهدف فصل شبه الجزيرة نهائياً عن مصر وإقامة دويلة صغيرة فيها تكون موالية للكيان الصهيوني وتقوم الأخيرة بحمايتها عسكرياً وتوفير الغطاء الدولي لها.

ويكفي النظر لنتائج استطلاع الرأي الذي تم في الذكرى الـ 35 لتوقيع المعاهدة المصرية الصهيونية الذي أظهر أن 89% من الصهاينة يؤيدون إعادة احتلال سيناء.

ورغم أن المؤشرات الراهنة تشير إلى أنه في الفترة القريبة لن تتعرض سيناء لتغيير دراماتيكي وأن حظوظ السيناريو الأول: "الفوضى المحكمة" تبقى الأقوى. إلا أنه وعلى المدى البعيد يظهر أن فرص سيناريوهات التدخلات الخارجية في سيناء، أو تبادل الأراضي، أو هيمنة إسرائيل عليها، تميل كفتها للرجحان بشكل أقوى، خاصة بالنظر للصراعات البينة بين القوى الكبرى التي تتسابق في فرض هيمنتها على الشرق الأوسط وتحديد روسيا وأمريكا، وبالنظر للمخططات التقسيمية المرسومة منذ زمن بعيد لمنطقة الشرق الأوسط، وأيضاً لفشل نظام السيسي في تأمين منطقة سيناء، وفتحه باب الاجتهادات الدولية.

أضف لذلك اكتشاف الغاز على شواطئ العريش، وأهمية قناة السويس، وكذا العلاقات الاستراتيجية التي تربط بين الاحتلال الإسرائيلي والدول الكبرى. وفي الإجمال كل هذه الأسباب وغيرها تدفع باتجاه فصل سيناء عن مصر، بغض النظر عن صيغة هذا الفصل، ومستوياته، ومراحله، والأطراف المستفيدة منه وهو ما يجب رفع درجة الوعي به، وتتبع تطوراته بإحاطة تامة بهذه التفاصيل وبالطامع اليهودية الماكرة.⁽¹⁾

(1) المراجع تقارير وبحوث من الشبكة.

ما سر تصاعد عمليات “الذئب المنفرد” مؤخرا في الغرب؟! (الجزء الأول)

لقد تصاعد عدد الهجمات التي ينفذها الذئب المنفرد في الأشهر الأخيرة في الغرب،⁽¹⁾ لتشغل عناوين الأخبار والتحليلات في مختلف الوسائل الإعلامية والمحطات الفضائية بل ولتخطف اهتمام مراكز الأبحاث والدراسات الغربية، ولا شك أن بروز هذه الظاهرة بهذا الشكل في حين يخوض الغرب حربا شرسة على ما يسمى “الإرهاب” وفي حين رفعت الدول التي تعتبر أهدافا معلنة لدى الجماعات “الإرهابية” سلم الحذر وسقف المراقبة لكل ما يتحرك أو يسكن على أرضها أو في سمائها، لا شك أنه أمر ينذر بالخطر ويحمل دلالات ويعكس توقعات، وبالنظر في تفاصيل العمليات الأخيرة والتدقيق في خلفية تنفيذها فإن الاستنتاجات الأولية تؤكد أن الظاهرة لم تقتصر على الجماعات المصنفة إرهابية بل بدأت تتخذ منحى مقلقا للغرب يحتاج لوقفة ودراسة وهذا ما أكده موقع ديلي بيست الأمريكي حين اكتشف بأن 98% من جرائم الإرهاب في أوروبا و94% في أمريكا منفذهها ليسوا مسلمين.

إحصاء مختصر

يوليو 2016

- آخر الهجمات المسجلة إلى الآن استهدفت فرنسا في 26 يوليو 2016م حين قتل كاهن ذبحاً في عملية احتجاز رهائن نفذها رجلان في كنيسة في سانت إتيان دو روفريه في شمال غرب فرنسا والعمليّة تبناها تنظيم الدولة الإسلامية.
- وفي نفس اليوم 19 شخصاً قتلوا، وأصيب 25 آخرون بعد هجوم نفذه رجل يحمل سكيناً على منشأة للمعاقين بوسط اليابان فيما يعد أسوأ واقعة قتل جماعي في اليابان منذ عقود.
- وقبلها بيومين فقط في 24 يوليو 2016م ولكن هذه المرة في ألمانيا فجر لاجئ سوري نفسه في وسط انسباخ في بافاريا بالقرب من مهرجان موسيقي. أوقع 15 جريحا والعمليّة تبناها تنظيم الدولة الإسلامية. رغم أن مهاجم أنسباخ كان لاجئاً سورياً يبلغ السابعة

(1) نشرت المقالة في عام 2016م.

والعشرين من عمره، وهو يملك تاريخاً من محاولات الانتحار وفقاً للشرطة الألمانية، وطلبه للجوء كان قد رفض فكان الرد بالتفجير.

- وفي **18 يوليو 2016م في ألمانيا أيضاً**، هاجم شاب في السابعة عشر من العمر يعتقد أنه لاجئ أفغاني أو باكستاني ركاب قطار في بافاريا بفأس مما أدى إلى إصابة خمسة أشخاص بجروح قبل أن تقتله الشرطة، والعملية تبناها تنظيم الدولة الإسلامية.
- وقد تم إحصاء أربع هجمات في ألمانيا لوحدها خلال أسبوع واحد فقط، ثلاث منها نفذها لاجئون، وجميعها في المنطقة البافارية ولا تتصل ببعضها البعض.
- في فرنسا مرة أخرى صدم التونسي مُجدّ الحويج بو هلال بشاحنته حشوداً في مدينة نيس في **14 يوليو 2016**، حيث أسفرت الحادثة عن مقتل 84 شخصاً. وأعلن تنظيم الدولة مسؤوليته عن هجوم نيس.
- كما أعلنت شرطة ميونخ يوم الجمعة **22 يوليو 2016** بأن 9 أشخاص قتلوا، جراء إطلاق النار في مركز للتسوق في محيط المركز الأولمبي في المدينة، إضافة إلى إصابة 16 آخرين. منفذ الهجوم كان ألمانياً من أصل إيراني، يبلغ من العمر 18 عاماً.

يونيو 2016

- بعد يوليو الذي كان ساخناً، هجمات أخرى تم رصدها في شهر يونيو أهمها تفجيرات **28 يونيو 2016** في تركيا والتي استهدفت ثلاثة تفجيرات منها مطار أتاتورك الدولي في إسطنبول موقعة 47 قتيلاً.
- في **13 يونيو 2016** في فرنسا رجل يحمل سكيناً قتل مسؤولاً في الشرطة ورفيقته في منزلهما غرب باريس وأعلن ولاءه لتنظيم الدولة الإسلامية.
- وفي أمريكا هذه المرة بتاريخ **12 يونيو 2016م** أطلق مسلح النار داخل حانة للمثليين في أورلاندو بولاية فلوريدا الأمريكية وقتل 49 شخصاً وقد تبني تنظيم الدولة الإسلامية الهجوم رغم تضارب الروايات في أصل المنفذ حيث تؤكد بعض المصادر أن المنفذ إيراني

الأصل من المذهب الشيعي، وأنه استجاب لنداء أحد رجالات الشيعة الذي فرّ لإيران مباشرة بعد تنفيذ العملية، ولم تكشف التقارير مدى مصداقية كلتا الروايتين المتضاربتين.

مارس 2016

- في 22 مارس 2016م انتقلت الهجمات إلى بلجيكا حيث قتل 32 شخصاً وأصيب أكثر من 300 في مطار بروكسل ومحطة مترو مالبيك قرب مقر مؤسسات الاتحاد الأوروبي. ويبدو أن منفذيها من عناصر الخلية نفسها التي نفذت اعتداءات باريس في نوفمبر 2015م.
- في 19 مارس 2016م في تركيا اعتداء في ساحة الاستقلال في إسطنبول أدى إلى مقتل أربعة سياح، ثلاثة إسرائيليين وإيراني.

يناير 2016

- في 12 يناير 2016م كذلك في تركيا قتل 12 سائحا ألمانيا في هجوم في وسط إسطنبول.

سنة 2015م.

- في 2 ديسمبر 2015م في الولايات المتحدة أطلق باكستاني وزوجته النار خلال حفل في مناسبة عيد الميلاد في سان برناندينو بولاية كاليفورنيا ما أدى إلى مقتل 14 شخصا.
- هجمات منسقة ضربت باريس في 23 نوفمبر 2015م أسفرت عن مقتل 130 شخصاً وإصابة أكثر من 350 في قاعة حفلات ومقاه وملعب “ستاد دو فرانس”. وقد أعلن تنظيم الدولة الإسلامية مسؤوليته عن هذه الهجمات.
- في 31 أكتوبر 2015م في مصر هذه المرة، تحطيم طائرة إيرباص تملكها شركة روسية على متنها 224 شخصاً فوق سيناء إثر تفجير، وقد أعلن تنظيم الدولة الإسلامية مسؤوليته.
- في 26 يونيو 2015م في تونس قتل مسلح 38 شخصاً بينهم 30 سائحاً بريطانياً في فندق على شاطئ سوسة التونسية.

- وقبله بأكثر من ثلاثة أشهر هجوم مماثل استهدف متحف باردو في تونس وأسفر عن 22 قتيلاً بينهم 21 سائحاً أجنبياً. وتبني تنظيم الدولة كلا الهجوميين.
 - في 16 يوليو 2015 أسفر هجوم في الولايات المتحدة على مركز تجنيد في تينيسي ومركز لاحتياطي البحرية عن أربعة قتلى من المارينز وبحار برصاص مسلح وحيد.
 - وفي 8 يناير 2015 في فرنسا قتل مسلح شرطية في ضاحية باريس قبل أن يهاجم متجراً يهودياً في اليوم التالي ويقتل أربعة أشخاص معلناً ولاءه لتنظيم الدولة.
 - وقبل ذلك بيوم، استهدف الشقيقان كواشي الأسبوعية الفرنسية الساخرة شارلي إيبدو بهجوم داخل مكاتبها في باريس أسفر عن 12 قتيلاً تبني العملية فرع تنظيم القاعدة في جزيرة العرب ثاراً لرسول الله -ﷺ- إثر نشر الصحيفة لرسومات ساخرة لم ترع فيها مشاعر المسلمين ولا مكانة نبيهم الكريم وقد جاءت هذه العملية في سلسلة عمليات أعلنتها تنظيم القاعدة ضد كل من أساء لرسول الله كان منها عمليات اغتيال لمدونين في بنغلاديش نشروا إساءات من هذا القبيل تبناها فرع التنظيم في شبه القارة الهندية.
- هذا الإحصاء دون أن نضيف العمليات التي صنفنا ضد مجهول أو حملت الشكوك في تورط ذئب منفرد، ويعكس الأمر تصاعداً ملحوظاً في تنامي هذه الظاهرة في الغرب.

تصنيف الظاهرة

إن ظاهرة الهجمات الفردية التي يطلق عليها هجمات الذئب المنفرد أطلقت أول مرة بتحريض من الجماعات المصنفة إرهابية في سجلات الخارجية الأمريكية، إلا أن بعض المحللين والباحثين يرفضون تصنيفها في خانة "الإرهاب" بصفة عامة فهم يميزون بين حالات وظروف تنفيذها، فمنهم من يعاني مشاكل نفسية أو اجتماعية أو سياسية، يحمل مظالم أو غضباً ويتحيز الفرصة للانتصار لهذه الدوافع في وسط شعور من العجز والقهر، ثم يترجم هذا الشعور مرة واحدة إلى رد فعل عنيف على أهداف سهلة الاستهداف.

وتكمن خطورة هذا النوع من الهجمات في كون اكتشاف الجهة التي خططت لذلك في حال نجاح المخطط أو فشله يكاد يكون معدوماً وأن الضربات تكون مستقلة لا تحتاج لمقدمات وتمهيدات قد تؤدي لكشف آثارها، فضلاً عن أن الفرد المستقل يتحمل لوحده مسؤولية عمله، فلا يتأثر أحد غيره في حال اعتقاله ولا يمكن ربط العملية بأختها أو استدراج الشبكة.

والذئب المنفرد صاحب مظهر عادي لا يلفت الانتباه يتصرف بين الناس بكل عفوية، لكنه حين التنفيذ ينقلب إلى خطر حقيقي قد يهدد أمن دولة برمتها ويُعجز أعتى أجهزة الاستخبارات فضلاً عن وسائل المراقبة والتتبع. وليس بحاجة لتعلم صنوف الأسلحة النارية وإعداد المتفجرات، فيكفي أن يسوق شاحنة أو يحمل سكيناً أو فأساً أو يقدم على إحراق المكان ليحدث الأثر المرجو من هجومه. وظهور الذئب المنفرد لا يرتكز على نظام ثابت أو نظرية معينة أو تنسيق متواتر أو ارتباط محدد، بل هي العشوائية وعدم الانتظام التي تميّز ضرباته غير المتوقعة.

عمرو منصور يجلل الظاهرة

عمرو منصور المتخصص في شؤون الجماعات الإسلامية رأى أنه من الصعب إن لم يكن مستحيلاً التصدي لعمليات الذئب المنفرد أمنياً، فهي تحاكي استراتيجية انتفاضة السكاكين في فلسطين التي لم تستطع إسرائيل كبح جماحها. وأضاف:

الذئب المنفرد هي أن يستيقظ شخص من نومه مقرراً أن ينفذ عملاً إرهابياً دون تنسيق مع أحد أو في أضيق الحدود، فمهما كانت سيطرة الأجهزة الأمنية لن تستطيع توقع العملية ومنعها

أغلب الذئب المنفرد المسلمة تقودهم مشاعر الرغبة في الانتقام من الحكومات الغربية التي تمارس سياسات مجحفة بحق شعوبهم، أو لظلم وقع من هذه الحكومات بحق المسلمين في الغرب أو في أي مكان كان. إلا أن الشعور بالظلم أو الغضب لم يقتصر على المسلمين، بل حتى المنفذون من أصول إيرانية أو غربية يحملون ذات الدوافع من شعور بالظلم أو رغبة في الانتقام بدوافع الكراهية والأمراض النفسية والاضطراب الذي خلفته الحضارة الغربية في نفوس الكثير من الشباب التائه الذي يلجأ بنسب معتبرة للانتحار رغم الرفاهية والترف الذي يعيشه هؤلاء “الذئب.”

لمحة عن تاريخ الظاهرة

برز مفهوم الذئب المنفرد بقوة بعد اجتياح الجيوش الأمريكية العراق وأفغانستان وإعلان بوش مقولته الشهيرة: "أنا حرب صليبية إما معنا أو ضدنا".

وبعد إطلاق تنظيم القاعدة في جزيرة العرب مجلته الشهيرة "إنسباير" التي كان يقف على إعدادها خبراء في التدريب والهجمات والمتفجرات، وحملت في طياتها موسوعة من المعلومات العسكرية والعملية التي تسهل على الذئب المنفرد التخطيط والإعداد وتحديد الأهداف دون الرجوع لجماعة تكفل له ذلك. وقد سببت هذه المجلة ثورة أمنية في أجهزة الاستخبارات في الغرب باعتبارها تحمل أسرار الهجمات التي يصعب ترصدها، لأنها تعتمد غالباً على مواد متوفرة في الأسواق العامة. ومن أخطرها ما نشرته المجلة في أحد أعدادها لطريقة تسمح بتصنيع المتفجرات من داخل المطبخ، وأيضاً ما تحمله من بث للأفكار المحرّضة على الهجمات ضد الغرب ومصالحهم، كما كان في حادثة محاولة تفجير طائرة ركاب أمريكية أو الطرود المتفجرة والتي أصابت الغرب في حالة هلع كبير.

لكن لا بد من التأكيد على أن هذه الهجمات الفردية لا ترتبط فقط بالمسلمين وبشأن أهل السنة لقضاياهم بل هي موجودة في مختلف الديانات والأيدولوجيات وبشكل مرتفع في الطبيعة الأوروبية؛ مثال على ذلك هجوم ميونخ الأخير أو الطائرة المدنية التي أسقطها مساعد الطيار الألماني فوق جبال الألب الفرنسية قبل أكثر من عام، أو عملية النرويجي أندراس بريفيك، الذي قتل 77 شخصاً في أوسلو عام 2011م، وكما سبق وأن أحصينا عملية اليابان والهجوم الأخير على مركز للمعاقين.

ما وراء الظاهرة

يسعى الإعلام العالمي لتصوير الذئب المنفرد كإرهاب موجه لحرب الغرب داخلياً لمجرد الرغبة في الدمار والقتل ورؤية لون الدم، رغم أن نسبة تردده مقارنة مع عدد عمليات الإرهاب الأوروبي بنفسه لا تعدد، وفي الحقيقة فإن هذا التصوير يتجاهل حقيقة الدوافع التي تقذف بمثل هؤلاء الأفراد إلى المخاطرة بحياتهم وحياة أهاليهم لتحقيق أكبر تدمير أو خسائر تلحق بالغرب، وهو أن سياسات الغرب الخارجية هي السبب الرئيسي في رفع درجة العدوان الداخلي المتمثل في هجمات الذئاب المنفردة.

فالمناصرة المستمرة لإسرائيل بتهميش كامل لجرائمها بحق الشعب الفلسطيني، والحروب المفتعلة في ديار المسلمين ونهب الثروات، ودعم الأنظمة الوظيفية، وقصص الاختطاف السري والسجن في ظروف التعذيب اللاإنساني الذي ذاع صيته من (أبو غريب وغوانتانامو) وغيرها، فضلاً عن فتح باب الحريات في شتم الدين الإسلامي وإهانة المصحف والاستهزاء برسول الله -ﷺ- وغيرها من الاعتداءات بحق المسلمين ودينهم ومقدساتهم، كل هذا وغيره كان السبب في تغذية شعور الانتقام والدفع بهؤلاء الذئاب لمرحلة توجيه الضربات في داخل الأراضي الغربية.

والدليل على هذا التفصيل أن العمليات المنفردة ليست بالضرورة مرتبطة بقيادة مركزية للجماعات “الإرهابية” وإن كانت في بعض الحالات تتم بتمويل من جماعات بذاتها، إلا أنه في كثير من العمليات يكون العمل اختيارياً وبتمويل شخصي وقد يعلن التنظيم الذي تعاطف معه المنفذ مسؤوليته عن العملية في إطار حرب نفسية على الأعداء. وكثيراً ما تحصل هذه العمليات باستجابة فردية لنداءات الاستغاثة والتنديد التي تنطلق من بلاد المسلمين نتيجة حرب العراق وأفغانستان دون أن ننسى قلب هموم الأمة الإسلامية “فلسطين”.

الحديث عن الذئاب المنفردة لن يتوقف عند هذا الحد، وستحدث في الجزء الثاني من هذه المقالة عن أهم الإحصائيات والدراسات التي خرجت بخلاصات مثيرة للاهتمام عند دراسة هذه الظاهرة.

ما سر تصاعد عمليات "الذئب المنفرد" مؤخراً في الغرب: دراسات وأبحاث

وصلنا في الجزء الأول من مقالتنا حول ظاهرة تصاعد عمليات الذئب المنفرد في الغرب_ إلى نتيجة مهمة وهي أن نصيب المسلمين في أصل هذه العمليات التي تحدث في الغرب يبقى ضعيفاً مقارنة مع إجمالي عمليات الذئاب المنفردة في ذات الأرض. إلا أن الإعلام الغربي دأب على تصوير العمليات التي ينفذها مسلمون، بشكل يظهر الإسلام كدين عدوان وظلم وإرهاب للأبرياء. وبوصف الذئاب المنفردة من المسلمين بأنهم مبرمجون لإحداث القتل والدمار لمجرد القتل والدمار، تدفعهم الكراهية للغرب على طريقة المتطرفين.

بينما نظرة واحدة في رسائل هؤلاء الذئاب التي يرسلونها قبيل تنفيذ عملياتهم، تكفي لتؤكد أن الدافع الأول لإقدامهم على هذا النوع من العمليات هو الانتقام من سياسات الغرب التي فتت العالم الإسلامي وأوهنته، والسخط من حالة القهر التي تعيشها الأمة المسلمة بمن فيها شبابها الذي فقد الكثير من الأمل في حياة مستقرة كريمة مزدهرة كما يعيش بقية شباب الغرب. وكثيراً ما يكون المنفذون غير ملتزمين ظاهرياً بتعاليم الإسلام، إلا أن تعاطفهم مع قضايا المسلمين كان أكبر من أن يُسيطر عليه.

حول الإرهاب في الغرب

سنتناول الآن الإحصائيات التي حددت ملامح عمليات الذئاب المنفردة، حيث جاء في الإحصائيات حول الإرهاب في أوروبا منذ 1970 إلى سنة 2016م، أن أغلب الهجمات التي استهدفت فرنسا، طيلة هذه الفترة تندرج ضمن خانة العنف السياسي:

الجبهة الوطنية لتحرير كورسيكا، ومنظمة "إيتا" الباسكية، وجبهة تحرير بريستون، والجنح اليميني المتطرف، والجيش السري لتحرير أرمينيا ومجموعة النازيون الجدد..

في حين أن الهجمات التي نفذها مسلمون ما بين 2015م و 2016م تبقى جدّ محدودة بالمقارنة مع السجل الحافل من العنف السياسي في الغرب. وفي نفس الاتجاه ذهبت الإحصاءات التي سجلت في إسبانيا، وبلجيكا وبريطانيا، وما أكده تقرير المؤشر العالمي للإرهاب لسنة 2015م، حيث تصدرت الهجمات التي ينفذها أفراد لم يثبت انتماؤهم إلى أي تنظيم إرهابي للذئاب المنفردة بـ 164 هجمة في مقابل 74 هجمة من جهات متعددة، وذلك ما بين 2006م و 2014م، وكشف أن نحو 67 في المائة من هذه الهجمات مصدرها العنف السياسي، وأن ما يتعلق بالأصول الإسلامية لا يتعدى 19 في المائة.

دراسات

ومع الفقر النظري في باب دراسة وتحليل ظاهرة “الذئب المنفرد”، نجد أن هناك خلافات كبيرة حول الأسس التي يمكن الحكم من خلالها على أي هجوم إرهابي، بأنه من تنفيذ “ذئب منفرد”، ففي إحدى الدراسات الأخيرة، يشير العلماء إلى أن ظاهرة الذئب المنفرد جاءت نتيجة تصورات من وسائل الإعلام والجهات الفاعلة السياسية الراديكالية، وليس لها أساس في العلوم الاجتماعية أو المصطلحات القانونية، وقد حاولت دراسة كل من أورلاندي دانزل وليساندرا مونتانيز من جامعة ميرسي هيرست، نشرت في دورية Behavioral Science of Terrorism and Political Aggression في سبتمبر 2015. تقديم ملخص للاقترابات الثلاثة المحددة لمعايير تحديد هذه الظاهرة وتفسيرها.

وكانت الدراسة الجديدة بالاهتمام بعنوان “ظاهرة الذئب المنفرد: تقييم الملفات الشخصية الحالية Understanding the lone wolf terror phenomena: assessing current profiles” بسطت استعراضاً للنظريات التي دُرست لفهم هذه الظاهرة، باعتماد ثلاث حالات عملية لذئاب منفردة، أمكن من خلالها وضع استنتاجات وخلاصات نظرية:

أول هذه الحالات، حالة “تيد كاتشينسكي”



أحد أكثر الذئاب المنفردة موهبة على الإطلاق؛ ولد في 22 مايو 1942م في شيكاغو، ونشأ وترعرع في أسرة ملحدة. كاتشينسكي خريج جامعة هارفارد وعالم في الرياضيات قام بتخطيط وتنفيذ 16 تفجيراً منفصلاً على مدار 17 عاماً، مما أسفر عن مقتل 3، وإصابة 23. مكلفاً مكتب التحقيق الفيدرالي الأمريكي أطول وأعلى تحقيق في تاريخه.

بعد فترة انعزال عن المجتمع وخلال الفترة من 1978 إلى 1995م، بدأ كاتشينسكي سلسلة طويلة من التفجيرات في أنحاء البلاد، استمرت، حتى تم القبض عليه في 3 إبريل 1996م.

الحالة الثانية حالة – “تيموثي ماكفي”



يميني متطرف، وجندي سابق في الجيش الأمريكي. وُلد في 23 إبريل 1968م، في نيويورك يعتبر ماكفي العقل المدبر لتفجير مدينة أوكلاهوما، في 19 إبريل 1995م، الذي أدى إلى مقتل 168

شخصاً، وإصابة أكثر من 500 شخص، ولا يزال يُعتبر أعنف حادث إرهابي محلي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

التحق تيموثي بالجيش الأمريكي، وشارك في حرب الخليج الثانية عام 1991م. وهناك ظهرت ميوله العدوانية والشرسة في التعامل مع الخصوم، خاصة اتجاه زملائه السود. وخرج تيموثي من الجيش بسبب آرائه المتطرفة والمعارضة للحكومة، حيث رأى أن ممارسة العنف ضد الحكومة يأتي بسبب شعور المواطنين بالظلم. وضع تيموثي مركبة مُفخخة أمام أحد المباني الفيدرالية في مدينة أوكلاند خلال ساعات النهار حتى يتمكن من حصد عدد كبير من الأرواح، وقد تم إعدامه في 11 يونيو عام 2001م.

الحالة الثالثة حالة “نضال مالك حسن”



وهو ضابط طبيب عمل في الفيلق الطبي بالجيش الأمريكي، وُلد في 8 سبتمبر 1970م، في ولاية فيرجينيا من أصول فلسطينية، وتمت إدانته في حادث إطلاق نار على زملائه في مركز “فورت هود” بولاية تكساس، في 5 نوفمبر 2009م حيث قتل 13، وأصاب 32 آخرين. أصبح نضال معادياً للجيش الأمريكي بسبب تدخلاته العسكرية في أفغانستان والعراق. فحاول ترك الحياة العسكرية، ولكن تم التضييق عليه، ولم يُسمح له بذلك. وفي 5 نوفمبر 2009م، حمل نضال سلاحه وأطلق النار على زملائه، وقد حُكم عليه بالإعدام في 28 أغسطس 2013م.

ملخص الاقترابات الثلاثة المحددة لمعايير تحديد ظاهرة الذئب المنفرد جاءت حسب الدراسة كالتالي:

1. الاقتراب التعريفي:

هو أحد الاقترابات الذي يوفر أطراً نظرية مفيدة لتحديد العناصر الرئيسية لظاهرة الذئب المنفرد، حيث حدد أحد هذه الأطر ثلاثة معايير لازمة لإطلاق مسمى "الذئب المنفرد" على العمل الإرهابي، وهي:

- أن تتم بشكل فردي.
- ألا ينتمي مُنفذ العملية لتنظيم إرهابي.
- أن يتم التخطيط للعملية دون تدخل أي عناصر خارجية أو قيادات هيراركية (مرتبية).

أما معهد الاتحاد الأوروبي للدراسات الأمنية، فقد سلّط الضوء على عدة مبادئ أساسية في تعريف ظاهرة "الذئب المنفرد"، وهي:

- أن يكون هناك تمييز واضح بين الذئب المنفرد والعمليات الإرهابية التقليدية، فعلى الرغم من أن الذئب المنفرد يمكن أن يحصل على دعم أحد التنظيمات الإرهابية الكبيرة، إلا أنه لا يتلقى دعماً مادياً مباشراً من هذا التنظيم، ويعمل وحيداً.
- أن من ينفذ العملية الإرهابية يجب أن يكون شخصاً منفرداً، وليس اثنان أو شبكة صغيرة.
- قد يكون الذئب المنفرد متعاطفاً مع جماعة إرهابية ما، أو ينتمي إلى نفس أيديولوجية هذه الجماعة، ولكن لا يجب أن يكون جزءاً من هيكلها التنظيمي.

2. الاقتراب المعياري:

يتضاءل حجم الأدبيات التي باتت تستخدم القصور العقلي كمدخل وحيد لتفسير ظاهرة الذئب المنفرد. وقد حاول عدد محدود من العلماء وضع عدة نماذج تفسيرية لفهم هذه الظاهرة من أكثر من منظور. إحدى هذه المحاولات تمثلت في تصنيف الذئب المنفرد إلى خمس فئات:

العلماني، غريب الأطوار، المتدين، ذو القضية الواحدة، المجرم الجنائي.

فكل تصنيف من هذه التصنيفات يكون لديه نوع من التحركات التي تُساعد على تفسير سلوك الذئاب المنفردة بشكل أفضل، والتي قد تكون دفاعاً عن قضية سياسية أو قومية أو إثنية. أو لدوافع شخصية أو اضطرابات نفسية. أو يتحرك باسم الدين، كالعنصريين البيض والنازيين الجدد بحسب وجهة نظر الدراسة. وإما لمناصرة قضية واحدة تدخل في دائرة انتماءاته أو اهتماماته. وأخيراً، هناك من يمارس الإرهاب في سبيل كسب الأموال "المجرم الجنائي".

تصنيف آخر وضع أربعة أبعاد أساسية لظاهرة الذئب المنفرد:

أولاً: التطرف:

وهو أحد الأبعاد التي اتفق جميع العلماء على أنها جزء أساسي في هذه الظاهرة، والاختلاف الوحيد في هذا البعد هو كيفية تطور التطرف، عن طريق التنشئة الاجتماعية أم عن طريق عوامل ذاتية.

ثانياً: العوامل المحفزة:

ويتراوح هذا البعد بين الإرهابي الأناني الذي يضع نفسه في مكانة أسمى من القضية ذاتها، والإرهابي الذي ينكر ذاته ويضحى بنفسه في سبيل القضية.

ثالثاً: شكل العمل الإرهابي:

وهنا يجب التمييز بين الحدث الإرهابي الواحد والأحداث التسلسلية، وهذه الأحداث إما أن تكون فوضوية أو وظيفية، وهو الأمر الذي لا يُمكن استنتاجه إلا عقب وقوع الحادث.

رابعاً: درجة المخاطرة المقبولة من جانب الإرهابي:

فهناك من يبحث عن المخاطرة، وهناك من ينفر منها قدر الإمكان.

3- اقتراب التطرف:

يُعتبر أقل الاقترابات تطوراً بين العلماء فيما يتعلق بظاهرة الذئب المنفرد، ولكنه اقتراب واعد، قد يحمل في طياته الكثير لتطوير دراسة هذه الظاهرة، ويعرّف بأنه: "عملية شخصية، يتبنى الفرد خلالها مثلاً

وتطلعات سياسية أو اجتماعية أو دينية متطرفة، ويسعى لتحقيق أهداف هذه التطلعات من خلال استخدام العنف العشوائي".

وبشكل عام، فإن عملية التطرف هي "مسار نفسي، إذا توافرت الظروف المناسبة لها، يمكن أن تلحق بأي شخص أو جماعة أو أمة". وبالنسبة للآليات التي يمكن أن تؤجج التطرف الفردي؛ فإنها تتلخص في المظلمة الشخصية، أو المظلمة الجماعية. وخلافاً للإرهابيين التقليديين، فإن الذئاب المنفردة تجمع في كثير من الأحيان بين الثأر الشخصي والمظالم الدينية أو السياسية الجماعية، فهي معاً تُشكّل دافعاً قوياً لتحدي السلطة الحاكمة، مع ملاحظة أن معظم عمليات الذئاب المنفردة تحمل تحدياً للسلطات السياسية.

وفي المحصلة، نجد أن هدف الذئب المنفرد لا يتمثل فقط في تحقيق العدالة (معاينة المخطئ)، ولكنه يسعى إلى الانتقام (أن يقوم هو بمعاينة المخطئ).

من خلال تحليل الحالات الثلاث السابقة، أمكن إثبات أنه من الصعب وضع أنماط ثابتة للذئاب المنفردة، لأن هذا قد يجعلنا نغفل عن عدد كبير من الإرهابيين قيد التشكيل، كما أن هذا التمييز مقياس أحادي لظاهرة الذئاب المنفردة، بينما أثبتت دراسات الحالة أنها ظاهرة متعددة الأبعاد.

وهو ما يظهره الجدول التالي الذي يُلخص دراسات الحالة السابقة:

المعلم الشخصية الرئيسية	نيد كانتشينسكي	تيموثي ماكفي	نضال مالك حسن
هل تلقى مساعدة للقيام بعمله الإرهابي؟	لم يتلق	دعم مادي	دعم روجي (معتقدات دينية)
السن	أواخر الثلاثينيات والأربعينيات	أواخر العشرينيات	أواخر الثلاثينيات
التعليم	دكتوراه	الدراسة الثانوية	أستاذ في الطب
المحيز	أيدولوجي	سياسي	ديني
الخبرة العسكرية	لا توجد	توجد	توجد
الطفولة	انطوائي/ تعرض للاضطهاد	اجتماعي/ تعرض للاضطهاد	متدين/ هادئ
المرض العقلي	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
أهدافه	مناصري التكنولوجيا/ عموم الناس/ الأفراد	الحكومة/ عموم الناس	الجنود/ عموم الناس

خلاصة دراسة دانزل ومونتانيز

وقد مالت دراسة دانزل ومونتانيز في خلاصتها إلى اقتراب Internal Pack Conflict Theory قد يكون الأكثر فائدة ودقة في التعامل مع ظاهرة الذئاب المنفردة. حيث تفيد هذه النظرية بأنه بغض النظر عن نشأة الفرد "الذئب المنفرد" (الاجتماعية (منعزل/اجتماعي)، فإنه غالباً ما يتعرض لحزمة من الأزمات والصراعات الاجتماعية على مدار حياته بشكل متصاعد، تؤدي إلى جنوحه نحو التطرف. فبنسبة كبيرة، الذئاب المنفردة هم أشخاص لفظهم المجتمع.

الولايات المتحدة الأكثر استهدافاً

لقد تصاعدت هجمات الذئاب المنفردة في الولايات المتحدة وفي عديد من الديمقراطيات في الغرب مثل بريطانيا وألمانيا، بناء على ما نشرته إحدى الدراسات، حيث شهدت هذه الدول 198 هجمة إرهابية نفذها الذئاب المنفردة، في الفترة من 1970 إلى عام 2000م. كما أوضحت الدراسة أن هجمات الذئاب المنفردة على الولايات المتحدة قد زادت بنسبة 45%، فهي الدولة الأكثر استهدافاً

في الفترة من 1990م حتى 2013م، بنحو 46 عملية، بنسبة 63% من إجمالي العمليات على مستوى العالم.

ويبدو أن ارتفاع هذه النسبة في الولايات المتحدة يرجع من جهة لزيادة قناعات المسلمين في أن سياسة الولايات المتحدة كانت وراء تأزيم الوضع في بلدانهم مما أثار موجة استياء وانتقام ظهرت في عدة عمليات للذئب المنفرد، ومن جهة أخرى للاضطرابات التي يعيشها بعض الأمريكيين الذي فشلوا في التعايش مع نظم الحياة الأمريكية كما رأينا مع كاتشينسكي وتيموثي ماكفي.

وأكدت الدراسة أن ظاهرة الذئاب المنفردة لم تصبح تهديداً أمنياً هائلاً فحسب، ولكنها باتت تفرض مزيداً من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية على المجتمعات في الغرب مما دفع الباحثين والمحللين إلى بذل مزيدٍ من الجهود النظرية للكشف عن أنماط الأفراد المعرضين للتحويل إلى ذئاب منفردة، وتقوية أواصر الإرهاب العالمي في محاولة لتفادي مثل هذه الهجمات وتأمين استقرار بلاد الغرب⁽¹⁾.

(1) إرهاب قيد التشكل: كيف يتحول الأفراد لـ"ذئاب منفردة"؟... المعايير والاقترابات المفسرة.

الإعلام الغربي .. بين النزاهة والعمالة

حين يتردد الحديث عن الإعلام الغربي، تتراءى للأذهان تلك الحرية والمصادقية والتفاني في الإلتقان والتطوير وذروة السبق الصحفي! إلا أن التجارب في معترك حرب تقوم هنا، وأخرى تخمد هناك، وتدافع الأحداث التي تكشف الحقائق والمفاجآت من عمق بلاد الغرب ومن خارجها، يبدد تلك الصورة الأولى لتحل محلها الدقة في الحكم والنقد الثاقب للإعلام الغربي. كلما اقتربت حقيقة دامغة من محيط هذه الرؤيا، لا بد أن يقترب معها التشخيص الحقيقي لحالة الإعلام الغربي، والتي تؤكد بكل وعي وإدراك أن الإعلام الغربي ليس إلا آلة حرب وسياسة في أيدي أرباب الحرب والسياسة الغربية.

توصيف الإعلام الغربي

لقد أجبرت ساحات الاصطدام بواقع الحقيقة الإعلام الغربي ليكشف عن سرعته في الإيقاع، وسطحيته في تناول الموضوعات، وتفاديه الغوص في الجوانب العميقة للقضايا، أو موضوعات المناقشة. يعتمد على الشكل والصورة والأداء ليحدد المفاهيم التعريفية والسياسية والثقافية والاجتماعية المعقدة فتؤثر في خلق وتكوين الصور العامة المسيطرة في المجتمع فارضة التعميط العام للقضايا.

الإعلام الغربي يخاطب شعبه بلغة التميّز والذكاء والتحرر والسبق لكل الأمم، وينعت غيره من الشعوب وعلى رأسها المسلمة بالأمية والتخلف والرجعية. ويستعين في ذلك بالمتقنين والمتعلمين لبث الأفكار المضللة بخلفية مضللة، حين يجعل النقد حقاً وواجباً، ونزع القيود والأغلال في بسط الرؤى المختلفة بين المتناظرين من سمات الحرية في الرأي والارتقاء في فكر الإنسانية والبشر. لكنه يوظفها في الأخير لإعادة صوغ العقليات والمفاهيم وطرائق التحليل والنظر للأشياء بشكل يبعد عن العدالة والإنصاف وإن كان يلبس لبوسها.

حرب الخليج فضحت عمالة الإعلام الغربي

لقد احترف الإعلام الغربي طرق صناعة الرأي العام والتأثير فيه وتوجيهه لمآرب السياسة والحرب-وإن اضطر إلى أبشع صورها- كما كشفت لنا حرب العراق الأولى حين تجرأت قناة "السي أن أن" على تصوير الأحداث في استوديوها لتوهم المشاهد بأن البث مباشر من أرض العراق. وحدث حينها ولا

حرج عن كمّ الكذب والتضليل الذي بثته هذه القناة وأخواتها كشريكها في جريمة التضليل “فوكس نيوز” حين أصبح العراق تخفي أسلحة الدمار الشامل التي لم يعثروا عليها إلى لحظة كتابة هذه الكلمات. وكان ثمن الحرب الضروي في نظرهم وبكل بساطة، الملايين من أرواح المسلمين تزهق عدواناً وظلماً، فكشفت زيف الادعاء وسقوط معايير المصداقية والنزاهة الإعلامية للإعلام الغربي والتي في الواقع لم توضع إلا لدعم الحرب في ذلك الوقت رغم أنف المبادئ والقيم الإعلامية بل والإنسانية.

ولا شك أن تغطية أخبار حرب الخليج من الإعلام الغربي قد آذت المسلمين، الذين اكتشفوا انخيازه لسياسات دوله بطريقة فجّة متغطرسة وغير مقبولة. ويعرف الجميع أن الصحافيين حُجزوا في فنادق بغداد، وكثيراً ما منعوا من الخروج. فكانت المعلومات المحددة ترد إليهم وفق رؤية وحاجة القيادة العسكرية. بهذا الشكل أثرت القيادة العسكرية الغربية في الإعلام وحددت مساحة تغطيته ومدى تأثيره.

جرائم إسرائيل توثق نفاق الإعلام الغربي

ولا زالت جموع المسلمين تستنكر تلك الطريقة الاستفزازية في الترويج لجرائم إسرائيل وتصويرها أمام العالم في صورة المظلومة المعتدى عليها، بينما تأبى وسائل الإعلام المحايدة بالصوت والصورة إلا أن تؤكد إجرامها مع سبق الإصرار والترصد. فكم من حدث مرّ في أرض فلسطين سالت فيه الدماء البريئة وصعدت فيه صرخات الاستغاثة وتكررت فيه مأساة الثكالي والأيتام نقله الإعلام الغربي موجهاً أصابع الاتهام للضحية وممجداً صنيع الجلاد. إنه الإجرام الإعلامي الغربي الذي صنع خصيصاً لمساندة دولة إسرائيل التي زرعت في قلب الأمة الإسلامية بغفلة منا حين ابتعدنا عن ديننا وهنأنا خلف خلافاتنا وانشغلنا بالزائل فزالت معه آمال همنا.

كيف يصل الإعلام الغربي بغيته؟

من يرجع إلى الخلف قليلاً ليتتبع الطريقة التي تعمل بها الآلة الإعلامية الغربية سيجد أن الإعلام يعتمد على الإعلانات التجارية وبيع الصور والبرامج واستهداف الشريحة المؤثرة والغالبة في مجتمعهم والتي تنجذب بقوة إلى السرعة والإثارة والأداء المبهر. إن الإعلام الغربي تحول من خانة نقل المعلومات إلى

خانة صناعة المعلومات، ليصل إلى درجة الاحتراف-مع الوقت- في التأثير على الناس وإعادة تشكيل المواقف والآراء.

وما يثنيه عليه المعجبون به وما يضربونه من أمثلة حول قوته وحرية وإنسانيته في الواقع هو أساس بقاء الإعلام الغربي، فلولا مساحة الحرية التي يرفع شعارها لما كان له تأثير، إنها المساحة التي يتم التلاعب بها وفق سياسة مأكرة تظهر الحرية تارة وتقمعها أخرى حسب حاجة المخرج. ولا شك أن الحرية في الطرح والاحترافية في طرق صناعة الخبر وتقديمه للناس، والقالب التقني المتطور الذي يعرض فيه وسرعة الأداء توسع الشريحة المتأثرة بهذا الإعلام، وهذا ما عمد له الإعلام الغربي بقوة.

الإعلام الغربي وقضايا المسلمين

حين يشاهد الناس أن مساحة الحرية في الإعلام الغربي متسعة سيلجأون إليه على قناعة بأن معلوماته ستكون أكثر صحة ودقة وحيادية. في حين أن أي قراءة للمواضيع التي تتناول العالم العربي والواقع الإسلامي تكشف زيف البناء وتخبط الكتاب والمناقشين، وتفضح بُعدهم عن واقع البلاد المسلمة، بل واستخفافهم في مرات كثيرة بالمسلمين وتصويرهم للقضايا بأبشع صورة وتهويل البسيط وتبسيط المهول!

قيد السياسة الخارجية

وكون الإعلام الغربي يؤمن مساحةً للحرية وسقفاً مرموقاً لقول الحقيقة أو بعضها، ويضفي بعض الحيادية والموضوعية في طرح المواضيع لا يعني استقلالته، فهذه الحرية تعمد تماماً حين يتعلق الأمر بالتأثير على الرأي العام في نقاط ساخنة تتصل مباشرة بالسياسة الخارجية، خاصة التي تمس المصالح في بلاد المسلمين، ولهذا فشعوبهم تتمتع بتلك المصادقية في الشؤون الداخلية بينما تحرمها وهي لا تدري وقد تدري، في الشؤون الخارجية.

فالحكومات الغربية تحرص على سياسة الانفتاح والفضفضة والنقد المفتوح في إعلامها الذي يتناول القضايا الداخلية والخاصة بشعوبها، ولكن حين يتعلق الأمر بالمسلمين والسياسات الخارجية فلا بد من تحييد الخبر وتكميم الأفواه والحد من المواضيع وحجز المعلومات. وبهذا الشكل لا يشك متابع أن القضية تفتقد المصادقية، لأنه يعتمد على مصادقية هذا الإعلام في غير موضع. مثال على ذلك خبر مقتل ثلاثة طلبة مسلمين في منزلهم في نورث كارولينا في أمريكا يوم الثلاثاء 10 شباط/فبراير. الذي

أعقب إهماله في الإعلام الغربي استهجان المئات على شبكات التواصل الاجتماعي، الذين نددوا بهذا الغياب الملحوظ لأية أخبار عن الجريمة في مختلف وسائل الإعلام الغربية في حين كان هذا التكتيم يخدم السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

إن الصحافة الغربية لا تتردد في استخدام الأسلوب الاستخباري للترويج لموقفها السياسي، وللابتزاز السياسي في آن، وقد تكرر هذا كثيراً خلال حروبها في بلاد المسلمين كأفغانستان والعراق وفلسطين وسوريا. وبالتالي، تستدرج اتهامها بأنها ليست صحافة حرّة، أو مستقلة، كما تريد من صحافة العالم الآخر.

مواجهة الحقيقة

وللأسف فإن حالة الإعلام العربي أسوأ لافتقاده الحرية اللازمة لتناول واقع البلاد المسلمة، مما يدفع المسلمين إلى تتبع الإعلام الغربي نظراً إلى ضيق مساحة الحرية والرقابة المفروضة على المعلومات والأخبار في بلدانهم. والحقيقة التي لا بد أن يعيها المسلمون هي أن الإعلام الغربي الذي يتستر بالمصداقية والخبرة والإمكانات الجذابة، ليس منصفاً بالمعنى المطلق وليس مهنيّاً وليس متحرراً. هذه أصبحت ثوابت اليوم علينا ترسيخها في أذهاننا. إنما الإعلام هو لصالح السياسات والمصالح، التي لا تخرج عن طاعة قرارات الدولة العليا، فتقدم هذا الخبر، وتمحو أثر ذلك الخبر، وتشوه الحقيقة في هذا، وتركز بسطحية على ذلك، وتنتقد بقوة هذا، وتكتم أي صوت لرد نقد بالذات! وهكذا.. فالحرية إذا مقيدة في كل مكان حين تتصل بالمصالح أو تهدد أمن الدول وسياساتها العليا. وأبلغ ما يصف الإعلام اليوم مقولة القائد الألماني، جوزف غوبلز: "أعطني إعلاماً بلا ضمير، أعطك شعباً بلا وعي".

فأيها الناس تفرسوا ما تقرأون وتخبروا من أين تتثقفون وتخبرون، فإن المياه تعكرت، وخير زاد الذهن في هذا الزمان الإبحار في مجاري الأنهار التي توصل للبحر، لا لمستنقعات الطين والوحل!

من هي عافية التي استنزفت جهد الإرهاب الأمريكي؟

عافية في سطور

عافية صديقي امرأة مسلمة من أصل باكستاني ولدت في عام 1972م وأم لثلاثة أولاد، تميّزت منذ صغرها بالنباعة ولا زالت كذلك حتى برعت في مجال الأعصاب وفي تحسين نظم التعليم للأطفال المعاقين تحديداً، نالت لهذا التميز 144 شهادة فخرية وكانت المرأة الوحيدة التي حصلت على الدكتوراه الفخرية من جامعة هارفرد الأمريكية.

أمضت عافية طفولتها ما بين باكستان وزامبيا، وعندما بلغت 18 عاماً توجهت إلى تكساس حيث يعيش شقيقها قبل أن تلتحق للدراسة في جامعة أم إي تي المرموقة وحصلت على شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب من جامعة برانديز. اشتهرت بجهودها في المجال الدعوي. وفوق إنجازاتها الأكاديمية كانت حافظة لكتاب الله.

الرواية الأمريكية السخيفة

الرواية الأمريكية تتهم عافية بأنها حاولت نسف مكتب الحاكم الإقليمي في غزنة وحاولت قتل ضباط أمريكيين في أفغانستان.

وطبقاً لوثائق المحكمة فقد كانت عافية تحمل كيلوغرامين من سيانيد الصوديوم مخبأة في زجاجات كريم مرطب، ولنا أن نتخيل كيلوغرامين كاملين، كيف يمكن تعبئتها في زجاجات كريم مرطب التي عادة ما يكون حجمها صغيراً! فكم زجاجة كريم مرطب وسعت هذه الكمية لتحملها عافية معها؟

• تمثيلية هوليودية سخيفة الحبكة

بل يزعم الأمريكيون وبكل وقاحة أن عافية، كانت تنوي القيام بـ “هجوم شامل” في الولايات المتحدة وعلى أهداف من بينها شمال الحرية لأن بجوزتها هذه الزجاجات التي تحتوي على “مواد كيميائية.”

وطبقاً لنفس المحكمة كانت عافية تحمل خطأً لحرب كيميائية وخطأً هندسية لجسر بروكلين ومبنى إمباير ستيت في نيويورك. وخلال التحقيق أمسكت ببندقية وأطلقت منها النار، بحسب شهود عيان الذين هم أنفسهم جنود وعملاء أمريكيين. وأطلقت النار على الأمريكيين بينما كانت تصرخ "الموت لأميركا" و"أريد أن أقتل جميع الأمريكيين". ورغم هذا الموقف الذي يحمل كل الفرصة في الإثخان في هؤلاء الجنود، لم يصب أي من الجنود الأمريكيين بل على العكس هي التي أصيبت برصاصات.

وحقيقة من ينصت للرواية الأمريكية يشعر وكأنه يشاهد تمثيلية هوليودية سخيطة الحكمة. تجعل من الضحية التي تلقت رصاصات في بطنها: القاتل، بينما لم يصب جندي "مستهدف" واحد بخدش!

لقد قُدمَ وصف إطلاق النار هذا في يوليو 2008م من قبل الادعاء العام. ومما لا شك فيه أن هناك حادثة وقعت وتعرضت عافية لإطلاق النار، وبعد ذلك أخذتها مروحية إلى قاعدة باغرام الجوية حيث قام المسعفون بجراحة للبحث عن الرصاصات التي استقرت في بطنها.

الرواية الحقيقية والواقعية:

الحقيقة أنه وبعد 5 سنوات من التعذيب والأسر أخرجت عافية فجأة إلى شوارع أفغانستان وسلمت ابنها أحمد وحقيبة لمصير مجهول، خرجت عافية تائهة لا تدري أين تذهب ليتم توقيفها وتفتيشها من قبل القوات الأفغانية لتتفاجأ أن الحقيبة التي سلمت لها كانت تحتوي مخططات للتفجيرات. فاعتقلت من جديد وهي لا تدري ماذا يحدث! وبينما عافية في قسم الشرطة الأفغانية يزعم الأمريكيون أنها غافلت الجندي وأخذت سلاحه وخرجت من خلف الستار تطلق النار على الجنود الأفغان والأمريكان لكنها لم تصب أحداً. ثم صارت الجنود فأطلقوا النار جميعهم عليها دفاعاً عن أنفسهم!

• شهادات متضاربة

لكن شهادة الجنود الأمريكيين تضاربت إذ أن منهم من قال إنها كانت تطلق النار وهي جالسة ومنهم من قال إنها كانت واقفة. أما الحقيقة فعافية كانت خلف الستار، ولما سمعت أصوات الأمريكيين تذكرت سنوات العذاب والقهر التي عاشتها في باغرام فأطلقت من خلف الستار تبحث مكاناً للهرب، فرآها أحد الجنود وصاح إنها طليقة، قبل أن يطلق عليها النار عدة مرات في بطنها، حتى كادت تموت، ولم تستعمل عافية سلاحاً، بل إن

زعم الادعاء في القضية أن الثقوب التي وجدت في حائط قسم الشرطة كانت بسبب إطلاق عافية النار، كشف كذبه فيديو قديم لقسم الشرطة أوضح أن هذه الثقوب قديمة من قبل أن تطأ عافية قدمها في القسم.

• هكذا وبدون أدلة

الفترة التي بقيت فيها عافية تتعالج من إصابتها في سرير في باغرام، منعت من أي زيارة إلا من عملاء الاستخبارات الأمريكية وبما أنه لم يوجد أي دليل جنائي على أن عافية أطلقت النار على أحد! تم نقلها إلى نيويورك بعد 7 أيام فقط من الحادثة دون إجراءات رسمية لتسليمها كمجرمة لتواجه تهمة محاولة القتل ولم توجه تهمة الإرهاب قط!

وهكذا بهذه المحاكمة الصورية، حكم على عافية التي اختطف بـحجة أنها سيدة الإرهاب حكم عليها بتهمة الشروع في القتل لا الإرهاب الذي لم يتمكنوا من إثباته رغم كل ما بذلوه من مكر وكيد ورغم حملات التشويه الإعلامية المسعورة التي حاولوا أن يبرروا بها إرهابهم الوحشي!

ضحية صمتنا وخنوعنا!

منذ صدور الحكم على صديقي عام 2010، واحتجاج باكستان الرسمي عليه تحت ضغط الشعب الباكستاني، تشكلت عدد من الحملات التضامنية معها على مواقع التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى عريضة وقعها أكثر من 109 آلاف شخص حول العالم إلى الرئيس الأمريكي باراك أوباما، للعفو عنها ولكنه لم يلتفت.

والسؤال الذي يؤرق الضمائر المنصفة! هل هذا يكفي لنصرة مستضعفة مسلمة وقعت فريسة إرهاب أمريكي مفترس لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة! تواقيع واستنكارات عابثة! أم أن للمسلمين القدرة على أن يضغطوا على حكوماتهم لتجبر ساسة البيت الأبيض بالكف عن هذا لإرهاب القبيح المستقوي على امرأة ضعيفة!...

لابد أن هناك أمثالا لعافية في مكان ما في زاوية ما في هذه الأرض، هم وهن ضحية الإرهاب الأمريكي وضحية صمتنا وخنوعنا.

فيا عافية. إن كنت من الأحياء فقد بقيت رمزاً لعار في زمن المليار ونصف المليار مسلم تدمنا فيه الأمم، وإن كنت رحلت بروحك المعذبة فاعلمي أنك تركت جرحاً نازفاً وكشفت عاراً لا يمكن أبداً أن يُمحي تتركاً منا له الأجيال!

صرخات السجينة 650 في سجن باغرام المروع، الذي لم يتحمل أهواله الرجال!

الإرهاب الأمريكي

حين نستمع لخطابات أوباما وساسة البيت الأبيض وهم يحاضرون في الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان، والحضارة الغربية التي تسابق الأمم في احترام القانون، وقرارات مجلس الأمن، واتفاقيات دولية كاتفاقيات جنيف عن الأسرى. حين يعيبون على الأنظمة العربية الدكتاتورية، والقهر وانتهاك حقوق شعوبهم، فينبزوننا بالتخلف والرجعية والتأخر، لا يمكننا أن نتصور إلى أي درجة بشعة وصل إليها الإرهاب الأمريكي في الانتقام من امرأة مسلمة واحدة جربوا عليها جميع وسائل التعذيب والإذلال التي لا تخطر على قلب بشر لتهمة غامضة ولأدلة واهية ولشهادات خصوم! إنها عافية صديقي.

الدكتورة عافية صديقي

الدكتورة عافية صديقي منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة وهي محط الانتقام الأمريكي اللامنتهي. قصتها تُلخّص حكاية الإرهاب الأمريكي الذي فاق كل أنواع الإرهاب في العالم. منذ اللحظة الأولى التي اختطفها فيها أجهزة الاستخبارات الأمريكية مع أولادها الثلاث في 2003 إلى سنوات من التغييب والتعذيب وممارسة نظريات الانتقام الرهيبة في حق امرأة لا تملك إلا جسداً هزلياً نازفاً وقلباً مفجوعاً مؤمناً، في غياهب باغرام ذلك السجن سيء السمعة شمال كابول.

تاريخ عافية مع الاختفاء والاعتقال

الظهور الأول 2008

قُبعت عافية 5 سنوات بدون أي محاكمة ولا حتى تهمة محددة! لتظهر مرة أولى في 2008 خلال الحادث الذي كاد يودي بحياتها واتهمت على إثره بجرمة الشروع في قتل جنود أمريكيين.

الظهور الثاني 2010

ثم ظهرت مرة أخرى في 2010 في محكمة أمريكية إرهابية، حكمت عليها بالسجن 86 سنة كاملة، ضاربة بعرض الحائط إرهاب الاختطاف والسجن السري اللاقانوني في باغرام، وسنوات التعذيب

المستمر بل وبجميع الأعراف الدولية لحقوق الأسرى -زعموا- أنهم تعاهدوا عليها. معتمدة على دليل واحد سخيف لا يتعدى شهادة جنود كانوا بأسرونها!

لتسجن مرة أخرى وليفتح الباب هذه المرة على مصراعيه للإرهابيين الأمريكيين لتعذيب هذه المرأة بكل أصناف العذاب حتى فقدت الذاكرة وأسقطت من الاغتصاب ونزفت الدم القاني، وأصبحت نموذجاً بشرياً لتجربة نظريات البحث العلمي، والأدوية واستئصال الأعضاء، وإحداث الأمراض المزمنة المستعصية!

أوائل نوفمبر 2011:

تلقت عائلة عافية تقارير مقلقة بأن ابنتهم حملت في سجن كارسويل الأمريكي، وأنها خضعت لعملية إجهاض قسري، وأنها نزفت بغزارة نتيجة لذلك. وتبين من خلال رسالة من السجن وصلت عائلتها أنها تعاني من سرطان خبيث.

أما اليوم فقد اختفى لعافية كل أثر وقد أكد محاميها أنه لم يعد يسمع لها خبراً ولم تتواصل معه أو مع أي شخص آخر منذ أكثر من سنة. وتساءل ما إذا كانت عافية ما زالت على قيد الحياة! في حين ترددت أخبار تقول إن عافية قضت نحبها وهي تنجرع سوء العذاب على أيدي سجانيتها!

الإرهاب الأمريكي يطال الأطفال الثلاثة:

بعد اختطاف عافية من قبل أجهزة الاستخبارات الأمريكية والباكستانية وهي في سيارة أجرة مع أطفالها الثلاثة في طريقها إلى المطار، لم يراع الإرهاب الأمريكي أدنى حق لهؤلاء الأطفال الثلاثة، قالت شقيقتها فوزية:

“بعد مغادرة عافية بنحو ساعتين، دق الباب. وتوجهت أُمِّي إلى الباب وسألت عن الطارق الذي قال إذا قُلتُم أي شيء أو أبلغتم الشرطة، سنقتل الأربعة!”

وهكذا اختفى كل أثر للأطفال الثلاثة ليظهر أكبرهم، أحمد الذي لم يتجاوز 11 عاماً في 2008- حين تم إرساله جواً من أفغانستان (التي اختطف إليها مع أمه لتسجن)، إلى باكستان ليعيش مع

خالته فوزية بشرط عدم التحدث إلى الصحافة. بينما مصير أخته مريم، وأخوه الرضيع سليمان الذي كان عمره ستة أشهر، بقيت ظروفهما أكثر غموضاً.

تفاصيل الاختطاف على لسان أحمد

في وقت لاحق قص أحمد تفاصيل اختطافهم في طريقهم إلى المطار، وقال إنه تم اعتقالهم بواسطة 15 أو 20 شخصاً بينهم سيدة بيضاء، التي صفت عافية على وجهها، ورأى أحمد أخاه الرضيع سليمان يقع على الأرض، هذا كل ما يتذكره قبل أن يُفصل عن أمه وإخوته باستنشاق مادة أفقدته الوعي.

ظهور مريم في 2010م

ظهرت مريم الابنة الوسطى وحول رقبتها ورقة مكتوب عليها عنوان جدتها، كانت تتحدث الإنجليزية فقط بلكنة أمريكية، أما الابن الأصغر سليمان فلم تصل أي معلومات عنه وهناك أصوات تقول إنه مات.

وهكذا طالت يد الإرهاب الأمريكي حتى أطفال عافية!

كيف عُرفت قصتها؟

لم يكن أحد ليعلم مصير عافية، لولا مشيئة الله أن يقاسمها السجن في باغرام مسلمون أسروا على أيدي الأمريكيين، من بينهم معظم بيك الذي اختطف من قبل الأمريكيين عدواناً وظلماً أيضاً، وكان يسمع صرخاتها المؤلمة وأنينها في كل يوم وليلة.

امرأة وحيدة تسام سوء العذاب وأنواع الإهانة بلا أدنى رحمة في سجن لا يضم إلا الرجال ولا يعاملها فيه إلا الرجال بل وحوش الرجال، كانت بحق سبب تأثر جيرانها المأسورين لدرجة أنستهم مآسيهم وجراحاتهم فاستنكروا هذا الفعل اللاإنساني البشع المشين بما تبقى لهم من فتات الطاقة وأعلنوا الإضراب عن الطعام حتى يفك أسر هذه المسلمة المستضعفة ولكن دون جدوى!

Enemy Combatant

نقل معظم بيك إلى غوانتانامو وفارق مأساة باغرام إلى مأساة جديدة إلا أن صرخات عافية لم تفارقه وبقيت تتردد في أذنيه حتى أُفرج عنه، فألف كتاباً ذكر فيه حقائق مروعة عاشها في هذه السجون ولم ينس بكل تأكيد تلك الصرخات الصديقية التي دونها في كتابه (Enemy Combatant) بكل أسى وألم.

إنها صرخات السجينة 650 في سجن باغرام المروع، الذي لم يتحمل أهواله الرجال، هكذا كانت تسمى عافية.

ايفون ريديلي

وصل الكتاب إلى يد الصحفية البريطانية ايفون ريديلي فشد انتباهها قصة السجينة 650 فبادرت بالبحث عن هوية هذه المعيبة، فتوصلت إلى أن السجينة 650 هي الدكتورة عافية صديقي! بعد ذلك فضح الله الإرهاب الأمريكي وخذاعهم وعدوانهم، وتأكدت أنها تعرضت لشتى أنواع العذاب بما فيه الاعتداء الجنسي المتكرر من قبل الأمريكيين وأيضاً استؤصلت بعض أعضائها واستمر يعانقها العذاب حتى أصيبت بأمراض نفسية خطيرة فقدت على إثرها الذاكرة.

وكيف لا تنهار المسلمة وهي تجبر على المشي حافية القدمين على صفحات من المصحف الكريم ممزقة وملقاة على الأرض لتدنيسها وشفاء غليل سجانيتها الكافرين!..؟

ايفون ريديلي الصحافية التي اعتنقت الإسلام أكدت بأن عافية صديقة هي سيدة باغرام رقم 650، وأنها تعرضت لأهوال لا توصف لدرجة كانت تبقى السجناء مستيقظين بسبب تنهداتها المؤرقة وصرخاتها المؤثرة. وبالنسبة لريديلي، أصبحت عافية صديقي رمزاً للممارسات الأمريكية الإرهابية مثل الاختطاف والترحيل السري والتعذيب. وقالت ريديلي:

“ إن صديقي رمز في العالم الإسلامي. وإن الناس غاضبون من الإمبريالية والهيمنة الأمريكية.”

صمّت مُعتاد

صمّتُ العالم إزاء هذا الإرهاب الأمريكي، والانتهاك الفاضح لحقوق امرأة مسلمة وتخدير الشعوب التي استنكرت هذه الفظاعة الأمريكية، أعطى الفرصة أكثر للإرهاب الأمريكي للمتطاعم، وليتجلى هذا الإرهاب في صورة أكثر وضوحاً في إحدى محاكم الظلم والظلمة الأمريكية في (نيويورك) حيث وقفت المسلمة المستضعفة الهزيلة تنزف دماً لا تستطيع الوقوف أمام جلاديهما؛ الأمر الذي دفع فوزية أخت عافية-وهي خريجة جامعة هارفارد في تخصص الأعصاب- لاتهام الولايات المتحدة الأمريكية بإساءة معاملة شقيقتها في باغرام وتقديمها للمحاكمة في إطار يفقد لأدنى عدالة. وقالت:

“أنا قلقة من هذه المحاكمة لأنها مجرد دراما كبيرة، فقد كتبوا السيناريو الذي يريدونه“ .

إرهاب المحكمة الأمريكية

مثّلت عافية أمام محكمة في الولايات المتحدة، وحكم عليها بعد ماطلة وتسويق، في 2010م بالسجن 86 عاماً بتهمة الشروع في القتل، وليس للاشتباه بعلاقتها بتنظيم القاعدة المصنف في لائحة التنظيمات الإرهابية من قبل الأمريكيين. وهكذا كانت التهمة الوحيدة التي حوكت عليها عافية وفبركت لها الدلائل وزورت لها الشهادات تهمه الشروع بالقتل لا الإرهاب، ليتضح الدجل الأمريكي في تصنيفها كأخطر امرأة في الإرهاب وسيدة القاعدة الأولى.

ولم تتناول المحكمة أي حديث عن قضية الاختطاف والسجن السري والتعذيب الذي تجرّعه عافية في سجن باغرام في أفغانستان، وقد أقر قاضي المحكمة الأمريكية ريتشارد بيرمان في حكمه أنه:

“ لم يتحدد مطلقاً سبب تواجد صديقي وابنها في أفغانستان.“

فريق دفاع ذي أصول يهودية

وأثناء محاكمتها في نيويورك في 2010م- وهي المحاكمة الوحيدة التي شهدتها منذ 2003م- احتجت عافية على تعيين فريق دفاع ذي أصول يهودية، وأعلنت مراراً قدرتها على إثبات براءتها إذا تغيرت الدائرة القضائية التي تحاكمها، ومشددة على أنه تم تعذيبها لفترة طويلة في سجون سرية. وبينما

أعلن محاميها أنها تعاني مشكلات عقلية، خلصت المحكمة إلى أن وضعها العقلي يسمح بمحاكمتها مع إخضاعها لعلاج نفسي، ولذلك أودعت بسجن تكساس، وفقاً لصحيفة «جارديان» البريطانية.

خذوني فأنا لن أعود

عافية أعلنت في المحكمة أنها غير مذنبه وأصرت على أنها لم تلمس بندقية الجندي التي اتهمت باستعمالها والشروع في قتل الجنود الأمريكيين. وبعد أشهر من الجلسات السقيمة وخلال جلسة عاصفة، قاطعت عافية القاضي، ووبخت محاميها وأطلقت نداءات صاحبة في قاعة المحكمة، حيث قالت:

“أنا أقاطع هذه المحاكمة وأنا بريئة من كل التهم الموجهة إلي وأستطيع إثبات ذلك، لكنني لن أفعل ذلك في هذه المحكمة”

وعلى الرغم من أنها طردت من قاعة المحكمة لكنها قالت وبإدراك الحقيقة المؤامرة:

“خذوني فأنا لن أعود.”

وكيف لها أن تدافع عن نفسها حين يكون الجلاد هو القاضي! ويكون الجلاد هو الشاهد!

محاكمة بدون محام

لم يسمح لعافية اختيار محام يدافع عنها، ورغم أنها لم تتهم بالإرهاب إلا أن المدعي أصر باستمرار على إثارة موضوع الإرهاب وحين رأت عافية هذا الإصرار الذي يتضارب وموضوع المحاكمة، وأن القوم يسعون لتصويرها كمصنعة قنابل وإرهابية، هتفت في أوجههم: لا يمكنكم بناء قضية على الكراهية. القضايا تبني على الحقائق!

تأخرت المحاكمة أشهراً وخضعت عافية لاختبار نفسي بناء على طلب من ادعاءات الدفاع التي ذهبت إلى القول إن عافية أصيبت “بالجنون”. في حين قضى القاضي ريتشارد بأن عافية:

“قد تكون لها بعض المشاكل المتعلقة بالصحة العقلية لكنها لائقة لحضور المحاكمة.”

تساؤلات أخيرة

واقترنت القضية على الجدل الدائر حول ما إذا قامت عافية بإطلاق النار على الجنود في مركز للشرطة الأفغانية. وتجاهل القاضي الإرهابي جميع الأسئلة الخطيرة منذ اختطافها في عام 2003م، بما فيها مصير طفليها اللذان كانا في عداد المفقودين. ويبقى السؤال الأهم: إذا كانت عافية صديقي تلك الإرهابية الخطيرة منذ خمس سنوات، إذن لماذا لم يتم توجيه تهمة واحدة لها على الأقل تتعلق بالإرهاب؟!

ثم لماذا كل هذا العذاب ليشفي الأمريكيون غليلهم من امرأة فرضنا جدلاً أنها حاولت قتل جنود لهم رغم ركافة الرواية التي لا يقبلها عاقل! فإن كانت كذلك أو يكون هذا الثمن المبالغ فيه، لجرم لم يبلغ نصاب الانتقام. فكيف لو أنها بحق قتلت هؤلاء الجنود؟!

آخر كلمات عافية وهي توجهها للقاضي بعد أن حكم عليها بقضاء بقية عمرها في سجن فيدرالي كانت: اسمح لي أن اختلف معك، مصيري إلى الله وقدري مع ربي مصيري بيد الله وليس بيدك.

أرسلت عافية لسجن كارسويل الذي لا يقل سوءاً عن سابقه، ومنعت عدواناً من أي زيارات، في الوقت الذي واجهت عائلتها عدة مضايقات بما فيها محاولات لخطف أولادها، فضلاً عن تهديدات بالقتل تلقتها والدتها في عدة مناسبات.

مترجم: كم من الوقت يمكن أن تستمر إسرائيل على قيد الحياة بدون أمريكا؟

هذه المقالة ترجمة بتصرف.⁽¹⁾

في مقالة لتشاك فريليش نائب مستشار إسرائيلي سابق لشؤون الأمن القومي، وزميل بارز في مركز بيلفر بجامعة هارفارد. نشرتها نيوزويك تحت عنوان: كم من الوقت يمكن أن تستمر إسرائيل على قيد الحياة بدون أمريكا؟ تناول فريليش الحديث عن أهمية الولايات المتحدة الأمريكية لأمن إسرائيل القومي، الذي يرى أنه أمر لا يحمل أدنى قدر من المبالغة بالنظر إلى أن واشنطن عادة ما تكون هي الميناء الأول- وغالبا الوحيد- لدعوات التشاور الاستراتيجي، والوسيلة الأساسية للتصدي للتحديات التي تواجهها إسرائيل.

ويرى فريليش أن الولايات المتحدة هي كل شيء ونهاية المطاف لجميع مداولات السياسة في محافل صنع القرار للأمن القومي الإسرائيلي. وأنه بعد أربعة عقود من هذه "العلاقة الخاصة"، كان ثمن هذه الشراكة الرائعة حقا هو: خسارة كبيرة لاستقلال إسرائيل؛ نظراً لاعتمادها العميق على الولايات المتحدة لدرجة أنه أصبح من المشكوك فيه ما إذا كان بإمكان هذا البلد البقاء على قيد الحياة حتى اليوم بدون أمريكا.

وتعرض فريليش في مقالته إلى الكيفية التي استطاعت بها إسرائيل البقاء على قيد الحياة، بل وازدهرت، دون دعم أمريكي كبير خلال عقودها الأولى، والظروف الاستراتيجية التي تواجهها اليوم، وإن كانت لا تزال عصيبة، إلا أنها أفضل بكثير، في ظل تمتع إسرائيل بقوة أكبر على الصعيدين العسكري والاقتصادي.

وحسب فريليش فإنه بالنسبة للأميركيين والإسرائيليين على حد سواء، هذه تأكيدات مثيرة للجدل. وكثير من الأميركيين ينتقدون ما يعتبرونه تجاهل إسرائيل المستمر لتفضيلات السياسة الأمريكية، وحتى مواقف التحدي، على الرغم من العلاقة غير المتماثلة تماما والمساعدات الأمريكية الضخمة. ويصدق هذا بشكل خاص في الوقت الذي تقود إسرائيل حكومة متشددة.

⁽¹⁾ How Long Could Israel Survive Without America?

فالإسرائيليون، من جانبهم، لا يرغبون في أن يكونوا معتمدين على قوة أجنبية، حتى ولو كانت ودية وذات معنى جيد تجاه إسرائيل مثل الولايات المتحدة، وهم يرون أن حرية إسرائيل المستمرة في اتخاذ القرار والمناورة أمر حيوي لأمنها القومي.

وسلط فريليش الضوء على مجموع المساعدات الأمريكية لإسرائيل منذ إنشائها في عام 1949م حتى عام 2016م والتي بلغت حوالي 125 مليار دولار، وهو مبلغ ضخم، مما يجعل إسرائيل أكبر المستفيدين من المساعدات الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولا زالت الأرقام في تصاعد ويتوقع أن يبلغ الرقم الإجمالي لحزمة المساعدات العسكرية المتفق عليها مع نهاية العشر سنوات المقبلة حوالي 170 مليار دولار.

وقد شكلت المساعدات الأمريكية في السنوات الأخيرة نحو 3 في المائة من إجمالي الميزانية الوطنية لإسرائيل، و1 في المائة من إجمالي الناتج المحلي. وبالتالي، فإن إنهاءها يتطلب قدرا كبيرا من شدّ الحزام والتخفيضات المؤلمة في ميزانية إسرائيل المثقلة أصلا لتلبية الاحتياجات المحلية، مثل الصحة والتعليم، مما من شأنه أن يؤجج التوترات الاجتماعية. بيد أنه لن يشكل تحديا لا يمكن التغلب عليه للاقتصاد الوطني الإسرائيلي.

وسيكون التأثير الحقيقي حسب فريليش على ميزانية الدفاع الإسرائيلية. ففي السنوات الأخيرة، شكلت المعونة الأمريكية حوالي 20 في المائة من إجمالي ميزانية الدفاع الإسرائيلية (التي تشمل المعاشات التقاعدية والرعاية والتعويض عن المحاربين القدامى والأرامل)، أو 40 في المائة من ميزانية جيش الدفاع الإسرائيلي، وكلها تقريبا ميزانية المشتريات.

وبالتالي، فإن الإنهاء سيكون له أثر مدمر على موقف إسرائيل الدفاعي، ما لم تتم إعادة ترتيب رئيسية للأولويات الوطنية، مع تداعيات اقتصادية ومجتمعية عميقة.

على عكس خصوم إسرائيل، الذين يستطيعون شراء أسلحة من مصادر عديدة مع قيود سياسية قليلة، فإن اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة أمر بالغ الأهمية. ولن يحل أو يستطيع أن يحل أي من منتجي الأسلحة الرئيسيين الآخرين اليوم - كبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين محل الولايات المتحدة.

ومن المؤكد أن أيا منها لن يكون مستعدا لتوفير التمويل، ولا يوجد بأي حال من الأحوال بديل نوعي للأسلحة الأمريكية. والواقع أن الولايات المتحدة ملتزمة بالقانون للحفاظ على الحافة العسكرية النوعية لإسرائيل QME (أي) القدرة على مواجهة وهزيمة أي تهديد عسكري تقليدي موثوق به من أي دولة منفردة أو تحالف ممكن من الدول أو من جهات غير حكومية، مع الحفاظ على الحد الأدنى من الأضرار والإصابات ... بما في ذلك الأسلحة ... متفوقة في القدرة على تلك التحالفات الفردية أو المحتملة الأخرى من الدول والجهات الفاعلة غير الحكومية“).

وتناول فريليش الجانب النووي لأجل أمن إسرائيل حيث قال: لا يمكن لأي دولة أخرى أن تتعامل مع البرنامج النووي الإيراني الذي يشكل تهديدا محتملا لإسرائيل أو يمكن أن تتصدى له، كما فعلت الولايات المتحدة، حتى لو كانت هناك خلافات في نهاية المطاف بشأن وسائل القيام بذلك.

ولا يمكن لأي بلد آخر أن يساعد إسرائيل على بناء درع صاروخي وصواريخ، الوحيد من نوعه في العالم، أو قد اشترك في عمليات هجمات إلكترونية مشتركة كما فعلت الولايات المتحدة.

كما تمنح الولايات المتحدة إسرائيل رابطاً إلى نظامها العالمي لمراقبة إطلاق صواريخ الأقمار الصناعية، مما يعطيها دقائق إضافية لا تقدر بثمن من وقت الإنذار، ويمكن المدنيين من المأوى، وجيش الدفاع الإسرائيلي لإعداد واتخاذ تدابير مضادة.

لقد بسط فريليش الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في جميع الميادين بالنسبة لإسرائيل بما في ذلك العلاقة العسكرية التي تشمل أيضا تمارين ثنائية واسعة النطاق، مما يسمح للجيش الإسرائيلي بتعلم بعض التكتيكات الأكثر تقدما في العالم. وأشار إلى بعض المناورات متعددة الأطراف، التي أسهمت في تعزيز العلاقات الخارجية الإسرائيلية، والتي كانت في بعض الحالات ذات أهمية استراتيجية.

وقد وضعت الولايات المتحدة مخزونا كبيرا من الأسلحة والذخائر في إسرائيل، وجعلت لها إمكانية الوصول الجزئي لها، وتشارك الدولتان في مساحة واسعة من تدابير مكافحة الإرهاب والأمن الداخلي والتدابير المضادة للانتشار. وكان الدعم الأمريكي القاطع لإسرائيل خلال حرب 2006م في لبنان أول مواجهة عسكرية في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي الذي لم تواجه فيه إسرائيل قيودا على ما يسمى “الوقت الدبلوماسي”.

كما تقوم الولايات المتحدة وإسرائيل بإجراء حوار وتخطيط استراتيجيين على نحو غير عادي ومكثف فيما يتعلق بالبرنامج النووي الإيراني على وجه الخصوص، وشارك البلدان في حوار استراتيجي واسع النطاق لم يسبق له مثيل منذ نحو 20 عاما.

وشملت القضايا الأخرى، في جملة أمور، البرامج العراقية والسورية والليبية لأسلحة الدمار الشامل، والوضع في سوريا وحزب الله وحماس، والقضية الفلسطينية، وأكثر من ذلك بكثير التعاون الاستخباراتي - وهو مجال تستفيد فيه الولايات المتحدة أيضا بشكل كبير من العلاقة، ولكنه أمر بالغ الأهمية بالنسبة لإسرائيل.

وعلى الصعيد الدبلوماسي أيضا، فإن الولايات المتحدة هي حقا الأمة التي لا غنى عنها لإسرائيل، دون أي بديل للمستقبل المنظور حسب فريليش.

وقد أوضح فريليش أيضا كيف استعملت الولايات المتحدة دبلوماسيتها في عدة أشكال دولية لحماية إسرائيل من كل ما يمس نظام سلامها. فلا يوجد أي عضو دائم في مجلس الأمن يستعمل حق الفيتو مثلما فعلته الولايات المتحدة لأجل دعم إسرائيل، كحل، حتى مع السياسات التي في بعض الأحيان تعارضها. وبين 1954 و2011م، صوتت الولايات المتحدة لوقف حوالي 40 قرار ضد إسرائيل.

واستشهد فريليش بامتناع الولايات المتحدة، للمرة الأولى، عن إصدار قرار من مجلس الأمن يدين المستوطنات في كانون الأول / ديسمبر 2016م.

ويرى فريليش أن مع ازدياد عزلة إسرائيل الدولية، أصبح اعتمادها على الغطاء الدبلوماسي الأمريكي شبه كامل. فلا يوجد أي بلد آخر يعمل عن كثب مع إسرائيل، كما فعلت الولايات المتحدة منذ عقود، لتعزيز السلام مع جيرانها، بشروط مقبولة لإسرائيل. ولم تؤيد أي دولة أخرى على نحو ثابت ومؤكد مطالبة إسرائيل بأن يكون هناك اتفاق نهائي مع الفلسطينيين ينص على أمنها، وأن يعترف بالطابع الأساسي لإسرائيل كدولة قومية للشعب اليهودي، وأن يرفض الطلب الفلسطيني على ما يسمى بـ "حق العودة".

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة ملتزمة منذ فترة طويلة بالانسحاب الإسرائيلي من معظم الأراضي التي حصلت عليها في عام 1967م، إلا أنها أبدت تاريخيا وجهة نظر إسرائيل بأن قرار مجلس الأمن

الدولي رقم 242، وهو القرار الصاعد الذي تقوم عليه جميع مفاوضات السلام بين إسرائيل ومحادثاتها العربية.

لقد لخص فريليش بعد بسط طويل لخبايا العلاقة الإسرائيلية الأمريكية، إلى أن الولايات المتحدة هي راعية موثوقة عموماً، وتحاول أن ترقى إلى مستوى التزاماتها، لكنها أفضلت إسرائيل في عدد من المناسبات الهامة، على سبيل المثال لا الحصر فشل جونسون في فتح مضيق تيران للشحن البحري الإسرائيلي في عام 1967م، وتأخر ريتشارد نيكسون المتعمد في الجسر الجوي العسكري في عام 1973م، وعدم قدرة جورج دبليو بوش على التعامل مع المفاعل النووي السوري في عام 2007م، ورفض أوباما رسالة بوش إلى شارون لعام 2004م، والاتفاق النووي مع إيران.

ففي بعض هذه الحالات، اضطرت إسرائيل إلى اتخاذ إجراءات من تلقاء نفسها، مما يدل على ضرورة الحفاظ على قدراتها المستقلة وعدم وضع كل بيضها في سلة واحدة، على الرغم من الواقع الكلي للاعتماد.

ويرى فريليش أنه وعلى الأقل إلى حد ما، ينبغي النظر إلى أعمال الاستقلال الإسرائيلي اليوم ليس كعلامات على تجاهل الولايات المتحدة أو تحديها، ولكن كمؤشر على نضج العلاقة ونجاح السياسة الأمريكية.

ويقول: إن الدعم الأميركي قد بنى إسرائيل قوية ومزدهرة، واثقة على نحو متزايد من أمنها ووجودها - وهو الهدف الحقيقي الطويل الأجل "للعلاقة الخاصة" وبالتالي فقد أصبحت قادرة على اتخاذ مواقف مستقلة بشأن القضايا ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لها. قد لا يكون الاستقلال الإسرائيلي دائماً على ما يرام مع الولايات المتحدة، ولكنه علامة صحية على وجود علاقة أكثر طبيعية. وبعد كل شيء، فإن الولايات المتحدة لديها خلافات مع حلفاء مقربين آخرين أيضاً.

وعن حل القضية الفلسطينية يرى فريليش على المدى الطويل أو حتى التقدم الكبير نحو تحقيق هذا الهدف، سيكون من أكثر الوسائل فعالية لتقليل اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة. ومن شأن ذلك أن يقلل كثيراً من عزلة إسرائيل الدولية.

كما أن تمهيد الطريق لمزيد من العلاقات التعاونية مع بعض الدول العربية. يجعل من الصعب على إيران وحزب الله وحماس والجهات الراضة الأخرى متابعة جداول أعمالهم العدوانية؛ ويؤدي إلى نمو اقتصادي كبير.

ويبرر فريليش السلوك الإسرائيلي الاستفزازي، مثل الإعلان عن أنشطة استيطانية جديدة عقب زيارات كبار القادة الأمريكيين مباشرة، الذي أدى إلى إشعال نار الخلاف. قائلًا: إن هذا القول -ودون أن يقلل بأي حال من الأحوال من تأثير هذه الأعمال على الولايات المتحدة، أو على أهمية المستوطنات نفسها، فإن هذا السلوك هو في الحقيقة نتاج لسياسة داخلية إسرائيلية صغيرة، وليس نتيجة قرارات نوايا استراتيجية.

لكن ورغم أن الدعم الأمريكي الشامل لإسرائيل لا يزال مرتفعًا، يحذر فريليش من أن الاتجاهات السياسية والديموغرافية الجارية بالفعل من المرجح أن يكون لها تأثير ضار على هذه العلاقة في المستقبل. مستشهداً على سبيل المثال بحقيقة أن الجمهوريين والمحافظين أصبحوا أكثر تأييداً لإسرائيل من الديمقراطيين والليبراليين، ما يعني أنها أصبحت قضية حزبية، وهو ما ينبغي أن يكون مصدر قلق عميق.

ومع ذلك، ينبغي أن تعطي هذه المعطيات وقفة كبيرة لقادة إسرائيل حسبما ختم فريليش مقالته وقال: إن أولئك الذين يدافعون بذلك عن مقارنة مستقلة عن تبرع الدولة العظمى لإسرائيل - كما فعل البعض، بشكل غير مسؤول، خلال الخلاف حول الاتفاق النووي الإيراني - يجب أن يكونوا حذرين مما يريدون.

ويجدر الإشارة إلى أن فريليش هو مؤلف كتاب معضلات صهيون: كيف تصنع إسرائيل سياسة الأمن القومي وكتاب: الأمن الوطني الإسرائيلي، استراتيجية جديدة لعصر التغيير.

مُترجم: نْهاية القومية، هل هناك بديلٌ للدول؟

هذا التقرير مترجمٌ عن مجلة New Scientist لديبورا ماكنزي.⁽¹⁾

تُعَدُّ الدول القومية السبب الأول لبعض أكبر مشاكلنا، سواء كانت حروباً أهليةً أو حتى اختلالاً في المناخ. وفي هذه الأثناء يشير العلم إلى خياراتٍ أخرى هي الأفضل لتوازن الحياة على هذه الأرض.

لنحاول، للحظةٍ واحدةٍ، تصور العالم دون نظام الدول، لتتخيل خريطةً لا تظهر فيها تلك المساحات الملونة المحددة بخطوطٍ واضحةٍ، لكلٍ منها حدودٌ وحكوماتٌ وقوانينٌ خاصةٌ بها. لنحاول وصف أي شيءٍ في مجتمعنا - كالتجارة والسفر والعلوم والرياضة، والحفاظ على السلام والأمن - من دون ذكرٍ لأسماء الدول. لنحاول وصف أنفسنا: لدينا الحق في جنسيةٍ واحدةٍ على الأقل، والحق في تغييرها، ولكن ليس لدينا الحق في البقاء دون أي جنسيةٍ.

تلك المساحات الملونة على الخريطة قد تكون ديمقراطياتٍ، أو ديكتاتورياتٍ أو فوضوية بشكلٍ كبيرٍ لتكون إحداها، لكن جميعها - تقريباً - تزعم أنها شيءٌ واحدٌ: دولةٌ قوميةٌ، أو أراضٍ خاضعةٌ لسيطرة جماعةٍ من الناس، أو شعبٌ يحق له تقرير مصيره كحال الحكم الذاتي. وهو ما يمثل في النهاية الأمم المتحدة التي يصل عددها الآن 193..

تتزايد أعداد الناس التي تريد دولةً خاصةً بما تزايداً متصاعداً، من الإسكتلنديين الذين يصوّتون من أجل الاستقلال إلى الجهاديين الذين يعلنون دولةً جديدةً في الشرق الأوسط. الكثير من قصص الأخبار العريضة اليوم، عن الصراعات في غزة وأوكرانيا إلى الخلافات بشأن الهجرة وعضوية الاتحاد الأوروبي، جميعها مرتبطةٌ بالدول القومية على نحوٍ ما.

وحتى مع عولمة اقتصادياتنا، لا تزال الدول القومية المؤسسة السياسية الأولى في عصرنا اليوم. أصواتٌ كثيرةٌ صوّتت للأحزاب القومية في انتخابات الاتحاد الأوروبي هذا العام لتثبت أن القومية لا تزال على قيد الحياة - حتى مع محاولة الاتحاد الأوروبي تجاوزها.

ومع ذلك، هناك شعورٌ متزايدٌ بين خبراء الاقتصاد وعلماء السياسة والحكومات حتى الوطنية منها، أن الدولة القومية ليست بالضرورة أفضل وسيلةٍ تُدار بها شؤوننا، بل يجب أن ندير الأمور الحيوية مثل

(1) ترجمة: د. ليلي حمدان مراجعة: مُجد سماحة

إمدادات الغذاء والمناخ على نطاقٍ عالميٍّ، عكس الأجنداث السياسية للدول القومية التي تطمس فكرة المنفعة العالمية لتركز على منفعة القطر... من جهةٍ أخرى وعلى نطاقٍ أصغر، يبدو أن المدن والإدارات الإقليمية غالباً ما تخدم الناس أفضل من الحكومات الوطنية.

كيف إذاً، يجب أن ننظم أنفسنا؟ هل هي الدولة القومية، المؤسسة الحتمية الطبيعية؟ أو أنها مفارقةً تاريخيةً خطيرةً في عالمٍ تسوده العولمة؟

هذه ليست أسئلةً علميةً معتادةً.. لكن الوضع يتغير.. فكُتِل المنظرين، وعلماء الاجتماع والمؤرخين تناولها باستخدام تقنياتٍ جديدةٍ، والإجابات ليست دائماً التي كنت تتوقعها.

بعيداً عن ديمومتها فإن الدولة القومية هي ظاهرةٌ حديثةٌ. كلما تزايد تعقيدها، فإنه يتحوّر في بنيتها السياسية ليصل بنا في آخر الأمر إلى قرونٍ وسطى جديدة.

قبل أواخر القرن الـ18 لم تكن هناك دولٌ قوميةٌ فعلاً، كما يقول جون بروي من كلية لندن للاقتصاد. لو سافرت إلى جميع أنحاء أوروبا، لا أحد يسأل عن جواز سفرك عند الحدود. لا جوازاتٍ سفرٍ ولا حدودٍ كما نعرفها كانت موجودةً. كان للناس الهويات العرقية والثقافية، ولكن هذه لم تحدّد حقاً الكيان السياسي الذي يعيشون فيه.

وهذا يرجع إلى الأنثروبولوجيا، وعلم النفس للسياسة البشرية القديمة. فقد بدأنا بلا نظامٍ، وتزايد عدد الأسر، لتشكل بعد ذلك حصصاً من الصيادين، ومنذ ذلك الحين، أي حوالي 10,000 سنة، استقرت في القرى الزراعية. عُقدت هذه التحالفات على أساس التكيف الذي امتلكنه، خاصةً مع تعاون الناس بعضهم مع بعضٍ لإطعام أنفسهم والدفاع عنها.

الحرب والسلام

ولكن لديهم أيضاً حدودٌ. وقد أظهر روبن دنبار من جامعة أكسفورد أن شخصاً واحداً يمكن أن يتتبع التفاعلات الاجتماعية التي تربط ما لا يزيد عن 150 شخصاً تقريباً. الدليل على ذلك يشمل دراسات نشوء القرى-أو تاريخ تطور المدنية-ووحدات الجيش عبر التاريخ، ومتوسط رصيده من أصدقاء الفيسبوك.

ولكن كان هناك سببٌ واحدٌ مهمٌ ليصبح لديك المزيد من الأصدقاء: إنه الحرب.

يقول بيتر تورشين من جامعة كونيتيكت في ستورز: ”في المجتمعات الصغيرة، بين 10 و 60 في المئة من وفيات الذكور يمكن أن تُعزى إلى الحرب”، يعني أن الحصول على مزيدٍ من الحلفاء يمثل فرصة أكبر للبقاء على قيد الحياة.

وقد وجد تورشين أن الإمبراطوريات الأوروبية الآسيوية القديمة نمت بشكلٍ أكبر حين كانت أشرس، وهو ما يشير إلى أن القتال في الحرب عاملٌ رئيسٌ في التوسع السياسي.

عالم الآثار إيان موريس من جامعة ستانفورد في كاليفورنيا يوضح بأنه كلما زاد نمو السكان... فإن الناس تصبح غير قادرةٍ على إيجاد أراضٍ فارغةٍ يمكنهم الهروب إليها من الأعداء.. فيجري ببساطةٍ استيعاب الخاسرين من المعارك في جسد الدولة-حتى نمت المجالات البشرية بشكلٍ أكثر.

كيف تجاوزت عدد دنبار؟ كانت إجابة البشرية قاطبة: اختراع التسلسل الهرمي. بضع قرى تحالفت تحت يد قائدٍ، و تجمعت بضع قياداتٍ معاً تحت قائدٍ أعلى. ولزيادة النمو، أضافت هذه التحالفات المزيد من القرى، فاستلزم الأمر إذاً طبقاتٍ أكثر من التسلسل الهرمي. والهرمية تعني أنه يمكن للقادة تنسيق مجموعاتٍ كبيرةٍ من دون أن يضطر أحدٌ للحفاظ على المسار الشخصي لأكثر من 150 شخصاً. بالإضافة إلى دائرتهم المباشرة، يتفاعل الفرد مع شخصٍ واحدٍ من أعلى مستوى في التسلسل الهرمي، وعادةً ثمانية أشخاص من المستويات الدنيا، حسبما قال توركن.

ويقول يانير بار يام من معهد نُظْم مَجْمَع نيو انغلاند في كامبريدج، ماساشوستس “استمرت هذه التحالفات في التوسع و ازدادت في التعقيد لأداءٍ أوسع للمهام الجماعية“. من أجل بقاء مجتمعٍ على قيد الحياة، يجب أن يكون السلوك الجماعي معقداً مثل التحديات التي تواجهها-بما في ذلك قابلية تنافسها مع جاراتها. فإذا اعتمدت مجموعةٌ واحدةً المجتمع الهرمي، فإن على منافسيها فعل ذات الأمر. التسلسلات الهرمية انتشرت و التعقيد الاجتماعي نما.

التسلسلات الهرمية لم تُفتر فقط بالمزيد من الحروب ولكن أيضاً أطمعت المزيد من الناس من خلال الاقتصادات الحجمية، والتي مكنت الابتكارات التقنية والاجتماعية مثل الري وتخزين المواد الغذائية، وحفظ السجلات والديانة الموحدة. وتبعها المدن والممالك والإمبراطوريات.

لكن هذه لم تكن دولاً قوميةً. ويمكن أن تُصنّف كمدنيةٍ أو منطقيةٍ، لأن الدول الخاسرة كانت تنضم للجسد الأكبر للإمبراطورية بغض النظر عن هويتها القومية. يقول المؤرخ أندرياس أوسياندر من جامعة

لايزيغ في ألمانيا: “رؤية الدولة كإطارٍ ضروريٍّ للسياسة، قديمةٌ قِدَمِ الحضارة ذاتها، ولا تصمد أمام الملاحظة و النقد”.

“وجهة نظر الدولة كإطارٍ ضروريٍّ للسياسة لا تصمد”

إحدى النقاط الأساسية هي أن المجتمعات الزراعية تتطلب القليل من الحكم الفعلي. وكان تسعة من 10 فلاحين مضطرين إلى الزراعة و إلا فالجوع، لذلك فإن هذه المجتمعات كانت إلى حدٍ كبيرٍ ذاتية التنظيم وتدخلت الحكومة لتأخذ حصتها من المحاصيل، وفرض المبادئ الأساسية للقانون الجنائي والحفاظ على السلام داخل أراضيها بلا منازع. إلا أن دورها الرئيس القتال للحفاظ على تلك الأراضي، أو الحصول على أكثر من ذلك.

يقول أوسيندر: “حتى وقتٍ متأخرٍ جداً أمضى الحكام وقتاً قليلاً في الحكم...”. في القرن الـ17 كان لدى لويس الرابع عشر في فرنسا نصف مليون جنديٍّ للقتال في الحروب الخارجية ولكن كان فقط 2000 في مهمة حفظ النظام في الداخل. في القرن الـ18، لم تكن هولندا وسويسرا بحاجةٍ لحكومةٍ مركزيةٍ على الإطلاق. الكثير من المهاجرين في أوروبا الشرقية وصلوا إلى الولايات المتحدة في القرن الـ19... لقد كان يمكنهم القول من أي قريةٍ جاؤوا، ولكن لا يمكنهم تحديد من أي بلدٍ فهذا لا يهْمُ بالنسبة لهم.

قبل العصر الحديث حسبما يقول بروي، كان الناس يعرفون أنفسهم بشكلٍ “عموديٍّ” بمعرفة من يكون حكامهم. كان هناك القليل من التفاعل الأفقي بين الفلاحين خارج أسواقهم المحلية. و أياً كان الذين حكمهم ذات الملك فإن الفلاحين لم يعبأوا سواء شابهوا هؤلاء الناس أم اختلفوا عنهم فلم يكن ذلك أمراً يبعث على الاهتمام.”

ويقول بروي: هذه النظم مختلفةٌ جداً عن الدول اليوم، والتي لديها حدودٌ واضحة المعالم ومليئةٌ بالمواطنين. في نظام الولاءات العمودية، تتمركز قوة السلطة في المنطقة التي يقطن بها رأس السلطة وتخفت تلك القوة وتضعف حدتها كلما ابتعدنا انتهاءً بالمناطق الحدودية التي بالكاد يُرى فيها للسلطة أثرٌ. والإمبراطوريات القديمة جعلت ملونةً على الخرائط الحديثة كما لو أن لها حدوداً ثابتةً، لكنها لم تكن كذلك. وعلاوةً عليه، فقد أصبح الناس والأراضي في كثيرٍ من الأحيان تحت أحكام متباينة لأهداف مختلفة.

المجتمعات البسيطة

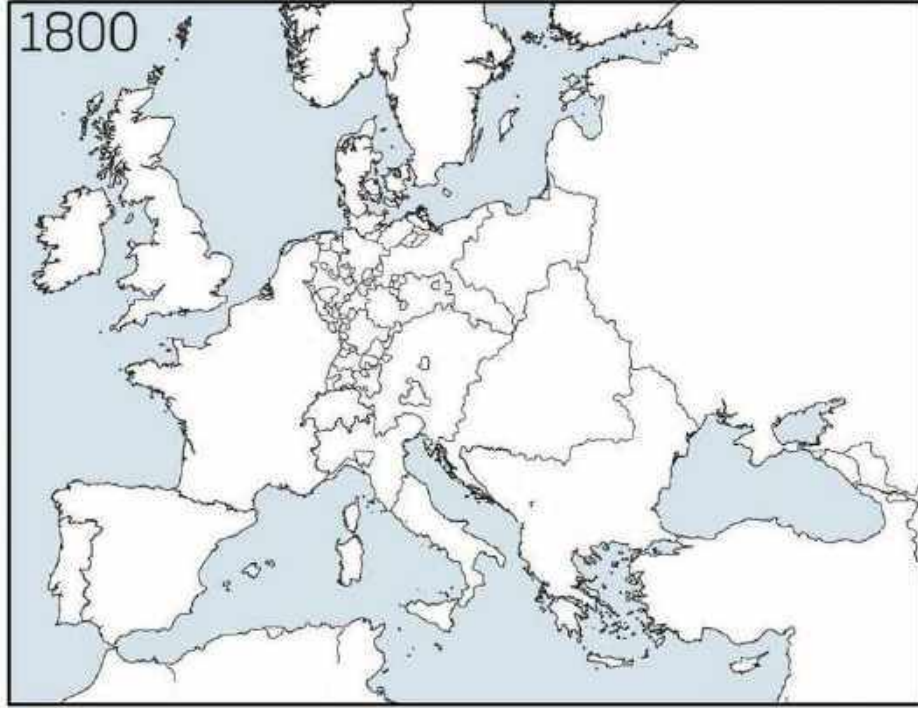
هذا التحكم غير المحكم الذي عناه بارريم يعني أن القوى السياسية الكائنة بفترة ما قبل الحداثة لم يكن بمقدورها سوى القيام بالأعمال البسيطة من الزراعة، وخوض المعارك، وجمع الضرائب وحفظ النظام العام بعض أشكال الحكم مثل الإمبراطورية الرومانية قام بهذه المهام على مجال جغرافي واسع جداً غير أنه ما كان للمجتمع أن يقوم به من أعمال جمعية كان قليل الصلاحية.

التعقيد كان محدوداً بطاقة المجتمع التي يمكن تسخيرها. وبالنسبة لأكثر قصص التاريخ هذا يعني أساساً العمل الإنساني والحيواني. في أواخر العصور الوسطى، سخرت أوروبا أكثر الطاقات، وخاصةً الطاقة المائية. هذا عزز التعقيد الاجتماعي - فقد زادت التجارة، على سبيل المثال، وهذا ما تطلب المزيد من نظام الحكم. وقدّم النظام الإقطاعي اللامركزي وسيلةً للملكيات مركزية مع مزيدٍ من السلطة.

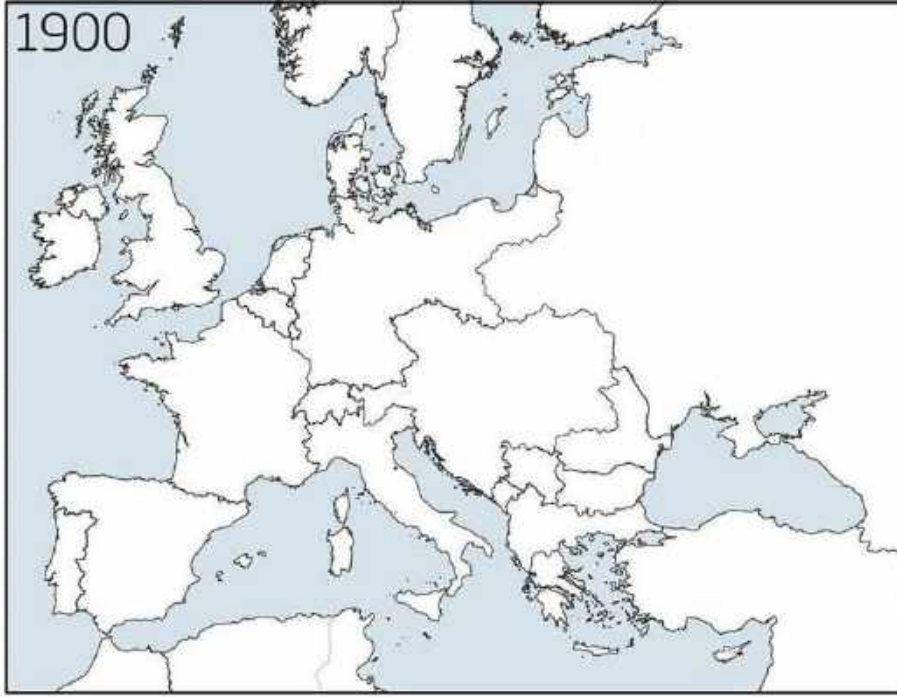
ولكن هذه لم تكن بعدُ دولاً قوميةً. وقد حُدِّدَت الملكيات من قبل حكامها، وكان الحكام يحظون بالاعتراف المتبادل - أو العكس، عند الحرب في أوروبا. وكما نمت التجارة، اكتشف الملوك أنهم يتمكنون من الحصول على المزيد من الطاقة من الثروة أكثر من الحرب.

في عام 1648، أنهى السلام الأوروبي في وستفاليا قرونًا من الحرب بإعلان الممالك القائمة، والإمبراطوريات والأنظمة السياسية الأخرى "والسيادية": كان لا يمكن لأحد التدخل في الشؤون الداخلية للآخرين. وكانت هذه خطوةً نحو الدول الحديثة - ولكن ما زالت لم تُعرَف هذه الكيانات السيادية بعدُ بالهويات الوطنية لشعوبها. وقد جاء القانون الدولي حتى الآن من معاهدة وستفاليا، إلا أن كلمة "الدولية" لم تبتكر إلا بعد 132 عاماً من الحدث السابق.

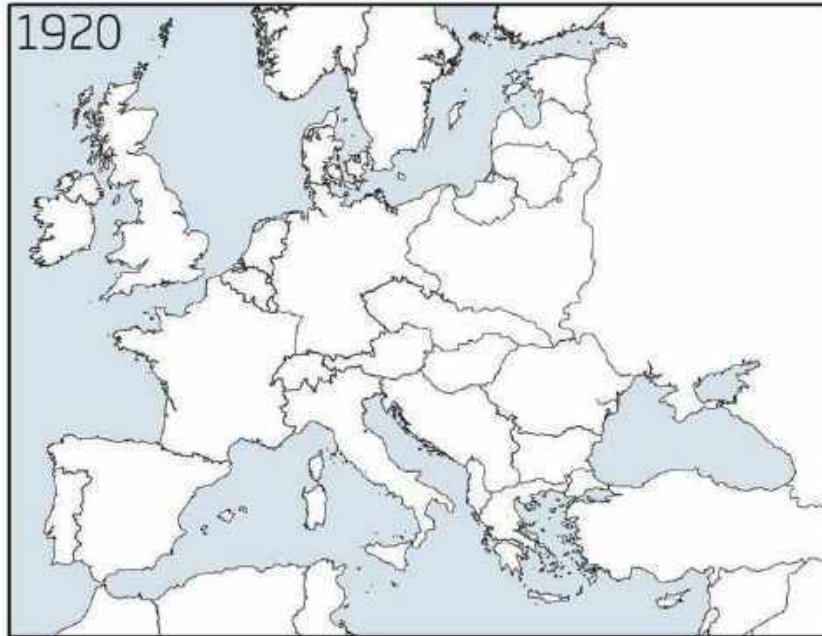
عندها وصلت أوروبا إلى نقطة اللا عودة بالثورة الصناعية. يقول بار يام : إن استخدام الفحم أدى آخر الأمر إلى زيادة المهام الجماعية للأفراد و تضخيم الصناعات الصغيرة فباتت المجتمعات أكثر تعقيداً من ذي قبل.



طالب هذا بنوعٍ مختلفٍ من الحكم.. في عام 1776 و 1789، خلّقت الثورات في الولايات المتحدة وفرنسا الدول القومية الأولى، التي عُرفت بالهوية الوطنية لمواطنيها بدلاً من الحكام أسلافهم. وفقاً لتاريخ مَعْلَمٍ واحدٍ من هذه الفترة حسبما يقول بروي . “في عام 1800 لا أحد تقريباً في فرنسا فكر في نفسه بأنه فرنسي. وبحلول عام 1900 كان الكل يفعل” وقال: لأسبابٍ مختلفة، كان الناس في إنكلترا يحملون شعوراً سابقاً بأنهم ”إنكليزيون“، لكنهم لم يعيروا عنه باعتباره عقيدةً قوميةً.



بجول عام 1918، مع تقطيع أوصال الإمبراطوريات الأوروبية المتعددة الجنسيات مثل هابسبورغ في الحرب العالمية الأولى، أُعيد رسم الحدود الدولية الأوروبية إلى حدٍ كبيرٍ على طول الخطوط الثقافية واللغوية. في أوروبا على الأقل، كانت الدولة القومية المعيار الجديد.



وكان أحد الأسباب البراجماتية في نطاق السيطرة السياسية المطلوبة لتشغيل الاقتصاد الصناعي. وعلى عكس الزراعة، فإن الصناعة تحتاج الصُّلب والفحم وغيرها من الموارد التي لم توزَّع توزيعاً موحداً، ولذا لم تعد الكثير من المجتمعات الصغيرة قابلة للحياة المنعزلة المستقلة. وفي الوقت نفسه، أصبحت الإمبراطوريات غير عملية مع تحوُّلها إلى صناعية وأصبحت بحاجة لحكم فعلي أكثر. وفي القرن الـ19 انصهرت الدول الصغرى في أوروبا وانقسمت الإمبراطوريات.

وقد بُرِّرت هذه الدول الجديدة ليس فقط لمجرد الكفاءة من الناحية الاقتصادية، ولكن أيضاً على الوفاء للمصير الوطني لسكانها. "أجيالاً من المؤرخين مع ذلك لم يلاحظوا بأن الدول هي التي كانت تعرف أقوامها، وليس بطُرُقٍ أخرى.

فرنسا، على سبيل المثال، لم تكن اللغة الفرنسية هي التعبير الطبيعي للأمة الفرنسية الموجودة من قبل. ففي ثورة عام 1789، لم يكن نصف سكانها يتحدثون اللغة الفرنسية. في عام 1860، عندما توحدت إيطاليا، فقط 2.5 في المائة من السكان كانوا يتحدثون الإيطالية العامة. وكان قادتها يتحدثون الفرنسية بعضهم مع بعض. وقال أحد المشهورين أنهم بعد أن أوجدوا إيطاليا، والآن عليهم إنشاء الإيطاليين - عملية يشعر الكثيرون بأنها ما زالت تحدث.⁽¹⁾

"في ثورة عام 1789، نصف سكان فرنسا لم يكونوا يتكلمون الفرنسية"

ويقول عالم الاجتماع Siniša Maleševic من جامعة كلية دبلن في أيرلندا أن "بناء الأمة" هذا كان خطوة مهمة في تطور الدول القومية الحديثة. وهذا يتطلب إنشاء أيديولوجية قومية تساوي عاطفياً الأمة مع دائرة دنبار الشعبية من العائلة والأصدقاء.

وهذا بدوره يعتمد اعتماداً كبيراً على تقنيات الاتصال الجماهيري. وفي تحليل مؤثر، وصف بنديكت أندرسون من جامعة كورنيل في نيويورك المجتمعات التخيلية: أنهم يفوقون بكثير دائرتنا المباشرة ولن نلتقي بهم أبداً، و الناس سوف يموتون لأمتهم كما يفعلون لعائلاتهم.

وقال: مثل هذه المشاعر القومية نشأت بعد أن أشاعت كتب الاقتصاد الجماهيري اللهجات وبالتالي أظهرت تقسيم المجتمعات لغوياً. وسمحت الصحف للناس بمعرفة المزيد عن الأحداث ذات الاهتمام المشترك، وخلق

(1) هناك مغالطة تاريخية لأنه قبل ثورة فرنسا كان الشعب يتحدث الفرنسية القديمة والألمانية واللتين أخرجتا الإنجليزية عندما انصهروا مع اللاتينية. وكان نصف الشعب يتحدثها أما بالنسبة لإيطاليا كان 2.5% بالمائة منها فقط يتحدثون الإيطالية الدارجة بينما تحدت قادتها الفرنسية إلى بعضهم نظراً لخروجهم من حقبة من الحكم الفرنسي لآل Bonaparte فكانت الفرنسية منتشرة وكانت المنطقة ككل قد انتهت لتوها من هزيمة نابليون الثالث وتغيير شكل جنوب أوروبا.

مجتمعٍ "أفقي" واسع، الأمر الذي كان مستحيلاً سابقاً. كما جرى تعزيز الهوية الوطنية بتعمدٍ من قبل التعليم الجماعي الذي تموّله الدولة.

ويُعزو مالميسيفيتش: Maleševic قياد هذه العملية الأيديولوجية اللازمة لتشغيل المجتمعات الصناعية المعقدة إلى ظهور البيروقراطيات بعيدة المدى. على سبيل المثال، يقول بروبي، في 1880 أصبحت بروسيا أول حكومةٍ تدفع إعانات البطالة. في البداية كانت تدفع فقط في القرية الأم للعامل، إذ لم يكن يسبب التعريف مشكلةً. ومع هجرة الناس للعمل، أصبحت الفوائد متاحةً في أي مكانٍ في بروسيا. "لم يكن عليهم حتى ذلك الحين تحديد من يكون البروسي" كما يقول، وكانوا يحتاجون للبيروقراطية للقيام بذلك. وجاءت بعدها وثائق المواطنة والتعدادات والحدود المحروسة.

هذا يعني أن هياكل المراقبة الهرمية قد تضخمت مع طبقاتٍ أكثر من الإدارة الوسطى. وكانت هذه البيروقراطية حقاً هي ما جمع الناس معاً في وحداتٍ بحجم الدول، حسبما يقول Maleševic ولكن ليس بالتصميم: لقد اتضح ذلك من سلوك النظم الهرمية المعقدة. ويقول بار يام، كما أن الناس تخوض أنواعاً أكثر من الأنشطة، فإن هيكل السيطرة على مجتمعهم حتماً سيصبح أكثر كثافةً.

في الولاية القومية الناشئة، هذا يُترجم إلى مزيدٍ من البيروقراطيين لكل فردٍ من السكان. الاتصال الوثيق مع هذه السيطرة البيروقراطية القريبة شجع الناس على استشعار العلاقات الشخصية مع الدولة، خصوصاً مع تراجع العلاقات مع الكنيسة والقرية. كما مارست الحكومات مزيداً من السيطرة، وحصل الناس على مزيدٍ من الحقوق، مثل التصويت، في المقابل. للمرة الأولى، شعر الناس بأن الدولة كانت لهم.

للموضوع تنمة ..

مُترجم: نهاية القومية: هل هناك بديلٌ للدول؟ (الجزء الثاني)

طبيعة العلاقات داخل الدولة القومية

يقول برولي: بمجرد أن أنشأت أوروبا نموذج الدولة القومية وازدهرت، أصبح الجميع يريد أن يحدو حذوها. في الواقع من الصعب الآن أن نتصور أنه قد تكون هناك وسيلةً أخرى. ولكن هل الهيكل الذي نشأ عفويًا من تعقيد الثورة الصناعية هو في الواقع أفضل طريقة لإدارة شؤوننا؟

وفقاً لبرلين سلاتري من جامعة يورك في تورونتو بكندا، فالدول القومية لا تزال تزدهر على نطاقٍ واسعٍ باعتقاد أن "العالم مصنوعٌ بشكلٍ طبيعيٍّ من مجموعاتٍ وطنيةٍ أو قَبَلِيَّةٍ تحتل أجزاءً منفصلةً من الكرة الأرضية، وتطالب أغلب الناس بتقديم فروض ولائهم لساتها و سدنتها."

ولكن الأبحاث الأنثروبولوجية تدحض هذا الزعم لأنه وبالرجوع لوقائع التاريخ يتبين لدينا أن المجتمعات القبلية امتلكت رصيذاً وفيراً من التعددية العرقية والثقافات الجمعية على أراضيها فأصبح تعدد اللغات أمراً شائعاً فاستمدت اللغات والثقافات حمايتها من تنوعها واختلافها.

وعلاوةً على ذلك، يملك الناس حساً بالانتماء إلى مجموعاتٍ مختلفة استناداً على المنطقة التي يعيشون بها، والثقافة السائدة بينهم ووحدة خلفياتهم الاجتماعية وعليه فإن انتشار الزعم القائل بأن هوية الشخص وخيره يتصلان مركزياً بمنفعة الجموع هو زعمٌ خاطئٌ تدحضه وقائع التاريخ ببساطة."

ربما ليس من المستغرب إذاً، فشل نموذج الدولة القومية في كثيرٍ من الأحيان: منذ عام 1960 كانت هناك أكثر من 180 حرباً أهليةً في جميع أنحاء العالم.

وكثيراً ما اتهمت هذه الصراعات التوترات العرقية أو الطائفية. والدول الفاشلة، مثل سوريا في الوقت الراهن، عادةً ما يمزقها العنف على طول هذه الخطوط. وفقاً لفكرة أن الدول القومية يجب أن تشتمل على أمةٍ واحدةٍ فقط، وكثيراً ما يُلقى باللوم في هذه الإخفاقات على الإرث الاستعماري في جميع العديد من الشعوب داخل حدودٍ غير طبيعيةٍ.

ولكن مقابل سوريا أو العراق هناك سنغافورة أو ماليزيا أو تنزانيا، وهي دولٌ حالها على ما يُرام على الرغم من وجود بضع مجموعاتٍ "وطنيةٍ". الدول المهاجرة في أستراليا والأمريكيتين، على حدٍ سواء، أقامت الدولة الواحدة من التنوع الأولي الهائل.

ما الفرق؟ في حين اتضح بأن العرق واللغة مهمة، فإن ما يهم حقاً هو البيروقراطية. وهذا واضح في مصائر مختلفة للدول المستقلة التي ظهرت عندما تلاشت إمبراطوريات أوروبا في الخارج بعد الحرب العالمية الثانية.

وفقاً للأساطير القومية، كل ما يلزمهم هو الأرض، والعلم، وتشكيل حكومة وطنية واعتراف الأمم المتحدة. في الواقع ما يحتاجونه فعلاً هو البيروقراطية المعقدة.

بعض المستعمرات السابقة التي كانت واحدة أصبحت ديمقراطيات مستقرة، لا سيما الهند. والبعض الآخر لم يستقر، لا سيما تلك التي مثل الكونغو البلجيكية سابقاً، والتي استخرج حكامها الاستعماريون مواردها. أصبح العديد من هذه المستعمرات ديكتاتوريات، وهذا يتطلب بيروقراطية أبسط بكثير من الديمقراطيات.

الديكتاتوريات فاقمت الصراع العرقي لأن مؤسساتها لا تشجع تحديد المواطنين على أساس الدولة. في مثل هذه الحالات، يلجأ الناس للتحالفات الموثوقة استناداً للقرابة، التي تثير بسهولة ولاءات دنبار الشبيهة. الحكومات غير الآمنة المتحالفة مع الجماعات العرقية تفضل نفسها في حين تنمو المظالم بين الفئات المهملة – والصراع الناتج يمكن أن يكون شرساً.

البحوث الحديثة تؤكد أن المشكلة ليست في التنوع العرقي في حد ذاته، ولكن عدم توفر الشمولية الرسمية. البلدان ذات التنوع العرقي التاريخي القليل، عليها أن تعلم أنها على متن الطائرة مع هجرة الناس للعثور على وظائف في ظل الاقتصاد الحديث القائم على العولمة.

كيف يعتمد ذلك على ما إذا كان الناس ينفصلون ذاتياً.. البشر يحبون البقاء حول أناسٍ مثلهم. والتجمعات عرقية يمكن أن تكون نتيجة. وقد استخدمت جنيفر نيل من جامعة ولاية ميشيغان في إيست لانسينغ النمذجة القائمة على وكيلٍ للنظر في تأثير هذا في أحياء المدينة. ويشير عملها إلى أن المعامل تعزز التماسك الاجتماعي، ولكن على حساب تراجع التسامح بين الجماعات. جيوبٌ صغيرة على مقربةٍ قد تكون الحل.

ولكن على أي مقياس؟ يقول بار يام: المجتمعات التي يمتزج فيها الناس جيداً – مثل سنغافورة المسالمة، يُحبط نشوب قلاقل بين العرقيات فيها لتجانس أبنائها- لا تميل أن يكون الصراع عرقياً.. يمكن أيضاً للجيوب الأكبر تعزيز الاستقرار. باستخدام نماذج رياضية لربط حجم الجيوب مع حوادث الصراع العرقي في الهند وسويسرا ويوغوسلافيا السابقة، وُجد أن الجيوب على بعد 56 كيلومتراً أو

أكثر اتساعاً، جُعِلت لأجل التعايش السلمي - وخاصةً إذا كان يفصل بينها الحواجز الجغرافية الطبيعية، على سبيل المثال الكانتونات الـ 26 السويسرية، والتي لها لغاتٌ ودياناتٌ مختلفةٌ، تلي اختبار الاستقرار المكاني لبار يام - ما عدا واحدةً . وهي جيْبٌ ناطقٌ بالفرنسية في برن الناطقة بالألمانية الذي شهد اضطراباتٍ كبيرةً هي الوحيدة في التاريخ السويسري مؤخراً. جرى حلها بجعلها كانتوناً منفصلاً، هو "جورا"، الذي يلي المعايير.

مرةً أخرى، على الرغم من أن العرق واللغة ليست سوى جزءٍ من القصة يرى لارس اريك سدرمان من المعهد الاتحادي السويسري للتكنولوجيا في زيوريخ بأن الكانتونات السويسرية حققت السلام ليس عن طريق التعديل الجغرافي للحدود، ولكن من خلال الترتيبات السياسية التي أعطت الكانتونات قدراً كبيراً من الاستقلالية والمشاركة في اتخاذ القرارات الجماعية.

وبالمثل، باستخدام قاعدة بياناتٍ جُمِعت مؤخراً لتحليل الحروب الأهلية منذ عام 1960، يجد سدرمان أن الصراع هو في الواقع أكثر عرضةً في البلدان التي هي أكثر تنوعاً عرقياً. ولكن التحليل الدقيق يؤكد أن المشاكل تزداد ليس بسبب التنوع لوحده، ولكن عندما تُستبعد مجموعاتٌ معينةٌ منهجياً من السلطة.

وكانت حكومات السياسة القائمة على العرق ضعيفةً بالخصوص. عينت الولايات المتحدة مثل هذه الحكومة في العراق بعد غزو عام 2003. فأدى استبعاد السنة من قبل الشيعة بالمتمردين إلى إعلان دولةٍ سنويةٍ في الأراضي المحتلة في العراق وسوريا. تماماً مثل أساطير الدولة القومية، فإنه يرفض الحدود الاستعمارية للعراق وسوريا، إذ تُجَبَّر "الدول" غير المتشابهة للاجتماع معاً.

التطهير العرقي

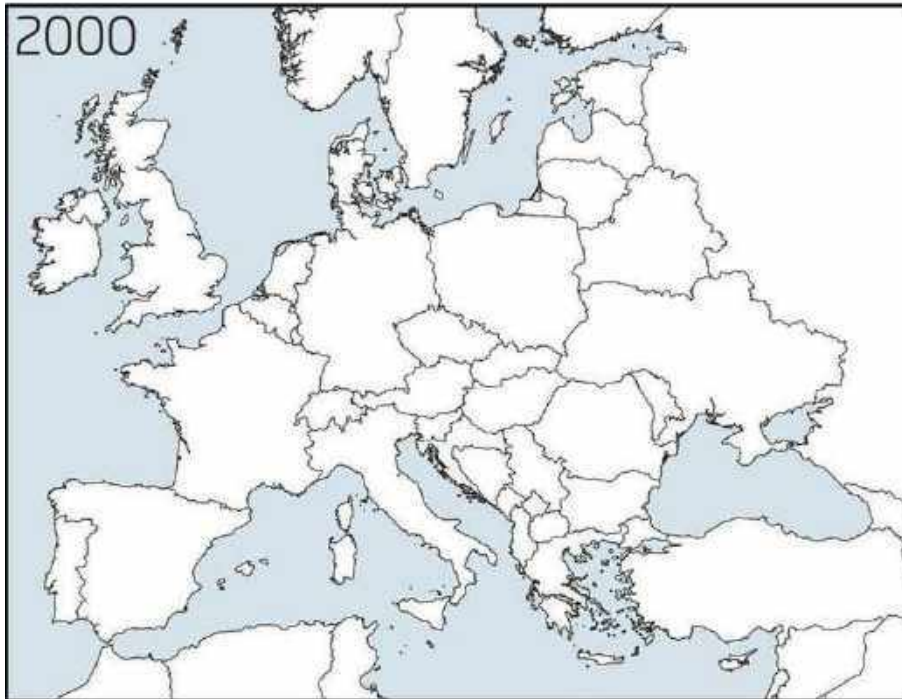
ومع ذلك، فإن الحل لا يمكن أن يفرض التماثل العرقي. تاريخياً، كان يسمى التطهير العرقي دمويّاً بشكلٍ فريدٍ، والتوحيد "الوطني" ليس ضماناً للانسجام. في أي حالٍ، ليس هناك تعريفٌ جيدٌ لمجموعةٍ عرقيةٍ. أعراقٌ كثيرٌ من الناس مختلطةٌ وتتغير مع الطقس السياسي: الأرقام التي تُدعى أنها ألمانيةٌ في الأراضي التشيكية والسوديت التي ضمها هتلر تغيرت تغيراً كبيراً قبل وبعد الحرب. مطالبات روسيا للناطقين بالروسية في شرق أوكرانيا قد تكون واهيةً الآن على حدٍ سواء.

بحوث كلٍّ من بار يام وسدرمان تشير إلى إجابةٍ واحدةٍ على التنوع داخل الدول القومية: نقل السلطة للمجتمعات المحلية، مثلما فعلت الدول متعددة الثقافات مثل بلجيكا وكندا.

ويقول سلاتري: نحن بحاجةٍ إلى مفهوم الدولة بوصفها المكان الذي قد تكون فيه الانتماءات المتعددة واللغات والأديان آمنةً وتزدهر، ”وأضاف “ها هي تنزانيا المثالية قد احتضنتها ويبدو أنها تعمل جيداً إلى حدٍ معقولٍ.” تنزانيا لديها أكثر من 120 مجموعةً عرقيةً وحوالي 100 لغةً.

في النهاية، ما قد يهم أكثر من العرق أو اللغة أو الدين هو المقياس الاقتصادي. النطاق اللازم لتحقيق الازدهار قد تغير مع التكنولوجيا – إستونيا الصغيرة الفائزة بالتكنولوجيا الفائقة – ولكنها دولةٌ صغيرةٌ لا تزال بحاجةٍ لقوةٍ اقتصاديةٍ كافيةٍ للمنافسة.

وهذه أحد الأسباب التي تجعل إستونيا عضواً متحمساً للاتحاد الأوروبي. بعد حروبٍ مدمرةٍ في القرن الـ20، حاولت الدول الأوروبية منع المزيد من الحروب من خلال دمج صناعاتها الأساسية. هذا المشروع، الذي أصبح الاتحاد الأوروبي، الآن وفي المقام الأول يقدم الدول الأعضاء في اقتصاديات السوق الواحد، من خلال التصنيع والبيع في أكبر سوقٍ في العالم.



ما أفشل الاتحاد الأوروبي في إلهامه هو شكل الولاء القومي - الذي في الوقت الحاضر يعتقد Maleševic أنه يعتمد على مظاهر القومية الاعتيادية للرياضة، الأناشيد، نشرات الأخبار في التلفزيون، وحتى مسابقات الأغنية. وهذا يعني أن تحديد ولاءات الأوروبيين لم يُعد مع الوحدة السياسية التي تعالج الكثير من حكومتهم.

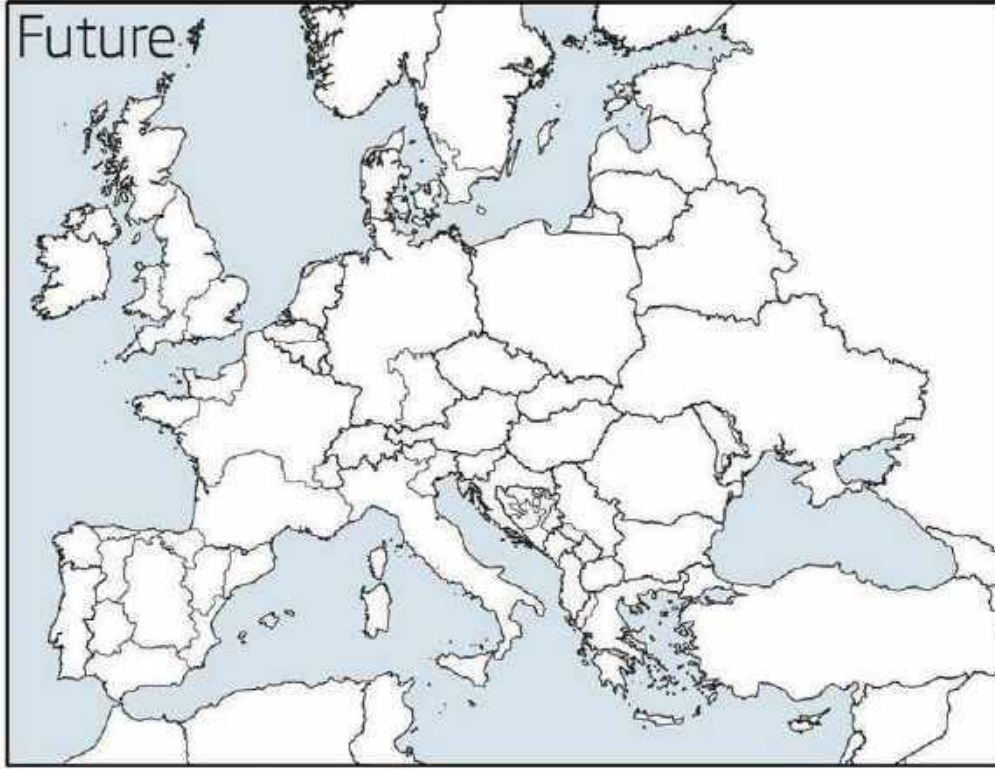
ومن المفارقات، يقول جان زيلونكا من جامعة أكسفورد، قد أنقذ الاتحاد الأوروبي الدول القومية في أوروبا، والتي هي الآن صغيرة جداً للتنافس بجدّة. دعوة الأحزاب القومية إلى "استعادة السيطرة على السلطة من بروكسل"، كما يقول، من شأنه أن يؤدي إلى بلدانٍ أضعف، وليس أقوى منها.

إنه يرى مشكلةً مختلفةً. تَمَّت الدول القومية من التسلسلات الهرمية المعقدة للثورة الصناعية. وأضاف الاتحاد الأوروبي طبقةً أخرى إلى التسلسل الهرمي - ولكن دون التكامل الأساسي الكافي لممارسة السلطة الحاسمة. إنها تفتقر إلى كل شروط Maleševic اللازمة في: الأيديولوجيا القومية والبيروقراطية المدججة والمتفشية.

وحتى مع ذلك، يمكن للاتحاد الأوروبي أن يشير إلى الطريق الذي سيبدو عليه عالم ما بعد الدولة القومية.

يتفق زيلونكا أن هناك حاجةً إلى مزيدٍ من التكامل بين النظم الحاكمة في أوروبا عندما تصبح الاقتصادات أكثر ترابطاً. لكنه يقول غالباً ما يفشل شلل التسلسل الهرمي في أوروبا في تحقيق ذلك. وبدلاً من ذلك يرى استبدال التسلسل الهرمي لشبكات المدن والمناطق وحتى المنظمات الأهلية أو منظمات المجتمع المدني. أنصار النظرية أسموها القرون الوسطى الجديدة.⁽¹⁾

(1) الأمر لا يتعلق بالقرون الوسطى بل بتقسمة تاريخ السياسة ومدارسها فيها والقرون الوسطى عامة تبدأ بـ 476 و تنتهي بـ 1453 بفتح القسطنطينية على يد مُجد شلي الثاني "مُجد الفاتح". أو ما يُسمى في التاريخ الأوروبي والقبطي بـ "سقوط القسطنطينية".



ويقول زيلونكا "إن الهيكل المستقبلي وممارسة السلطة السياسية سيشبه طراز القرون الوسطى أكثر من طراز ويستفاليا" ويضيف. "هذا الأخير هو حول تركيز السلطة والسيادة والهوية واضحة المعالم." ومن ناحية أخرى القرون الوسطى الجديدة، تعني السلطات المتداخلة، السيادة المقسّمة، والهويات المتعددة ومؤسسات الحكم المختلفة، والحدود غير الواضحة.

"إن مستقبل ممارسة السلطة سوف يشبه طراز القرون الوسطى".

آن ماري سلوتر من جامعة برينستون، مساعدة وزير الخارجية الأمريكي السابق، ترى أيضاً أن الهرمية تفسح المجال للشبكات العالمية في المقام الأول من الخبراء والبيروقراطيين من الدول القومية. على سبيل المثال، تعمل الحكومات الآن أكثر من خلال شبكات مرنة مثل (G7 أو 8 أو 20) لإدارة المشاكل العالمية من خلال التسلسل الهرمي للأمم المتحدة.

إيان غولدين، رئيس مدرسة أكسفورد مارتن في جامعة أكسفورد، الذي يحلل المشاكل العالمية، يعتقد بأن مثل هذه الشبكات عليها الظهور. إنه يعتقد أن المؤسسات القائمة مثل وكالات الأمم المتحدة

والبنك الدولي غير قادرة هيكلياً على التعامل مع المشاكل التي تنشأ من الترابط العالمي، مثل عدم الاستقرار الاقتصادي، والأوبئة، وتغير المناخ والأمن السيبراني - ويرجع ذلك جزئياً أنه تسلسل هرمي للدول الأعضاء التي لا يمكنها التعامل بنفسها مع هذه المشاكل العالمية. واقتبس: "مشاكل الشبكات تتطلب استجابةً شبكيةً."

مرةً أخرى، السلوك الأساسي لنُظَم وحدود العقل البشري يفسر لماذا. لقد لاحظ بار يام أنه في أي تسلسل هرمي، يجب على الشخص في الأعلى أن يكون قادراً على جعل رؤوسهم حول النظام برمتهم. عندما تكون الأنظمة معقدة للغاية بالنسبة لفهم أحد العقول البشرية، يجب أن تتطور التسلسلات الهرمية إلى الشبكات التي لا يوجد فيها شخص واحد هو المسؤول.

أين سيضع هذا الدول القومية؟ قال بورلي: "ستبقى الحاويات الرئيسية للطاقة في العالم"، وقال نحن بحاجة إلى قوتها من أجل الحفاظ على الأمن الشخصي الذي سمح للعنف البشري أن ينخفض إلى أدنى مستوى له على الإطلاق.

وعلاوةً على ذلك، يقول داني رودريك من معهد برينستون للدراسات المتقدمة: الاقتصاد المعولم جداً الذي يسمح لهذه الشبكات بالظهور يحتاج لشيءٍ أو شخصٍ ما لكتابة وتطبيق القواعد. الدول القومية هي حالياً الكيانات الوحيدة القوية بما فيه كفاية للقيام بذلك.

حدودها أصبحت واضحةً، على حدٍ سواء في حل المشاكل العالمية وتسوية النزاعات المحلية. قد يكون أحد الحلول دفع المزيد من الانتباه إلى حجم الحكومة. المسماة بالتبعية، هذا هو المبدأ الأساسي للاتحاد الأوروبي: فكرة أن الحكومة ينبغي أن تعمل في المستوى الذي هو أكثر فاعليةً، مع الحكومة المحلية للمشاكل المحلية والسلطات العليا لموازين أعلى. هناك أدلةٌ تجريبيةٌ على أنها فعالة: النظم الاجتماعية والبيئية يمكن أن تكون أفضل تحكماً عندما يكون مستخدموها منظمين ذاتياً على أن تُشغَّل من قبل قادة خارجيين.

ومع ذلك، فمن الصعب أن نرى كيف يمكن أن يتطور نظامنا السياسي تطوراً متماسكاً في هذا الاتجاه. الدول القومية يمكن أن تقوم في طريق كلٍ من الانتقال للسيطرة المحلية والشبكات لتحقيق الأهداف العالمية. مع تغير المناخ، يمكن القول بأن لديهم ذلك بالفعل.

هناك بديلٌ للتطور نحو عالمٍ تسوده العولمة المتشابكة الشبكات، في القرون الوسطى الجديدة أولاً، وهذا هو الانهيار. يقول مارتن شيفر من جامعة فاغينينغن في هولندا. “معظم النُظم الهرمية تميل إلى أن تصبح أكثر ثقلًا، ومكلفةً وغير قادرةٍ على الاستجابة للتغيير”، “إن التوتر الناجم يجوز نشره من خلال انهيارٍ جزئيٍّ”. بالنسبة للدول القومية، التي يمكن أن تعني أي شيءٍ من تجديدهم تفوق المدن إلى الفوضى على غرار العراق. وهو احتمالٌ غير مؤكد، ولكن هناك انهيارٌ رأساً على عقب. يقول البعض، هو التدمير الخلاق الذي يسمح لهياكل جديدةٍ بالظهور.

شئنا أم أئينا، قد تمر مجتمعاتنا بالفعل بهذه المرحلة الانتقالية. لا يمكننا أن نتصور بعداً أنه لا توجد دولة. ولكن الاعتراف بأنها حلولٌ مؤقتةٌ لمواقف تاريخيةٍ معينةٍ يمكن أن يساعدنا فقط على إدارة المرحلة الانتقالية إلى ما نحن بحاجة مستقبلاً. سواءً عانت دولنا أم لم تعان، فإن الهياكل التي من خلالها نحكم شؤوننا من المقرر أن تتغير. حان الوقت لنبدأ في التخيل.

القائد: “في عالمنا لما بعد القومية، المستقبل للعصور الوسطى.”

الخاتمة

انتهى بحمد الله الجزء الثاني من كتاب "القطوف" لصيد المقالات التي نشرت منذ عام (1438هـ إلى عام 1443هـ) (2016م إلى 2021م) فيما يخص السياسة والتاريخ وشؤون الصراع والاستراتيجية، حرصت فيه على تقصي الحقائق وجمع المعلومات وربطها على طريقة البحث والاستقصاء والتحليل، في سبيل استخراج الخلاصات المهمة التي يمكن أن تصب في صالح انبعاث هذه الأمة من جديد وتصنع الوعي للحد من مكائد الأعداء أو تكرار تجارب الفاشلين فضلا عن طرح الحلول الشاملة التي يرتبط بها مصير المسلمين في كل مكان، فما كان من خير وصواب فمن الله وحده سبحانه وما كان من خطأ أو نسيان فمن نفسي ومن الشيطان، أسأل الله أن ينفع بهذا الجمع ويغفر كل تقصير أعلمه ولا أعلمه ويهدينا سبيله سبحانه وتعالى هو مولانا، نعم المولى ونعم النصير.

اللهم صلّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن استن بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

ليلي حمدان